كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثاني: باب ذكر الأهواء المذمومة (2)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل العظيم كتاب السنة لابن أبي عاصم، الاعتصام لا يكون إلّا بالسنة.

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمدٍ بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً، وبعد:

وعن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لعائشة: (يا عائشة، إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً، إنهم أصحاب البدعة

والأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة. يا عائشة، إن لكل صاحب ذنبٍ توبة غير أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني براء).

الشيخ يضعّف الإسناد، كان فيه علل، هو بيّن العلة؛ فيه مجالد وبقية:

◆ صراحةً بقية ليس علة في الحديث، الصحيح الراجح في بقية بن الوليد أنه ثقة، كما قال الذهبي في الكاشف: هو ثقة، تحدّث عن الثقات وصرّح بالسماع. فبقية ليس بعلة، علة بقية هو التدليس (العنعنة) فقط؛ إذا لم يصرّح بالتحديث فهذه هي العلة التي يؤخذ بها. لذلك قالوا: أحاديث بقية ليست نقية، فكن منها على تقية؛ لأنه إذا لم يحدّث وعنعن دلّس، ومن أشر التدليس "تدليس التسوية".

الغرض المقصود أن الشيخ جعل علل ضعف الحديث هو مجالد وأيضاً بقية.

◆ أمّا مجالد فإسناده إسناد مقارب (مجالد بن سعيد)؛ النسائي وثّقه وضعّفه، جاءت رواية على التضعيف ورواية بالتوثيق، وهو يصلح للاعتبارات، وسنبيّن أن هذا الحديث الذي سنشرع في شرحه، له شواهد وله آثار تعضّده وتبيّن أن الله جلَّ وعلا حجب التوبة ولم يسدد ولم يوفق صاحب البدعة للتوبة، حجب عنه التوبة جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً، هذه في الدنيا، ليلقى بها الله جلَّ في علا في الآخرة كما سنبيّن.

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا هذه الآية: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ) [آل عمران:7]، حتى فرغ منها. قال: (قد سمّاهم الله تبارك وتعالى، فإذا رأيتموهم فاحذروهم).

وعن أبي بكرٍ -رضي الله تعالى عنه-: روي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (عليكم بلا إله إلّا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار، فلمّا رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء، وهم يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون).

طبعا هذه آثار وردت تقوّي هذا المعنى، لكنها كلها إمّا موقوفات وإمّا مقطوعات؛ موقوفات على بعض الصحابة، والأكثر منها مقطوعات كما ورد عن أيوب السختياني وغيره: أنه بيّن أن الشيطان لبّس على صاحب الهوى فرأى عمله السيء حسناً.

فعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكن بالتحريش بينهم).

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- من صفات أهل البدع كما في الحديث الثاني، أنهم شيعاً متفرقين أوزاعاً أو أوباشاً أو أشواباً أخلاطاً، ليسوا على قلب رجلٍ واحد، كما وصفهم الله ووصفهم رسوله -صلى الله عليه وسلم-: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ) [الحشر:14]. وقبل أن ندخل في الكلام على درر من مسائل في هذا الحديث العظيم وهو حجب التوبة عن المبتدع، أيضاً الكلام على براءة النبي -صلى الله عليه وسلم- منهم، لا بد علينا أن نعرف أولاً البدعة ومكانة البدعة من الدين.

- البدعة لغةً: هي الطريقة المستحدثة على غير مثال سابق، البدعة كمّا عرفها كثير من أهل اللغة وفي اللسان لابن منظور: هي كل محدثة أيّدها بعضهم على غير مثال سابق. واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [البقرة:117]، يعني فاطر، يعني خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق.

- أمّا في الشرع هي لها تعاريف كثيرة جداً؛ للعز بن عبد السلام، النووي، الشاطبي، وابن تيمية وغيرهم من أهل السنة والجماعة. كل عملٍ ليس على مثل عمل عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو بدعة، هذا قول النووي وقول العز بن عبد السلام. قول شيخ الإسلام ابن تيمية: كل ما خالف الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة والجماعة فهذا من البدع في الدين. فأجمع التعاريف أن نقول:

البدعة: هي طريقة في الدين مخترعة، يضاهى بها الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التقرب إلى الله جلَّ في علاه.

"هي طريقة في الدين مخترعة"؛ يعني ليست على مثال سابق، ما كانت على عهد رسول الله، ما كانت على عهد صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"يضاهى بها الشرعية"؛ يعني تشابه الشرع، صلاة كصلاة، صيام كصيام، طواف كطواف، فيضاهى بها الشرع.

"يقصد بالسلوك عليها"؛ المتعبد بها الذي يقول أنا أفعل ذلك لله جلَّ في علاه، أفعل ذلك أريد الخير يرد عليه، وكم من مريدٍ للخير لم يبلغه.

"يقصد بالسلوك عليها زيادة والمبالغة في التقرب الى الله جلَّ في علاه"؛ وصدق ربي حين يقول: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27].

والبدعة ضلالة، والبدعة مذمومة مآلاً وعاجلاً، في الدنيا وفي الآخرة، وصاحبها مأزور غير مأجور. قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في مسند أحمد بسندٍ صحيحٍ عن العرباض بن سارية، أنه قال -صلى الله عليه وسلم-: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعة). وأيضاً قال في رواية في النسائي: (كل بدعةٍ ضلالة)، وزاد: (وكل ضلالة في النار)، والعياذ بالله.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين عن عائشة: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، وفي رواية قال: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد). وأيضاً في صحيح عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-: (لعن الله من غير منار الأرض، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً)، والعياذ بالله.

وورد في السنة أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فمن رغب عن سنتي فليس مني) هذا محل الحديث، والشاهد له: (فإني منهم براء) يعني البراءة منهم. وأيضاً في الصحيح عن عبدالله بن مسعود عندما قال عن حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لأذودنَّ عن حوضي الناس، وليختلجنَّ من على

الحوض أناس، فأقول: أصحابي، أصحابي. فيقال: يا محمد، لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً، بعداً بعداً، لمن بدّل بعدي)

وفي سنن الدارمي وفي غيره من السنن سنن أبي منصور والمصنفات، فيها كثير من هذه السنن بأسانيد صحيحة؛ عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: كل محدثةٍ بدعة، وعليكم بالأمر الأول. وقال أيضاً: عضوا على العلم بالنواجذ، أو قال: سارعوا إلى أهل العلم قبل أن يُقبض العلم، فإن العلم لا يُقبض إلّا بقبض العلماء، وعليكم بالأمر الأول، أو قال: وعليكم بالأمر العتيق.

وقال ابن عمر أيضاً بسندٍ صحيح: كل محدثةٍ بدعة، أو قال: كل بدعةٍ ضلالة ولو رآها الناس حسنة؛ يعني لو رآها سائر الناس أنها حسنة وزادت في الخير خيرات، لا، هذه ضلالة لأنها مخالفة لما كان عليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما كان عليه صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وأيضاً عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- قال: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم. وفي سندٍ صحيح عن ابن عباس؛ جاءه رجل يسأل عن الاستقامة أو قال: أوصني، فقال له ابن عباس: عليك بالاستقامة، عليك بتقوى الله والسمع والطاعة، وإياك ومحدثات الأمور. فكل هذه تنفّر من المحدثات، من البدع الضلال. وقد قال الإمام مالك -رحمة الله عليه-: إذا قبض العلم ظهر الجفا، وإذا ظهر الجفا ظهر أهل الأهواء، وإذا ظهر أهل الأهواء لزوماً لا بد أن تظهر البدع والضلالات؛ فكل بدعة مذمومة وصاحبها مأزور غير مأجور.

عقوبة أهل البدع عقوبة دنيوية وعقوبة أخروية، وإن كان الله جلَّ في علاه يزيّن لهم سوء هذه الأعمال ويعطي لهم من الدنيا، لأن في بعض الآثار وإن كانت ضعيفة: (إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، أمّا الدين لا يعطيه الله جلَّ في علاه إلّا لمن أحب)؛ يخصه الله جلَّ في علاه لمن أحب. فيمكن أن يفرش الله لهم من أمور الدنيا، لكن المآل وخيم عند الممات، كما قال الإمام أحمد: بيننا وبين أهل البدع الجنازات.

الفرق عند الممات؛ عند الممات لا يوفق إلى لا إله إلّا الله، لا يوفق إلى خاتمة حسنة، وأيضاً في المآل عند رب السموات سبحانه جلَّ في علاه.

١- أولاً من هذه العقوبات حجب التوبة هذا الذي صرّح فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث عائشة، حجب التوبة عن صاحب البدعة. والروايات التي تعضد هذه الرواية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (حجب الله التوبة عن كل صاحب بدعة ما لم يدع بدعته)، أو في رواية قال: (حجب الله التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته). انظروا إلى هذه العقوبة الشديدة الأليمة الجسيمة من الله جلَّ في علاه يحجب التوبة مع أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وهنا يظهر لنا إشكال عظيم جداً؛ الله جلَّ في علاه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا الذي ضاعت عنه راحلته وانتظر الموت)، هذا الذي ينتظر الموت بعد ما جاءت الراحلة ماذا قال؟ قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. يقول لله جلَّ في علاه من شدة الفرح برجوع ماء الحياة له، هذه الفرحة التي يفرحها الله جلَّ في علاه، ومع ذلك يحجب التوبة عن عبدٍ من عباده. هذا إشكال عظيم جداً، لا يمكن التوافق، كيف نوفق بينهم؟ كيف الله جلَّ في علاه الذي يحب التوبة من عباده ويمهّد لهم الطرق للتوبة يحجب التوبة عن صاحب البدعة؟

أولاً نستنبط أن صاحب البدعة مبغوض عند ربه جلَّ في علاه، مطرود من رحمته، ملعون كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعن الله من آوى محدثاً)، فإنه عند ربه جلَّ في علاه غير مرضي. فنقول: الله جلَّ في علاه حجب التوبة عن هؤلاء لبغضه لهم، لكنه يحب التوبة، فكيف نوفق بين هذه الأحاديث؟ يحب التوبة وهو أشد فرحاً من فرح هذا الرجل الذي أخطأ وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، ومع ذلك يحجب التوبة عن عباده؟ هذا إشكال عظيم؟

لنعلم عظم العقوبة، هذه العقوبة ليست بالهينة، أن الله يحجب عن امرئٍ التوبة ويختم له بهذا العمل السيء، فإن الأعمال بالخواتيم، وهذه فيها دلالة على أن المبتدع عند ربه

لا بد أن يعاقب وعقوبته ليست بالهينة. كثير من أهل البدع منهم على كفر كما بيّنا، طبعاً لا نتجرأ على هذه المسألة، لكن نقول البدعة كما فصّلها العلماء: بدعة مكفرة وبدع مفسقة، وسيأتي إن شاء الله تفصيلها. لكن الغرض المقصود العقوبة وخيمة، ليست بالهينة، أن الله سيختم عليه في الدنيا بالسيئات، لأنه حجب عنه التوبة.

ننظر لِمَ حجب الله التوبة مع أنه يحب التوبة؟

المسألة في الإرادة الكونية والإرادة الشرعية؛ يعني أن الإرادة الكونية أبت على هؤلاء التوبة، والإرادة الشرعية تفتح لهم أبواب التوبة على مصراعيه. يضم لك هذا لتفهمه قول الله تعالى: (إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [الزمر:7]، إذاً الله جلَّ وعلا يرضى بالإرادة الشرعية؛ التوبة والإسلام والإنابة والسجود والركوع لله جلَّ في علاه. والإرادة الكونية أبت لحكمة، لأن الله جلَّ في علاه يغار أن يضع الشيء في غير موضعه.

نرجع لكلام الإخوة هنا عندما نقول: فإن صاحب البدعة قد ألّه نفسه مع الله، وطعن في الرسول -صلى الله عليه وسلم- ضمناً، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يأتِ بهذه العبادة وأتى هو بها، فطعن في بيان النبي -صلى الله عليه وسلم- وطعن في تبليغِ النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً هو دخل في باب الإلهية ودخل في باب الرسالة:

- أمّا في باب الإلهية فإن الله جلَّ في علاه يقول: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]، وقال الله تعالى: (لا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، التشريع كله لله جلَّ في علاه، فكيف تنصب نفسك مع الله إلهاً تشرّع تشريعاً لم يأتِ به الله جلَّ في علاه ولم ينزّل الله به من سلطان؟

- الطعن الثاني في الرسالة أنهم بلسان الحال؛ طبعاً هذا لازم قولهم، واضبطوا هذه المسألة لازم القول ليس بقول، لا أحد يذهب لواحد ويقول له: أنت إله مع الله نصّبت نفسك إله، لا، هذا لازم القول، نحن نحلل المسألة علمياً.

▪ أيضاً ضمناً يطعنون في تبليغ النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67]، وهم يقولون لم يبلغ تمام البلاغ. والله جلَّ وعلا يقول: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]، ويقولون لا لم يبيّن، لأنهم بيّنوا بعده بهذه العبادات التي أتوا بها محدثةً مبتدعة، فإذاً هم طعنوا في باب الإلهية، دخلوا فيه وطعنوا في باب الرسالة.

فكان الله جلَّ وعلا من غيرته ألّا يضع هذه التوبة، التي هي من أحب ما تكون له في قومٍ لا يعقلون هذا ولا يريدون هذا، هذا الباب الأول.

٢- الباب الثاني أن الله جلَّ في علاه قال: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36]، فهم أحق الناس بأن يحجب عليهم التوبة لما علم الله من قلوبهم بالتكبر والإصرار، ويؤيد ذلك قول الله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)، ارتعبوا فزعوا قلوبهم ارتجفت، (ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا) [آل عمران:135]، هنا الإصرار دلالة على الكبر.

كما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على الرجل وهو يأكل بالشمال، لا يعلم فأعلمه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال له: كُلْ بيمينك؛ يعني أقول لك أنت لا تعلم أن الأكل بالشمال لا يصح، أعلمك الآن (النبي -صلى الله عليه وسلم- المعلم) كُلْ بيمينك. فنظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- كأنه يقول: من هذا الذي يعلمني؟ فقال له: لا أستطيع، ما منعه إلّا الكبر. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا استطعت، فشلت يده، قال: (ما منعه إلّا الكبر).

فهؤلاء أصروا على ما فعلوا، بعدما أظهر الله لهم الدلالات الباهرات فلم يأخذوا بها واتبعوا هواهم، استحبوا العمى على الهدى كما قال الله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]. فلمّا هؤلاء استحبوا البدعة على السنة، وآثروها على السنة للأهواء والمكانات والأبواق التي خلفهم والأضواء التي تسلط عليهم، قالوا: نترك هذا؟! لا، نحن على ما نحن فيه، وهذا هو الدين.

٣- فالله جلَّ في علاه عاقبهم العقوبة الثالثة المستلزمة الاستدراج.

انظروا العقوبة الأولى الحجب، الثانية الإصرار، الله جلَّ في علا يختم لهم بالسيئات في الدنيا. الثالثة الاستدراج؛ وهذا الاستدراج هو أصعب ما يكون، العقوبة الوخيمة حجب التوبة، والأوخم منها والأشد إعظاماً هو أن الله جلَّ في علاه يزيّن لهم أعمالهم ويدخل في قلوبهم أنهم على الحق المبين، وغيرهم على الضلال المبين.

ولذلك قال الله تعالى: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) [محمد:14]. فالله جلَّ في علاه جعل هؤلاء مزيّنة لهم هذه الأعمال حتى لا يتوبوا منها، لِمَ؟ ليختم لهم بالسيئات -والعياذ بالله-، والمرء يبعث على ما يختم عليه من الأعمال.

فهذه العقوبة من الله جلَّ في علاه لهؤلاء المبتدعة؛ حجب التوبة مع الاستدراج العظيم، مع بيان أمرهم بأن تفتح لهم أمور الدنيا، هذه في الدنيا. وتختم لهم بالسيئات تأتي العقوبة الأخروية، وهو الحجب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ أحوج ما يكونوا إلى القرب منه عندما تقترب الشمس من الرؤوس قدر ميل أو قدر شبر، ويحتاج كل امرئٍ من العطش الشديد الذي يصيبهم إلى شربة ماء تبل هذا العطش الشديد؛ إن الله كما استدرجهم في الدنيا فزيّن لهم سوء أعمالهم، استدرجهم في الآخرة على أنهم امتلكوا الحوض وسيشربون منه ثم ينزعون، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإني لأذودنَّ عن حوضي، ثم ليختلجنَّ أناس).

وقفوا هم مع رسول الله، هم من أحباب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يأخذون بالكيزان ليشربوا، ثم تأتي الملائكة فتخطف هؤلاء من بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيتألم لهم ألماً شديداً ويقول: (ربي أصحابي أصحابي. فيقال: يا محمد لا تدري ما أحدثوا بعدك)، فماذا يحدث يدعو عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ أحوج ما يكونوا للشفاعة، يدعو عليهم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ويمنعوا الشفاعة ويمنعوا الدعاء، فيقول: (سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي، بعداً بعداً لمن بدّل بعدي).

هذه الواسطة بين الدنيا والآخرة، خاتمتها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تبرأ منهم. ولا يتبرأ منهم إلّا سني، ولا يجاملهم ولا يقف معهم إلّا مبتدع ضال؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد تبرأ، ونحن براء مما تبرأ منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عندما ختمها وقال: (هم مني براء وأنا منهم براء).

وهنا نقول لا بد من التفصيل؛ تبرأ منهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً هم على الكفر؟! لا والله، ولا يستطيع أحد ان يتجرأ على هذا، لكن تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من أعمالهم، ومن تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من أعمالهم وجب علينا أن نقول العقوبة الرابعة.

٤- لا تقبل هذه الأعمال؛ إذا تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من العمل فإنه لازم ذلك ألّا تقبل الأعمال.

أولاً نفسر؛ البراءة براءتان: براءة من العمل وبراءة من الشخص نفسه

▪ أما البراءة من العمل فدلالتها كثيرة جداً؛ أما في الكتاب فقد قال الله تعالى في سورة الشعراء: (فإن عصوك) العصيان هذا لا يقبل، (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [الشعراء:216]، فهذه براءة من العمل.

روى أصحاب السير أن خالد بن الوليد -رضي الله عنه وأرضاه- قتل الأسارى بعدما أسلموا، قالوا: صبأنا صبأنا، فقتلهم، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-. فماذا قال؟ قال: (اللهم إني أبرأ إليكَ مما فعل خالد)، ما قال إني أبرأ من خالد، فهذه براءة من العمل.

تستوجب إذا قلت: "براءة من العمل ليست براءة من الشخص"، أن يكون لهذا الشخص حق عليك وهو أن تدعوه إلى السنة، أن تبيّن له هذه البدعة بالرفق واللين، تدعو له أن تنظر إليه بعين القدر وعين الشرع؛ عين الشرع: تبغض ما هو فيه وتهجر ما هو فيه. عين القدر: تبكي ألماً انه في ضياع وفي تيه، بل وتحمد ربك أنك لم تكن مثله، وتبعث

إليه بالرسائل أو تكلّمه بالرفق واللين تبيّن له الدلالات على السنة حتى يرجع إلى حوض السنة.

- براءة من الشخص نفسه، وهذه براءة الكفر ليس هذا محل الكلام عنها.

إذاً البراءة من العمل لازمها رد العمل؛ كل مبتدع ما ازداد اجتهاداً في عبادةٍ إلّا وازداد الله له بغضاً، فهو يكثر من السجود والله عليه غاضب، وهو يكثر من الصدقات إن كان مبتدعاً على سبيل المثال والله عليه غاضب. فإن أيوب السختياني قال: ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهاداً إلّا وقد ازداد من الله بعداً. ولذلك قال ابن مسعود: فقد كُفيتم، وسعكم ما وسع هؤلاء؛ دخل عليهم وهم يسبحون سبحوا مئة، كبروا مئة، هللوا مئة. فقال لهم وهو ملثم: ألا تعرفوني من أنا؟ يبيّن نفسه وعظمته ومكانته، هو صاحب رسول الله. قالوا: لا، قال: أنا أبو عبد الرحمن، أو قال: أنا ابن مسعود عبدالله بن مسعود. ما الّذي أنتم عليه؟ والله إنّكم على ملّةٍ هي أهدى من ملّة رسول الله أو مفتتحو باب ضلالة، قالوا: يا أبا عبد الرحمن والله ما أردنا إلّا الخير، فقال: وكم من مريدٍ للخير لم يبلغه.

إذاً العمل مردود، والدليل على ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، فهو باطل وإن اجتهد فيه، وإن طال صيامه، وإن طال قيامه، وإن اجتهد كل الاجتهاد. يؤجر على نيته الصالحة إن كان صالح النية، هذه عند ربه، لكن عمله مردود مأزور غير مأجور في هذا العمل.

إذاً هذا مفاد الحديث الأول الحديث العظيم المرعب لكل مبتدع ولكل مفتتح باب ضلالة.

الثاني؛ انظروا إلى السياق العظيم والجليل من هذا المصنف، يبيّن لنا بعد ما تكلم على العواقب الوخيمة للمبتدع، كأن سائلا يقول: يا رسول الله ما صفات هؤلاء المبتدعة حتى نحذر منهم؟ حتى لا يشتبه علينا أمرهم؟ حتى لا نتبعهم؟

فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: كل مبتدع له سمات، من أهم هذه السمات البغض العظيم لأهل السنة والجماعة، البغض العظيم لمن تمسّك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثم العلامة التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- علامة عظيمة جداً، أنهم يلبسون على الناس أمر دينهم؛ يأخذون بالمتشابه يستدلون به ليلبسوا على الناس أمر الدين. لن ترَ مبتدعاً بحق إلّا ومعه الدليل، ويقول عمدتي كتاب الله، مصحفي في جيبي، هو في قلبي وفي صدري، ويحتج أمام الناس بهذه الأدلة، يلبّس ويعمّي على الناس. كما قال الله تعالى يبيّن لنا أنهم يلبسون على الناس أمر دينهم، وكما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ أنهم يتبعون ما تشابه من الكتاب، يلبّسون على الناس، يأتون بالآيات ويقولون هذه الآية حجة قاطعة لنا فيما نستدل به. إذاً علامة أهل البدعة أنهم يلبّسوا على الناس أمر الدين بكتاب الله جلَّ في علاه.

وقد قال علماؤنا: القرآن حمّال، فإذا خاصمت أهل البدعة فعليك بالسنة. وهذا الذي قاله عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: إن جاءك أهل البدعة يحاجوك بكتاب الله فحجهم بالسنن، فإن أهل السنن أعرف الناس بكتاب الله جلَّ في علاه. وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا قام عليه الخوارج -كما سنبيّن-، ماذا حدث؟ قال لابن عباس: اذهب فناظرهم، ولا تناظرهم بكتاب الله جلَّ في علاه، اذهب فإن السنة الأصل لأن كتاب الله حمّال فيه محكم وفيه متشابه. وسأسأل الآن لِمَ؟ أراد الله أن يلبس على الناس؟ حاشا لله. لِمَ يجعل في الكتاب محكم ومتشابه؟

المهم علي بن أبي طالب قال لابن عباس: اذهب إلى هؤلاء الخوارج، اذهب إليهم وناظرهم بالسنة ولا تناظرهم بكتاب الله. وسمع وأطاع. ابن عباس، فذهب فناظرهم بالسنة فرجع أكثر هؤلاء مع علي -رضي الله عنه وأرضاه-، إلّا الذين تصلبوا على البدعة والضلالة والخروج على الحاكم.

نقول الآن الله جلَّ في علاه جعل المحكم والمتشابه، لِمَ؟ مع أن التدليل لا يأتي إلّا بهذا؟

- ليميز الخبيث من الطيب؛ يمحّص الله جلَّ في علاه.

- والثانية ليرتقي أهل الاجتهاد وأهل العلم، لأن أهل الاجتهاد وأهل العلم كما قال مجاهد وغيره: إذا ردوا المتشابه للمحكم ظهرت الدلالات.

الغرض المقصود هم الذين يحتجون بالمتشابه، يجرنا ذلك بشرح الحديث أن نعرّف أولاً المحكم والمتشابه.

- المحكم: كل ما ظهرت دلالته ووضحت معانيه؛ ما يحتاج لأحد يفسره، مفسّر.

- والمتشابه: كل ما احتمل معاني لا دليل على رجحان واحد فيهم، أو نقول كل ما لم تظهر دلالته ولم تتضح معانيه. المشابه له أكثر من وجه، ممكن يقول واحد هذا دليل لي، والآخر يقول لا هذا دليل لي، محتملات. فالمحتملات يحتج بها دائماً أهل البدعة، لا يحتجون بالقواطع الظاهرات.

أمثلة ذلك كثيرة تبيّن لك أن أهل البدعة والضلالة وأصول البدعة التي ذكرناها:

١- منهم الخوارج الذين يخرجون على ولاة الأمور ويكفِّرون الناس في المعاصي، هؤلاء الذين تشبثوا في الشبهات أو بالمتشابهات ولبّسوا على الناس أمر الدين، كما بيّن معجزة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قد قال الخوارج: كفر علي، -أعوذ بالله- علي بن أبي طالب ختن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ علي بن أبي طالب أسد الله وأسد رسوله وأسد السنة؟ علي بن أبي طالب زوج فاطمة؟ كفر علي؟ نعم كفر علي.

هؤلاء الخوارج؛ هذه بدعة من أنفق ما تكون، كفّروا البشر وخرجوا عليهم وقتلوا من قتلوا بزعمهم أنهم يتقربوا إلى الله بما يفعلون، هؤلاء خرجوا وكفّروا علي، قالوا كافر وعندنا الدليل. هؤلاء ما عندهم أدلة، ليست أهواء ولا ظن. ائتوا بالدليل، قالوا: قد قال الله تعالى: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة:44]، وقد حكم علي الرجال في كتاب الله، كفر بذلك حكم أبا موسى الأشعري وغيره. فانظروا إلى هذا العته العظيم، انظروا إلى هذا الجحود في آيات الله جلَّ في علاه.

أقول هؤلاء ابتدائهم وأول انطلاقة لهم كانت في غزوة حنين، عندما جلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقسّم الغنائم فدخل عليه هذا المارق ذو الخويصرة، فقال له: يا محمد، بسوء أدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، دائماً دأبهم هذا. يا محمد اعدل،

فإن هذه القسمة لا يراد بها وجه الله. فقال خالد (وفي رواية قال عمر): دعني أضرب عنق هذا المنافق، عَلِم أنه منافق لأنه يقدح في عدالة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)، او قال: (ويحك، من يعدل إن لم أعدل أنا)، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يخرج من ضئضئ هذا (أو يخرج من صلب هذا الرجل) أقوام)، انظروا إلى الصفات، هم أهل دين؛ ليل نهار قيام صيام، مع تعبد تحتقر عبادتك مع عبادتهم. فقال: (أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، تحقرون عبادتكم لعبادتهم)، أو قال: (تحقرون قراءتكم مع قراءتهم).

ولذلك لمّا سألوا علي بن أبي طالب، قالوا: الخوارج كفرة؟ انظروا العدل والإنصاف، هم كفّروه لأنهم جهّال، قال: لا من الكفر فروا، قالوا: ماذا تقول عنهم؟ قال: أقول: قومٌ اجتهدوا فعموا وصموا. أصابتهم فتنة فعموا وصموا، فتنهم الله جلَّ في علاه فلم يعلموا عن دين الله شيئاً فكفروا، وكانوا حرباً على أهل الإسلام، سلماً لأهل الكفر والطغيان والعياذ بالله.

الغرض المقصود هذه أول انطلاقة لأهل الكفر، بعد ما انطلقوا وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعجزة باهرة نبأ بأنهم سيخرجون على أهل الإسلام، وقال: (هم كلاب أهل النار، لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد وإرم). بعد ما قاموا وظهروا، قاموا على علي ابن أبي طالب وقالوا: كافر، وقالوا: حكم الرجال. هنا قد احتجوا بالمتشابه، وهل هذه الآية من المتشابه (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)؟

نقول الآية ليست من المتشابه؛ الآية تُحمل على أكثر من معنى، ولذلك ابن عباس قال: كفر دون كفر، وغيره قال: إذا كانت الشهوة، وبعضهم قال: هي على إطلاقها إن جحد أو قدّم غير حكم الله جلَّ في علاه، الغرض المقصود لها تُحمل على أكثر من معنى. فهم ضيقوا المسألة وقالوا حكم الرجال، كفر بذلك. وكانت المسألة أن علي بن أبي طالب لمّا سمع ذلك قال: حقٌّ أريد به باطل؛ لأنه أخذ أبا موسى الأشعري ليطبق حكم الله، لا لأن يحكم على كتاب الله، ليطبّق حكم الله. ولذلك أظهر لهم علي بن أبي طالب

قال: قال الله تعالى: (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا) [النساء:35]، يعني لو حدث التشاجر بين الزوج والزوجة، ما الذي يفصل بينهما؟ كتاب الله وسنة النبي. لكن من الذي سيطبّق هذا؟ الرجال هم الذين سيطبّقون كتاب الله وسنةً النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلذلك قال: حقٌ أريد به باطل، إنما قال الله تعالى: (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا). إذاً زالت هذه الشبهة، لكنهم تعلقوا بها للمتشابه ليلبسوا على الناس أمر دينهم.

٢- أيضاً أفراخهم المعتزلة الذين هم أذناب للخوارج، يعضون بالنواجذ على المتشابه، بل ويستدلون به ليلبّسوا على الناس أمر دينهم. قد لبّسوا على الناس أمر الدين، وفتنوا الناس عامةً، قالوا بخلق القرآن كما ظهر ابن أبي دؤاد والمحنة المشهورة، وقالوا بخلق القرآن، قالوا القرآن مخلوق، القرآن كالسماء كالأرض كالبحار كالأشجار كالأنهار، واستدلوا على ذلك بكتاب الله.

ما من مبتدعٍ إلّا وترى له الدليل؛ فقال: قال الله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) [الزخرف:3]، قالوا: والجعل معناه الخلق، والدليل على ذلك من كلام الله جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) [الأنعام:1]، يعني خلق الظلمات والنور، قالوا: إذاً القرآن مخلوق، هكذا تعلقوا بآية من كتاب الله لأنه حمّال. والإمام أحمد بن حنبل فتن هذه الفتنة وهذه المحنة بخلق القرآن بالكتاب، فكل مبتدع يستدل بالكتاب.

لكن كيف نجيب عن هذه البدعة؟ هذا مثل نضربه لأهل الزيغ والضلال وأهل البدعة أنهم يستدلون بكتاب الله على بدعتهم، للتلبيس على الناس والتدليس، ما هي الأدلة التي تثبت ما تقول؟ الآية التي ممكن أن تأتي بغير معنى الخلق؟ (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا) [الزخرف:19]؛ يعني صيّروهم إناثاً، وهذه في لغة العرب. الثانية: (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) [ق:26]؛ "جعل" في اللغة بمعنى اتخذ.

إذاً أصلاً "جعل" في اللغة:

- تأتي بمعنى اتخذ، (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) يعني اتخذ مع الله إلهاً آخر.

- و"جعل" أيضاً تأتي في لغة العرب بمعنى صيّر، (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا)، يعني صيّروهم إناث لله جلَّ في علاه.

- وتأتي بمعنى الخلق. فهم تركوا كل الاحتمالات وتشبثوا على الخلق فقط، قالوا: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)، يعني خلقناه قرآناً عربياً.

ولمّا قاموا بهذه الآية على أحمد بن حنبل، أجابهم إجابة وجيزة في الكتاب، قالوا إنا الآن أشكل عليكم أيضاً بالكتاب، فقال للأمير: يا أمير فإن الله جلَّ في علاه يقول: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) [الفيل:1-5]، ما يقول قائل: فجعلهم كعصف مأكول يعني خلقهم، هو خلقهم بشراً أمامكم من طين، فلا يقول قائل: بأن (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) خلقهم كعصفٌ مأكول. لا، (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) يعني صيّرهم كعصفٍ مأكول. فلمّا حجّهم بهذه الآية، بُهتوا من ذلك.

فإذاً أهل البدعة والضلالة يلبسون على الناس أمر الدين بالمتشابه من القرآن.

٣- أعجب من ذلك الجهمية، وهي أيضاً من أصول أهل البدع، يلبسون على الناس أمر الدين؛ يقولون: الله في كل مكان، الله ليس في السماء، من قال: الله في السماء وأشار بأصبعه اقطع يده أو اقطع إصبعه، الله في كل مكان.

قلنا لهم: الله في كل مكان؟ تقولون الله في كل مكان؟ في وفيك؟ وفي الحمامات وغيرها؟ قالوا: الله في كل مكان، وعندنا الآيات التي تثبت على ذلك. قلنا: هاتوا الآيات. قالوا: قال الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ) [الزخرف:84]، قالوا: أيضاً قول الله تعالى: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) [الأنعام:3].

انظروا أهل البدعة يستدلون بالآيات، عندهم آيات يستدلون بها على أن الله في كل مكان، يلبسون على الناس أمر الدين، يقولون: معنا كتاب الله جلَّ في علاه حجة لنا باهرة. هذه من دأب أهل البدع.

والرد عليهم سهل ويسير بفضل الله:

◆ أمّا الآية الأولى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)؛ من وجوه:

▪ الوجه الأول: أن الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب وتحبه وتعبده، فإذاً (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)؛ في الأرض هناك الفسق والفجور، الكفر، القتل. مع ذلك قال الله جلَّ في علاه، مع كل هذا الفساد هناك من يعبد الله ويتذلل لله ويتمسكن لله جلَّ في علاه. (وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ) يعني معبود يعبد في الأرض، ما زال الناس يؤذنون ويصلون ويحجون ويعبدون ربهم جلَّ في علاه. إذاً معنى الآية: أولاً هو في الأرض إله يُعبد كما أنه في السماء إلهٌ يُعبد، لأن الملائكة يلهمون التسبيح والذكر والعبادة لله جلَّ في علاه، هذا الوجه الأول.

▪ الوجه الثاني: كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنت ربنا في السماء وأمرك في الأرض)، يعني شرعك وأمرك وحكمك في الأرض. فإذاً (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ) يعني ذاته، يعني هو على العرش، فوق العرش كما قال جلَّ في علاه: (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]. (وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)، يعني أمر الله في الأرض. هذا التقدير بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ربنا الذي في السماء وأمرك في الأرض)، هذا الرد عليهم من هذه الفتنة.

◆ الثاني قولهم (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)، الرد عليهم أيضاً من وجوه:

▪ الوجه الأول: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ)؛ قف، وقفاً لازماً عند بعض القراء. هذه قراءة، وقفاً لازماً أن تقف، تقول: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ)، إذاً الله جلَّ وعلا فوق السماوات.

▪ (وَفِي الْأَرْضِ)؛ الواو هنا ليست عاطفة، بل استئناف. (وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)؛ إذاً هو في الأرض معكم بعلمه، وهو فوق العرش. وهذا مصداقاً لحديث ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (ما بين الأرض والسماء خمسين ألف عام، وما بين السماء والسماء خمسين ألف عام)، ثم قال: (والعرش فوق ذلك والله فوق

العرش ويعلم ما أنتم عليه). فهذا رد عليهم من المشابه الذي استدلوا به ولبّسوا على الناس أمر الدين.

إذاً وصف وسمة أهل البدعة والضلالة أنهم لا يأتوننا من غير دليل، بل يأتوننا بالأدلة لكن المتشابهة، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هؤلاء الذين سمّاهم الله تبارك وتعالى، فاحذروهم).

وعصمنا الله جلَّ في علاه بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم: (إن كتاب الله لا يكذِّب بعضه بعضاً، فما علمتم منه فاعملوا به)؛ الأحكام المحكمة اعمل بها، (فما علمتم منه فاعملوا به، وما لم تعلموا فقفوا) قف عنده، قل: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) [آل عمران:7].

الحديث الثالث وهو ختام هذه الجلسة: (إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب)، وهذا حديث مشكل، يحتج به أهل البدعة والضلالة على أن الشرك لن يدب في هذه الأمة، الأمة لن تشرك مرةً ثانية. سبحان الله هذا كلام عجيب!!

أولاً أقول: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنه يئس أن يعبده المصلون) ثم قال: (ولكن بالتحريش)، لم ييأس بالتحريش. وهذا الذي فعل، قد أقسم على نفسه أنه سيحرش بأهل الإيمان، وهو الذي حدث مع الصحابة. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في التحريش هذا: (لا تحاسدوا، لا تباغضوا، لا تدابروا)، (لا يبع أحدكم على بيع أخيه، لا يسم أحدكم على سوم أخيه، لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه)، وقد قال -صلى الله عليه وسلم- كما صح عنه: (فساد ذات البين هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر، ولكن أقول تحلق الدين).

ولذلك كان فساد ذات البين من الصحابة بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعد موت الأفاضل من صحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم-. الفتنة المستطيرة التي لم تخمد حتى الآن بعد مقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه-، وكما قال حذيفة، وقلنا ذلك مراراً أنه قال: لو كان في قتل عثمان بن عفان خيراً لحلبوا بعده لبناً، ولو كان في قتله شراً لحلبوا بعده دماً، وقد حلبوا بعده دماً عبيطاً. ما كف القتل عن أمة

محمد -صلى الله عليه وسلم-، فحدث النزاع بين أكابر الصحابة بين معاوية -رضي الله عنه وأرضاه- وبين علي -رضي الله عنه وأرضاه-.

فالصحابة كلهم سواء رضي الله عنهم وأرضاهم، بل الذي حدث ليس من الصحابة، هو من البطانات التي كانت تريد أن تشعل فتيل الخلاف والتشاحن بينهم. لكن حدث ما حدث تحريشاً من الشيطان ووقع ما وقع، نسأل الله جلَّ في علاه أن يغفر للمجتهد المخطئ منهم وأن يثيب المجتهد المصيب الأجرين جزاءً وفاقاً يوم القيامة.

إذاً التحريش حدث، وهذه معجزة باهرة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن إمّا أن نقول أنه حديث ضعيف بما في أوله أو هو متضارب. قال: (يئس الشيطان أن يعبده المصلون)، مع أن الحديث عارضه في ظاهره حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكفر من كفر من العرب)، في رواية ثانية: (وارتد من ارتد من العرب)؛ عبدوا الشيطان، عبدوا الأصنام، رجعوا إلى عبادة الشيطان.

وفي حديث في الصحيح: (لن تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة)؛ صنم يعبد من دون الله، يمكن هذا يؤول أن يقول: في آخر الزمان، ليس في زمان الإيمان والإسلام. نقول: حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-: (وكفر من كفر من العرب)؟ إذاً لابد من التأويل أو نقول بالتعارض، والتعارض ليس موجود هنا أبداً في أي حديث من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-.

◆ الوجه الأول: أمّا التأويل فنقول معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قد يئس أن يعبده المصلون)، أي خاصةً صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وصحابة رسول الله الذين عدّلهم الله في كتابه رداً على الرافضة الذين قالوا: هم كفروا إلّا ثلاثة عشر نفر. فنقول هي خاصة في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنهم لن يرتدوا عن دين الله جلَّ في علاه، وهذا فيه ضمنٌ تعديل لهم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

◆ الوجه الثاني: أن نقول هذه مؤولة؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يئس أن يعبده) يعني يعبده المؤمن مع عبادته لله يعبد الشيطان، يعني يجمع بين العبادتين، يعبد الله ويعبد الشيطان، وهما طريقان متضادان لا يجتمعان بحال من الأحوال، (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) [مريم:44]. لا يجتمعان بحال من الأحوال كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل الناس يغدو، فبائعٌ لنفسه، فمعتقها أو موبقها)؛ التفسير: من باعها للرحمن فقد أعتقها، ومن باعها للشيطان فقد أهلكها، لا يمكن أن يجتمع بحال من الأحوال.

إذاً التأويل لا يمكن أن ترى رجلٌ عبد الله جلَّ في علاه على حق، وعلم أن دين الله هو الحق وعبد معه الشيطان، وإلّا ففي عصورنا عبدة الشيطان قد ظهر. إذاً التأويل الثاني هو الاقتران بعبادة الله مع عبادة الشيطان، أمّا إفراد العبادة للشيطان وللأصنام وجد في عصرنا، في مصر انتشرت عبادة تسمى عبادة الشيطان، عبدة الشيطان طائفة ظهرت وعبدت الشيطان عياناً بياناً.

فإذاً الحديث إمّا مخصوص تعديلاً لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو مؤول بالاقتران لعبادة الشيطان مع عبادة الرحمن، لأنه لا يمكن أن يرتد أحد عبد الله على حق كما قال هرقل لأبي سفيان: أرجع أو ارتد أحدٌ منهم عن دينه سخطاً في الدين أو عتباً على هذا الدين؟ قال: لا. فمن تذوق حلاوة الإيمان لا يمكن أن يرتد عن دينه لعبادة الشيطان.

أمّا الذين يحتجون به لأنه لا شرك، قلنا الواقع يكذِّب ذلك لأنه قد كفر من كفر من العرب في عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وفي واقعنا المشاهد كثير من الناس الآن يتجرأون على الله وعلى رسول الله ويشركون بالله عياناً بياناً، ومنهم من ظاهر في التصريح دون التلميح أنه يعبد الشيطان ويقتل من يسب الشيطان. فهذا رد واقعي على من يحتج بهذا الحديث، أن الشرك قد انتفى من هذه الأمة، هذا آخر ما يمكن للكلام عليه في هذه الأحاديث.

الفوائد المستنبطة:

- تفرُّق أهل البدعة والضلالة وعدم اجتماعهم على كلمةٍ واحدة، قال: (وفارقوا دينهم وتفرقوا).

-الثاني؛ لا توبة لصاحب بدعة. لِمَ؟ استدراجاً من الله جلَّ في علاه لأنه زيّن له عمله فرآه حسناً.

- الثالثة؛ البراءة براءتان: براءة من العمل، وبراءة من الشخص أو براءة من الدين. هذه تبيّن لك وتوضح لك مشكلات كثيرة تكون في الأحاديث؛ كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (برئت ذمت الله ممن جلس بين أظهر المشركين)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من غشنا فليس منا)، فكل هذه براءات دنيا ليست براءات عظمى، براءة من العمل لا براءة من الشخص.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثالث: بئس العبد عبد هواه يضله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، بلغنا إلى باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بئس العبد عبدٌ هواه يضله).

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً، وبعد:

وعن نعيم بن هبّار الغطفاني قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (بئس العبد عبدٌ هواه يضله، بئس العبد عبدٌ رغبٌ يذله). وعن أسماء بنت عميسٍ الخثعمية قالت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (بئس العبد عبدٌ هواه يضله).

باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله فإنه مثله)

وعن عقبة بن عامرٍ -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله فهو مثله)، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله فإنه مثله)

بالنسبة للحديث الأول والإسناد كما بيّنا أن الشيخ رحمه الله قد (*)، لكن الكلام فقط على بعض كلام أهل الحديث على بعض الرواة: طلحة، زيد. والشيخ قال: إسناده ضعيف جداً، وطلحة كما قال الذهبي وغيره: أنه كان يضع الحديث. وكان من باب أولى أن يقال أن الحديث موضوع. الذي يجعله ذلك أنه في سنن الترمذي بإسنادٍ آخر وهذا الإسناد فيه ضعف، فيه جهالة فقط زيد الخثعمي، هذه الجهالة التي ضعّفت الإسناد.

أقول هذا الحديث: (بئس العبد)؛ بئس: هذا أسلوب ذم، "وبئس" هي كما قال علماؤنا مجامع الذم كل الذم في بئس، كما أن العكس مجامع المدح في "نِعْمَ".

(بئس العبد)؛ لِمَ استحق هذا العبد الذم؟ وكيف يستحق الذم وقد قال له بصفة العبودية والعبودية هي أرقى المنازل؟ هذا عجيب!! فإن الله جل في علاه لمّا شرف نبيه -صلى الله عليه وسلم- شرّفه بأرقى المنازل في هذه الدنيا التي يمكن أن يرتقي إليها أمرؤٌ، ألا وهي منزلة العبودية: فإن في مقام المعجزة قال الله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) [الإسراء:1]، وفي مقام التحدي: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) [البقرة:23]، فالعبودية هي أشرف المنازل التي يمكن أن ينزلها عبد، حتى في مقام الدعوة: (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) [الجن:19]، فهي أفضل المنازل.

فهو يأتي هنا بهذه الصفة صفة العبودية ثم يلصق بها الذم، هذا شيءٌ عجيب!! لكن نقول الجمل والسياق، كما قال علماؤنا السياق من المفسرات ومن المقيدات. إذا أتممت القراءة رأيت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن فيما روي عنه "جزئية الذم"، أن هذا العبد اتبع هواه فاستحق الذم، وهذه كما بيّنا كثيراً الأسبوع الماضي وقبل الماضي بأن

الأهواء هي أعظم الأدواء للقلوب وأشد الأمراض الفتاكة بدين العبد؛ قدّم هواه على أوامر الله وأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستحق الذم.

والعبودية تناقض ذلك، فإن العبد لا يكون عبداً لله جل في علاه إلّا بشرطين اثنين:
١- أولهما وأولاهما الاستسلام التام لله جلَّ في علاه، والاستسلام التام لرسول -صلى الله عليه وسلم-. وهذا من باب الإيمان يسمى الإيمان، أي باب الاستسلام لله، الإسلام هو الإيمان لله يعني الاستسلام لأوامر الله جلَّ في علاه. أمّا الإيمان بالله: هو إثبات وجود الله جلَّ في علاه والاعتراف بربوبية الله وإلهية الله كما بيّنا، فأول هذه الدرجات الاستسلام لله جلَّ في علاه.

قال الله تعالى: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [البقرة:131]، وقال الله تعالى: (فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) [الحج:34]، (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) [الزمر:17-18].

فهذا الاستسلام التام هو تاج العابد لله جلَّ في علاه؛ ألم يأتكم نبأ استسلام إبراهيم -عليه السلام- لتمام العبودية في قلبه لله بعدما عاش دهراً أمداً بعيداً ينتظر الولد، فلمّا أقر الله عينه بالولد أوحى الله ما أمره، أوحى الله إليه أن اذبح هذا الولد بعد ما بلغ معه السعي. فهذا عجيب! فاستسلم لأمر الله وأخذ ابنه ليذبحه، وأعجب من هذا الاستسلام استسلام إسماعيل -عليه السلام- عندما استسلم لأمر الله وأخذ رقبته ليذبحه إبراهيم، هذا الاستسلام التام لأوامر الله.

واستسلام تام لأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تدل وتنبئ على عبودية هذا العبد.

أيضاً رسولنا -صلى الله عليه وسلم- بيّن لنا أروع الأمثلة في الاستسلام التام لله جلَّ في علاه التي هي تاج العبودية؛ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحب البقاع إليه هي مكة، ومع ذلك أمره الله جلَّ في علاه أن يهاجر من مكة وهي أحب البقاع إليه، ولمّا خرج منها قال: (والله إن الله يعلم أنك أحب البقاء إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت). وهو أصالةً بأمر الله جلَّ في علاه أن يهاجر من مكة ولا يستوطنها بعد ذلك،

فاستسلم لأوامر الله. وفي صلح الحديبية أيضاً عندما كانت به القوة وكانت به المنعة ومعه الآلاف المؤلفة، واستسلم لأمر الله ألّا يقاتل، وألّا يحجّ بالبيت، ألّا يطوف بالبيت ويرجع، فاستسلم واستسلم أبو بكر معه.

الصحابة الكرام ضربوا لنا أروع الأمثلة حتى يقال فيهم: نعم العبد، لا يقال فيهم بئس العبد؛ لمّا حرّم الله عليهم الخمر ما قدّموا أهواءهم، مع أنّهم كانوا يشربون الخمر أنهاراً. هنا لمّا تتكلم مع أحد في مسألة الربا أو مسألة الدخان أو مسألة الخمر، يقول والله ما أستطيع، نفسي أفعل ذلك لكن لا أستطيع. وإذا تكلمت معه في الربا، قال: يا أخي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني (في آخر الزمان من لم يأكل من الربا ناله من غباره)، فيقول هذه لا بد أن ننل من الغبار.

فالغرض المقصود هم ما فعلوا ذلك مع أنهم كانوا يشربون الخمر أنهاراً، عندما قال الله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة:91]، ماذا قالوا؟ في الصحيح قال أنس -رضي الله عنه وأرضاه-: دخلت على كعب بن معاذ ومن معه والكؤوس تدور على الرؤوس ملأت خمراً. وأنتم تعلمون القصة المشهورة قبل أن يُنزل الله جلَّ وعلا في كتابه تحريم الخمر ماذا حدث من حمزة -رضي الله عنه وأرضاه-، كان يشرب الخمر أنهاراً حتى أنه أخذ الغنيمة التي كاد يقدمها علي بن أبي طالب مهراً لفاطمة، وقتل بعيره. الغرض المقصود أنه بعدما اشتد سكره نظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: من أنت؟ وقال لعلي: من أنت؟ ما أنتم إلّا عبيد لآبائي، من شدة السكر.

فالغرض المقصود قبل أن ينزّل الله جلَّ في علاه تحريم الخمر كانوا يشربون الخمر أنهاراً، وما احتجوا على الله ولا احتجوا على رسول الله، (يقصد ما قالوا) العادة تغلب علينا، طبائعنا لا نستطيع أن نغيرها.

جاء أنس وهو يصور لنا هذا الاستسلام التام لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم، فنعم العبد عبد صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال أنس: دخلت عليهم

والكؤوس تدور على الرؤوس فقلت: قد أنزل الله في الخمر قولاً، فقالوا: هاته، فقال لهم: قال الله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ) إلى أن قال: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)، قال: فضربوا الكؤوس وقالوا: انتهينا ربنا انتهينا ربنا. استسلام تام لأوامر الله جلَّ في علاه؛ فنعم العبد، استسلام تام لأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ففي غزوة خيبر عندما غلت القدور بالحمر الأهلية، وكانوا من الجوع بمكان، صرخ الصارخ: إن الله ورسوله يحرّمان عليكم الحمر الأهلية فأكفئوا القدور، استسلاماً لله جلَّ في علاه.

فأول وأولى تاج العبودية وأن يمدح عليه المرء، الاستسلام التام لله جلَّ في علاه والرسول -صلى الله عليه وسلم-. أما رأيتم الرجل الذي لبس خاتماً من ذهب، بعدما نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن لبس الخاتم الذهب على الرجال وأحلّه للنساء، رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الخاتم في يده فأخذه فألقاه على الأرض. فقال أصحابه: خذه تستفيد منه، تعطيه لزوجك، تبيعه تستفيد منه. فقال: لا والله، لا التقط شيئاً ألقاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. محض استسلام، ولذلك استحقوا المدح.

وعندنا محض إباء، ولذلك استحققنا الذم والعياذ بالله، "بئس العبد" لأنه لم يستسلم لله جلَّ في علاه.

٢- والعلامة الثانية والخاصة الثانية هي الاتباع الكامل لله جلَّ في علاه دون تدخل الهوى، كسر الهوى من أجل رضا الله جلَّ في علاه. مخالفة ومجانبة الأهواء من أجل أوامر الله وأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عملاً بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- المختلف في إسناده وإن كان الاتفاق على صحة المعنى: (لا يؤمن أحدكم (وهنا يعني لا يؤمن إيماناً كاملاً كما بيّنا في القرائن المحتفة) حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به).

ولذلك ضرب لنا الشافعي أروع الأمثلة في ذلك حين قال بسندٍ صحيح عنه كما نقل البيهقي: آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، ما في أي هوى يتدخل في ذلك

أو يعاكس هذا. آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

(بئس العبد يضله هواه)؛ فإن الضلال كل الضلال باتباع الهوى، وقد ضربت على ذلك أمثلة واستدللت بدليلٍ ظاهرٍ في الكتاب والسنة. وأريد من الإخوة الأفاضل أن يأتوني بالدليل على هذه القاعدة: أناط الله الضلال (كل الضلال) باتباع الهوى. أريد الدليل مع المثل؟

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ) [ص:26]، إذاً الفاء هنا تبين العلاقة، كأن الهوى هو الذي سيضل هذا الإنسان. فتكون الآية الثانية مفسرة على أن الله أضله على علم، يعلم الله من قلبه أنه تملك الهوى من قلبه فتسبب في إضلاله -والعياذ بالله-، فقدّم هواه على الله جلَّ في علاه. الهوى يضل هذا الحديث عجيب!! لأن في زيادة الحديث قال: (بئس العبد يختل الدنيا في الدين، بئس العبد يختل الدين في الشبهات).

(بئس العبد يختل الدنيا بالدين)؛ هذا الذي قدّم الدنيا على الآخرة، أو كما قال علماؤنا: باع آخرته بدنياه. وما أروع ما قاله ابن القيم: أظلم الناس من باع آخرته بدنياه، وأظلم منه ثم أظلم منه من باع آخرته بدنيا غيره. يبيع دينه بثمنٍ بخس دراهم معدودة، فهذا الذي يختل الدنيا بالدين؛ يأتي للجاه وللشرف وللمكانة وللمال، يطعن في الدين من أجل هذه الدنيا، يتكلم بلسان أهل الدين لكنه يطوّع الدين ويلوي عنق الدين من أجل الدنيا وأهل الدنيا، وليس هذا الباب الذي نتكلم فيه.

(يختل الدين بالشبهات)؛ هو هذا الذي تملك الهوى في قلبه، أنه يختل الدين، يعني يفسد الدين بالشبهات. يلقي على الناس الشبهات؛ ما أتاه أمر في عقيدته يخالف هواه إلّا اتبع الزيغ والمشتبهات ليلبس على الناس أمر دينهم، وينجر ذلك في الأحكام. ما من حكمٍ تبين له الحرمة فيه إلّا وتحايل عليه وأتى بالتلبيس والتدليس والشبهات، ليلبس على الناس أمر الدين، فيحلّ ما أحلّ الله جلَّ في علاه. وسلفهم في ذلك هم اليهود كما قال إبراهيم بن أدهم: يعاملون الله كما يعاملون الطفل الصغير.

أقول والعملة الزائفة لا تروج على الله جلَّ في علاه، انظروا لمّا يتحكم الهوى في القلب يتركوا الدين خلفهم ظهريّاً؛ قال الله لهم: (وَقُولُوا حِطَّةٌ) [البقرة:58]، فقالوا: حنطة، يريدون هواهم يتقدم على أوامر الله جلَّ في علاه. ومنعهم الله ابتلاءً وامتحاناً وتمحيصاً وتمييزاً، منعهم الله من الصيد يوم السبت، فنصبوا الشباك يوم الجمعة ثم أخذوا السمك أو الصيد يوم الأحد، قالوا: ما اصطدنا يوم السبت، حيلة على الله جلَّ في علاه. هذا الذي يختل الدين بالشبهات، يتحايل على أحكام الله جلَّ في علاه.

وأيضاً لمّا حرّم الله عليهم شحوم الميتة، جملوه ثم أذابوه ثم باعوه ثم أكلوا ثمنه، قالوا: حرّم الله علينا أكل شحوم الميتة ونحن ما أكلناها، لكنهم أكلوا الثمن. ولذلك قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (قاتل الله اليهود، لعن الله اليهود، حرّم الله عليهم شحوم الميتة فجملوه فأذابوه فباعوه فأكلوا ثمنه). هذا الذي يختل الدين بالشبهات بالاحتيال، بالتحايل، ليطمس الحقائق بهذه الشبهات، ليطمس الدين بهذه التأويلات وهذه المشتبهات.

(بئس العبد يختل الدين بالشبهات، وبئس العبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد يضله هواه)، ثم ذكر الجزئية الأخيرة أو الزيادة عليه: (بئس العبد رغبٌ يذله أو طمعٌ يذله). الذليل حقاً من ذلّ لغير الله جلَّ في علاه، والطمع هو الذي يذل الإنسان، الطمع في الدنيا والحرص عليها من شرف ومال وجاه. النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن أفسد ما يفسد دين المرء حرصه على الشرف وحرصه على الدنيا، ولذلك قال: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلّا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً). وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما لي والدنيا)، يقلل منها من شأنها حتى لا يشتد حرص المرء عليها، لأنه سيبيع دينه من أجل هذه الدنيا.

وقد رأينا والله واقعاً شاهدته؛ رجل كان يعمل عملاً براتبٍ صغير، فجاءه عمل في مكان محرّم (بالاتفاق محرم)، وإن قال بعض المشوشين فيه خلاف، يعمل عملاً محرّماً، قلنا له: هذا العمل محرّم، هذا فيه ربا، ستقع في الربا، تأكل ربا، حرام، درهم واحد ربا أشد من ستة وثلاثين زنية. أقسم بالله!! انظروا الحرص على الدنيا وما فيها، والفارق خمسمائة درهم، هذا هو الفارق فقط، لأجل الخمسمائة درهم، قال: هذا حلال،

مالكم بي شأن، حسابكم عند ربكم وحسابي عند ربي. فالحرص الشديد على الدنيا جعله يطمس الدين، ويقدّم الدنيا على الدين. (ما لي والدنيا كراكبٍ تحت شجرة ثم تركها وراح)؛ يعني نام وقت القيلولة.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله مثل جناح بعوضة ما سقى منها للكافر شربة ماء)، وأيضاً مثّلها تمثيلاً آخر: (مثل الدنيا كمثل أحدكم يضع إصبعه في اليم، فلينظر ماذا يخرج؟). الدنيا ليس فيها ثمة شيء، الدنيا دنية من اسمها، والدنيا عند ربنا ملعونة، فكيف يحرص المرء عليها؟ فإن حرص المرء على الدنيا لا بد أن يتذلل لغير الله جلَّ في علاه، وقمة العبودية وقمة العز هي قمة الذل لله. وهذه تنبئ للرجل ألّا يختار أحداً يتذلل له من أجل أمر الدنيا، وإذا اعوز واحتاج لا بد أن يصطفي من يميل علي حاجته، لا يميل حاجته لأحدٍ لا يعرف قدره، وهذا لن تجد منه واحد أو اثنين في الدنيا.

فالصحيح أن الإنسان لا يذل نفسه من أجل الدنيا ولا ينزل حاجته بأي أحدٍ إلّا من يعرف قدره، كما قال الشافعي: لن يحك جلدك إلّا ظفرك، وإذا سألت فسأل من يعرف قدرك. فهذا الرجل الذي طمع في الدنيا ذلل نفسه للشيطان وللهوى وللبشر العجزة الذين لا يملكون شيئاً، ولم يعتز بربه جلَّ في علاه فاستحق الذم.

ثم انتقل المصنف إلى بابٍ آخر وهو: (إن الرجل اذا رضي هدي الرجل وعمل عمله فهو مثله)، هذه الأحاديث الضعيفة تغنينا عنها آيات وأحاديث وآثار أخرى صحيحة؛ قال الله تعالى: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ) [النساء:140]، فكانت المثلية أنه جلس يستمع إلى آيات يُكفر بها فرضي، هو ما تكلم بهذه الكفريات لكنه رضي، فلمّا رضي شابههم في الفعل بل وفي العمل وفي المنزلة وفي العقوبة. وقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) [المائدة:51].

وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في سنن الترمذي: (المرء على دين خليله). وأيضاً في حديثٍ آخر صرّح فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- في نفس السنن: (الدنيا لأربعة نفر: رجلٌ آتاه الله المال والحكمة)، هذا من الأغنياء كابن حزم رجلٌ عالم وعنده المال، (رجلٌ آتاه الله المال والحكمة، فهو يسلّط الحكمة على هلكة المال في الحق)، ينظر إلى أبواب الحق فيسلّط الحكمة على هذا المال يهلكه في الحق وفي رضا الله جلَّ في علاه، فهذا بأرفع المنازل.

(ورجلٌ آتاه الله العلم ولم يؤتِه المال، فنظر إلى فعل الأول فقال: لو آتاني الله المال مثل ما أتى فلان لفعلت فيه مثل ما فعل فلان)؛ وجه الشاهد يأتي، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (فهما في الأجر سواء)، تماثلا مع أن الرجل لم ينفق درهماً واحداً، لكن هو ساوى الرجل الذي أنفق آلاف الدراهم للنية الصادقة الصالحة، (المرء على دين خليله). وإذا رأى الرجل هدي الرجل وفعل الرجل فارتضى به، فهو مثله في العقوبة أو الثواب.

قال: (ورجلٌ آتاه الله المال ولم يؤتِه الحكمة، فهو يسلّط بغبائه وجهله على المال فينفقه ويسلّط على هلكته في الباطل)؛ في الفسق مرة، في الزنا مرة، في شرب الخمر مرة في الربا مرة. هو يسلّط هذا المال في غير مراد الله جلَّ في علاه، قال: فهذا بأحط المنازل. والرجل الرابع؛ (رجل لم يؤتِه الله (هذا أخيب الناس) المال ولم يؤتِه الحكمة، فنظر إلى هذا الذي معه المال ولم يؤتَ الحكمة، فنظر إليه بفسقه وفجوره، قال لو أتاني الله مثل ما أتى فلان لفعلت فيه مثل ما فعل فلان، فهما في الوزر سواء).

وهذه الأحاديث تغنينا عن الأحاديث الضعيفة، تبيّن أن الرجل إذا رضي هدي الرجل ورضي فعل الرجل واعتقد اعتقاد الرجل فهو مثل هذا الرجل.

لكن يا ترى ما مناسبة هذه الأحاديث لبابنا ولتصدير الكتاب بأن أضر الأدواء والأمراض على القلوب هي الأهواء؟ ما لنا وما لهذا الحديث بالأهواء والأدواء؟ هو يقول: (إذا رضي الرجل هدي الرجل)، مناسبة هذه الأحاديث للباب الذي نتكلم فيه؟

(بئس العبد يضله هواه)، المناسبة مع الدليل؟ الآن المصنف يصدّر الباب: أسوأ السوء أن يقدّم المرء هواه ورأيه على قال الله قال رسوله؛

ما العلم إلّا قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً *** بين الرسول وبين قول الفقيه

الآن يصدّر لنا المصنف باب عظيم: ضرر الأهواء على القلوب، ما لنا وما للأهواء في هذا الحديث؟ (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله)، وما ذكرنا من الحديث الذي يغني عنه الدنيا لأربعة نفر، ما المناسبة؟

هو الكلام كله على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخفي لنا التحذير الشديد والوعيد الأكيد، أنت الآن عند ربك فعلت أو لم تفعل، بما في قلبك من رضا أو إنكار، إن رأيت أهل الأهواء والبدع والضلالات ولم تفعل بفعلهم ولكنك رضيت بأفعالهم فأنت وهم سواء. فلذلك أتى بهذا الباب على أنه يقول أنا ما أحذرك من الفعل نفسه، بل أحذرك مما يختلج في قلبك، أحذرك أن تشابه بالقلب فعل أهل الأهواء وأن ترضى بأهل الأهواء وأن تؤوي أهل الأهواء.

ولذلك يبيّن لك ذلك جلياً حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيح: (لعن الله من غيّر منار الأرض، لعن الله من آوى محدثاً)، مع أنه لم يحدث، لم يبتدع، لكن الذي يؤوي المحدث كأنه رضي ببدعته وكأنه يريد نشر بدعته، فلمّا رضي ببدعته دخل في دائرة اللعن وكان بمثله سواء عند الله جلَّ في علاه. فهنا تحذير أكيد من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن المرء إذا رضي بأهل الأهواء، وإن لم يتكلم بكلامهم لكن رضي بهم، فهو وهم سواء في العقوبة عند الله جلَّ في علاه.

الفوائد المستنبطة:

- أولاً أن الشرع لا يفرّق بين المتماثلين:

هذا الرجل الذي رضي بأهل الأهواء؛ لم يفعل بفعلهم، لم يتكلم بكلامهم، لم يحتج بحججهم، لكن الله جلَّ في علاه أنزلهم نفس المنزلة لمّا رضي بفعالهم، وهذه في العقائد.

وأيضاً في الأحكام، فإن الشرع لا يفرّق بين المتماثلات بحال من الأحوال، وهذه حجة على الأحناف في الخمر؛ أما قالوا وقصروا أن حرمة الخمر على عصير العنب فقط، قالوا الخمر المحرم هو عصير العنب. قلنا لهم: الشرع لا يفرق بين المتماثلين، أسكر عصير العنب أو عصير الشعير أو عصير التمر أو عصير أي حب غيره، أسكرت فهو مثل عصير العنب فيكون خمراً. وقد دلّ الشرع على هذه القاعدة العظيمة وهي المثلية عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أسكر كثيره فقليله حرام)، وفي الرواية الأخرى: (كل مسكرٍ خمر، وكل خمر حرام)، دلّ ذلك على المثلية.

◆ الصاحب ساحب:

(فلينظر أحدكم من يخالل)، وكما قال الإمام الغزالي: الطبع سراق، فإن الإنسان في بيئته مؤثر ومتأثر. فالبيئة التي يجلس بينها إمّا بيئة طلبة العلم ومجلس العلم ومجلس ذكر الله جلَّ في علاه لا يخرج إلّا عالماً أو متعلّماً على سبيل النجاة، فإن لم يكن، فهو محب لأهل العلم وقد وقع في قول ابن مسعود: كن عالماً أو متعلماً أو محباً لأهل العلم، ولا تكن الرابعة فتهلك. أمّا مجالس أهل الفسق وأهل الغيبة والنميمة ضائعٌ مثلهم.

إذاً الطبع سراق، والصاحب ساحب كما قال علماؤنا، وقد قال العرب رأينا الغراب مع الحمامة فاندهشنا. لِمَ يندهشوا؟ الصحيح أنهما لا يجتمعان، الغراب يأكل بيض الحمام، فهو أصلاً من الجوارح فلا يجتمعان، فاندهش العرب. فدققوا النظر فوجدوا الغراب، فيه عيب في رجله ونفس العيب موجود في الحمامة، هذه دلالة على أن كل شبيه لا بد أن تراه يقترن بشبيهه.

ولذلك قالوا: لا تسأل عن المرء ولكن سل عن خليله؛ هذا الذي ينبئك لأن المرء لا يتخير إلّا أمثاله، فإن وجدته يتمثل مع الصالحين مع المتقين مع العلماء هذا منهم -بإذن الله- ومثلهم أو محباً لهم، وإن كانت الأخرى فالأخرى، فالصاحب ساحب.

◆ الهوى يفسد الدين، قل أو كثر:

وهذا الهوى عام مخصوص؛ ليس كل هوى، لأن الإنسان له هوى يرضي الله جلَّ في علاه ويوافق شرع الله، وهوى يخالف شرع الله، فكل الأحاديث التي جاءت في ذم الهوى هو الهوى المخالف لشرع الله جلَّ في علاه. وهل هناك هوى يمكن أن يكون موافق لشرع الله؟ نعم، هناك عبادات يشتهيها المرء لله جلَّ في علاه، ولذلك في الحديث قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)؛ فممكن يكون هوى المرء في العدل، هوى المرء في الصيام، هوى المرء في الصلاة، هذا الهوى ممدوح وليس بمذموم. الهوى المذموم هو الذي يخالف شرع الله جلَّ في علاه، وأذّم منه أن يتابعه المرء. إذاً العموم في الأدلة التي جاءت عن الهوى هي عامة مخصوصة يراد بها الهوى الذي يخالف شرع الله جلَّ في علاه.

ثم انتقل إلى باب آخر: باب الأهواء والالتزام بالسنن والأمر بالالتزام بالسنن، يكون هذا الأسبوع القادم بإذن الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الرابع: الاستعاذة من الأهواء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب العظيم، الكتاب المبارك، كتاب السنة لابن أبي عاصم، بلغنا بفضل الله ومنه وكرمه إلى: باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الاستعاذة من الأهواء.

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلى من والاه:

بابٌ في قوله عليه السلام الاستعاذة من الأهواء:

عن زياد بن علاقة عن عمه قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو بهؤلاء الدعوات: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء)

بابٌ في قوله -صلى الله عليه وسلم- في مضلات الأهواء:

عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول -صلى الله عليه وسلم-: (إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء).

هذا الكتاب العظيم المصنف من حكمه (*) وأيضاً من دقة نظره أنه يبدأ بالقاعدة الأصيلة عند علمائنا، والقاعدة التي أخبرها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع صحابته، ثم أصّلها الصحابة الكرام مع من بعدهم، ألا وهي القاعدة المشهورة التي تربي وتعلم: التصفية قبل التحلية.

قبل أن يبدأ لك بالعلوم والكلام على الصفات والأسماء وضوابط المسائل العقدية المهمة، ابتدأ معك بتصفية القلوب وتنقية القلوب من الشوائب، حتى قبل أن يتحلى المرء تكون القلوب والذات والشخصية نفسها أرض بيضاء نقية، فيصل إليها العلم بسهولة ويسر تتقبله، فلا ترده ولا تعارضه. وقد ورد بسندٍ صحيح في شعب الإيمان عند البيهقي عن ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- قال: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن؛ فتعلم الإيمان تنقيةً للقلوب بياضاً، تنقيةً للشخصية، ثم بعد ذلك يتحلى. تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن؛ فجاء نور القرآن على نور الإيمان فازداد نوراً على نور.

ولذلك نحن نقول علماؤنا قد قيدوا لنا هذه القاعدة التي ماتت واندثرت، ونسأل الله أن نحييها ونعمل بها ألا وهي: التصفية قبل التحلية؛ التصفية من الشوائب، التصفية من الخلق السيء، ثم التحلية باتباع الأخلاق الراقية العالية.

هنا من باب ومن جانب التصفية يبيّن لنا هذا المصنف الأدواء والأهواء التي لا بد من تنقية القلوب منها، ألا وهي اتباع الهوى والشهوات وترك الآثار والسنن. النبي -صلى الله عليه وسلم- يقعِّد ذلك لنا دعوةً وأخباراً، يدعو ويقول: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء).

أولاً كل ما أنكره الشرع واستقبحه فهو منكر، وكل ما استحسنه الشرع وعرفه فهو المعروف. فالمنكرات هي التي أنكرها الشرع، ضابطنا في ذلك ودائرتنا التي ندور حولها هو شرع الله؛ كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم-.

اللهم: أصلها يا الله، حذفت الياء وعوض عنها بالميم المشددة. ولا يجمع بينهما؛ يعني لا يصح أن تقول: يا اللهم، إما أن تقول: يا الله أو تقول: اللهم، إلّا في ضرورات الشعر وهذا له باب آخر في الكلام عليه. لكن الصحيح أن الياء تحذف ويعوض عنها بالميم المشددة، ولا يجمع بينهما.

هنا قاعدة عقدية مهمة أصّلها النبي -صلى الله عليه وسلم-في هذا الدعاء العظيم وهو باب التوسل، وباب التوسل يندرج تحت الدعاء، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو الآن الله جلَّ في علاه، والدعاء له آداب بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا في هذه الجمل الوجيزة اللطيفة؛ إن نظرنا فيها علمنا أن الدعاء أولاً هو كل العبادة، العبادة كلها دعاء؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدعاء هو العبادة)، وقد ورد بسندٍ ضعيف: (الدعاء مخ العبادة)، والصحيح أننا نستغني بالصحيح عن الضعيف، وإذا ذكرنا الضعيف بيّنا ضعفه قدر الإمكان للاستئناس به لا للاحتجاج به.

فصح عن نبينا أنه قال: (الدعاء هو العبادة)، وقد سمّاه الله جلَّ في علاه عبادة: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي) [البقرة:186]، وهذه تتضمن أن الدعاء أيضاً من أبواب الإيمان. وأيضاً قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) [غافر:60]؛ بعدما صدّر الباب بالأمر بالدعاء.

فالدعاء عبادة، بل هو من أجلّ العبادات لأن العبد قمة الذل مع قمة التبجيل والتعظيم تجتمع عند الابتهال والتضرع وإظهار المسكنة للرب الجليل سبحانه وتعالى، مع الإقرار بلسان الحال بتوحيد الألوهية والإقرار بلسان المقال بتوحيد الربوبية. كيف؟ رفع اليد والتوجه إلى الرب الجليل هذه عبادة، وقد صرفها لله جلَّ في علاه ففي لسان الحال قد صدّق توحيد الإلهية، أقر بتوحيد الإلهية. والإقرار بتوحيد الربوبية هو أنك

تسأل وتطلب: اللهم امنحني، اللهم اغفر لي، اللهم ارزقني. الطلب هذا يستلزم إقرارك وعقد قلبك على أن القادر المقتدر الذي يملك الكون كله هو الذي يستجيب لك، ففيه بلسان المقال الإقرار بالربوبية.

هذا شأن الدعاء شأنٌ جليل شأنٌ عظيم، لذلك يحث النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة على التعبد لله به، ويستنهض الله الأمة على أن تتقرب لله بهذا الدعاء سواء دعاء المسألة أو دعاء الطلب، ولسنا بصدد التفصيل والتفريق بين الدعائيين.

الغرض المقصود صدّر النبي -صلى الله عليه وسلم- التصفية بالتذلل والتمسكن والدعاء لله جلَّ في علاه؛ له آداب:

- أول هذه الآداب أن تتقدم بين يدي دعائك حتى يقبل عند ربك بالوسيلة الصحيحة، وهذا الأدب أدبنا به النبي -صلى الله عليه وسلم- بلسان مقاله في أول الحديث عندما قال: (اللهم)، يعني: يا الله، فتوسل إلى الله بأسماء الله الحسنى.

التوسل: معناه الوسيلة والوصيلة واحدة، السين والصاد يعني بجانب بعض. فالوسيلة هي التي يتوصل بها المرء إلى مراده من ربه جلَّ في علاه، يتقدم بها بين يدي دعائه حتى يقبل عند ربه جلَّ في علاه. فهذه من أول الآداب التي يتأدب بها المرء بين يدي دعائه لله جلَّ في علاه: أن يتوسل بالوسيلة الصحيحة، والتوسل المشروع توسل بالله.

والتوسل بالله له فروع:

١- التوسل بأسماء الله الحسنى: وهذا الذي بيّنه لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الدعاء؛ يا الله. و"الله" اسم من أسماء الله الحسنى، واسم الله الأعظم هو الله، وهذا الراجح الصحيح.

- إذ كل اسم إذا اقترن باسم الله يكون صفة له، والله لا يكون صفة لأي اسم؛ تقول: الله الرحيم، فالله هو اسم علم على ذات الله والرحيم صفة لله، ولا تقول الرحيم الله، لا يصح أن يكون الله صفة للرحيم، فإذاً هذه من الأدلة على اسم الله الأعظم هو "الله".

▪ أيضاً أكثر ما ذكر في القرآن هو اسم "الله"، وما من حديث قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- ودعا باسم الله الأعظم إلّا وذكر فيه الله. كما مر الرسول -صلى الله عليه وسلم-على رجل يدعو الله: اللهم إني أسالك أنك أنت الله الواحد الأحد الفرد الصمد، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب).

فتقدّم النبي -صلى الله عليه وسلم- بين يدي دعائه بالوسيلة العظيمة بالأسماء، فالتوسل بالأسماء يصح، كما قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) [الأعراف:180]، وقال جلَّ في علاه: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) [الأسماء:110]. وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- كما صح عنه يقول: (اللهم إني أسألك بكل اسمٍ هو لك سميت به نفسك أو علّمته أحداً من خلقك أو أنزلته في أحد من كتبك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن) ... إلى آخر الدعاء.

"الله" اسم من أسماء الله، يتضمن صفة الألوهية، المألوه الذي تألهه القلوب، يعني تعبده تذللاً وخضوعاً. فقال: يا الله، توسل باسم الله جلَّ في علاه.

٢- الثاني التوسل بصفات الله جلَّ في علاه؛ ثلاث أحاديث تثبت لنا تأصيلاً سنياً التوسل بصفات الله؛ قال: (يا حي يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لي شأني كله)، وقال: (أعوذ بوجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض)، وقال: (أعوذ بكلمات الله التامات). هل هذه الأدلة صحيحة بأننا يمكن أن نتوسل بصفات الله؟

◆ كما بيّنا أن الأدب بين يدي الدعاء أن نختار الاسم الذي تريد منه الدعاء؛ نقول يا رزاق ارزقني، ما أقول يا جبار ارحمني، هذا سوء أدب مع الله. مر بعضهم على رجلٍ يلحن ويقول: يا ذو الجلال والإكرام، فنظر إليه رجلٌ وقال: وكيف يجيبك وأنت تلحن؟ فهذا من سوء الأدب. ومن الآداب أن يتقدم المرء بين يدي الدعاء، أن يتخير ما يدعو به الله جلَّ في علاه، فهو يدعو بين يدي دعائه باسم يناسب هذا المقام.

(برحمتك استغيث)؛ صفة الرحمة وهي صفة ذاتية فعلية.

(أعوذ كلمات الله التامات)؛ أضاف الكلمة لله، فهنا الله يتكلم؟ نعم يتكلم. كما يتكلم المخلوق؟ حاشا لله، هذا كلام أهل البدعة والضلالة، كلامٌ يليق بجلاله وكماله جلَّ في علاه.

٣- التوسل بالأفعال: الدليل على التوسل بالأفعال دقيق: (اللهم صلِّ على محمد)، أين وجه الدلالة؟ (كما صليت). فأنا الآن أتوسل بصلاة الله على إبراهيم أن يصلي بها على محمد. أو تقول مثلاً: أنت الذي أرسلت الرياح بشراً بين يدي رحمتك ارحمني كما أرسلت الرياح أو المطر رحمةً للبشر، هذا توسل بأفعال الله جلَّ في علاه.

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يُأصِّل لنا التوسل بأسماء الله، هذه القاعدة العقدية الأولى؛ قال: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء).

الأخلاق حث عليها الشرع الحنيف؛ وحسن الخلق أثقل ما يكون في ميزان العبد كما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في صحيح أبي الدرداء لما سئل: (أثقل ما يكون في ميزان العبد؟ قال: حسن الخلق)، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (أكثر ما يدخل المرء الجنة تقوى الله وحسن الخلق). وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما وسمه الله ووصفه، وصفه بأرقى الصفات قال: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]، وكانت عائشة لما تسأل عن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: (كان خلقه القرآن)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلةً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلةً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً). وفي المسند بسندٍ صحيح عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن المرء ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم).

ولمّا كان حسن الخلق في المنزلة العظيمة هذه، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- في كل دعائه يدعو الله أن ينفي عنه ضد حسن الخلق، وهو سوء الخلق. ولذلك كان يقول: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق)؛ جمع كل المنكرات ودعا الله جلَّ في علاه أن يبعده عنها.

◆ فهذه الكلمة الموجزة أدبٌ آخر يتقدم به النبي -صلى الله عليه وسلم- بين يدي دعائه وتوسل آخر ألا وهو من آداب الدعاء التي تستوجب أو تستلزم الإجابة: هو الاعتراف بالجميل، وأن حسن الأفعال من الله جلَّ في علاه، وأنه أسند النعمة لباريها.

إذ لا أحد يهتدي ولا أحد فيه الخير إلّا من الله جلَّ في علاه، كما قال ابن القيم: ما من أحدٍ إلّا وخلق فيه الظلم وفيه الجهل، لولا أن تدركه رحمة الله جلَّ في علاه فتنقي عنه الظلم وتنقي عنه الجهل. قال الله تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين في الحديث القدسي: (قال الله تعالى: يا عبادي كلكم (لا أحد) ضال إلّا من هديته)، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنكم لن تدخلوا الجنة بعملكم، قال: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمدني الله برحمته).

فالأدب الثاني: أن تثني على الله ما هو أهلٌ له، والثناء على الله هنا بجميل فعاله، بأن تنسب النعمة له، وأنك لا تسدد ولا توفق ولا تهتدي إلّا به، تتضرع بذلك أمام دعائك حتى يتقبل الله منك. قال الله تعالى: (مِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36]، فمنهم من هدى الله تفضلاً وتكرماً ورحمةً من الله جلَّ في علاه. ولذلك يقول الله جلَّ في علاه في الحديث القدسي: (فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه). ولذلك أدّى النعمة لباريها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تأدباً أدباً ثانياً في الدعاء، مؤصّلاً لنا هذا الأدب حتى نأخذ به؛ أن نسدي النعمة لباريها ونبين أن الله جلَّ في علاه له الفضل والمنة والكرم علينا، "اللهم أنت الذي تملك ذلك جنبني منكرات الأخلاق".

نختار من هذه المنكرات التي هي أضر ما تكون على القلوب ألا وهي:

◆ أولاً الكذب: الكذب من منكرات الأخلاق، والكذب والإيمان لا يجتمعان، يتضادان، ينتفي الإيمان مع وجود الكذب. فإن الله جلَّ في علاه لا يحب الكاذب الفاسق الأفاك الأثيم، وإن رسول الله لا يحب الأفاك الأثيم الكذاب، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما زجر الأمة عن خلق أشد ما زجر عن الكذب؛ حيث يقول -صلى الله عليه وسلم-

كما في المسند بسندٍ صحيح: (إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما زال المرء يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً)، نعوذ بالله من ذلك.

ولمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الجبن عن البخل للمؤمن أقر بذلك، لكن لمّا سئل عن الكذب بيّن أنهما لا يمكن أن يجتمعا، قال: لا؛ يعني المؤمن لا يمكن أن يكذب. وجعل الكذب علامة من علامات النفاق، حيث يقول -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب).

فالكذب مذموم من الشرع كليةً، والكذب ليس من علامات المؤمنين، والكذب هو سمة من سمات وصفات المنافقين. هذا الكذب المحرم والمذموم شرعاً يستثنى منه أحوال؛ هذه الأحوال ثلاثة:

١- الحالة الأولى: الكذب على الزوجة؛ أن يكذب المرء على زوجته حتى يتقرب ويقرب المسافات بينه وبينها، يتلطف معها ويحسن إليها، يقرب مشاعرهم وإن كانت بالنسبة له بغيضة، لكن من باب قول الله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [النساء:19].

٢- الحالة الثانية: الكذب في الحرب؛ إذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن الحرب خدعة، والأولى منها التعريض، لكن لو كذب يحل ذلك. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سأله فقال: (نحن من ماء)، وهل هذا كذب؟ (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ) [المرسلات:20]، فسمّاه ماءً.

٣- الثالث: يصح إذا أراد أن يصلح بين اثنين؛ رجل يتجادل مع رجل، يسب فيه ويأتي بمساوئه ولا يأتي بأخلاقه الحميدة، تذهب أنت له وتقول: ما رأيته إلّا يثني عليك خيراً، ما رأيته إلّا يرفع مقامك ومقدارك أمام الناس، وتخبر حتى تظهر خيراً. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً)، وقال النبي: (فساد ذات البين هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين). فلذلك إصلاح ذات البين هو أفضل الأعمال، كما قال الله تعالى: (لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) [النساء:114]، ولعظم شأن الإصلاح أباح الشرع فيها الكذب.

إذاً الكذب من مضلات الأخلاق، فنقول أقسام الكذب وأحكامها:

- الكذب على الله وعلى رسوله - الكذب في كلام الناس

نأخذ تصاعدياً بالأخف ثم الأثقل:

◆ أمّا الكذب في كلام الناس فهذه آية من آيات المنافقين، ومحدثونا كانوا يضبطون ضوابط ويجعلون سمات وصفات لمن يحدّث عنهم يقولون: من كذب بكلام الناس لا يؤخذ حديثه، ولو تاب؟ ولو تاب، شدد بعضهم، كما قال مالك وغيره. والأشد منهم والأعجب أن من كذب على حماره لا يؤخذ حديثه؛ البخاري رأى بعض المحدّثين كان ما معه طعام للحمار، وليس عنده مال يشتري له، فأراد أن يأتي بالحمار وما يأتي الحمار إلّا بالطعام، فكان يموّه عليه أن في هذه القصعة وهذه القفة الطعام، فيأتيه الحمار، فنظر البخاري فقال: ويحك أين الطعام؟ قال: أفعل معه ذلك أحياناً حتى يطاوعني. قال: تكذب على الحمار؟ والله لا أخذ منك حديثاً. وكان قد ضرب أكباد الإبل ليأخذ هذا الحديث، فانظروا إلى التحرّي.

فالكذب في كلام الناس يسقط العدالة، ولا يكون عدلاً لا يأخذ منه فتوى ولا علماً ولا يأخذ منه حديثاً، إلّا أن يتوب إلى الله جلَّ وعلا ويؤوب، هذا الأخص.

◆ أمّا الأثقل فهو الكذب على الله والكذب على رسول الله؛ فمن كذب على رسول الله استحقّ النار، وهل يكفر بذلك أم لا يكفر؟ خلاف بين العلماء، الصّحيح الرّاجح أنّه لا يكفر، إلّا أن يكذب على الله جلَّ في علاه ويقول بأنّ الله أنزل قرآناً غير هذا القرآن أو أن هذا القرآن الذي بين أيدينا ليس بكلام الله جلَّ في علاه بل هو ثلث القرآن، هذا الذي يصل إلى الخروج من الملة.

هذا الخلق الأول الذي دعا النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بك من منكرات الأخلاق).

الكذب ثم الكبر؛

◆ الكبر وإن كان من الأدواء القلبية فهو من منكرات الأخلاق؛ ترى كثيراً من الناس يمشي بين الناس كالطاووس، ينظر إلى الناس كأنهم كالذر، كأنامله لا ينظر إليهم على أنهم بشر كما هو بشر، ولا يعلم قدرهم عند الله أو قدره هو عند الله. وهذا حقاً من منكرات الأخلاق؛ كفى مذمةً بالمتكبر أنه ينازع الله صفة من صفاته، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم-قال: (قال الله تعالى: الكبر ردائي، والعظمة إزاري)، فمن نازع الله في صفة من صفاته عذبه الله ولا يبالي جلَّ في علاه.

والله جلَّ في علاه يقول: (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) [النحل:23]؛ إذا أبغض الله عبداً فمن يحبه؟ وإذا أحب الله عبداً من يبغضه؟ ما في أحد، فالله لا يحب المستكبرين. وأيضاً كفى عقاباً بالمتكبر أن النبي -صلى الله عليه وسلم-كما في الصحيحين قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، والعياذ بالله.

وأمّا صفة الكبر وسمة الكبر حتى تعلمها من نفسك أو من غيرك: (بطر الحق وغمط الناس)؛

- وغمط الناس: يعني احتقار الناس. فانظر للناس وأنت في علو وهم في سفول، تزدري الناس كأنك خلقت من ماء غير هذا الماء، أو خلقت من نور وهم خلقوا من طين، فهذا غمط الناس. هذه الصفة الأولى.

- والصفة الثانية بطر الحق: أي مدافعة الحق بكل ما أوتي من قوة، بكل ما أوتي من شبه حتى لا يقبل هذا الحق تكبراً، لأنه أتى هذا الحق من غير طريقه أو من غير طريق من يعتد به فيدفعه -والعياذ بالله- كبراً منه.

ثم بعد ذلك قال: (والأهواء والأدواء)؛ أقول هذا ذكر خاص بعد عام وسيأتي في الفوائد المستنبطة، لأن منكرات الأخلاق منها الأهواء أيضاً، ومنها الأدواء. الأول اسم للظاهر والباطن، والثاني اسم للباطن لأن كل الأدواء التي يدعو النبي -صلى الله عليه وسلم- لها ويستنهض الأمة أن تدعو أن تجنبها الأمة هي أدواء القلوب، وهي الأدواء أو الداء

العضال الذي لا يمكن للإنسان أن يفر منه ولا يرتقي عند ربه حتى ينقّي قلبه. نعوذ بالله من منكرات الأهواء، والأدواء هي التي تصيب القلوب. ومن هذه الأدواء:

◆ الحسد: الحسد أشد الأدواء التي إذا امتلأت في القلب أحرقت صاحبها، فإن الحاسد محترق، الحاسد معترض على حكمة الله جلَّ في علاه، ليس براضٍ عن الله وليس براضٍ عن قضاء الله وعن قدر الله جلَّ في علاه.

وكما قلت الحاسد محترق والحسد هو أشد أدواء وأشد أمراض القلوب، فعلى المرء أن يعتني بقلبه وينظر مرة بعد المرة هل الحسد تعمق في قلبه أم لا؟ وأكثر ما تراه الحسد تراه بين طلبة العلم، يريدون الانفراد "الأحادية"، وهذه لا تكون إلّا لله جلَّ في علاه. وقال بعض علمائنا كما قال ابن عباس: هم كالتيوس في الحظيرة؛ كأنه ينصح بعضهم بعضا يريد الانفراد. فالحسد منتشر بين الناس، وأشد ما يكون بين طلبة العلم وبين الأقران. والحسد كما قلت داء عضال في القلب يفسد القلب، فعلى الإنسان أن ينقّي نفسه من هذا الداء العضال.

أدلة على مذمة الحسد: أولاً من كتاب الله، سورة كاملة في كتاب الله عن الحسد: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) [الفلق:1]. وفي الحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الحسد، قال: (لا تحاسدوا)، وهذا نهي وأصل النهي التحريم. الحسد أول معصية عُصِي بها الله جلَّ في علاه، ما الذي جعل إبليس يتكبر على أمر الله جلَّ في علاه؟ حسداً على آدم عندما قال: أنا لا أعظّم ولا يسجد لي!! وهذا الذي خلق من طين يسجد له؟!! فقال: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) [الأعراف:12]، فحسد آدم فلم يسجد له، دعاه الحسد إلى التكبر فلم يرضَ بأمر الله جلَّ في علاه.

ولذلك إبليس نفسه يقرر ذلك أن أول معصية أهلكته هي حسد آدم -عليه السلام-، ولذلك ترى الأمم التي اتبعت إبليس وهي في النار إن شاء الله معه يوم القيامة، أكثر هذه الأمم هي أمة بني إسرائيل، هي التي حسدت الأمم بعدها. ولذلك قال الله تعالى في كتابه مصرحاً مبيناً أن هذه الأمة أمة حاسدة: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا) [البقرة:109]، الوصف أنهم حسدة يحسدونكم على ما أنتم فيه من

خير. وهم يحسدون أهل الخير منهم، أن الله جلَّ في علاه لمّا جعل طالوت عليهم ملكاً ماذا قالوا؟ حسدوه وما رضوا به، (وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ) [لبقرة:247].

وأيضاً أهل مكة رفضوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حسداً، (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف:31]. وأيضاً كبراء مكة حسدوا العبيد كيف يمن عليهم بهذا الخير وهم لم تفتح قلوبهم لهذا الخير، لمّا قالوا: (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا)، قال الله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام:53]. فالحسد داء عضال أضاع الأمم وأضاع المتكبرين، نعوذ بالله من هذا المرض العضال.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد دعا ربه جلَّ في علاه أن يجنبه ذلك، وهذا استنهاض لأنفسنا إن كان الذي وصل إلى الكمال البشري يدعو الله ويستعيذ من منكرات الأخلاق، فنحن أحرى بنا وأجدر بنا وأولى بنا أن ننقي قلوبنا وندعو الله أن يجنبنا هذه المنكرات وهذه الأهواء وهذه الأدواء. إذاً الحقد والحسد والكبر والكذب من الأخلاقيات التي دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتجنبها وتتجنبها الأمة.

الحديث الثاني فيه: (إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء)؛ أصول ضلال هذه الأمة من أصلين، أصّلهما النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث: أصل شهوة وأصل شبهة.

فضلال الأمة يدور على هذين الأصلين: الشهوة والشبهة؛ والذي يضل بالشهوة يرجى له الأوبة ويرجى له التوبة، والذي يضل بالشبهة لا يرجى له الأوبة إلّا من رحم الله جلَّ في علاه. الدليل على أن سبب تخبط الأمة وضلال الأمة من هذين الأصلين:

- (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ) [مريم:59]، ممكن بإضاعة الصلاة لا تكون إلّا بالابتداع (اتباع الشبهات)، فالآية فيها الشبهات وفيها الشهوات.

- الدليل الثاني على الشبهة: (أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ) [آل عمران:7]، أصل ضلالهم ليدحضوا به الحق.

- (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) [النساء:27]، جاء الشبهات والشهوات؛ (تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) سواء كانت بالشبهة أو كانت بالشهوة، ومحصل الأمر بالشبهة أو بالشهوة انك ستزيغ وانك ستميل عن الحق وعن الطريق المستقيم.

- (فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ)، هذه شهوات فتنة المال وفتنة الجسد وفتنة الملك وفتنة الجاه، ثم قال: (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) [التوبة:69]، والخوض لا يكون إلّا في آيات الله جلَّ وعلا، بالشبهات، فجمع الله جلَّ وعلا بمضلات الفتن بين الأصليين الشهوة والشبهة.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- خشي على هذه الأمة من مرضين: مرض الشهوة ومرض الشبهة؛ وهذا ترتيب تصاعدي، مرض الشهوة أقل من مرض الشبهة.

▪ ومن أمراض الشهوة: شهوة البطن وشهوة الفرج، وهما متلازمان، أن الذي يأكل كثيراً يجامع كثيراً وينام كثيراً فيكون غبياً كثيراً، لِمَ؟ لأن الأبخرة تغطي في حيز الفكر فلا يفكر في شيء، تراه ينام كثيراً كسولاً كثيراً يجامع كثيراً.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت النصيحة الناصعة البياض التي هي أسطع من شمس النهار إذا أردت ألّا تشتهي فعليك بالصيام، عندما قال: (فمن لم يستطع فعليه بالصيام)؛ فالطعام الكثير يجر المرء إلى الشهوة شهوة الفرج فشهوة البطن متلازمة مع شهوة الفرج. والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن لا يأكل إلّا في معي واحد.

ولذلك ابن القيم يبيّن لنا أن فضول الطعام هي أشد ما تكون على الإنسان؛ فضول الطعام وفضول الكلام وفضول النظر. أقول فضول الكلام وفضول النظر، كل ذلك من فضول الطعام، فأصل الضلال أو الشهوة الشديدة التي تجر الإنسان لما بعدها من شهوات شهوة البطن. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بحسب امرئٍ من لقيمات يقمن صلبه؛ ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)، فلا بد أن يجعل المرء ثلث لطعامه حتى لا يصل إلى فرجه.

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يضمن ما بين لحييه)؛ الفم واللسان، والفم فيه الطعام.، (وما بين فخذيه أضمن له الجنة) لأن الفرج من أشد ما تكون من الشهوات.

فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما تركت فتنة من بعدي أضر على الرجال من النساء)، ولذلك حسم الله الباب وحسم المادة وأمر بغض البصر، وأمر رسول الله بغض البصر، ومنع النساء من المساجد إلماحاً وليس تصريحاً حيث يقول: (وبيوتهن خيرٌ لهن). هذه هي الأمراض الأولى أمراض الشهوات.

ويرجى لمن كان ضلاله في الشهوة؛ طلب النظر، طلب المال، طلب الجاه. (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة)، (تعس عبد الزوجة) في رواية من الروايات بسند صحيح. هؤلاء الذين يمتلئون حباً للمال، يمتلئون حباً للشرف والجاه، يمتلئون حباً للنساء، نقول لهم: أقوى أو أقرب ما تكونون إلى الله جلَّ في علاه توبةً وأوبة ما دام الأمر في الشهوة.

- أمّا الشبهة فإن توبته بعيدة، والدليل على ذلك قد شرحناه وفصّلناه؛ هذا حديث النبي: (إن الله قد حجب التوبة عن كل صاحب بدعة). وصاحب البدعة ملعون، ولذلك فإن الملعون إذا طرد من رحمة الله أصعب ما يكون أن يرجع إلى الله جلَّ في علاه وإلى توبة الله ما دام قد طرده الله من رحمته.

إذاً هذه الجملة الأخيرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء)، جمع بين الأصليين العظيمين: الأصل الأول شهوة، والأصل الثاني سبب الضلال شبهة. والذي في شبهة لا يرجى له التوبة، والذي في شهوة يرجى له التوبة.

الفوائد المستنبطة من البابين السابقين:

- الفائدة الأولى ذكر الخاص بعد العام يدل على الأهمية؛ دليل من الشرع على أن ذكر الخاص بعد العام يدل على التأكيد: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ) [البقرة:238]، إذاً ذكر الخاص لأن الصلاة الوسطى تعتبر أخص، هي صلاة من

ضمن الصلوات، فلمّا يقول: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ)، ذكر الوسطى تخصيصاً للأهمية.

أيضاً (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) [النحل:90]؛ (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) خاص، (الْإِحْسَانِ) يشمل إيتاء ذو القربى وغيره. فهنا ذكر إيتاء ذي القربى تخصيصاً وبياناً إلى أن صلة الأرحام وأن تعطي النفقة للرحم أولى من الغريب. ويدل على ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أدناك ثم أدناك)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لزينب امرأة ابن مسعود لمّا سألته عن مسألة الزكاة: تعطيها لابن مسعود؟ قال: (لكِ فيها أجران أجر الصلة وأجر الصدقة).

(مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) [البقرة:98]؛ كل الملائكة ثم ذكر تخصيصاً: جبريل وميكال، هذا دلالة على التأكيد والأهمية، أيضاً (اتقوا فتنة الدنيا واتقوا فتنة النساء)؛ من فتنة الدنيا النساء، ما الدليل على أن النساء من فتنة الدنيا؟ (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [آل عمران:14]، فالنساء من متاع الحياة الدنيا، فلمّا ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-قال: (اتقوا فتنة الدنيا واتقوا فتنة النساء)، ذكر الخاص بعد العام للأهمية.

وهنا يبين النبي -صلى الله عليه وسلم-أن الأهواء والأدواء والبدع أهم بكثير من أي شهوة، بين إشارات كثيرة والمضلات مضلات الفتن كثيرة وأشد ما يكون مضلات الفتن بسبب الشبه والبدع.

- الفائدة الثانية علامات النبوة؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- من علامات نبوته كثيرة منها أنه تنبأ لهذه الأمة أنها ستتيه وتتخبط في الشبهات والشهوات؛ قال: (إن مما أخشى عليكم بعدي البطون والفروج ومضلات الأهواء)، والأمة الآن طاعنة في الشهوات وفي الشبهات ليل نهار، النساء كاسيات عاريات والمغنيات والموسيقى وكل المحرمات تراها في هذه الأمة يميناً ويساراً، شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً. وأيضاً الشبهات فإن

الأمة تفرقت وتمزقت، أصبحت فرقاً بسبب هذه الشبهات فكانت نبوءة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- الفائدة الثالثة: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حصن هذه الأمة، فلمّا مات النبي أتى الأمة ما توعد كما قال نبينا -صلى الله عليه وسلم-: (النجومُ أمنَةٌ للسماءِ، فإذا ذَهَبَتِ النجومُ أتَى السماءَ ما توعَدُ، وأنا أمنَةٌ لأصحابي، فإذا مت أتى أصحابِي ما يوعدونَ). فقد أوتيت الأمة بعد موت النبي بفجيعة كبرى، قال أنس مبيناً ذلك: ما لبثنا أن دفنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلّا ورأينا تغير أو أنكرنا قلوبنا.

بعدما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتت الفتن تتراً تتتابع على هذه الأمة، دلالة على أن الفجيعة بموت النبي ليست تدانيها فجيعة، وأن المصيبة ليست تساويها مصيبة. بموت النبي انكشفت الأمة وحلت بها الفتن، كما وصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتن تجعل الحليم حيران، ونعوذ بالله من الخذلان.

ذكرت أننا جلسنا في مجلس العلم من أهم الفوائد أن نذكر بأسمائنا وأسماء أمهاتنا عند ربنا (ما في دليل تكلمت بذلك سقط لسان)، لكن أدلة كثيرة تثبت أننا نكتب بالأسماء عند ربنا. وإلّا فإننا عندنا دليل السحابة، ذكر صاحب الأرض باسمه؛ ملك أمر عندما قال له الراوي: ما اسمك؟ قال: فلان، قال: سمعت من السماء اذهب بهذه السحابة إلى أرض فلان باسمه، فيذكرون بأسمائهم. والحديث معلوم (يكتبون ثم يقال: فلان ما جاء إلّا لحاجة (يعني ما جاء للعلم ما جاء إلّا لحاجة)، يقول الله جلَّ في علاه: هؤلاء القوم لا يشقى بهم جليسهم) فأنت تذكر باسمك عند الله جلَّ في علاه. ولذلك قلت علي بن أبي طالب كان يقول: كونوا معروفين في أهل السماء ولا تكونوا معروفين في أهل الأرض، إشارة إلى الإخلاص والعمل لله جلَّ في علاه.

المسألة الثانية أنا قلت أن التوسل بالنبي فيه خلاف، حتى نقر بأن هناك ثمة خلاف، لكن لا بد أن يتضح للإخوة أن الخلاف بالتوسل بالنبي هو التوسل بجاه النبي، أمّا التوسل بالذوات فهو ممنوع كما بينا بالتفصيل.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله عنا خير.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الخامس: باب ما يجب أن يكون هوى المرء تبعاً لما جاء به النبي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك السنة لابن أبي عاصم، بلغنا بفضل الله ومنه وكرمه وحوله وقوته وفضله علينا باب: ما يجب أن يكون هو المرء تبعاً لما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلق الله محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً وبعد: قال المصنف -رحمه الله-:

باب ما يجب أن يكون هو المرء تبعاً لما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به).

وعن جابر بن عبدالله قال: (كنا جلوساً عند فخط خطاً هكذا أمامه فقال: هذا سبيل الله عز وجلّ،

وخط خطاً عن يمينه وخط خطاً عن شماله وقال: هذه سبل الشيطان، ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلى هذه الآية: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الأنعام:153]).

الحديث الأول والحديث فيه "نعيم بن حماد"، هذا الحديث كما قلنا هو إشارة فقط لمّا كفانا فيه الشيخ -رحمة الله عليه- (الشيخ الألباني)، إسناد هذا الحديث ضعيف. وهذا الحديث حسّنه النووي وقرر بأنه حديث حسن صحيح، والعلماء وهّنوا التصحيح بنعيم بن حماد. والحديث له علتان صراحة، ليست هذه العلة الوحيدة.

"نعيم بن حماد"؛ الغريب أن هذا الإسناد روى له البخاري وأبو داوود والترمذي وأيضا ابن ماجه، لكن البخاري روى له مقروناً، ما هي الحكمة أن أقول مقروناً؟ إذا روى البخاري له إفراداً، فهو حجة عنده؛ أي ثقة ثبت. أمّا إذا روى له مقروناً، إذ هو فيه ضعف فيتقوّى بغيره، كالمتابعات. إذاً لمّا نقول روى له البخاري، حتى لا يؤخذ على البخاري كيف يخرج لهذا الرجل. نعيم بن حماد وفقه كثير من أهل العلم أولاً -كما قال ابن رجب-، إحساناً للظن به لأنه كان يعد على السنن بالنواجذ، ثم لمّا تتبعوا استقراءً لأحاديثه وجدوه يخالف الثقات ووجدوه يأتي بالمناكير، حتى أن أبا زرعة قال: هو يرفع الموقوفات ويصل المرسلات؛ فهذه فيها ضعف وتوهين له. أيضاً نعيم بن حماد روى له أبو داوود والترمذي وابن ماجه، وقلنا هذا الحديث الضعف فيه من نوعين.

والعلة الثانية التي ذكرها أهل العلم هو "عقبة بن أوس"؛ عقبة بن أوس يروي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، والصحيح أنه لم يسمع منه. إذاً في الحديث إرسال أو انقطاع؟ نقول عند المحققين يرون بأن الانقطاع غير الإرسال؛

الإرسال: هو رواية التابعي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإسقاط الصحابي، وأمّا الانقطاع: هو إسقاط راوي واحد.

عقبة بن أوس لم يسع من عبد الله، فهنا الانقطاع.

إذاً له علتان: ضعف عن نعيم بن حماد، والثاني الانقطاع.

هذا الحديث حديث عظيم جداً، قال فيه العلماء المحققون: لو صح لنا أن نقول هذا الحديث هو كل الإسلام ويجمع كل فوائد الإسلام؛ لأن من عض عليه بالنواجذ وأخذ به تابعاً بالإيمان وغير الإيمان قد كمل إيمانه وارتفع الدرجات العلا، ومن تركه ترك أصله وفرعه (أي ترك الإيمان وترك ما يحوط الإيمان)، فقد كفر وخرج من دائرة الإيمان، فهو جمع الدين كله.

هذا الحديث العظيم، نرى رسولنا -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا مكمن كمال الإيمان، وأن المؤمن بحق المؤمن كامل الإيمان الذي يستسلم استسلاماً تاماً محضاً لله جلَّ في علاه، لأوامر الله وأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. ثم نرجع للتقعيد العلمي للمصنف الذي ابتدأ به، وهو التصفية قبل التحلية لنا؛ أسس وأصول للعبادة المحضة لله جل في علاه، أرقى المنازل لا تكون إلّا بالاستسلام التام لله جلَّ في علاه. لا يؤمن أحدكم الإيمان الكامل، لا يكون مؤمناً حقاً عند ربه جلَّ في علاه حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الله جلَّ في علاه، لسان حاله يطبّق ما قاله الشافعي: آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)؛ الهوى اثنان: هوى محمود ممدوح، وهوى مذموم صاحبه مرفوض عند ربه جلَّ في علاه. أو كما نقول أوامر الله جلَّ في علاه قسمان: أوامر هي توافق الجبلة وتوافق الهوى وتوافق الشهوة الإنسانية، وأوامر لا توافق الجبلة (تخالف).

إذاً الهوى قسمان: هوى ممدوح وهوى مذموم:

- الهوى الممدوح: هو الذي يوافق مراد الله جل في علاه ويوافق مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا الهوى يكون هوى الإنسان أو شهوة الإنسان فيه ويؤجر فيه عند ربه جلَّ في علاه. يأتيه ويؤجر فيه؟ نعم يأتي ما يحب ويؤجر بذلك، ورأس أمر هذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن المرء مع من أحب)، كما قال أنس: ما فرحنا بشيء مثل ما فرحنا بهذا الحديث، فإني لا أفعل ما يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا أفعل ما يفعله أبو بكر ولا عمر، ولكني أحب رسول الله وأحب أبا بكر وأحب عمر. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المرء مع من أحب)؛ كيف نستنبط أن هوى الإنسان يدخل تحت هذا؟

نقول رجل له سمات شخصية توافق سمات شخصية هذا الإنسان وهو يحبه، لِمَ؟ الأرواح جنود مجندة، تواكبت الصفات والسمات معاً فترافقا. متى يكون عبادة؟ عندما يكون هذا الثاني رجل من الصلاح بمكان ومن العلم بمكان ومن العبادة بمكان، وهو يحبه ويحب الاقتران به والاقتراب منه، يقول هذا الهوى تبعاً لما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، كيف ذلك؟ إذا كان العبد صالحاً ورعاً تقياً عالماً فاعلاً للخيرات، وأحبه -مع السمات الشخصية المتوافقة- لصلاحه، هنا يدخل تحت قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هواه تبعاً لما جئت به).

أوضح من ذلك حب المرء للمرأة؛ أن الرجل يميل للمرأة جبلة والمرأة تميل الرجل جبلة، فإن الرجل يميل لامرأته جبلة، ويميل للجماع جبلة، وهو مع ذلك هذا هواه وهذه شهوته، يأتيها وله في ذلك الأجر، بل ويقرر حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تبعاً لما جئت به). قال الله تعالى: (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) [الأحزاب:51]؛ ما شاء يأخذ وما شاء يبيت عند هذه، ما شاء يقسم لهذه شاء لا يقسم لهذه. كما حدث لصفية أنها كانت أفضل ظهر، عندما كانت في سفر من السفرات وتعطلت السفرات بسبب ظهر صفية، زينب عندها بعير كثر فقال: أعيريها، قالت: أعير هذه اليهودية؟ فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- عليها. لكن صفية رأت أنها عطلت السفر وعطلت الناس في سفرهم، فرأت النبي -صلى الله عليه وسلم- نظر إليها نظر الغضب أو مغضباً، فقالت: كيف أرضيه؟ مكمن الرضا عند الرسول -صلى الله عليه وسلم-عائشة.

فذهبت إلى عائشة فقالت: ما رأيك أترك لكِ ليلتي؟ عائشة -رضي الله عنها- تسارع بالرضا، قالت: على شرط أن تربي عني رسول الله، قالت: أفعل. فذهبت فلبست خمارها وتعثرت وكشفت خباء النبي -صلى الله عليه وسلم- ودخلت، فقال: يا عائشة هذه ليست ليلتك، يعني هذا ليس لك. فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فدخلت تربيه عن صفية وأخذت هذه الليلة. والنبي له في ذلك أن يؤوي هذه أو يترك هذه أو يرجئ هذه، فلمّا قال الله جلَّ في علاه مخيراً يفعل ما شاء ويقرب من شاء منهن ويتزوج من شاء من الواهبات له، قالت عائشة من الغيرة (وهذا محل الشاهد): والله ما أرى الله إلّا يسارع في هواك. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة).

فإذاً يأتي الرجل امرأته، ويقترب من امرأة من نسائه، هوى الإنسان في ذلك وهو تبعاً لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمر الله جلَّ في علاه. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وفي بُضْعِ أحدكم صدقة)، فهو يأتي هواه ويكون في رضا الله جلَّ في علاه.

وأيضاً الذي يثبت لنا ذلك ويعضده، قول عمر بن الخطاب عندما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أسارى بدر، فقال: يا رسول الله أرى أن تعطيني كذا بن الخطاب فأقتله إرضاءً لله جلَّ في علا، وتعطي عقيل لعلي فيقتله، وتعطي كذا لأبي بكر فيقتله، يعلم الله أنه ليس في قلوبنا أحد من المشركين هوادة. فقال أبو بكر: يا رسول الله عشيرتنا، ولعل يدخل واحد منهم في الإسلام فيقوّي شوكتنا، الفدا يا رسول الله. فقال عمر بن الخطاب: فهوى رسول الله ما قال أبو بكر؛ هذا تصريح من عمر أنه يرى أن هذا الهوى، وهذا الهوى هوى حق، هوى لما جاء به الله جلَّ في علاه.

إذاً الهوى الممدوح: وهو ما كان يرضي الله جلَّ في علاه، ما كان يرضي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان المرء يأتي فيه شهوته، فهو إن احتسب فقد أتى مراد الله جلَّ في علاه وسعى فيما يرضي الله جل في علاه، مطبقاً آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. فيما يهوي الإنسان وفيما يبغض وفيما لا يرضى، كما قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وهواي فيما قدر الله عليّ؛ مع أن الله جل وعلا يقدّر على المرء البلايا والمصائب، ويقدر عليه السراء والضراء، ومع ذلك يقول هواي في الضراء كما أن هواي في السراء، يعني تابعاً مستسلماً استسلاماً تاماً لله جلَّ في علاه.

إذاً القسم الأول الهوى الممدوح، وهو ما كان فيه محبة الإنسان، جبلة إنسان، ومع ذلك يؤجر عليه، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

- الهوى المذموم: هو ما ضاد أوامر الله جلَّ في علاه، ما خالف شرع الله جلَّ في علاه. وقال علماؤنا: الهوى منبع البدع، منشأ البدع من الهوى؛ يهوى المرء كلام أحد غير كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإن ضاد كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم-، تراه يناصر هذا الكلام على كلام رسول الله، يعطي من أجله ويمنع من أجله ويحارب من أجله ويقاتل من أجله.

ورحم الله الثوري عندما قال: البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية؛ إذ أن البدعة صاحبها يقاتل عليها وينافح عليها ويدافع عليها ويدلل عليها. هذا هو الهوى المذموم، هو ما يخالف شرع الله جلَّ في علاه. هذا إيجازاً في الحديث الأول.

الحديث الثاني قول جابر: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خط خطاً وخط حوله خطوطاً، فقال: هذا سبيل الله)؛ هذا تصوير بديع من النبي -صلى الله عليه وسلم-، يبيّن أن الخط المستقيم بين النقطتين أقصر ما يكون إلى الحق أو إلى النجاة. هذا الخط المستقيم هو طريق الله القويم السديد، النهج الذي شرعه الله جلَّ في علاه، وارتضاه لهذه الأمة على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وفي كتابه الحكيم. هذا الذي أخذ به وعض عليه بالنواجذ هو الموفق هو المسدد، والذي زاغ عنه هو الضال المبتدع الزائغ والعياذ بالله.

أول هذا الطريق جماعة الهدى والحق، ومنتهى هذا الطريق الجنة الفردوس الأعلى ورؤية الحق، اللهم ارزقنا رؤيتك يا رب العالمين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. إذاً أول هذا الطريق: الطريق القويم الذي رسمه النبي -صلى الله عليه وسلم- جماعة الحق، الذين اجتمعوا على الحق ولا يجتمعوا على ضلالة، كما قال ابن مسعود: لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، بل تجتمع على الحق. ومنتهى هذا الطريق: هو جنة الفردوس ورؤية الرب الجليل جلَّ في علاه.

أمّا هذه الخطوط كما قال علماؤنا: وحّد الله السبيل فهو سبيل واحد، وهذه الخطوط الشتى المتشرذمة هي سبل استدعاها الشيطان يتردى فيها من تردّى، أوله جماعة الضلالة وآخره ناراً تلظى مع الحسرة والندامة، نعوذ بالله من الخذلان. إذاً أول هذه الطرق: كل طريق أوله جماعة من أهل الضلال، أهل الزيغ والعدوان، أهل بدعة والضلالة، الذين ترسموا طريقاً غير طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قوام الطريق الواحد غير هذه الخطوط، قوام هذا الطريق كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، مأخذه الأصلي: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، وأصله قول الله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ

حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]، وقول الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36].

وأصله في السنة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، (وما أمرتكم من شيء فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عن شيء فانتهوا). وقوله وهذا من أروع ما قاله، حديث العرباض في مسند أحمد: وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موعظة بليغة فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (هذه الرواية الأخرى): (تركتكم على المحجة البيضاء)؛ هذا هو الشاهد: تركتكم على طريق مستقيم قويم، من عض عليه بالنواجذ ففيه النجاة، ومن حاد عنه فبقدر الحيدة فيه الضلال والزيغ، قال: (تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلّا هالك. وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ). وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ كتاب الله وسنتي).

هذا هو الطريق القويم، الطريق المستقيم. لذلك حث الله الأمة على لسان نبيها ألّا يحيدوا عن هذا الطريق؛ خط مستقيم فلا بد من السير على هذا الخط وعدم الحيد عن هذا الخط. ولذلك قال ابن عباس: رؤية صاحب السنة تذكِّر بالسنة وترفع السنة وتنهى البدعة، وهو عبادة؛ ما التفسير؟ لتعرفوا فضل أهل السنة ولا تستغربوا على أن البخاري يقول: إنهم الى قل تراحموا، الثوري يقول: لو سمعت به في المدن في مشارق الأرض أو مغاربها ذهبت إليه؛ لأن صاحب السنة عزيز في ندرة، (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم).

ابن عباس ينبئكم بنبأ، قال: رؤية صاحب السنة تذكِّر بالسنة وترفع السنة وتنهي البدعة، وهو عبادة؛ يذكرك بالله ويذكرك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فصاحب السنة إذا وقفت معه لا بد أن يذكرك بالسنة قولاً أو تقريراً أو فعلاً. وهذا الذي يخرّج عليه قول أحمد عندما قالوا له: تنهانا عن الشافعي ونراك خلف بغلته، قال: اسكتوا والله إن لم يتكلم الشافعي لاستفدت من بغلته، يعني من تعامله مع البغلة لأنه سيستعمل السنة في التعامل مع البغلة.

إذاً بلسان حاله يحي السنة، وينزل تحت حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحيا سنتي). وتنهى البدعة؛ ما أحيا عبدٌ سنة إلّا أمات مقابلها بدعة، والعكس بالعكس صحيح: ما أحيا أحد بدعة إلّا ومات مقابلها السنة.

وهو عبادة؛ هذه فيها تفصيل، هذه أبوابها قوية، وهي النظر إليه عبادة. كيف النظر عبادة؟ المقصد هو تطبيق السنة وإحياء السنة والعمل بها ومعرفة السنة، وهذه لا تكون إلّا بالوسيلة وهو النظر لصاحب السنة؛ كيف يتعبد لله، كيف يأمر بالسنة، كيف ينهى عن البدعة، كيف يقرر السنة من باب الوسائل لها أحكام المقاصد، فيكون هنا النظر حق عبادة من هذا الباب. الفضيل بن عياض قال كلمة أشد ما تكون وهي أرعب ما تكون في القلوب: صاحب البدعة فإن الله أحبط عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه إن أصرّ على هذه البدعة. الفضيل بن عياض يؤصّل لنا أصلاً أعظم مما يكون، وهو مستقى من حديث النبي؛ من أين استقى هذا الكلام العظيم؟

إجابات الطلبة:

- بأن الرجل إذا جلس مع صاحب بدعة تنكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا جالسه بعد ما تنكت في قلبه النكتة السوداء تزداد حتى يعلوه الران؛ (كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [المطففين:14]، فيكون له هذا الجزاء جزاءً وفاقاً.

- (تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نُكت فيه نُكتة سوداء)؛ فمن جالس صاحب البدعة وأقره على ما هو عليه، نكتت في قلبه النكتة السوداء حتى تعلو القلب.

واستقى ذلك من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله حجب التوبة عن صاحب البدع حتى يرجع عن بدعته)، لذلك قال الفضيل بن عياض -رضي الله عنه وأرضاه-: إن الله احبط عمل صاحب البدعة؛ لأنه يضاد الشريعة، يحاد الله ويحاد رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فقال: إن الله احبط عمل صاحب البدعة وأخرج نور الإسلام من قلبه.

إذا الحديث "خط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطاً وخط خطوطاً"؛ وهذا الخط القويم لا بد من العض عليه بالنواجذ، والشرح سيطول في هذا الباب لأن الباب طويل جداً، فأردنا فتح الباب بهذه الكلمات.

الفوائد المستنبطة من الحديثين:

١- الحديث الأول: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)؛ "لا يؤمن" نفي الإيمان، والأصل في نفي الإيمان هو نزع الإيمان بالكلية. إذا لم يتبع المرء ولم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي، فقد كفر، فقد خرج من دائرة الإيمان.

والصحيح نقول القاعدة على بابها، أن النفي هو نفي أصل الإيمان، إذ "لا يؤمن": لا يكون مؤمناً، هذا هو الأصل لكنه مؤول. كيف التأويل؟ أنه على المستحل مخالفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ بعدما يبيّن له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول كذا، وهو يقول: وإن قال أنا أفعل ذلك. يحاد الله ويحاد رسوله -صلى الله عليه وسلم- بعدما يتبيّن له الحجة، تتبيّن له سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو يضاد سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- على بصيرة وعلى علم. هذا الذي يقال فيه: (لا يؤمن)؛ أي لا يكون في قلبه ثمة إيمان، يدخل تحت قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ) [المجادلة:20]، ولا يكون في الأذل إلّا من كفر وخرج من الملة لأنه يكون في الدرك الأسفل من النار. هذه دلالة بالتصريح على من يحاد الله ورسوله، وهذا الأصل.

الثاني نقول (لا يؤمن أحدكم) الأصل فيه نفي الأصل إلّا أن تأتي قرينة تنفي الكمال، فمعنى الحديث: لا يؤمن إيماناً كاملاً من ضاد بعض أوامر الله جل في علاه وبعض أوامر النبي شهوةً دون المحادة. والقرائن التي احتفت لتأويل هذا من نفي الأصل إلى نفي الكمال هو حديث: (من مات على "لا اله إلّا الله" دخل الجنة، فقال له أبو ذر: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، وعلى رغم أنف أبي ذر [في القول الثالث لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد السؤال الثالث لأبي ذر]). فهذه قرينة تؤول قول النبي -صلى الله عليه وسلم- من (لا يؤمن) يعني لا يؤمن إيماناً كاملاً، وهذا عليه إجماع أهل السنة. وأيضاً لمّا أوّلوه على الإيمان الأصلي، قالوا بالاستحلال فقط، هذه الأولى.

والثانية؛ قد وردت لنا أمثلة كثيرة عن الصحابة أن هواهم مرضية وأن هواهم تبعاً لما حكم الله وحكم رسوله، ومن خالف في ذلك استحق المذمة. هناك حديث فيه بعض الضعف لكن يستأنس به: أن عمر بن الخطاب -رضي عنه وأرضاه- جاءه رجلان؛ رجل منافق ورجل يهودي، أمّا الرجل اليهودي فقد قال للمنافق بعد ما اختلف: نتحاكم إلى رسول الله، فبعدما حكم بينهما قال المنافق: لا أرضى. وهذه دلالة على أن صاحب الهوى النفاق يملأ قلبه، لا يرضى بالله حكماً ولا يرضى برسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقسطاً حكماً. قال أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- بما حكم به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال المنافق: والله لا أرضى، اذهب إلى عمر بن الخطاب. فذهب إلى عمر بن الخطاب، وويل ثم ويل عندما ذهب إليه، قال اليهودي تحاكمنا لرسول الله فقال: لا أرضى، فتحاكمنا إلى أبي بكر فقال: لا أرضى، قال: اذهب إلى عمر. فقال له عمر: أترضى بحكمي؟ قال: نعم أرضى، كأنه يؤمّله خيراً. قال: انتظرني ساعة أو برهة، فدخل فاستل سيفه ثم أطاح برأسه متأولاً في ذلك قول الله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) [النساء:65]، هنا النفي نفي الأصل.

وقد ضرب لنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- أروع الأمثلة في ذلك، وقد قال: أيها الناس اتهموا الرأي في الدين فلقد رأيتني يوم الحديبية وأنا أنازع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ هذا عقل مع نقل، [قال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ ففيم نعطي الدنية في ديننا؟] قال: رأيتني وأنا أنازع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية وقد سمّاه الله نصراً، فاتهموا الرأي في الدين؛ يعني أصبح مخطئاً، مع أن العقل كان يقول نحن الأقوى فلِمَ نعطي الدنية في ديننا. لكن عمر بن الخطاب كان أوفق منه للحق أبو بكر؛ قال: الزم غرز هذا.

٢- وهذه الفائدة الثانية التي ننتقل إليها: النظر لا يصح مع الأثر؛ لا يصح بحال من الأحوال أن تضرب الأثر بالنظر، وهذه استقيناها من الحديث الثاني؛ إذاً طريق الأثر طريق واحد، وهذه الطرق طرق النظر، فإن صادمت الأثر لا يؤخذ بها.

إذاً كل نظر صادم الأثر فهو طريق وشعبة من هذه الشعب، وسبيلاً من هذه السبل، التي لا بد ألّا نأخذ بها. ولذلك قلنا علماء الأصول قالوا: كل قياس (وإن كان راجحاً) خالف نصاً فهو قياس فاسد الاعتبار.

نضرب أمثلة على ذلك منها: تزويج المرأة لنفسها، قال به الأحناف بالقياس، قال: بالنظر للمرأة البكر العاقل الرشيدة أن تزوج نفسها، وقاس على الذمة المالية؛ هي لها ذمة مالية مستقلة، لها أن تبيع وتشتري. الجامع بينهما في المعاوضة، الشراء والبيع معاوضة، والفرج أيضاً هي تعوض. ولذلك العلماء يقولون: المرأة لها ألّا تمكّن زوجها من نفسها حتى تأخذ مهرها، أو يطيب خاطرها وتقول نعم ويكون ديناً في ذمته، أو تسقطه عنه. فهنا بجامع المعاوضة قال: لها أن تزوج نفسها. وهذا القياس وإن كان قياساً فيه حظ من النظر، لكنه قياس فاسد الاعتبار لأنه خالف أثراً، خط رسول الله الأثر؛ الكتاب والسنة.

أما قلنا وقوام هذا الخط كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم قلنا: وأصله (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)، هذا الأصل. فلذلك نقول: إذا كان قوامه الكتاب والسنة، فكل قياس خالف الكتاب وخالف السنة فلا بد من طرحه، لا يمكن أن يؤخذ به، القياس يعتبر قياس فاسد الاعتبار لأنه قد خالف نصاً.

٣- الفائدة الأخيرة: الحق واحد لا يمكن أن يتعدد؛ وهذا رد على من يقول: خلاف أمتي رحمة، هذه التي يتغنى بها كثير من الناس حتى يتسنى لكل إنسان أن يشتهي ما يشتهي من الفتاوى ويأخذ ما شاء منها، ويقول اختلاف الأمة رحمة ويستند لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اختلاف أمتي رحمة). وهذا الحديث لا يصح بحال من الأحوال، هو إلى الوضع أقرب منه إلى الضعف.

لكن من أين استنبطنا هذا الاستنباط؟ خط النبي -صلى الله عليه وسلم- خطاً واحداً، ليس متعدداً خطاً واحداً وخط خطوطاً حوله؛ هذا دل ذلك على أن الحق خط واحد لا أكثر من خط. لكن يشكل علينا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في بني قريظة عندما قال: (لا تصلوا العصر إلّا في بني قريظة)، فقال قوم نحن قد أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألّا نصلي العصر إلّا في بني قريظة، فقالوا: لن نصلي إلّا في بني قريظة، فصلوا في بن قريظة. ثم طائفة أخرى

قالوا: لا، أراد بذلك أن نسرع الخطى حتى نصلي في العصر إلى بني قريظة، فنصلي الصلاة في وقتها ثم نذهب إلى بني قريظة. فلمّا عاد للنبي -صلى الله عليه وسلم- وافق أو أقر الطائفتين على ما فعلوا، فكيف نؤول ذلك؟ وكيف نؤول قول الفقهاء وقول العلماء: "لكل مجتهد نصيب"؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- صوّر تصويراً بديعاً، قال: اسمعوا مني وانظروا، خط مستقيم، هذا الخط هو الحق، وخطوط أخرى كثيرة، هذه الخطوط لا يمكن أن تكون حقاً، لأن الحق في هذا الخط. فإذاً رسم لنا خطاً واحداً يبيّن لنا أن هذا هو الحق، إذاً الحق لا يتعدد. أو هذا الخط يتشعب منه شعب، فيكون الحق متعدداً.

حتى المسألة تتسع لكم، أقول: الخط هذا يصح أن يكون له فروع تصل إليه أو فروع تخرج منه. ستقول الحق له تنوع واختلافات أخرى أو طرق أخرى أو سبل أخرى، والدليل على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى الوتر: واحدة، وصلاها ثلاثاً، وصلاها خمساً، وصلاها سبعاً، وصلاها تسعاً. فأي نأخذ وأي السنة؟ أيضاً صلى الضحى ركعتين، أربعاً، وصلاها ثمانية، فبأي نأخذ؟ صلى الظهر لمّا صلى الجمعة صلى قبلها السنة أربعاً، وفي البيت صلى ركعتين، ففيما نأخذ؟ وأيضاً أوصى النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- ألا ينام إلّا على وتر وأن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وأوصى عبدالله بن عمرو ابن العاص أن يصوم يوم ويفطر يوم، وأيضاً كان يبيّن أن أفضل الوتر يكون آخر الليل؟ فأي الحق؟

لو جاءكم رجل وقال: يا أخي الفقيه الفلاني والثاني اختلف معه، والحمد لله في ذلك سعة ورحمة، اختلاف امتي رحمة. ماذا تقولون؟ عمر بن عبد العزيز -وهذا كلام بسند صحيح عنه- قال: ما وددت أن يتفق صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لأن في اختلافهم سعة على هذه الأمة. وعمر بن عبد العزيز هذا الرجل أثري، رجل ليس بالهين، فحل ثقة ثبت، راوي لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، زاهد ورع تقي، مع خلافته للمسلمين، ويقولون هو خليفة راشد.

هذه المسألة والله أنا ما أردت أدخل في الباب لأن الباب هذا طويل جداً، لكن صراحة أعجبني جداً رسم الرسول -صلى الله عليه وسلم- للخط، وقلت لا بد أن نتمسك ونعض بالنواجذ على

هذه المسألة، لأنه شاع في الأمة بأسرها بالذات النساء، النساء خفيفات لأشياء معينة؛ فيقول: اختلاف الأمة رحمة، هذا فقيه وهذا خطيب نأخذ، بهذا أو نأخذ بهذا كيف ما شئنا، هذه سعة. وطبعاً كثير من العوام يدندنون حول ذلك، كثير ترى من الذين يفتون بأن ممكن البنوك الربوية مثلاً أن تتعامل معها عند الضرورة، أو نكاح المتعة قال به بعض الناس، فيقولون اختلاف الامة رحمة. فهل نوافق أو نخالف؟

قلتم نخالف، قلنا لكم: قالوا النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عنه أنه قال: (اختلاف الأمة رحمة)، وعمر بن عبد العزيز يقول: وددت ألّا يتفق الصحابة لأن فيه سعة للأمة، وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه هنا يصلي الوتر واحدة وثلاثة، ويأمر يوصي أبا هريرة بألّا ينام إلّا على وتر ويصوم ثلاثة أيام، ثم يوصي الآخر بصوم يوم، فأي الحق من هذه الأمور الكثيرة المتعددة ليفعلها الإنسان ويقول الحق واحد عند الله جلَّ في علاه؟

الحق الاختلاف نوعان: اختلاف التنوع واختلاف التضاد؛

١- اختلاف التنوع: معناه أنه جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا وذاك، وترك هذا وفعل هذا. فهذا اختلاف التنوع، واختلاف التنوع الامة تقول به كله، من فعل ذلك فقد أتى بالسنة ومن فعل ذلك فقد أتى بالسنة. فمن صلى إحدى عشرة ركعة بالليل فقد أتى بالسنة، من صلى ثلاث عشرة ركعة في الليل فقد أتى بالسنة، لكن ما الدليل على هذا؟ قد ورد عن رسول الله أنه صلى إحدى عشرة وثلاث عشرة ركعة، حديث ابن عباس لمّا بات عند خالته ميمونة فقام من الليل، قرّب للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فلمّا توضأ النبي -صلى الله عليه وسلم- قام ابن عباس يصلي على يسار النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأخذه النبي -صلى الله عليه وسلم- من أذنه (وهذه الحركة لأجل مصلحة الصلاة) ثم جعله على يمينه. قال ابن عباس وهذا في الصحيح: (فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين)؛ كم؟ اثنتا عشرة، قال: (ثم ختمها بواحدة) الوتر، فصلى ثلاث عشرة ركعة.

فهذه دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى ثلاث عشرة ركعة، لكن أكثر كان يصلي إحدى عشرة ركعة. فمن صلى بهذه فقد أتى بالسنة، ومن صلى بهذه فقد أتى بالسنة. ومن أوتر قبل أن ينام فقد أتى بالسنة، ومن أوتر وسط الليل فقد أتى بالسنة، ومن أوتر في السحر أخر

الليل فقد أتى بالسنة. ما الدليل؟ حديث عائشة صريح قالت: (من كل الليل أوتر)؛ أي أوتر أول الليل وأوسط الليل وأواخر الليل، فهذا اختلاف تنوع يصح للإنسان أن يأتي به.

٢- ثم النوع الثاني من الاختلاف وهو اختلاف التضاد: والمقصود بهذا الرسم الذي رسمه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن اختلاف التضاد، لا يمكن أن يؤخذ إلّا بالراجح منه والمرجوح. لمّا ترى الفقهاء يقولون هذا حرام وفقهاء آخرون يقولون هذا حلال، لا يمكن الاجتماع، ولا يمكن أن يقال إن اختلاف الأمة في هذه الرحمة؛ هؤلاء حرام وهذه معصية، وهؤلاء يقولون حلال وهذه تصح، وتقول الاختلاف رحمة؟ لا والله، لابد أن يكون هناك راجح ومرجوح، لكن قل الاختلاف إن كان باستنباط واجتهاد من دليل هو اختلاف معتبر، لكن ليس برحمة بحال من الأحوال على أن الإنسان يأخذ ما يستهويه.

إذاً اختلاف التنوع: للإنسان أن يأخذ به؛ حديث بني قريظة في أي الوجهتين؟ من اختلاف التضاد، ولا يمكن أن يكون من اختلاف التنوع. مراد الرسول -صلى الله عليه وسلم- غير متعدد، النبي -صلى الله عليه وسلم- مراده واحد؛ إمّا أكيد أن يصلي الصلاة في وقتها، وإمّا أكيد يريد أن يصل وهذا هو الراجح الصحيح.

لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أقرهم على اجتهادهم، فيرجع هذا إلى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر)؛ إذاً لكل مجتهد نصيب، يعني نصيب في الأجر وليس نصيب في الحق. قد قال الله تعالى فاصلاً في النزاع، منهياً هذه الخصومة: (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) [يونس:32]؛ إذاً هو حق أو ضلال، لا يمكن أن يجتمع الحق مع الضلال بحال من الأحوال.

الرد على كلام عمر بن عبد العزيز؛ يؤول قول عمر بن عبد العزيز على أن الاختلاف اختلاف تنوع، ود له أن يكون هذا متسع بين الصحابة في المتنوع، يكون عند هذا سنة وحديث والآخر سنة أخرى وحديث تكون هذه سنة وسنة وسنة وسنة، فهذه توسع على الأمة. هذا يصلي أربعاً، هذا يصلي اثنتين، هذا يصوم يوماً، هذا يصوم ثلاث أيام، هذه سنن متعددة هذه التوسعة على الأمة. فيؤول كلام عمر بن عبد العزيز على التنوع، لا على التضاد.

إذاً اختلاف الامة ليس برحمة على ما قاله الناس، على أنه يأخذ ما يأخذ ويشتهي ما يشتهي، ويذهب لمفتي معين، فإن لم يعجبه هذه ذهب إلى الآخر فأخذ وقال: اختلاف أمتي رحمة. لا، الحق واحد لا يمكن أن يتعدد؛ وهذا استنباطاً من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه خط خطاً واحداً، دلالة على أن سبيل الله واحد، وأن السبل الأخرى متفرقة، وأن الحق عند الله واحد. والذي يجزي لنا هذه المسألة تصريح قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فاخطأ أجر واحد)؛ لم يقل: فلم يكن مصيباً عند الله جلَّ في علاه، هو أخطأ لكن الله شكر له اجتهاده فله أجر واحد. فهذه فيها دلالة على أن الحق ليس متعدد، بل الحق واحد عند الله جلَّ في علاه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس السادس: سبيل الله وسبل الشيطان

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ --صلى الله عليه وسلم--، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، بلغنا إلى حديث نوّاس بن سمعان -رضي الله عنه وأرضاه-:

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله:

عن نوّاس بن سمعان قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، على جنبتي الصراط أبواب مفتحة لهما سوران، وعلى الأبواب ستور، وداعي الله تعالى يدعو على الصراط من فوقه: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [يونس:25]. والأبواب التي على جنبتي الصراط حدود الله، لا يقع أحد في حدود الله حتى يهتك ستر الله، والذي يدعو من فوقه واعظ الله عز وجلّ).

عن النواس قال: (ضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سور فيه أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يدعو: يا أيها الناس ادخلوا إليه جميعاً ولا تتعوجوا. والداعي يدعو من فوق الصراط، فإذا فتح باب من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، إن تفتحه تلجه. والصراط الإسلام، والستور حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله عز وجلّ).

في الحديث الأول؛ سلسلة هذا الإسناد، من يذكرنا بما تكلمنا عنه في هذا الإسناد؟

شرف العلم يمنع أي واحد أن يموت إلّا وهو يتعلم أو يعلِّم، هذه في (*) لها علماؤنا وسلفنا، أبو زرعة المحدث الثقة الثبت كان على فراش الموت يحتضر، وكانوا يلتفون حوله فيذكرون الحديث ويتذاكر معهم وهو يموت، حتى أنهم قالوا: في سلسلة إسناد معين في حديث معين قال: ليس الإسناد كما تقولون لكن حدثني فلان عن فلان عن فلان عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من كان آخر كلامه "لا اله إلّا الله" دخل الجنة)، مات بعدما سرد الحديث.

الشيخ صالح بن عثيمين -رحمة الله عليه-، هذا علم من أعلام الأمة، شمس غابت عن سمائنا. هذا الرجل على فراش موته، اشتد به الوجع والمرض جداً، وكنت أنا في العمرة في هذه الأوقات، وكان الرجل على منتهى الأجل، على الموت. وحتى كلهم وصفوا له (*)، ومع ذلك طلب منهم أن يضع أمام سريره المكبر يتكلم للناس بالدرب على ما سيفعل بعد التراويح، لأنه كان يشرح في التفسير، وكان يفعل ذلك حتى لا ينقطع الخير.

والإنسان يعمل دأباً في حياته، ولا يعلم أي عمل سيرضى الله عنه به، لعل هذا هو العمل الذي ممكن يرضى الله عنه به فيدخله الجنة. فإن قصرت فسامحوني، لكن أردت بركة هذا الأمر، ولعله يشد بالهمم للأخوة الذين يتخاذلون عن مجالس العلم وهم لا يعرفون شيئاً عن دين الله جلَّ وعلا.

أنا صعقت، سمعت الآن الحمد الله فتاوى تشرح القلب وتثلج الصدر وتودي إلى القبر، هذه الفتاوى: واحدة تسمى فقيهة العصر، وتهرف كثيراً بما لا تعرف. وآخر يتكلم أيضاً في تفسير في القرآن الآن، لا أحد حدثني ولا اتصل بي، أنا سمعت بأذني. فقيهة العصر تفتي بفتاوى لا يعلم بها إلّا الله جلَّ في علاه؛ كانت في الأوبرا، تسمع الأوبرا والموسيقى على أنه ما فيها

شيء!! كانت هي مع أخت أخرى لعلها هي محدثة العصر. والفقيه يتفق مع المحدث، وحتى رجعوا إلى البيت الساعة الواحدة بالليل، كأنه لا شيء فيها دون محرم!!

الغرض المقصود تدل على أن الإنسان وهو خاوي لا يعلم دين الله جلَّ في علاه، يفرّط في أن يجلس ويتعلم لعله لا يعمّى عليه. ارفع الجهل عن نفسك يا أخي حتى تقف أمام ربك جلَّ في علاه متعبداً له حقاً، لكن هكذا نتيه ونتخبط بهذه الطريقة، والآن يتحكم فينا من لا يعرف عن دين الله شيء، ويُرفع على الأعالي فوق الآفاق على أن هذا هو فقيه العصر أو هذه فقيهة العصر، وهذا العالم الرباني والإمام الذي يُتّبع، وهو يهرف بما لا يعرف. هذه والله (*) في حق طلبة العلم، لعل هذه تجعله يحرص ويشتد على أن يطلب العلم.

الغرض المقصود هنا؛ الشيخ -رحمه الله- كان يقول في راوي هنا ضعيف، ولكنه مقرون. ما معنى مقرون؟ كيف يتغاضى الشيخ عن راو فيه ضعف؟ الشيخ الآن يصدّر الباب بسند صحيح، وهو نفسه الذي ضعّف "ابن مصفى" هذا، فيقول: هذا ضعيف ولكنه مقرون (يعتذر يعني). كيف يغض الطرف عن راوي ضعيف ويمرر الإسناد ويقول إسناده صحيح؟ هل الوهم يدرك عالم رباني مثل هذا أن يضعّف الراوي ومع ذلك يصّدر الباب يقول إسناده صحيح؟

عمرو بن عثمان ثقة، فالمعول عليه هو عمرو بن عثمان ليس هذا الراوي الضعيف، ولذلك هو قال: هذا الراوي الضعيف كأنه بركة، يبيّن لنا طريق آخر يقوّي هذا الطريق.

الشرح: رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يضرب لنا مثلاً رائعاً بديعاً، يبيّن للناس أن الإسلام طريق، وهذا الطريق طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، مهّده الله سالكاً للسائرين. هذا الطريق وإن كان سهلاً ممهداً لهؤلاء السائرين الثابتين بهذا الطريق، فصوّره الله لنا هذا التصوير البديع ليقرّب لنا المعقول محسوساً. وتقريب المعقول محسوساً، هذا أوقع في القلوب وأشد تأثيراً على السامع وعلى السائر.

فالله جلَّ في علاه يصوّر لنا الإسلام بأنه طريق مستقيم ممهد تمهيداً عالياً سالكاً للسائرين، ولكن مع هذا التمهيد ومع هذه السهولة في السير، يحتف هذا الطريق صعوبات ووعورة، وقوة هذه الصعوبات تتجلَّى في الشبهات والشهوات. فالطريق سهل يسير، والطريق سالك لكل سائر، ومع ذلك هو وعر جداً. كيف الجمع بين الاثنين؟ طريق يكون سالكاً ومع ذلك الوعورة

تتضمن هذا الطريق؟! ليس في الطريق الوعورة، الوعورة فيما يكتنف هذا الطريق، على جنبات الطريق: شبهات وشهوات.

سبحان الله! الله جلَّ في علاه ييسر ويسهل الطريق للعباد الذين يسافرون ويهاجرون إليه، الذين يسيرون على نهج الخير حتى يرحلوا إلى ربهم جلَّ في علاه. بعدما يسهل عليهم هذا الطريق يصعبه بهذه الصعوبات، هل في ذلك حكمة؟ نعم حكمة عظيمة والله؛ أن الله ما جعل هذه الصعوبات ولا وعورة هذه الصعوبات حتى يزل بها المرء أو حتى يهلك بها المرء، لا والله، لا يهلك على الله إلّا هالك. لكن الحكمة العظيمة عند من يدقق في النظر؛ أن الله جلَّ في علاه جعل هذه الطرق التي فيها النجاة تحتف بالشبهات والشهوات لأمور كثيرة منها:

- أولاً ليميز الله الخبيث من الطيب.

- والأمر الثاني حتى تتفاوت الدرجات بين الناس؛ فإن هناك من يكون في الفردوس الأعلى، ومنهم من هو أنزل درجة، وهذا التفاوت لا يكون إلّا بهذه الصعوبات وهذه الشبهات وهذه الشهوات.

- ليبيّن الله جلَّ في علاه ويميز بين الصادق والكاذب، ليميز الله الخبيث من الطيب. إن الله جلَّ في علاه ادّعى أقوامٌ محبته وادّعى أقوامٌ السير على طريقه، ولذلك اختبرهم الله بهذه الشبهات وهذه الشهوات التي على جانب الطريق.

ومع ذلك بعدما اختبرهم الله جلَّ في علاه ليميز الخبيث من الطيب ويمحص السائرين، ما تركهم هكذا وما تركهم للهلكة، بل جعل لهم واعظاً، هذا الواعظ يقع في القلوب وقعاً قوياً، ألا وهو واعظ الله أو هو داعي الله جلَّ في علاه. وداعي الله هو كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ذكره الرسول -صلى الله عليه وسلم- جلّياً في هذا الحديث قال: (والداعي كتاب الله)؛ يتضمن هذا الكتاب سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لقول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]، (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36].

إذاً هذا الطريق مع سهولته، مع أن الله مهده تمهيداً بسيطا سهلاً لكل سائر، وضع عليه هذه الصعوبات وهذه الوعورة؛ ليميز بين الخبيث والطيب، ليفاوت بين الدرجات، ليبيّن الصادق من الكاذب. وأيضاً فيه العجب العجاب ممن نجا من هذه المهلكات؛ ولذلك الملائكة إذا رأوا عبداً قيل له: ادخل الجنة، يقولون: نجوت! نجوت!) عجب؛ أتنجو وهذه الشبهات والشهوات على حافتي الجانب؟! والإنسان فضولي.

ولذلك ترى في الحديث الثاني التصوير البديع؛ كل حد من شبهة وشهوة فيه أبواب، هذه الأبواب مفتحة ليست مغلقة، وعليها ستور. والإنسان كما قلت جبل على الفضول، يتطلع إلى المخفي، فهو ينظر إلى جنبات الطريق، وإذا نظر استهوته شهوته إلى أن يطّلع على ما بداخل الباب، فإذا استهوته شهوته فتح الباب، بيّن النبي أنه إن فتحه ولجه. وهذا مصداقاً لمشكاة النبوة واحدة، مصداقاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ومن حام حول الحمى أوشك عن أن يقع فيها)، لابد أن يقع فيها. ولذلك هذه -كما سنبين في الفوائد المستنبطة- حسماً للمادة وسداً للذريعة؛ فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا تفتحه، ويلك لا تفتحه. هذه فيها دلالة أيضاً على أن الفتن تطل برأسها على كل عبد سالك في الطريق إلى الله جلَّ في علاه.

هذه الفتن التي تطل عليه إمّا أن يستشرفها فتهلكه، وهذا أيضا جاء صريحاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أحاديث الفتن: (أن من استشرف الفتنة أهلكته). ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث مشهور عن الفتن "فتنة المسيح الدجال": (من سمع به في مكان فلينأى عنه)؛ يعني كما هو في المشرق فيذهب هو إلى المغرب، لا يتطلع له لأنه لو استشرفه سيهلكه. وقد بيّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن عبداً سمع بالدجال فوثق في إيمانه وقوة يقينه، فلما ظهر إليه عليه آمن به واتبعه. لذلك نقول أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا هذا جلّياً أن من فتح الباب ولج ولا محالة، ولج وإمّا أن يهلك مع الهالكين، وإمّا أن تتقدمه رحمة الله جلَّ في علاه فينجو.

وكما قلت ما ترك الله العبد بين الجنبتين من هذه المهالك المهلكات من الشبهات والشبهات وحده، لا، قد أنار له هذا السهل الذي يسير فيه، قد أنار له الطريق بالداعي الذي يدعوه وهو كتاب الله جلَّ في علاه. فلذلك كتاب الله ليل نهار يدعو المرء للتدبر فيه، لأن فيه النجاة وفيه

الرفعة كما قال الله تعالى: (لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ) [الأنبياء:10]؛ فيه الشرف وفيه الرفعة وفيه النجاة، فتدبر كتاب الله جلَّ في علاه فيه نجاة. والناس يستظهرون كتاب الله جلَّ وعلا، يجعلونه خلفهم ظهرّياً، ومع ذلك الله ليل نهار يسمعنا قوله تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء:82]، (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) [محمد:24]. فهذا الداعي هو كتاب جلَّ في علاه، من تدبر كتاب الله نجا. وقد قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: أيها الناس اذا سمعتم ربكم يقول: (يا أيها الذين آمنوا) فارعِ لها سمعك، فإنه أمر تأتمر به أو نهي تجتنبه أو عظة من الله جلَّ وعلا يسير بك إلى النجاة.

والناس قلوبهم مختلفة: قلبٌ رقيق فيه الإيمان، يأتيه القرآن نور على نور، يزيده إيماناً، فإذا تدبر في آية واحدة كانت النجاة في هذه الآية. وقلب وسط، وقلب غليظ صلب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكان تدبر القرآن للخاصة.

فيبقى أن الله جلَّ وعلا أيضاً ما ترك الناس هكذا، حتى الذي في قلبه الغلظ فإن الله جلَّ وعلا لم يتركه فجعل له واعظاً داخل القلب؛ هذا الواعظ هو الملك الذي له اللمة، وهذا من فضل الله ورحمة الله التي يتدارك بها عباده. جعل الله له ملكاً له لمة، هذه اللمة من الملك يدعوه إلى الخير ويحثه على الخير ويبيّن له طريق الخير.

ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن الداعي كتاب الله)؛ فلتتدبر كتاب الله وهذا للخاصة، والواعظ هو الملك الذي يدعوك دائماً من داخلك، نفس تأمرك بالخير، يدعوك من داخلك إلى الخير ويحثك عليه. فإن سمعت للواعظ نجوت، وإن تدبرت كلام الداعي نجوت. فنرى الله جلَّ وعلا برحمته علينا هيء لنا الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ممهداً للسالكين، ثم أيضاً جعل على رأسه داعياً وجعل واعظا يعظ الناس، ولا يهلك على الله إلّا هالك.

هذا بإيجاز معنى التصوير البديع الذي صوره الله لنا في طريق مستقيم وهو الإسلام، وأيضاً أصله وأسه وأساسه ورأس ماله وذروته: الداعي والواعظ؛ والداعي هو كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والواعظ هو الملك الذي له اللمة.

الفوائد المستنبطة من هذا الحديث:

١- أولاً صحة القياس؛ من أين أخذنا هذه الفائدة؟

بيّنا الإسلام طريق مستقيم، والقرآن داعي، والملك واعظ، وعلى جنبات الطريق أبواب، هذه الأبواب حدود محارم الله، ومن يرعى حول الحمى لابد أن يقع فيها. في هذا التصوير قلنا بصحة القياس؛ فهذا تمثيل، وهذا التمثيل يسمّى قياس. ولذلك خذ عندك رداً على ابن حزم؛ كلما رأيت حديثاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (مثلي ومثلكم) فهو يقيس، لأن ضرب الأمثال أصل القياس، وهذه أدلة واضحة ناصعة البياض على من ينكر القياس. ولا أدري كيف ينكرون القياس؟ بل أنا أتيت بأكثر من مسألة ابن حزم يقيس فيها، وهو من منكري القياس، وهذا سيظهر قريباً إن شاء الله. يقيس وهو ينكر القياس، لا يستطيع أن ينفلت عن القياس.

إذاً الفائدة الأولى: صحة القياس من تصوير النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا الإسلام بطريق مستقيم، وأن القرآن داعي وأن الملك هو الواعظ.

٢- ثانياً: حسم المادة وسد الذريعة؛ جاء الشرع دائماً بمنع المحرمات، ومن تمام كمال هذا الدين الحنيف أنه ما يمنع عنك المحرم فقط، بل ويمنع عنك الطريق الذي يصل بك إلى المحرن رحمةً منه، لأنك إذا سلكت الطريق لابد أن تصل. من أين نأخذ هذه الفائدة؟ وجه الدلالة: أنه إذا سلك الطريق إلى المحرم لابد أن يدخل. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيها)؛ قال بعض العلماء: هذا تأكيداً أنه سيقع في هذا.

ولذلك علماؤنا قالوا: دائرة المباح واسعة كبيرة، تحتها دائرة المكروه أقل، وتحتها أضيق من دائرة المحرم، فمن أطال في دائرة المباح وقع لا محالة في دائرة المكروه، ومن وقع في دائرة المكروه لا محالة أنه ولابد سيقع في دائرة المحرم. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فاتقوا الشبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه). إذاً الوسائل لها أحكام المقاصد، وجاءت الشريعة بسد الذرائع.

من هذا الاستنباط من هذا الحديث نأتي بأمثلة في سد الذريعة من الشرع:

- غض البصر؛ الدليل: قال الله تعالى: (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) [النور:30]؛ إذا قلنا النظر إلى المرأة حرام، صحيح الراجح أن حرمته حرمة وسائل وليست حرمة بصر، يعني حرمة النظر للمرأة ليس لذاتها، هي اسمها حرمة لغيرها، لأن النظر يؤدي إلى الزنا، المحرم لذاته هو الزنا، وكل وسيلة تصل بالإنسان إلى الزنا تحرم تحريم الوسائل.

الصحيح الراجح أن نقول تحريم النظر للمرأة ليس مقصوداً لذاته، بل لغيره، ولذلك حله من باب الحاجيات لا من باب الضروريات؛ البيع والشراء من الحاجيات ليس من الضروريات، ليس من الضروريات أن تبيع المرأة وتشتري، تذهب إلى بيتها وأحد يشتري ويبيع. فنقول هو من باب الحاجيات، ولذلك نقول لا بد أن ينظر للمرأة التي يبيع لها ويشتري، لأنه إذا حدثت الخصومة بعد ذلك لابد أن يسئل: هذه المرأة التي اشترت منك؟ نعم، وفض النزاع لا يكون إلّا بالتعرف أو النظر إلى الوجه. فهذه من باب الحاجيات أباحت النظر للمرأة، لأن تحريم النظر ليس من باب المقصود لذاته، ولكن تحريم النظر من باب الوسيلة، أنه يصل إلى المحرم قصداً أو أصالة وهو الزنا.

ثمرة ذلك في الحرب، والحرب محرّم فيها قتل النساء، فرأى رجل ملثم فشك هذا رجل أو امرأة؟ فأراد أن ينزع اللسان ليرى هذه امرأة وأنها لا تقاتل، فلابد ألّا تقتل بنهي النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً. فنقول له أن يفعل ذلك، وحتى ولو فعل قاصداً ينظر نقول له ذلك.

لكن إذا اشتاق إليها كامرأة هل يزني بها؟ ليس له ذلك، حتى ولو اضطر إلى ذلك سبيلاً، يعني رجل اشتدت به الشهوة هل له أن يفعل ذلك؟ لا، لأنه محرم لذاته. أمّا المحرم بالوسائل يغض الطرف عنه في بعض المواطن، فالصحيح الراجح أن النظر محرم كوسيلة لا كمقصد.

- قال تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) [الأنعام:108]؛ أنك تسفه أحلام الكافرين وتسب الآلهة التي تعبد من دون الله جلَّ في علاه قربى لله جلَّ في علاه، ومع ذلك حرّمه الله جلَّ وعلا، لكن تحرمها ليس لذاتها، محرمة لغيرها لأن هؤلاء الكفار إذا سمعوا السب لآلهتهم سبوا الله، فسدها الله جلَّ وعلا حسماً للمادة وسداً للذرائع.

- بيع العنب لمن يعتصره خمراً؛ بيع عنب حلال لذاته، لكن حرّم لغيره عندما يباع لرجل يعتصره خمراً ويبيعه خمر.

٣- الفائدة الثالثة: هلاك الإنسان بدخول المخالفة، هلاك الإنسان بهجران القرآن. هذه الفائدة أخذت من: (داعي الله)؛ أن قول داعي الله هو القرآن، والقرآن تدبره فيه النجاة، إذاً مفهوم المخالفة "هجران القرآن فيه الهلاك". وهجران القرآن على أنواع ثلاثة: هجر قراءة، وهجر سماع، وهجر تدبر. وقد ذم الله جلَّ وعلا الذين يهجرون القرآن وقال في سورة الفرقان: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [الفرقان:30]. فالهجران ثلاثة:

- هجران قراءة: تراه لا يقرأ، بيته خرف صدره خرف، لا يقرأ كتاب الله جلَّ في علاه ولا يتدبر فيه.

- وهجر سماع: وهذا يغفل عنه كثير، بعض الإخوة لهم مراجعات في القرآن جزء أو جزئين، فإذا قرأ هذا الجزء يقول: قد اكتفيت، أنا الآن أخذت (*) ولست بهاجر. الصحيح أن هجران القرآن هجران سماع، لأنك بالسماع تتدبر أكثر من القراءة. أمّا القراءة فهي محافظة على ما في صدرك بحفظك، وأمّا سماع يدعك تتدبر أصلاً.

وأكثر هذه الأمثلة التي تبيّن لنا ذلك حديث ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- عندما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اقرأ علي القرآن، فقال: يا رسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل القرآن؟ قال: إني أحب أن اسمعه من غيري)، هذه دلالة على التدبر بالسماع. ولذلك لمّا قرأ ابن مسعود القرآن وبلغ قول الله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا) [النساء:41-42]، قال: (رأيت عينيه تذرفان). النبي -صلى الله عليه وسلم- ما بكى لمّا نزل القرآن من جبريل عليه، لا، بكى بتدبره وسماعه من غيره.

- هجر العمل: ليل نهار يسمع الله جلَّ في علاه يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً) [آل عمران:130]، فيؤولها ويقول: إن أكلنا الربا قليلاً فيصح ذلك. ولا يسمع لنداء الله جلَّ في علاه: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) [البقرة:43]، فهو يهجر العمل بالقرآن. فهذا هجر أيضاً ليس فيه النجاة.

إذاً النجاة في تدبر القرآن وعدم الهجر، والهجر على أنواع ثلاثة: هجر قراءة، هجر سماع، هجر عمل.

٤- الفائدة الرابعة: الجليس الصالح وجليس السوء.

رفقة الخير، فإن الإنسان نجاته برفقته، لا تسأل عن المرء ولكن عن خليله. فالجليس الصالح إمّا يأمرك بخير، وإمّا يقرك على خير، وإما تراه في خير فتغار أو تغبطه على هذا الخير فتعمل بهذا الخير. وأمّا جليس السوء -والعياذ بالله- إمّا يأمرك بشر، أو يقرك على شر، أو تراه في شر فتلحق به في هذا الشر. لكن يا ترى هذه الفائدة من أين تؤخذ من هذا الحديث؟

وجه الشاهد من الحديث الذي استنبطنا منه هذه الفائدة: داعي على أول الطريق، وفوق الطريق واعظ، هؤلاء رفقة الخير. جليس صالح يدعوك إلى كتاب الله، وواعظ يقول لك: لا تفتح الباب إنك لو فتحت الباب ستلج هذا الباب. فالجليس الصالح دائماً يعظك ويدعوك إلى الخير؛ ولذلك ورد في بعض الآثار: من أراد أنيساً فالله يكفيه، ومن أراد جليساً فالقرآن يكفيه، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه، ومن لم يكتفِ بهؤلاء فالنار تكفيه.

عن أنس بن مالك: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) [فصلت:30]، قال: (قد قالها الناس ثم كفروا، فمن مات عليها فهو ممن استقام).

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلت يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: (قل ربي الله ثم استقم).

هذا الحديث إن شاء الله سيأتي تفصيله لاحقاً، لكن أردت أن أبيّن مسألة مهمة: ما مناسبة هذا الحديث مع ما قبله؟ لأن المصنف كان فقيهاً له تصنيف عالي الجودة، بيّن لنا التصفية قبل التحلية. فما مناسبة هذا الحديث مع الباب الذي ذكره المصنف "الواعظ والداعي"؟

لنا أن نقول بأن المناسبة النبي يبيّن في الحديث الأول الطريق المهم وهو الصراط المستقيم وهو الإسلام، فبيّن لنا حال الطريق بما فيه من صعوبات وما على جنبات الصراط من شبهات وشهوات، ثم بعدما بيّن لنا الطريق قام القائم فقال: يا رسول الله وما حال وما بال السائر على هذا الطريق؟ كيف ينجو؟ تبيّن لنا الطريق وكيف يسير عليه المرء والذي على الطريق من

وعظ ودعوة، ثم كأن قائلاً قام قال: يا رسول الله ما بال السائر؟ حال السائر؟ وصف السائر إن كان سينجو بالداعي وينجو بالواعظ؟ حاله سماته صفاته التي بها يقبل داعي الله ويقبل واعظ الله ولا يأبى؟

فنقول بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما قام القائل يبيّن حال السائر، قال: حال السائر الذي يقبل دعوة الداعي ويقبل وعظ الواعظ أن يكون من الذين آمنوا حقاً فقالوا: ربنا الله. أولاً آمنوا، لأن في الرواية الأخرى قال: (قل آمنت بالله ثم استقم). فقال: حاله أولاً آمن بالله ظاهراً وباطناً، ثم بعد ذلك طبق هذا الإيمان واقعاً بأركانه وجوارحه فاستقام على طريق الله جلَّ في علاه.

فنقول قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قل ربي الله) هذه باللسان، وهل مقصود النبي -صلى الله عليه وسلم- أن معشر من آمن بلسانه يدخل الإيمان ويحسب عند الله مؤمناً ونجاته في النهاية إلى جنات الخلد إذا آمن بلسانه؟ لا والله، أمّا الإسلام ظاهراً إذا قال: "لا إله إلّا الله، محمد رسول الله"، فهو له ما لنا وعليه ما علينا، ذمته في ذمتنا وأمانه في أماننا، وإذا تزوج منا تزوجنا منه. لأنه قال: "لا إله إلّا الله"، ظاهراً أصبح مسلماً مع المسلمين، لكن لو خالف قلبه لسانه فهو عند الله من المنافقين.

الغرض المقصود قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قل ربي الله)؛ قل بلسانك ربي الله. والأدلة على ذلك كثيرة: (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ) [البقرة:136] ... إلى آخر الآيات، وقال لعمه كما في الصحيحين: (يا عم، قل كلمة أحاج لك بها عند الله، قل "لا إله إلّا الله")، وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا "لا إله إلّا الله")، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- آمراً الأمة بأسرها – أمة الدعوة لا أمة الإجابة-: (قولوا "لا إله إلّا الله" تفلحوا)، تنجحوا في الدنيا وفي الآخرة.

عندنا أدلة أقوى من ذلك تبين أن الركيزة على القلوب، ما هي؟ قال: (مصدّقاً بها قلبه)، وفي الحديث قال: (مستيقناً بها قلبه)، فشرطه أن يكون قول القلب. وقول القلب: التصديق بالله جلَّ في علاه، التصديق والاعتقاد. إذاً قول باللسان وقول الجنان.

أقول بالنسبة لهذه الجملة التي هي جملة التوحيد (قل ربي الله)، الناس فيها على ثلاثة:

- مؤمنون خُلّص قالوها باللسان وصدقوها بالقلب وأذعنوا وانقادوا بالأركان، إذا قالوها باللسان وصدق القلب اللسان وأيضاً انقادوا واستسلموا لله جلَّ وعلا في الجوارح.

- والصنف الثاني مؤمنون مخلّطون، هؤلاء الذين قالوها باللسان وصدّقوا بالقلب لكن ليس التصديق التام، وأيضاً لم ينقادوا للانقياد التام. هؤلاء الذين قال الله فيهم: (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ) [التوبة:106]، فهؤلاء وصفهم الله: (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) [التوبة:102]، هؤلاء إن شاء الله إلى العفو وإلى المغفرة لأن رحمة الله سبقت غضب الله جلَّ في علاه.

- الصنف الثالث والصنف المهم؛ الذين هم أعتى الناس على المسلمين، الذين قالوها باللسان ولم تدخل القلوب، وهؤلاء المنافقون. وهم أضر الناس على أهل الإسلام، هم نصّبوا حرباً على الإسلام وعلى أهله وعلى أولياء الله جلَّ في علاه، لأنهم قالوها باللسان ولم تدخل بشاشة الإيمان في القلب.

إذاً (قل ربي الله) المقصود بها لا تقولها بلسانك فقط، ولكن قل باللسان وبالقلب مصدّقاً باللسان. قال: (ثم استقم)؛ والاستقامة: أمر بالاتباع ونهي عن الاتباع، أو فعل كل مأمور وترك كل محظور. والاستقامة استقامتان: استقامة ظاهرة، واستقامة باطنة.

- أمّا الاستقامة الباطنة: استقامة القلب بالتصديق والإذعان والانقياد والاستسلام لله جلَّ في علاه، مع المحبة والإنابة والتوكل، كل أعمال القلوب.

- والاستقامة الظاهرة: هي كلها وجلها ورأسها هو متابعة سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثامن: باب ذكر ما زجر النبي عن محدثات الأمور

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك، نسأل الله جلَّ وعلا أن ييسر علينا وأن يكرمنا بفضله ونعمته وحوله وقوته أن نصل إلى نصف الكتاب أو ننتهي من الكتاب. إن هذا الكتاب من البركة بمكان، وهو يلم شعث الكلام على العقيدة، ككتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، لكن هذا أغزر في الآثار. بلغنا إلى باب في لزوم السنة، وانتهينا منه الأسبوع الماضي، اليوم إن شاء الله نصل إلى الباب الثامن: باب ذكر ما زجر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن محدثات الأمور وتحذيره منها.

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً، وبعد:

باب ذكر ما زجر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن محدثات الأمور وتحذيره منها:

وعن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب الناس، فيحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله عز وجلّ، وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة).

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة).

وعن يحيى بن أبي المطاع قال: سمعت العرباض بن سارية يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والمحدثات فإن كل محدثة ضلالة).

وعن العرباض بن سارية أنه حدثهم: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة). وعنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة). وعنه أيضاً: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعةٍ ضلالة). وعنه أيضاً: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والبدع).

هذه الأسانيد تكلم فيها الشيخ عن أبو إسحاق السبيعي على أنه مدلس، أنه اختلط، هذه فوائد الإسنادية. وإلّا فهذه الاحاديث كلها بفضل الله سبحانه وتعالى كالشمس لا تحتاج للكلام، لكن الفوائد الإسنادية حتى لا نمرر الأمر من غير فوائد إسنادية. وتكلم أيضاً بالإسناد الذي بعده عن الوليد بن مسلم وذكر أنه يدلس تدليس تسوية. فعندنا فائدتان:

١- الفائدة الأولى: تدليس بنوعيه: تدليس مطلق وتدليس التسوية.

٢- الفائدة الثانية: الاختلاط، أبو إسحاق السبيعي اختلط في آخر عمره.

أمّا التدليس فهو: أن يأتي الراوي بصيغة توهم السماع؛ ك(عن، أن، قال)، ويكون هذا الراوي قد روى عن شيخه الذي دلّس عنه (وهذا شرط ليفرّق بين التدليس وبين الإرسال). الإرسال

الخفي: إذ أن الراوي إذا روى عن شيخ معاصر له ولم يثبت له رواية وروى عنه بالعنعنة، هذا ليس بالتدليس، هذا يسمى إرسال وهو إرسال خفي. هذا الفرق بينه وبين التدليس؛ أمّا التدليس: هو رواية الراوي عن شيخه الذي سمع منه ما لم يسمع منه بصيغة توهم السماع، وهذا الذي اتهموا به أبا إسحاق السبيعي، هذا هو التدليس المطلق.

والوليد بن مسلم كان يدلّس تدليس التسوية: هو أن يأتي الراوي فيسقط ضعيف بين ثقتين؛ هو يريد أن يجوّد الإسناد ويصححه، فيسقط ضعيفاً بين ثقتين، لا يظهر ضعفه، وهذا الذي اتهم به الوليد بن مسلم. والوليد بن مسلم من رجال الصحيح وهو ثقة ثبت، لكن هو متهم بتدليس التسوية. فتدليس التسوية: هو إسقاط ضعيف بين ثقتين؛ ولذلك العلماء قالوا تدليس التسوية لا يمر حتى ولو صرّح التلميذ بالسماع من شيخه، لا يمر إلّا بشريطة مؤكدة وهي السماع لابد أن يصرّح به من أول الإسناد إلى آخر الإسناد. لأنه ممكن أصلاً يسقط شيخه، يسقط شيخ شيخه، يسقط شيخ شيخ شيخه، ويأتي بهذه الصيغة التي فيها العنعنة. أمّا الاختلاط: فالراوي الذي اختلط في آخر عمره هو الذي فحش غلطه وساء حفظه واختلط في آخر عمره، وأيضاً يدخل في التلقين هذا.

حكم رواية المدلس بيّناها: إذا صرح بالتدليس تمر، إن لم يصرح بالتدليس لا يمكن إن تمر إلّا بشروط وقيود قد بيناها في دروس المصطلح. وتدليس التسوية: شرط مرور حديث المدلّس فيه تدليس التسوية لابد أن يصرّح فيه بالسماع من كل من أول الإسناد إلى آخر الإسناد. وأمّا بالنسبة للاختلاط حكم رواية الذي اختلط لابد أن نقول: رواية المختلط على أحوال:

١- الحالة الأولى: أن يروي عنه الراوي قبل الاختلاط، نعرف أن مثلاً سفيان أو ابن عيينة أو الثوري يرويان عنه قبل الاختلاط، فهذه أحاديث كلها مستقيمة ولا ننظر إلى الاختلاط.

٢- وراوي آخر تأكدنا أنه روى عنه بعد الاختلاط، هذا بالضعف، لا بد أن نرد الإسناد، الإسناد ليس بصحيح لأنه روى عنه في الاختلاط ولم يثبت لنا ألفاظ الحديث.

٣- هو الذي لا نعلم أروى قبل الاختلاط أم روى بعد الاختلاط، هذا حكمه التوقف، نتوقف في هذا الإسناد حتى تأتي القرائن المحتفّة لتثبت صحة الحديث أو ضعفه.

لكن ما الفرق بين الحكم الثاني والحكم الثالث؟ الحكم الثاني: روى عنه بعد الاختلاط وتأكدنا أنه راوي عنه بعد الاختلاط، هذا نقول السند ضعيف لأننا تأكدنا أنه روى عنه بعد الاختلاط، ما ضبط لنا الحديث. الحكم الثالث: راوي لم نعلم روى قبل الاختلاط أم روى بعد الاختلاط، هذا نتوقف في الإسناد. فما الفرق بين الحكمين؟ الفارق دقيق: غلّبناه في الثاني، قلنا غلبت الظن أنه ضعيف، فضعفناه ورددناه من أول مرة. أما الثالث فلم نغلّب ضعف ولم نغلّب صحة، وانتظرنا إلى قرائن (يعني شواهد) تثبت لنا هل ضبط لنا هذا الحديث، لأنه مختلط، ساعات يزل وساعات يضبط، فننظر في الشواهد هل هو ضبط لنا هذا الحديث أم لم يضبط لنا في هذا الحديث. هذه الفوائد الإسنادية في هذا الباب.

أقول أولاً أن النبي ابتدأ بالثناء على الله جلَّ في علاه، هذه تسمى آداب التخاطب وآداب الحديث؛ يبتدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- معلما إيّانا أن كل أمر جلل على الإنسان أن يبتدئ فيه بالثناء على الله جلَّ في علاه تأدباً مع الله، ويثني بالصلاة على النبي؛ سواء في خطبة الجمعة أو أي خطبة فيها وعظ أو تذكير أو إرشاد أو بيان أو دلالة أو خطبة نكاح أو معاملة لتجارة عظيمة. كل أمر جلل يذكر ويبتدي فيه بالثناء على الله جلَّ في علاه، وهذا من السنن الفعلية التي أدبنا بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، قدّم بين يدي كلامه الثناء على الله جلَّ في علاه. وهذا الثناء على الله جلَّ في علاه معناه أن تذكر صفات الله، صفات كمال الله جلَّ في علاه ونعوت جلال الله جلَّ في علاه. وهذه الأمور:

- أولاً: لأن الله أهل لكل ثناء، وأهل لكل مدح، وأهل لكل حمد. فإن الله جلَّ في علاه له صفات الكمال وله صفات الجلال والجمال، لذا يستوجب ويستلزم عليك أن تثني على الله بما هو أهل له. كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجتهد في الثناء على الله جلَّ في علاه ويقول: (لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك).

وعندنا شاهد من كتاب الله يبين لنا هذا الأدب الجمّ، الذي لا يعرفه كثير من الناس؛ قال الله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111]، والحمد هو الثناء الحسن على جلَّ في علاه. ثم أظهر أن هذا الثناء من أجل أن الله جلَّ في علاه له نعوت الجمال وصفات الكمال، قال الله تعالى: (وَقُلِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ). وقلت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان كثيراً ما يثني على الله ويقول: (لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك).

- الثانية التي تستحث الأمة بالبداءة بالثناء على الله جلَّ في علاه: أن الله جلَّ في علاه يحب ذلك، فإن الثناء على الله من أجلّ العبادات التي يتعبد بها المرء لله جلَّ في علاه؛ في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وما أحد أحب المدح إليه من الله جلَّ في علاه) أو الثناء إليه من الله جلَّ في علاه، وأيضاً صح عن نبينا أنه قال: (إن الله يحب (أي يحب من عبده) إذا أكل أحدكم الأكلة أن يحمده عليها، وإذا شرب الشربة أن يحمده عليها). فإن الحمد لله جلَّ في علاه هو الثناء على الله، فإن الله يحب ذلك، فإذا أحب الله ذلك، دل على أن هذه من أجلّ العبادات لله جلَّ في علاه.

انظروا كيف ضيعنا هذه العبادات، وهي عبادات قولية وقلبية وتقربنا من الله جلَّ في علاه، وابتداء النبي -صلى الله عليه وسلم- بها دلالة على أهميتها.

- الثالثة وهي أيضاً من الأهمية بمكان: التبرك؛ تثني على الله ما تبدأه، ما تتبع أمراً إلّا بذكر الله تبركاً، فإن ذكر الله جلَّ في علاه يجعل القليل كثير، ويجعل الضعيف قوياً، وبه تطمئن القلوب. قال الله تعالى: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد:28]، بلى وربي بذكر الله تطمئن القلوب، ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (اجعل لسانك رطباً بذكر الله)، فهذا التبرك من التبرك المشروع.

"ألّا تبتدأ كلامك إلّا بالثناء الله جلَّ في علاه"، هذا أول أدب أدبنا به قبل أن يدخل ويستهل خطبته وكلامه. قال: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)؛ (من يهده الله) هذا إقرار من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإشارة تصريحاً لا تلميحاً، أن الهداية كل الهداية بيد الله جلَّ في علاه. فيها:

- أولاً: أن السنة وحي كما أن القرآن وحي، من مشكاة واحدة خرجت السنة هي والقرآن، قرينة القرآن. ولأن هذا الكلام يواكب ويوافق، بل هو مستقى من كلام الله جلَّ في علاه، كما قال الله تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) [الكهف:17]، وقال الله تعالى: (وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) [الإسراء:97]. فقال الله تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخرجت من واحدة.

- وهنا إقرار من النبي -صلى الله عليه وسلم- وتصريحاً بأن الهداية بيد الله جلَّ في علاه، والإضلال بيد الله جلَّ في علاه كما في مسند أحمد عن ابن عباس: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك). لكن ما وجه الشبه في هذا الباب؟

السؤال: أولاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يهده الله)، الهداية كلها بيد الله جلَّ في علاه والإضلال بيد الله جلَّ في علاه كما بيّنا. قال الله تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا)، وقال الله تعالى: (وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ)، الهداية باسرها بيد الله، كذلك الإضلال بيد الله جلَّ في علاه. ثم ذكرت حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- معضداً لقوله؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك). فما وجه الدلالة في هذا؟ وما وجه الربط في هذا الحديث وبين هذه الكلمات التي نتكلم عنها؟

لن يضلوك، وهذا مستقى من قوله النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينفعوك. أكثر النفع وأشد النفع وأعظم النفع هو هداية القلوب وهداية المرء إلى الطريق القويم والنهج المستقيم، فلذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذه الهداية بيد الله جلَّ في علاه، ولو اجتمعت الأمة على هدايتك ولم يرضَ الله جلَّ وعلا بذلك لن يكون. وأيضاً يبيّن الله جلَّ في علاه أن أسباب الهداية بيده، وأسباب الإضلال بيده؛ قال الله تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ

وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]. لذا يستوجب علينا إذا علمنا بأن الهداية بأسرها بيد الله، والإضلال بأسره بيد الله جلَّ في علاه، أن نفصل في هذا الموضوع الشائك.

أول التفصيل: تقسيم الهداية إلى هدايات:

هداية الله جلَّ في علاه: هداية عامة، وهداية أخص من العامة، وهداية خاصة، ثم هداية في الآخرة. ثلاثة في الدنيا وواحدة في الآخرة.

- هداية عامة هذه الهداية التي ينتفع بها الخلق بأسرهم في معاشهم، وهذه الهداية هي إرشاد وهداية الخلق أجمعين من طير ودابة وإنسان وجن؛ إلى كيف معاشرة الذكر للأنثى، كيف استخراج الرزق من الأرض، كيف التعامل مع صعوبات الحياة. قال الله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) [الأعلى:1-3]، هذه الهداية العامة لكل المخلوقات بأسرها لما ينفعهم في معاشهم في الحياة الدنيا والتعامل مع صعوبات هذه الحياة، قال الله تعالى: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) [هود:6].

- الثانية وهي أخص وهي هداية الثقلين الجن والإنس، وهي هداية البيان وهداية الإرشاد وهداية الدلالة؛ قال الله تعالى مبيناً لنا أنه يهدي البشر أجمعين هداية البيان هداية الإرشاد واستنارة الطريق: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) [فصلت:17]، بيّنا لهم الطريق القويم، بيّنا لهم الصراط المستقيم بيّنا لهم كيف يصلون إلى الله جلَّ في علاه، (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) يعني بيّنا لهم. وأيضاً قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) [التوبة:115]، يعني يبيّن لهم ويهديهم.

وقد قال الله تعالى مبيناً أنه أنزل كتابه نوراً وهداية للناس: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]، قال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) [الإسراء:82]، وقال جلَّ في علاه في سورة المائدة: (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) [المائدة:15]. فهذه أيضاً هداية البيان وهداية الإرشاد، لأن القرآن فيه افعل ولا تفعل؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ) [التحريم:7]، فيه هداية البيان وهداية الدلالة.

وهذا تقسيمه تقسيماً بديعاً؛ من الله يكون وحياً، ومن الرسول تبليغاً وتبييناً، ومن الدعاة والعلماء يكون إرشاداً وهداية.

- إذاً هو من الله يكون وحياً؛ كما قال الله تعالى: (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا) [الشورى:52]، وقال الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا) [الشورى:51]، وقال الله تعالى: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) [النجم:3-4]. فهو وحي من الله جلَّ في علاه هداية للناس كما قلنا، قال الله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل:44].

- الثاني من الرسول تبليغاً وتبييناً: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) [النحل:44]، وقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67]، وقال جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) [الأحزاب:45-46]، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- هو سراج منير يهدينا إلى الطريق السلام وطريق النجاة، قال الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الشورى:52].

أمّا في الدعاة والعلماء فهو التبليغ والإرشاد؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن أبي طالب: (لإن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بلغوا عني ولو آية). وفي الصحيح أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نضر الله امرئً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)، فهذه أيضاً من العلماء والدعاة الذين استوظفوا وظيفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لهم الهداية؟ نعم يهدون الناس إلى طريق الرشاد هداية بيان وهداية دلالة.

▪ الثالثة هداية أخص، وهذه هداية التسديد والتوفيق، وهي هداية القلوب. وهذه لا تكون بحال من الأحوال إلّا لله جلَّ في علاه، لا يمكن أن تكون لغير الله لأن الله هو الذي يملك القلوب، قال الله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) [الأنفال:24]. وهذه التي تتعب الناس كثيراً، وهذه التي لو تدبرها المرء علم أن قلبه بين يدي الله إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فأيما قلب أراد الله أن يقيمه أقامه، وأيما قلب أراد الله أن يزيغه أزاغه). ولذلك النبي كان كثيراً ما

يدعو ويقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ويا مصرف القلوب ثبت قلبي على طاعتك).

فهداية التثبيت، هداية التوفيق ،هداية القلوب لا يملكها إلّا الله جلَّ في علاه، ولذلك قد نفاها الله عن النبي قال: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) [القصص:56]؛ هذه قصة عرض الإسلام من النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمه أبي طالب عندما قال له: (يا عم قل كلمة أحج لك بها عند الله، قل لا إله إلّا الله)، فمات على ملة عبد المطلب، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- له: (لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك)، فنهاه الله جلَّ وعلا عنه عن الاستغفار، وأنزل في كتابه هذه الآية القيّمة التي لا بد أن نتدبرها: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)؛ أي لا تهدي القلوب ولا تسدد ولا توفق القلوب. وبذلك يرتفع الإشكال، لأن عندنا في الآيات هداية مثبتة وهداية منفية عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: أمّا الهداية مثبتة: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى:52]، هذه مثبتة للنبي، هداية دلالة، هداية إرشاد، هداية تبيين، هداية تبليغ. وأمّا الهداية المنفية عن النبي -صلى الله عليه وسلم- هي هداية التثبيت وهداية التوفيق. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي: (قال الله: فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه)، وقال الله تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ)، هو الذي يتحكم في قلبه (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36].

فحري بالإنسان إذا علم هذه الهداية أن يفتقر كل الفقر لربه جلَّ في علاه، وأن يعلم كل العلم وأن يستيقن كل اليقين أن تمام هدايته بالله جلَّ في علاه وأن ضلاله أيضاً بيد الله جلَّ في علاه، فليرتجف قلبه لذلك وليتقرب وليتزلف وليتذلل وليتمسكن وليتضرع بربه جلَّ في علاه أن يهدي قلبه وأن يثبت قلبه على الإيمان، ولا يزيغه ولا يفتنه قبل أن يقبضه. وهذا الذي كان يفعله فقهاء السلف عندما علموا أن قلوبهم بيد الله جلَّ في علاه، فسألوا التثبيت والتسديد والتوفيق من الله.

▪ الهداية الرابعة مستلزمة للهداية الثالثة، الهداية الرابعة هي في الآخرة لكن هي لازمة للهداية الثالثة. إن كان التوفيق والتسديد من الله، إذا أراد بعبد خيراً سدد قلبه ووفق قلبه وخطاه، ثم بعد ذلك هداه في الآخرة جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً لهذه الهداية الثالثة، بأن الهداية الرابعة يعرِّفه

الجنة، يدخل الجنة دون حيدة ودون ألّا يعرف مكانه، ويعرف بيته في الجنة ومسكنه في الجنة كما يعرف مسكنه في الدنيا؛ قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) [محمد:4-6].

هذه هي الهداية الرابعة في الآخرة، وهذه خاصة وأخص من الثانية والثالثة لأنها خاصة بالمؤمنين؛ كل مؤمن يعرف طريقه إلى الجنة، ويعرف مسكنه في الجنة أشد من معرفته بمسكنه في الدنيا.

هذه مجمل الهدايات التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- أن كلها بيد الله جلَّ في علاه؛ سواء التبيين فهي بيد الله لأنه الذي أنزل الوحي ليبيّن للناس، وسواء هداية التسديد والتوفيق في القلوب هذه أيضاً بيد الله جلَّ في علاه، والهداية الأخيرة في الآخرة لا يملكها إلّا الله جلَّ في علاه. هذا مجمل القول في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (ومن يهد الله فلا مضل له).

(ومن يضلل)؛ إذ الإضلال أيضاً بيد الله جلَّ في علاه، فضلال القلوب وزيغ القلوب وفتنة القلوب بيد الله جلَّ في علاه، وليست بيد أحد إلّا الله، فلا يخشَ أحد على نفسه من الإضلال ولا من الفتنة، وهذا محل قول شيخ الإسلام لتعلموا كيف تبحر هذا الرجل في معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، معرفة أساليب القدر وأسس القدر عندما قال: وما يفعل أعدائي بي؟! إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن سجنوني فسجني خلوة بربي، وإن نفوني فنفيي سياحة، جنتي في قلبي؛ يعني قلبي لا يملكه إلّا ربي، يستطيع أن يقطّع جلدك؟ يستطيع، لكن ما يستطيع أن يدخل قلبك ويزيغه، لا يستطيع أن يدخل الشرك في قلبك أبداً، ولا أن يزحزح اليقين من قلبك، قال: جنتي في قلبي.

هذا مستقى من هذا الحديث: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)؛ فإن الله جلَّ في علاه إذا أراد أن يزيغ قلباً لا هادي لهذا القلب، وهذا أيضاً قاله نوح إقراراً منه وقصه الله علينا؛ قول الله تعالى في سورة هود عندما قالوا له: أنزل علينا العذاب، وهو قال: الأمر إلى الله، ماذا قال؟ قال: (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ) [هود:34]؛ فهذه دلالة على أنني وأني رسول وأدعو ليل نهار لهدايتكم، لا أستطيع الهداية إذا كان الله يريد أن يغويكم. ولذلك قال الله تعالى في الإسراء على القرية التي إذا أراد

أن يهلكها ويدمرها: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)، وفي قراءة: (أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [الإسراء:16]؛ فهذه دلالة على أن الإضلال كل الإضلال بيد الله جلَّ في علاه، (وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]، ولذلك قال الله تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36].

ولنا وقفة إذا كان الإضلال بيد الله؛ هل يظلم الله عباده؟ وهل يضل الله جلَّ في علاه على غير حكمة وعلى غير اختيار؟ لا والله، إن الله جلَّ في علاه إذا أضل عبداً، فاعلم يقيناً أن هذا العبد لا يستحق بحال الهداية. قال الله عن ثمود: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]، هم الذين أرادوا الإضلال.

قال الله تعالى: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية:23]، هذه لها تفسيرات:

- التفسير الأول: أضله الله على علم من عنده، لأنه يعلم أنه ليس محلاً للخير. أيضاً لا تنبت خيراً، لا يأتيها المطر فتنبت خيراً أبداً، أرضاً لا تستحق الخير، يعلم الله أنه لا يستحق إلّا الإضلال. أضله الله على علم لأنه يعلم ـنه لا يستحق الخير والله يغار أن يضع الشيء في غير موضعه.

- التفسير الثاني: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) يعني على علم من هذا الضال الذي أضله الله، كان يعلم أن دين الله هو الحق، وكان يعلم أن أمر الله هو الحق، وكان يعلم أن الإسلام هو الحق فأبى تكبراً وعناداً. كما قلنا كثيراً أن فرعون علم يقيناً أن موسى رسول، وعلم يقيناً أن دين موسى هو الدين الحق، ومع ذلك تكبر وتعنت لأمر الدنيا. وقلنا اكثر من مرة هذه الآية ظاهرة واضحة عندما قال فرعون لموسى: (إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) [الإسراء:101]، قال موسى: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا) يقين هو يعلم أن الدين الحق (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) [الإسراء:102].

وقلنا قصة لطيفة (والإسرائيليات تقال، لا يثبت سندها ونقولها لا حرج)؛ أن إبليس دق الباب على فرعون فقال: من على الباب؟ قال: أو تسأل من على الباب وتدعي الربوبية أيها الجاهل

الظلوم؟ يعني هو يعلم أنه ظلوم ويعلم أنه لا يعلم الغيب ولا يعلم شيئاً، ومع ذلك أضل نفسه على علم.

فإذاً الله جلَّ وعلا لا يظلم عباده، إذا أضل عبداً أضله لأنه يستحق الإضلال. وإذا هدى عبداً فهذا من محض الفضل ومحض النعمة ومحض الكرم من الله جلَّ في علاه. أضله الله على علم، فلا حجة لأحد ولا لأحد أن يرد على الله ولا يقول أن الله جلَّ وعلا ظلمه بهذا الإضلال، الإضلال كله بيد الله.

(من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وخير الحديث كتاب الله)؛ أضاف الكلام لله جلَّ في علاه، وبيّن إشارةً منه، بل تصريحاً أن خير المجالس ما يذكر فيها اسم الله جلَّ في علاه، ويصلى فيها على النبي -صلى الله عليه وسلم-. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما جلس قوم مجلساً لا يذكرون فيها اسم الله جلَّ في علاه، لا يصلون على النبي -صلى الله عليه وسلم- إلّا كان حسرة عليهم يوم القيامة)، فهذه إشارة من النبي تصريحاً أن كلام الله هو خير الكلام.

ولذلك كان الصحابة يتبارون بل يتنافسون في ختم القرآن وقراءة كلام الله جلَّ في علاه، وكانوا يرون أن النفاق كل النفاق البعد عن كلام الله، وأن الإخلاص كل الإخلاص يظهر في محبة ترديد كلام الله جلَّ في علاه. وقد قال عثمان: لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله، وكان ابن مسعود يأخذ كتاب الله يحتضنه ويقبله ويقول: كلام ربي، كلام ربي، من أراد أن يختبر حبه لله فليعرض نفسه على كلام الله.

ثم قصر وحصر النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (وخير الهدى هدى محمد -صلى الله عليه وسلم-)؛ اقتران بين كلام الله وبين هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، في إشارةٍ إلى أن الكتاب والسنة يتلازمان يترافقان، لا يمكن أن ينفصل واحد عن آخر. وهذا الحديث فيه دلالة على تضعف حديث: (أحكم بكتاب الله، فإن لم أجد في كتاب الله حكمت بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-)، لأنه فصل بين الكتاب وفصل بين السنة. وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن كتاب الله وسنة النبي على التلازم والترافق، ولا يمكن الفصل بينهما؛ فإن كان خير الكلام هو كلام الله، فخير الهدي هو هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-. فإشارة منه أن الاعوجاج عن

هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه الإضلال وليس فيه الخير، ولذلك قالها تصريحاً: (كل امتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى). وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني).

ثم انتقل تفسيراً لهذا التقسيم العظيم؛ خير الكلام كلام الله، والهدى كل الهدى في كلام الله واتباع كلام الله، والهدى كل الهدى في اتباع كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم فسّرها بالضد، وبضدها تتبين الأشياء، قال: (وشر الأمور محدثاتها الشر)؛ كل الشر في المحدثات، الشر كل الشر في البدع فإنها ضلالات. يا ترى هذا التفسير لِمَ يبينه النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ ولِمَ غلّفه بهذه الشرور؟ البدعة كلها شر، ولِمَ هي شرور؟ أشر ما فيها ما هو؟ سببان عظيمان جعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول بأن البدعة شر كل الشر، يفسّر بها الهدى، بضدها تتبين الأشياء.

قلت الشر كل الشر ومكمن الشر في البدعة، ولذلك صدّر به النبي -صلى الله عليه وسلم- الحصر والقصر؛ أعظم الشر وكل الشر في البدعة لأن الذي يبتدع في دين الله جلَّ في علاه لسان حاله يتهم الله، يقول أنت لا تعلم ما فيه خير للعباد وأنا أعلم ولذلك أكمل لك هذا الدين، لم تتم هذا الدين وأنا أتم هذا الدين.

- إذاً أول الشرور وأعظم الشرور فيه: اتهام لله جلَّ في علاه أنه لم ينزل الخير للعباد وفيه اتهام لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ إن كان الله أنزل هذا الخير فلم يبلغه النبي، فهذا فيه اتهام ضمني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قصّر في البلاغ، والله يقول له: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67].

- الثاني؛ هذه التي نقول بتفسيرها لِمَ قال: (وشر الأمور محدثاتها)؟ هذه تنادي على كل رجل يأخذ ممن هب ولا يعرف كيف يفرق بين السني والبدعي، هي تتجه للعظمة الإلهية مهمة جداً: هو ذريعة لأن يتخذ أرباباً من دون الله جلَّ في علاه؛ من الذي خلق؟ إذاً من الذي يشرِّع؟ فإذا نصّب نفسه مشرِّعاً مع الله جلَّ في علاه، فقد نصّب نفسه رباً مع الله جلَّ وعلا، فهذا ذريع للمبتدع أو للبدعة إلى تنصيب البشر أرباباً مع الله جلَّ في علاه، إذ أن الشرع بيد الله جلَّ في

علاه كما أن الخلق بيد الله جلَّ في علاه، (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، ولذلك يقول الله جلَّ وعلا: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21].

(وشر الأمور)؛ هذه التي تغلّف المحدثات والبدع أنها كلها شرور، (وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة).

البدعة لغة: هي الطريقة المستحدثة على غير مثال سابق.

واصطلاحاً: هي طريقة في الدين مخترعة، يضاهى بها الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله جلَّ في علاه.

هي طريقة في الدين مخترعة؛ مخترعة أصلاً أو إضافة:

- مخترعة أصلاً: يعني لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم- بحال من الأحوال، يأتي بعبادة لم يتعبد بها النبي -صلى الله عليه وسلم- لا قولاً ولا فعلاً ولا تقريراً،

- أو إضافة: يأتي بعبادة تعبد بها النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن على هيئة غير الهيئة التي تعبد بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو في زمان غير الزمان الذي تعبد به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

إذاً طريقة مخترعة أصلاً أو إضافة؛ طريقة مخترعة أصلاً: لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، لم يأتِ بها الشرع بحال من الأحوال. أو إضافة: يعني أتى بها النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنها ليست على نفس الهيئة أو ليست في نفس زمان وفي نفس التوقيت.

طريقة في الدين مخترعة، يضاهى بها الشرعية؛ تضاهي الشرعية يعني: توافق الشرعية، سجود كسجود، ركوع كركوع، ذكر كذكر. وإلّا فابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا دخل على الجماعة الذين التفوا حول رجل ومعهم الحصى ويقول: كبروا مائة، سبحوا مائة، هللوا مائة. كانوا يذكرون الله، تضاهي ذكر الله جلَّ في علاه، ومع ذلك لمّا تلثم وخرج عليهم قال: أتعرفون من أنا؟ أنا عبدالله بن مسعود، صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنتم على ملة أهدى من ملة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو مفتتحي باب ضلالة. مع أنها

تضاهي الشرعية؛ يعني يذكر كذكر، يسجد كسجود، يصلي كصلاة، يزكي كزكاة. الغرض المقصود أنه يضاهى بها الشرعية.

يقصد صاحبها المبالغة في التعبد لله جلَّ في علاه؛ يقول زيادة الخير خيرات، وهذا الذي ذكره الرجل السائل الغافل لمالك عندما قال: ترى أنا أُحرِم قبل ما أحرم النبي -صلى الله عليه وسلم- فأحرم قبل الميقات، النبي أحرم عندما ذهب للحج من ذي الحليفة، فقال: أحرم من بيتي أو أحرم من قبل ميقات النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقال له: لا تفعل، قال: لِمَ؟ زيادة الخير خير، فقال له ما لك: كيف تقدم على أمر ترى الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد قصّر عنه؟ فأنت بذلك تريد المبالغة، وقد أسأت من حيث أردت الإحسان. فهو يريد المبالغة في التعبد لله جلَّ في علاه.

والبدعة مذمومة شرعاً وعقلاً وفطرةً:

- أمّا شرعاً؛ فقد قال الله تعالى ذماً فيمن ابتدع بدعةً في الدين: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27]، وقال الله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) [ص:26]، وقال الله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) [القصص:50]. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، باطل، وقال -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) يعني فهو باطل، وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار). كما وردت بها الآيات ورد بها الأحاديث والآثار، فهي مذمومة شرعاً.

- وأيضاً مذمومة عقلاً؛ فإن المبتدع يرى نفسه متقدم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويرى نفسه قد قدم نفسه على شرع الله جلَّ في علاه، أتم لنا الدين وأكمل لنا الدين، وأن الله لم يتم الدين ولم يكمل الدين، احتاج هذا الدين لمثل هذا الرجل الذي أتى بهذه البدعة وهذه العبادة التي لم يشرعها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فهي مذمومة كما قلت شرعاً وعقلاً وفطرةً؛ الفطر السليمة تأوي إلى السنن، وقد بيّنا أن الرجل المسدد الموفق الذي يأوي الى سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلى هدى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

بعدما علمنا معنى البدعة، وبيّنا ذمها شرعاً، نرى تقسيم البدعة بإيجاز أيضاً.

البدعة بدعتان: بدعة مكفّرة وبدعة مفسّقة؛

♦ أمّا البدعة المكفرة: فهي التي يخرج بها صاحبها من الملة؛ مثل بدعة غلاة الجهمية والمعتزلة، الذين لا يعبدون إلّا عدماً، ما يعبدون ذاتاً ولا أسماءً ولا صفات، قالوا: لا سميع ولا سمع، ولا بصير ولا بصر، ولا قادر ولا قدرة. فنفوا الأسماء والصفات، وضمناً نفوا الذات فعبدوا عدماً، هذه البدعة بدعة مكفّرة.

أيضاً من هذه البدعة الذين يقولون: لا تكليف إلّا بعد الأربعين، لا يكلّف أحد إلّا يبلغ الأربعين. وهذه بدعة مكفرة، لكن كيف ذلك؟ أولاً فيه تكذيب لكتاب الله وتكذيب لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فهو كذّب النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (رفع القلم عن ثلاثة: وعن الصبي حتى يحتلم)، فإذا احتلم أصبح مكلّفاً، هم يقولون: لا، نرد هذا الحديث على النبي -صلى الله عليه وسلم-. ومن الكتاب: (وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) [النساء:6]، فجعل مناط إعطائهم المال ورشدهم هو النكاح. لو قلنا هم لا ينكحوا، ولا يمكن أن يصل المرء عندهم في البلوغ إلّا الأربعين، الواقع يكذّبه.

فإذاً جعل مناط التكليف الاحتلام، وهذه واحدة من ثلاث يعرف بها البلوغ. فالكتاب قال: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) يعني الاحتلام، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رفع القلم عن ثلاثة: وعن الصبي حتى يحتلم). فرد كتاب الله، ورد سنة نبي -صلى الله عليه وسلم-.

أيضاً من البدع المكفرة أن يرفع أقوامٌ رسول الله لدرجة الربوبية أو درجة الإلهية، يسألونه من دون الله جلَّ في علاه أو يدعونه من دون الله جلَّ في علاه، يجعلونه رباً مع الله، فهذا أيضاً بدعة مخرجة من الدين.

♦ الثانية بدعة مفسّقة: وهذه أغلبها في العبادات ليست عقائد؛ في العبادات بأن يخترع عبادة لم يأتِ بها الشرع، لم يأتِ بها الله جلَّ في علاه في كتابه، لم ينزلها في كتابه، ولم يأتِ بها الرسول -صلى الله عليه وسلم-. فهذه بدعة مفسّقة وليست مكفرة، وسيأتي تفصيلها أنها أصلية وإضافية، وقد شرحت معنى الأصل والإضافة.

وهذا إيجاز لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة)؛ إذاً جعل المحدثات بدعة، وكل بدعة ضلالة.

الفوائد المستنبطة:

١- أول هذه الفوائد: إثبات الكلام لله جلَّ في علاه؛ الله يتكلم؟ نعم تكلم بالقرآن بصوت وحرف وسمع جبريل ونزل به. من هذا الحديث العظيم إثبات الكلام لله، قال: (خير الحديث كتاب الله)، فأضاف الكلام لله جلَّ في علاه.

وقد قعّدنا القاعدة المضاف إلى الله مضافان:

- أعيان قائمة بذاتها؛ كالكعبة، كالناقة، كعيسى روح الله. فالكعبة بيت الله، (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) [الشمس:13]. فالعين القائمة بذاتها إضافتها إلى الله إضافة تشريف؛ الكعبة بيت الله تشريف هذا البيت عن كل البيوت، (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) دلالة على عظمتها وأنها كانت معجزة من المعجزات، عيسى روح الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً لمكانة عيسى -عليه السلام-.

- والمضاف الثاني معاني: ليست عيان قائمة بذاتها، وإضافة المعاني هي إضافة صفة للموصوف؛ عزة الله، قدرة الله، كلام الله.

فأضاف النبي -صلى الله عليه وسلم- الكلام لله جلَّ في علاه إثباتاً، لأن الله يتكلم جلَّ في علاه.

٢- الرد على المعتزلة: من أين نرد على المعتزلة؟ وكيف الرد من هذا الحديث على المعتزلة؟

ترى أن شيخنا -رجل مفخرة للمصريين-، وإن كان في كلامه ليس بصحيح لكن كان يمثّل مثل عظيم جداً للناس، تستقبله العامة بقبوله بصدر رحب؛ يقولون: انظروا إلى الأستاذ ينظر إلى التلاميذ هو يختبرهم ويعرف قدرات كل تلميذ فيقول: أحمد سيأتي بالأربعين، ومحمد بتسعة

وثلاثين، وهشام ثلاثة عشر، زيد بأربعة وعشرين وعبيد بخمسة وثلاثين مثلاً. فأتى بهذه الأسماء والدرجات ووضعها عنده، بعد الاختبار كانت النتيجة مطابقة لما عنده، فهذه دلالة على العلم. فهو يقول ربنا عالم بالعباد، من صاحب الجنة ومن صاحب النار، من المهتدي ومن الضال. فهذا أيضاً كلام من الخطأ بمكان، وهذا أيضاً اعتزال. هذا خطأ المثال أن يقول الله يعلم من المهتدي ومن الضال، لكن ما يقر بأن الله يهدي ويضل. هذا المثل: زيد يأخذ أربعة وعشرين، الله هو الذي يجعله يأخذ أربعة وعشرين. لكن في مثاله قال: الله يعلم أنه سيأخذ أربعة وعشرين فقط، لكن ما أتى بجانبه، ما وفّقه للأربعة والعشرين.

إذاً الرد على المعتزلة كيف؟ المعتزلة يقولون: بأن الله ليس بيده الهداية ولا الإضلال، فإن الله جلَّ في علاه لا يستطيع أن يهدي عبد ولا يستطيع أن يضل عبد، العبد يهدي نفسه ويضل نفسه. ولذلك هم أجوريين، هم يقولون: الجنة مقابل العمل، هم يعملون فلذلك يستحقون الجنة. والنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (لن تدخلوا الجنة إلّا برحمة ربكم، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته).

ففي الحديث العظيم رد على المعتزلة الذين نصّبوا أنفسهم خالقين مع الله جلَّ في علاه، الهداية بأيديهم والإضلال بأيديهم؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)، فالهداية والإضلال بيد الله، رداً على المعتزلة الذين يقولون: هداية المرء بنفسه، هو يبحث عن الحق ويصل إليه وله الجنة يستحقها، والإضلال أيضاً بنفسه أراد الشهوة واتبع الشهوات وترك دين جلَّ في علاه.

٣- الفائدة الثالثة: كل بدعة ضلالة؛ هذا نص من كلام رسول الله: (كل بدعة ضلالة).

"كل بدعة" نص في العموم، النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه يقول: (كل بدعة ضلالة)، فإذاً هذا فيه رد على من قسّم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة، فنقول له: أأنت أعلم أم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ أأنت أعلم أم الله؟ رسول الله من فمه قال: (كل بدعة) نص في العموم، لا يحتاج لتأويل ولا تفسير، (كل بدعة ضلالة). ولذلك رحم الله ابن عمر -وهذا سيف قاطع في المقسّمين- عندما قال: كل بدعة ضلالة ولو رآها الناس حسنة.

إذاً هذا التقسيم منفي عند نبي الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كل)، وهذا كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-، الحمد لله لم نأتِ من كيسنا ولم نتكلم عن أنفسنا ولا عن فهمنا. ائت برجل من الشارع وقل له يقول النبي: (كل بدعة ضلالة)، وإذ بالشافعي أو عمر أو أبو بكر -قل هذا افتراضاً، حاشا لهم أن يقولوا ذلك- قالوا: هناك بدعة حسنة وهناك بدعة سيئة. العامي ماذا يقول؟ يقول: يخالفون النبي؟! النبي قال: (كل بدعة ضلالة)، وهم يقولون بدعة حسنة وبدعة سيئة؟ من أين أتوا بهذا التقسيم؟ من رسول الله؟ رسول الله قال: (كل بدعة ضلالة). إذاً (كل بدعة ضلالة) نص في العموم، رداً على من يقسّم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة.

تبقى لنا شبهة عند من يتعلقون بهذا التقسيم ويقولون بدعة حسنة وبدعة سيئة؛ قالوا عمر ابن خطاب -رضي الله عنه وأرضاه- عندما جمع الناس على أبي بن كعب يصلي بالناس في التراويح، نظر فاستنار وجهه وفرح قلبه وقال: نِعْمَت البدعة هذه. فقال إنها بدعة، فهذه من عمر ابن الخطاب تقسيم إلى حسنة وسيئة هذه الشبهة التي يتعلقون بها.

التأصيل العام من التأصيل النبوي -ليس منا-: (كل بدعة ضلالة)؛ "كل" نص في العموم، لا يمكن التقسيم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أجهز عليه، لكن عمر الفاروق كان يقول: نِعْمَت البدعة هذه.

أقول في الرد عليه في ذلك؛ البدعة بدعة لغوية وبدعة شرعية:

- ننظر أولاً لنفترض أن كلام عمر "نِعْمَت البدعة هذه" على البدعة الاصطلاحية، فننظر البدع الاصطلاحية هل هي أصلية أم إضافية؟ انظروا عمر بن الخطاب أتى بالناس وجمعهم على أبي يصلي بهم، ننظر هي أصلية أم إضافية؟ هل النبي صلى التراويح بالناس أم لم يصلِّ؟ إذاً الأصل فعله النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ كما في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى الليلة الأولى بالناس التراويح، وصلى الليلة الثانية والثالثة، ثم ضج المسجد بالناس فامتنع عن النبي). إذاً أصل العبادة موجود، أصل نبوي صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بالناس التراويح في جماعة، فإذاً عمر لم يأتِ باختراع جديد، قد صلى النبي، وصلى أبي بالناس.

▪ الأمر الثاني البدعة التي أتى بها عمر هي إتمام الشهر جماعة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يتم الشهر. إذاً:

- إمّا نقول قد ابتدع عمر بدعة وأتى بالناس وجمعهم على إمام وأتم الشهر في الجماعة،

- أو نقول لا هو موافق في إتمام الشهر للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

ظاهر الأمر هو لم يوافق النبي، لأن النبي لم يتم بالناس صلاة القيام في الشهر، هل كان لها علة أم لا؟ هي أمر من أمرين:

- إمّا أن يكون عمر أتم بالناس وهذه بدعة لم يفعلها النبي -صلى الله عليه وسلم-،

- وإمّا أن يكون عمر فعلها على أساس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما امتنع إلّا لعلة.

▪ فننظر هل النبي امتنع لأنها بدعة أم امتنع لأنها علة؟

ننظر نرى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما اجتمع الناس ولم يخرج لهم سألوه، فقال: (خشيت أن تفرض عليكم). إذاً النبي -صلى الله عليه وسلم- الصلاة أصّل أصلاً وصلى بالناس جماعة سنة صلاة التراويح، صلى بهم ليلة وليلتين وثلاثة، ثم امتنع، فلمّا امتنع تأنى وقلنا لِمَ امتنع النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

سأل الصحابة لِمَ امتنع: قال بدعة؟ لا ما قال بدعة، ماذا قال؟ قال: (خشيت أن تفرض عليكم). ما معنى هذا؟ معنى هذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إن لم يخشَ أن تفرض لصلى بهم جميع الشهر إماماً ومأمومين جماعة في التراويح.

فمعنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خشيت أن تفرض عليكم)، "مفهوم المخالفة": إن لم يخشَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن تفرض على الأمة لأكمل بهم الشهر.

فنظر عمر بدقة نظر وفقه عمر، لأن عمر هو الذي وافق الكتاب في أكثر من حال، نظر فقال: رسول الله جمع الناس وصلى بهم وقد فعلنا، لكن لم يتم الشهر، يا ترى لم يتم الشهر بهم لأنها بدعة أم لعلة قد انتفت؟ نظر عمر فوجد أن العلة خشية الفرض، قال: وهي قد انتفت. انتفت لأن وحي قد انقطع، إذاً لا فرض بحال من الأحوال، فنظر عمر قال: إذا الوحي انقطع أو إذا

تأكد واستيقن رسول الله أنه لن تفرض لصلى بهم الشهر، ونحن قد تأكدنا واستيقنا أنها لن تفرض فنكمل الشهر ويكون بذلك من السنة النبوية، لأن رسول الله لو تأكد واستيقن أنها لم تفرض لصلى جميع الشهر، لأنه علل الامتناع بخشية الفرض عليه.

إذاً يتلخص لنا قول عمر "نِعْمَت البدعة" على اللغوية وليست الاصطلاحية بحال من الأحوال، لأن اصلها عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى بهم وما أتم بهم خشية الفرض، وقد انتفت هذه العلة بانقطاع الوحي، لا يمكن أن تفرض صلاة التراويح جماعة. فإذاً الحكم يدور مع التي حيث دارت؛ لما انتفى خشية الافتراض، أتى الحكم بالجماعة وصلاة التراويح جميع الشهر، وتبقى هذه الشبهة لا قوة فيها ولا روح فيها لها، وتسلم لنا الأدلة بقول النبي: (كل بدعة ضلالة)؛ كلية البدع ضلالة.

٤- الفائدة الرابعة: خطر البدعة عظيم؛ وعظم خطر البدعة سيأتي أن صاحب البدعة لا يُقبل عند ربه جلَّ في علاه، وعمله غير مقبول، وهو لا تقبل توبته، بل لا يوفق للتوبة، صاحب البدعة لا يوفق للتوبة. ومن خطر البدعة ما بيّنه ابن سيرين، وأوجز ما أوضحه لنا ابن سيرين عندما قال: ما ظهرت بدعة إلّا ماتت سنة، وهذا هو خطر البدع.

من خطر البدعة مظلمة، ظلم عظيم، ضياع الدين، قال ابن سيرين: ما ظهرت بدعة إلّا ماتت سنة؛ فظهور البدع موت السنن، وإذا ماتت السنن انطمس الشرع، وإذا انطمس الشرع فقل على الدنيا سلام، فإن الله جل في علاه أذن لهذه الدنيا أن تفنى إذا لم يبقَ في الأرض من يقول: الله الله، على نهج رسول -صلى الله عليه وسلم-.

٥- الفائدة الخامسة: إن هذا الدين حنيف، وسماحة الدين يعرفها من يدقق في هذا الدين، من سماحة هذا الدين لا يغلق باباً إلّا أتى بأبواب مفتوحة. ولذلك نحن نقول دائماً: اعلم أخي الكريم إذا قيل لك في مسألة هذه حرام، والله الذي لا إله إلّا هو، إن تركتها لله فتح الله عليك أبواباً جساماً عظاماً كلها حلال.

إن الشرع لم يغلق باباً إلّا فتح له أبواب؛ لكن من أين نستنبط هذه؟ أغلق الباب على كل محدثة، فتح الباب على كل هدى، هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لمّا قال: البدعة حرام، البدعة ضلالة، البدعة في النار. قال: الهدي في الجنة، قال: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا:

ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)، من عصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد أبى، إذاً أغلق باباً وفتح أبواباً.

مثال ذلك في الشرع كثير منها: حرّم الله الربا، فأحل البيع؛ (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [البقرة:275]، حرّم الربا، فأباح البيع. الربا فيه فائدة ظاهرة تعطي عشرة وتأخذ خمسة عشر، أنت أيضً في التجارة والبيع تربح هذا الربح وأكثر، تشتري البضاعة بعشرة تبيعها بعشرين، تكسب. أغلق عليك باب الربا، فتح لك أبواب الحلال، أنواع البيع كثيرة فيها الحلال.

وهذا يظهر جلياً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لبلال عندما جاءه بالتمر الجنيب الجيد قال: (أو كل تمر خيبر هكذا؟ قال: لا يا رسول الله، والله إنا نأخذ الصاع بالصاعين (نعطيه الصاعين الجمع ونأخذ الجنيب الطيب صاع) فقال: أوه عين الربا، لا تفعل)، فأغلق عليه الباب، لا ترد الصاع بالصاعين، فأغلق الباب وما تركه. وهذه أيضاً ترشد كل طالب علم ومفتي أنه إذا سئل سؤال وقال حرام، عليه أن يفتح الباب الحلال حتى لا يسد الأمر للناس، يقول هذا رجل متشدد متطرف فيه وعليه، متنطع يغلق علينا أبواب الخير. لا، إذا أغلقت الباب افتح الأبواب؛ قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أوه عين الربا، بع الجمع بالدراهم واشترِ بالدراهم جنيباً)؛ البيع والشراء حلال، أما الربا فحرام، المبادلة هذه الصاع بالصاعين هذه عين الحرام. أغلقت عليك هذا الباب، فتحت لك هذا الباب.

أيضاً حرّم الله الزنا كما جاء الشاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: أبايعك على الإسلام، لكن أبح لي الزنا، فقال له: لا، وبيّن له أنه لا يرضاه على أمه وعلى أخته، ثم بيّن الشرع أنه أغلق باب الزنا وفتح له أبواب، ما هي؟ أباح له النكاح بأربعة نسوة، وأباح له التسرّي كيفما شاء من الإماء. انظروا أغلق باباً واحداً: أن تنظر لحرام أو تزني بامرأة حرام، ثم أحل لك أبواباً كثيرة: وهي أبواب النكاح أربعة من النسوة أو التسري بالنساء.

أيضاً أغلق عليك أبواباً وفتح أبواباً؛ حرّم عليك لحم الخنزير وحرّم عليك لحم الميتة، وأباح لك المأكول والنباتي والمذبوح على الذبح الحلال. أيضاً حرّم عليك الغناء لأنك تزعم أن فيه طرب، وأنت لا يمكن أن ترَ الطرب في قلبك وفي روحك إلّا بسماعك لكلام الله جلَّ في علاه،

ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن، فاستشعر حلاوة القرآن في قلبك وأنت تتدبره. أيضاً حرّم عليك كل مسكر، وأباح لك باقي المشروبات كلها لك.

هذه من حنيفية هذا الدين، فما أغلق عليك الشرع باباً إلّا وفتح لك أبواب، وهذه أيضاً تستنبط من هذا الحديث العظيم؛ حرّم الله علينا البدعة وأغلق لنا المحدثات في التعبد والمبالغة في التعبد، وفتح لنا الأبواب الكثيرة وأبواب سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-، سنن الهدي التي فتحها لنا النبي -صلى الله عليه وسلم-.

السنه لابن أبي عاصم

الدرس: التاسع

عنوان الدرس: باب ذكر البدع وإظهارها

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]،

أمّا بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ --صلى الله عليه وسلم- ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا نبيّن وسنموت حتى نبيّن بأن طالب العلم هو أفضل ما يمكن أن يتطلع إليه المرء، أو طلب العلم هي أفضل عبادة ممكن أن يقدمها المرء لربه جلَّ في علاه مؤتمراً بأمره. لا سيما وأن الله جلَّ في علاه وضع الأنبياء ووضع بعدهم العلماء، أو جعل العلماء في منزلة هي منزلة الأنبياء إلّا الوحي، وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه لا يفرق بين العالم وبين النبي إلّا الوحي فقط، درجة النبوة فقط. والعالم هو وريث النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا بد للوريث أن يكون قريباً ممن ورث؛ النبي -صلى

الله عليه وسلم- يقول: (إنما العلماء هم ورثة الأنبياء، وإنما الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر).

فأفضل من نرجو منهم الدعاء ونرجو أن يكون دعائهم أقرب إلى الله جلَّ في علاه هم طلبة العلم الذين يحرسون دين الله جلَّ في علاه، ويحملون شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- يبلّغونها للناس، فقد قال ابن عيينة: أفضل الخلق على الإطلاق هم الواسطة بين الخالق وبين المخلوق.

انتهينا الأسبوع الماضي إلى باب: ذكر ما زجر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن محدثات الأمور والتحذير من ذلك.

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على سيد خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً وبعد:

وروي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: سلطان غشوم ظالم، وغالٍ في الدين يشهد عليهم ويبرأ منهم)

باب ذكر البدع وإظهارها:

وعن حكم بن عميرٍ وكان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الأمر المفظع والحمل المضلع والشر الذي لا ينقطع إظهار البدع).

يغني عن الحديثين ما سبق وذكرنا في الباب قبله في الكلام على البدعة. أقول البدعة شرٌ مستطير وخطرٌ عظيم بها يهدم الدين، وبها تقوّض السنة، بل بها تسقط هوية المسلم وقدوته وأسوته، بل بها إهدار لأفضل حقبة من الزمان ازدهر فيها الإسلام وأهله. فإن الأمة الإسلامية قادت وسادت وكانت لها مطلق الريادة عندما عضّت على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنواجذ، فلمّا تركوها وجعلوها خلفهم ظهريّاً، جاءتهم البليات والنكبات تتراً.

فإن البدعة -كما قلت- خطرٌ عظيم، يستلزم ظهور البدعة أو الخطر الذي يقدم مع ظهور البدعة:

١- أولاً: تكذيب الله جلَّ في علاه وتكذيب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

انظروا إلى هذا الخطر الجسيم العظيم، هذه مستلزمات ومقتضيات ظهور البدعة: أولاً تكذيب الله وتكذيب رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

أمّا تكذيب الله فقد قال الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:3]؛ وهذا الذي يخترع هذه العبادات ويبتدع هذه العبادات في الدين فقد كذّب الله ضمناً، لأن الله قال: (أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ).

وأيضاً كذب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فإن (في محفل الحج قام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً في الناس ثم قال لهم: اللهم إني قد بلغت، قالوا: اللهم نعم، فقال وهو يشير بإصبعه إلى السماء: اللهم فاشهد، اللهم فاشهد)، وهم ضمناً يكذّبون ذلك، لأنهم إذا قالوا الدين لم يكتمل: إمّا لم يكتمل ابتداءً، يعني من الله وحياً. وإمّا لم يكتمل بلاغاً، وهذا طعن في بلاغ النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن الله جلَّ في علاه يقول: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) [المائدة:67].

فهذه البدعة التي أتى بها هذا المبتدع: إمّا أن يكون الله جلَّ في علاه أنقصها من دينه، ما أوحى بها لرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهم يرون أنها الخير كل الخير، تعبداً لله جلَّ في علاه. وإمّا أن يكون الله جلَّ في علاه قد أوحاها إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فكتمها النبي -صلى الله عليه وسلم- أو قصّر في تبليغها.

فانظروا إلى هذا الخطر العظيم الجسيم؛ ففيه تكذيب لله، وتكذيب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وأيضاً ضمناً فهي فيها طعن لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فإمّا أن يكون الله قد أوحاها ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد بلغها، وكتمها صحابته فلم يبلغونا إياها.

وإمّا أنها ليست بوحي من الله، وليست فيها تقصير بلاغ من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا قصّر صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

٢ - فننتقل للخطر الثاني العظيم الجسيم بعد هذا الخطر: وهو أن ينصّب المبتدع نفسه مشرّعاً مع الله جلَّ في علاه.

إن الله خلق الخلق لأمرٍ عظيم جسيم، وهي مهمة من أهم المهمات التي من أجلها خلق الله الخلق؛ قال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، هذا أسلوب حصر، حصر الوظيفة أو حصر العلة والحكمة من خلق الخلق ليس إعمار الدنيا وغيرها، مع أن إعمار الدنيا لا إنكار فيه، لكن الذي أقصده أن الله جلَّ وعلا الحكمة البليغة التي من أجلها خلق الخلق قالها حصراً في هذه الآية العظيمة: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وهم لا يعبدون الله إلّا بما يحب الله جلَّ في علاه، وما أحبه الله فقد شرعه على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-. إذاً لا يعبد إلّا الله، ولا يعبد الله إلّا بما شرع على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فالله هو الذي خلق، فهو الذي له استحقاق التشريع والتكليف، ولذلك يقول الله جلَّ في علاه: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]. التشريع لله جلَّ في علاه، هو الذي يعلم الغيب، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، لذلك هو الذي له الاستحقاق الكامل التام المطلق، ومطلق الاستحقاق في التشريع.

فيأتي هو فيشرّع للناس وكأنه يقول: أعلم ما لا يعلمه الله جلَّ في علاه من الخير. ولذلك ينكر الله أشد الإنكار أيّما انكار على من يفعل ذلك :(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]، وفي سياق الذم: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27].

٣- الثالثة: فيها هدم السنن وإسقاط هوية المسلمين، بل وهدم الأسوة التي لا بد أن يتخذها الإنسان.

فظهور البدعة تهدم السنة كما قال علماؤنا من السلف؛ قال ابن سيرين: ما ظهرت البدعة إلّا وماتت السنة، أو ما أظهر قومٌ البدعة إلّا وأماتوا مكانها السنة. وأيضاً قال بعض السلف مثل ابن سيرين وابن المسيب وغيره من علمائنا من السلف: ما أظهر قومٌ البدعة إلّا وقد هدموا مكانها السنة. فكلما ظهرت البدعة كلما انهدمت السنة، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم أو غيره: لإن ادخل المسجد فأجده امتلأ ناراً خيرٌ لي من أن أجد فيه بدعة واحدة. انظر إلى هذا، إذاً الفساد عظيم بالبدعة؛ يقول: أن أدخل المسجد فأجده يحترق ناراً، يهدم ما يصلى فيه، خيرٌ لي من أن أدخل وأجد فيه البدعة. لِمَ؟ لأنه لو احترق مكان يبنى بعد ذلك، أمّا لو أسست فيه البدعة هدمت السنة وهدم بعد ذلك الدين. فهذه الاستلزام الثالث الذي يبين عظم خطر ظهور البدعة وهو هدم السنة.

٤- الرابعة: الانسلاخ التام من التكليف.

ظهور البدعة يستلزم مقتضاه الانسلاخ التام من التكليف؛ هل المبتدع ممكن ينسلخ من التكليف؟ كيف ذلك وهو يقول زيادة الخير خيرات وإني أحب الله وأحب رسول الله، وأتعبد لله ليل نهار، أكثر من الذكر والتسبيح؟ يحب الله، فكيف نتهمه أنه ممكن بالبدعة هذه ينسلخ من الدين؟

هو بداية قلنا المبتدع ماذا سيفعل؟ سينظر لله جلَّ في علاه، أمر بكذا وأمر بكذا وأمر بكذا، ينظر في نفسه فيرى أن هذا قليل. كما دخلوا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسألوا عن عبادته، فكأنهم تقالوها قالوا: عبدٌ غفر الله له؟! ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- اشتد نكيره عليهم وقال: (هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني).

فهم بعد ذلك يستهوون ما ابتدعوه، ويتركون ما شرع لهم من الله جلَّ في علاه، ويرون أنهم قد اخترعوا أمراً حسناً، "والله ما أردنا إلّا الخير". ثم يعضون على ذلك بالنواجذ حتى يتركوا تشريع الله جلَّ في علاه، ثم يرتقوا إلى المنزلة الأعظم، وهي منزلة قول

الله تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [الحجر:99]، يقولون قد تعبدنا لله حتى بلغنا اليقين كأننا نرى الله، يرون الله أمامهم؟! فقال: هذا مبلغ اليقين، إذاً سقط التكليف.

كيف ذلك؟ قالوا بمفهوم الآية (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ)، "حتى" في اللغة ثلاث وجوه. بل الأنكى من ذلك عالم فحل من النحو قال سأموت وفي نفسي من حتّى شيء، يعني حتّى مصيبة ثانية. فهو يقول: الذي نريده من الآية حتّى هنا الغاية، فإذا وصل للغاية وهو اليقين، قال: استيقنت بربي حتى أني أراه. في المنام يا رجل؟ لا والله عياناً رأيت ربي، منهم من يقول ذلك. فإذا وصل إلى هذه الدرجة قال: سقط عني التكليف، وقد ورد عن بعض الناس هذا الكلام، يقولون سقط عنا التكليف.

فينسلخ تدريجياً من التكليف، يرى ما شرعه الله لا سمع ولا طاعة، أو يرى ما شرعه الله جلَّ في علاه فيه مشقة عليه وما شرعه لنفسه هو الخير، فيتعبد لله بما شرع وهو بنفسه حتى ينسلخ من التكليف والعياذ بالله، وهذا الخطر العظيم المستلزم لظهور البدع وترك السنن.

وقد قلت قبل ذلك هذا إهدار لمدة من الزمن، شامة في جبين التاريخ أن هذه الأمة قادت وسادت وكانت لها مطلق الريادة بل الريادة المطلقة عندما عضّت بالنواجذ على سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- وفتحت لهم كنوز كسرى وقيصر. نسأل الله جلَّ في علاه أن يبعدنا عن كل بدعه، وأن يحذِّرنا منها بالإشارة أو بالتصريح أو بالتلميح، وأن يجعلنا ممن يستن بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس العاشر: لا يقبل الله عمل صاحب بدعة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك، كتاب السنة لابن أبي عاصم، بلغنا إلى الباب الحادي عشر.

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً، وبعد:

باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا يُقبل الله عمل صاحب بدعة)

وعن أنس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله حجز) أو قال: (حجب التوبة عن كل صاحب بدعة).

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته).

وعن عمر -رضي الله تبارك وتعالى عنه- قال: إن لكل صاحب ذنب توبة، غير أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني براء.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الخير كثير، ومن يعمل به قليل).

كفانا الشيخ -رحمة الله عليه- محدّث الشام في أسانيد هذا الباب، لكن حديث: (أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة) وإن كان ضعيفاً له شواهد تقوّيه كما سنبيّن، أو تقوّي العمل به؛ إذ قد وردت في الآثار الصحيحة، بل في الصحيحين على أن الله جلَّ في علاه يرد عمل صاحب البدعة.

أقول قد ذكرنا الأسبوع الماضي مفاسد البدعة، وبيّنا أن البدعة مُفسِدة للدين وأنها هدّامة للسنن، بل هي تصل بالمرء إلى إهدار أفضل حقبة عاشها المسلمون؛ ألا وهي التي كانت لهم فيها الريادة المطلقة والسيادة المطلقة والقيادة المطلقة، قادوا الدنيا بأسرها وسادوها مشارق الأرض ومغاربها، لأنهم عضوا على سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنواجذ، وعلموا أن الفلاح والنجاة في ذلك.

البدعة كما قلت أخطر ما يكون، بيّنا شرها وشررها، ثم تكلمنا عن لوازم باطلة يستلزمها ظهور البدع:

- بأول اللوازم الباطلة فيها تكذيب لله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:3]؛ وصاحب البدعة بلسان حاله وفعاله يقول إن الدين لم يكمل، وهو قد ابتدع هذه البدعة ليكمل بها الدين، يتقرب بها إلى الله جلَّ في علاه.

- أيضاً من اللوازم الباطلة أنها تتضمن تكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في تمام إبلاغه عندما قال: (اللهم قد بلغت، قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم فاشهد)، وفي الصحيح

عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- عندما قالت لمسروق: أين أنت من ثلاث؟ وذكرت من هذه الثلاث: من حدّث أن محمداً قد كتم شيئا فقد أعظم الفرية، فإن الله جلَّ في علاه يقول آمرا لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67].

- ومن اللوازم الباطلة أيضاً؛ فيه القدح العظيم في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنهم كتموا ولم يبلغه، وأنهم لم يسارعوا إلى الله جلَّ في علاه، لم يتنافسوا ولم يعملوا بقول الله تعالى: (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [المطففين:26]. حتى جاء هؤلاء فاخترعوا هذه العبادة، يقولون نتقرب بها لله جلَّ في علاه زيادة في الخير.

بل أنكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيما إنكار على الصحابة عندما تقالّوا عبادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: عبدٌ قد غُفِر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: إني أقوم ولا أنام، والثاني قال: لا أتزوج النساء، والثالث قال: أصوم ولا أفطر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هذه سنتي إني أقوم وأنام، وأفطر وأصوم، وأتزوج النساء. هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني). أنكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيما إنكار على الصاحب الذي رأى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فله أن يزيد عن هذه العبادة التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- وشرعها، فقال هذه الحيدة عن هذا الضابط الذي ضبطه النبي -صلى الله عليه وسلم-، النبي -صلى الله عليه وسلم- منه براء، قال: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، تبرأ منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، والبراءة هنا كما سنبيّن براءة من العمل.

فنقول هذا الذي ابتدع البدعة قد قدح بصحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، بل في عدالة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم نقول له نصيحة له: وسعك ما وسع هؤلاء، لو كان الخير فيما فعلت لسبقونا إليه لتعديل الله لهم رضي الله عنهم وأرضاهم، هذه لوازم باطلة.

- ومن هذه اللوازم الباطلة أيضاً ما نراه الآن؛ تشرذم الأمة وتفرق الأمة بسبب البدعة، لأن من البدعة إفساد لذات البين. المبتدع يقاتل من أجل هذه البدعة؛ يوالي لها ويعادي

عليها، يحب لها ويبغض لها، ويرى أنه يتقرب لله جلَّ في علاه بهذه البدعة. فمن تمسك بالسنن يراه متشدداً متنطعاً محجراً على الناس، وأمّا هو فموسعاً على الناس، ويعادي أصحاب السنن، فيفسد ذات البين ويحدث التشرذم والتفتت لهذه الأمة.

فمن اللوازم الباطلة تفرق هذه الأمة، ثم تراه بعد ذلك ينادي بتوحيد الأمة. نقول له كلمة واحدة وجيزة: كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، يعني يحق لنا أن نقول يلتئم الشمل تحت راية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تحت راية قول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]. فهذه لوازم باطلة مرتبطة بالمبتدع وبصاحب البدعة.

- من هذه اللوازم الباطلة أنه قد نصب نفسه مع الله جلَّ في علاه مشرِّعاً؛ إمّا أن يكون قد صرح بذلك بلسانه أو بلسان حاله، فهو إن فر من هذه لن يفر، لأننا قلنا بأن الذي له حق التشريع هو الله، فإذا شرع هو مع الله جلَّ في علاه، لابد ولزاماً أن ينزل تحت قول الله تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]. كما خلق هو الذي يشرِّع، كما خلق هو الذي يأمر؛ قال الله تعالى: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، فالشرع لله جلَّ في علاه ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وليس لأحد سواه.

هذه اللوازم الباطلة التي تلزم صاحب البدعة، نقول: ولذلك أعظم الله له العقوبة، فكانت العقوبة وخيمة، عقوبتان من أعظم العقوبات لصاحب البدعة ولمن يسير على درب صاحب البدعة:

◆ أول هذه العقوبات وأعظم هذه العقوبات: حجب التوبة عن صاحب البدعة؛ سبحان الله، إن الله يفرح بتوبة العبد أشد من فرحة الرجل الذي قارب وشارف على الهلاك، ثم وجد حياته ووجد مطعمه ومشربه وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، وغفر الله له ذلك لأنه أخطأ من شدة الفرح. الله يصف لنا شدة فرح الله جلَّ في علاه بتوبة العبد، أشد من شدة فرح هذا الرجل الذي وجد نجاته ووجد حياته. ومع ذلك فإن الله يحجب، ولم يقل "لم يقبل"، قال: (حجب التوبة).

وهذه لها مغزى لطيف ألا وهو بأنه لو تاب قبل الله منه توبته، ولو رجع قبل الله رجوعه، ومن تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن أتاه من بعيد تقرب الله عليه من بعيد. فإن الله جلَّ في علاه يحب قرب العبد منه، فإن العبد إذا تاب، تاب الله عليه. لكن الله جلَّ في علاه جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً حجب وحجز التوبة عن صاحب البدعة؛ وهذا يسمى الاستدراج الخفي كما قال الله تعالى: (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) [الأعراف:182]، كيف ذلك؟

صاحب البدعة لسوء طويته ولفساد قلبه فإن الله يزين عمله فيراه حسناً، وإذا رآه حسناً لا يمكن أن يرجع عنه. إن الرجل إذا أذنب، إذا أخطأ، إذا تجرأ على حدود الله جلَّ في علاه وعلم أنه قد اخطأ وأنه تجرأ على حدود الله، فإن الله جلَّ في علاه يرسم له طريق التوبة ويبعث في قلبه باعث التوبة. أمّا الذي يرى أنه يتقرب إلى الله بهذه العبادات، ويرى أنها زيادة خير، لا يمكن أن يرجع، وهذا استدراج من الله جلَّ في علاه كما قال الله تعالى: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) [محمد:14]، أفمن كان على بينة من ربه على كتاب وسنة، (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ)، لِمَ؟ لأنه ابتدع في دين الله جلَّ في علاه ويرى أنه يتقرب بهذه البدعة. (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم)؛ فزيّن الله أعمالهم حتى يزدادوا في غيهم وطغيانهم، ويختم على بهذه الأعمال السيئات

وأيضاً قال الله تعالى: (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) [فاطر:8]، يرى أنه حسن، يحسب أنه يحسن صنعاً، وهذا من استدراج الله الخفي لصاحب البدعة. وهذه لا يمكن إلّا أن تكون نتيجة، لأن الله جلَّ في علاه يعلم فساد قلبه وسوء طويته. الله جلَّ وعلا قال: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية:23]، (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [الأنفال:51] أبداً والله، لكن لمّا علم الله جلَّ في علاه من أنه يعبد هواه، وأنه يرى في نفسه أنه منصّباً وله لازماً من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، زاده الله في غيه وطمس على قلبه وزيّن له عمله حتى لا يرجع.

هذه لطيفة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حجب عنه التوبة)، ولم يقل "لم يقبل توبته". إذ لو تاب قد تاب الله عليه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن في ذلك الحديث قال: (حتى يدع بدعته)، يعني لو ترك بدعته ورجع وأناب قبل الله رجوعه، لكن الله جلَّ في علاه يعلم من سوء طويته فختم على قلبه وزيّن له عمله فرآه حسناً، فلم يرجع إلى الله جلَّ في علاه.

هذه أول عقوبة وهذه أعظم العقوبات، إذ إن الله جلَّ في علاه إذا حجب التوبة عن العبد (*) الموازين والتي فيها السيئات، ولم يرَ حسنة يمكن أن تثقّل موازينه أمام هذه البدعة، هذه في الدنيا بعدما يحجب عنه التوبة، حتى يحرم الحرمان الكبير في الآخرة فلا يشرب من يد النبي -صلى الله عليه وسلم- شربة هنية عندما يحتاج إليها أشد ما يحتاج إليها، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وليختلجن من على الحوض أناس فأقول: ربي، أصحابي أصحابي) أو (أتباعي أتباعي) هذا معنى صحيح. (أصحابي أصحابي، فيقال: يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)، نعوذ بالله من البدع. هذه أول عقوبة، وهذه أعظم العقوبات؛ حجب الله عنه التوبة، زيّن له عمله فرآه حسناً.

نعوذ بالله من الغي ومن الطغيان، ولأن أكون ذنباً في الحق خير لي من أن أكون رأساً في الباطل.

◆ أمّا العقوبة الثانية وإن كانت كما قلت الحديث فيها ضعيف، لكن يشهد لها الأحاديث التي سنبيّنها، وهي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله عمل صاحب البدعة). هذه أيضاً من العقوبات الوخيمة العظيمة التي تنفّر صاحب البدعة من بدعته، وتقول له: لا حيدة، لا تحيد عن الطريق، ارجع لطريق النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يقبل الله عملك. فإن الله جلَّ وعلا لا يقبل عمل هذا المبتدع، لِمَ؟

نقول: قد اشترط الله ضمناً في كتابه وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- شرطين لقبول العمل؛ يتضمن الشرطين قول الله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك:2]. قال الفضيل بن عياض [في تفسير قول الله تعالى (أَحْسَنُ عَمَلًا)]: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عبدالرحمن ما أخلصه وما أصوبه؟ قال: إذا كان العمل إخلاصاً لله جلَّ في

علاه ولم يكن صواباً (يعني متبعاً فيه سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-) لم يُقبل، وإن كان العمل صواباً (صواباً: يعني اتبع فيه سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-) ولم يكن إخلاصاً فهو كالريح لم يقبل، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110]؛ (صَالِحاً) يعني: على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، (وَلا يُشْرِكْ) هذا الشرط الثاني وهو الإخلاص لله جلَّ في علاه.

وهنا صاحب البدعة الذي تقرب بهذه البدعة، وإن كان مخلصاً، ولو امتلأ قلبه بالإخلاص، فإن هذا العمل لا يقبل لأنه قد اختل شرط من هذه الشروط، وهو الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قلت لو امتلأ قلبه إخلاصاً وتصديقاً ويقيناً في الله، فإنه قد اختل شرط مهم جداً، ألا وهو اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقع تحت طائلة حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، فهو باطل، (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)، يعني فهو باطل. فهذه هي الوجهة الأولى، اختل شرط من هذه الشروط فلا يقبل العمل عند الله جلَّ في علاه.

لكن لابد لنا من نظرين في هذه المسألة، نقف وقفتين:

الوقفة الأولى: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله عمل صاحب البدعة)؛ أنا أجزم أن كثير ممن يتعبد لله جلَّ في علاه ببدعة ابتدعها، أقسم وأنا رأيت ذلك تلوح في الوجوه الإخلاص، وأرى أنهم يريدون التقرب إلى الله جلَّ في علاه. لكن دائماً نقول بقول أبي عبد الرحمن: وكم من مريد للخير لم يبلغه. حقاً فيهم الإخلاص، لكن لا يقبل العمل، لِمَ؟ مع أنهم أخلصوا لله جلَّ في علاه وعبدوا الله مخلصين له الدين؟ لم يتبعوا سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً اختل الشرط فلم يقبل العمل.

لكن ما معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله عمل صاحب البدعة)، هل لا يقبل على العموم أم لا يقبل على الخصوص؟ وما معنى القبول؟

أولاً: صاحب البدعة في عمله له قسمان:

١- قسم وافق فيه الشريعة، تعبد الله جلَّ في علاه بما يوافق سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢- وقسم آخر لم يوافق فيه الشريعة، ابتدع بدعة أصلها في الدين، إن كانت أصلية أو إضافية ابتدعها ليتقرب بها إلى الله جلَّ في علاه.

أمّا التي ابتدعها ولم نجدها في دين الله جلَّ في علاه فهي مردودة بالاتفاق، ودليل هذا الاتفاق: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد). هذا الأول.

أمّا القسم الثاني إن كان موافقا للسنة هل لا يقبله الله جلَّ في علاه؟ هذا هو المعترض، هذه المسألة يتجاذبها أدلة كثيرة، فهل يدخل العمل الموافق للسنة في الرد كالعمل الموافق للبدعة؟ والشرع تأصيله قوي: لا يفرّق بين متماثلين ويفرّق بين بين المختلفين؛ العبادة الأولى والعبادة الثانية: الأولى كانت بدعة في حيدة عن السنة، والثانية موافقة. إذاً مختلفين فهل الشرع يفرق بينهما أم يوفق بينهما؟ التأصيل الشرعي يأبى ذلك.

فإذاً:

- إمّا أن نقول: قول النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كان الحديث ضعيف: (إن الله لا يقبل عمل صاحب البدعة)، هذا عام مخصوص.

- وإمّا أن نقول نبقيه على عمومه.

أقول صراحةً المسألة شائكة، لا سيما وأن عندنا أن الله لا يظلم أحداً شيئاً، كما قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) [النساء:40]. فلو أحد عمل عملاً صغيراً دقيقا فهو عند الله جلَّ وعلا مكتوب، فكيف لا يقبله الله جلَّ في علاه؟ أقول الصحيح الراجح في ذلك أنها على العموم، وأن صاحب البدعة حتى ولو عمل بما وافق السنة لا يقبل.

سأبين الآن الوجهة، ثم نرد على الإشكال؛ هذه المسألة على العموم فيها أثر وفيها نظر: أمّا الأثر أود ألّا أقوله، لكن نعرّج عليه لأنه إلى الوضع أقرب منه إلى الضعف، وهو:

(لا يقبل الله لصاحب بدعة صلاة ولا زكاة ولا صوماً ولا حجاً ولا جهاداً، ويخرج من الدين كما تخرج الشعرة من العجين). هذا الحديث إلى الوضع أقرب منه إلى الضعف، فأنا عرجت عليه حتى أيضاً لا يغتر به أحد.

لكن النظر يقوّي العموم، إذ أن صاحب البدعة إذا تعبد بما يوافق السنة فإنه يتعبد بغير امتثال، وإذا تعبد ببدعة تعبد بأن هذه هي السنة. العموم من النظر: إن المبتدع إذا تعبد بالسنة تعبد بغير امتثال، وإذا تعبد بالبدعة تعبد بأنها سنة؛ فلذلك البدعة انتهى أمرها بالاتفاق على ردها، أمّا السنة النظر فيها أنه إذا تعبد بالسنة تعبد بغير امتثال.

أقول لمّا تعبد بالسنة على غير امتثال، لابد للإنسان إذا تعبد وهو يتأسى بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بقول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الأحزاب:21]. فهو يتعبد بهذه السنة، يمتثل بذلك لله تذللاً وخضوعاً، يقر بقلبه أن الله هو المشرّع ولذلك امتثلت باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنه أمرني باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-. لكنه يتعبد بهذه السنة ويقر في قلبه أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك ابتدع هذه البدعة. الآن هو يتعبد لله جلَّ في علاه، عندما يستن هذه السنة يرى أنه يسعه الخروج عن هذه السنة، والمتعبد امتثالاً يرى أنه ليس له أن يخرج عن هذه السنة لأنه يعلم أنه لا يتعبد لله عبادة مقبولة إلّا بما شرعه الله، وما شرعه الله أتى به على لسان النبي، وهو يرى أنه يسعه الخروج.

بالمثال يتضح المقال؛ عندهم دليل في ذلك، يعني هو يتعبد بالسنة مع أنه يقر في قلبه أنه يسعه الخروج، قالوا: وإن الخضر كان يسعه الخروج عن موسى، وقد خرج عن موسى ولم يلمه الله جلَّ في علاه على هذا الخروج. وقد ظهر ذلك جلّياً، هو يرى وعنده دليل، قال: الخضر كان ولياً من أولياء الله (يرجّح ذلك) وله ويسعه أن يخرج عن موسى -عليه السلام-، وقد خرج عن موسى، لم يتبع موسى -عليه السلام-.

أصل المسألة بأن المبتدع حتى ولو وافق السنة، يرى وهو يعمل بهذه السنة له أن يعمل بغيرها؛ معنى أن يقول له أن يعمل بغيرها خروج وحيدة عن الطريق المستقيم، (وَمَا

آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)، وقال تعالى: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، فهذه حيدة عن هذا الطريق. فلمّا رأى من نفسه أنه يسعه الخروج حتى ولو لم يبتدع، فقد وقع في المحذور. وعنده دليل في ذلك، ما هو الدليل؟ قال: الخضر قد خرج عن شريعة موسى -عليه السلام- وله ذلك. هل خرج الخضر أم لا؟ هل توافقون على الاستدلال؟

أنا أقول أوافق على هذا الاستدلال، فقد خرج الخضر عن موسى -عليه السلام-، بل موسى كان تابعاً للخضر. انظروا كيف أنكر موسى على الخضر بدلالة أنه خالف شرع موسى -عليه السلام-، عندما ركب السفينة وخرقها ما الذي حدث من موسى؟ (قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) [الكهف:71]، ثم قتل طفلاً بريئاً، فقال له موسى: (قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) [الكهف:74]، أنكر، وهذا الإنكار يدل على أنه ليس بشريعته. الثالثة عندما هدم الجدار أنكره، دلالة على أنه ليس في شريعته.

إذاً هذا الذي نقوله ونسرده، قد خرج الخضر عن شريعة موسى، ولذلك أنكر موسى، لكن الجواب عن ذلك جوابان أو ثلاثة:

♦ الجواب الأول: شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا، هذا اختلاف أصولي؛ من رجّح أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا، قلنا به. ومن لم يرجّح ذلك وقال: لا شريعة ما قبلنا شريعة لنا ما لم يأتِ دليل يخالفه، نقول إذاً الوجهة الثانية عند أهل الأصول، فلا ندخل في الخلاف.

نقول الجواب الأصح في ذلك والأسد جوابان:

▪ الجواب الأول: أن الخضر لمّا خرج، خرج بدليل، ونحن إذا جاءنا الدليل خرجنا لأن القاعدة عندنا: ندور مع الشرع حيث دار. وقد خرج الخضر بدليل وبوحي، وهو قول الله تعالى: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) [الكهف:82].

▪ الجواب الثاني: أقول بأنه شريعة موسى خاصة، شريعة موسى ليست عامة، خاصة لبني إسرائيل. فلذلك لا يدخل الخضر، ليس من بني اسرائيل. أمّا محمد شريعته فهي

عامة. إذاً الجواب الثاني: شريعة موسى خاصة ويسع للخضر الخروج عنها، لأن موسى ليس مرسلاً للخضر رضي الله عنه وأرضاه إن كان ولياً، وعليه السلام إن كان نبياً، ونحن نرجح أنه نبي. الغرض المقصود شريعة موسى خاصة، وشريعة محمد عامة فلا يصح القياس.

هل شريعة محمد عامة؟ ما الدليل؟ (وكان كل نبي يبعث إلى أمته خاصة، وبعثت للناس عامة)، فهذه دلالة على أن القياس مع الفارق لا يصح. إذاً لا دليل لكم في ذلك، ونقول لا يسع أحد الخروج عن دائرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا تعبد بالسنة لابد أن يستحضر عنده قول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، ويستحضر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، ويستحضر أيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد).

ولذلك نقول بعموم الحديث وأن صاحب البدعة لا يقبل له عمل حتى يدع هذه البدعة، فإن ترك هذه البدعة فإن الله جلَّ في علاه يقبل حسناته. عندنا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أسلمت على ما أسلفت من خير)، والله لا يضيع مثقال ذرة، لكن دائماً نقول البدعة حاجز وحاجب له، كما حجبته عن التوبة، حجبته عن قبول هذه الحسنات وعليه أن يترك هذه البدعة. ورحم الله الثوري عندما قال: البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية؛ المعصية يتوب ويؤوب منها صاحبها، أمّا البدعة يقاتل عنها صاحبها، يحب فيها ويبغض فيها ويوالي لها ويعادي عليها. إذاً النظر الأول في قبول العمل، لا يقبل كل العمل.

النظر الثاني: ما معنى القبول؟ إذا قلنا لا يقبل العمل نسقط عنه العمل؟ هل عدم القبول يستلزم عدم الصحة أم القبول يساوي عدم الصحة؟ إذ المبتدع إذا تعبد وقلنا له هذه العبادة لا تقبل يعني ليست صحيحة؟ هنا النظر الفقهي يأتي؛ نقول: القبول يستلزم الصحة، لأننا قلنا بأن الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان صالحاً مخلصاً لله جلَّ في علاه، أمّا الصحة لا تستلزم القبول.

يعني إذا كان العمل صالحاً فإنه لا يستلزم القبول من وجهين:

◆ الوجه الأول: يمكن عدم الإخلاص، ويمكن أيضاً الاختلال شرط من الشروط؛ دليل ذلك من السنة حديثان:

- الحديث الأول: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله صلاة أحدكم اذا أحدث حتى يتوضأ)، هذا دلالة على نفي الصحة والقبول أم النفي القبول فقط؟ إذاً نفي الصحة يستلزم نفي القبول. دلالة ذلك أن الذي أحدث وصلى بالحدث ولم يتطهر، قد صلى بصلاة اختل فيها شرط من شروط الصحة، فهي ليست بصحيحة، فإن كانت ليست بصحيحة لزاماً ولا بد ألّا تقبل.

- أمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أتى عرّافاً أو كاهناً لم يقبل الله له صلاة أربعين ليلة)، هذا الحديث يدل لنا أنها وإن كانت صحيحة وذهب إلى العرّاف فإن الله لا يقبلها. فهذا يدل على الجزئية الثانية، وهو إن كانت صحيحة فصحتها لا تستلزم القبول، لأنه سيصلي بشروط متوفرة يتطهر ويستقبل القبلة ويكبر ويركع ويسجد ويصلي صلاة مكتملة فيها الشروط، لكن لا تقبل عند الله جلَّ في علاه لأمر آخر وهو أنه أتى عرّافاً أو أتى كاهناً.

إذاً في الحديثين نستدل على أن نفي الصحة يستلزم عدم القبول، ونفي القبول لا يستلزم نفي الصحة.

نقول هنا نفي الصحة استلزم لمّا صلى بصلاة مختلة الشروط لم تصح، فلمّا لم تصح استلزم ذلك أنها لا تقبل لعلة أخرى وهو أنه أتى عرافاً أو كاهناً. إذاً نفي القبول لا يستلزم نفي الصحة، ممكن تكون صحيحة ولا يقبل.

وثمرة هذا الاستدلال أو ثمرة هذا الشرح أننا نقول: إذا اعترض علينا وقال: أنتم قلتم إن الله لا يقبل هذه الصلاة، فلا يصليها، إن الله لا يقبل هذه الزكاة، فلا يزكي. نقول: لا، لا تسقط عنه الفرائض. نقول: ونأمره بالصلاة وبالزكاة، ومع ذلك فإن الله لا يقبل هذا العمل تنفيراً له مما هو على البدعة. فيصلي ويصوم ويزكي وإن كانت غير مقبولة،

لأن نفي القبول لا يستلزم نفي الصحة. هذا النظر الثاني لهذه المسألة العويصة جداً: (إن الله لا يقبل عمل صاحب البدعة).

إجمالاً:

أولاً أن البدعة شر وشررها عظيم، وأنها تهدم الدين وتهدم السنن.

ثانياً: لعظم خطرها عقوبتها عظيمة:

١- حجب الله التوبة عن صاحب البدعة، وما حجبها إلّا انه زين له عمله فرأه حسناً، فلم يرجع لله جلَّ في علاه ولم يتب إلى ربه جلَّ في علاه.

٢- أن صاحب البدعة لا تقبل بدعته التي يتقرب بها لله جلَّ في علاه، ولو تفطرت قدماه لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد).

٣- أن هذا يجر إلى أعظم ما هو كائن، أن عمله كله غير مقبول ومتوقف على أن يرجع عن بدعته.

الفوائد المستنبطة:

- أولاً: هذه الأحاديث فيها رد على المعتزلة، كيف ذلك؟

محل الشاهد: أن الله جلَّ وعلا هو الذي يهدي وهو الذي يضل؛ والمعتزلة يقولون: لا يهدي ولا يضل. كيف تستنبطون من الحديث حجب التوبة؟ إذاً التوفيق للتوبة من الله جلَّ في علاه (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) [التوبة:118]. هم لا يقولون ذلك، يقولون إن الإنسان نفسه هو الذي يجري بنفسه إلى الخيرات أو يسحب نفسه إلى المعاصي والسيئات.

- الفائدة المستنبطة الثانية: إن عدم قبول التوبة وعدم قبول العمل ليس مطلقاً، بل هو مقيد، أين التقييد؟ (حتى يدع) غاية، إذا ترك البدعة فإن الله يقبل منه هذه التوبة ويرده ويقبل عمله.

- الثالثة: البراءة؛ كل مبتدع بريء منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبريء منه الصحابة، وهذه البراءة براءة من عمله. وهل هناك تفريق بين البراءة من الشخص والبراءة من العمل؟ وهذا التفريق هل عليه دليل؟ أو ما الدليل على ذلك؟

هناك براءة من العمل وبراءة من الشخص، حتى نفرّق ولا نقل مع الذين هم في غلو أهل التكفير، والعياذ بالله ولا الذين في جفو أهل الإرجاء.

▪ (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد)، وماذا فعل خالد؟ عندما قالوا له: صبأنا صبأنا، فقتلهم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد)، يعني ليست براءة من خالد، براءة من مما فعل، لا سيما وهو متأول.

▪ الدليل الثاني: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [الشعراء:216]، إذاً من العمل.

طيب ثمرة التفريق بينهم؟ لا يستلزم التبرؤ من الجزء التبرؤ من الكل، والعكس صحيح، اذا تبرأ من الكل فقد تبرأ ضمناً من الجزء. حتى نبّينها إذا تبرأ من الجزء لا يستلزم التبرؤ من الكل لأنه تبرأ من العمل، ولا يتبرأ من الشخص كلية بل أعماله الأخرى لا يتبرأ منها، كما تبرأ من فعل خالد. لكن لو تبرأ من الكل، ضمناً قد تبرأ من الجزء. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنا بريء من أبي جهل)؛ تبرأ من أبي جهل ومن أعمال أبي جهل. ودليلها الآية التي ثمرة البراءة أن الشخص كلية تعني خروجه من الملة، والبراءة من العمل لا تعني خروجه ولا تستلزم ذلك أبداً، لكن العمل يكون مردود وباقي الأعمال تكون مقبولة عند الله جلَّ في علاه.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الحادي عشر: رجلَّان ما تنالهما شفاعتي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك كتاب السنة لابن أبي عاصم.

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلق الله محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً وبعد:

باب: وعن معقل بن يسار قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (رجلان ما تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وآخر غالٍ في الدين مارق منه).

وروي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل أوزار الناس).

وروي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (أخوف ما أخاف عليكم ثلاث رجل قرأ كتاب الله حتى إذا رؤيت عليه بهجته وكان ردءاً للإسلام أعاره الله إياه، اخترط سيفه فضرب به جاره ورماه بالشرك. قلنا: يا رسول الله، الرامي أحق بها أم المرمي؟ قال: الرامي).

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ستةٌ لعنتهم وكل نبي مجاب؛ المستحل محارم الله والتارك لسنتي).

وروي عن كثير بن عبدالله عن أبيه عن جده قال: (كنا حول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المسجد، فأتاه جبريل عليه السلام بالوحي، فتغشى بردائه ثم مكث طويلاً حتى سرّي عنه، ثم كشف عنه فإذا هو يعرق عرقاً شديداً، وإذا هو قابض على شيء في يده فقال: أيكم يعرف كل ما يخرج من النخل؟ قالت الأنصار: نحن يا رسول الله نعرف كل ما يخرج من النخل، قال: ما هذه؟ ففتح يده، قالوا: هذه نواة، فقال: نواة أي شيء؟ قالوا: نواة سنة، قال: صدقتم، جاءكم جبريل -عليه السلام- يتعهد دينكم، لتسلكن سبل من قبلكم حذو النعل بالنعل، ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبراً فشبر، فإن ذراعاً فذراع، وإن باعاً فباع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم فيه، ألا إن بني إسرائيل افترقت على موسى على سبعين فرقة كلها ضلالة إلّا فرقة واحدة الإسلام وجماعتهم، وإنها افترقت على عيسى -عليه السلام- على إحدى وسبعين فرقة كلها ضلالة إلاّ فرقة الإسلام وجماعتهم، ثم إنكم تفترقون على اثنتين وسبعين فرقة كلها ظلالة إلّا فرقة الإسلام وجماعته).

هذه الأبواب كما بينت من بديع وحسن من تنسيق للمصنف أنه كان يبتدأ بالتصفية ثم بالتحلية، ولذلك تراه يكرر أبواباً، وهذه الأبواب المكررة. بعض الإخوة رأيت أن نظرهم ليس بدقيق أنهم قالوا: التكرار للأبواب يجعل العلم مكرراً ونحن نريد الجديد، فهذه دلالة على أنه لم يعض على العلم بالنواجذ، وأنا أردت أن أكون ناصحاً له أميناً، لكن سبحان الله هو حتى ما أتى اليوم أو ممكن يأتي، لكن هذه تكون له نصيحة.

العلم أولاً حتى وإن كان مكرراً فيه فوائد ثلاثة:

- الفائدة الأولى: هو تذكير للعالم، لأن العالم يمكن أن ينسى، إذا أصّل أصولاً وتعلمها فعندما يكرر على مسامعه العلم يرجع أو يراجع ما كان عنده مخزون حتى يثبته.

- الفائدة الثانية: هو تنبيه للغافل، ممكن يكون العالم متغافل، أو هذه المسألة يعني مرت عليه ولم يعض عليها بالنواجذ، لم يتقنها فيتقنها.

- والثالثة: استنارة للمبتدئ.

ومع ذلك في التكرار الفوائد الجمة، ولِمَ يقرأ الشافعي القرآن ستين مرة؟ ولِمَ يقول الذهبي: رحم الله امرئ كف لسانه عن غيره وأدام النظر في الصحيحين؟ هو يكرر القراءة على الصحيحين، لأن في كل مرة يقرأ فيها الحديث له فوائد جمة. وسنرى في هذه الأبواب المكررة ما فيها من فوائد خفية على الإخوة أنا أعلم أنهم طلبوا العلم من زمن، ويسمحوا لي اليوم سأسألهم صراحة وأرى ما عندهم في هذه الأبواب المكررة هل هم أتقنوا هذه المسائل أم لا؟

أول هذا الباب الكلام على الشفاعة؛ انظروا كيف يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رجلان ما تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وآخر غالٍ في الدين مارق منه). أولاً تذكيراً وتأصيلاً الشفاعة لغةً: هي الشفع، ضد الوتر، يقول جعلت الوتر شفعاً؛ يعني أتيت بوتر آخر فجعلته زوجاً شفعاً. والشفاعة اصطلاحاً: هو التوسط عند الغير لاستجلاب منفعة أو دفع مضرة.

الشفاعة نوعان: شفاعة عامة، وشفاعة خاصة؛ مقام التفصيل سيأتي لأن الرجل -رحمة الله عليه ورضي الله عنه- دخل بعد ذلك بعمق في مسائل العقيدة، يعني أول ما يستهل بعد هذه الأبواب أبواب البدع والتصفية، يبدأ في القدر، فهذه إن شاء الله مقامها سيأتي، مقام الشفاعة بالتفصيل. لكن أقول الشفاعة نوعان: عامة وخاصة؛

١- والشفاعة الخاصة: التي اختص بها نبينا -صلى الله عليه وسلم- عن سائر الأنبياء والمرسلين، تشريفاً وتكريماً وتعظيماً لمكانته عند ربه جلَّ وعلا، وإظهاراً لهذه المكانة:

▪ أول هذه الشفاعات وأم هذه الشفاعات وأفضل الشفاعات وأعظم هذه الشفاعات "الشفاعة العظمى"؛ يوم تدنو الشمس من الرؤوس ولا يستطيع أحد أن يتحمل هذا الكرب العظيم، فيستشفعون يتوسلون بشفاعة آدم ثم نوح، وما من نبي يتوسلون بشفاعته إلّا ويقول: نفسي نفسي، ويذكر ذنباً، ثم يحيل على نبي آخر.

أحال آدم -عليه السلام- على نوح، وأحال نوح على إبراهيم -عليهما السلام-، وأحال إبراهيم على موسى، هؤلاء أفضل الخلق أجمعين بالإطلاق، أفضل الرسل أجمعين. وأحال إبراهيم على موسى وهو يقول: نفسي نفسي، وأحال موسى على عيسى -عليهم السلام- وهو يقول: نفسي نفسي، وأحال عيسى على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: نفسي نفسي. والنبي -صلى الله عليه وسلم- يعظم ويكرم ويشرف ويقول: (أنا لها، أنا لها)، ثم يعظمه الله جلَّ في علاه ويعظم مقداره ويبيّن شرف هذا المقدار، عندما يذهب يخر عند العرش ساجداً لربه جلَّ في علاه، فيعلمه -بأبي هو وأمي- الله جلَّ في علاه محامد لم يكن قد علمها قبل ذلك، ثم يقال تكريماً وتعظيماً وتشريفاً لهذا النبي العظيم المكرم يقول له: (يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطى، واشفع تشفّع)، فيشفع في أهل الموقف. وهذه هي الشفاعة الخاصة هذه الشفاعة لا تكون إلّا بعد أمرين اثنين، هذه الشفاعة خاصة للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

▪ وهناك شفاعة أيضاً خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- عن سائر الأنبياء، وهي الشفاعة في الكافرين. وهذه ممنوعة مبتورة مجذوذة، ما أحد يستطيع ان يتجرأ أن يشفع للكافرين، لكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أباح الله له تعظيماً تكريماً وتشريفاً له، خاصة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يشفع في عمه الكافر أبي طالب؛ كما قال العباس: ما فعلت لعمك وكان يحوطك ويناصرك ويفعل لك، كما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بإسناد كالشمس قال له: (لولا أنا (وهذه دلالة على شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-) لكان في الدرك الأسفل من النار، وهو الآن في ضحضاح يرتدي نعلين من نار يغلي بهما دماغه)، هذه أيضاً شفاعة في عمه الكافر خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

▪ والشفاعة الثالثة الخاصة، هذه الشفاعة خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، (عندما يأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقول الملك: من؟ فيقول: محمد، فيقول: بك أمرت) يعني بغيرك لا، هذه الشفاعة أيضاً خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢- ثم الشفاعة التي تشترك، شفاعات أخرى ثلاثة يشترك بها الأنبياء والمرسلون وأيضاً عامة أهل الإيمان، هذه الشفاعات لا تكون إلّا بشرطين اثنين لابد أن يتوفرا:

- الشرط الأول: هو إذن الرب جلَّ في علاه للشافع.

- والثاني: الرضا عن الشافع والمشفوع.

أما الدليل على الإذن قول الله تعالى: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [البقرة:255]، معنى ذلك لا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه، فهذه دلالة على أن الشفاعة لا تكون إلّا بإذن الله، وهذه تبين لك أنها ملك لله جلَّ في علاه، لا يستطيع أحد أن يملك هذا إلّا الله جلَّ في علاه.

الثانية رضا الله عن الشافع وعن المشفوع لقوله تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) [الأنبياء:28]، هذا مجمل الشفاعة، ثم الشفاعة لكل المؤمنين.

وهذا الحديث فيه إشكال عظيم، وهنا انظر إلى الفوائد في التكرار؛ حديث الشفاعة حديث فيه إشكال عظيم، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رجلان ما تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وآخر غالٍ في الدين مارق منه)، هذا فيه إشكال عظيم:

♦ أولاً النبي -صلى الله عليه وسلم- كما صح عنه في حديث أبي هريرة أن شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- عامة، وهي نائلة كل موحد، فكل موحد تناله الشفاعة. فحدث لنا إشكال عظيم من هذا الحديث، والحديث كالشمس عندما رواه البخاري وغيره أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن هذه الشفاعة عامة، شفاعته لأمته عامة وهي نائلة كل موحد. أريد حل الإشكال؟

الإشكال: هذه المسائل من الأهمية بمكان ولابد الإنسان أن يعض عليها بالنواجذ؛ بضدها تتبين الأشياء، لو ما عرفت الغث لن تعرف السمين، لو ما عرفت القوة لن

تعرف الضعف، الآن هذا الحديث كيف توجيهه؟ هو على ظاهره؟ ليس على ظاهره؟ إشكال كما قلت. أولاً النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (شفاعتي عامة هي نائلة كل موحد)، والحديث يقول: (رجلان) وهذا عام أو مخصوص؟ إذا قلنا "رجلان" هذا إطلاق، والإطلاق يفيد الجنس. وإذا قلنا "إمام"؛ ف"إمام" هنا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم. ففي الحالتين لا بد أن نقول على الإطلاق وتحل الإشكال، الآن هي نائلة كل موحد، فإذا قلت بالإطلاق فدخل الموحد ودخل غير الموحد. حتى تعضوا على التكرار بالنواجذ، وتعلموا أن ما من تصنيف بحديث واحد يكرر ألف مرة إلّا وفيه ألف فائدة، وسترون هذه الفوائد التي عزت على طلبة العلم حتى.

أول شيء نقول الحديث عام مخصوص في شفاعة الموقف فقط، والأسهل في ذلك أن نقول إذا قُصِدَ بإمام ظلوم غشوم بالظلم الأكبر، فهذه لا إشكال فيها، إذ الظلم الأكبر هو الكفر، والظلم الأكبر لا شفاعة فيه، فإن الله نفى الشفاعة عن الكافرين قال: (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) [المدثر:48]. وهل الظلم فيه ظلم أكبر وظلم أصغر؟ نعم فيه ظلم أكبر وظلم أصغر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن لنا ذلك عندما قرأ قول الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام:82]، قال أبو بكر: يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس ذاك)، تعلم فإن الظلم ظلمان، (ليس ذاك، ولكن اقرأ نصيحة لقمان لابنه: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان:13])، فهنا يقصد بأن الظلم الأكبر هو الشرك.

وهذا حله سهل، إن كان هذا الإمام سواء إمام عام أو إمام خاص أو أي إمام كان مشركاً، أشرك بالله شركاً أكبر، فهذا لا تناله شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن الله حكم وقضى كوناً أن لا شفاعة في الكافرين.

كذلك الذي مرق من الدين، لأن المروق من الدين: مروق أكبر ومروق أصغر، وهذا التقسيم جلّي تعرفه في حديث الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ عندما جاءه ذو الخويصرة وهو يقول: يا محمد اعدل، فقام خالد قال: يا رسول الله دعني أضرب

عنق هذا المنافق، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)، وفي رواية أخرى: (لعله يصلي). وفي رواية أخرى حتى لا نلبس الروايات بعضها ببعض، الشاهد الذي أريده: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نظر إليه وهو يولي ظهره له، فقال: (يخرج من ضئضئ هذا أقوام يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)؛ (يمرقون من الدين) يكفّرون، يخرجون، بالاتفاق أن المقصود بالحديث هم الخوارج، وجماهير أهل العلم لا يكفّرون الخوارج. وهذا الراجح الصحيح الذي ندين الله به أنهم ليسوا بكفار، ولو كفّروا المسلمين ليسوا بكفار.

(فيمرقون)؛ هنا يقصد به المروق الأصغر لا المروق الأكبر. فإن كان المروق بإتيان السجود لصنم أو إتيان بكفريات، كفر بها وخرج من الملة، هذا أيضاً لا إشكال في الحديث، لا تناله شفاعة النبي لأن شفاعة النبي لا ينالها الكافرون بحال من الأحوال إذا دخلوا النار.

لكن الإشكال كل الإشكال إن قصد بالحديث الظلم الأصغر والمروق الأصغر، فماذا نفعل؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا يقول: (لا تنالهم الشفاعة)، وأيضاً في حديث الصحيحين يقول: (تنالهم الشفاعة). ومن يحرم المؤمنين من شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ ومن يحرم الموحدين من شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ وما لنا بعد رضا الله ورحمة الله جلَّ في علاه غير شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، من يحرم الناس من شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- سواء ظلموا أنفسهم ظلماً أصغر أو أتوا بالكبائر؟ ما منا من أحد إلّا ويزل، ما منا ومن أحد إلّا يكسب المآثم وأيضاً يقع في الظلمات، والظلم ظلمات. لكن شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- لابد أن تدرك هذا الظالم حتى تتداركه رحمة الله جلَّ في علاه، فكيف نحل هذا الإشكال؟

يقول: (هي نائلة)، وهنا يقول: (لا تنالهما)؛ ظالم لا تناله، مارق لا تناله. لكن الإشكال كل الإشكال لا تناله الشفاعة، هذه مصيبة كبرى، والشفاعة هي أهم ما يمكن أن يسعى إليه المرء، لأننا كما قلت في بحر الظلمات كلنا، فشفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-

لو ندركها أدركنا رحمة الله جلَّ في علاه. نحن في دائرة المعاصي، وما منا من أحد إلّا ووقع في المعاصي، وما منا من أحد إلّا وظلم نفسه.

الشفاعات الثلاثة الباقية؛ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذه الشفاعات:

- منها شفاعة انه يشفع في أهل الكبائر الذين استحقوا النار أول وهلة ألّا يدخلوها.

إذاً هذا الحديث هو المراد بهذا أنهم لن ينالوا هذه المنقبة العظيمة وهي إذا استحقوا النار فبظلمهم وكبيرتهم، استحقوا النار لن ينالوا هذه الشفاعة أن يشفع فيهم أن يدخلوا الجنة من أول وهلة. إذاً هذا عام مخصوص، مخصوص بهذه الشفاعة فقط التي إذا ارتكب صاحبها هذه الظلمات ومرق من الدين وكفّر المسلمين وخرج مع الخوارج، هذا لن ينال شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- التي هي من أول وهلة يدخل الجنة، لا. يدخل النار، ثم يخرج بعد ذلك بالشفاعات الأخرى؛ سواء شفاعة النبي أو شفاعة الله أو شفاعة الملائكة أو شفاعة المؤمنين، هذا المقصود بها.

فهذه عامة مخصوصة بشفاعة رابعة ألا وهي "شفاعة النبي في الموحدين الذين فعلوا الكبائر"، ومآلهم بعد ذلك إلى الجنة. هو يشفع في أهل الكبائر، من استحق النار أن يدخل الجنة من غير أن يعذب ومن غير أن يدخل النار. وهؤلاء: الإمام الظلوم مثلاً، أو المارق من الدين الذي غالى في الدين ليست له هذه الشفاعة، لكن له شفاعات بعد ذلك إذا استحق النار ودخلها، هذه الشفاعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

إذاً هذا الحديث عام مخصوص بشفاعة واحدة فقط، فهؤلاء إن كانوا من الموحدين الحمد لله ليسوا من الكافرين تنالهم شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الموقف وتنالهم شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا دخلوا النار وصاروا حمماً؟ تنالهم شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ليخرجوا منها ويدخلوا الجنة، تنالهم شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ممكن أن يرفعوا في الدرجات؟ تنالهم. إلّا شفاعة واحدة سيحرمون منها بنص هذا الحديث وهي: أنهم لو استحقوا من أول وهلة النار أن هذه الشفاعة لا تصل إليهم، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا تنال الإمام الظلوم ولا المارق من الدين، يعني الغالي في الدين. هذه الشفاعة لا ينالوها.

هذه شفاعة ثابتة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقد أثبتناها فما الدليل عليها؟ أين وجه الدلالة؟ الصلاة على الجنازة؛ لمّا تصلي على الجنازة، ماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ (إذا شفع فيه أربعون شفعهم النبي -صلى الله عليه وسلم-)، وهذا على العموم سواء من أهل الكبائر، أو من أهل الحسنات، أو هو استحق النار أولاً أم لم يستحق النار أولاً.

فإذاً نقول شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- في أهل الكبائر الذين استحقوا النار ألّا يدخلوها، حرم منها الذي غالى في الدين؛ والذي غال في الدين يمكن الغلو يكون كمثال هؤلاء الخوارج، أو الغلو في الدين بأن يأتي بعبادات لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم- مخالفة لهدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما فعل الثلاثة وتقالوا عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: عبدٌ غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم استجدوا عبادات، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- جزماً حسماً للمادة: (هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني).

أمّا الحديث الثاني وما أدراكم ما الحديث الثاني، يقول فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لأن له شواهد تقوّي المعنى: (من ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل أوزار الناس). هذا الحديث فيه محذوف لزاماً مقدّر، وهذه طبعا تشاكلها وتواكبها وتوافقها أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- والآثار الصحيحة التي وردت عنه: (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل به من غير أن ينقص من أوزارهم شيء). المقدّر معناه: "من ابتدع بدعة في الواقع لا يرضاها الله ورسوله"، ولِمَ نقول بهذا المقدّر لزاماً؟ لأننا لو قلنا: (من ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل أوزار الناس)، إذاً بالمفهوم من ابتدع بدعة يرضاها الله ورسوله فله الحسنات، ولمن عمل بها الحسنات. فهذا التقدير لزاماً أن نقول: من ابتدع بدعة والواقع لا يرضاها [يعني الواقع لا يرضى الله عن أي بدعة] لا يرضاها الله ورسوله فعليه وزرها ووزر من عمل بها من الناس.

لكن ما دليل الذي جعلني أضع هذا المحذوف أو أقدر هذا المحذوف؟ "كل" نص في العموم؛ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل بدعة ضلالة)، فإذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل بدعة ضلالة) تساوي: كل بدعة لا يرضاها الله ورسوله وهذا الذي الزمنا أن نقول: من ابتدع بدعة والواقع أن البدعة لا يرضاها الله، لقول النبي: (وكل بدعة)، "كل" نص في العموم، لا بدعة حسنة ولا سيئة، وكل بدعة لا يرضاها الله ورسوله وكل بدعة ضلالة، فإذاً الحذف المضاف أن تقول: "من ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل أوزار الناس.

وهذه عقوبة أيضاً تضاف إلى العقوبات التي ذكرها المصنف للمبتدع الذي ابتدع في دين الله جلَّ في علاه، أن ميزانه مثقل، ثقيل جداً ليس به فقط، بل ومن تبعه في هذه البدعة وعمل بها، فهذه الأوزار كلها توضع على ميزانه.

ونقول لأن الباب الثالث دخل ضمن الباب الأول، آخر الباب حديث: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم)؛ هذه المسألة أصل من أصول الدين، عظيمة لابد للإنسان أن يضبطها. هذا الأصل من أصول الدين هو التفريق بين أولياء الرحمن وبين أولياء الشيطان، ولو كان في المظهر. فنرى كثير من الآيات وكثير من الأحاديث التي تفرّق بين الصفين: بين الصف المؤمن وبين الصف الكافر، إثبات هوية المسلم المؤمن وأيضاً إثبات هوية الكافر، حتى لا يشكلان ولا يختلطان على أحد.

ولذلك ترى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينهى الأمة كل النهي عن التشبه بالكافرين، حتى لا يصل الإنسان بتشبهه في الظاهر إلى التشبه في الباطن، بل والاعتقاد بما اعتقده أهل الكفر في الباطن. فإذا تشبه بهم في الظاهر ورّثه ذلك محبتهم، فإذا ورثه المحبة ورثه بعد ذلك الموالاة، وهذا أصل من أصول الدين كما قال الله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف:142]، وقال جلَّ في علاه: (وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) [البقرة:120]، وقال جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) [المائدة:51]. وترى النبي -صلى الله عليه وسلم- يبعد بعد المشرق عن المغرب من أفعال اليهود ومن مشاكلة

اليهود في أصل الدين في العبادات، في المظاهر، حتى في الثياب وفي الزي، حتى في الطعام كما سنبين.

- أول ذلك القبلة: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يستقبل بيت المقدس وقلبه يميل إلى أن يخالف اليهود والنصارى وأن يستقبل الكعبة، ولذلك يقول الله جلَّ وعلا لطفاً بعبده وأكرم الخلق عليه: (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)، فولّاه المسجد الحرام مخالفةً ومباينةً لقبلة اليهود والنصارى.

- ثم يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصلاة حتى تخالف هدي هؤلاء الكافرين: (صلوا في نعالكم، فإن اليهود لا تصلي في النعال)، مخالفة لليهود والنصارى.

- أيضاً في المظهر النبي -صلى الله عليه وسلم- يحث الأمة ويحسم أيضاً مسألة المشاكلة والمباينة بين المؤمنين وبين الكافرين، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعفوا اللحى وحفوا الشارب وخالفوا اليهود والنصارى)، أو قال: (خالفوا المشركين)؛ والمشركون هم اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، لكن هم أناس منهم.

- أيضاً في الزي وفي اللباس يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- [وهذا حديث عجيب]: (تسرولوا واتزروا، فإن اليهود تتسرول ولا تتزر)؛ (تسرولوا واتزروا) يعني تلبس تحت الإزار السروال، لأن اليهود تلبس الإزار بدون السروال. انظر للمخالفة كيف وصلت إلى هذا الحد، قال: (تسرولوا واتزروا) مخالفة لمن؟ مخالفة لليهود ولهدي اليهود.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يخبر عن واقع الأمة منكراً عليهم السير في ركاب هؤلاء؛ (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. فقالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟) يعني من غيرهم وفي رواية أخرى قال (لتتبعن سنن الذين من قبلكم حذو القذة بالقذة)، وفي رواية قال: (ولو كان فيهم من ينكح أمه، لكان في هذه الأمة من يفعل ذلك). يخبر عن الواقع، وهذا واقع أليم وقد حدثت نبوءة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد وجد في هذه الأمة من نكح أمه واقعاً نشاهده. وهذا الذي حدث في هؤلاء قبلنا، فاتبعنا سنن الذين من قبلنا، وكان

الإخبار من النبي -صلى الله عليه وسلم- يتضمن التحذير والتنفير من هذا الانسياق مع هؤلاء الكافرين.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- تراه يحسم المادة التي تصل بالإنسان إلى أن يفكر في المشابهة، هذه المادة أو هذه الوسيلة التي تجعل المسلم يفكر في مشابهة الكافر أن يسكن معه في بلد واحدة؛ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنا بريء ممن جلس بين أظهر المشركين، لا تراءى ناراهما)، لِمَ؟ حتى لا يتشبه بهم فيحدث التشبه في الظاهر فيؤثر في الباطن، فتحدث المحبة ثم تأتي المودة التي حسمها الله جلَّ في علاه.

وأقول هذه المسألة لها ذيل، وهذا الذيل المحبة أو المودة منتفية، لكن البر والإحسان وعدم الظلم أصل أصيل من ديننا كما قال: (لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ) [الممتحنة:8]؛ عدم الظلم وإحسان المعاملة الرفق هذا من أصول ديننا، وهذه كما قلت لا تخالف عدم المودة وعدم الموالاة. هذه آخر الباب الذي نختم به، وكما قلت الرجل يمر سريعاً حتى يصل إلى عمق العقيدة، وسيبدأ بعد أبواب إلى الكلام على القدر.

الفوائد المستنبطة:

١- أولاً مفهوم مخالفة أصل أصيل عند جمهور أهل العلم، من أصول هذا الدين، ومفهوم المخالفة له أحوال ومواضع لا يعمل بها. من هذه المواضع:

- إن كان كاشفاً للواقع أو إن كان إخباراً عن الواقع، فلا يعمل بالمفهوم، وهذا يستنبط من الحديث الثاني وهو: (من ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله). إذا قلنا بالمفهوم نقول: إذا ابتدع بدعة يرضاها الله ورسوله ليس عليه هذا الحكم، نقول: لا، هذا الحديث سيق مساق كشف الواقع، وله أمثلة كثيرة في الكتاب وفي السنة.

من الكتاب قول الله تعالى: (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ) [النساء:23]، معنى ذلك مفهوم المخالفة [ربائبكم المنطوق] حكمه: لا يجوز التزوج من هذه الربيبة التي كانت في حجره. فإن لم تكن في حجره، أي الربائب اللاتي لم تكن

في الحجور يصح الزواج منها؟ نقول: لا يصح، لأن هذا المفهوم غير مراد وهذه الآية كاشفة للواقع، كأن الله جلَّ وعلا يقول: والواقع والغالب على الذي تزوج امرأة عندها طفل فإنه يربيه في حجره، هذا الواقع وهذا الغالب.

أيضاً قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً) [آل عمران:130]، هنا أيضاً المفهوم غير مراد. هل المفهوم نقول: يا أيها الذين امنوا اهنئوا بالربا قليلاً قليلاً؟ (درهم واحد ربا أشد من ستة وثلاثين زنية) عند من صحح هذا الحديث. فنقول كيف نقول بالمفهوم؟ المفهوم هنا غير مراد، والآية معناه الواقع أن الذي يأكل الربا، يأكل الربا أضعافاً مضاعفة.

وأيضاً حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتمرن الظعينة من كذا حتى تطوف بالبيت، لا تخشى إلّا الله والذئب على الغنم)؛ هل معنى ذلك أن المرأة لها أن تسافر بغير محرم؟ هل هذا الحديث له مفهوم ومفهومه غير مراد [المفهوم يعني مفهوم المعنى]؟ لو كانت آمنة لها أن تسافر وحدها؟ هذا المفهوم غير مراد لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل لمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر)، لو كان الأمان مخصوص لبينه النبي -صلى الله عليه وسلم-، لا يحل قطعاً وجزماً وعموماً، (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلّا مع ذي محرم).

٢- الفائدة الثانية: الظاهر يؤثر في الباطن، من تشبّه بأحد في الظاهر لزاماً لا بد أن يتأثر به في الباطن. ولذلك قال الله تعالى: (كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ) [البقرة:118]، (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) [هود:8]. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (استووا ولا تختلفوا) يعني في الظاهر (فتختلف قلوبكم) في الباطن، وهذا يستنبط من مسألة المشاكلة.

٣- الفائدة الثالثة: اللعن يأتي فيه: اللعن الأكبر واللعن الأصغر؛ وصل اللعن من النبي -صلى الله عليه وسلم- لناس مسلمين وليسوا بكفرة ولا يخلدون في نار جهنم: (لعن الله آكل الربا، لعن الله الراشي والمرتشي، لعن شارب الخمر)، هذه اللعنة لا تستلزم ولا

تستوجب الطرد الكلي من رحمة الله جلَّ في علاه. "لعن الله الكافرين، لعن الله الظالمين الظلم الأكبر"، هذه اللعنة تستوجب الطرد الكلي من رحمة الله جلَّ في علاه.

لكن يبقى لنا إشكال وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كان كما قلت كما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (ستة لعنتهم، وكل نبي مجاب)، دل ذلك على أن اللعن إخبار أم دعاء؟ دل على انه دعاء وليس بإخبار، عندما يقول: "لعنة الله"، و"لعنة الله" هذا دعاء وليس إخبار. وهنا الإشكال: كيف وقد بعثه الله بالمؤمنين وهو رؤوف رحيم بهم؟ كيف يدعو على أحد باللعنة؟ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ستة لعنتهم)، ثم قال: (وكل نبي؛ مجاب المستحل لمحارم الله والتارك لسنتي).

ممكن يؤول أن يقال: وهذه الدعوة رحمة لأن الله جلَّ وعلا لا يساوي بين المفترقين، فلا بد أن يمايز بين المخلص التقي النقي وبين المبتدع وغيره، أليست هذه من باب الرحمة؟ أليست هذه ما توافق حكمة الله جلَّ في علاه؟ (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) [القلم:35-36].

من باب أن الله يغضب إذا انتهكت محارم الله جلَّ في علاه وهذه تجرنا:

٤- للفائدة الأخيرة وهي: عظم الجرم يدل عليه بعظم العقوبة، يعني عظم العقوبة تدل على عظم الجرم؛ عندما يلعن النبي أحداً، هذه في دلالة واضحة على أنه أتى ذنبا عظيما من الكبائر بمكان. إذا لعن شارب الخمر فهو قد أتى كبيرة، إذا لعن الزاني فهو قد أتى كبيرة، إذا لعن الراشي والمرتشي فهذه أيضاً قد أتى العبد فيها كبيرة.

هذه آخر الفوائد المستنبطة، وكما قلت اصبروا على هذه الفوائد. كنت أحضر للشيخ صالح بن عثيمين -رحمة الله عليه-، كنت أجلس في المجلس، يتكلم في مسألة سمعتها كثيراً منه ومن غيره وقد قرأتها كثيراً وأتقنتها وأجلس لالتقط فائدة واحدة تفتح لي أبواب أخرى من الفقه، وهذا فضل الله يؤتيه ما يشاء، لأن هذه خاصة ما تعرف أين الفائدة التي ستفيدك. ولذلك قد أشار النبي -صلى الله عليه وسلم- بإشارة لطيفة إلى ما أقول، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فلا يمسحن حتى) لِمَ؟ لأنه لا يدري البركة أين تكون؟ ممكن البركة ما تكون في كل الخروف الذي أكله، ما تكون البركة في أي

طعام من الذي اكله إلّا في الشيء الصغير البسيط الذي علق بإصبعك. وأنت لمّا تجلس؛ أولاً بركة أنك كتبت في مجلس العلم، هذه موجودة، وما تدري في أي المسائل التي تعلمتها المسألة الوحيدة التي فيها نجاتك أو المسألة الوحيدة التي تفتح عليك أبواب العلم كلها، ما تدري أي فائدة ممكن تستفيد منها. وهذه إشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه بيّن أنك لا تدري أي البركة في أية الطعام؛ هل في أول الطعام أو في آخر الطعام أو هذا الذي علق في إصبعك؟

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، جزاكم الله عنا خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثاني عشر: تركتم على مثل البيضاء (1)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب العظيم المبارك، كتاب السنة لابن أبي عاصم، بلغنا إلى الباب الرابع عشر.

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلق الله، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء)، وتحذيره إياهم أن يتغيروا عما يتركهم عليه وأمره بسنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده:

وعن أبي الدرداء قال: (خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علينا فقال: أيم الله، لأتركنّكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها سواء)، فقال أبو الدرداء: صدق الله ورسوله، فقد تركنا على مثل البيضاء.

وعن عبد الرحمن بن عمرو حدثه أنه سمع العرباض بن سارية يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك)، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إني قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلّا هالك).

وعن جابر بن عبد الله: (أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكتابٍ أصابه من بعض الكتب، قال: فغضب وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية).

هذا باب عظيم وباب مهم جداً، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم بربه (وأيم الله)؛ يعني ولعمر الله، وحياة الله صفة من صفات الله جلَّ في علاه. فهو يقسم بربه جلَّ في علاه، وهذا القسم تعليم من النبي -صلى الله عليه وسلم- لأمته بالقول أو بالفعل على القسم الصحيح وهو: أن يقسم بالله جلَّ في علاه، أو يقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه، أو يقسم باسم من أسماء الله جلَّ في علاه. فإذا قال: والله، ورب السموات، ورحمة الله، وعزة الله؛ جاز ذلك. ولذلك هو قد أقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه، قال: وحياة الله أو لعمر الله أو وحياة الله جلَّ في علاه.

كيف لا وقد علمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- القسم الصحيح، والقسم الشركي؛ سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- عمر بن الخطاب وهو على ناقته يقسم بأبيه فقال: (لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله)، وعن ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)، ولمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)، قال عمر بن الخطاب: ما قلت ذلك لا ذاكراً ولا آثراً. فهذه أول إشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا من آداب وتعاليم للقسم الصحيح الذي يمكن أن

نقول أنه مقبول عند الله جلَّ في علاه غير مردود، هو القسم بالله وبذات الله وبأسماء الله وصفات الله، كأن تقول: ورب الكعبة ورب العزة.

لكن القسم الذي سمعته مرة أريد البيان منكم، قال قائلهم: ورب القرآن لأفعلن كذا. هذا القسم يدخل في هذا التقسيم الذي علمنا إيّاه النبي -صلى الله عليه وسلم- أم لا؟ قال: ورب القرآن، وكثير من الناس يقسم بهذا القسم لكنه لا يعلم. قلنا الإضافة إضافتان: إضافة صفة وإضافة مخلوق. قلنا: الكعبة بيت الله، عيسى روح الله، إضافة الخلق. أو إضافة الصفة: عزة الله، رحمة الله. وهذه الصحيح فيها بالتفصيل أن نقول:

- إن قصد بذلك رب القرآن يعني إضافة الصفة للموصوف أو الموصوف لصفته صح ذلك، لأن القرآن كلام الله وهي صفة تضاف إلى الله سبحانه وتعالى.

- وإن قصد برب القرءان يعني كرب السماء، يعني القرآن مخلوق، فهذا لا يجوز.

والأثر الذي نحك رأسنا به أن ابن عباس يصلي في جنازة فسمع رجل قال: اللهم رب القرآن افعل كذا وكذا وارحمه، ودعا للميت، فستوقفه ابن عباس وقال: مه! ماذا تقول؟ ماذا تقصد برب القرآن؟ قال: إضافة موصوف للصفة، قال: نعم. فهذه التي لا بد أن نستوقف الناس عندها ونقول: إن كانت إضافة صفة أو موصوف لصفته صح لأن القرآن كلام الله جلَّ في علاه، وأمّا إن كانت إضافة مخلوق لخالق فهذا لا يصح بحال من الأحوال لأن القرآن كلام الله غير مخلوق. وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلمنا أنه يقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه وهي حياة الله.

إذاً قسم النبي -صلى الله عليه وسلم- دون أن يستقسم، دون أن يستحلف، وهذه دلالة وإشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الذي سيأتي أمر مهم عظيم، وحق والله إن الذي سيأتي من أهم ما يكون. قال: (تركتم على المحجة البيضاء)، وفي رواية أخرى قال: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي). فهو يقول: (لأتركنكم على مثل البيضاء)، يقصد بذلك كتاب الله، وكتاب الله متفق عليه. فالكلام، كل الكلام الذي أدرجه المصنف هنا يقصد به سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذه من العظمة بمكان ومن القوة بمكان.

ولا بد أن نسترعي انتباهنا لما استرعاه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأقسم: (سأترككم على المحجة البيضاء)، وما هي المحجة البيضاء؟ قلنا: كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذه السنة قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وصفاً هي: (ليلها كنهارها)؛ أوضح من شمس النهار، لا دخن فيها، لا إشكال، لا إجمال، بل هي تبيّن كل مجمل وتوضح كل مشكل. ولذلك قال عمران بن حصين: إن القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن؛ ومقصد عمران -رضي الله عنه وأرضاه- أن في القرآن ما هو مجمل يبيّن بالسنة، أن في القرآن ما هو مشكل يوضح بالسنة، أن هناك تفصيلات لا تكون إلّا في السنة وليست في الكتاب. فهي عظيمة، السنة عظيمة والسنة شمولية، السنة تشمل كل شيء، ما من نازلة إلّا وتجدها في كتاب الله جلَّ في علاه وبيانها في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. كما قال الشافعي: ما من نازلة إلّا وفي كتاب الله حلها، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وتفسيرها وتفصيلها وإيضاحها وتبيّنها تجدها في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

شمولية السنة -كما قلنا- في حديث سلمان -رضي الله عنه وأرضاه-؛ عندما جاءه اليهودي يستعرض سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقول: ما تركم من شيء، أو قال: علّمكم كل شيء، فقال سلمان مقّراً: نعم، علّمنا كل شيء حتى قضاء الحاجة. وأيضاً عن أبي ذر -رضي الله عنه وأرضاه- قال: مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما من طائر يُقلِّب جناحيه في السماء إلّا أخبرنا منه بخبر. فما تركت السنة من شاردة ولا واردة ولا شاذة ولا فاذة إلّا أخبرت به؛ آداب الجماع كيف عندما يجامع الرجل أهله، آداب الطعام، آداب قضاء الحاجة والخلاء، آداب المشي إلى الصلاة، آداب النوم، آداب الأذكار، كل أدب من الآداب أتت به السنة الغرّاء.

هذه السنة بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- لشمولها ولعظمتها إن من تمسك بها وعض عليها بالنواجذ فالنجاة النجاة، وإن من حاد عنها وزاغ فالهلاك الهلاك. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يستحث أمته ويستنهض أمته ويقول: (ومن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا

عليها بالنواجذ)، لِمَ؟ لشمولية السنة كما قلت وأن النجاة في السنة والتردي والهلاك في الحيدة عن السنة، وهذه التي جاءت في الجملة الثانية قال: (لا يزيغ عنها إلّا هالك).

والهلاك أنواع: هلاك مطلق وهلاك أخف من المطلق "مقيّد". هلاك مطلق وزيغ مطلق، ثم زيغ مقيّد. وأنواع الزيغ عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه التردي وفيه الهلاك، وهو متفاوت ممكن أن يكون هلاك كلي وممكن أن يكون جزئي.

▪ أمّا الهلاك الكلي بالزيغ الكلي، الذي هو الزيغ المطلق وهو الحيد عن سنة النبي كليةً؛ وهذا الذي يسمون أنفسهم بالقرآنيين يقولون: لا نأخذ بالسنة ولا نوافق عليها، ما وجدنا في كتاب الله من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام تركناه. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- واصفاً مثل هؤلاء المتنطعين الذين خرجوا من الدين خروجاً بيّناً، الذين تركوا سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- خلفهم ظهريّاً قال: (لا ألفين أحدكم شبعان على أريكته جاءه الأمر من أمري فيقول: ننظر في كتاب الله فما وجدناه في كتاب الله حلال أحللناه وما وجدناه حراماً حرّمناه)، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم- منكراً عليهم: (ألا وإني قد أوتيت القرآن ومثله معه)، وفي رواية أخرى وهي الأهم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا وإنما حرّم رسول الله كما حرّم الله جلَّ في علاه).

هؤلاء كيف يجعلون السنة خلفهم ظهريّاً ويتركون سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ويطلبون النجاة؟ كيف عرفوا الصلاة؟ كيف عرفوا الزكاة؟ كيف حجوا إلى بيت الله جلَّ في علاه؟ كيف عرفوا عدد ركعات صلاة الظهر أو صلاة العصر أو المغرب أو العشاء؟ كيف عرفوا شروط الزكاة؟ لا بد من حولان الحول وبلوغ النصاب؟ كيف عرفوا الطواف بالبيت؟ كم شوط هو؟ كيف الوقوف على الصفا أو على المروة؟ كيف الوقوف على عرفة؟ كيف عرفوا ذلك إلّا من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ (خذوا عني مناسككم)، (صلوا كما رأيتموني أصلي)، (إذا بلغ المال كذا النصاب فعليه الزكاة وحولان الحول) كما في حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-. فهذا الزيغ الكلي فيه الهلاك الكلي، وهؤلاء كما قلت القرآنيون الذين ألقوا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- خلفهم ظهريّاً.

▪ أمّا الزيغ الجزئي؛ هم الذين قالوا نقبل السنة وتركوا بعض السنة، قبلوا بعض السنة وتركوا بعض السنة، هؤلاء ألوان وأنواع شتى:

١- النوع الأول؛ قالوا: نقبل من السنة، ولِمَ لا نقبلها وهي من عند الله؟ (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]؛ فأصّلوا التأصيل الكبير أنها من عند الله وحي ولابد أن نأخذ بها، لكنهم قالوا: نشترط فيها شروطاً أو نقول شرطاً وقيداً مهماً. ما هو الشرط؟ قالوا: إن وافق هذا القول (قول رسول الله) العقل أخذنا به، وإن لم يوافق رددناه. إذاً عرضوا الوحي على العقل، وهؤلاء الذين من أصولهم الخمسة قدّموا العقل على النقل، قالوا: العقل مقدم على النقل، والله جلَّ في علا عظّم في كتابه العقل؛ أولو الألباب، أولو الأبصار، تعظيم للعقل.

فقالوا: كل سنة وافقت العقل أخذنا بها، وكل سنة لم توافق العقل لم نأخذ بها. هؤلاء كما قلت التردي والهلاك جزئي ليس كلي، ليس خروجاً بيّناً من دين الله جلَّ في علاه، لأنهم قالوا ما نرد على النبي قوله لكن يشككون في هذه الأسانيد؛ الأسانيد والأحاديث التي لا توافق العقول عندهم، وهذه العقول ليست بسديدة ولا صحيحة.

الغرض المقصود قالوا: هذه الأحاديث إن لم توافق العقول، هذه الأحاديث فيها ضعف، أسانيدها ضعيفة. ولذلك لمّا ردوا الأحاديث، ردوها على البخاري، ردوها على مسلم، ردوها على أبي داود، ما ردوها على النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا قالوا لا نأخذ بقول النبي لأنهم أصّلوا أنهم عباد وقالوا: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)، نأخذ بكل الوحي لكن هذا الحديث لا يصح.

ولذلك ردوا حديث سحر النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قد سحر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فردوه وقالوا هذا حديث مكذوب، لا يمكن، لمّا شغبوا على أهل السنة والجماعة بترهات عندهم وهنات في عقولهم قالوا: لو قلنا بسحر النبي إذاً لن يثبت لنا لا القرآن ولا السنة، ولا نثق في هذا الدين الذي نأخذه من الكتاب ولا من السنة، رجلٌ مسحور هل سيضبط الوحي؟ رجلٌ مسحور هل سيضبط السنة؟ لا يمكن أن نأخذ بهذا الحديث وردوه.

توافقون على هذا الرد؟ أنا اجزم أن من أهل السنة والجماعة من قال بذلك، وهذا الذي يثير الدهشة، والذي نفسي بيده فحول من أهل السنة والجماعة ضعّفوا هذا الحديث في البخاري وقالوا: هذا حديث ضعيف ولا يمكن القبول به، العقل لا يمكن أن يقبل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد سُحِر، كذّبوا وقالوا: المسحور لا يتزن المسحور، يغلب على عقله، فكيف نأخذ ديننا من رجلٍ قد سُحِر؟

هم يستدلون بالعموم؛ قالوا: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة:67]، وقد سُحِر، لو قلنا بأنه سُحِر ضربنا السنة بالقرآن، وإذا الوحي اختلف وأنا أقول الكل خرج من مشكاة واحدة. كم واحد يعلم بأن النبي سحر ولا يستطيع أن يرد.

أولاً: تؤمنون أنه سُحِر؟ الكل يؤمن، إذا جاء القوم وشغبوا عليكم قالوا: سُحِر؟ (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)؟ سُحِر وهو رسول؟ سُحِر ويأتيه جبريل؟ إذاً لا يضبط القرآن ولا يضبط السنة، والمسحور يغلب على عقله فكيف نقول بالسحر؟ حتى أبيّن لكم بقية الحديث؛ تقول عائشة: (كان يرى أنه أتى أهله ولم يأتِ أهله، يرى أنه فعل شيء ولم يفعل الشيء). انظروا إلى هذا، هم يقولون هذا عموم خصصتموه في ماذا؟ ما الدليل على التخصيص؟ هات السياق والسباق واللحاق كما شئت.

أنا الآن أقول هم يقولون (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) عموم، لِمَ خصصتموه في العصمة في الرسالة فقط؟ الآية: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ) [المائدة:67]، السياق في التبليغ، (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) إذاً حين البلاغ الله يعصمك من كل شيء، ستبلّغ ستبلّغ. ويؤكد ذلك دلائل باهرات كشمس النهار؛ قول الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9]، وهل السنة ذكر؟ السنة ذكر، الدليل -وهذه لمحة ولطيفة جيدة جداً- قال: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]. إذا قلنا معكم الذكر المقصود به القرآن، قلنا التبيين المقصود به السنة. من باب التنزّل مع الخصم، إذا قلنا لا، ما تدخل السنة تحت الذكر، نقول: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ)، ليبيّن بسنته، وهي وحي.

دليل الثاني؛ هم يقولون: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) إذاً ليس مسحوراً، فنرد الحديث. نقول لهم: لا هو مسحور ولن نرد الحديث.

أنا أقول لكم شيء علمياً كيف نتعامل مع الخصم: أولاً نؤصّل تأصيلاً نتفق معه ويتفق منا، ثم نبيّن قوله والإشكال الذي عنده ونحل له الإشكال، ينتهي الموضوع.

نؤصّل أصل: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، والقرآن والسنة من مشكاة واحدة، اتفقنا على ذلك، كلها وحي من الله؟ كلها وحي من الله. نقول الآن: تعال ما الإشكال عندك في سحر النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ فيقول: الإشكال عندي لو سُحِر النبي -صلى الله عليه وسلم- غلب على عقله فلا يتزن عند البلاغ فلا يستطيع أن يبلّغ كل ما أنزل إليه، نقول: الحمد لله، نقف عند هذا الإشكال ونبيّن لك أن هذه غير مرادة بحال من الأحوال؛ يمكن أن نقول السحر له أمران أو تأثيران:

- تأثير على العقل وتأثير على الوحي والبلاغ
- وتأثير على الجسد، والتأثير على الجسد كالمرض.

إذاً تأثيران توافق معنا؟ لابد أن يوافق. فنقول له: ننظر في الأول هذا الأول هو الإشكال عندك، أمّا الثاني نحن نوافقك على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بشر من البشر، يعتريه ما يعتري البشر؛ يأكل ويشرب وينام ويضاجع ويقضي حاجته ويمرض ويوعك، بل يُقتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد مات مقتولاً توافقون؟ نعم. ما الآية التي تدل على ذلك؟ (أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ)، فالإيذاء سيحدث للجسد سيحدث للجسد. إذاً المعمعان كله موجود في مسألة التبليغ، فالمعركة كلها بالتبليغ، نبيّن نحن أن التبليغ لا يمكن التشويش عليه بالأدلة الصارمة القطعية منها:

- أولاً قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)، وقال في النهاية حين تبلّغ: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة:67].

- سورة القيامة: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [القيامة:17-19]؛ من الذي تكفّل بذلك؟ سحر وغير سحر المسألة انتهت، من بيده ملكوت السماوات والأرض هو الذي تكفّل بجمعه وقرآنه وبيانه، فإذا تكفّل الله بذلك

انتهى الأمر، لا مدخل لأي أحد، لا شيطان أنس ولا جن، ولا أحد يمكن أن يتدخل في ذلك لأن الله هو الذي تكفّل بالجمع والقرآن والبيان.

- أيضاً قال الله تعالى عموماً: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9].

بطل عندكم هذا الإشكال الذي أشكلتموه علينا وشغبتم علينا، ثم نقول لكم: رسول الله كان يرى أنه يأتي أهله وما يأتي أهله، أنه يفعل الشيء وما يفعل الشيء. هذا بالضبط كمرض الصداع، كمرض الإنفلونزا، كأي مرض من الأمراض التي تصيب الجسد، لا سيما وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يعلم أنه لم يأتِ يقيناً، لكن كان يخيل له الشيء، وحين البلاغ كان الله يعصمه من ذلك. إذاً نقول لهم أنتم قدّمتم العقل على النقل، وعندنا النقل يقدّم على العقل لأنه ما هو إلّا وحي يوحى، وأن الله جلَّ وعلا لمّا تعبدنا، تعبدنا بالشرع الذي أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-. ما العلم إلّا قال الله قال رسوله، لا مدخل للعقل في هذه المسألة.

أيضاً لمّا قالوا بهذا التصعيد ردوا أحاديث أخرى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- "حديث شق الصدر"؛ الله جلَّ وعلا أمر جبريل فشق صدره وأخرج حظ الشيطان، شق الصدر حتى إلى الأسفل إلى قبل العانة، شق صدره وأتى بطست ملئ بحكمة وبإيمان ثم أخذ حظ الشيطان منه وملئ صدره حكمة وإيمان. شق الصدر عندهم قالوا: لا يمكن، كيف يعيش؟ شُق كل صدر النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا لا يمكن أن نأخذ به.

قلنا يعني حتى الواقع يكذّب ما أنتم فيه، بعض الأطباء لا يفتح قلب فقط، خمسين قلب، أمامه خمسين صدر يفتح ويشق وبعد ذلك يلحم ويخرج المريض بفضل الله معافى. هذا أنتم تصدقونه على بشر ضعيف، ولا تصدقونه على ملك طوله من السماء للأرض أعطاه الله قوة لا يمكن أن تكون في قوة البشرية.

تشغيل العقل وتقديم العقل على النقل هذا من منهج المعتزلة، وهذا الذي جر أذيالهم أن يفعلوا ذلك عندما نظروا للواقع وبعقولهم ردوا كثير من الأحاديث؛ منها أحاديث الذبابة، ومنها حديث الدجال أيضاً ردوه على قائليه، حتى ولو كان مسلم؟ حتى ولو كان مسلم،

ردوا هذا الحديث على مسلم وقالوا الحديث ضعيف، لأن مكبرات الصوت ولا مكبرات الرؤية لم تُرَ أو الأقمار الصناعية لم تأتِ بالدجال، إذاً الدجال غير موجود. وطرحوا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، حديث تميم الداري، قال: (أسعدني أن حدثني تميم الداري بما حدثتكم به، وقد رأى الدجال مسلسلاً). لكن لأن الأقمار الصناعية ما أتت بالدجال، إذاً ما في دجال، وردوا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهذا الضعف البشري موجود، والنظريات التي تحتمل الصواب والخطأ لا يمكن أن تكون حاكمة على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا نوع من أنواع الضلال فيه نوع من أنواع الهلاك عقوبة له.

الآن نحن في الجملة الثانية: (لا يزيغ عنها إلّا هالك)، فنحن نبيّن الآن أنواع التردي والهلاك مع سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. النجاة والعصمة في التمسك والعض بالنواجذ على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والهلاك والتردي مع الحيدة والزيغ عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢- لون آخر وهو قبول السنة لكن ردها برد خفي؛ هؤلاء أضعف، سلاحهم ليس بقوي، فقالوا لا نقوى على أهل السنة والجماعة، يكشرون عن أنيابهم فلا نستطيع أن نواجههم لكن نضربهم من تحت، هذا أخف وطأة من الأولين. هؤلاء الذين يقولون نقبل بكل سنة صحيحة وردت بالأسانيد الصحيحة، لكن يردونها رداً جميلاً، يحرّفونها ويسمّون التحريف تأويل.

الذي يفعل ذلك الأشاعرة، الذين نصّبوا أنفسهم للتأويل بل للتحريف؛ يعني يأتون إلى قول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل في الصحيحين: (أنرى ربنا؟ قال: أترون الشمس رابعة النهار واضحة ما فيها لا ضيم عليكم عندما ترونها؟ أترون القمر ليلة البدر؟ فقال: سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر). فقالوا: (ترون ربكم) حديث صحيح في الصحيحين لابد أن نقبله، إسناده كالشمس لا نرده، نحن نقبل هذه الأسانيد عن النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم قالوا: لكن ليس هذا هو المراد، معنى (ترون ربكم) يعني تعلمون حق أن هذا هو الرب، كما أنكم تعلمون أن القمر هو القمر وأن الشمس

هي الشمس تعلمون أن الرب هو الرب. فحرّفوا الرؤية بالعلم، وهذا تحريف وليس تأويل وليس عندهم ثمة دليل. والرد عليهم بالتفصيل، رددت عليهم في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة.

أيضاً أتوا على أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (ينزل ربنا)، يا للروعة! إيمانيات عالية في نزول الله جلَّ في علاه، عندما تكون في السحر خالياً تبكي وأنت تعلم أن ربك في السماء يقول لك: عبدي إن تستغفر أغفر لك وإن تسأل أعطيك وإن تدعو أجيبك وإن كنت مريضاً تستشفي أشفيك. هذا روعة الإيمان، بذلك تراها وأنت خالياً في السحر. وهم يشوشون ويشغبون علينا ذلك يقولون: إن ربنا لا ينزل، ولو قلنا بالنزول لشبّهنا الخالق بالمخلوق. من ينزل؟ قالوا: الملائكة تنزل، الرحمة تنزل، الأمر ينزل. نقول لهم: لا، خالفتم الكتاب والسنة؛ أي تأويل وتحريف، قل هكذا: خالفتم الكتاب خالفتم السنة خالفتم إجماع الصحابة، في كل شيء، أي شيء يأتيك اعمل هكذا ستوقفه عند حده، لا يقدر يتكلم، وبعد ذلك دقق النظر.

هم خالفوا الكتاب وخالفوا السنة وخالفوا أيضاً إجماع الصحابة، لكن نقول لهم تعالوا إلى هذا الباطل الذي تقولونه، تنزل الملائكة؟! تنزل الرحمة؟! ينزل الأمر؟! ماذا يقال في النزول؟ (هل من سائل فأعطيه؟) الملائكة هي التي تعطي؟ أتملك لنفسها خيراً أو شراً؟ (هل من مستغفر فأغفر له) هل الملائكة تغفر؟ الملائكة هي التي تغفر؟ أعوذ بالله. (هل من داعي فأجيبه) هل الملائكة التي تجيب؟ بل الملائكة تدعو الله وتتضرع إلى الله جلَّ في علاه، ما الآية التي تثبت ذلك؟ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) [الإسراء:57].

فهذا التأويل تحريف وليس بتأويل، هذا أيضاً ضلال ونوع من الضلال، وفيه نوع من الهلاك.

٣- نوع آخر من هذا الضلال المبين والزيغ أيضا والحيد عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-: الغلو في أحاديث الوعد، وأيضاً الغلو أو الجفو في أحاديث الوعيد.

هؤلاء طائفة زاغوا عن السنة لكن الزيغ كان غير النوع الأول، زاغوا عن هذه السنة بأن عضوا بالنواجذ على أحاديث الوعد فخرجوا على الأمة فكفّروهم واستباحوا دماءهم ونسائهم وأموالهم، أخذوا كل أحاديث الوعيد؛ (اثنتان بأمتي هما بهم كفر: النياحة على الميت)، قالوا: من تنوح فهي كافرة. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من حلف بغير الله فقد أشرك، ومن حلف بالنبي فقد كفر)، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الزاني كافر. فعندهم كل عاصي كافر، فغلوا وحادوا عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا نوع من الحيدة نتيجته نوع من الهلاك، وليس الهلاك الكلي.

ونحن نفرّق، فرّقنا بين القسم الأول والأقسام الثانية التي تليها؛ القسم الأول حيدة كليةً فأصبح الهلاك كلي، خروج بيّن من دين الله جلَّ في علاه لمّا طرحوا السنة خلفهم ظهريّاً.

٤- النوع الرابع الذين غلو بالعض بالنواجذ على أحاديث الوعد، وقالوا: إيمان جبريل كإيمان أبي بكر، كإيمان آحاد الأمة. أخذوا بكل الأحاديث التي تقول: (من مات على "لا إله إلّا الله" دخل الجنة) ولم يجعلوا التفاوت بين المؤمنين، هذا أيضاً نوع من أنواع الحيدة له نصيب من الهلاك لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يزيغ عنها إلّا هالك). نعوذ بالله من الزوغان والروغان، ونعوذ بالله جلَّ في علاه من الهلاك كله أو بعضه أو دقه أو جلّه.

الفوائد المستنبطة:

- أولاً شريعة الله هي الحق، ولا حق إلّا شريعة الله.

من أين نستنبط هذه الفائدة العظيمة؟ (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟)، زجر وشدة وغلظة مع من؟ مع عمر بن الخطاب -رضي الله وأرضاه-، ثم في رواية أخرى قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده ما سمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار). فهذه

فيها دلالة على أن هذه الشريعة الخاتمة هي الشريعة الحق وغيرها باطل، ومن اعتنق غير دين الإسلام فهو على خطر عظيم، بل هو حقاً من الكافرين ومن الخالدين في نار جهنم والعياذ بالله.

- الفائدة الثانية: الغضب للحق لا الغضب للنفس، هذا أدب نبوي أسأل ربي جلَّ في علاه أن يجعلني أتحلى به وتتحلون به.

من أين؟ نفس الحديث، قد غضب النبي -صلى الله عليه وسلم- على عمر لمّا وجده، مع أن عمر -رضي الله عنه- ما كان يريد أن يضرب هذا بذاك. لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قالت عائشة: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا ينتصر لنفسه قط، إلّا إذا انتهكت محارم الله)، وهذه فيها دلالة مخفية أن هذه ذريعة، لأنها ستنتهك محارم الله. ولذلك ترى الفهم الدقيق لشيخ الإسلام ابن تيمية قال: من الخطأ البيّن أن يطّلع أهل الإسلام على الإنجيل أو التوراة أو الأديان الأخرى، ولم يكن متقناً من دينه ومن كتاب ربه وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-.

وهذه من أعظم الفوائد التي تفيد أصحاب الإنترنت والشبكات، يدخلون على الغرف يناظرون النصارى وهم لا يعرفون عن دينهم، بأي شيء شبهة واحدة تضيعهم عن دين الله جلَّ في علاه، ويدخلون الغرفة الثانية يناظرون ما أعرف من المبتدعة، والغرفة الثالثة. وهم لو دخلوا في القبر هو أفضل لهم، لا يعرفون عن دينهم شيء ثم يناظرون أصحاب الأديان الأخرى. لابد أن يتقن دينه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لعمر وهو من هو في الإسلام: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني).

- الفائدة الثالثة: ما قاله رسول الله كما قال الله.

من أين هذه؟ أبو الدرداء ماذا قال؟ قال: صدق، وهو يروي عن النبي، وقال: (صدق الله وصدق رسوله). فهذه فيها دلالة أنه يرى قول النبي -صلى الله عليه وسلم- هو قول الله، لكن هذا يحتاج لتفصيل، كيف يكون هذا الحديث: (وأيم الله، لأتركنكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها) قول الله؟ كيف يكون هذا قولاً لله جلَّ في علاه؟ اصطلاحاً قل

بأن الحديث النبوي المعنى من الله جلَّ في علاه، واللفظ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك جاز أن تقول هذا قول الله لأنه معناه من الله، فلك أن تنسب ذلك لله جلَّ في علاه. وهذه الآية كلها يدخل كله تحتها (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، يعني الكل من عند الله، من مشكاة واحدة.

هذا آخر ما يكون في هذا الباب العظيم، ثم انتظروا بعد ذلك عمق العقيدة، سيدخل بعد ثلاث أبواب أو أربعة أبواب في مسائل القدر، هذه المسألة التي هي دحض مزلة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا اله إلّا أنت، جزاكم الله خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثالث عشر: تركتم على مثل البيضاء (2)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

)يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب العظيم المبارك، كتاب السنة لابن أبي عاصم؛

بسم الله والحمد لله، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً، وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء) وتحذيره إيّاهم أن يتغيروا عمّا يتركهم عليه وأمره بسنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده:

وعن أبي الدرداء قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علينا فقال: (أيم الله، لأتركنّكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها سواء)، فقال أبو الدرداء: صدق الله ورسوله، فقد تركنا على مثل البيضاء.

وعن عبد الرحمن بن عمرو أنه سمع العرباض بن سارية يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك)، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إني قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلّا هالك).

وعن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكتابٍ أصابه من بعض الكتب، قال: فغضب وقال:) أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية).

هذا الباب العظيم، باب العض بالنواجذ على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ما زال هذا المصنف في بديع ما ألّفه وصنّفه التدريج حتى يبيّن ويظهر مكانة السنة من النجاة في الدنيا وفي الآخرة، يبيّن بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تركنا على مثل البيضاء أو المحجّة البيضاء.

- أولاً (أيم الله)؛ هذا قسم أقسم به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

) -أمتهوكون) يعني متحيرون، (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟)، في بعض الروايات قال: (أمتهوكون كما كانت تفعل اليهود؟) يعني تتحيرون كما تحيرت اليهود، وأقسم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء .(

أولاً تذكيراً للأصحاب وتأسيساً للإخوة الجدد أقول: (أيم الله) قسم من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يُطلب منه القسم.

والقسم قسمان: قسم من الخالق وقسم من المخلوق:

١- أمّا قسم الخالق فهو يقسم بذاته المقدسة وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا، بل ويقسم بما شاء من خلقه؛ فإن الله جلَّ في علاه أقسم بربوبيته قال: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) [النساء:65]. وأقسم الله جلَّ وعلا بعظيم خلقه لأن عظمة الخلق دلالة عظيمة على عظمة الخالق، فهذه هي الحكمة التي نستنبطها من أن الله أقسم ببعض خلقه؛ أقسم بالشمس وبالقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار، وأقسم بالضحى، بل وأقسم بالأنهار والأشجار والجبال ضمناً: (وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) [الطور:1-2]، قال الله تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) [الضحى:1-4]، قال الله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) [الليل:1]، وقال جلَّ في علاه: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) [الطارق:1-2].

وقال الله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) [القيامة:1]، هنا ليس بقسم صحيح؟ (لَا أُقْسِمُ) نفى القسم فكيف نقول هو أقسم بيوم القيامة؟ (لَا) هنا زائدة في القرآن زيادة توكيد؛ ومعناها أقسم بيوم القيامة، فهنا يقسم الله بيوم القيامة.

وأيضاً أقسم الله جلَّ في علاه بحياة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال جلَّ في علاه: (لَعَمْرُكَ) يعني وحياتك، أي وحياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعظمة حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

[الحجر:72]، وقسم الله بالمخلوقات دلالة على ربوبية الله جلَّ في علاه لعظمة هذا المخلوق.

٢- والقسم الثاني من القسم هو قسم المخلوق؛ والمخلوق لا يقسم إلّا بالخالق، لا يجوز له بحال من الأحوال أن يقسم إلّا بالخالق لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سمع عمر بن الخطاب يحلف بأبيه فقال: (لا تحلفوا بآبائكم)، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: فما أقسمت به لا ذاكراً ولا آثراً.

وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من كان حالفاً فليحلف بالله)، وفي رواية عن ابن عمر صحيحة قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من حلف بغير الله فقد أشرك)، وفي رواية: (من حلف بغير الله فقد كفر)، فلا يجوز للمخلوق أن يقسم بحال من الأحوال إلّا بالخالق. ويقسم بالخالق، يقسم بذاته وصفاته وأسمائه الحسنى بل وأفعاله، وهذه وردت في الكتاب ووردت في السنة كثيراً.

كثيراً ما ترى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم ويقول: (لا والذي نفسي بيده)، وهذه رواية عندنا في عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-، قال: (والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء) .(والذي نفسي بيده) هذا قسم بالله جلَّ في علاه، بربوبية الله، بذات الله المقدسة.

وأيضاً كان يقسم بأفعال الله، قال: (لا ومقلب القلوب)، وهذا دأب الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-؛ فعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- دخل عليها النبي ذات مرة فقال: (إني أعلم متى تكوني عني راضية ومتى تكوني عني غاضبة، قالت: كيف يا رسول الله؟) أقرت أولاً ثم سألت، (قالت: كيف يا رسول الله؟ قال: إن كنت عني راضية أقسمتِ وقلتِ: ورب محمد، وإن كنت عليّ غاضبة قلتِ: لا ورب إبراهيم، قالت: نعم يا رسول الله، والله ما أهجر إلّا اسمك). الغرض المقصود كانوا يقسمون بربوبية الله جلَّ في علاه، بأسماء الله الحسنى، بصفاته، بأفعاله جلَّ في علاه.

وصلّى ابن عباس الجنازة فسمع رجل يقول: اللهم رب القرآن اغفر لفلان (على الميت)، فبعد الصلاة قال له: ماذا تقصد برب القرآن؟ فقال: أقصد برب القرآن يعني الذي تكلم بالقرآن، قال: هكذا تقسم؛ يعني هو هكذا يكون قد أقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه، أيضاً وأقسم بذات الله جلَّ في علاه.

وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أقسم دون أن يُستقسم، وهذه عجيبة لأن الله جلَّ في علاه قال: (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) [المائدة:89]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم من غير أن يُستقسم. نقول: نعم لأن الأصل في القسم شرعاً هو: ذكر معظّم لتوكيد كلام معين يريد توكيده؛ والنبي -صلى الله عليه وسلم- الآن كأنه يشوّق القلوب، يفتّح الأذهان، يقول: (والله) ،(والذي نفسي بيده). كأن الناس يقفون الآن أقسم النبي، إذا النبي أقسم على أمر عظيم. نعم هو أمر عظيم، ففيه تشويق للنفوس وأيضاً تفتيح للأذهان حتى يستمعوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيعوا عنه ما يقول.

)وأيم الله، لأتركنكم على مثل البيضاء)؛ يقصد النبي -صلى الله عليه وسلم- البيضاء أو المحجة البيضاء هما الأصلان المتلازمان: الكتاب والسنة، فهما أصلان متلازمان لا عدول عنهما بحال من الأحوال، ولعظم الأصليين فإن الله جلَّ في علاه؛ ذكرهما في الكتاب مجتمعين ومتفرقين:

- أمّا مجتمعين: فقد قال الله تعالى يبيّن لنا النجاة في ذلك: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، والدلالة من ذلك أنه قال: إن ينطق ما ينطق عن هوى، ما ينطق إلّا عن وحي. والنبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا نطق، نطق بالكتاب ونطق بالسنة، فقول الله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ) يعني ما ينطق به (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)، فكل ما يتكلم به النبي -صلى الله عليه وسلم- من كتاب أو سنة فهو وحي يوحى، هذا اجتماع. وأيضاً قول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، هذا أيضاً شمول وعموم.

- وفي التفريق قال الله تعالى: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) ويقصد بها الكتاب، (مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) [الأحزاب:34] ويقصد بالحكمة السنة. ففرق بينهم مع أنهما متلازمان، لكن يبيّن بأن هذا الكتاب هو من الله وأيضاً السنة من الله، فما الفرق بينهما؟ الكتاب والسنة وحي، واحد في الأحكام، نحن نتعبد بذكر أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله ما تتعطر المجالس إلّا بذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وبأحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. ما الفرق بينهما؟

السؤال: إن كانا متلازمين فبينهما فرق، هما يتفقان ويفترقان؟!

إجابات الطلبة:

- هما يتفقان بأنهما وحي من الله، والسنة المعنى من الله واللفظ من النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- هناك عبادات لا تصح العبادة إلّا بنص الكلام الذي هو كلام الله جلَّ في علاه، (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) [المزمل:4]، أمّا السنة فلا.

الجواب: الصحيح يفترقان هنا: أن القرآن قطعي الدلالة قطعي الثبوت لأنه متواتر، لا يمكن أن نقبل قراءة إلّا أن تكون متواترة، فهو قطعي الدلالة قطعي ثبوت. أمّا السنة؛ فأغلب السنة ومعظم السنة ظنية الدلالة، ممكن تكون ظنية الثبوت، ممكن تكون قطعية الدلالة.

الصحيح أننا نقول لا فارق بين الكتاب والسنة؛ الغرض المقصود هما متلازمان أصلان لا يمكن العدول عنهما، فإن الله جلَّ في علاه ربط وأناط النجاة بالعض عليهما، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء)؛ فشبّه النبي -صلى الله عليه وسلم- الكتاب والسنة ليس فيها ثمّة تشويش كالبيضاء، يعني كالشمس في رابعة النهار.

وهذا وصف دقيق من النبي -صلى الله عليه وسلم- تحته أوصاف كثيرة؛ قال: (مثل البيضاء) مثل الشمس في رابعة النهار لا تشويش فيها، ولها أوصاف أخرى فرعية عن هذا الوصف العظيم الجلّيل الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم-: العموم والشمول والكمال وأيضاً البقاء؛ هذه صفة من صفات شريعتنا الغرّاء الحنيفية، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مثل البيضاء) لعمومها وشمولها، (مثل البيضاء) نقية لكمالها، (مثل البيضاء) لبقائها على مر الدهور والعصور.

▪ أمّا عموم وشمول هذه الشريعة الغراء: فهي عامة في الأحكام والآداب، وعامة وشاملة في الدعوة، وعامة وشاملة أيضاً في الأخبار.

- عامة وشاملة في الدعوة؛ فإن هذه الشريعة جاءت شريعة ناسخة لأي شريعة سابقة، وجاءت عامة لكل البشر كما قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبإ:28]، كافة: يعني لكل الناس. وأيضاً قال الله تعالى آمراً نبيه أن يقول: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [الأعراف:158]، فهذه العموم الرسالة.

وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فُضِّلت على الأنبياء بست) وذكر منها فقال: (وكان كل نبي يُبعث لأمته خاصة، وبُعثت للناس عامة). فهذه للدعوة، لعموم البشر، بل وللثقلين، يعني يرتقي الأمر الدعوة ترتقي من الإنس إلى الجن، والله جلَّ وعلا يقول: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، فلا بد للجن من تعليم الشرع حتى يتعبدوا لله جلَّ في علاه عبادة صحيحة تُقبل عند ربهم جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) [الأحقاف:29]، فهذه نذارة بالوساطة تبليغاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-. أيضاً عن ابن مسعود وغير ابن مسعود: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ القرآن على الجن. فهذا عموم الدعوة وشمول الدعوة للثقلين: للإنس وللجن.

- أيضاً هي عامة وشمول هذه الشريعة في الأحكام؛ فأحكام العبادات ما من شيء تستقيم به العبادة إلّا بيّنه الله في كتابه إجمالاً، ووضحه النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته تفصيلاً، لأن السنة لها علاقة وطيدة متلازمة مع القرآن، وعلاقة السنة بالقرآن كما قال عمران بن الحصين ويقعّد لنا هذه القاعدة في العلاقة بين القرآن والسنة قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن؛ تفسير ذلك أن القرآن معظمه وأكثر الأحكام فيه مجملة وجاءت السنة موضحة، فإن الله جلَّ في علاه قال: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) [البقرة:43]، فجاءت السنة تبيّن لنا أن الصلوات خمس، وأن صلاة الفجر ركعتان وصلاة الظهر أربع إلى آخر التفصيلات. (وَآتُوا الزَّكَاةَ) [البقرة:43]، فبيّن لنا أن الزكاة لا بد أن تبلغ النصاب ولابد من حولان الحول، إلى ما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- وفسّر هذا الإجمال.

فالقرآن فيه أحكام مجملة وجاءت السنة مفسرة، عموم العبادات الأحكام جاءت إمّا في الكتاب مجملة وإمّا في السنة مُفسِّرة أو مُفسَّرة.

- وأيضاً عموم الآداب، فكل الآداب جاءت الشريعة الغراء بتبينها؛ آداب الطعام (سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك). آداب النوم بالأدعية والأذكار التي يقولها المرء قبل أن ينام. آداب الشراب أن تشرب جالساً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- بحديث أنس لمّا شرب قائماً: (تريد أن يشرب معك الهر؟ قال: لا، قال: يشرب معك من هو أشر منه، الشيطان)، وكان يأمر بأن يشرب المرء جالساً. أيضاً آداب الجماع، ما ترك النبي -صلى الله عليه وسلم- الجماع إلّا وعلمنا آداب الجماع. آداب قضاء الحاجة كما في صحيح مسلم: عن سلمان أن اليهودي جاء يحسده ويقول: علّمكم النبي -صلى الله عليه وسلم- كل شيء، ما ترك شيء إلّا علّمكم إياه حتى قضاء الحاجة، قال: نعم حتى قضاء الحاجة ... إلى آخر الحديث. فما ترك أدباً من الآداب إلّا بينه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو بيّنه الله جلَّ وعلا في كتابه مجملاً.

فعموم وشمول الأحكام، سواء أحكام عبادات أو أحكام معاملات أصّل تأصيلاً عاماً أن كل معاملة الأصل فيها الحل إلّا ما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- من المعاملات المحرمة.

إذاً الأحكام عمومها آداب وأحكام عبادات وأحكام معاملات.

- وشمول وعموم الأخبار؛ فإننا في عصرنا هذا نعلم ما حدث لآدم -عليه السلام-، وأن الله أمر الملائكة أن تسجد لآدم، ولمّا أمر الله الملائكة تسجد لآدم أبى ابليس واستكبر وكان من الكافرين. وإننا نعلم ما حدث بين نوح -عليه السلام- وبين قومه، ما حدث مع هود وقومه، مع لوط وقومه؛ قال الله تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:105]، وقال الله تعالى: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) [الأعراف:65]. فهذه كلها قصص بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم-، شمول ما حدث مع الأنبياء عندنا منه خبر بفضل الله جلَّ في علاه.

وأيضاً شمول الأخبار التي ستأتي وستحدث، الأخبار المتقدمة التي لم تحدث في عصرنا هذا، أو في عصورنا المتقدمة ستحدث أنبأنا بها الشرع، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنبأنا أنه سيُرفع العلم ويظهر الجهل ويفشو الزنا بل وأنه يقبض العلم بقبض العلماء، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بين يدي الساعة سنون خداعة يصدّق فيها الكاذب ويكذّب فيها الصادق ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين وينطق الرويبضة، قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الفاسق (أو قال: الفويسق (يتكلم في أمر العامة)، فهذا شمول للأخبار. وبيّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيّن الله جلَّ وعلا في كتابه في عرصات يوم القيامة ماذا سيحدث، وماذا سيحدث مع المبتدعة، بل ومع المنافقين ما الذي سيحدث معهم في عرصات يوم القيامة.

هذا عموم وشمول هذه الشريعة الغراء؛ عموم في الأحكام، عموم في الآداب، عموم أيضاً في الأخبار.

✦والثانية الكمال؛ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:4]، فهذا الكمال كله في هذه الشريعة. وهذه تدلك على أن الإنسان لا يحتاج أن ينظر لشريعة غير هذه الشريعة، ولذلك اشتد نكير النبي -صلى الله عليه وسلم- على أفضل البشر بعده وبعد أبي بكر وهو عمر بن الخطاب، قال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟) متحيرون فيها يا ابن الخطاب؟ ليس لك أن تنظر لأي شريعة إلّا شريعة محمد أنها شريعة كاملة. (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:4].

▪ وأيضاً البقاء؛ هذه صفة ثالثة تنبثق من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل بيضاء)، البقاء لهذه الشريعة على مر العصور والدهور، كانت القيادة والسيادة والريادة لهذه الأمة في العصور الأولى لمّا تمسكوا بها، ونفس الأمر في هذه الأزمنة لا تكون القيادة ولا الريادة ولا السيادة إلّا بالتمسك بهذه الشريعة الغراء التي تقودنا إلى الارتقاء إلى الله جلَّ في علاه في الدنيا وفي الآخرة. والدلالة عظيمة جداً على بقاء هذه الشريعة إلى يوم القيامة، دلالة من الكتاب ودلالة من السنة.

أي شريعة أخرى، انظر إلى التوراة أين هي الآن؟ انطمست معالمها وأحكامها انطمست معظمها لأنها تحرّفت، الإنجيل نفس الأمر، أمّا هذه الشريعة باقية ببقاء الأمة الإسلامية. دلالة على بقاء هذه الشريعة الغراء إلى يوم القيامة وبقاء الأمة التي تقوم بهذه الشريعة الغراء من الكتاب ومن السنة؛ من الكتاب: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9]. الكتب السماوية الأخرى؛ التوراة بعد ما نزلت والإنجيل، جعل الحفظ للأحبار والرهبان فضيّعوها وضاعوا. أمّا الله جلَّ وعلا فقد تكفل لهذه الأمة المرفوعة المرحومة التي لها البشرى بالسناء والرفعة أن الله تكفل لها بحفظ الكتاب وحفظ السنة، الآية التي تثبت ذلك: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) هذا وجه

الشاهد (بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ) [المائدة:44]، فهذه الشريعة الغراء حفظها الله جلَّ في علاه.

والسنة حديثان: حديث في صحيح مسلم وحديث في السنن؛ هو معاوية بن أبي سفيان خطب الناس فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، أنا قاسم والله يعطي، ولا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم)، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)، وهذه دلالة على أنه إلى يوم القيامة تكون طائفة متمسكة على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

إذاً صفات هذه الشريعة الغراء منبثقة من هذه الصفة التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل البيضاء هي: عموم وشمول هذه الشريعة الغراء للأحكام وللآداب وأيضاً للأخبار، وكمال هذه الشريعة، والصفة الأخيرة هي البقاء. قال: (تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها)، دلالة على -كما قال الشافعي-: أنها لا تنزل نازلة إلّا وفي كتاب الله حلها علمها من علمها وجهلها من جهلها، وكما قال أبو ذر: مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما من طائر يطير أو يقلب جناحيه في السماء إلّا أخبرنا منه الخبر .

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجزئية الثانية: (لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك)، وهذه فصّلنا فيها الشرح على ما رأيت من الكتاب أن الزيغ قسمان، زيادة لكم على هذا الكلام نقول: والهلاك: هلاك دنيوي وهلاك أخروي؛

- أمّا الهلاك الدنيوي الجزئي فهو عدم التسديد والتوفيق، وهذا ظاهر جداً عدم التسديد والتوفيق إمّا لإصابة الحق أو لنشر العلم، ومنها عدم البركة في العلم. وهذا تراه جيداً في بعض الطوائف الذين ابتدعوا في دين الله بدعاً لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا ترى لهم بركة في العلم، لا ترى أحد يحمل عنهم هذا العلم وينشره، وحتى بعد تلميعهم فضائياً، هذه في المساجد انظر إلى مساجدهم واذهب

إليهم وانظر إلى مجالسهم لا ترى بركة في هذه المجالس، وانظر إلى تلميع هؤلاء الطوائف فضائياً ما تجد الناس ينتفعون بهم ولا تجد أن الله جلَّ وعلا يكتب لهم حسنات لمن يتبعهم بعد ذلك، هذا أيضاً نوع من أنواع الهلاك.

- والهلاك الأخروي معلوم؛ بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال إن الله منع عنهم التوبة في الدنيا ليزداد العذاب في الآخرة، وأنهم في العطش الشديد يمنعوا من حوض النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى ما لهم من المآل إلى نار تلظى، والعياذ بالله.

الأخير؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء) نقية في بعض الروايات، قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني). أقول قد علم ذلك الدرس صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، منهم عمر الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعض بالنواجذ على سنة النبي فكان يطوف بالكعبة ويقول: (والذي نفسي بيده إني أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله) يبيّن أن الاتباع فيه النجاة والعصمة بالسنة فيها النجاة، يقول: (ولولا أني رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -يقبلك ما قبلتك)، وفعل ذلك ابن عباس، وفعل ذلك ابن عمر، وفعل ذلك سالم. وقد فصّلنا هذا القول كثيراً في التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الفوائد المستنبطة:

١- من هذه الفوائد مفهوم المخالفة لا يُعمل به إذا كان المنطوق صفة كاشفة، وهذه تعرف بزيادة الرواية (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟)، لأنه قال: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلَّا أن يتبعني)، ثم قال: (جئتكم بها بيضاء نقية.)

في رواية أن عمر بن الخطاب كان يمسك بيده التوراة، بمعنى ذلك مفهوم المخالفة: إن كانت شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- التي أتى بها بيضاء نقية فشريعة موسى

ليست بيضاء نقية، هذا مفهوم المخالفة. ونحن نقول المفهوم هنا غير معمول به، لأن المنطوق صفة كاشفة، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلّم عمر بن الخطاب يقول: انت لا تحتاج لصحيفة موسى حتى ولو كانت من قبل أن تحرّف، صحيفة موسى وإن كانت بيضاء نقية فإن هذه أشد بياضاً ونقاءً لأنها غالبة عليها ولأنها ناسخة. فهذه صفة كاشفة، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: الشريعة التي بين يديك شريعة غالبة على كل الشرائع السابقة.

فمفهوم المخالفة يُعطّل ولا يُعمل به إذا كان المنطوق صفة كاشفة، وأيضاً من هذه أمثلة كثيرة جداً في الكتاب على هذه القاعدة:

- منها قول الله تعالى: (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ) [النساء:23]؛ "ربائبكم اللاتي في حجوركم" هذه صفة كاشفة، يعني كأن الله يقول: والربيبة بنت الزوجة على الواقع أنها دائماً تكون في حجر الرجل الذي تزوج أمها، فلا يجوز أن يتزوجها. ونقول (يعني من النادر): لو كانت بغير حجره وفي غير حجر أمها هل له أن يتزوجها؟ لا، لأن هذا المنطوق صفة كاشفة للواقع.

) -يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً) [آل عمران:130]، هل يمكن لنا أن نقول كلوا الربا لكن قليل؟ لا، هي صفة كاشفة كأن الله يقول: إن أهل الجاهلية كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة.

-٢أيضاً من هذه الفوائد؛ موت الخضر من أين هذا؟ بعض الطوائف يرون أن الخضر حي حتى الآن بل يدعونه لمجالسهم. أقول هذا الحديث أو هذه الرواية فيها دلالة على موت الخضر، هذا ما استنبطه كثير من العلماء، قالوا: لو كان الخضر حياً لذهب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولنصره ولبايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على نصرته وعلى الدفاع عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، وهذا أيضا منبثق من آية في كتاب الله وهي: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا) [آل عمران:81].

-٣الفائدة الثالثة: صاحب الحق له أن يبيّن هذا الحق ولا يكون هذا من باب الرياء ولا من باب الكبر ولا من باب العجب، من أين نأخذ هذه الفائدة؟ (تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها). ما في شريعة توافق هذه الشريعة ولا تداني هذه الشريعة، يبيّن عظم شريعة هذا الدين، وهذا حق فأظهره النبي -صلى الله عليه وسلم-.

النبي صلى الله عليه وسلم يقوم ويقول: (أنا سيد ولد آدم)، ويقول: (تركتكم على مثل البيضاء)، حق أراد أن يظهره وهذا ليس فيه عجب ولا رياء، فمن علم أنه على الحق ويرى أن العلم عنده له أن يقول انا أعلم الناس بهذه المسألة فلا تسألوا غيري، وأن تذهبوا لي كما قالت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- لمّا سألوها: إذا التقى الختانان هل يجب الغسل؟ أما قالت: على الخبير سقطت. فللعالم أن يقول، وهذا علم. أمّا قرأتم مقدمات كتب، ما رأيتم أنه يقول وأنت لن تجد في مثل هذا الباب إلّا هنا؟ في كتاب الأذكار ما رأيتم العلماء يمدحون كتبهم؟ فمن أين أتوا بهذا؟

أولاً من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء)، هناك آية أوضح من شمس النهار في هذه المسألة: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) [يوسف:55]. ولذلك العلماء قالوا: له أن يمدح نفسه، مع أن الله قال: (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ) [النجم:32] لكن إن كان إظهاراً لحق وتمييلاً للناس حتى يأتوا إلى هذا الحق يأخذون وينهلون منه فله أن يفعل ذلك، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تركتكم على مثل البيضاء). وكثير من الصحابة كانوا يفعلون ذلك، -كما قلت- أبو هريرة وغير أبي هريرة، وعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- كانت تقول: على الخبير سقطت.

وعن ابن عباس لمّا سألوه عن مسألة يبيّن أنه أعلم الناس في هذه المسألة، لما سألوه عن تفسير آية قال: ما من آية إلّا وقد علمتها، وقال ابن جبير تلميذ ابن عباس وهم

يسألونه قال: ما من آية من كتاب الله جلَّ في علاه إلّا وعلمت فيما نزلت وبما نزلت ولِمَ نزلت، سألت وراجعت ابن عباس كتاب الله مرتين، كل مرة يوقفه عند الآية ويأخذ منه تفسير هذه الآية وأسباب النزول. وأيضاً ابن مسعود قال ذلك قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- أولاً: (من أراد منكم أن يأخذ القرآن غضاً طرياً فعليه بابن أم عبد)، وقال ابن مسعود: (لو علمت أحداً أعلم مني بكتاب الله لرحلت له)، طبعاً كان ابن عباس في هذه الأونات صغير، فابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- يبيّن أنه أعلم الناس بكتاب الله جلَّ في علاه.

٤-الإنكار على الأفاضل، وهذه مهمة جداً، وهذه جاءت من النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهنا نقول أن الإنكار على قسمين: إنكار من ولي الأمر، وإنكار من الرعية؛

- أمّا الإنكار من ولي الأمر؛ فلولي الأمر أن ينكر علناً وأن يهذب من يشاء ويؤدب من يشاء ويعزّر من يشاء، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني.)

وهنا نقول سيد المرسلين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنكر على أفضل البشر بعده وبعد أبي بكر، وأنكر عليه علناً وقال: (أمتهوكون فيها ابن الخطاب؟)؛ أولاً تأديبا لعمر ابن الخطاب، وتحفيزاً له ليتعلم أن هذه الشريعة الغراء لا شيء يدانيها، وتعليماً لمن بعده.

فهذا الإنكار من ولي الأمر له أن يفعل ذلك، لكن هناك آداب أيضا لابد لولي الأمر أن يلتمس طريقها، وقد أدّبنا بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أن ذوي الهيئات لابد أن نجنبهم العثرات، وقد وردت آثار عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، وهذه ترجع أيضاً للمصلحة والمفسدة التي ترجع لولي الأمر.

- أمّا الإنكار على الرعية أيضاً قسمان:

◆ القسم الأول: الذي ينكر يكون أفضل من الولي مثلاً، كالصاحب، اجتمعت الأمة على أن الصحابي الجليل أفضل الأمم من بعده، وهذا الصاحب له كلمة مسموعة عند ولي الأمر وعند الرعية، هذا يمكن له أن ينكر علناً. وهذا قد حدث، وهذا الذي يجعلنا نوفق بين الأدلة حتى لا تتزاحم، لمّا فعل أبو سعيد الخدري وأبو موسى الأشعري، كل منهم أنكر على ولي الأمر إنكاراً علناً، ولمّا أشار الرجل بإصبعه لمّا كان يدعو بيده قال كما في صحيح مسلم: قبح الله هذه اليد، ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يزيد على أن يشير بإصبعه. فكان صاحباً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان له الجلالة والقدر عند الرعية وعند الولاة، فمن كان في مكانته فليفعل ما فعل. هل وجدنا في هذه العصور من في مكانة الصاحب؟ إذاً هذه المسألة كانت خاصة بالصحابة.

◆ القسم الثاني وهو إنكار الرعية على ولي الأمر هذا وجب شرعاً إن كان مثلاً في آداب أو نصائح دينية من الرعية لولي الأمر، تكون على السر أو على الإسرار وليس على العلن. وهذا الذي أدّبنا به ابن عباس عندما قالوا له: نراه يفعل كذا وكذا، قال: في السر انصحه، يعني هذه سنة نبيكم أن تنصح في السر، وقد بيّنت ذلك تفصيلاً.

الغرض المقصود هنا إنكار النبي علنا كان إنكاراً من ولي الأمر، فلولي الأمر أن يعزّر أو يؤدب أو ينكر علناً كيفما شاء عندما يرى المصلحة.

٥- الفائدة الأخيرة ألا وهي النجاة بالعصمة، بالتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك). فإن من تمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبكتاب الله نجا، وإن من زاغ عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- قد هلك.

وقد بيّن ذلك كثير من الفقهاء منهم الائمة الأربعة؛ كما قال الإمام مالك: كل يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب هذا القبر، ولن تصلح هذه الأمة او آخر هذه الأمة إلا بما

صلح به الأولون، بالتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وكان الشافعي لمّا سئل عن مسألة فأجاب صاحبه بسنة النبي، فقال له السائل أنه استنكر المجيب فقال له: أتقول أنت بذلك؟ قال: أرأيتني خرجت من كنيسة؟ أرأيت في وسطي زنارا؟ ما لي لا أقول بما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ وكان أيضاً أبو حنيفة يقول: إذا رأيتم قولي يعارض قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخذوا بقول رسول الله واضربوا بقولي عرش الحائط.

الباب الثاني هو: (لكل عمل شره)، وأيضاً (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو مردود)، يعني هذا الباب واسع جداً الخطوة، لا سيما وأننا سنقف وقفة طويلة من حديث: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا) لأن له منطوق وله مفهوم وتعلّق فيه بعض المبتدعة، يتعلق بمفهومه بعض المبتدعة. لأن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)؛ "مردود" يعني باطل هذا منطوق، مفهومه: من عمل عملاً عليه أمرنا فهو مقبول، فقالوا: الصلاة أمرنا فمن زاد في الصلاة زيادة في أمرنا فيصح ذلك، كذلك الصوم، الزكاة. كما سنبين على الطوائف المبتدعة الذين أخذوا بالمفهوم وفرّقوا بين المفهوم والمنطوق، يكون هذا الأسبوع القادم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الرابع عشر: باب لكل عمل شرة ولكل شرة فترة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك -يسر الله إتمامه- كتاب السنة لابن أبي عاصم، بلغنا إلى باب ذكر قوله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء)، الباب الذي يتبعه.

بسم الله والحمد لله، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على خير خلق الله، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك).

وعن القاسم بن محمد قال: أشهد أني سمعت عائشة تقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو مردود).

شرة: يعني قوة وحماسة واندفاع من القوة

الفترة: الهدوء يعني تخاذل

أقول في هذا الباب العظيم التوحيد توحيدان: توحيد العبادة وتوحيد الاتباع وهما متلازمان لا ينفكان بحال من الأحوال؛ توحيد العبادة هو الإخلاص لله جلَّ في علاه، وتوحيد الاتباع هو إفراد النبي -صلى الله عليه وسلم- في كيفية التعبد لله جلَّ في علاه وكيفية التقرب إلى الله جلَّ في علاه. ولذلك جمعهما الله جلَّ في علاه في آية واحدة فقال: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110]؛ (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) هذا توحيد الاتباع، لا يكون العمل ولا يوصف بأنه صالح إلّا إذا اتبع فيه العابد النبي -صلى الله عليه وسلم-. (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) هذا توحيد العبادة. فالتوحيدان يتلازمان لا ينفكان أبداً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن كل عمل إن لم يوافق سنته فهو عند الله جلَّ في علاه غير مقبول، (فهو مردود).

وهنا المصنف من بديع تصنيفه أنه الآن يتم حلقات أو تسلسل ما بدأه، وهو الكلام على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن العبد لا يرتقي إلّا بالسنة ولا يقبل عند ربه إلّا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم يصف الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن لكل عمل قوة واندفاع وحماسة، كما قال الله تعالى آمراً موسى -عليه السلام- ومن يتبعه أن يتخذوا الكتاب بقوة، وأمرنا بذلك. ولذلك الناس في عبادة الله جلَّ في علاه على صنفين أو على قسمين:

١- قسم يأخذون الكتاب بقوة، يتعبدون لله في النهاية كما يتعبدونه في البداية، وهذه تراها في الأماجد الأكارم الأخيار الأوائل الذين رفعهم الله جلَّ في علاه ورفع ذكرهم؛ كأبي بكر وعمر وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاهم-. كما صح عن نبينا: أن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- رأى أبا بكر وعمر يمشيان، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ترى هذين هما سيدا كهول أهل الجنة، فقال ألا أبشرهما، فقال: لا)، وكلمة "لا" من النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس لأنهما سيتكلان على هذه البشارة، لا والله، ولكنهما سيجتهدان اجتهاداً شديداً في التقرب إلى الله جلَّ وعلا بعد هذه البشارة. ولذلك كان أبو بكر وعمر وغير عمر رضي الله عنه وأرضاه يقول: ما ازددت اجتهاداً إلّا بعدما تعلمت القدر.

وأيضاً عبد الله بن عمرو بن العاص كان كثير الصوم، والقصة مشهورة في الصحيح: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما اشتكي له من فعل عبد الله بن عمرو بن العاص، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: (صم ثلاثة أيام من الشهر)، ثم تدرج معه: (صم اثنين وخميس)، ثم (أفضل الصيام صيام داوود، أن تصوم يوماً وأن تفطر يوماً)، فكان

كذلك حتى مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. ثم عبد الله بن عمرو بن العاص لمّا كبر سنه، ابتدأ يضعف، فلمّا ضعف كان يصوم أحياناً ويفطر أحياناً، فكان يبكي ويقول: ليتني أخذت بالرخصة التي رخصها لي الرسول -صلى الله عليه وسلم-. لِمَ؟ لأنه يخشى أن يخالف العهد الذي عهده عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكان يجمع أياماً يصوم فيها، ثم يجمع أياماً يفطر فيها.

فهذا القسم قسم الأوائل الذين رحلوا، نسأل الله جلَّ وعلا أن نسير على دربهم ونحن لسنا بأمثالهم بحال من الأحوال، لكن نسأل الله جلَّ في علاه أن نسير على دربهم.

٢- القسم الثاني: قسم يدخل بقوة كما قالوا عندنا في مصر مثل يقارب هذا المعنى: "الغربال الجديد له شدة". فكل شيء يتعلمه المرء جديداً ترى أنه يدخل فيه بقوة، فهو يمكن أن يتعلم سنة فيتمسك بها ويعض بها على النواجذ.

أنا أذكر وأتكلم عن نفسي عندما منّ الله علي بالاطلاع على هذا الحديث الذي صحح، وهو حديث الأربعين تكبيرة أو الأربعين صلاة يحضر فيها التكبيرة الأولى كتبت له براءتان؛ براءة من النفاق وبراءة من النار. كنت وإن كنت مسافراً إلى مصر وقد حجزت التذاكر في القطار أنزل من أجل التكبيرة ما أضيعها بحال من الأحوال، فمكثت مدة على ذلك. وبعد ذلك رأيت نفسي متخلفاً كثيراً، كلما يكون معي كتاب واقرأ انتظر حتى تقام الصلاة، فإذا أقيمت الصلاة ضاعت مني التكبيرة وضاعت الركعة الأولى، لكن الحمد لله نصحت من بعض الإخوة الأفاضل الأكارم على أن هذه يعني تعتبر ثلمة في حق طالب العلم أن يكون في كل مرة هو المتأخر، فعدت إلى أدراجي أتذكر ما حدث أولاً.

فالغرض المقصود أنه في أول ما تعلمت هذا الحديث ما تركت التكبيرة بحال من الأحوال، وكنت دائماً أسلي نفسي بكلام الأعمش: الأذان كنت أسمعه أربعين سنة في المسجد. وأيضاً كان سعيد ابن المسيب من السلف يقول: ما تذكرت بعد أربعين سنة أنني صليت خلف ظهر أحد، إلّا الإمام طبعاً، فكان دائماً يكون في الصف الأول. فهذا الديمومة عندهم، لكن عندنا نأخذ بقوة وبعدها يحدث الفتور والتراجع.

فالقسم الثاني؛ قسم يفعلون ذلك، ثم يحدث لهم الفتور؛ هذا الفتور له حالان:

- الحال الأول: الفتور على سنة؛ أن يسقط لكنه لا يضيع صلاة الجماعة ولا يضيع الصلاة ولا يضيع السنن، هو يعملها لكن يتقاعس في المسارعة والمسابقة عليها، وأيضاً يشغل نفسه ببعض المباح، فهذا يكون قد هدي كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن كانت فترته إلى سنتي)؛ يعني غير مخالف لسنة النبي، غير مخالف للشرع العام، غير مخالف لأوامر الله وأوامر الرسول، غير مرتكب لنواهي الله أو

نواهي الرسول -صلى الله عليه وسلم-. من فعل ذلك أو هذا الحال الذي تكون فترته على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ينشغل ببعض المباح، يتقاعس في المسارعة في الطاعات، هذا إلى النجاة أقرب منه إلى الهلكة.

وهذه تتضح لنا جليّاً في حديث أبي بكر وحنظلة؛ عندما خرج حنظلة باكياً فقال له أبو بكر: مالك يا حنظلة؟ قال: والله إنا نعد أنفسنا عندما نكون عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكلمنا عن الجنة وعن النار نراها رأي العين، كأننا فيها [في الجنة أو في النار] ونبكي وتبكي قلوبنا، فإذا رجعنا أدرجنا إلى نسائنا عافسنا النساء والأولاد. فقال أبو بكر: إذاً نافق أبو بكر أيضاً، لو نافق حنظلة نافق أبو بكر. فقابلهم عمر قال: إذاً نافق عمر؛ يعني لو كانت الفترة هذه أو الفتور هذا وهذه الهمة العالية نزلت هذا النزول يكون فيه العقاب، فالعقاب لنا جميعاً. فذهبوا جميعا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: (يا حنظلة ساعة وساعة)؛ فالفترة هنا كانت لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذا الحال الأول أنه يهدى أن هذه الفترة تكون إلى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ليس فيها مخالفة للشرع، فالنجاة أقرب من الهلاك.

▪ الحال الثاني: ألّا تكون إلى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا يوضحه عجز الحديث أنه قال: (من كانت فترته إلى غير ذلك)، يعني إلى غير سنته، ذلك إشارة إلى ما سبق من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، من شرع النبي -صلى الله عليه وسلم-، من كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. قال: (من كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك) فالهلكة تحوط به، وهذا الحال له قسمان:

🡸 قسم فيه مخالفة السنن بالمعاصي، وهذا واقع مشاهد؛ انظر في رمضان ونحن نستقبل رمضان الآن: في أول يوم من رمضان وأول ليلة من رمضان، انظر إلى الأزيز، انظر إلى البكاء، انظر إلى قراءة القرآن، انظر للمحافظة على التكبيرة اليوم الأول، ثم ما يليه من اليوم الثاني ثم الثالث، وبعد ذلك ترى التقاعس. أنت تراها واقعاً مشاهداً الآن في مجالس العلم، ترى المرء إذا علم أن الشيخ الفلاني سيأتي وسيعطي دروس علم وهذه دورة علمية وفيها وما فيها، وفيها تأصيلات وتقعيدات علمية، ترى الأمم جحافل ثم يغربلون حتى يبقى نقاوة الناس، هذا صحيح.

فأنت تنظر، بعض الناس تأتيه الفترة والفتور، فمنهم من يكون من القسم الأول: يصلي، كان يقرأ القرآن، يقرأ جزءاً، يقرأ ربع، يقرأ ربعين، يقرأ ثلاث آيات، لا يقرأ القرآن، لكنه لا يعصي الله. وأما الحال الثاني فتراه بعد ذلك يشاهد التلفاز، يذهب إلى المقاهي يجلس، فيكون الفتور هنا إلى غير سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، بمخالفات أمر الله جلَّ في علاه. فهذا فيه نوع هلكة، وهذه الهلكة أقرب ما تكون للنجاة لأنها معصية، والمعصية ديوان من الدواوين الثلاثة التي قالت عنها عائشة: وديوان هو في مشيئة

الله، فهو ديوان المعاصي، وما كان في مشيئة الله فرحمته سبقت غضبه، فإن رحمة الله جلَّ وعلا تسابق وتسارع إلى عباد الله جلَّ في علاه. فإن كانت الفترة إلى غير سنة النبي بمخالفة أمر الله أو أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهي للمغفرة أو التوبة والأوبة أقرب.

⬅ أمّا الهلكة التي تحيط بالإنسان ولا نجاة بعدها ألا وهي استبدال العبادة بعبادة أخرى، وهو الابتداع والإحداث في دين الله. وبذلك ينتظم التصنيف وبديع التسلسل بأنه أتى بذلك ليشير إليك ما سبق، على أن من أحدث في دين الله من شيء فالهلكة تحيطه من جميع جوانبه؛ ولذلك قال -صلى الله عليه وسلم-: (فمن كانت فترته إلى غير ذلك) يعني إلى غير سنتي، ابتدع في دين الله فقد هلك وله الهلكة التامة. فإن من ابتدع في دين الله بينا أن الله جلَّ وعلا يحجب عنه التوبة في الدنيا، ويحجب عنه التوفيق والتسديد في الدنيا، ثم في الآخرة العقاب الأليم؛ لا شراب من حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا أن يكون من أول وهلة من أهل الجنان، لا بد أن يعذب أولاً بهذه البدعة. ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يراه معذباً: (سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي، بُعداً بُعداً لمن بدّل بعدي).

فهذا كما قلت سلسلة تنتظم من التصنيف أو بديع التصنيف من المصنف.

ثم ثنى بحديث عظيم، وهذا حديث أولى ما يكون في الفقه لكن لابد أن نأخذ جملاً منه ونتكلم عنه؛ ألا وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، هذا حديث له روايات أخرى، من هذه الروايات: (من أحدث في ديننا)، وكان أولى بالمصنف أن يأتي بنفس الرواية الثانية لأنه يمر على التسلسل الذي بدأ به: (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد)، يعني فهو باطل.

أولاً هذا الحديث أصل أصيل عظيم لهذا الدين، وهو كما قال بعض العلماء هذا نصف الشرع أو هذا الحديث يحمل تحت طياته نصف الدين، هو ميزان للأعمال الظاهرة كما أن حديث النيات ميزان للأعمال الباطنة؛ فأعمال القلوب يزنها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)، وهذا الحديث جاء ميزان للأعمال الظاهرة قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا)، من عمل عملاً ظاهراً ليس عليه أمرنا فهو رد، يعني فهو باطل.

أولاً قبل أن نشرع في الكلام على جمل من هذا الحديث نشرع في شرح الحديث أو في مفهوم الحديث؛ الحديث هذا له مفهوم، ومنطوق، ومفهوم مغلوط. لا بد من أن نفصل هذا الكلام على هذا الحديث الجليل العظيم لأنه نصف الدين، فلا بد أن نعطيه حقه:

◆ أمّا منطوق هذا الحديث: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)؛ ما معنى كلمة رد؟ يعني باطل مردود غير مقبول عند الله جلَّ في علاه، لِمَ؟ الصدر يبين العجز، قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا) يعني لا يوافق أمر الله ولا أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

مثال ذلك: - رجل صلى في وقت نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الصلاة فيه، كأن يصلي نافلة مطلقة بعد صلاة الفجر، صلاته باطلة لا تصح. لِمَ؟ لأنه عمل ليس عليه أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد نهى عن هذه العبادة في هذا التوقيت.

- أو رجل توضأ تمضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه ومسح برأسه، لكن توضأ بماء نجس، الطهارة باطلة لأنها وقعت على غير أمر الرسول، لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أمر بأن يكون الماء طهوراً. الدليل؟ "قالوا: أنتوضأ من ماء البحر؟"، هذا وجه الشاهد، أين وجه الدلالة؟ قال له: (هو الطهور ماؤه)، يعني كأن الرجل يقول: يا رسول الله أنتوضأ بماء البحر؟ قال: نعم توضأ فوضوؤك صحيح لأن الماء طهور؛ فمفهوم المخالفة: إن كان الماء غير طهور فوضوؤك لا يكون صحيحاً، هذا وجه الدلالة. إذاً من توضأ بماء نجس فقد عمل عملاً ليس عليه أمرنا أو تعبد بعبادة ليست عليه أمرنا، فهي باطلة مردودة، فهذا هو منطوق الحديث.

تأتي تفصيل هذا الحديث بضرب الأمثلة مفهوم الحديث، فله منطوق وله مفهوم.

◆ مفهوم الحديث؛ قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، مفهومه: من عمل عملاً عليه أمرنا فهو مقبول، يعني غير مردود. إذاً لو عمل عملاً يوافق أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعمله مقبول عند الله جلَّ في علاه، طبعاً بعد الشرط الأول وهو التوحيد الأول، توحيد العبادة، وهو الإخلاص لله جلَّ في علاه.

- مثال ذلك: أن يصوم يوم الإثنين أو يوم الخميس، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد صام يوم الإثنين ويوم الخميس فعلاً وحث على صيامهما قولاً عندما سألوه: لِمَ تصوم يوم الإثنين؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ذاك يوم بعثت فيه فأنا أصومه)، وفي رواية أخرى قال على صوم يوم الإثنين ويوم الخميس: (يُرفع فيهما الأعمال، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم).

- أو كأن يصلي صلاة الضحى التي كان يصليها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو يصلي رغيبة فجر التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خير مما طلعت عليه الشمس). فهذا أمر أو تعبد عبادة عليها أمر رسول الله قولاً وفعلاً، فهي مقبولة غير مردودة، هذا مفهوم الحديث.

◆ مفهوم مغلوط: مفهوم لهذا الحديث مغلوط، هذا الفهم المغلوط يأتي في الرواية الثانية التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، من أحدث في ديننا هذا ما ليس من الدين فهو رد باطل. فجاء بعض الذين يعمّقون النظر، وهذا تعميق غير مرغوب فيه وغير مرضي، فقالوا: من أحدث في ديننا هذا ما هو منه [مفهوم المخالفة] فهو مقبول غير مردود. نظر للحديث هذا الناظر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا ما ليس منه)، شيء ليس من الدين، أصله ليس من الدين، (فهو رد غير مقبول). قال: إذاً أقول بالمفهوم: من أحدث في ديننا ما هو منه؛ بمعنى الصوم من الدين فصام يوم الجمعة مثلاً واعتاد هذا الصيام، وهذا إحداث، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان يفعل ذلك. نقول له: قد أحدثت، فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أبطل كل الإحداث، قال: (من أحدث في ديننا ما ليس منه)، والصيام من ديننا، فإذاً من أحدث ما هو منه فهو مقبول غير مردود. فقال: هذا مفهوم المخالفة ونحن نعمل به.

وهذا المفهوم مفهوم مغلوط، ولا بد أن نبين خطأه في جميع الوجوه بإذن الله، حتى لا ندع لصاحب بدعة أن يبتدع في دين الله جلَّ في علاه، ثم بعد ذلك يخرج علينا ويقول: البدعة بدعتان: بدعة حسنة وبدعة سيئة؛ فالبدعة الحسنة هي التي كان أصلها من الدين، والبدعة السيئة التي لم تكن أصلها من الدين. فنحن نرد عليه بهذا الفهم ونقول: هذا فهم مغلوط وعليك أن تصحح فهمك لهذا الحديث، فنقول:

▪ أولاً (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، فسرته الرواية الأخرى فإنه قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا) فهذا نكرة يفيد الإطلاق، كل عمل ليس عليه أمر الرسول، يعني لم يتعبد به الرسول فعلاً أو قولاً آمراً أصحابه أو الأمة بذلك فهو مردود غير مقبول.

▪ الأمر الثاني الذي نرده، نرد عليه هذا المفهوم، نقول هذا المفهوم يرجع علينا بالقواعد الكلية والأصول الشرعية بالبطلان. فقال: كيف؟ أمفهوم للحديث يرجع على أصول الدين بالبطلان؟ قلنا: نعم، قال: كيف؟ قلنا: قال الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:3]، أي دين الذي أتى به النبي -صلى الله عليه وسلم- قبل الموت وعندما خطب في الناس وقال: (اللهم بلغت، قالوا: اللهم بلغت، قال: اللهم فاشهد، اللهم فاشهد، اللهم فاشهد)، وكان يرفع إصبعه وينكس بإصبعه عليهم؟ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)؛ يعني الدين لا يحتاج لأي إحداث، فكل شيء تحتاج لأمر دينك فهو في كتاب الله أو في سنة النبي، كما قال الشافعي: ما من نازلة تنزل على الناس إلّا وحلها في كتاب الله، علمها من علمها وجهلها من جهلها. وأبو ذر يقول: مات رسول الله وما من طائر يطير ويقلب جناحيه في السماء إلّا عندنا

منه علم؛ يعني من الرسول -صلى الله عليه وسلم- علم على هذا الطائر، وأيضاً لمّا قال اليهودي لسلمان: إن رسول الله علمكم كل شيء، "كل شيء" نص في العموم.

إذاً الدين لا يحتاج إلى أي إحداث، فإذا قلت إن مفهوم الحديث أنك تستطيع أن تحدث في دين الله فقد رجعت على هذا الأصل الأصيل بالبطلان، الله جلَّ وعلا يقول: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)، وأنت تقول الدين لم يكمل لم يستكمل حتى الآن لأنك تحدث في الدين ما لم يأتِ به النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأيضاً ترجع على النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنقصان، (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67]، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يبلّغ ما أنزل إليه، هذا الوجه الثاني.

▪ الوجه الثالث: نقول استدلالك على هذا بالمفهوم، وهذا المفهوم خالف المنطوق، فإذا خالف المنطوق المفهوم والمفهوم أضعف نقدّم المنطوق على المفهوم. أنا أوافقك على هذه القاعدة لأنه لا يستطيع أصولي أن يخالف، لأن المنطوق أقوى بالدلالة من المفهوم، لأن القاعدة الأصولية عند العلماء: إذا خالف المنطوق المفهوم، قدّم المنطوق على المفهوم؛ هذا عند عدم الجمع.

فقال: ما هو المنطوق؟ قلت المنطوق حديث العرباض بن سارية في مسند أحمد بسند صحيح أنه قال: (أنه وعظهم موعظة بليغة، قال: فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)، الشاهد سيأتي، ثم قال: (وإياكم ومحدثات الأمور)، يحذر من محدثات الأمور، وهذا اللفظ عام، أي وإياكم ومحدثات الأمور كلها. قال: (وإياكم ومحدثات الأمور) لأن الإضافة تعم، فيعم كل المحدثات. (وإياكم)؛ أحذركم من كل محدثة سواء من الدين أو ما ليست من الدين، (وإياكم ومحدثات الأمور). ثم يؤكد تأكيداً تاماً: (فإن كل محدثة بدعة)، "كل" عند علماء البلاغة نص في العموم، سواء من الدين أو من غير الدين، فكل ما يسمى محدثاً فهو بدعة. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة)، وفي رواية في النسائي بزيادة قال: (وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار). فهذه دلالة على أن هذا المفهوم خالف المنطوق، ولا يمكن أن يقف أمام المنطوق، فنقدم المنطوق على المفهوم. هذا الوجه الثالث في رد المفهوم والفهم المغلوط لهذا الحديث.

▪ الوجه الرابع على ذلك، نقول: هذا الفهم الذي فهمته، فهمه أبو بكر؟ سيقول: لا، فهمه عمر؟ سيقول: لا، فهمه علي؟ لا، فهمه عثمان؟ لا، فهمه البحر (ابن عباس)؟ لا، فهمه سلمان؟ فهمه زيد بن ثابت؟ فهمه علماء الأمة؟ فهمه الشافعي أو غير الشافعي؟ يقول: لا.

نقول: هذا الفهم الذي فهمته أنت إمّا أن تزعم أنك أفهم لكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- من هؤلاء العرب الأقحاح، وإمّا أن تقول لا هم أفهم منك. فإن كانوا أفهم منك فقف عندما وقفوا ولا تتعدى، وإن قلت أنك أفهم منهم فأنت كاذب ولا نأخذ بقولك. فإذاً نقول: هذا الفهم لم يصل إليه أبو بكر ولا عمر ولا الصحابة ولا قرون الخيرية، فلك أن تقف عندما وقفوا ولا أن تتعدى على حدودهم، لو كان خيراً لسبقونا إليه. هذا الفهم المغلوط لهذا الحديث.

يبقى لنا شرح الحديث والجمل الفقهية التي تتعلق بهذا الحديث: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)؛ أقول: من عمل عملاً مطلقاً، والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات. فمن تعبد عبادة ليست على أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- باطلة مردودة، ومن عقد عقداً ليس على أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو باطل مفسوخ مردود لا يترتب عليه آثاره الشرعية، هذا مجمل معنى الأعمال التي تنقسم إلى عبادات ومعاملات في ضوء هذا الحديث.

نأتي إلى التفصيل:

⬅ العبادات أيضاً تنقسم إلى أقسام:

١- عبادات مخالفة بالكلية لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،

٢- وعبادات موافقة بالكلية لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،

٣- والثالث التفصيل؛ عبادات أصلها موافق ولها فروع مخالفة أو أدخل عليها ما فيه المخالفة لأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

هذا التقسيم يضبط لطالب العلم مسائل العلم كلها، فالعبادات: عبادات توافق الأمر بالكلية، وتخالف بالكلية، عبادات أصلها موافق لأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وفيها إدخال مخالف لأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

١- أمّا التي توافق العبادات بالكلية فهي غير مردودة، بل هي مقبولة، مثال ذلك: صلاة المرء كصلاة الظهر وصلاة العصر، يصلي كما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، فأتى بكل الأركان والشروط؛ استقبل القبلة وتوضأ وتطهر طهارة صحيحة وصلى بركوع وسجود ورفع، كما كان يصلي النبي -صلى الله عليه وسلم-. فهذه عبادات توافق أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-، لسنا بصدد التفصيل لها لأن هذا من المفهوم.

٢- وعبادات تخالف أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالكلية، هذه باطلة مردودة، مثال ذلك: أن يصلي لغير القبلة، إذا صلى إلى غير القبلة فهذه عبادة على غير أمر

الرسول -صلى الله عليه وسلم- فهي باطلة بالكلية، لأن الشرط الأساسي الصحيح لتصح الصلاة أن يستقبل القبلة. الدليل على أن استقبال القبلة شرط أصيل في صحة الصلاة؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا قمت فاستقبل القبلة)، والله جلَّ وعلا قال: (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) [البقرة:144]، فهذا دلالة على أن استقبال القبلة شرط.

أو أن يصلي مثلاً بدون قراءة الفاتحة، فهذه الصلاة لا تصح على الراجح من أقوال أهل العلم، لأنه اختل ركن من أركان الصلاة كقراءة الفاتحة يكون الصلاة وقعت على غير أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالكلية. أو أن يصلي ويتقرب لله جلَّ في علاه بالمنهي عنه، بالمحرمات كأن يستمع الغناء أو الملاهي والمراقص ويتقرب إلى الله بهذا الرقص أو المطوحة أو ما يحدث من بعض الناس، فيحسب أنه يحسن صنعاً فيتقرب إلى الله بذلك.

أو كالكرامية الذين كانوا يتقربون إلى الله بالكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، يقولون: نحن لا نكذب على رسول الله، نحن نكذب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- . أو كالذين يذبحون للبدوي وينذرون للبدوي قربة لله جلَّ في علاه، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً. فهذه باطلة بالكلية، لأنها خالفت بالكلية أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

إذاً القسم الأول يوافق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالكلية، فهي مقبولة غير مردودة. القسم الثاني يخالف أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالكلية، فقدت شرطاً أو ركناً أو كانت في المنهيات، فهذه مردودة بالكلية.

٣- القسم الثالث، وبحر الخلاف في القسم الثالث، وهو أن يكون أصل العبادة يوافق أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأدخل عليها شيئاً بالزيادة أو بالنقصان، وأدخل عليها ما ليس من أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهل تكون مقبولة؟ هل تكون مردودة؟ هذا خلاف عريض بين العلماء؛ بعض العلماء يقول مقبول مطلقاً، وبعضهم يقول مردود مطلقاً، وبعض العلماء يفصّل، والتفصيل هو الراجح الصحيح. لكن الذين قالوا هي مردودة مطلقاً، قالوا مطلق النهي يقتضي الفساد بقول النبي: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد). نضرب الأمثلة ثم نوضح بالتفصيل:

- كأن رجلاً صلى وهو يصلي سرق ثوباً، علم أن شرط صحة الصلاة ستر العورة فسرق ثوباً وستر به عورته وصلى، رجل هو سارق أصالةً، فأخذ إزاراً ورداءً سرقة وصلى بهم، هل الصلاة صحيحة أم لا؟
- صورة أخرى؛ رجل سرق مالاً وذهب إلى الحج هل يصح حجه أم لا؟

▪ الصورة الثالثة؛ رجل جاء في أرض اقتطعها ظلماً من أخيه، سرقها غصب هذه الأرض، وقام فصلى عليها. وأنا أتيت بهذا المثل لأن هناك رجل صاحب بناية من الشارقة كان في أخ يعني مستأجر عنده، ويصلي فيها والشهر الأول انكسر عليه الإيجار، الشهر الثاني، الشهر الثالث، أعسر غير قادر أن يدفع له. فقال: كل ركعة تصليها باطلة، واستدل بهذا الحديث وكان فقيهاً استدل بهذا الحديث: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، قال له: أنت غاصب للشقة، فإذا كنت غاصباً للشقة وصليت عليها فصلاتك باطلة، وهذا كلام يعني صراحة له قوة وله وجاهة.

▪ والصورة الرابعة مثلاً رجل يحمل خمراً وصلى واستقبل القبلة وآتى بكل الشروط، ويحمل خمراً وهو يصلي، هل صلاته صحيحة أم لا؟

هذه الصور الأربعة كلها الأصل فيه يوافق أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ مستقبل القبلة، يصلي، يركع، يأتي بالسجود، يقرأ الفاتحة، أيضاً ساتراً لعورته. العبادة أصلها يوافق أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن أدخل فيها ما يخالف أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

▪ وأيضاً كالصلاة في المسجد الذي فيه قبر، رجل صلى صلاة مستقبل القبلة لكن المسجد فيه قبر، هل يصح أم لا؟ أصل الصلاة يوافق أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لكن صلاة في مسجد فيه قبر يخالف أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

الذي ستر عورته بالثوب المسروق، أصل الصلاة صحيحة لكن الثوب المسروق يخالف أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فما الحكم في هذه الصلاة؟ هذا يتعلق بهذا حديث: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) يعني فهو باطل.

الصحيح الراجح دون الدخول، لأن هذا درس عقيدة فلا ندخل في الفقهيات الكثيرة، لكن أقول: الصحيح الراجح في هذه المسألة ينظر فيها في هذا الإدخال أو الإخراج أو الزيادة أو النقصان. ينظر فيها هل هذه الزيادة أو هذا النقصان في شرط من شروط الصلاة، في وصف من أوصاف الصلاة، في ركن من أركان الصلاة أم لا؟ فإن كان في شيء داخل مهية العبادة نفسها فالعبادة تكون باطلة، وإن كان في شيء خارج مهية العبادة نفسها فلا يكون باطلاً، ونجمع بين الحديثين فنقول: عمل عملاً ليس عليه أمرنا فأثم بذلك، وأتى بعبادة عليها أمرنا فصحت والقبول عند الله جلَّ في علاه.

عند التفصيل نقول الآن: ستر عورته بثوب مسروق، ننظر إلى ستر العورة هل هو شرط في الصلاة أو ركن في الصلاة أو هو ليس بشرط في الصلاة ولا ركن في الصلاة؟ ستر العورة شرط من شروط الصلاة، لا بد حتى يصلي صلاة صحيحة يأتي

بكل الشروط والأركان متكاملة، ومن شروط الصلاة هو ستر العورة. الدليل على أن ستر العورة شرط لصحة الصلاة:

- (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) [الأعراف:31]، ليس صريحاً في ستر العورة، هو الآن الزينة عنده أنه يلبس رداء والأصل فيه يكون نظيفاً مهندماً ويذهب يصلي بهذه الزينة.

- (الطواف في البيت صلاة)، ونهى أن يطوف أحد بالبيت عرياناً؛ هذا يعتبر أصلاً استنباطاً لكن ممكن يرد عليك أن الطواف ليس من كل وجه يشبه الصلاة، لكن هو استدلال صحيح وجيد.

- الصريح في المسألة؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله صلاة حائض إلّا بخمار)، الحائض: يعني التي بلغت المحيض ليس التي نزل حيضها، لا تصلي بذلك. الحائض التي بلغت المحيض لا يقبل صلاتها إلّا بخمار لأنها عورة، فتغطي كل عورتها بهذا الخمار السابغ من الرأس إلى أخمص القدم.

- أيضاً دليل آخر هو مرفوع، حديث صحيح؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يصلي أحدكم وليس على عاتقيه شيء)، هذا من باب القياس الجلي، من باب أولى ألّا يصلي وليس على عورته شيء.

- قالت المرأة: غطوا لنا إست صاحبكم، ولو كان مباحاً أو الصلاة تصح به ما أتوه بالثياب الجديدة وما ائتمروا بأمرها، وإن كان فيه إشعار فقط.

لكن التصريح فيه حديث: (لا يقبل الله صلاة حائض إلّا بخمار).

الغرض المقصود هنا قد ستر العورة، لأن شرط من شروط الصلاة ستر العورة، لكنه ستر العورة بثوب مسروق مغصوب، فهل تصح العبادة أم لا؟ النظر هنا عندنا حديث يقول: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، فقال بعض العلماء -هذا قول ابن حزم وقول بعض الحنابلة منهم القاضي أبو يعلى-: هذه الصلاة ليست على أمر رسول الله لأنه ستر العورة بشيء ليس على أمر رسول الله، فالصلاة ليست على أمر رسول الله والصلاة باطلة.

والصحيح الراجح في ذلك أن ننظر؛ ستر العور شرط من شروط الصلاة ستر العورة أو ما ستر العورة؟ أتى بالشرط واستقبل القبلة وتطهر وكبر وقرأ الفاتحة وركع وسجد ورفع، وأتى بكل الأركان والشروط، فنقول: هذه الصلاة بتوفر أركانها وشروطها هي على أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. لكن السرقة، هذه السرقة ليست على أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فنقول: قد صلى صلاة على أمر رسول الله بتوفر

الأركان والشروط فصحت، وسرق ثوباً ليس له على غير أمر رسول الله فأثم بذلك، فصحت الصلاة مع الإثم.

هذه القاعدة لو ضبطها طالب العلم لارتاح بالخلاف بين العلماء، ينظر في مسألة المنهي عنه: هو منهي لذاته، منهي لركن فيه، منهي لشرط فيه أم لا؟ فإن كان النهي ركن الشيء أو شرط في الشيء فالصلاة تبطل، أو العبادة كلها تبطل لأنه كأنه هدم العبادة من أصلها. أمّا إذا كان المنهي عنه في شيء خارج عن الأركان والشروط يأثم، لكن عبادته صحيحة. تعرف هذا كيف؟ تنظر في النهي؛ هل النهي مختص بالصلاة أو خارج الصلاة وداخل الصلاة النهي موجود؟ يعني تقول: هل السرقة حرام من أجل الصلاة؟ أم السرقة خارج الصلاة وداخل الصلاة حرام؟ يعني رجل بعد ما صلى ذهب قال الصلاة تمنعني من الحرام، يذهب يسرق خارج الصلاة تصح السرقة أم لا تصح؟ لا تصح، حرام، يعني السرقة خارج الصلاة لا تصح. فإذا نظرت إلى المنهي عنه لا يتصل بالصلاة، بل هو خارج الصلاة منهي عنه. وإن كان داخل الصلاة يكون أقوى في النهي. إن كان خارج العبادة منهي عنه فنقول النهي لا يكون لذات الشيء ولا لوصف ملازم للشيء، يعني لا النهي عن ركن ولا النهي عن شرط من شروط العبادة، فتصح العبادة متكاملة بالأركان والشروط، ويأثم بمخالفته أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأنه سرق على غير أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

قلنا المثال الثاني: صلى على أرض مغصوبة، رجل سرق الشقة هذه ولا أخذها وبدد ما أعطى الإيجار، وهو يصلي كل يوم، إذاً صلى على أرض مغصوبة، هل تصح أم لا؟ اضبط المسألة واترك الخلاف بين الفقهاء، اضبط المسألة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا). الآن هذه الصلاة عمل من الأعمال، انظر في الصلاة كيف تكون على أمر رسول الله؟ تتوفر شروطها التي شرطها رسول الله، وتتوفر أيضاً الأركان التي بينها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فننظر في الرجل؛ صلى واستقبل القبلة وتطهر وقرأ الفاتحة وركع وسجد وأتى بالشروط والأركان أم لا؟ فإن أتى بكل الشروط والأركان، فقد أتى بهذه العبادة على أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فصحت بذلك. وأمّا الأرض المغصوبة هذه، النهي عن الأرض المغصوبة، الأرض المغصوبة تحرم داخل الصلاة وخارج الصلاة، فإن كانت تحرم داخل الصلاة وخارج الصلاة فالنهي ليس مختصاً بالصلاة. فنقول: قد أتى بعبادة عليها أمرنا بتوفر الأركان والشروط، وأيضاً سرق سرقة ليست عليها أمرنا فأثم بذلك وصحت عبادته.

أيضاً رجل سرق مالاً وذهب إلى الحج فحج، جاء في الميقات فلبى: لبيك اللهم بحج، أو قال: لبيك بعمرة متمتعاً بها إلى حج، ولبس الإحرام وطاف بالبيت وبالصفا والمروة،

وحلق أو قصر، ثم بعد ذلك في اليوم الثامن أهل بالحج وذهب وبات بمنى ووقف بعرفة وبات بمزدلفة -اللهم ارزقنا الحج جميعاً يا رب العالمين-، وأدى كل مناسك الحج، فما حكم حجه؟

هنا نقول: (من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو رد)؛ ننظر في العبادة، العبادة على نص الحديث كيف تقبل العبادة؟ أن تكون على أمر أمر به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، يعني تكون على ضوء شرع الرسول -صلى الله عليه وسلم-. ننظر في الحج كيف يكون على شرع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ نقول: هو أتى بالشروط والأركان أو ما أتى بالشروط والأركان؟ هذا محل النزاع، والله الاستطاعة شرط.

انظروا رجل سرق مالاً وحج بهذا المال المسروق، حجه صحيح أم لا؟ ستنظر في العبادة هل تمت شروطها وأركانها أم لا؟ هذا هو النظر، أنا أقول المال الحلال أو الاستطاعة شرط من شروط الحج. الشروط: شروط أداء وشروط وجوب، والمال الحلال شروط وجوب ليس شروط أداء، وإن كان في صدري حرج من مسألة صحة حج الذي يحج بالمال الحلال، الاستطاعة شرط لكنها شرط وجوب وليست شرط أداء، والعبادة بكليتها متى لا تنزل تحت محذور قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه امرنا)، شروط الأداء وليست شروط الوجوب.

الاستطاعة شروط وجوب حتى يسأل أمام ربه لما لم يحج إن كانت الاستطاعة عنده ولم يحج، هذه شروط وجوب. لكن لو واحد حمله على حماره وذهب إلى الحج له أن يؤدي الحج أم ليس له أن يؤدي الحج؟ له أن يؤدي الحج. واحد سرق سيارة من دون أن يعرف، والثاني أيضاً ركب معه السيارة وذهب إلى الحج بالسيارة المسروقة يؤدي شروط الحج وأركانه أم لا يؤدي؟ يؤدي. فشروط الوجوب غير شروط الأداء، فالاستطاعة شرط وجوب وليست شرط أداء، والعبادة ميزان صحتها وبطلانها في شروط الأداء لا شروط الوجوب.

الآن شروط الوجوب، يعني متى يسألك إذا وقفت أمام ربك في عرصات يوم القيامة قال لك: لِمَ لم تحج فحسابك عسير لأنك تركت ركن من أركان الحج. متى تسأل؟ إذا كنت مستطيعاً، وإن لم تكن مستطيعاً لا تسأل، هذا معنى شروط الوجوب. فشروط الوجوب قالها الله جلَّ في علاه في كتابه عندما قال: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) [آل عمران:97]. فكل رجل غير مستطيع لا يسأل عن الحج، لكن منّ الله عليه ووجد نفسه، نام وجاء الشيطان أو الجن أخذه وصل به لعرفة فوقف، يؤدي أم لا يؤدي؟ يؤدي.

فشروط الوجوب هي التي يسأل عنها يوم القيامة "لِمَ لم يفعل إن كانت توفرت عنده". أمّا شروط الأداء هو أن يحرم من الميقات، أن يبيت مثلاً في المزدلفة، هذه شروط أداء وليست شروط وجوب.

الصحيح هذا شرط وجوب وليس شرط أداء، وصحة العبادة وبطلانها في شرط الأداء. صراحة تأصيلاً علمياً، طالما أدى الشروط والأركان تصح لكن تقبل؟ لا، هذه بعيدة جداً، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى في الحديث الضعيف الذي يقال له: (ومالك حرام وزادك حرام، ارجع مأزوراً غير مأجور) أو (حجك غير مبرور). هذه القاعدة لها ضوابط لأن هي أصلها خارجة من هذا الحديث وهو (وما بني على فاسد)، هو الوسيلة إلى هذا البناء كانت فاسدة لكن البناء الأصلي بناء صحيح، لأن البناء على شروط أداء وأركان وأداء صحيح.

ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب هذه القاعدة خطأ أن تقولها في هذا الباب، هذا الباب معناه وما لا يتم الوجوب إلّا به فليس بواجب.

الذي هنا يطبق كرجل ما عنده مال للزكاة فنقول الزكاة لا بد أن تخرج واحدة وأربعين من المال الذي معه، لا بد أن تخرج اثنان ونصف في المئة، فرجع مال كل يوم. رجل يقول له: من لم يخرج الزكاة فله عقابه وكذا وكذا، فقال: يا ربي أنا ما أخرج زكاة وما عندي لا بد أن أسرق مال حتى يبلغ للنصاب فأؤدي الزكاة فلا أضعف. في هذا نقول له: لا لست بملزمٍ أن تعمل تأتي بمال ويبلغ النصاب وتخرج الزكاة، ما لا يتم الوجوب إلّا به فليس بواجب. ونقول له: ما لا يتم الوجوب عليك في الحج إلاّ به فليس عليك بواجب، لكن نقول: إذا بلغ إلى البيت وأحرم من الميقات وأدى بالشروط والأركان هكذا قد قام بالعبادة صحيحة، ونزلت في ضوء قوله -صلى الله عليه وسلم-: من عمل عملاً هو على أمرنا فهو مقبول، أو نقول فهو صحيح وغير مردود.

⬅ القسم الثاني أعمال؛ أمّا الأعمال فهي عقود وهذه العقود أيضاً على ثلاثة أقسام:

١- عقد فيه حق الله محض،

٢- وقسم فيه حق للعباد محض تمحيض ممحضة،

٣- وعقد فيه حق لله وحق للعبد.

إذاً أيضاً الأعمال أقسامه ثلاثة؛ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا)، يعني من عقد عقداً ليس عليه أمرنا فهو رد باطل مردود. نقول: ليس على إطلاق لأن العقود على ثلاثة: عقد فيه محض حق الله جلَّ في علاه، عقد فيه محض حق العبد، عقد فيه المشاركة (حق الله وحق العبد).

الصور تبين:

◆ عقد فيه حق الله محض؛ كبيع الأعيان المحرمة، كالأعيان النجسة، كالخمر والأصنام والكلب ومهر البغي. هذا عقد على أعيان منع عنها لذاتها ما في حق الله محض، هذه العقود كلها باطلة، لا بد تدخل في ضوء قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا)، يعني من عقد عقداً ليس عليه أمرنا، لا يترتب عليه الآثار الشرعية فهو باطل، فهو مردود.

فمن باع خمراً فبيعه باطل والعقد باطل ولا يترتب عليه آثاره، يعني المال يرجع لصاحب الذي اشترى الخمر لا بد يرجع له المال. وأيضاً من اشترى كلباً أو باع كلباً فهذا العقد يقع مفسوخاً باطلاً وماله حرام لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن ثمن الكلب، بل قال: (من جاء يشتري منك كلباً أو جاء ليبيع الكلب فاملأ كفه بالتراب)، فثمن الكلب خبيث.

وأيضاً مهر البغي، إذا تعاقد رجل مع داعرة أن يضاجعها على مال معين، فتعاقدا على ذلك المال وأعطاها المال، وحتى لو ضاجعها لا يجوز لها امتلاك هذا المال ولا يرد له. هذا تفصيل في وقت آخر، لكن لا يرد له هذا المال والعقد يقع باطلاً لأن هذا حق الله المحض. أيضاً أن تنكح المرأة نفسها بغير ولي، فهذا النكاح يقع باطلاً بالكلية، لأن هذا حق الله المحض لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أي ما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل باطل)، يعني مردود، والحاكم أو ولي الأمر ولي من لا ولي له.

فالعقد الأول أو القسم الأول عقد محض حق لله، هذا يقع باطلاً إن خالف أمر الله جل في علاه، ولا خلاف فيه، هذا بالإجماع، كثمن الخمر -كما قلنا- ومهر البغي.

◆ الثاني؛ محض حق الآدمي، مثال ذلك أن يبع على بيع أخيه، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يبع أحدكم على بيع أخيه)، هذه فيها دلالة على أن هذا الحق المنهي عنه حق للضرر الذي وقع على الذي بيع على بيعه، هذا حق محض للآدمي، والدليل على ذلك أن في رواية الحديث قال: (ولا يخطب أحدكم على خطبة أخيه). وفي آخر الرواية قال: (إلّا أن يأذن)؛ فجعل صحة العقد موكوله إلى إذن الآدمي، فهذا حق محض له إن أراد أن يسقطه أسقطه، وإن أراد أن يقيمه أقامه. لو قال: هذا البيع لا يصح، أنت بعت على بيعي. نقول له: إن لم يرضَ فهذا البيع يقع مفسوخاً لأنه حق محض للآدمي. لو قال: أنا أرضى وتنازلت لك عن هذا، فيكون البيع صحيحاً.

أيضاً الخطبة؛ جاء محمد فخطب هنداً، فجاء أحمد بعد خطبة محمد فخطبها، فرضيت بأحمد ورمت زيداً مثلاً على طول ذراعها كما يقولون، ما رضيت به. أخذت احمد

لماله الوفير، لوسامته ولأشياء أخرى، فيأتي محمد يقول له: اتقِ الله خطبت على خطبتي فهذا لا يجوز لك وهذه الخطبة لا تقع صحيحة، فيقول: لا تقع صحيحة إلّا إذا رضيت، لأن هذا حق محض له، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إلّا أن يأذن).

فالعقود هذه طالما حق محض للعبد له أن يقول رضيت، فإن قال رضيت فالعقد صحيح. طبعاً في تفصيل فقهي بعيد جداً: دخل بها؟ لم يدخل بها؟ العقد يصح إذا دخل أم لا؟ هذا لسنا بصدده، نحن في باب الكلام على العقيدة، لكن هنا نقول إن كان حقاً محضاً للعبد أو للآدمي يرجع صحة العقد أو فساده لمسألة الرضا.

يقول الرجل: وماذا تفعل بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)؟ باع بيعاً على بيع أخيه، خطب على خطبة أخيه، هذه ليس عليها أمرنا؟ نقول: هي ليس عليها أمرنا إلّا أن يرضى، فإن رضي فهي عليها أمرنا، ما الدليل؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إلّا أن يأذن)، فإن أذن فهو عليه أمرنا، فإن لم يأذن فليس عليه أمرنا. إذا العقد الثاني أو المعاملة الثانية حق محض للآدمي.

◆ المعاملة الثالثة حق لله وللآدمي؛ مثال ذلك الطلاق في الحيض، وأيضاً البيع وقت نداء الجمعة. وطبعاً ينجر وينسحب الحكم على كل أوقات الصلوات، يعني وقت العشاء وقت المغرب مع الأذان يبيع في هذا الوقت، وقت ما تقام الصلاة يبيع، هل البيع صحيح أم لا؟

الصورة الثالثة السرقة، لأن فيها حق لله، يعني لو عفا عنه المسروق الذي سرق منه تقطع يده أيضاً لأن فيها حق لله. نعم السرقة مشتركة، لكنها مشتركة من وجه واحد، مشتركة حتى تصل إلى الوالي، إن لم تصل إلى الوالي فهي مشتركة، لأنها إن وصلت للوالي أصبحت محضاً لله جلَّ في علاه ولا بد من قطع اليد، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هلّا ذلك كان قبل أن تأتيني)؛ يعني قبل أن تأتيني وتقول أنه هو سرق هذا الرداء كنت ممكن تعفو عنه فيقع العفو، لكن طالما وصلت الحدود إلى الوالي فلا بد أن يقيم هذه الحدود، نعم هذا حق مشترك.

الحق المشترك فيه خلاف عريض بين العلماء، وصراحة هي القرائن المحتفة هي التي ترجح، كالصلاة في المسجد الذي فيه قبر فيه حق لله جلَّ في علاه، نقول هل هذا الحق متمحض أم لا؟ والنهي يكون لذات الشيء أم لا؟ أترك الصلاة في المسجد في قبر حتى ندخل في المعاملات الأول لأن هذه عبادات طبعاً.

نقول: البيع وقت النداء رجل عند صلاة الجمعة والمؤذن يؤذن قام فباع أشرطة أو باع كتباً أو كان يفتح المحل ليبيع الطعام مثلاً، هل البيع هذه يقع صحيحاً أم لا؟ تترتب عليه الآثار الشرعية أم لا؟ هنا عندنا نهي، والنهي ورد من قول الله وقول النبي، ما هو

الدليل على النهي؟ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) [الجمعة:9]، اتركوا يحرم عليكم. (وَذَرُوا الْبَيْعَ)، فهنا الدليل على أن البيع وقت نداء الجمعة لا يجوز، باع بيعاً وقت نداء الجمعة هل يصح أم لا؟ هنا العلماء اختلفت أنظارهم، هل هو حق لله محض؟ هل هو حق للعبد محض؟ هل هو مشترك أم ماذا؟

- فبعضهم يقول النهي هنا من أجل الصلاة، البيع لا يقع صحيحاً، بل يأثم والبيع باطل، ولا بد أن يترادا ولا يصح البيع، لأن النهي هنا نهي عن ذات البيع.

- وبعضهم -وهذا الراجح الصحيح- يقول: لا، هنا فيه حقان، هذا البيع توفرت فيه الشروط وتوفرت فيه الأركان، بيع عن تراض ورأى السلعة وتحدد الثمن وقبض في نفس المجلس، وتوفرت الشروط والأركان، فيصح البيع ويأثم بمخالفته أمر الله جلَّ في علاه ألّا يبيع في مثل هذا الوقت. وهذا الراجح الصحيح، للقرائن المحتفة بأن النهي هنا من أجل ذكر الله جلَّ في علاه أو من أجل سماع الخطبة. ونحن نقول ليس من الوجوب أن يسمع الخطبة، هذا من الاستحباب، هذا الراجح الصحيح ليس واجباً بل هو مستحباً، من أجل هذه الذريعة حتى لا يفرط الناس بسماع الخطبة أو ذكر الله جلَّ في علاه لابد أن ألّا يبيع، فإن باع فقد أثم بمخالفة الأمر ووقع البيع صحيحاً لأنه توفرت فيه الشروط وتوفرت فيه الأركان.

لو قلنا على العبادة:

أيضاً الصلاة في المسجد الذي فيه قبر؛ نظر بعض العلماء فقال: إذا صلى في مسجد فيه قبر فالنهي عن ذات الصلاة فتبطل صلاته، فمن دخل فصلى العصر في مسجد فيه قبر فعليه أن يعيد الصلاة. وقول جمهرة من أهل العلم المحققين والجمهور يرون الصلاة صحيحة ويأثم. وأنا كنت إلى اليوم أرجح قول الجمهور مع إني أرى أن القول الثاني فيه قوة، إلّا أنه يوقفني عن ترجيح القول الثاني أن الصلاة في المسجد النبوي بالاتفاق وبالإجماع صلاة صحيحة، لا سيما وأن العلة في النهي عن الصلاة في المسجد الذي فيه قبر هو الخوف من ذريعة الشرك، المرء يأمن ذلك في المسجد النبوي، بل ويأمنه بعض الناس الذين يصلون في المسجد الذي فيه قبر إن كان توحيده توحيداً سليماً. فنحن نقول: المسألة ضيقة جداً، لكن ما زلت على قول الجمهور الصلاة صحيحة ويأثم صاحبها.

إذاً المعاملة الثالثة أو العقد الثالث عقد فيه اشتراك، هذا تنظر في الذي فيه اشتراك، هل الأقوى حق الله؟ أو الله جلَّ وعلا بين أن حق العبد هو الأقوى؟ فبالقرائن المحتفة لك أن تقول تبطل ولك أن تقول لا تبطل، فالقرائن المحتفة هي التي توضح لك هذه المسألة. هذا الذي يتعلق بهذا الحديث، وإذا تكلمنا عنه فقهياً ما انتهينا، لأن هذا حديث قلنا هو

نصف الدين وأتى به المصنف ليبين أن من أحدث وابتدع في دين الله ما ليس منه، بل ولو كان منه فإنه باطل مردود ويستحق صاحبه الهلاك.

الفوائد المستنبطة:

- الحديث الأول: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الأحاديث الأخرى أناط الهلاك بعدم التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه تؤخذ من قوله: (من كانت فترته إلى سنتي فقد نجا، ومن كانت فترته إلى غير ذلك [يعني الى غير سنتي] فقد هلك)، فأناط النجاة بالتمسك بالسنة، وبالمفهوم أناط الهلكة بالبعد عن السنة.

- الفائدة الثانية: أن "من" صيغ العموم من الأسماء المبهمة؛ هذه تؤخذ من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً)، أي أحد صغيراً كبيراً عاقلاً فقيهاً جاهلاً عالماً، (من عمل عملاً ليس عليه)، (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد) يعني فهو باطل.

- الفائدة الأخيرة والثالثة: ليس كل مفهوم معتبر، وهذا قد وضحناه قبل ذلك في بعض الأحاديث.

سؤال: طبعاً بعض من قال بالمفهوم: "من أحدث في ديننا ما هو منه فهو مقبول"، استدل وعضد قوله بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سن سنة حسنة في الإسلام فله أجرها).

نحن نرد عليه من وجهين: من وجه أثري، ومن وجه نظري؛

- أمّا من الوجه الأثري؛ نقعّد القاعدة التي قعّدها البخاري: أفضل ما يفسر به كلام النبي كلام النبي، أفضل ما يفسر به الحديث فهو الحديث. هذا الحديث جاء من رواية أخرى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في السنن وبسند صحيح قال: (من أحيا سنة من سنتي فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة)، فهنا "من سن" تكون معناها من أحيا يعني لم يبتدع، سنة ماتت هجروها الناس كالعمامة السوداء، وقد اعتم أكثر من أخ كريم هنا في المجلس بعد ما بيّنا أن هذه سنة مهجورة، أعتم بعمامة سوداء يستن بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً، عند من يقول بأنها ائتساء بفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- فتنقلب بالنيات العادات إلى عبادات.

الغرض المقصود قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سن) معناه من الحديث الآخر (من أحيا سنة من سنتي).

- ومن النظر نقول: (من سن سنة)، السياق والسباق من المفسرات ومن المقيدات، فيطلق على إطلاقه سباق ولحاق الحديث، وسياق الحديث: أن النبي -صلى الله عليه

وسلم- كان جالساً مهتماً مغتماً لمّا رأى الفقر على أصحابه، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما جاءوه متقلدي النمار ومعهم السيوف ورأى الفقر في أعينهم وفي أجسادهم، اغتم غماً شديداً، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً في الناس فقال: (جاء رجل بصاع بره، بصاع تمره)، الفقراء في المجلس وما أحد تصدق عليهم، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- يستحث الناس ألا تتصدقوا، والصدقة كانت معهودة، وأنزل الله الزكاة وأنزل الله آمراً إياهم يحثهم على الصدقة. فحثهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على الصدقة، فقام رجل فأتى بصرة مال أو بصرة طعام فوضعها أمام النبي، فلمّا رأى الناس أن هذا الرجل الفقير يأتي بطعام بيته ويضعه أمام النبي -صلى الله عليه وسلم- يتصدق به على هؤلاء الفقراء، قالوا هذا يسارع بالخيرات لِمَ لا ننافسه؟! (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [المطففين:26]؛ فكل منهم أخذ بصاع بره، بصاع تمره، بدرهمه، بديناره، يتصدق ويضع المال أمام الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فبقي المال كالجبال أمام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسرت أسارير وجه النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ظهر السرور على وجهه مما رأى هذه الأموال الطائلة التي جاءت صدقة على الفقراء، فلمّا سر النبي -صلى الله عليه وسلم- وفرح بهذا المال، قال للرجل الأولي الذي تصدق أولاً، الذي سارع في الخيرات، الذي تسابق وأتى بالصدقة المعلومة المعهودة أولاً، قال: (من سن سنة حسنة)؛ يعني من سارع في هذه السنة، من أظهر هذه السنة، من أظهر هذه الصدقة التي ماتت بينكم والفقراء بينكم، من أظهر هذه الصدقة (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها). يعني لما وضع المال أمام الرسول وجاء الناس يضعون المال أمام الرسول، أخذ هو أجر هؤلاء الذين اقتدوا وائتسوا به بعدما أحيا هذه السنة.

فنقول هذا السياق يبيّن لنا أن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سن سنة)؛ يعني من أحيا هذه السنة، من فعل هذا الفعل الذي أمرتكم به وائتسوا به الناس، له أجر ما فعل وللذين فعلوا مثل ما فعل وائتسوا به لهم نفس الأجر. فمن النظر السياق يبين لنا أن هذا الحديث جاء ليس عن سنة جديدة، بل جاء إحياء لسنة معينة وهي الصدقة على الفقراء.

من الأثر الحديث: (من أحيا سنة)، ومن النظر أن سياق الحديث كل الحديث: سياقه في رجال كانوا من الفقراء ومن الفقر بمكان وما تصدق عليهم أحد، فلمّا استحث النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس على الصدقة قام رجل وأخذ المال الذي بيده ووضعه أمام النبي -صلى الله عليه وسلم-، فوضع الناس أموالهم أمام النبي كما فعل الرجل فمدحه

النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (من سن سنة حسنة) يعني (من أحيا هذه السنة فله أجرها وأجر من عمل بها).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله عنا خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم.

الدرس الخامس عشر: باب ما أمر به من اتباع السنة وسنة الخلفاء الراشدين

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك، نسأل الله إتمامه وأن ييسر لنا ذلك. بلغنا في كتاب السنة لابن أبي عاصم إلى باب: ما أمر به من اتباع السنة وسنة الخلفاء الراشدين.

بسم الله والحمد لله، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: باب: ما أمر به من اتباع السنة وسنة الخلفاء الراشدين:

وعن العرباض بن سارية قال -وكان من البكائين-: صلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلاة الغداة ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها الأعين ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع؟ فقال: (اتقوا الله وعليكم بالسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء من بعدي الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة).

وعنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من بقي بعدي منكم فسيرى اختلافاً شديداً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ).

وعن ابن مسعود قال: (وعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ).

وعن العرباض بن سارية قال: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ).

هنا المصنف يقول ويشوق القلوب: سأذكر لكم جملاً من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- بالحث على اتباع سنته، لأن النجاة والفلاح والنجاح لا يكون إلّا باتباع سنته ثم سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وهذا يكون إذا بحثنا عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم نجد، فوجدنا سنة للخلفاء الراشدين. ثم بعد ذلك أتى بموعظة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتخول أصحابه بالموعظة حتى لا يملوا، يعني لا يزيد عليهم في الموعظة في يوم أو يومين أو ثلاث، يعظ أصحابه إمّا تشويقاً للقلوب بالترغيب والترهيب تارة، وبالسؤال والجواب تارة. فكان يعظ أصحابه، ويفتش عن الإيمان في قلوبهم يزيده ويثبته بما يذكر لهم من أخبار الأمم السابقة وبما يحدث بعد ذلك أو لاحقاً، وما يحدث يوم القيامة عرصات يوم القيامة، وأيضاً ما يحدث في القبر، ثم بعد ذلك ثواب المتقين والمحسنين وعقاب الفاسدين الضالين.

أتى المصنف بحديث عظيم جداً جليل ألا وهو حديث العرباض بألفاظ مختلفة، وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا الله وعليكم بالسمع والطاعة)، في رواية: (عليكم بتقوى الله وبالسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً)، بمعنى لو تأمّر عليكم عبد حبشي، في رواية: (كأن رأسه زبيبة، وأنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً).

أولاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم)، اسم فعل أمر بمعنى "الزموا"، وهذا للوجوب، يجب عليكم، يعصي ويأثم من خالف ذلك. (عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة)؛ وصيتان عظيمتان جليلتان بهما سعادة الدنيا والآخرة:

١- أولهما قوله: (عليكم بتقوى الله)؛ هذه فيها سعادة الآخرة، تضمن لك سعادة الآخرة، لأن بتقوى الله يوفق العبد ويسدد ويكون من المهديين، وإن الله جلَّ في علاه يحب المتقين وإن الله لا يتقبل إلّا من المتقين كما قال ابن عمر -رضي الله وأرضاه-: لو تقبل الله مني سجدة لخررت لله ساجداً، فإن الله لا يتقبل إلّا من المتقين. فالمتقون لهم جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، هذه سعادة الآخرة.

وسعادة الدنيا بانتظام أمورهم، ولا يكون ذلك إلّا بالسمع والطاعة لولاة الأمور كما قال علي بن أبي طالب: إن الناس أحوج ما يكونوا إلى ولي الأمر ينتظم به أمور حياتهم أو سلك نظامهم سواء كان باراً أو فاجراً؛ أمّا إن كان باراً فهي مشهودة ومعلومة ولا تحتاج لتفصيل، وإن كان فاجراً فعليه فجوره ولكم بره ولكم انتظام حياتكم بهذا الولي كما سنفصل.

(عليكم بتقوى الله) هذه وصية من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأوجز ما نقول فيها أنها وصية الله جلَّ في علاه، وهذه دلالة على أن وحي السنة هو من وحي القرآن، قد قال الله تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) [النساء:131]، وما من آية إلّا والله جلَّ وعلا يقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) [الحج:1]، ويقول الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة:21]، ويقول جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]، فهذه وصية الله جلَّ في علاه ووصى بها النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأوجز ما يشرح أو يفسر به أو يعبر عن التقوى قول بعض علمائنا أنهم قالوا:

- التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله يرجو ثواب الله؛ أجمع ما يقال فيها لأنه جمع بين العمل بطاعة الله وليس على جهل بل على علم. فالعمل بطاعة الله على علم هذه الشق الأول التي بها يتقبل الأعمال عند الله جلَّ في علاه، ألا وهو صلاح الأعمال، وصلاح الأعمال لا يكون إلا بالاتباع.

- والثانية قال: العمل على طاعة الله بنور من الله؛ يعني بعلم على بصيرة.

- الثالث قال: يرجو ثواب الله؛ يعني الإخلاص لله جلَّ في علاه، وأيضاً اجتناب ما حرم الله جلَّ في علاه على نور من الله، يخاف عقاب الله جلَّ في علاه.

والتقوى يمكن أن تفسر أيضاً بما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتقِ النار ولو بشق تمرة)؛ أن تجعل بينك وبين النار حجاباً، أو أن تجعل بينك وبين النار وقاية، وهذه الوقاية بفعل المفروض والانتهاء عن المحرم، فمن زاد زاد إلى الارتقاء إلى الإحسان. (عليكم بتقوى الله)؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أرحم الأمة بالأمة وأشفق الأمة بالأمة وأرفق الأمة بالأمة، ينصحهم ويعظهم ويرشدهم إلى ما فيه فلاحهم في الدنيا وفي الآخرة.

٢- (عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة)، السمع والطاعة لمن؟ لولاة الأمور. قال: (وإن كان)، يعني لو تأمر عليكم عبد حبشي ما عليكم إلّا السمع والطاعة. وهذه أيضاً منبثقة من قول الله ومن حث الله على السمع والطاعة لولاة الأمور؛ قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) [النساء:59]، يعني وأطيعوا أولي الأمر منكم لكن لم يجعلها مستقلة كما سنبين. وفي الصحيح عن ابن عمر وعن أبي هريرة وعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنهم أجمعين-: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره)، حتى ولو كان هذا الأمر من ولي الأمر تكرهه أنت ما عليك إلّا أن تؤدي حقه وهو السمع والطاعة. وعن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بالسمع والطاعة في المنشط والمكره، في العسر واليسر)، وأيضاً قال عباد بن الصامت: (بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع الطاعة في عسرنا ويسرانا، وفي منشطنا ومكرهنا، وألّا ننازع الأمر أهله).

بل ارتقت الأحاديث تبين أن معصية ولي الأمر كمعصية الله جلَّ في علاه، بل هي معصية لله ومعصية للرسول -صلى الله عليه وسلم-، كما صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من أطاع أميري)؛ يعني من وليته أو ولّاه خليفتي أو ولّاه من أخذ بسنتي، (من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصى أميري فقد عصاني، ومن عصاني فقد عصى الله جلَّ في علاه). حتى أن الفقهاء بعد ما نظروا في كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- بالحث على السمع والطاعة لولاة الأمور، ونظروا فوجدوها أنها عبادة لله وأنها حق لله، سأل سائل فقال: لو ظلموا؟ لو فجروا؟ لو فسقوا؟ قيل له: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- إجابة على ما تستشكل علينا قال: (ولو ظلموا ولو فسقوا ولو فجروا عليك أيضاً بالسمع والطاعة).

لأن الحق حقان: حق عليك وحق لك، ما عليك إلّا أن تؤدي ما عليك، وإن بخست هذا الذي لك اسأل الله جلَّ في علاه ما لك، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فإن ضرب ظهرك) فسقاً وظلماً وفجوراً (وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فعليك السمع والطاعة)، وهذا حديث كالشمس إسناده في صحيح مسلم. وسئل سؤالاً صريحاً: لو كان الأمراء يؤخرون الصلاة؟ لو كان الأمراء يفسقون ويفجرون؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أدِّ ما عليك)، ما هو الذي عليك؟ السمع والطاعة، قال: (أدِّ ما عليك، وسل الله ما لك)، فإن كان هذا الموضع موضع ولي الأمر والسمع والطاعة له.

فلذلك العلماء بعد ما نظروا في هذه الأحاديث والحث على السمع والطاعة، والعقوبة الشديدة على من عصى ولي الأمر أنها معصية لله ومعصية للرسول، نظر في الأمور المباحة غير الشرعية، أمور لم يأتِ الشرع بها، فأمر بها ولي الأمر أمراً، هل يُسمع له ويُطاع مع أنها لا توافق الشرع ولا تخالف الشرع؟ هل يُسمع له ويُطاع ويكون فيها الإثابة أو العقاب؟

الصحيح الراجح في ذلك -وهذا الذي ندين الله به- أنه لو أمرك بأمر، هذا الأمر لا يدخل تحت إطار الشرع، لا فيه موافقة ولا مخالفة، وجب عليك السمع والطاعة وإن لم تسمع وتنفذ أو تطيع فأنت آثم، مع أن المسألة لا تدخل في إطار الشرع. نعم لا تدخل في إطار الشرع، لكنها دخلت من باب آخر بأمر الله: (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) [النساء:59]، وبأمر النبي: (عليك السمع والطاعة). طالما لم يخالف شرع الله جلَّ في علاه فعليك السمع والطاعة، ولذلك اندهش الأخ الكريم لمّا بينت له من خالف إشارة المرور وعدّى عليها وهي حمراء هذا ممكن يدخل في الإثم، بل أنا أثق انه دخل في الإثم لأنه خالف ولي الأمر في أمور إدارية، وهذه الأمور وإن كانت تنسيقية لا تدخل في إطار الدائرة الشرعية، نحن نقول يأثم بها أو يؤجر بها ويثاب بها لأنه يأتمر بأمر الله: "وأطيعوا ولي الأمر"، يأتمر بأمر رسول الله: "عليك السمع والطاعة لولي الأمر". هذه في الأمور المباحة وهذه استشكلها بعض الفقهاء ورجحت كفة الجمهور بأنهم قالوا: من عصى ولي الأمر في الأمور المباحة فإنه يأثم، لأن الأمر المباح إذا أمر به ولي الأمر يكون لازماً.

هذه الأدلة وهذه الآثار التي تحث الأمة على السمع والطاعة هل هي على الإطلاق في كل شيء؟ نقول: لا، إن الله لم يجعلها مطلقة بل قيدها بقيد وألمح بها في كتابه، ثم صرح بها رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

أمّا ما ألمح بها الله جلَّ في علاه إشارة في كتابه، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) [النساء:59]، ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر لكن قال: (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ)؛ هذه فيها إشارة عظيمة جداً على أن طاعة الله مستقلة وطاعة رسول الله مستقلة، لكن طاعة ولي الأمر ليست مستقلة بل هي تابعة. كأن الله جل وعلا يبين أن طاعة ولي الأمر مع أنها ملزمة، مع أنها واجبة عليكم، لكنها خاضعة لأمر الله أو لاتباع الله واتباع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقد جاءت هذه الاستنباطات صريحة في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، في حديث ابن عمر يلزمه: (على المرء السمع والطاعة في المنشط والمكره) أو (فيما أحب وكره)، ثم قال: (إلّا أن يؤمر بمعصية)؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إلّا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بالمعصية فلا سمع ولا طاعة. وأيضاً في حديث ابن عمر في رواية أخرى قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الطاعة في المعروف)؛ مفهوم المخالفة، وهذا أسلوب حصر، معنى أنه إذا أمرك ولي الأمر بأن تعصي ربك فلا سمع ولا طاعة، وإنما الطاعة بالمعروف. لا سمع ولا طاعة في المعصية، فإن أمرك بطاعة فعلى الرحب والسعة، وإن أمرك بمعصية فلا سمع ولا طاعة.

قدر أن هذا التأصيل العلمي جاءك بأنه يلزمك السمع والطاعة، فأمرك ولي الأمر بمعصية الله جلَّ في علاه، أو بمعصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو أمره به مخالفة صريحة لله ومخالفة صريحة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم. أقول: لا سمع ولا طاعة، لكن بعد ما نقول لا سمع ولا طاعة، نقول: نقيد "لا سمع ولا طاعة" بقيد وشرط ألا وهو: (لا تشق عصا الطاعة ولا تنزعن يداً من الطاعة) بحال من الأحوال.

ماذا تفعل؟ تكف نفسك وتدخل بيتك وتبكي على خطيئتك وأنت إن استطعت أن تصل إلى ولي أمرك سراً فعليك المناصحة لزوماً ووجوباً، يعني لو كنت من المقربين أو كنت تعلم أحداً من المقربين فلم تبلغه بالنصيحة فأنت آثم عند ربك جلَّ في علاه، بل إثمك إثمه وموافقاً له على هذه المعصية. هذه الأولى أن تقول: لا سمع ولا طاعة ولا تنزعن يداً من الطاعة ولا تشقن العصا ولا تخرج بلسانك ولا تخرج بطائفة على ولي الأمر لأن هذا ممنوع البتة، ما عليك إلا أن تسمع وتطيع، وفي المعصية تقول: لا سمع ولا طاعة ثم تناصح وتراسل.

إن لم تستطع إلى ذلك سبيلاً فعندك باب آخر يمكن أن تصل به إلى ولي الأمر وهو رفع اليد بالدعاء في السحر؛ كما قال الإمام أحمد بعد ما عذب وسلسل في مسألة خلق القرآن وفتنة خلق القرآن، وجاء العامة الدهماء يقولون: نخرج عليه؟ قال: لا والله لو كانت لي دعوة مستجابة لخبأتها لولي الأمر. فعليك أن تدعو له سحراً فقط، هذا الذي عليك، ولا تسمع ولا تطيع في معصية الله جلَّ في علاه، وهذا دأب الصالحين من قبلنا ودأب الخلفاء الراشدين الذي حث النبي -صلى الله عليه وسلم- على اتباعهم. أبو بكر بعد ما استخلف قام خطيباً في الناس ثم قال: أيها الناس أطيعوني ما أطعت الله فيكم؛ مفهوم المخالفة: إن عصيت الله فيكم فلا سمع ولا طاعة لي عليكم، وهذا أيضاً قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-، فهذا دأب الصالحين من قبلنا نسير على دربهم، وهذه وصية النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا.

أخيراً أقول بهدي من النبي -صلى الله عليه وسلم- وبالسير على درب النبي -صلى الله عليه وسلم-: إن القلب يصفّوا وإن دغل القلب ينتفي بمناصحة ولاة الأمور لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم)، قال من الثلاث: (والمناصحة لولاة الأمور).

(عليكم بتقوى الله وبالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي)؛ هذه نبوءة من النبي -صلى الله عليه وسلم- على أنه حتى لو وسد الأمر لغير أهله ما عليك إلّا أن تسمع وتطيع. (وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً)؛ هذه أيضاً من دلائل نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما سنبين بالفوائد المستنبطة أن الاختلاف سيقع بين هذه الأمة سيقع، وهذا موافق لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ستفترق هذه الأمة على

ثلاث وسبعين فرقة)، وقد شرحنا هذا الحديث. المهم والغرض المقصود قد تنبأ النبي بالفرقة وبالاختلاف، وقد حدثت الفرقة وحدث ونجم الاختلاف.

(وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً)؛ "ما سبب الاختلاف؟" هذا السؤال لابد أن يطرح: ما سبب الاختلاف بين الأمة؟ مع أنها أمة واحدة تنزل تحت لواء واحد، تسمع لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تتعلم من رسول الله، لِمَ الاختلاف؟ كأن الإجابة تأتي بعدها: إذا نظرت إلى عجز الحديث ترى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فعليكم بسنتي)، هذه إجابة على السؤال وأيضاً حل للمشكلة؛ كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: وسبب اختلاف هذه الأمة أنهم ما عضوا على سنتي بالنواجذ، لأنه قال: الإجابة "عضوا على سنتي بالنواجذ".

والاختلاف بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فسيرى اختلافاً كثيراً)؛ الاختلاف نوعان أو قسمان: اختلاف في الأصول، واختلاف في الفروع.

♦ أمّا الاختلاف في الأصول فهذا لا يكون بين أهل السنة والجماعة مع بعضهم البعض أبداً، الاختلاف في الأصول يعني اختلاف في العقائد، في المسائل العقدية، هذا لا يكون إلّا بين أهل السنة وأهل البدعة؛ كالذين يشبهون الله بخلقه، يقولون له اليد كيد محمد مثلاً أو يد زيد، يقولون له رجل كرجل البشر. هذا الخلاف لا يقع أبداً قط بين أهل السنة والجماعة، لكن يقع بين أهل السنة وبين أهل البدعة؛ فإن رأيت طائفة خالفت قول أهل السنة والجماعات في العقائد، فاعلم أنها فرقة من الثلاثة والسبعين الذين يعتقدون في الأولياء ويرفعونهم لدرجة النبوة، بل فوق درجة النبوة، بل يصلون بهم إلى درجة الربوبية، فهذا أيضاً من الطوائف البدعية.

فإذاً الخلاف خلافان: خلاف في الأصول يعني في العقائد، وخلاف في الفروع الفقهية. الخلاف في الأصول لا يمكن أن يكون بين أهل السنة بعضهم البعض، بل هو بين أهل السنة وبين أهل البدع. وهذا الخلاف أخذنا دهراً نشرح فيه ونتكلم عليه، وقد رددنا على طائفة المعتزلة وعلى الجهمية، وعلى أيضاً الطائفة الذين يغلون في أولياء الله الصالحين، ورددنا أيضاً على المرجئة الذين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب ولا ينفع مع الكفر معصية. أيضاً الذين ينكرون أمراً قد حدث أو قد ثبت بالتواتر، والتواتر يلزم لنا عقيدة بنزول عيسى مثلاً، الذين ينكرون نزول عيسى هذه من قول من أقوال أهل البدع ومن طوائف أهل البدع، أو الذين ينكرون وجود المهدي أو خروج المهدي هذا القول قول لأهل البدع. وإن تكلم به أحد من أهل السنة والجماعة لا بد أن يرد عليه ويعلم ويتعلم أن احاديث المهدي وصلت وبلغت التواتر، فمن أنكره فقد قال بقول أهل البدع وإن لم يكن من أهل البدع، لكن لا بد أن يعلم أن هذه الأحاديث بلغت التواتر. فإذاً

الخلاف الأول: خلاف في العقائد، وهذا الخلاف خلاف في الأصول لا يكون بين أهل السنة بعضهم وبعض.

♦ النوع الثاني من الخلاف: خلاف في الفروع؛ والخلاف في الفروع يمكن أن يكون بين أهل السنة بعضهم البعض لقول الله تعالى: (وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) [هود:119]، ولقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما كان يقوم في ليله ساهراً يتعبد لله جلَّ في علاه فيدعو وهو يقنت ويقول: (واهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك)، فكان يدعو الله أن يهديه الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وهذه تعليم الأمة بأسرها وفيها دلالة على أن الاختلاف سينجم الاختلاف سينجم. والاختلاف في الفروع بين أهل السنة والجماعة، الاختلاف كثير بين أهل السنة والجماعة لكن في الفروع، في التطبيقات العملية لا التطبيقات العلمية، يعني ليس في الأصول.

وهذا الخلاف أيضاً نوعان: خلاف معتبر، وخلاف غير معتبر؛ وهي تطبيقاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً).

اختلاف في العقائد؛ هذا لا بد أن تقول: من خالفنا في العقائد فهو من أهل البدع والضلالات. اختلاف في الفروع؛ هذه تقع بين أهل السنة والجماعة، فيها المناصحة كما سنبين، وفيها أيضاً الرد وعدم القبول، هو أيضاً قسمان: خلاف معتبر وخلاف غير معتبر.

١- الخلاف المعتبر: نجم الخلاف عن وجود الأدلة مع الفريقين؛ طائفة تقول حلال وطائفة تقول مكروه، وطائفة تقول مكروه وطائفة تقول حرام. هذا الاختلاف كلٌ معه دليله، فهذا الخلاف لا يوجب مشاحنة ولا يوجب بغضاء، بل لا يوجب الإنكار، لا تنكر على من خالفك في مسألة ومعه دليل، لكن لك أن تبين الراجح والمرجوح، وتبين ما تدين الله به. والأمثلة كثيرة في الاختلاف المعتبر الذي جاءت فيه الأدلة، واختلاف الأفهام هو الذي وصل بالناس إلى هذا الاختلاف؛ كالشرب قائما مثلاً، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- وردت عنه أحاديث ينهى عن الشرب قائماً، ووردت في أفعاله أنه شرب قائماً، فنجم الخلاف بين العلماء في النظر إلى الحديثين:

- النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أنس: (أنه رأى رجلاً يشرب قائماً، فقال له: أتريد أن يشرب معك الهر؟ قال: لا، قال: إذاً يشرب معك الشيطان)؛ فهذا نهي صريح من النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يشرب معك الشيطان، فأنت لا بد أن تسمو ولا يشرب معك الشيطان، بل جاء في حديث مصرحاً؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من شرب قائماً فليستقئ)، هذه فيها دلالة على حرمة الشرب قائماً. فأخذ وعض بالنواجذ بعض العلماء على هذا الحديث لأن ظاهره أن النبي -صلى الله عليه وسلم-

قال: (يشرب معك الشيطان) و(استقئ)، هذا من الدلالة بمكان على أنه حرام الشرب قائماً.

- نظر بعض الناس فوجدوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ورد عنه أنه شرب قائماً من شن معلقة قربة صغيرة، معلقة شرب منها قائماً. فلما نظروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يشرب من شن المعلقة قالوا: هذه الشن المعلقة لو كان الشرب قائماً محرماً لأخذها النبي -صلى الله عليه وسلم- وجلس وشرب، لا سيما وأنه لا يضره أن يفعل ذلك، هل يصعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ القربة ويشربها جالساً؟ لا يصعب، لا مشقة هنا حتى لا تقول الضرورات تبيح المحظورات. لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- شرب قائماً ليبين للأمة أن النهي الذي ورد عنه على الكراهة وليس على التحريم.

منهم من أخذ بظاهر القول فقال حراماً، ومنهم من أخذ بالكراهة، ولا مشاحنة ولا بغضاء ولا إنكار على من قال بالشرب قائماً أنه على الكراهة، ولا أيضاً إنكار على من قال حراماً، لكن عليك أن تناصح وتناظر فيما هو الراجح والمرجوح.

ومثال ذلك أيضاً الصلاة قائماً مع جلوس الإمام، هذه نجم خلاف بين العلماء في هذه المسألة:

- بعض العلماء نظر فوجد النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً كما يصلي جالساً)، فإذا صلى الإمام جالساً وجب على الناس بهذا الحديث أن يصلوا جلوساً وإن كانوا مستطيعين. ماذا نفعل بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (صلِّ قائماً) وهذا أمر؟ نقول: هذا عام مخصوص بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فصلوا جلوساً كما صلى الإمام جالساً، إنما جعل الإمام ليؤتم به)؛ فأخذ بعض الناس بهذا الحديث وقالوا: إذا صلى الإمام جالساً لمرض أو لوعكة فيه، على المأمومين وإن كانت عندهم الاستطاعة أن يصلوا جالسين، وهذا قول الحنابلة.

- وجاء الجمهور فنظروا فقالوا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ورد عنه الفعل بأنه صلى جالساً وأمر من خلفه أن يصلوا جلوساً، ثم صلى جالساً مؤخراً في آخر حياته وأمر الناس أن يصلوا قياماً، فوجد أن هذا ناسخ لهذا.

بمعنى أنهم نظروا وجدوا النبي -صلى الله عليه وسلم- في مرض صلى جالساً فصلى الناس خلفه قياماً، فأشار إليهم أن اجلسوا فصلوا جلوساً، ثم نهاهم بعد ذلك وقال: (لا تفعلوا فعل الأعاجم، لو كان الإمام يصلي جالساً فاجلسوا كما يصلي)، وهذا فقه؛ جلسوا

مع أنهم يستطيعون، وهذه يلغز فيها عند الفقهاء متى يصح للإنسان أن يصلي جالساً وهو مستطيع؟ يلغز في هذه المسألة نظر الجمهور لهذا الفعل، قالوا: نقول به.

ثم نظروا في آخر الأمر وجدوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في مرض موته خرج يتهادى بين الناس وكان أبو بكر قد صلى بالناس، فوضع على يمين أبي بكر فأتوا به، فكان أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- على يمينه فصلى النبي -صلى الله عليه وسلم- جالساً وصلى أبو بكر قائماً بصلاة النبي جالساً، ولم يجلس أبو بكر والناس يصلون بصلاة أبي بكر قائماً.

فاختلفت الأنظار بين العلماء في أيهما نأخذ؟ فقالت الحنابلة: لا، إذا صلى الإمام في وعكة فليصلوا جلوساً إذا صلى جالساً. وقال جمهور: هذا الحكم قد نسخ. هذا الخلاف خلاف معتبر لسنا بصدد الفصل في الفقه، لكن الصحيح الراجح كلام الحنابلة، لكن في قيد معين: أنه لو دخل الإمام متعباً مريضاً فصلى من بداية الصلاة جالساً فعلى المأمومين الجلوس حتى ولو كانوا يستطيعون القيام، أمّا إذا صلى إمام غير راتب قائماً وجاء الإمام المريض وجلس، لا يتموا الصلاة. المسألة ينظر فيها على حسب بداية الصلاة؛ إن بدأ جالساً يبدؤون معه جالسين، وإلّا فلا بد من الصلاة قائماً. الغرض المقصود، هذا نظر من أنظار العلماء لا مشاحنة فيه ولا إنكار.

مثلاً سفر المرأة إلى الحج بغير محرم؛ هذه المسألة أيضاً تدخل تحت إطار الخلاف المعتبر، وهذا الخلاف جاء معتبراً لأن لكلٍ دليله وليس فيه إنكار ولا مشاحنة، لكن تبين الخلاف وتبين الراجح عندك وتدين الله بذلك. الرجل الذي أخذ بالثاني لا إنكار عليه إن وجد أن هذا العلم مع الثاني أو التقى مع الثاني أو الأورع مع الثاني، يأخذ به لا إنكار فيه. إذاً هذا الخلاف المعتبر كلٌ له دليله، فالمرأة إذا سافرت بغير محرم:

- نظر العلماء فوجدوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله)، أناط الإيمان بالسفر مع محرم، (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة ثلاثة أيام (وفي رواية: يوم وليلة)، بغير ذي محرم). فوجدوا أن السفر بغير محرم حرام سواء في الحج أو في غير الحج، لأن الحديث عام، والقاعدة عند العلماء: يبقى العام على عمومه ما لم يأتِ مخصص يخصصه. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل لامرأة أن تسافر سواء في الحج أو في غير الحج عام إلّا مع ذي محرم).

- ونظر الشافعي ومن قال بقوله كمالك وغيره، نظروا فوجدوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال وهو يصف خبراً سيأتي بعد ذلك: (لتمرنّ الظعينة من حضرموت إلى الحجاز فتطوف بالبيت لا تخشى إلّا الله والذئب على الغنم). قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يخبر بأنه سيأتي زمان يكون فيه الأمان، فنظروا بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنها لا تخشى إلّا الله والذئب على الغنم)، فعلموا أن علة عدم سفر المحرم مع

المرأة هو الأمان؛ فمنهم من عمم في كل سفر، وما أحد عمم في كل سفر إلّا ابن كج من الشافعية، وخطأه كل الشافعية لأنهم قالوا: الشافعي لم يقل في سفر المرأة بغير محرم إلّا في الحج فقط ولم يعمم المسألة. ولذلك بعض المعاصرين عمم المسألة، وهذا ليس بصحيح.

والمالكية نظروا في ذلك قالوا: إذا كانت الصحبة آمنة وتطوف بالبيت لها أن تذهب تحج لأن الله جلَّ وعلا أيضاً بعموم القول قال: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ)، يدخل فيها الذكر والأنثى ولم يفصل، وترك الاستفسار في مقام الاحتمال، ينزل بمنزلة العموم سواء مع محرم أو ليس معها محرم، (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) [آل عمران:97].

نظر العلماء واختلفوا في هذه المسألة؛ فمنهم من قال: إذا حجت بغير محرم آثمة وحجها صحيح، وكثير من الشافعية والمالكية قالوا: لا، تحج من غير محرم يصح ذلك. دعك ما هو الذي نرجحه لكن نحن نقول هذا الخلاف يسمى خلافاً معتبراً، ومعنى الخلاف المعتبر حتى نتأدب بآداب الخلاف ونعيش مع قوله -صلى الله عليه وسلم-: (من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً). معنى الاختلاف المعتبر: هو أنه لا إنكار فيه ولا مشاحنة ولا إشهار السيوف ولا الألسنة الحادة فيمن خالفنا، لا والله هذه المسائل المعتبرة المختلف فيها، المعتبرة التي فيها الأدلة لا بد أن نقول الخلاف جاء معتبراً ولا مشاحة في ذلك، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب القبر. هذا النوع الأول.

(من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)؛ اختلاف عقدي، والاختلاف العقدي لا هوادة فيه، لا بد من الضرب على الرأس في الاختلاف العقدي لأنه تضييع للدين. أمّا الاختلاف في الفروع نقول: لا مشاحة ولا غضاضة في ذلك.

٢- النوع الثاني خلاف غير المعتبر هو خلاف التضاد كما سنبين في التعريف الثاني، الخلاف غير المعتبر: هو الخلاف الذي ليس عليه ثمة الدليل؛ المخالف ليس معه لا نظر رجيح ولا حديث صحيح أو معه حديث صحيح أجمعت الأمة على بطلان العمل به إمّا بالنسخ وإمّا على عدم العمل به إجماعاً من الأمة. مثال ذلك من المسائل التي لم يكن فيها الخلاف فيها معتبراً ولابد فيها من الإنكار:

- مسألة ربا الفضل؛ نجم فيها خلاف في عصر النبي، قال بعض العلماء، ومنهم ابن عباس وأسامة بن زيد وابن عمر وابن مسعود، يعني ثلة من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالوا: بأن ربا الفضل ليس فيه ثمَ شيء. يعني أن تعطي الدرهم بدرهمين أو تعطي الذهب جرام بجرامين يجوز ذلك، واستدلوا على ذلك بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا ربا إلّا في النسيئة)؛ نفي الربا كله إلّا في مسألة النسيئة أو التأخير، أمّا الفضل يداً بيد وفيه زيادة يجوز ذلك، هذا الذي نجم بين الصحابة. أجمعت الأمة

بعده على أنه لا خلاف، وأن الربا في الفضل والربا في النسيئة لأنه لا حجة في قول أحد مع قول النبي: (الذهب بالذهب ربا إلّا أن يكون يداً بيد، مثلاً بمثل، سواءً بسواء، هاءً وهاء)، فأجمعت الأمة بعدها أن ربا الفضل لا خلاف فيه.

هنا من جاءنا وقال: سنأخذ بقول أسامة بن زيد، يعجبني قول ابن عباس والخلاف فيه ويقول إن ربا الفضل يجوز أن تعطي الدولار القديم بثلاثة من الجديد أو تعطي خمسة أو ستة أو ذهب مكسر بذهب جديد والجرامات تختلف، يقول بأنني أقول بقول ابن عباس. نقول: أنت ضال لأنك خالفت إجماع الأمة، وهذا الخلاف ليس معتبراً، بل لا بد من الإنكار عليك ولا بد بعد تعليمك إن أصررت على ذلك، التشهير بك حتى لا يؤخذ بقولك.

- أيضاً من ذلك نكاح المتعة؛ نكاح المتعة هذا ليس فيه خلاف معتبر بحال من الأحوال، الخلاف الذي نجم أيضاً بين الصحابة كان من فهم ابن عباس أنه لما سئل على مسألة المتعة لم يبحها مطلقاً، بل قال: (نكاح المتعة كالميتة للمضطر)، بمعنى رجل سافر في مكان وما عنده امرأته وسيموت، يزني أم ينكح نكاح المتعة؟ فقال: ينكح نكاح المتعة حتى لا يقع في الزنا الصريح، وهذه تعتبر شبهة، فابن عباس جعلها كالميتة للمضطر.

فنقول هذا الخلاف نجم بين ابن عباس وبين العلماء؛ لمّا جاء الصحابة وسمعوا هذه الفتوى من ابن عباس حتى نبين أن هذا الخلاف ليس خلافاً معتبراً قامت القائمة على ابن عباس والحرب الضروس على ابن عباس، بل قام عبدالله بن الزبير يخطب في الناس ويقول: ما لي أرى أقواماً أعمى الله بصيرتهم كما أعمى أبصارهم؛ وهذه شدة على حبر الأمة وبحر الأمة وبحر العلوم، لكن هذه الشدة حفاظاً على سنة النبي، حفاظاً على شرع الله. قام عبد الله بن الزبير فقال ذلك يقصد ويلمح على ابن عباس أنه أباح نكاح المتعة، قال: ما لي أرى أقواماً أعمى الله بصيرتهم كما أعمى أبصارهم يقولون بنكاح المتعة. فقام ابن عباس رداً عليه فقال: ما لي أراك جلفاً أعرابياً فظاً غليظاً، ماذا تقول؟ قال: افعلها ولأرجمنك وسط الناس. الغرض المقصود؛ اشتد نكير الصحابة على قول ابن عباس.

فمن جاءنا اليوم وقال إنه يأخذ بقول ابن عباس أو يقول بنكاح المتعة، قلنا هذا الخلاف خلاف تضاد ليس خلاف تنوع، ليس خلافاً معتبراً، لا يأتي معتبراً، لا بد أن نأخذ على يد من يفتي بذلك وأن هذا لا يجوز وأنه حرام وليس بخلاف معتبر.

بعض العلماء وسّع وقال: نقول إن الخلاف نوعان: خلاف تنوع وخلاف تضاد، وخلاف التنوع أوسع.

▪ ومعنى خلاف التنوع: أن تأتي السنن كثيرة؛ مرة -صلى الله عليه وسلم- الوتر في أول الليل، مرة صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- الوتر في آخر الليل، مرة -صلى الله عليه وسلم- الوتر في نصف الليل. أي هذه الأفعال السنة؟ أول الليل أم وسط الليل أم آخر الليل؟ نقول: يصح لنا أن نقول هنا الخلاف هذا خلاف تنوع، ليس خلاف تضاد؛ يعني لك أن تصلي في أول الليل وتكون سنة، ولك أن تصلي في وسط الليل وتكون سنة ولك أن تصلي في السحر وتكون سنة، هذا الذي يسمى خلاف التنوع. مثلاً كصلاة الضحى؛ ركعتين أم أربع أم ست أم ثمانية أم اثنا عشر؟ فنحن نقول أيضاً هذا من باب الخلاف التنوع وليس خلاف التضاد.

▪ وخلاف التضاد فيه حرام وحلال؛ مثّلوا له شراب النبيذ: نبيذ العسل أو نبيذ الشعير أو نبيذ التمر أو نبيذ العنب. النص جاء في حرمة شراب نبيذ العنب، حصل الإجماع أو اتفاق الأئمة على حرمة شراب المسكر من نبيذ العنب، لكن لو هناك نبيذ للتمر أو نبيذ للشعير جوّزه الأحناف، ما جوزوه على الإطلاق، جوّزه حتى لا يبلغ مقام الإسكار، فإن أسكر فهو حرام عندهم، لكن ممكن يشرب منه الفم أو اثنين أو ثلاثة دون أن يسكر، له أن يشرب ذلك. نحن نقول هذا الخلاف لا يأتي خلافاً معتبراً، بل هو خلاف تضاد، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- حسم المادة وقال: (كل مسكر خمر، وكل خمر حرام). فهذا يعتبر خلاف تضاد وليس خلاف تنوع، ولا يجوز لأحد يقول أنا سآخذ بكلام الأحناف الآن.

ومثال ذلك أيضاً قول الأحناف أن المؤجرة تنزل منزلة الأمة، كقول شاهد عند الأحناف؛ واحد ممكن يخرج ويقول: هذا قول الأحناف والخلاف بين الأمة النبي -صلى الله عليه وسلم- قد نبأ به ونأخذ به، فيؤجر امرأة ويجعلها أمة، يعني يطأها كالأمة، فهي أمة عندنا. فنقول: لا، هذا الخلاف لا يمكن أن يكون خلافاً معتبراً.

وأيضاً كما قال الذهبي وذيل واشتد على الأحناف في هذه الفتوى؛ إذا ذهب مسلم في بلاد كفر، وهي أرض كفر وبها أهل الكفر، قال: يحل له أموال أهل الكفر ونساء أهل الكفر. أمّا أموال أهل الكفر قال بها الشوكاني في السيل الجرار، وهذه فتوى لا تجوز في حال من الأحوال، بل إذا دخلت بأمان عند أهل الكفر وجب عليك أن تعطيهم الأمان لأنك طلبت منهم الأمان فأعطوك الأمان، وإن خنت فأنت خائن، وإذا خنت فانت عقابك عند الله شديد، تأتي بلواء الغدر يوم القيامة. فهو يقول ممكن أن يستبيح المرأة هناك أو يستبيح الفروج هناك على أنها محاربة، وعلى أنها من أرض الكفر، وهذا لا يجوز بحال من الأحوال، ولا يجوز أن يقول أنا آخذ بقول الأحناف هنا لأن الخلاف هذا خلاف تضاد وليس خلاف تنوع، لان النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أدّي الأمانة

لمن ائتمنك)، فكيف إذا أسدى لك هو الأمان وأنت تخونه؟ فالصحيح الراجح أن نقول هذا الخلاف خلاف تضاد، ولا يمكن أن يكون معتبراً.

هذا معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً). قلنا: يا رسول الله هذا الاختلاف الذي تنبأت به وقد كان وقد وقع فما الحيلة؟ ماذا نفعل مع هذا الاختلاف؟ كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين أن هذا الاختلاف سينجم ليمحص الله الخبيث من الطيب، ليميز الله جلَّ وعلا بين العالم وبين الجاهل، ليبين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الطائفة المنصورة هي طائفة واحدة، طائفة قليلة. قلنا له: يا رسول الله فما الحيلة؟ قال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)، هذا تبيين للنبي -صلى الله عليه وسلم -وحل لهذا الإشكال العظيم، ألا وهو هذا الخلاف الذي ممكن أن يوقع الأمة في متاهات، قال: حلكم ونجاتكم وفلاحكم عضوا على سنتي بالنواجذ، ثم قال: إن لم تجدوا سنتي عضوا على سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ.

فاعلم أخي المسلم، إذا رأيت اختلافاً وما رأيت أن ينحو كل مختلف مع أخيه إلى السنة، فاعلم أنهم أهل أهواء وأنهم أهل ضلال، لأن السنة هي الفاصلة في كل اختلاف. قال الله تعالى: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى:10]، (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) [النساء:59]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)، هنا حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن كل المتنازع فيه يرد إلى السنة.

قلنا: يا رسول الله جئناك وبحثنا عن السنة فلم نجدها، ماذا نفعل؟ قال: إن لم تجدوا سنتي (فعليكم بسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي). هذه طبعاً بحور شرح فيها سأرجئها إلى الفوائد المستنبطة ولعلي أوجز فيها. قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)، يبين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن كلام الخلفاء سنة ولا بد أن يؤخذ به، وفعل الخلفاء سنة لابد أن يؤخذ به، وإقرار الخلفاء سنة. لكن من هؤلاء الخلفاء؟ الخلفاء كثر، الخلفاء الذين جاءوا بعد الرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ خلفاء بني أمية، خلفاء بني العباس، الخلفاء كثر وولاة الأمور كثر. هل كلهم سنة متبعة؟ ام لهم وصف وقيد؟

النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يترك المسألة هكذا على الإطلاق بل قيدها بوصف، قال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)، وصف الخلفاء بوصفين وقيدين مهمين، قال: الراشدين أولاً، المهديين؛ والرشاد والهداية لا تكون إلّا باتباع الوحيين، كل الصحابة يتبعون الوحيين. كأن هذه الصفة ترونها جلية في الأربعة، من الأربعة؟

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، هل لك دليل على ذلك أن تقيد سنة الخلفاء الراشدين المهديين يكونوا أربعة فقط خلفاء راشدين؟ نعم قد قيدها النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا الوصف، ثم فسرها في رواية أخرى في حديث سفينة عندما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (تكون فيكم النبوة ما شاء الله)، النبي معهم ويحكم بينهم وسيحكم بينهم بما قال الله وبما نقل الشرع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، (تكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم ترفع النبوة، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)؛ هنا هو القيد والوصف، قال: (خلافة) ولم يتركها مطلقة، الخلافة المطلقة يدخل فيها كل خليفة لكن قال: (خلافة على منهاج النبوة)، ومعنى منهاج النبوة تساوي الرشاد والهداية لأن منهاج النبوة وحي الكتاب ووحي السنة، فقال: (ثم تكون خلافة فيكم على منهاج النبوة).

الخلافة على منهاج النبوة مطلقة؟ قال: لا، هي محددة بوقت. قلنا: يا رسول الله ما هو الوقت؟ تأتينا الرواية الثانية؛ قال: (خلافة على منهاج النبوة ثلاثون سنة ثم ترفع). إذا قال: (ترفع)، ما جاء بعده وإن كان صالحاً وإن كان تقياً ورعاً لكنه ليس من الخلفاء الراشدين. قال: (ثلاثون سنة)، فلنعد الثلاثين، وننظر في الثلاثين كم خليفة أتى بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-: أتى بعده أبو بكر ثلاث سنوات، عمر عشر سنوات، وأيضاً اثنتا عشرة سنة عثمان، وعلي بن أبي طالب حوالي أربع سنوات وتسعة أشهر، وثلاثة أشهر كانت للحسن، فمن أدخل الحسن بن علي في الخلافة الراشدة ما أبعد لأنه أتم الثلاثين بها، فهذه الثلاثين فيها الخلافة الراشدة.

إذاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء)، ليس إطلاقاً (وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)، وهم: أبو بكر، عمر، عثمان، علي. وفضل هؤلاء فضل عظيم، لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إن لم تجد سنتي فهم سنة، فعلهم سنة، قولهم سنة، إقرارهم على أمر سنة، فتكون سنة فعلية وقولية وتقريرية، سنة سنها النبي -صلى الله عليه وسلم- بقوله: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ).

فإذا رأينا مسألة فيها قول أبي بكر أو فيها قول عمر أو فيها قول علي أو فيها قول عثمان ولم يخالفه أحد من الصحابة، فعض عليها بالنواجذ وقل: بيننا وبينكم قول علي وقول علي حجة بيننا وبين الناس أمام الله جلَّ في علاه، وقول عثمان حجة لنا أمام الله جلَّ في علاه في أي فعلة أو في أي تعبد نتعبد به لله جلَّ في علاه. إذا قالوا: أنتم تذمون البدعة وصليتم خلف الإمام مثلاً أكثر من ثلاث ليالي، قلنا هذه سنة عمر، اترك ما قيل وما شرحناه سابقاً، قلنا هذه سنة عمر وإن كانت هي سنة عمر فعلى الرحب والسعة وحباً وكرامة وعلى العين والرأس وهي حجة لنا عند الله نقول: أخذنا بسنة عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-.

لكن الكلام في هذه المسألة؛ إذا كانت هذه السنة العض عليها بالنواجذ، إذا اختلفوا، يعني إذا لم نجد سنة في المسألة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم نظرنا في سنة الخلفاء فوجدناهم قد اختلفوا؛ أبو بكر يختلف مع عمر، عمر يختلف مع عثمان، عثمان يختلف مع علي، كلهم سواء لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي). على الراجح إن اختلفوا فننظر في كفة الأقوال، إن وجدنا أبا بكر في كفة وعمر في كفة أخذنا بقول أبي بكر لا سيما إن كان معه عثمان وعلي، لأن أبا بكر يقدّم على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-. ونحن ما قدمناه بالهوى قدمناه بالشرع، كيف ذلك؟ قلنا: أولاً عبد الرحمن بن عوف بسند صحيح قال: ما سبق أبو بكر الأمة بكثير صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

هو الصديق والنبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن فضله على جميع الصحابة عندما حدث المشدة بين عمر وبين أبي بكر، وجاء أبو بكر يستسمح من عمر فلم يقبل، فرجع عمر نادماً إلى بيت أبي بكر يقول: أثم أبو بكر؟ قال: أهنا أبو بكر، قالوا: لا. ذهب أبو بكر يشتكي للنبي أنه ذهب يستسمح عمر فلم يرضَ، فنظر النبي -صلى الله عليه وسلم- إليه وهو يرفع ثوبه حتى ظهرت ركبته، فقال: (إن صاحبكم قد غامر)، فلما دخل عليه وقال له ما عنده جاء عمر فنظر إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- مغضباً من وقت أن جاء، فنظر أبو بكر فوجد الغضب في وجه النبي -صلى الله عليه وسلم-، أراد النبي ليبين مكانة أبي بكر على عمر، وهو عمر الفاروق، فغضب. ينزلون الناس منازلهم ومن ذلك ارتقوا وارتفعوا، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- مغضباً، فبكى أبو بكر وجثى على ركبتيه لأنه يعلم أنه سيكون كالأسد الثائر لصاحبه، فقال: والله يا رسول الله كنت أظلم، أنا أظلم. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- معاتباً عمر معاتبة شديدة ليبين مكانة أبي بكر: (هلا تركتم لي صاحبي)، عمر ليس بصاحب؟! عثمان ليس بصاحب؟! علي ليس بصاحب؟! كل هؤلاء صحابة لكن أبو بكر هو أبو بكر واساني بأهله وماله، فقال: (هلا تركتم لي صاحبي)، هو صاحبي من دونكم في الزمن الغابر عندما كذبتموني وصدقني، قال: (قلتم كذب وقال صدق، وواساني بأهله وماله، سدوا عني كل خوخة إلّا خوخة أبي بكر).

فقد بيّن الشرع مكانة أبي بكر، بل المواقف أظهرت اليد الطولى لأبي بكر على عمر؛ عندما مات النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبر عمر بن الخطاب فأشهر سيفه وقال: ما مات رسول الله، رسول الله ذهب إلى الله كما ذهب موسى إلى الله، وسيرجع إلينا وليقطعن أيدي المنافقين وأرجل المنافقين، ثم قال: من قال بذلك لأعلونه بالسيف. فجاء أبو بكر فقال: اسكت يا عمر، فلم يسكت. قال: اسكت يا عمر، فلم يسكت. فدخل أبو بكر على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فوجده مسجّى فبكى وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقبل بين عينيه ثم قال: طبت حياً وميتاً، ورجع وخرج إلى الناس فقال:

أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. انظروا، لا ربط بالأشخاص، المسألة كلها ربط لرب الأشخاص. (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) [آل عمران:79]، لا تعظموا الأشخاص ولكن عظموا شرع الله جلَّ في علاه، عظموا دين الله جلَّ في علاه. قام أبو بكر -وهذه التي أظهرت فضل أبي بكر على عمر- فقال: من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. فبكى عمر بن الخطاب بعد ما قرأ الآية أبو بكر، قال: كأني ما سمعتها إلّا الآن.

وأيضاً فضل أبي بكر ظهر في صلح الحديبية، عندما استشكل الأمر على عمر قال: يا رسول الله علام نعطي الدنية في ديننا؟ ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ ألسنا كذا؟ أليسوا كذا؟ فقال الرسول: (أنا رسول الله ولن يضيعني الله)، أنا سمعت وأطعت لربي. لمّا عمر سمع ذلك اشتد الأمر عليه فذهب فقال: أبو بكر أقرب الناس لرسول الله، فقال: يا أبا بكر ألسنا عن الحق؟ قال: نعم، قال: أليسوا على الباطل؟ قال: نعم، قال: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ لا بد أن نقاتل، قال: هو رسول الله ولن يضيعه الله الزم غرسه. هذا بيان لفضل أبي بكر على عمر.

فإذا خالف أبو بكر عمر، لا بد أن نقول كفة أبي بكر ترجح إلّا إذا ظهرت القرائن المحتفة التي تثبت قول عمر الموفق المسدد، وطبعاً هناك فرق بين الملهم إذا ممكن يُعترض علينا: عمر هو الملهم، قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك؟ نقول: لا، عمر الملهم يعني الملائكة تتكلم بالحق على لسانه لكن يجري الحق على قلب أبي بكر، فأيهما يقدّم القلب أم اللسان؟ الحق يجري على قلب أبي بكر فينهانا، أمّا عمر الملك يتكلم بلسانه، أحياناً يتكلم وأحيانا لا يتكلم،؛وهذا ظهر لكم في المناظرة بين عمر وبين أبي بكر، عندما (قال عمر: تؤمّر عليهم هذا الصغير أسامة؟! قال: والله لا أضعن أميراً أمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم-). كان الحق معه وسكت عمر بن الخطاب وجعله معه. بل تكلم عمر في أن ينحّي أبو بكر خالداً، فقال أبو بكر ينتظر يقبض ويعض بالنواجذ على السنة: لا والله، لا أغمد سيفاً سله الله وسله رسوله.

عمر قال لأبي بكر: نحي خالد، لأن خالد قتل مالك بن نويرة، كان مسلماً، لكن لمّا تكلم عن الزكاة وقال له خالد: أما تعطي الزكاة؟ قال: هذا قول صاحبكم، فخالد قال: صاحبنا؟! ألم يكن صاحباً لك؟ فأطاح برأسه، قتله، عدّه من المرتدين لمّا قال: قول صاحبكم. يا أخي افهم منه؛ يقول قول صاحبكم يعني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو مؤمن ليس من الكافرين، ولذلك أتى أخو مالك بن نويرة أتى بأشعار أبكى عمر، فذهب عمر غاضباً لأبي بكر قال: لا بد أن تنحيه قتل مسلماً، فقال: لا، واستشهد بسنة ما هي؟ خالد عندما دخل على المسلمين قالوا: صبأنا صبأنا، هم يريدون يقولون: أسلمنا

أسلمنا، لكن اخطأوا في القول وقالوا: صبأنا صبأنا، فتأول فقتلهم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم إني ابرأ إليك مما فعل خالد)، ولم ينحيه وتركه في إمارته. فقال: فعل النبي من قولك، فهذه تبين فضل أبي بكر.

فإذا خالف أبو بكر عمر، فأبو بكر يقدم، أمّا إذا اتفق أبو بكر وعمر فلا تنظر لأحد بعدهم، في مسند أحمد النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اقتدوا باللذين بعدي: أبي بكر وعمر). وأمّا إذا لم نجد إلّا قول عثمان ولم يخالفه أحد، أخذنا بقول عثمان وإن خالفه أحد من الصحابة، فالحق يكون مع عثمان ويقدّم عثمان إلّا أن يأتي الدليل أن القول يكون الحق مع غيره. وإن كان عثمان وعلي فالخلاف والنزاع شديد، لا سيما وأن علي حقاً بالاتفاق أفقه من عثمان، يعني في الفقه كان علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- أفقه من عثمان -رضي الله وأرضاه-. الغرض المقصود؛ الأربعة لا بد من أخذ سنتهم ونعض عليها بالنواجذ، قال: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)، نحن شرحنا هذه الجزئية في أحاديث سابقة.

الفوائد المستنبطة:

١- هذا حديث يدل على صحة نبوة نبينا -صلى الله عليه وسلم-، من أين استنبطنا هذا الاستنباط؟ قال: (من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً)، كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- من دلائل نبوته أنه أخبرنا عن أشراط الساعة الصغرى وأشراط الساعة الكبرى، وأنه قال في مسند أحمد: (بين يدي الساعة سنون خداعة يُصدَّق فيها الكاذب ويُكذَّب فيها الصادق)، أو (إذا وسد الأمر لغير أهله)، أو قال: (ما أعددت لها؟). الغرض المقصود كل الأخبار التي أتت فيها دلائل لنبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهنا يبين أن هذه سنة كونية، أن الاختلاف سيقع سيقع. وهذا اختلاف لتمييز الله بين عباده، ليمحص النظر في العالم المجتهد والجاهل ومتبع لهواه، لأن الناس قسمان:

- قسم اختلف بسبب جهله بالسنة وإن علم السنة سارع وقال: سمعت وأطعت، وأصبح مع جحافل أهل السنة والجماعة.

- وقسم علم السنة ولكنه جحدها، دخل في قوله تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) [النمل:14]، اتباعاً للهوى، فقدّم الهوى وقدّم الفقيه وقدّم رأي الفقيه على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، فنجم الخلاف بسبب الهوى والتعصب، وهذا أشده على هذه الأمة.

ما العلم إلّا قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة *** بين الرسول وبين قول فقيه

٢- قول الصاحب حجة وفعل الصاحب حجة وإقرار الصاحب حجة؛ هذه المسألة من أين تستنبط؟ استنباطي صحيح؟ أسأل الله أن يوفقني استنباطي من الله ليس مني؟ ما تقول لي غير صحيح، قل لي استنباط غير منضبط. الاستنباط أن تقول: قول الخليفة من الخلفاء حجة، أنا أقول لك: إذاً فقد وسعت المسألة، والتوسيع لأن الخلاف نجم من العلماء لأنهم سحبوا المسألة على الصحابة، لا سيما وأن الصحابة قد عدّلهم الله من فوق سبع سماوات وعدّلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته وعلى لسانه، ولذلك نجم الخلاف بين العلماء في قول الصاحب على الإطلاق ليس بالخليفة.

قول الصاحب على الإطلاق حجة أم لا؟ أقوال ثلاثة:

- القول الأول: ليس بحجة مطلقاً، وهذا قول الشافعي وهو قول للإمام احمد.

- القول الثاني: قول الصاحب حجة مطلقاً، خالف القياس أم لم يخالف القياس، وهذا قول أيضاً للشافعي والحمد لله، وهذا قول مالك أيضاً.

- القول الثالث: التفصيل؛ هو قول الأحناف، قالوا: إن وجدنا في المسألة قياساً فليس بحجة، إن لم نجد قياساً فهو حجة.

والصحيح الراجح ما رجحه ابن القيم ولنعم ما قال، وقال: أولى عندي لأن الصاحب الذي رأى رسول الله، وسمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ونظر في هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- وسمع مقالة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو أفقه الناس وأشد الناس اتقاناً للغة، وهو أنقى الناس وأتقى الناس لله جلَّ في علاه، فهو أتقى الناس وأقرب الناس للتوفيق والتسديد من الله أن يوافق قوله الحق، فقول الصاحب حجة مطلقاً وهذا الراجح صحيح. إن كانت المسألة قول للصاحب ولم تجد فيها السنة، عزّت عليك، وجدت قولاً للصاحب، فقول الصاحب حجة ملزمة وهذا الراجح الصحيح.

٣- من أساليب الأمر التي تستلزم الوجوب اسم فعل الأمر؛ أين اسم فعل الأمر؟ (عليكم أنفسكم)، (عليكم بتقوى الله)، (عليكم بالسمع والطاعة لولاة الأمور)، "عليكم" اسم فعل أمر يدل على الوجوب.

٤- الولاية تكليف وليس تشريف، ويمكن أن يتولى المفضول على الفاضل ولا يقدح في هذا ولا في ذاك. من أين استنبطنا هذا؟ (عبداً حبشياً)، فالولاية تكليف وليست تشريف، لأنه لو تشريف كان أولى الناس وأشرف الناس هم قريش، وإن استشكل بعض العلماء هذا الحديث لأنه قال: (الأئمة من قريش)، نقول ممكن واحد من قريش هو الذي يؤمّر العبد الحبشي ما فيها شيء، لكن هذه تبين لك عظم السمع والطاعة لولاة الأمور.

والأمر الثاني؛ إن كانت تكليف وليس التشريف، فنقول: يمكن للمفضول أن يترأس على الفاضل، لأن كل منهم سيقف أمام ربه ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة دقيقة وجليلة، حتى النفس لا يُترك العبد إلّا ويحاسب عليه أمام الله جلَّ في علاه.

٥- أصل الخلاف إمّا جهل السنة وإمّا التعنت على السنة أو ترك السنة. فهم أصناف، فلذلك وقع الخلاف لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن هذا السبب عندما سألناه وقلنا: يا رسول الله الاختلاف الكثير لِمَ؟ قال: (عليكم بسنتي)، يعني لأنهم تركوا سنته حدث الخلاف. فأصل الخلاف إمّا الجهل بالسنة، وهذا أخص لأن الجاهل بالسنة إذا عُلِّم يتبع، وإمّا التعنت أو الصد عن السنة أو اتباع الهوى دون السنة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله عنا خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس السادس عشر: باب في أمر النبي بالقتل لمن فارق الجماعة (1)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع العقيدة ونسأل الله لنا أن يتم علينا هذا الخير، وهذا الكتاب المبارك، كتاب السنة لابن أبي عاصم، بلغنا إلى الباب السابع عشر.

بسم الله والحمد لله، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً، وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب في أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقتل لمن فارق الجماعة:

وعن عبدالله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله إلّا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة).

هذا الباب لابد من إمعان النظر فيه، لِمِ أدخله المصنف بعد باب ما أمر به من اتباع السنة؟ والكلام في هذا التصنيف البديع أنه سلسل المسألة بالكلام على السنة والحث على التمسك بها

والعض عليها بالنواجذ. أقول بعد إمعان النظر ترى أن مناسبة إدخال هذا الباب مع سلسلة الأبواب في الكلام على السنة، بأن المصنف من دقة نظره بعد ما بيّن لنا بأن التسديد والتوفيق والهداية لا تكون إلّا بالتمسك بالسنة، وكما أن عدم التسديد وعدم التوفيق والإضلال والضلال يكون بعدم التمسك بالسنة، هذا في الدنيا. وفي الآخرة النجاة والشرب من حوض النبي -صلى الله عليه وسلم- ودخول الجنة لا يكون إلّا باتباع السنة، بل قبول الأعمال لا يكون إلّا باتباع السنة. وأيضاً في الآخرة إن لم يتبع المرء السنة، فإن الله لا يقبل عمله وإنه يطرد من حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويقال له: (سحقاً سحقاً، بعداً بعداً لمن بدّل بعدي). وهو مع ذلك يوضح لنا ويسلسل المسألة على أن النجاة بالعضد بالنواجذ على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه من وجوه في هذا الحديث.

أوله أنه يبيّن أن الذي لا يتمسك بالسنة ولا يعض عليها بالنواجذ ضاع منه دينه، لأن هنا عندنا حد من الحدود وحكم من الأحكام؛ ائتوني بهذا الحكم من كتاب الله جلَّ في علاه أن الثيب الزاني له الرجم يرجم حتى الموت؟ ائتوني بآية من الكتاب تثبت ذلك؟ اترك النسخ، الآن أتكلم عن كتاب الله وأتكلم عن العوام، اترك طلبة العلم الذي يعرف الآية التي نسخت تلاوة وبقيت حكماً، أو الاستنباط الذي استنبطه ابن عباس. نتكلم الآن حتى نرد على القرآنين كما سنبين، أن بديع ودقة نظر المصنف يأتي بهذا الحديث والإنسان يتحير: قتل وثيب ما لنا وله؟ نحن نتكلم الآن في باب العقيدة ما لنا ومال الدماء الآن؟ ما لنا وحد الزنا؟ فما هي وجهة النظر؟ فنقول وجهة النظر أنه يريد أن يذكر بينا لكم سابقاً بأن التوفيق والتسديد يكون بالعض بالنواجذ على السنة، بل كل الدين، جمعية الدين لا يكون لك إلّا بالتمسك بالسنة، بل أنت سترى أن القرآن أحوج ما يكون للسنة وهذه من وجوه:

- الوجه الأول هو حكم الرجم؛ حكم الرجم صريحاً ما يكون إلّا في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وليس موجوداً في الكتاب.

- الوجه الثاني أنه أراد يكرر لك ويبين أن عدم التمسك بالسنة هو وسيلة من الوسائل التي تجعل الإنسان يترك دينه كليةً، بل ينسلخ عن الدين. ولذلك انظر بالتعريف قال: (التارك لدينه المفارق للجماعة)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد حث على التمسك بالجماعة؛ وبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن صلاة الاثنين أفضل من صلاة الفرد، وأن السفر قال: (من سافر وحده فشيطان، ومن سافر مع أخيه فشيطانان)، يعني هذا عمل الشياطين. ولذلك كان يحث دائماً على الجماعة والتمسك بالجماعة، بل نهر من شق عدا عصا الطاعة مع الجماعة، فالسنة تحث على التمسك بالجماعة. فمن السنة وهجر السنة فهذه وسيلة لأن يترك دينه، لأنه عرّفها قال التارك: (لدينه)، لِمَ؟ (المفارق للجماعة)؛ فلمّا فارق الجماعة تركاً لسنة وعدم العمل بها بالأخذ بالجماعة، كانت وسيلة لأن يترك دينه إمّا كليةً وإمّا جزءً من أجزائه، يكون مبتدعاً في دين الله جلَّ في علاه.

هذه هي المناسبة التي من أجلها المصنف أتى بهذا الباب، وهذا الحديث أصل عظيم في عصمة الدماء، من أعظم الاحاديث خطراً هذا الحديث. وهذا الحديث يصح لنا أن نتكلم فيه في شهور ودهور، لا في يوم واحد، ويكتب فيه المجلدات، لكن سنأخذ جملاً مهمة في هذا الحديث ونتكلم عنها.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل)؛ يحرم، عظيم، أمر جليل جسيم. (لا يحل دم امرئ مسلم)، هذه أول فيها فائدة عصمة دماء المسلمين أو عظم حرمة دم المسلم عند الله جلَّ في علاه. لا غرو ولا عجب، فإن دم الكافر الذي يشرك بربه جلَّ في علاه عظّمه الله وعصمه إن كان معاهداً أو مستأمناً أو كان ذمياً، ولذلك ترى الوعيد الشديد والتهديد الأكيد من النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن اخترق هذا الميثاق الغليظ بأن يقتل معاهداً أو مستأمناً أو يقتل ذمياً، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لم يرح رائحة الجنة)، بل قال: (أنا بريء) وتبرأ ممن يقتل المستأمن أو المعاهد أو الذمي وهذا كافر، الأنعام أفضل منه وكما قال الله تعالى: (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) [لفرقان:44]، لكن مع ذلك عصم الله دمه بالميثاق الذي أخذ عليه أو بالعهد أو بالأمان كما فصلنا في حكم المستأمنين.

هذا لا غرو ولا عجب في الكافر، ما بالكم بالمسلم الذي يوحد ربه ليل نهار، الذي يتذلل ويسجد خضوعاً وتضرعاً لربه جلَّ في علاه. هذا عظيم عند ربه، هذا كريم عند ربه. ولك أن تعلم عظم مكانة المسلم من هذا الحديث الذي في الصحيحين، من الحديث القدسي العظيم المرعب لكل ظالم الذي يظلم المسلمين؛ قال الله تعالى: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)، من يستطيع أن يفوز في حرب الله جلَّ في علاه فليحاربه. الغرض المقصود؛ هذا يبين عظم مكانة المسلم عند الله جلَّ في علاه.

وهناك أحاديث خاصة تثبت عظمة مكانة دم المسلم عند الله جلَّ في علاه منها: أولاً حديث صحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (اجتنبوا السبع الموبقات)، سمّاها موبقات مهلكات، وذكر من السبع قتل النفس بغير حق أو قتل المسلم بغير وجه حق، هذه من الموبقات، من المهلكات عند الله جلَّ في علاه. وأيضاً في السنن بسند صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لزوال الدنيا أهون عند الله من سفك دم امرئ مسلم). وأيضاً روي مرفوعاً والأصح أنه موقوف على ابن عباس، كان يطوف بالكعبة ويقول: أنت الكعبة، عظمك الله وشرفك ولك المكانة العظيمة عند الله جلَّ في علاه، وحرمة دم المسلم أعظم منك وأشرف عند الله جلَّ في علاه.

لا غرو ولا عجب، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو تمالأ أهل السماوات وأهل الأرض)، انظروا أهل السموات المسبحين الذاكرين، (لو تمالأ أهل السماوات واهل الأرض على قتل امرئ مسلم بغير وجه حق)، هذا قيد، (بغير وجه حق لأكبهم الله في النار ولا يبالي)، هذه جملة من الجمل التي تظهر لنا هذا الحديث العظيم (لا يحل دم امرئ مسلم).

بعد ما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- والشرع لنا عظم مكانة دم المسلم، قال: ومع هذه المكانة بجريرة فعله أو بتفريطه في حق الله جلَّ في علاه يمكن أن يباح هذا الدم العظيم. قال: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاثة)، وفصل الثلاث:

١- الأولى: الثيب الزاني؛ الزنا أعظم جريمة، جريمة شنعاء نكراء، عار وشنار على أي إنسان يتجرأ على حدود الله جلَّ في علاه بارتكاب هذا الزنا، نعوذ بالله من الخذلان. فإن ربك يغار، والزنا يستثير غيرة الله إن صح التعبير، فإن رسولنا -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله يغار أن يزني عبده أو تزني أمته)، ومن غيرة الله جلَّ في علاه حد هذه الحدود. وأيضاً نبين لك أن الزنا جريمة عظيمة، إن الله جلَّ في علاه أكّد على هذا الحد العظيم في غير ما آية في كتاب الله جلَّ في علاه.

أقول الزاني له حالتان:

- الحالة الأولى أن يكون بكراً، والبكر هو كل إنسان لم يطأ مرة واحدة بنكاح صحيح، يعني لو عاش دهراً يزني ويطأ في فرج محرم لا يسمى ثيباً بل هو بكر. فالبكر هو الذي لم يطأ مرة واحدة بعقد صحيح؛ وقولي بعقد صحيح يعني لم ينكح امرأة بوجود الولي وشهود العدول والمهر المسمى بينهم، لم ينكح واحدة ولم يطأ مرة واحدة بذلك لا يسمّى إلّا بكراً، فهو بكر وليس بثيب.

فالحال الأول أن يكون بكراً، وهذا بالإجماع وبالاتفاق أن حده أن يجلد مئة جلبة والتغريب، والتغريب هناك خلاف بين العلماء في مسألة التغريب للمرأة، ولسنا بصدد التفصيل فيها فقهياً الآن، لكن الحال الأولى في حال الزنا الجريمة الشنيعة هذه، الحالة الأولى أن يكون بكراً فبالإجماع الجلد مئة والتغريب عام، ودليل ذلك قول الله تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) [النور:2]، وحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خذوا عني، خذوا عني، البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام)، هذا حديث عبادة في الصحيحين. فهذا بالاتفاق وبالإجماع، واختلفوا في تغريب المرأة، ومالك يعني ينكر هذا التغريب، والجمهور على أنها تغرب وعليها أن تدفع مال سفر المحرم الذي يكون معها في البلد الذي تغرب فيها، لسنا بصدد التفصيل في هذه المسألة الفقهية.

- الحالة الثانية أن يكون ثيباً؛ والثيب هو الذي وطئ مرة واحدة بنكاح صحيح، يعني لو تزوج امرأة بالولي والشهود وماتت في اليوم التالي بعدما دخل عليها أصبح ثيباً، فلو زنى حكمه يأتي بعد ذلك وهو الرجم حتى الموت. إذا الثيب نكح أو وطأ مرة واحدة بنكاح صحيح، هذا ما بينه النبي -صلى الله عليه وسلم- نستحل دمه، أهدر الشرع دمه.

فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث)؛ يعني منها الثيب الزاني نستحل دمه، والدليل على ذلك أحاديث وآيات. أمّا الآيات فهي مستنبطة من قول

الله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ) [المائدة:15]، قال ابن عباس: ومما كانوا يخفونه من الكتاب الرجم، فمن لم يؤمن بالرجم فقد كذّب بكلام الله جلَّ في علاه. فسروا لي ما قلت؟ الرجم ليس في كتاب الله إلّا استنباطاً وإشارةً، وهذا الذي فهمه ابن عباس من هذه الآية العظيمة، قال الله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ)، قال: وكان مما يخفونه الرجم، فمن لم يؤمن بالرجم فقد كذّب بكلام الله جلَّ في علاه أو بكتاب الله؟!!

(يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا) [المائدة:41]، استسروا فيما بينهم، الآن اليهود طبعاً قوم ملعونون، قوم أهل لعنة، كانوا إذا سرق الوضيع أقاموا عليه حد الله جلَّ وعلا الذي نزل في التوراة، وإذا سرق الشريف لم يقيموا عليه الحد بدلوا. فكان إذا زنا الشريف، قالوا ما عندنا إلّا الجلد والتحميم، يجلدونه ويحممونه بالحمم يعني يسودون وجهه ويجعلونه يركب الحمار بالخلف حتى يشاهر به بين الناس، ولا يرجمونه حتى الموت، هذا للشريف. أمّا الوضيع يرجمونه. فاستسروا، قالوا: اذهبوا إلى هذا الرجل الذي ادعى النبوة -بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم-، فإذا قال لكم بالجلد والتحميم هذا الذي تريدونه، وإن قال لكم بالرجم فاحذروه. (إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا) الجلد والتحميم فخذوه، (وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا). يأتي هنا الكلام؛ لمّا أتوا النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله جلَّ وعلا أمره أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، وإذا حكم بينهم أن يحكم بالقسط، والقسط يكون في كتابهم.

فجاء عبد الله بن سلام بعدما أسلم بفضل الله سبحانه وتعالى، قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، لا تبلغهم بأنني أسلمت، إن آية الرجم في التوراة، وإنهم قوم بهت، فاجعله يأتيك بالتوراة. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ائتوني بالتوراة، فأتوا بالتوراة، فقرأوا حتى وصلوا الى آية الرجم فوضعوا أيديهم عليهم ليخفوا آية الرجم، هذا معنى أنهم يخفون كثيراً من الكتاب. فوضع يده على آية الرجم، فقال له عبد الله بن سلام: أخر يدك أيها البغيض أو اللعين أو كلمة نحو ذلك. قال: أخر يدك، فلمّا أخر يده قرأ آية الرجم، فكان يخفيها، ولذلك قال الله تعالى: (مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ). فقال ابن عباس: يخفون آية الرجم، واستدل على ذلك بفعل عبد الله ابن سلام لمّا قال له: أخر يدك، فلمّا أخر يده رأى أن الآية التي أراد أن يخفيها هي آية الرجم. فقالها ابن عباس: هم أخفوا آية الرجم، وهذه صريحة من كلام عبد الله بن سلام -رضي الله عنه وأرضاه-، فمن كذّب بآيات الرجم فقد كذب باللزوم -هنا ليس بالتصريح باللزوم- بكلام الله جلَّ في علاه.

إذاً آية الرجم أيضاً موجودة في الكتاب لكن استنباطاً وإشارةً، أمّا طلبة العلم فيعلمون أن آية الرجم نزلت أولاً ونسخت تلاوة وبقيت حكماً، ولذلك على المنبر كما في الصحيح أن عمر خطب في الناس قال: ائتوني بكتاب أكتب آية ما يأتي أحد يجحد بها، (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، فنسخت تلاوةً وبقيت حكماً، فإذاً الكتاب فيه الرجم.

وأمّا في السنة فكثير؛ فمنها حادثة ماعز في الصحيحين، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجم ماعز إلى الموت. وحادثة امرأة من جهينة رجمها النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الموت كما سنبين. والثالثة المرأة الغامدية، التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم. فإذاً رجم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقول، ورجم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالفعل، وبالإجماع أن الذي يزني وهو ثيب فحده الرجم، وهذا بالإجماع. ثم اختلفوا فيما بينهم في فرع هل عليه جلد مئة قبل الرجف أم لا؟ إذاً اتفقوا بالإجماع أن الزاني الثيب يرجم إلى الموت، واختلفوا فيما بينهم قبل أن يرجموا إلى الموت هل يجلد مئة جلدة قبل الرجم أم لا؟

▪ الجمهور يرون أنه يرجم ولا يجمع له بين الجلد وبين الرجم، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة منها:

- أحاديث الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-، وأنا أشدد على أبي هريرة لأن فيه فصل النزاع في الخلاف بين العلماء. عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- في حديث العتيق الأجير، قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله جل ذِكره: المائة شاة والخادم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغدُ يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها)، أنيس عامل للنبي -صلى الله عليه وسلم- ذُكِر مرة واحدة في السنة واغدو. ما معنى اعترفت؟ يعني قالت إنها زنت. (فارجمها)، ولم يقل فاجلدها، قال: (فإن اعترفت فارجمها)، واستدلوا بظاهر الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يأمر بالجلد ولكن أمر بالرجم.

- الحديث الثاني حديث ماعز؛ عندما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: استنكهوا فمه هل شرب خمراً؟ قال: هل فعل بك جنون؟ لعلك قبلت؟ لعلك فاخذت؟ لعلك فعلت؟ قال: يا رسول الله طهرني، قد فعلت ما يفعل الزوج بزوجه، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- برجمه حتى الموت، وأيضاً لم يأمر بجلده ولم يجلده.

- والمرأة التي جاءت النبي -صلى الله عليه وسلم-، قالت: يا رسول الله إني امرأة حبلى من الزنا، طهرني يا رسول الله. نسأل الله أن يتوب علينا من كل الزنا، سواء زنا السمع أو زنا اللسان أو زنا البصر. فقالت: طهرني يا رسول الله، أرجأها حتى وضعته، حتى أرضعت، ثم بعد ذلك رجمها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا في الصحيحين ولم يجلدها.

- والمرأة الغامدية رجمها النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً، لم يجلدها.

فكل هذه أدلة تثبت بأن لا يجمع بين الجلد وبين الرجم.

▪ برواية ثانية عن أحمد وإسحاق وبعض أهل الحديث، وهو قول علي بن أبي طالب، قالوا: الزاني يرجم ويجلد. واستدلوا على ذلك بأدلة واضحة جداً منها:

- أولاً حديث عبادة بن الصامت في مسلم فقط، قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد نزول قول الله تعالى: (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ)، كان الأول الحكم الحبس للزانية. (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) [النساء:15]؛ إذاً الحكم إما الحبس إلى الموت أو سيجعل الله حكماً، فجعل الله حكماً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، قد جعل الله لهن سبيلاً)، ما هو السبيل يا رسول الله؟ ما هو الحكم الجديد؟ قال: (البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام)، شاهد ما نقول الآن: (والثيب بالثيب جلد مائة والرجم). إذاً تصريح من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: (قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيب بالثيب جلد مائة والرجم) بعد الجلد، فجمع بين الجلد وبين الرجم.

- وحديث أيضاً عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- أن المرأة الهمدانية زنت فجلدها ثم رجمها، فعاودوه، فقال: إن أجلد فقد جلدت بكتاب الله، (فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) [النور:2] هذا صحيح من الكتاب، وإن أرجم فقد رجمت بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. ورفع للنبي -صلى الله عليه وسلم- الجلد وأيضاً الرجم.

فما الراجح في الاثنين؟ والأحاديث ظاهرة جداً؛ هذا في سياقه في المتفق عليه، وهذا في صحيح مسلم؟ الراجح في ذلك أن دم من المسلم معصوم إلّا أن يزني وإن كان ثيباً فإنه يرجم دون أن يجمع له بين الجلد وبين الرجم، وهذا للأدلة الوافرة الكثيرة التي وردت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أمر بالرجم ورجم، ولم يأمر بالجلد مع الرجم. فلم يأمر بجلد مع رجم بحال من الأحوال، ورجم ولم يجلد. وهذه أدلة صريحة جداً وهي متفق بين البخاري ومسلم، والنظر يعضد ذلك؛ إذ النظر أن من القواعد الكلية في الشريعة ألّا تجمع لامرئ بين عقوبتين في حد، وهذا فيه جمع بين الجلد الذي هي عقوبة البكر- وأيضاً الذي هو عقوبة الثيب، فهذه من جهة النظر التي تعضد رجحان كلام الأئمة العظام جماهير أهل العلم.

أقول إذا رجحنا قول الجمهور وجب علينا الرد على المخالف، والمخالف هنا يعضد قوله في صحيح مسلم بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (خذوا عني، خذوا عني، الثيب جلد مائة)، وهذا قول صريح لا مدخل فيه ولا احتمال، قال: (جلد مئة والرجم)، فجمع بين الجلد وبين الرجم. فكيف نرد على هذا الحديث إذا قلنا بالراجح؟ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ليس العلم أن تعلم الحلال من الحرام، سهل جداً أي إنسان يفتح الكتب المطولات والمختصرات في الحلال والحرام، وبالأدلة، لكن العلم أن تعلم خير الخيرين وشر الشرين، العلم أن تحرر محل النزاع وترجّح بين المختلفين.

نظر الأئمة في هذا الرد يقولون لنا: في الرد وجوه، قلنا: ما هي الوجوه؟

♦ الوجه الأول "النسخ": ننظر في المتأخر والمتقدم، لعله ناسخ، فأنت ما تستطيع أن تضعّف حديث، هذا في صحيح مسلم وهذا في البخاري ومسلم، فالصحة موجودة والصحة موجودة.

إذاً الضعف لا يلوح في الأحاديث، فانظر في أمر آخر تستطيع أن تجمع. كيف تجمع؟ قال: اجلد وارجم، وقال: ارجم؛ ما في جمع، ما نستطيع الجمع. فإذا لابد أن تنظر في أمر آخر: إمّا النسخ، وإمّا الترجيح.

فنظر النظر الأول فهو النسخ، فقال العلماء: حديث عبادة منسوخ، قلنا: المنسوخ؟ النسخ لا يكون بالاحتمالات. قالوا: عندنا القرائن المحتفة التي تثبت النسخ، قلنا: ما هي؟ قالوا: حديث عبادة حديث متقدم وحديث أنيس حديث متأخر، قلنا: ما الذي أخره؟ قالوا: لأنه من رواية أبو هريرة، وأبو هريرة قد أسلم عام خيبر يعني أسلم متأخراً، فهذه فيها قرينة قوية تدل على النسخ.

قالوا: لا نقبل، قلنا: لابد أن تقبلوا ولكن نتنزل معكم، لا تقبلوا، لنا رد آخر عليكم. ما هو؟ طبعاً هذه القرينة قوية للنسخ، ونحن نقول احتمال النسخ عظيم، لكن إذا قالوا: لا نقبل بالنسخ إلّا بالقطع، فنقول: لنا رد آخر. ما هو الرد الآخر؟

♦ الوجه الثاني "الترجيح": حديث أبي هريرة، نقول: إذا لم نستطع النسخ فالترجيح، إذا ظاهرهما التعارض ولا نستطيع أن نجمع بينهما إلى المرجحات. ما هي من المرجحات؟ حديث أبي هريرة والغامدية وحديث ماعز، كل هذه الأحاديث التي رجم فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- يجلد كانت في الصحيحين، متفق عليها بين البخاري ومسلم، وحديث عبادة في صحيح مسلم. وإذا اختلفا أو كان ظاهرهما التعارض فالمتفق عليه يقدّم على ما انفرد به أحدهما، ولو كان البخاري، فما بالك أن الذي انفرد هو مسلم وهناك في الكفة الأخرى مسلم والبخاري.

إذا تعارض قلنا بالترجيح، والترجيح حديث الصحيحين يرجح على حديث الانفراد. لا سيما وعندنا الرد الأقوى في ذلك من النظر أنه من القواعد الكلية أنه: لا يُجمع لامرئ بين عقوبتين في حد واحد، هذه توافق القواعد الكلية، وما وافق القواعد الكلية من الأحاديث أحب إلينا مما خالف القواعد الكلية. إذاً الراجح في هذه المسألة هو أن الثيب الزاني الذي وطأ مرة واحدة بنكاح صحيح عليه الرجم حتى الموت، ولا يجمع له بين جلد وبين الرجم.

الجملة الثانية في هذا الحديث العظيم الجليل ألا وهو (النفس بالنفس)؛ يعني إذا قتل المكلف مكلفاً مسلماً، وأقول مسلماً لأننا سنبين الخلاف بين العلماء في غيره. إذا قتل المكلف مكلفاً مسلماً فإنه يقتل به؛ قال الله تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) [المائدة:45]، و"النفس" هنا اسم جنس معرّف بالألف واللام التي تدل على العموم، كل نفس. وأيضاً قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ) [البقرة:178] إلى آخر الآيات. وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول هنا: (النفس بالنفس)، وأحاديث أخرى تثبت قتل النفس إذا قتل نفساً بريئة بغير وجه حق.

لنا في هذا الباب مسائل كثيرة منها:

أولاً: هل قول الله تعالى: (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) على العموم أم هو مخصوص؟ نقول هذا عام مخصوص، ومخصوص بأمور كثيرة منها:

- أولاً: لو قتل الوالد ولده هل يقاد به أم لا؟ زيد أبو محمد، فقتل محمداً، اشتاط غيظاً عليه فقتله، هل يقتل زيد به أم لا؟ هذه مسألة مهمة أيضاً. والوالد يدخل معه الوالدة؛ امرأة كانت كالجبل الأصم، ابنها أتعبها فقتلته، أراحت الدنيا منه ومن النكد الذي تعيش بسببه. فالولد مع الوالد يدخل، هذه المسألة الأولى.

- المسألة الثانية: هل يقاد الحر بالعبد أم لا؟

- المسألة الثالثة: هل تقتل المرأة بالرجل؟ هل يقتل الرجل بالمرأة؟ يستويان أم ما يستويان؟ هذه مسألة سنبين فيها أن الراجح الحمد لله أنهما يستويان.

- المسألة الأخيرة في هذا الباب: قتل الكافر بالمسلم، حتى لو كان ذمياً أو مستأمناً، هل يقتل المسلم بالكافر أم لا؟ هذه المسألة الأخيرة في هذه الجزئية أو هذه الجملة الثانية من هذا الحديث العظيم.

- أولاً: قتل رجل ابنه هل يقتل به أم لا؟

١- أمّا جماهير أهل العلم فيرون أن الوالد لا يقتل بولده، وأدلتهم من الأثر ومن النظر؛ أمّا من الأثر فأحاديث كثيرة جداً جاءت عن عمر بن الخطاب موقوفة ومرفوعة، ما معنى الموقوف ومعنى المرفوع؟

المرفوع: السند يتصل للنبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني مرفوع لأنه رفع لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يبلغ به للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

الموقوف: يعني وقف على الصحابي، ما رفعه، لم ينسبه للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

فورد أحاديث موقوفة عن عمر أن الوالد لا يقتل بولده، وأحاديث مرفوعة أيضاً عن عمر مرفوعة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ونسبها للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لا يقتل بولده، وهي كلها ضعيفة. إلّا الموقفات منها، الموقوفات صحيحة.

ونقول فصل النزاع في حديث المسند على ما أذكر؛ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، هذه السلسلة كما يقول بعضهم سلسلة ذهب هي أيضاً، كما قال شيخ أحمد شاكر: أن هذه أصح الأسانيد في أحاديث عبد الله بن عمرو بن العاص. عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقتل والد بولده). وهذا فاصل في النزاع، نص صريح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقتل الوالد بولده).

أمّا النظر فإن الوالد سبب في وجود الولد، فلا يكون الولد سبب في انعدام وجود الوالد. قالوا: فإذا كان هذا السبب المسبب في وجوده، فلا يكون الثاني هو السبب في انعدام حياتهم.

٢- القول الثاني قول الأحناف، ورواية أيضاً كما رجحها شيخ الإسلام، أن الوالد يقتل بولده. وأدلتهم في ذلك عموم قول الله تعالى: (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ)، والقاعدة عند العلماء: يبقى العام على عمومه ما لم يأتِ مخصص يخصصه، ولا مخصص. قلنا: هذه الأحاديث؟ قالوا: كلها ضعيفة. قالوا: أمّا النظر عندكم نظر مدخول، لأنه لمّا قُتِل الوالد ما قُتِل بسبب الولد، بل قُتِل بسبب جرمه وفعله وتجرؤه على حياة ابنه، فلذلك تسبب هو في انعدام حياته فردوها عليه. وصراحة الإيراد هذا إيراد قوي بالنسبة للنظر، لكن نقول الراجح هو قول الجمهور لأن الحجة عندنا في الآثار، وقد صح الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا يقتل الوالد بولده).

وما العلم إلّا قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً *** بين الرسول وقول فقيه

قال الله: (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) هذا عموم، وهذا العام مخصوص بقول: (لا يقتل والد بولده). وقد حكم عمر على محفل من الصحابة بذلك، لم يقد الولد لوالده. عامةً هذا استنباط جيد، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنت ومالك لأبيك)، لكن بعض العلماء يعارضون في أن الوالد ممكن يأخذ جبراً من مال ابنه، ثم قالوا: هذا تخصيص في الحاجة. إذاً الغرض المقصود؛ الوالد لا يقاد بولده لهذا الحديث العظيم.

- المسألة الثانية وهي مسألة الحر بالعبد، هل يقتل الحر بالعبد؟

الفرق بين العبد الحر: الحر يملك والعبد لا يملك، والعبد أصلا كان الرق فيه لأنه كان كافراً وعبد الشيطان فاستحق أن يكون عبداً ثم أسلم بعد ذلك. هل يستوي العبد والحر لو قتل حراً عبداً؟ هل يُقتل الحر به أم لا؟ أيضاً خلاف عريض بين العلماء:

١- أما جمهور أهل العلم فرأوا أن الحر لا يقتل بالعبد، وأدلتهم في ذلك أدلة نظرية، منها قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ) [البقرة:178]، استدلوا بهذه الآية على أن الحر لا يقتل بالعبد بحال من الأحوال. لكن ما وجه الدلالة في أن الآية دليل لهم في أن الحر لا يقتل بالعبد؟ قالوا: دليلنا على أن الحر لا يقتل بالعبد ولو قتله مع أن النفس بالنفس، قالوا: مخصوصة هذه الآية، قال: (الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى)؟

مفهوم المخالفة؛ لمّا يقول الله جلَّ في علاه: (الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ) مفهوم (وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ) يعني الحر لا يستوي، كأن الله جلَّ وعلا يفسر ويقول: الحر بالحر فقط، غيره لا، العبد بالعبد

فقط، غيره لا. فالمنطوق جعل (الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ)، المفهوم جعل الحر لا يستوي مع العبد. مفهوم المخالفة من الآية: جعل المفهوم مخصص لعموم قول الله تعالى: (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ)؛ (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) عامة سواء كان حراً أو عبداً، ذكراً أو أنثى، فجاء المفهوم وهو يقول: العبد بالعبد خاصة، لا تدخل غيره معه. فكان مفهوم العبد بالعبد مخصص لعموم النفس بالنفس، هذا وجه الدلالة عندهم، فقالوا: لا يقتل العبد بالحر.

واستدلوا على ذلك أيضاً بأن رجلاً من الأحرار قتل عبداً له، فنفاه النبي -صلى الله عليه وسلم- ونفى سهمه من أهل الإسلام ولم يقتله بهذا العبد. وفي روايات وأثار أخرى تبين أن القصاص للعبد من الحر يكون يوم القيامة؛ إذا كان يوم القيامة فلا حد عليه في الدنيا.

٢- خالف في ذلك الأحناف وقالوا: يقاد، طبعاً الأحناف لهم تفصيل في مذهبهم لأنهم فرّقوا بين قتل عبد غيره وعبد نفسه، إن كان عبده أو عبد غيره. لكن نحن نقول على العموم قالوا: يقتل الحر، واستدلوا على ذلك بحديث الحسن، وسامحوني أن أنا أذكر الإسناد لأن فيه فصل النزاع أيضاً: عن الحسن ابن أبي الحسن عن سمرة بن جندب عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من قتل عبداً قتلناه) يعني قتلناه به، (ومن جدعه جدعناه). ما معنى جدعه؟ جدع أنفه يعني قطعه، يعني القصاص حتى في الجروح، (وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ) [المائدة:45].

قال: (من قتل عبداً قتلناه، ومن جدع عبداً جدعناه)؛ وهذا فاصل في النزاع، هذا يفصل لنا الحديث. ومع ذلك نحن لسنا معهم ونقول بقول الجمهور وأنه لا يستوي العبد والحر، يكفي العبد سيقتص منه في الآخرة والحر لا يقاد ولا يقتل بالعبد.

فوقف الأخوة كما وقفتم أمامي كأنهم يسنون السيوف علي، اتقِ الله ربك، من سنين طوال تقول: ما العلم إلّا قال الله قال رسوله، وأن الرجل لا يحك رأسه إلّا باثر. وأنت الآن تقف أمام الأثر وتخالف؟! أعوذ بالله لست من هؤلاء، لا أخالف الأثر، لكن أقول القاعدة عند طلبة العلم: ثبت العرش ثم أنقش؛ أنا أقول هذا حديث ضعيف ليس بصحيح، قالوا: كيف؟ قلت: هذا الحديث "حديث الحسن ابن أبي الحسن عن سمرة" ما فيه؟ ما لغزه؟ الحسن هذا البصري.

نقول هو من وجوه:

- الوجه الأول: أن العلماء في التقاط الأسباب لمّا حرروا النزاع في سماع الحسن البصري من سمرة ما وجدوا له سماعاً تدري إلَّا سماع في حديث العقيقة، والأحاديث الأخرى جاء العلماء المحققون نفوا سماعه من سمرة. نقول: حتى لو سمع، أن هذا الحديث جاء بالعنعنة، والحسن البصري مدلس ولا تمر عنعنته، مراسيل البصري كالريح فعنعنته لا تمر، لا نمررها. فالحسن البصري مدلس وقد عنعنه عن سمرة بن جندب، ففي الحالتين الحديث ضعيف.

- والحجة في الصحاح، الأحكام فرع على التصحيح، فما دام الحديث ضعيفاً يبقى لنا الأحاديث الأخرى والآثار الأخرى التي أثبتت التفريق بين العبد وبين الحر، فلا يقاد حر بالعبد، لا يقتل الحر بالعبد.

▪ إذا قتل الرجل المرأة يقتل بها وهذا بالإجماع ولله الحمد، وقد ورد أصلاً في الكتاب قول الله تعالى: (النَّفْسَ بِالنَّفْسِ) على العموم، ولم يأتِ المخصص. وفي فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أن رجلاً يهودياً قتل جارية، فقتله النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الجارية. ففعل النبي يدل على أن يستوي مع المرأة فيقاد الرجل بالمرأة، فإن قتلها يقتل بها.

▪ قتل المسلم بالكافر؛ الكافر له حالتان: الحالة الأولى كافر حربي، والحالة الثانية كافر ذمي أو معاهد أو مستأمن.

أمّا الكافر الحربي فمعروف، وأمّا الكافر الذمي فنحن نقول: لا يجوز ابتداءً للمسلم أن يقتل الكافر الذمي، قد بينا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- برئ ممن فعل ذلك، بل قال بالوعيد الشديد الأكيد: (لم يرح رائحة الجنة). فإذا تجرأ المسلم على قتل الكافر الذمي، فهل يقتل به أو يقاد به أم لا؟ خلاف بين العلماء أيضاً:

١- أما جمهور أهل العلم -مالك والشافعي وأحمد- قالوا: لا يقاد به، ولا يمكن أن يستوي من يقول لا إله إلّا الله، ومن يشرك بالله جلَّ في علاه، لا يستويان في الدماء وإن كان له العصمة في دمه وماله وعرضه، لكن لا يستوي معه بحال. واستدلوا على ذلك بأدلة من أقوى ما تكون في الصحيحين، حديث علي وروايات أخرى.

حديث علي -رضي الله عنه وأرضاه- في حديث الصحيح، الحديث فيه إلماح بالمفهوم وفيه بالمنطوق؛ أمّا المفهوم: المسلمون تتكافأ دمائهم، ما معنى "المسلمون تتكافئ دمائهم"؟ يعني غير المسلمين لا تتكافئ دماؤهم. فمفهوم المخالفة: أن غير المسلم دمه وإن كان معصوماً لكن لا يكافئ دم المسلم. قال: "المسلمون تتكافأ دماؤهم"، إذاً غير المسلمين لا تتكافئ دماؤهم، هذا مفهوم المخالفة.

الأقوى دلالة: تصريح في حديث علي بن أبي طالب عندما قال لا فهماً: (يؤتيه الله عبداً في كتابه وهذه الصحيفة)، ما في الصحيفة؟ قال: (فكاك الأسير وإلّا يقتل مسلم بكافر)، وهذا نص صريح في البخاري عن علي بن أبي طالب وإسناده كالشمس، فهذا لا منازعة فيه. قال علي ابن أبي طالب: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ولا يقتل مسلم بكافر). وأيضاً هذا حديث رواه أحمد في مسنده: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن قتل مسلم بالكافر، هذه أدلة الجمهور.

٢- أمّا الأحناف قاموا قالوا: نحن وأنتم أثبتنا حرمة دم الرجل المعاهد الذمي، أيضاً عندنا أدلة تثبت حرمة الدم وأنه يقتل به. قلنا ما هي الأدلة؟ قالوا حديث ابن البيلماني (هذا من التابعين)

عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قتل رجلاً مسلماً كان قد قتل ذمياً، فقتله به وقال: (أنا أحق من وفّى بذمته) ولنِعْمَ والله، لأننا لابد أن نوفي بالعهود، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) [المائدة:1]، ولا بد أن توفي بالوعد لأنها من صفات المؤمن وسمات المؤمن. فقال: (أنا أحق من وفّى بذمته)، فقتل المسلم بسبب قتله للذمي، وهذا دليل صريح على أن المسلم يُقتل بالذمي الذي له العهد والأمان.

والصحيح الراجح بين القولين هو قول الجمهور وأنه لا يقتل المسلم بالكافر، لكن يعزر للإمام أن يحبسه للإمام، أن ينفيه. لولي الأمر أن يفعل به ما يفعل، لكن لا يقتله به، وإن قتله يكون ظلماً لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنص الصريح قال: (لا يُقتل مسلم بكافر)، ولا يستوي من قال لا إله إلّا الله ومن أشرك بالله جلَّ في علاه. لكن إذا قلنا بان هذا هو الراجح الصحيح وأن هذا صريح قول النبي، فكيف نرد على المخالف بقاعدة وهي: ثبت العرش ثم أنقش؟

أمّا الحديث الذي استدل به الأحناف فهو ضعيف من وجوه:

- الوجه الأول: ابن البيلماني هذا تابعي، ويرويه عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالضعف يلوح عليه لِمَ؟ ابن البيلماني هذا تابعي ويروي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، أين رآه؟ روى عن النبي، أكيد هناك واسطة سقطت. فالضعف الأول أن الحديث مرسل، والإرسال ضعف، ومعنى الإرسال: إسقاط الواسطة، أين الواسطة التي أخذت منه الحديث؟ ما علمناه؛ ممكن أن يكون ضعيف، ممكن يكون وضاع، كذاب، ممكن يكون ثقة. وللاحتمال قلنا: الحديث ضعيف للإرسال، هذه العلة الأولى.

- الوجه الثاني: ابن البيلماني قال فيه المحدثون: إذا وصل الحديث فالحديث ضعيف، يعني هو ضعيف إذا وصله فهو ضعيف فما بالكم إذا أرسل؟!! فهذا ضعف مركب، ضعف فوق ضعف، فهو ضعيف عند علماء الحديث.

- الوجه الثالث: قالوا في هذا الحديث "حديث ابن البيلماني عن النبي -صلى الله عليه وسلم-": أن إرسال ابن البيلماني ضعيف، الطريق إليه في ابن أبي يحيى، وابن أبو يحيى متروك.

إذاً للحديث ثلاث علل بالترتيب من الأقوى للأضعف:

🡸 ابن أبي يحيى؛ أولاً الترك، لأن المتروك يجعل الحديث ضعيف جداً، ممكن نقول كذّاب، نقول الحديث موضوع.

🡸 الثاني الضعف.

🡸 الإرسال، لأن هناك خلاف بين علماء الحديث هل المرسل مقبول أم لا؟ فالذي فيه خلاف يؤخّر.

فالصحيح أن: أولاً المتروك يكون أول، هذا أقوى العلل، تعصب الجناية به. تقول أولاً ابن أبي يحيى متروك فالحديث هالك، ضعيف، الإسناد مظلم. الثاني ضعف ابن البيلماني. الثالث إرسال ابن البيلماني. فالحديث هالك، ليس فيه رائحة الصحة، فلا يصح لكم الاحتجاج به، وأحاديثنا في البخاري بإسناد كالشمس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (المسلم لا يُقتل بكافر)، فالراجح أن المسلم لا يُقتل بكافر.

تبقى لنا مسألة التارك لدينه المفارق للجماعة، وهذه الجملة الأخيرة. الجزئية الثالثة جزئية مهمة، وأيضاً الفوائد المستنبطة مهمة جداً لأن طلع علينا طبعاً العلماء المعاصرين، وما أدراك ما العلماء المعاصرين، قالوا: إن الردة ليس لها حكم في دين الله جلَّ في علاه، ما في حكم ردة بحال من الأحوال ولا حد. قلنا: ما في حد للردة والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من بدّل دينه فاقتلوه)؟ قالوا: هذا على الاستحباب. قلنا: لِمِ؟ قال: عندي الدليل، قلنا: ما هو؟ قال حديث ابن أبي السرح.

ابن أبي السرح رجل كان أخ بالرضاعة لعثمان بن عفان، ذهب الى المدينة فأسلم، وذهب يكتب الوحي للنبي، ثم والعياذ بالله نكص على عقبيه، ارتد ورجع المدينة، بل وطعن في النبي وقال: ما كان يدري محمد ما أكتب له، أعوذ بالله حاشى لله وحاشى للرسول -صلى الله عليه وسلم-. كان يقول: أن أنا أدخل عليه في الوحي، ويقول: أن هذا من قول الله جلَّ في علاه.

فالحاصل ابن أبي السرح ارتد وكفر، بل وسب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، يعني هذه ردة مركبة، ومع ذلك دخل عثمان بن عفان بابن أبي السرح للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له: يا رسول الله بايع ابن أخيك. فأشاح النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يريد، يريد أن يُقتل. فألح عليه عثمان، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ما يريد، حتى يعني استحيا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم وضع يده وبايعه، ثم لام أصحابه وقال: (أما منكم من رجل ر يعلم أنني كففت يدي عن مبايعته أن يقتله؟ قالوا: والله ما علمنا ما في صدرك يا رسول الله، لو أشرت إلينا بعينك، قال: ما كان لرسول أن يكون له خائنة أعين)، فكفوا عنه لأن الله كتبه في اللوح المحفوظ أنه يموت مسلماً، والحمد لله الذي أنقذه من النار.

فاستدلوا بحادثة ابن أبي السرح أنه لا يوجد حكم للمرتد، ما وجه الدلالة عنده؟ طبعاً هذا كلام قوي، لكن نعلم وندقق النظر بأن الله جلَّ وعلا بيّن لنا أن الملبِّس ملبِّس بحق، قال الله تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) [الأنعام:121]. تلبيس حق في باطل، من غير الممكن أن يأتيك بالباطل ظاهر، يلفه في لفافة الحق حتى الأغرار الأغمار ما يعرفون شيء، يسمعون يصوتون ويصفقون: هؤلاء أصحاب الدين المستنير، أمّا المتشددين المتطرفين هؤلاء ابعد عنهم.

فنقول: أتى بدليل صحيح وقال بأن ابن أبي السرح لم يقتله النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه ردة. ما وجه الدلالة عنده؟ لو كانت الردة حد من عند الله جلَّ في علاه ما جاز لرسول الله أن

يسقط حد الردة، ما جاز له أن يسقطها فكيف أسقطها؟ وطبعاً الذي يعضد هذا القول القوي هو: أن صفوان لمّا الرجل سرق منه رداؤه، أخذه الى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فرفع الأمر لولي الأمر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اقطعوا يده)، قال: يا رسول الله قد غفرت له، فقال: (هلا كان ذلك قبل أن تأتيني). هذه دلالة على أنه إذا ظهر على السطح وعلمها ولي الأمر لا يجوز له أن يسقطها، لا بد أن يقيم الحد. فلا يجوز لولي الأمر لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو ولي الأمر في هذا العصر أن يسقط حد الردة، لو كان حداً. فمعنى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قتله وأسقط قتله أن الردة ليس لها حد.

هذا إشكال صراحةً قوي، والرد عليه قوي لأنه يحتاج لتمحيص النظر، ولن تجده إلّا في ثنايا الكتب لأنها مسألة صراحة ليست بالهينة. لِمَ أشاح النبي -صلى الله عليه وسلم- بوجهه؟ الأخ أجاب قال: عندنا آية تبين سقوط الحد، قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [المائدة:34]، فكيف أن هذه الآية تجعلك تسقط حد الحرابة؟ هناك دلالة أخرى قوية جداً في الآية، ختم الآية، قال: (أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، فيستلزم بأن الله قد غفر ورحم؛ غفر يعني الذنب لا يؤخذ به، ورحمه أنه لا يقام عليه الحد. لكن هذه الآية خاصة بالحرابة فقط، لأن هناك خلاف عريض بين العلم هل الحرابة حد أم لا؟ والمسألة صراحة في الحرابة ترجع لولي الأمر، يفعل فيها ما شاء.

وكان يوم فتح مكة، يوم المرحمة، رجلاً مسلماً طيباً عفيفاً تقياً، لعب الشيطان برأسه فزنى بامرأة في المدينة، وذهب إلى مكة وجلس. فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- في فتح مكة وقال: (أنتم الطلقاء، ومن دخل بيت أبي سفيان)، فقام رجل فقال: يا رسول الله هذا رجل زنى، وجب على النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يقيم الحد عليه، يوم المرحمة لا يسقط الحدود. سأبيّن لك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تركه ما قتله لأن هذا حده حد بالوصف، وتعديه تعدي بالذات، والزنا وقتل النفس والسرقة حد بالنفس وتعدي للغير، فافترقا فاختلفا في الحكم. أقول قتل الردة حد بالوصف، فإذا كان حد قتل بالوصف فكأن الحكم مرتبط بالعلة، وعندنا القاعدة: الحكم يدور مع علته حيث دارت؛ إن وصف بالردة قتل، فإن زال الوصف لن يقتل. كان ابن أبي السرح وصفه الردة، جاء للنبي وقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وصفه الآن مسلم زال الوصف، زال الحكم، والأسبوع القادم يكون التفصيل بإذن الله، لأن الحد هنا ليس حداً للذات ولا حداً في التعدي بالغير، حد بالوصف، فقط لمّا زال الوصف. طبعاً هناك فوائد مستنبطة أخرى إن شاء الله سنبينها مع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (التارك لدينه المفارق للجماعة)، وأصل الباب أن تارك السنة، يمكن له إذا دام على ترك السنة سنبيّن أنه يترك دينه بالجحود. هل ترك السنة المتواتر يساوي ترك السنة الآحاد؟ وجحد السنة هل يساوي جحد القرآن أم لا؟ هذا الأسبوع القادم نفصله إن شاء الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس السابع عشر: باب في أمر النبي بالقتل لمن فارق الجماعة (2)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك، كتاب السنة لابن أبي عاصم، وبلغنا بفضل الله وبحوله وقوته ومنه وكرمه علينا باب: في أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقتل لمن فارق الجماعة، شرحنا نصف الحديث، بقي لنا أجزاء منه.

بسم الله، الحمد لله، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

عن عبدالله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله إلّا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة).

قد بينا الأسبوع الماضي بفضل الله مناسبة الحديث، وكيف أن هذا من بديع تسلسل التصنيف، وأن هذه دقة نظر عند المصنف، وبينا أنه يشير الى أن الذي يترك السنة يكون ذلك طريقاً إلى أن يترك دينه كليةً، وانتهينا في شرح الحديث إلى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (التارك لدينه المفارق للجماعة). واليوم إن شاء الله بعدما ننتهي من جزئية هذا الشرح نأخذ الفوائد المستنبطة، لأن هذا الحديث كما قلت ما ينتهي في مجلدات، فنسأل الله جلَّ وعلا أن نوفي أهم جزئيات هذا الحديث.

(التارك لدينه المفارق للجماعة)؛ هذه إشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- لحكم الذي يخرج من دينه، فالتارك لدينه هو المرتد الذي خرج عن دينه، ولذلك العلماء قالوا في أحكام الردة: الترك للدين هو الردة. والردة لغة: هو الرجوع عن الدين الذي كان يعتنقه أو الرجوع عن الدين الذي كان يدين الله به، وشرعاً: هو الارتداد من أصل دين الإسلام أو الرجوع عن دين الإسلام، كما قال الله تعالى: (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ) [البقرة:217].

فالردة: معناها الخروج عن دين الإسلام بنطق أو اعتقاد أو فعل.

- بقول؛ كسب الله -والعياذ بالله-، كسب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كسب الدين، فكل ذلك ردة ليس فيها ثمة إقامة حجة ولا إزالة شبهة كما بينا ذلك تفصيلاً قبل هذا. والدليل من الكتاب على ذلك قول الله تعالى: (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) [التوبة:65-66]، فهذه الردة بالقول.

- أو فعل؛ كالسجود للصنم، أو السجود للشمس أو للقمر، السجود عامة لغير الله جلَّ في علاه ردة عن الدين. توافقون؟ والتارك لدينه هو الذي يسجد لغير الله جلَّ في علاه، يسجد لشمس، لقمر، يسجد لمعظم، يسجد لأمير، لملك، يكفر ويخرج من الملة. فهذا أيضا ينزل تحت قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (التارك لدينه)، فمن سجد لغير الله فقد ترك دينه، فقد خرج من الملة. توافقون؟

(فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) [الأنعام:90]، فهو أمره أن يقتدي بهداهم، وابن عباس قال: في سورة ص أن سجد النبي -صلى الله عليه وسلم- لسجود داود، وهذا على الخلاف بين العلماء. وقرأ ابن عباس الآية (فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)، فهذا هو أصل الدليل عند علماء الأصول الذين يقولون بأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأتِ من شرعنا ما ينسخ شرع ما قبلنا. يبقى يصح للأخ الكريم أن يستدل أيضاً بأن السجود للشمس والقمر كفر، لأنه أنكره الهدهد وبيّن الإنكار الشديد، وذهب سليمان ليعبدهم لله الواحد الغفار سبحانه جلَّ في علاه.

حديث: (لو كنت آمراً أحد أن يسجد لأحد)، هذه دلالة واضحة جداً أن السجود لا يكون إلّا لله جلَّ في علاه. أيضاً يمكن أن يقال: (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) [النجم:62]، فهذا السجود أمرٌ من الله جلَّ في علاه، والذي يأمر به الله جلَّ في علاه أحبه الله وكان عبادة وينزل تحت مسمى العبادة العام، وكل ما أحبه الله جلَّ في علاه أمر به فهو عبادة، فإذا صرفها لله توحيد، وإذا صرفها لغير الله شرك. إذاً نقول أن من أبواب الردة أيضا الفعلية من سجد لغير الله جلَّ في علاه، أو من سجد للشمس والقمر.

- وأيضاً من أبواب الردة العقدية الاعتقادية؛ أن يعتقد في أحد غير الله ما لا يُعتقد إلّا في الله جلَّ في علاه، أن يعتقد أن أحقية التوحيد لغير الله، فكل عقيدة اعتقدها المرء في غير الله ما لا تُعتقد إلّا في الله جلَّ في علاه يخرج به من الملة أو يكفر به.

هذه أبواب الردة التي بها صاحبها من الملة؛ إمّا قولاً وإما فعلاً وإما اعتقاداً. جعل الشرع حداً لهذه الردة أو لهذه الجريمة العظيمة ألا وهو القتل، وحد الردة القتل الدلالة فيه من حديث متفق عليه ومن أحاديث أخرى في السنن؛ الحديث المتفق عليه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث)، إذاً يحل دم امرئ مسلم بواحدة من هذه الثلاث، ومنها التارك لدينه المفارق للجماعة. ولنا في هذا الباب مسائل منها:

- أولاً: قتل المرتد هل هو على العموم؟ على الرجال والنساء أم هو على خصوص الرجال؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين:

١- القول الأول هو قول جماهير أهل العلم من المالكية والشافعية والحنابلة، قالوا بأن حكم الردة القتل وهو يعم الرجال والنساء، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة؛ منها أولاً حديث الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث)، وذكر التارك لدينه. ووجه الدلالة من هذا الحديث هو العموم، (التارك لدينه) عامةً سواء كان رجلاً أو كان أنثى، فعموم الحديث يدل على قتل الرجال وقتل النساء.

الحديث الثاني الذي استدلوا به؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من بدّل دينه فاقتلوه)، وهذا أيضاً فيه دلالة مثل دلالة الأول، العموم، قال: (من) من صيغ العموم، سواء كان رجلاً أو امرأة يُقتل.

وأيضاً في سنن الدارقطني وغيره، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا بعث معاذاً إلى اليمن قال له: (من ارتد عن دينه فادعوه، فإن أبى فاقتله). ودخل معاذ -رضي الله عنه وأرضاه- على أبي موسى الأشعري فوجد رجلاً عنده معلقاً، فقال: من هذا؟ قالوا: رجلٌ قد رجع عن دينه، فقال معاذ: والله لا أجلس حتى يقضى فيه بكتاب الله. فعلم أبو موسى ما يريده معاذ، فضرب عنقه فقتله، فجلس معاذ -رضي الله عنه وأرضاه-. وهذا على العموم على أنه قال: يقضى فيه بكتاب الله جلَّ في علاه، وهذا أيضاً فيه إشارة على العموم.

٢- القول الثاني هو قول الأحناف، قالوا: لا سواء بين الرجل والمرأة، فالمرأة تحبس حتى تُسلم أو تموت على ذلك، فلا قتل للنساء. واستدلوا على ذلك بأدلة أثرية ونظرية؛ أمّا الدليل الأثري عندهم حديث ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض المغازي مر على امرأة قد قتلت، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتل النساء وقال: (ما كانت هذه لتقاتل)، فنهى عن قتل النساء وأيضاً نهى عن قتل الصبيان. فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتل النساء بعدما مر على المرأة المقتولة، قالوا هذه فيها دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن قتل النساء الكافرات، وهذا على العموم.

والتدلل بالقياس على الأثر؛ قالوا أولاً الكافرة الأصلية إن كانت لا تقتل فالمرتدة أيضاً لا تقتل بجامع الأنوثة، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا منع قتلها لأنها أنثى، فبجامع الأنوثة لا

تقتل المرتدة كما لا تقتل الكافرة الأصلية. وقاسوا أيضاً الكافرة على الصبي، قالوا أتفقنا نحن وأنتم على قتل المرأة واتفقنا على أن الصبي لا يقتل سواء ارتد أو ما ارتد، كان كافراً أصلياً أو غير أصلي، لا يقتل الصبي بحال من الأحوال. طبعاً هو لا يقتل، والاتفاق في ذلك على أن الصبي غير مكلف، حتى لو ارتد فهذه الردة لا تحكم بها كما سنبين في الرد عليهم. قاسوا المرأة على الصبي.

فهذان قولان: قول الجمهور هل تقتل المرأة مع معهم أم لا، وقول الأحناف.

والصحيح الراجح في ذلك عموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من بدّل دينه فاقتلوه)، وعموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (التارك لدينه)، وهي تركت دينها فتقع تحت طائلة الحديث ولا مخصص فإن القاعدة عند العلماء: يبقى العام على عمومه ما لم يأتِ مخصص يخصصه؛ وهنا لا مخصص.

وأمّا القياسات سنردها بعد قولنا بحديث أبي داود: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فإن النساء شقائق الرجال في الأحكام)، هذا تأصيل عام وقاعدة كلية من الشرع، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال وقرر أن المرأة كالرجل في الأحكام ما لم يدل الدليل على تخصيص المرأة عن الرجل. فقوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن النساء شقائق الرجال في الأحكام) يدل على أنهما سواء في الأحكام.

أمّا الأدلة التي استدل بها الآخرون؛ أولاً حديث ابن عمر ليس في النزاع، لأن حديث ابن عمر في الكافرة الأصلية، وحديثنا وكلامنا في مسألة المسلمة التي كفرت، التي ارتدت عن دينها. قالوا: لا فارق، الكافرة الأصلية كالمرتدة، لأن هذه حكمها الكفر وهذه حكمها الكفر. قلنا: لا هناك فوارق كثيرة بين الكافرة الأصلية وبين الكافرة المرتدة؛ فإن الكافرة المرتدة أغلظ، الردة أغلظ من الكفر الأصلي. قالوا: أغلظ؟ كيف ذلك؟

- أولاً: الكافرة الأصلية إن قاتلنا أهل الكفر تسبى وتكون غنيمة، وأمّا المرتدة لا تكون غنيمة، لا بد أن تقتل. الكافرة الأصلية فيها نفع للمسلمين لذلك نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتلها، فهي غنيمة للمسلمين، وليست كذلك المرتدة.

- الثاني: الكافرة الأصلية أو الكافر الأصلي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وضع السيف عنهم بحالة من حالتين؛ إمّا الإسلام، فإن أبوا فيدفعون الجزية، فإن دفعوا الجزية أسقط عنهم القتل. وليس ذلك أيضاً في مسألة الردة، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يخير بل قال: (من بدّل دينه فاقتلوه)، وهذا فارق آخر من الفوارق التي الفرق بين الكافرة الأصلية وبين الكافرة المرتدة التي رجعت عن دينها.

فهذه فوارق ترد على الأحناف، فيصفوا لنا الدليل ونرى أن الصحيح أن التي ارتدت عن دينها تقتل، ولا تقتل الكافرة الأصلية، لعموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من بدّل دينه فاقتلوه).

■ المسألة الثانية: هل يستتاب المرتد أم لا؟ يعني يقتل قبل أن يستتاب أم يستتاب؟

هذا أيضاً خلاف بين العلماء:

١- قال الحسن -وهي رواية عن ابن عباس-، وقال طاووس: لا يستتاب، بل المرتد لا بد أن يقتل، فهو كافر ويقتل حداً، وهذا الحد لا يغني عنه شيئاً في الآخرة، فإنه في الآخرة يكون خالداً مخلداً في نار جهنم. واستدلوا على ذلك بأدلة منها؛ عموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم- أو ظاهر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من بدّل دينه فاقتلوه)، وقوله: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث)، ولم يفصّل يستتاب أم لا، فهذا عموم وظاهر على أنه يقتل دون أن يستتاب. واستدلوا أيضاً بواقعة معاذ بن جبل -رضي الله عنه وأرضاه-، لمّا وقف أمام أبي موسى وقال له: والله لا أجلس حتى يقضى فيه بكتاب الله، فقتله، ضرب عنقه، لم يستتيبه أبو موسى فضرب عنقه، فجلس معاذ بن جبل. وأيضاً قالوا إن المرتد يفسد في الأرض، فلا بد من قتله دون الاستتابة.

٢- القول الثاني قول جمهور أهل العلم، قالوا: لا بد من الاستتابة، بل تجب الاستتابة، واستدلوا على ذلك بأدلة منها: حديث معاذ -وهذا حديث اختلف في إسناده-؛ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث إلى معاذ، بعدما بعث إلى اليمن بعث إليه فقال: (ومن ارتدت) وهذا نص في المرأة، (ومن ارتدت عن دينها فادعها، فإن أبت فاقتلها)، وهذا نص ظاهر وصريح. قال: (فإن ارتدت عن دينها فادعها)، يعني تستتيبها، تقول لها ارجعي إلى الإسلام، اشهدي أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، ارجعي عمّا جحدتي. (فإن أبت فاقتلها)، فجعل القتل مشروط بشرط ألا وهو الإباء منها بعد دعوتها إلى الإسلام، وهذا نص في المسألة.

الثاني حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- عندما أرسل إليه أبو موسى الأشعري: أن رجلاً رجع عن دينه فقتلناه، فقال: لم يستتيبوه؟ ثم رفع يديه وقال: اللهم إني ما شهدت هذا ولمّا بلغني لم أرضَ عن ذلك. وهذا في محفل من الصحابة، جعلها بعض العلماء أن هذا إجماعاً سكوتيا من الصحابة، لأنه أنكر عليهم ما فعلوه بأنهم قتلوه دون أن يستتبوه. قال: هلا تركتموه ثلاثاً (أي ثلاثة أيام) تدعونه إلى الله جلَّ في علاه، تطعمونه كل يوم رغيفاً لعله يرجع إلى دينه. وهذا قول فصل من عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-.

فالراجح الصحيح من ذلك هو قول العلماء الجمهور، جمهور الأئمة الذين قالوا بالاستتابة، وهم الأئمة الأربعة، لا سيما وأن هذا يكون إجماعاً سكوتياً في عصر عمر. والأمر الثاني الحديث الذي صححه بعض العلماء: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نص على أن المرأة التي ارتدت ادعوها للإسلام أولاً، (فإن أبت) وهذا شرط، (فإن أبت فاقتلها). مفهوم المخالفة: إن لم تأبَ ورجعت للإسلام فلا تقتلها، إذاً لها الاستتابة.

ومن النظر؛ النظر يعضد قول الجمهور، لأن الأصول الكلية والمقاصد الشرعية يتشوّف الشارع لإسلام الكافر، فما بالك الذي علم حكمة هذا الدين وعلم قوة هذا الدين وعلم حنيفية هذا الدين، فإن الإسلام يتشوّف لرجوع هذا المرء الى حظيرة الإسلام. فمن النظر أن الإسلام يتشوّف في إسلام الكافر، فمن باب أولى أن يتشوف ابنه الذي هو ابن الإسلام أن يرجع. فالصحيح الراجح أن المرتد يستتاب، فإن لم يتب يقتل بعد ذلك.

هذه المسألة الثانية التي تتعلق بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (التارك لدينه المفارق للجماعة).

الفوائد المستنبطة:

١- قول علماء الأصول: الاستثناء معيار العموم؛ بمعنى أن الجميع معصوم الدم إلّا الثلاثة فقط، ولا يتعداه، هذا معنى قول: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث)، يعني يمكن أن يكون الدم المسلم حلال إلّا بواحدة من ثلاثة: تارك لدينه (الردة)، أو ثيب زاني، أو قتل النفس بالنفس. إذا قلنا بهذا القول الأصولي وأن الاستثناء معيار العموم واجهتنا مشكلة عويصة، ألا وهي قد وردت الأدلة بأصناف غير هذه الأصناف الثلاثة، أباح النبي -صلى الله عليه وسلم- دماء هؤلاء، من هؤلاء:

▪ أولاً الذي يفعل فعل لقوم لوط، فإنه قد ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل على قوم يفعلون فعل قوم لوط فقال: (اقتلوا الفاعل والمفعول به)، هذا أول صنف من الأصناف. الذي يفعل فعل قوم لوط أحل دمه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول هنا إلا من إحدى ثلاث، فكيف نجيب عن هذا الإشكال؟

ابن عباس قال لما سألوه عن قوم لوط: يلقى من شاهق ويلقم بالحجارة حتى يموت. إذاً فحكم ابن عباس يوافق حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالقتل، وهو يعلم بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث).

▪ شارب الخمر في الرابعة؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فإن شرب في الرابعة فاقتلوه)، هذا ظاهر جداً على أن الذي يشرب الخمر المرة الرابعة بعد ما يجلد المرة الثالثة، في المرة الرابعة يقتل، وهذا أيضاً صنف غير الأصناف الثلاثة.

▪ حد الساحر؛ كما روي مرفوعاً وموقوفاً: (حد الساحر ضربة بسيف). وكان طبعاً حديث ظاهر جداً أن الصاحب الذي دخل على الساحر الذي كان يُجلس جنياً فيضرب عنقه، فتجري عنقه أمامه ثم يعيدها مرة أخرى، فأتى فضرب عنق الساحر وقال: أعد رأسك الآن. من الصاحب؟ جندب، وهو الذي روى حد الساحر ضربة بسيف، هذا صنف آخر.

▪ الذي يخرج على ولي الأمر، مسألته مسألة المقاتلة. الصحيح أن نقول إذا بويع لخليفة فقام الآخر يبايع له، ليس الخروج. عامةً الذي إذا بويع لخليفة فقام الثاني ليبايع له يُقتل أيضاً، لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فاقتلوا الآخر منهما).

▪ الذي يأتي البهيمة؛ ابن عباس له حديثان في هذه المسألة، وهذه من أعجب ما تكون: الحديث الأول قال: (لا تؤكل منها)، نهى عن الأكل منها إذا جامعها الرجل، يعني إذا أتى بهيمة. وقال في الحديث الآخر: (فاقتلوه واقتلوا البهيمة)، فمن رؤي أنه يأتي البهيمة فيقتل.

فإذاً عندنا أصناف كثيرة -أربعة او خمسة- تغاير هذه الأصناف الثلاثة، وعندنا الاستثناء معيار العموم، فكيف نجيب عن هذا الإشكال؟

نقول إذا كان معياراً للعموم فلا يمكن أن يستحل أحد دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: ثيب زاني، أو قاتل النفس بغير حق، أو التارك لدينه المفارق للجماعة. فكيف نجيب عن هذه الأصناف الخمسة؟ شارب الخمر في الرابعة، الذي يفعل فيها قوم لوط، والذي يأتي البهيمة، وأيضاً حد الساحر؟ كيف نجيب عن هذا؟

الاستثناء معيار العموم؛ يعني العموم نص فيه أن كل الأصناف معصومة الدم إلّا ثلاثة فقط، فالآن اتفقنا مع العلماء على أن الاستثناء معيار العموم. واجهتنا مشاكل، هذه المشاكل أن هناك أصناف غير الثلاثة يحل بها الدم. إجابة من الإجابات:

♦ العلماء لمّا نظروا قالوا: لا، الاستثناء معيار العموم كما هو، فإنه لا يحل دم امرئ مسلم بحال من الأحوال إلا بإحدى ثلاث: ثيب زاني أو قتل النفس بغير وجه حق أو التارك لدينه المفارق للجماعة. قلنا: هذه الأصناف؟ قالوا: هذه الأصناف خاصة برسول الله، قلنا: ليست خاصة برسول الله، خاصة بولي الأمر. قالوا: نعم، خاصة بولي الأمر تعزيراً. يعني لو رأى ولي الأمر أن الذي يفعل في البهيمة وأنه رجل سينشر الفساد في الناس، كلما يمر الناس يجدوه يقع على البهيمة، يترك الرجال النساء ويقعون على البهائم مثلاً، فينشر الفساد، فيقتله تعزيراً له ذلك، عند من يقول بأن القصد تعزيراً يصح. وأيضاً قتل شارب الخمر في الرابعة، قالوا: هذا يعتبر تعزيراً، يعني خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني خاصة بولي الأمر. هذا وجه من وجوه الجمع، وهو وجه وجيه.

♦ الوجه الثاني من وجوه الجمع عند العلماء قالوا: إن هذه الاحاديث منسوخة، الأصناف هذه الستة منسوخة. قلنا: أين الناسخ؟ قالوا: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث)، يعني هذا نص قاطع في المسألة، فهذا نسخ كل الأصناف التي جاءت قبل ذلك. قلنا: النسخ لا بد له من دليل، إلّا أن نستطيع أن نجمع أيضاً حتى لو كان المتأخر والمتقدم عُلِم، ونستطيع الجمع فلا نذهب إلى النسخ. لكن نوافق على النسخ في مسألة الخمر، وممكن لا نوافق عليه أيضاً. يعني هم قالوا: قتل شارب الخمر في المرة الرابعة منسوخ، واستدلوا على ذلك بأن عياض بن حوار

كان أكثر ما يؤتى به ويضرب ويجلد في شرب الخمر، وقال: خالد ما أكثر ما يؤتى بك، لعنة الله عليك، قال النبي -صلى الله عليه وسلم: لا تلعنوه. فأوتي به أكثر من أربع مرات ولم يقتله النبي -صلى الله عليه وسلم-، دل على نسخه. قلنا: هذا دلالة على أن المصلحة العامة ترجع لولي الأمر، لكن هو صراحة فيه دلالة على النسخ. فإذاً الوجه الثاني وجه النسخ.

♦ الوجه الثالث سلكه بعض العلماء، قالوا بالترجيح، قالوا: تعارضوا الآن، ولا نعرف المتقدم منه المتأخر، ولا نستطيع الجمع. هو هنا الآن معيار العموم الاستثناء، وقال: لا يجوز أن يستحل دم امرئ مسلم إلّا في ثلاث حالات: الثيب الزاني، النفس بالنفس، أيضاً التارك لدينه المفارق للجماعة. فقالوا: هذا معيار العموم، ولا نخرج عنه.

وجاءتنا أدلة أخرى تعارضه باستحلال الدم في الذي يفعل في البهيمة، الذي يفعل قوم لوط، الذي يشرب الخمر أكثر من مرة. فقالوا: تعارضوا، فإذا كانت الأدلة متعارضة أو ظاهرها التعارض لأنها كلها من مشكاة واحدة لا يمكن أن تتعارض. فقالوا: ظاهرها التعارض، إذاً نلجأ إلى الترجيح. وحديثنا متفق عليه، وكل الأحاديث التي جاءت في البهيمة، وفي الفاعل فعل قوم لوط أكثرها أحاديث ضعيفة، المتقدمون أكثرهم ضعّفوا هذه الأحاديث، ومن المتأخرين صححها. فقلنا هذه الأحاديث مختلف في تصحيحها وتضعيفها، لا متفق على إسنادها حسن حتى، مختلف في تضعيفها وتصحيحها. والحديث الذي بين أيدينا: (لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث) متفقٌ عليه، والمتفق عليه يقدّم على كل ما خالفه.

قالوا: فإذاً تعارضا، فنقدّم هذا الحديث، ولا يمكن أن يُعمل بهذه الأحاديث التي تخالف هذا الحديث. ولذلك ترى كثير من الفقهاء يقولون: هل يصح في الأذهان أن نسيل دم امرئ مسلم الأصل في دمه العصمة لأننا وجدناه على بهيمة؟ لا يحل بحال من الأحوال أن نترك هذا الحديث المتفق عليه (لا يحل دم امرئ مسلم)، ونسيل هذه الدماء بمثل هذا الحديث الذي تكلم العلماء فيه كلاماً كثيراً. فإذا الوجه الثالث هو وجه الترجيح.

فإن لم نستطع أن نجمع كالجمع الأول وهو الوجه الحسن، وهو مسألة أن هذا من باب التعزيرات ويرجع لولي الأمر إن رأى المصلحة بذلك. فإننا نقول الترجيح أولى من النسخ، لأننا لا نعلم المتقدم من المتأخر، فالترجيح هنا للحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم عن الأحاديث الأخرى.

٢- (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)، من أين نستنبط هذه الفائدة؟ (التارك لدينه المفارق للجماعة)، هنا وجه الشاهد: (المفارق للجماعة)، لأنه لمّا فارق الجماعة سهل أن يضيع دينه. ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينصح نصيحة غالية لحذيفة أنه يبقى مع جماعة المسلمين، فإن لم يجد للمسلمين جماعة فليعض على أصل شجرة. فالاعتزال لا يصح بحال من الأحوال، إلّا إذا لم يجد للمسلمين جماعة.

والمعنى الصحيح للجماعة: ما كانوا على الحق، معيارها ليس الكثرة ولا القلة، معيارها الحق. ولذلك سئل ابن مسعود: من الجماعة؟ قال: من كان على الحق ولو كان واحداً. إذاً معيار الجماعة لا يكون الكثرة ولا القلة، معيار الجماعة هو الحق، والحق لا يعرف إلّا بقال الله قال رسوله. فأنت زن المرء أو زن الجماعة التي أنت عليها، أو زن الجماهير الذين تحبهم أو ترافقهم أو تحب أن تجلس لهم أو تسمع لهم، زنهم بالكتاب والسنة. فإن وافقوا فهؤلاء هم الجماعة وعض عليهم بالنواجذ، وإن خالفوا فابعد عنهم فإنهم ليسوا بالجماعة.

(إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)؛ وسترى أن كثير من المبتدعة ما ابتدعوا في دين الله إلّا لانهم فارقوا جماعة الكتاب والسنة.

٣- جواز تخصيص العموم؛ لأن القاعدة عند العلماء: يبقى العام على العموم ما لم يأتِ مخصص يخصصه. نقول: جواز تخصيص العموم، وتخصيص العموم له حالتان: تخصيص بالمتصل وتخصيص بالمنفصل؛ وحديثنا تخصيص بالمتصل، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يحل دم امرئ مسلم حرام إلّا بإحدى ثلاث)، هذا متصل وليس منفصل.

مثال على التخصيص بالمنفصل: (أمرت أن أقاتل الناس)، هذا عام فيمن دفع الجزء ومن لم يدفع الجزية، فجاءت الآية مخصصة قال: (حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) [التوبة:29]. وعندنا آية؛ قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) [البقرة:234]، هذه عامة خصصت بدليل منفصل، ما هو؟ (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) [الطلاق:4]، فهذه آية أيضاً خصصت هذا العموم. والذي يدلك عليه حديث سبيعة الأسلمية؛ هي حملت ثم مات زوجها، ففي اليوم التالي ولدت، فدخل أبو السنابل عليها وجدها تتهيأ للزواج، قال: يا لكع أتتهيئين للزواج، لا، حتى تمكثي أبعد الأجلين أربعة أشهر وعشر. قالت: فجمعت ثيابي عليّ فذهبت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت لرسول الله، فقال الرسول: (كذب أبو السنابل). ما معنى كذب؟ أخطأ، وهذه في لغة العرب معروفة، يعني اخطأ أبو السنابل. (حق لك أن تتهيأي للرجال)، في بعض الروايات قال: (إن جاءك صالح فتزوجيه)، هذه فيها دلالة على أن المرأة حامل تخص من الذين يتواصون عن أزواجهن.

٤- الأصل في النهي التحريم ما لم يأتِ دليل يصرفه إلى الكراهة، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل)، يعني يحرم، وما في دليل صرف هذا إلى الكراهة، فهو يحرم دم المرء المسلم.

٥- الردة حدها القتل، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من بدّل دينه فاقتلوه). وشوش علينا بعضهم وقال: ليس للردة حد، واستدل على ذلك بأن الحد لا يسقط بحال من الأحوال. وقال: إن ابن أبي السرح قد سب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعدما كان مسلماً ويكتب الوحي، فارتد وسب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقال: ما كان رسول الله يدري كنت أدخل على

كتابه. ثم بعد ذلك لما دخل مكة وأهدر النبي -صلى الله عليه وسلم- دمه لأنه قد ارتد عن دينه، فذهب عثمان برفقة عثمان ورجع إلى دينه، وذهب إلى النبي صلى الله عليه أراد أن يبايعه فلم يبايعه النبي، أراد أن يقتله احد، فما قتله أحد، حتى أذن الله لرسول الله أن يبايعه، والحمد لله الذي أنقذه من النار. لكن الغرض المقصود؛ قال بعضهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقتله وأسقط عنه حد القتل، فلو كان حداً ما جاز لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يسقط هذا عنه. فكيف نجيب على هذا الإشكال؟

أولاً قلنا: حد الردة القتل، لقول النبي: (من بدّل دينه فاقتلوه)، ولقول النبي: (التارك لدينه المفارق للجماعة). هذا الرجل جاء وشوش علينا قال: لو كان حداً ما جاز لرسول الله أن يسقطه، فقد أسقط عن ابن أبي السرح.

الإجابة: هو ارتد نعم، أول شيء نقرر ما عندنا، نقول: نعم الردة لها حد، ما هو الحد؟ القتل، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من بدّل دينه فاقتلوه)، لكن هذا الحد له استثناء، ما هو الاستثناء؟ الاستتابة بنص حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فادعها)، فإذا دعاها فأسلمت يسقط عنها الحد. فالنص جاء بالسقوط، ونحن ندور مع الشرع حيث دار، قلنا له: نعم هذا الحد المستثنى من كل الحدود، يمكن أن يسقط. لِمَ أسقطتموه؟ أسقطناه بالشرع، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما جعل حد المرتد القتل أسقطه بالتوبة، فإن تاب تاب الله عليه وسقط الحد. وجهة النظر في ذلك أن الردة حق محض لله جلَّ في علاه، وهذا الذي يفارق الحدود الأخرى من سرقة وزنا وقتل، لأن السرقة والزنا فيها حقان: حقٌ لله وحقٌ للعبد، فلا تستطيع أن ترد حق العبد إلّا بإقامة الحد عليه. فالذي قتل لا نستطيع أن نرد حق المقتول إلّا بقتل القاتل، والذي جنى لا نستطيع أن نرد حق المزني بها إلّا بإقامة الحد عليه، فهذه مفارقة بين الحق المحض والحق المشترك. إذاً قررناه بالنص أنه يسقط ونحن ندور مع الشرع حيث دار.

نقول هذا حد الردة حد وصل، بمثابة العلة للحكم، والقاعدة عند العلماء: الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً؛ فإذا وجدت الردة وجد القتل، انتفت الردة انتفى القتل. فحال ردته قبضنا عليه، حال ردته فلنا أن نقتله. لكن إن وجدناه قد تاب، فهو الآن مسلم. الحد اسمه حد الردة، هو الآن حاله تغير، هو الأول كافراً بالردة، فلما تاب أصبح مسلماً، والقتل للكافر وليس للمسلم. فإذا تبدل حاله أو اسمه أو وصفه، بدلنا مسألة الحكم.

الرد على من قال: بأن حد الردة ممكن أن يسقط؟ قلنا له: حد الردة وصف، والوصف بمثابة العلة للحكم، ويدور الحكم مع علته حيث دارت.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله عنا خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثامن عشر:

باب فيما أخبر به النبي أن أمته ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع الكتاب الجليل، كتاب السنة لابن أبي عاصم، انتهينا فيه من الباب السابع عشر، الباب الذي بعده تكلمنا عنه لكن لابد أن نتعرض له حتى ولو نمر مرور الكرام؛ ثم الباب الذي يليه.

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

باب ذكر قوله -عليه السلام-: (من رغب عن سنتي فليس مني):

عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من رغب عن سنتي فليس مني).

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من رغب عن سنتي فليس مني).

باب فيما أخبر به النبي -عليه السلام- أن أمته ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، وذمه الفرق كلها إلّا واحدة، وذكر قوله -عليه السلام-: (إن قوماً سيركبون سنن من قبلهم):

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، واحدة في الجنة وسبعين في النار. وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة. والذي نفسي بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: هم الجماعة).

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين، كلها في النار إلّا واحدة، وهي الجماعة). وعن معاوية قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن هذه الأمة ستفترق على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلّا واحدة، وهي الجماعة). وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (تفرقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة).

وعن أبي أمامة قال: افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، أو قال: اثنتين وسبعين فرقة، وتزيد هذه الأمة فرقة واحدة كلها في النار إلّا السواد الأعظم. فقال له: رجل يا أبا أمامة من رأيك أو سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ قال: إني إذاً لجريء، بل سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث.

وعن معاوية قال: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قام فينا يوماً فذكر: (إن أهل الكتاب قبلكم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة في الأهواء، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة في الأهواء).

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (افترق من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة، نجا منها ثلاثة وهلك سائرها). وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة، لم ينجُ منها إلّا ثلاثة). وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ستتبعون سنن من كان قبلكم باعاً بباع وذراعاً بذراع وشبراً بشبر، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذاً).

موضوع الشرح اليوم هو هذا، لكن أن نجرب الإخوة الآن، عندنا سؤالان من أشق ما يكون:

١- الأول: تفسير قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، هل الذي يترك سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-يكفر؟ يخرج من الملة؟ يستحق الخلود في نار جهنم أم لا؟ أم لها تأويل آخر؟

٢- وأيضاً هنا اضطراب؛ يعني الأحاديث والروايات التي جاءت في الثلاثة وسبعين: إحدى وسبعين، اثنتين وسبعين، أو ثلاثة وسبعين، هذه فيها مدعاة لأن نقول بأن حديث الثلاثة وسبعين فرقة مضطرب لأن الروايات الآن تختلف. واحد وسبعين، اثنين وسبعين، ثلاثة وسبعين؛ هذه تجعلنا نقف وقفة أن نقول هذا الحديث فيه اضطراب ونكون مع من ضعّفه أو يكون هذا فهماً مغلوطاً فتصححوا لي الفهم؟

أولاً الإجابة عن (فمن رغب عن سنتي فليس مني)؛ براءة، تبرأ منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومن تبرأ منه النبي -صلى الله عليه وسلم- فمن له في الآخرة إلّا الخلود في نار جهنم. إذاً كلما رأيت مبتدعاً فقل له: يا كافر، أعوذ بالله من الجرأة. القاعدة عند من يكفّر بهذه الطريقة، نقول له: جيم، جيم؛ جاهل جريء، كيف تتجرأ على هذا؟ قد شهد وثبت له الإيمان باليقين فكيف تخرجه؟ لكن كيف نؤول قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)؟

هذه نفس قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من غشنا فليس منا)، وقوله: (برئت الذمة ممن جلس بين أظهر المشركين)، وأيضاً قوله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من تشبه بقوم فهو منهم)، ليس منا بل هو منهم. بل في حديث صريح في السنن بسند صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من تشبه بغيرنا فليس منا)، وهذا سيأتي شرحه. ليس على منهجنا، يعني التبرئة هنا تبرئة من فعله ليست تبرئة منه ذاتاً؛ الدليل في التفريق بين التبرئة من الذات والتبرئة من الفعل، يعني (فليس مني) يعني ليس على هديي؛ قال: (اللهم إني ابرأ إليك مما فعل خالد)، تبرأ من الفعل ليس من خالد، من فعل خالد لأنه يخالف هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وعندنا آية ظاهرة جداً توضح لنا ذلك: (فَإِنْ عَصَوْكَ)، العصيان مخالفة لهدي النبي، قال: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [الشعراء:216]، فهذه براءة من العمل. فمعنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رغب عن سنتي فليس مني) يعني ليس على هديي، فإن فعله يخالف فعلي. وهذه فيها دلالة على أن فعله غير مقبول لكن هو ممكن أن يكون مقبولاً عند ربه جلَّ في علاه وحسناته تغلب على سيئاته.

أمّا بالنسبة للباب الثاني، باب افترقت الأمة على ثلاثة وسبعين، وفي رواية اثنين وسبعين، واحد وسبعين. هذه تحتاج أيضاً لتفسير، هذه مدعاة لأن نقول هذا الحديث ضعيف فيه اضطراب، لأن الرواية جاءت واحد وسبعين، رواية جاءت اثنين وسبعين، رواية جاءت ثلاثة وسبعين. دائماً عندنا قاعدة الاندراج: الأقل يدخل تحت الأعلى، لكن أنا أريده أصولياً فقط. وجه التعارض هو مفهوم المخالفة؛ عندما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين)، مفهوم المخالفة: لو قلنا افترقت

على واحد وسبعين على ما هو أعلى وعلى ما هو أقل أيضاً، كما قلنا يجلد الثمانين، فإذا جلد هذا المرء ثمانين فعلى الأقل لا يصح. فالثلاثة وسبعين الأقل لا يصح.

فالإجابة من وجه التعارض هذا أن الأدنى ينزل تحت الأعلى؛ فإذا قال: افترقت واحد وسبعين، يصح أن يقول تفترق أيضاً ثلاثة وسبعين. أو قال: افترقت ثلاثة وسبعين، يصح لك أن تقول افترقت واحد وسبعين، افترقت اثنين وسبعين، افترقت ثلاثة وسبعين. فتنزل تحتها، هذا الراجح الصحيح.

يبقى لنا إشكال آخر لا بد من الإجابة عليه: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إلّا السواد الأعظم)، هذا ميدان لما شرحناه سابقاً، هذا ميدان وترجيح لما رجحناه سابقاً. رددنا على الدكتور القرضاوي بتضعيفه لهذا الحديث من وجهة النظر هو قال: هذا الحديث نظراً -أترك الأسانيد الآن- المتن فيه إدخال، ما هو الإدخال؟ قال: (هذه الأمة مرحومة)، الله جلَّ وعلا قال: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [آل عمران:110]، وبيّن أن هذه الأمة هي خير الأمم، وهي أمة مرحومة كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكيف تكون أمة مرحومة وأكثرها وأغلبها في النار؟

رددنا عليه برد ميزانه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إلّا السواد الأعظم)؛ فإذاً السواد الأعظم لا يدخل في نفس هذه الدائرة، ويكون هذا الحمد لله ميزان لنا ودليل لنا على أننا بيّنا أن المقصود بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- "الثلاث وسبعين" و"تفترق" و"الفرقة الوحيدة التي تنجو"، قلنا: من العلماء.

يبقى لنا هذا الحديث الذي لا بد أن نقف عنده وقفة عظيمة، ألا وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ستتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، وفي رواية أخرى قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ولو نكح أحدهم أمه لوجد في هذه الأمة من يفعل ذلك)، وقد كان.

النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم الغيب، الغيب لا يعلمه إلّا الله جلَّ في علاه؛ قال الله تعالى: (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) [النمل:65]، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- واقعاً أمره الله أن يقول: (وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) [الأعراف:188]، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- من اطلع على سيرته علم يقيناً بأنه لا يعلم شيئاً من الغيب.

وأقوى المواقف التي تثبت عدم علم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالغيب ألا وهو موقف حادثة الإفك؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حادثة الإفك أصابه الهم والغم والحزن، وكان يسأل علياً عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- وكان يسأل أسامة وكان يسأل الجارية، ويدخل على عائشة ويقول: (كيف تيكم؟) وهو مهموم مغموم، ويقول لها: (إن ألممت بالذنب فاستغفري، فإن الله غفور رحيم، وإن كنت بريئة فسيبرئك

الله جَّل في علاه)، فكانت تقول: مثلي ومثلكم كمثل يعقوب وأبناؤه، فتقول: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) [يوسف:18] -رضي الله عنها وأرضاها-. هذه فيها دلالة قوية جداً على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما كان يعلم الغيب، حتى أنزل الله عليه الآيات البينات التي تتلى إلى يوم القيامة تبيّن تبرئة الصديقة الطاهرة الشريفة -رضي الله عنها وأرضاها -.

ولا غرو ولا عجب، فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان في مرض موته يقول: (وروّح عني أني رأيت كف عائشة في الجنة)، يعني هو يموت فالذي هوّن عليه سكرات الموت يقول وهذا حديث صحيح: (وروّح عني أني رأيت كف عائشة في الجنة). وأيضاً حادثة السفرة؛ عندما سافر بالجيش وباتوا على غير ماء من أجل عقد عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، وما كان يعرف أين مكانه.

فرسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم الغيب، هذا معتقد من معتقدات أهل السنة والجماعة بالإجماع، بل من ادعى الغيب لأي أحد كائناً من كان فقد كفر لأنه انتحل صفة من صفات ربوبية الله جلَّ في علاه. ومع ذلك، ومع إقرارنا، ومع إجماع أهل السنة والجماعة بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يعلم شيئاً من الغيب، لكن الله جلَّ في علاه قد حباه ببعض الغيبيات إشارات دلالة على صدق نبوته -بأبي هو وأمي-. فإن الله جلَّ وعلا قد أوحى إليه بعض إشارات وبعض علامات وبعض أشراط الساعة، وأوحى إليه لما سيحدث بعد زمنه -صلى الله عليه وسلم-؛ فأخبرنا عن المهدي وهذه من عقيدة أهل السنة والجماعة، ونفي المهدي مصيبة كبرى مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، فأخبرنا عن المهدي، وأخبرنا عن نزول عيسى -عليه السلام-، وأخبرنا عن الدجال، وأخبرنا عن يأجوج ومأجوج. وأيضاً أخبر أن هذه الأمة بعدما تربعت على عرش الدنيا وملكت ربوع الأرض مشارقها ومغاربها فإنها ستسقط في هوة سحيقة، تتردى لأنها ستنتحل ما ينتحله أهل الكفر والعياذ بالله، حذو القذة بالقذة، لا بد أن يتحقق لأنه خبر من أخبار النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال: (ستتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع)؛ وإن كان سيقع قدراً لكن الشرع يأباه، إن كان هذا الأمر سيقع قدراً، وقد وقع لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وإن كان فيهم من ينكح أمه، وجد في هذه الأمة من يفعل ذلك)، وقد وجد وقد كان. والأخبار كلها تلقاها الناس بإتيان المحارم، كلٌ منا يعرف ذلك من أتى أمه ومن أتى أخته ومن أتى ابنته، حدث في هذه الأمة كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ولمّا أخبر النبي به قدراً، قلنا الشرع يأبى ذلك، وأمثلة كثيرة يكون الأمر قد كتب قدراً وأن الله يأبى ذلك علينا شرعاً، مثال ذلك:

- كفر الكافر؛ كفر الكافر كتب قدراً لكن الله يأباه شرعاً. كفر أبي جهل كتب في اللوح المحفوظ لكن الله لا يرضى عنه، يأباه شرعاً لأنه أمره بالإيمان.

- وأيضاً الاختلاف بين الأمة كتب قدراً كونا لكن الله يأباه والشرع يأباه، قال الله تعالى: (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) [هود:118-119]، ومع ذلك نهى الشرع عن الافتراق وعن الاختلاف.

وهنا إن كان اتباع أهل الكفر كتب قدراً فإن الشرع يأباه، وقد جاءت الآيَاتِ والأحاديث كثيرة تنهى وتذم وتستحث الأمة ألّا تتبع سنن الذين من قبلهم، وهذه في الآيات وفي الأحاديث:

أمّا في الآيات فكثيرة؛ منها قول الله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) [الأعراف:142]، هذا على العموم سواء السبيل الظاهر أو السبيل الباطن. وأيضاً قول الله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الجاثية:18]، وأهل الكفر لا يعلمون (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الروم:7]، لكن لا يعلمون عن الآخرة شيئاً، ولذلك نهى الله جلَّ وعلا نبيه أن يتبع سبيل الذين لا يعلمون. وأيضاً قال جلَّ في علاه: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ)، والمشاققة للرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يتبع غير سبيله، يتبع سبيل أهل الكفر، قال: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء:115]. هذه آيات تبين لنا النهي والحسم، واستنهاض هذه الأمة ألّا تتبع سبيل المفسدين وسبيل أهل الكفر

أمّا في السنة فكثير ففي السنن بسند صحيح عن ابن عمر أنه قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من تشبّه بقوم فهو منهم)، وهذا على العموم سواء التشبه الظاهر أو التشبه الباطن. قال بعموم قوله -صلى الله عليه وسلم- بأبي هو وأمي: (من تشبّه بقوم فهو منهم)، قال عبدالله بن عمرو بن العاص في ذيل هذا الحديث: من بنى في أرض الكفر وحضر مهرجاناتهم أو أعيادهم ومات على ذلك حشر معهم يوم القيامة؛ كأن عبدالله بن عمرو بن العاص يرى أن هذا بالكفر الذي يخرج من الملة، طبعاً هذا فيه تفصيل سنبينه.

أيضاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لمّا مر مع الحدثاء على قوم يعلقون ينوطون أسلحتهم تبركاً على شجرة من الأشجار، هم يتعبدون بذلك، قالوها قولاً قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. تشبّهوا معهم في الظاهر فقط سواء تبركاً أو غير تبرك، الظاهر أثّر فيهم، وجدوهم يعلقون الأسلحة، فقالوا: نعلق الأسلحة على هذه الأشجار كما يعلقون الأسلحة، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: قال: (قلتم مثل قال أصحاب موسى لموسى: (اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)، الله أكبر لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع).

وأيضاً من الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من تشبهّ بغيرنا فليس منا)، وهذه براءة من النبي -صلى الله عليه وسلم- من الذين يتشبهون بغيرهم. وأيضاً في حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (برئت الذمة ممن جلس بين أظهر

المشركين)، والأحاديث في ذلك كثيرة تبين التباعد والتباين بين أهل الإسلام وبين أهل الكفران، وما ذلك إلّا لأن الظاهر يؤثر في الباطن. لأن المرء المسلم له ميزة، له خصيصة، له سمات تخصه هو، فإن تشبه بظاهر أهل الكفر فإن هذا يؤثر فيه باطناً، بل إن المرء إذا عمّق تأثيره بأهل الكفر ظاهراً لا بد أن يتعبد بما تعبدوا به، لأن الظاهر كما قلت يؤثر في الباطن. وأظهر ما يكون في ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في تسوية الصفوف: (استووا) استووا ظاهراً، (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) لأن الظاهر يؤثر في الباطن.

ومعلوم يعني هذا واقعاً وفطرة كل من مشي مع أحد يتأثر به ظاهراً، فإنه سيتأثر به باطناً، وقالوا: الصاحب ساحب، وقالوا: لا تسأل عن المرء ولكن سل عن خليله. ولذلك جاء الشرع قاطعاً حاسماً لهذه المادة، ونهى عن أي تشبه بالظاهر أو بالباطن. لكن يجب علينا أن نفصّل كيف نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا التشبه، وما يجوز منه وما لا يجوز منه؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من تشبّه بقوم فهو منهم)، التشبه على قسمين: تشبّه بالعبادات، وتشبه في الآداب والعادات.

- أمّا العبادات، فعبادات أهل الكفر على قسمين:

١- القسم الأول: عبادات جاء الشرع بتقريرها، أقرها الشرع وزاد فيها أو أنقص؛ مثال ذلك أصل الصلاة، أصل الصيام، أصل الطهارة. أقر الشرع هذه العبادات، وبفضل الله سبحانه وتعالى أصلها عندنا مقرر في شرعنا؛ مثال ذلك: صوم عاشوراء، هم يصومون صوم عاشوراء، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نحن أولى بموسى منهم) وأمرنا بصوم عاشوراء. أيضاً الصلاة أصل الصلاة عندهم مفروضة، وعندنا جاء الشرع بتقريرها، فكيف يخالف المرء أهل الكفر في هذه العبادات الذي جاء الشرع بإقرارها؟

أقول إمّا بزيادة أو نقصان، استحباباً أو وجوباً؛ أمّا الصوم، فصوم عاشوراء قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لإن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع)، مخالفةً لأهل الكفر اليهود والنصارى. أيضاً بالنسبة للصلاة، الصلاة أهم شروط الصلاة الطهارة، عندهم في الطهارة إذا وقعت النجاسة على الثوب لا تطهر إلّا بالمقاريض، لابد أن يقص المرء هذه الجزئية التي وقع عليها النجاسة، خالفناهم بفضل الله بأن هذه النجاسة تطهر بالماء، وهذا رفع من الأغلال والآثار التي كانت على غيرنا، هذه أيضاً مخالفة من شرعنا لشرعهم مع إقرار بأصل العبادة.

٢- القسم الثاني: وهي العبادة المنسوخة التي جاء الشرع بإنكارها، جاء الشرع بنسخها منها؛ تعظيم يوم السبت. نحن بفضل الله لا نعظّم يوم السبت، ومن عظّم يوم السبت وقع في محظور بالغ، وتعظيمنا ليومٍ هو الجمعة يوم العيد، غفل عنه اليهود والنصارى، فالله جلَّ وعلا حبانا إياه. فهنا نسخت هذه العبادة، فمن تشبّه بهم بتعظيم يوم السبت هذا وقع في محظور بالغ، وكلام شيخ الإسلام على عمومه أنه يخرج من الملة، يكون

التشبه هنا تشبه في نفس المعتقد ويخرج من الملة، هو طبعاً هذا نوعاً وليس عيناً، فنقول العبادة التي نسخت لا يجوز بحال من الأحوال أن يتعبد بها المرء.

أيضاً من ذلك إعفاء اللحية وحف الشارب، هم كانوا يأخذون من اللحى ويتركون الشوارب فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ينسخ هذه العبادة ويقول: (حفوا الشارب ووفروا اللحى وخالفوا المشركين)، وفي رواية قال: (وخالفوا المجوس)؛ والمشركون هنا اليهود والنصارى. وأيضاً من العبادات التي نسخت (وَرَهْبَانِيَّةً)، هذه للنصارى، (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ) [الحديد:27]، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا رهبانية في الإسلام، لا تبتل في الإسلام)، هذه بالنسبة للعبادات.

أيضاً في المظاهر فيها عبادات؛ الزي كالزنار هذا يتعبدون به، والقلنسوة الصغيرة أيضاً يتعبدون بها، ولبس الصليب أيضاً يتعبدون به. فجاء الشرع ناسخاً لذلك محرّماً على الأمة الإسلامية أن يفعلوا ذلك، ولذلك الإمام النووي قال: من ارتدى الصليب فقد كفر؛ وهذا طبعاً أيضاً على النوع وليس على العين لأن فيه تفصيل. ومن لبس الزنار نفس الأمر كما قال الشافعي عندما قال له: تقول بهذا القول؟ قال: أرأيتني خرجت من كنيسة؟! أرأيت وسطي زناراً؟! ولذلك الإمام النووي أيضاً يقرر في روضة الطالبين: من ارتدى الزنار أو القلنسوة (التي هي خاصة باليهود) فقد كفر؛ وأيضاً هذه نوعًا وليس عيناً، على التفصيل الذي فصلناه قبل ذلك، لأن هذا الزي يتعبدون به لله جلَّ في علاه، هذا بالنسبة للعبادات.

▪ أمّا بالنسبة للعادات والآداب، فإن الشرع جاء مخالفاً لكل عادة وكل الآداب التي تمسك بها أهل اليهود، حتى في الزي الداخلي؛ قالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله إن اليهود يتسرولون ولا يتزنرون، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تسرولوا وائتزروا وخالفوا اليهود). فهذه السنة يمكن ماتت عند الإخوة، هنا حتى في هذه البلاد تراهم يتزرون دون أن يتسرولون، وهذا مخالف، الصحيح من السنة أن يتسرول ويتزر. يلبسون الإزار دون السروال صحيح أم لا؟ الإزار كافي لكن مخالف للسنة، هو من السنة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (تسرولوا وائتزروا وخالفوا اليهود)، فهذه أيضاً من المخالفة الصريحة لهم في زيهم.

بل في مسألة الجلسة وهيئة القعود، أيضاً أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- مخالفة قعدة وجلسة المغضوب عليهم؛ مر النبي -صلى الله عليه وسلم- برجل يجلس جعل كف يده اليسرى خلف ظهره، فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال له: (اعتدل، هذه جلسة المغضوب عليهم)، يعني هيئة القعود للمغضوب عليهم هم اليهود، فأمر بمخالفة هذه الجلسة لأنها جلسة المغضوب عليهم.

أيضاً في ظواهر الزي؛ كل لبس اختص به أهل الكفر وإن كان الأصل فيه حلال فإنه يحرم على المرء أن يتزيى بهذا الزي، لأنه سيقع في عموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من تشبه بقوم فهو منهم).

فهذا الحديث أصل أصيل لأهل السنة والجماعة، لأهل الإسلام أن يخالفوا مخالفة عامة لأهل الكفر وأهل الإلحاد وأهل الشرك والضلال لليهود والنصارى، في الظاهر كالآداب، وأيضاً في الباطن كالعبادات.

من هذه المخالفات أيضاً مسألة مواكلة ومشاربة المرأة الحائض؛ فإن اليهود والنصارى لا يؤاكلون ولا يشاربون ولا يجلسون مع الحائص في البيوت، إذا حاضت المرأة تركوا البيت. وأمّا أهل السنة والجماعة بأمر الله وبأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم يلتحفون بلحاف المرأة الحائض، بل يباشرون المرأة الحائض دون الإيلاج، دون الجماع في الفرج، مخالفةً أيضاً لليهود والنصارى. وأيضاً حتى في آداب الجماع؛ جاء الشرع ليخالف اليهود والنصارى في آداب الجماع، كانوا ينهون الناس على إتيان المرأة في القبل من الدبر، يعني يأتيها من خلفها أمامها دون الدبر، فكانوا يقولون: إذا جامع الرجل امرأته من الدبر في القبل جاء الولد أعمى، أو قال: أحول. فجاء الشرع بإباحة إتيان المرأة من القبل في الدبر، كما في حديث ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- في تفسير قول الله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ) [البقرة:223]، قال: مقبلة ومدبرة، يعني إن كان من الدبر في القبل أو من القبل في القبل يصح ذلك، أيضاً مخالفة لليهود والنصارى.

بل أرقى من ذلك أن حتى في نظافة البيت؛ اليهود في الأفنية يجعلون وعاء يضعون فيه الكناسة أو الزبالة، فنهى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (نظفوا أفنيتكم وخالفوا اليهود والنصارى)، لا تفعلوا مثل ما يفعلون. فما ترك شيئا النبي -صلى الله عليه وسلم- في الظاهر ولا في الباطن يخالف أهل الشرك من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلّا وأمرنا بمخالفته، بل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في بادئ الأمر يحب سدل الشعر، لأنهم كانوا يفعلون ذلك أقرب إليهم، لأنهم أهل كتاب؛ فلمّا خالفوه، النبي -صلى الله عليه وسلم -بعد ذلك كان يفرق كما يفرق المشركون مخالفةً لليهود والنصارى. بل عندما كان يستقبل بيت المقدس قلبه كان يهفو نحو الكعبة، لمخالفة اليهود والنصارى ولذلك قال الله تعالى مرطباً لقلبه: (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) [البقرة:144].

هذه مجمل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم)، ليس إقراراً بل هو إخبار من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الإخبار واقعه أنه سيقع كوناً، والشرع يأبى ذلك، بل الشرع ينهى عن موافقة اليهود والنصارى في كل شيء.

يبقى شيء واحد نختم به الكلام على هذا الحديث وهو: الموافقة في الظاهر دون القصد؛ يعني أن تلبس زياً يلبسه أهل الكفر موافقة، يعني هو ما سبقك إليه لكن بالموافقة دون القصد أن تتشبه به وافقته مثلاً في البنطال والقميص وهو يرتدي البنطال والقميص، هذه موافقة وليس قصدك أن تتمثل بهم أو أن تتشبه بهم. فإن كانت الموافقة وفاقاً وليس

قصداً فلا شيء فيها، ولا حرج على المرء أن يوافقهم وفاقاً وليس قصداً، ولا يقع تحت المحظور ولا تحت قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من تشبّه بقوم فهو منهم).

الفوائد المستنبطة:

- دلائل نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أخبر بشيء قد وقع، ولا بد أن يقع لأن الله قد أوحى إليه أن هذه الأمة تتردى في هوة سحيقة، لأنها ستتبع سنن الذين من قبلنا، وهذه دلالة كما قلت على نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- الظاهر يؤثر في الباطن؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهانا أن نرتدي الزنار أو القلنسوة مع أنها امر ظاهر، والزي ظاهر فما نهى الشرع عن ذلك إلّا لأنه يؤثر في الباطن وكما قلنا دائماً الصاحب ساحب. والدلالة على أن الظاهر يؤثر في الباطن والباطن يؤثر في الظاهر حديث قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتسوون صفوفكم فتختلفوا وتختلف قلوبكم)، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله)؛ فالحديث الثاني يثبت أن الباطن يؤثر في الظاهر، والحديث الأول: (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) يثبت أن الظاهر يؤثر في الباطن.

- الوسائل لها أحكام المقاصد؛ من أين استنبطنا هذه القاعدة؟ هذه قاعدة فقهية عند العلماء: الوسائل لها أحكام المقاصد. الأصل فيها أن الوسيلة ممكن ألّا تكون محرمة، لكن تحرم من أجل المقصود؛ كما نقول مثلاً هذه ما تسمى التي تشبه الصليب الببيونة، هذه الببيونة هذه هي خاصة بهم فلا يجوز للمسلم ان يرتديها، لأنها خاصة بهم. فنحن نقول الآن الوسيلة لها حكم المقصد، هنا هذه الببيونة حرام لأنها نجسة لا يصح أن يصلي بها أحد صحيح؟ لا، القماش طاهر وليس بنجس، هو أصله حلال وما حرم إلّا من أجل المقصد ألا وهو التشبه بأهل الكفر، فيكون الوسائل لها أحكام المقاصد.

مثل بيع العنب؛ بيع العنب حلال، الأصل فيه أنه حلال، ويحرم إن كان المقصد أنه يتخذه ليعتصره خمراً. هذه آخر الفوائد المستنبطة من هذا الحديث.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس التاسع عشر: لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل العظيم كتاب السنة ابن أبي عاصم، تكلمنا الأسبوع الماضي على باب ستفترق هذه الأمة، وأن هذه الامة تتبع سنن الذين من قبلهم، وصلنا إلى حديث: (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة، وهو صنم بتبالة).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة، طاغية دوس التي كانوا يعبدونها في الجاهلية).
وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كأني بنساء فهم يطفن بالخزرج، تضطرب ألياتهن مشركات، وهو أول شرك في الإسلام).

"الخَلَصة"؛ حقق النووي أنه هذه هي اللغة المشهورة "الخَلَصة"، وينطق أيضاً "الخُلَصة"، وأيضاً ينطق "الخَلْصة"، وهو صنم كان يعبد في ناحية في اليمن. هذا الحديث يرتبط بالأحاديث التي سبقت: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع)، وبيّنا الأسبوع الماضي أن الاتباع في الحالات كلها سواء في العبادات أو في العادات والآداب، وبيّنا أن النبي -صلى

الله عليه وسلم- خالفهم في كل شيء سواء في العبادات أو في الآداب أو في العادات، حتى في صبغ اللحية فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصبغ وكان يأمر بصبغ اللحية ويقول: (اصبغوا، فإن اليهود لا تصبغ)، فالتصفير أو التحمير للحية سنة من سنن المرسلين مخالفاً بها سنن المشركين، والعياذ بالله. حتى في الإشارة فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما ترك السلام إلّا وخالفهم فيه، قال: (لا تشيروا (أو لا تسلموا هكذا)، فإن اليهود تسلم بالكف وبالإسراع، فلا تشيروا)؛ فتقول: السلام عليكم ورحمة الله. لكن النووي يخصص السلام فيمن يسمع؛ إن كان يسمع فلا يرفع كفه ولا يشير، لكن إن لم يسمع له أن يشير، واستدل بذلك على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مر على النساء فسلم عليهن، وقال: السلام هنا سلام إشارة مع الصوت. والصحيح الراجح أنه يُمنع كليةً السلام بالإشارة، ونسأل الله أن يغفر لنا ما نقع فيه حتى لا يتشبه المرء باليهود والنصارى.

ثم جاء هذا الحديث يبيّن لنا أن على نفس طريق أهل الكفر والضلال حذو القذة بالقذة، كما أنهم عبدوا من دول الله الأصنام، فإن في هذه الأمة من يخرج في عبد الأصنام من دون الله جلَّ في علاه، بعدما بشاشة أنوار الإيمان دخلت القلوب. فإنهم بعدما جاءهم موسى بالهدى والنور، واهتدوا بكلام موسى، وأغرق الله فرعون أمامهم، اصطنعوا العجل وعبدوه من دون الله جلَّ في علاه، صنماً يعبد من دون الله جلَّ في علاه. وعلقوا وأناطوا أسلحتهم أيضاً على الأشجار يتبركون بها، ويعبدون الأشجار والأحجار من دون الله جلَّ في علاه. ففي الأمة من يقع في مثل هذا المحظور، تطبيقاً لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر بذلك كأنه سيكون، أو نقول كتب في اللوح المحفوظ قدراً كونياً.

(لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة)؛ الله جلَّ في علاه احتجب علم الساعة عن أي أحد كائناً من كان، حتى لو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً، لا يعلم عن الساعة شيئاً. قال الله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ) [الأعراف:187]، وأيضاً في الحديث في الصحيحين أن جبريل -عليه السلام- لمّا جاء معلماً للناس، سائلاً رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فسأله من ضمن الأسئلة: متى الساعة؟ قت الساعة؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مجيباً له: (ما المسؤول بأعلم بها من السائل).

فعلم الساعة يجهلها كل أحد، لا يعلمها إلّا الله جلَّ في علاه، لكن الله من حكمته البالغة سبحانه جلَّ في علاه ورحمته ورأفته بعباده أنه جعل للساعة مقدمات وإرهاصات، وأيضا علامات وسمات تعرف بها، وأوحاها إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- ليعلم الأمة بها حتى تجتهد وتشمر عن ساعد الجد؛ من فرط في دين الله يرجع ويؤوب ويتوب، ومن كان مجتهداً يجتهد أكثر عندما يعلم أن الساعة قد اقتربت، فيسارع إلى الله جلَّ وعلا بالحسنات وبالصالحات قبل أن

يختم عليه بالسيئات والعياذ بالله، لأن الله كتب كوناً أن من مات على شيء بُعِث على هذا الشيء.

من هذه العلامات، ومن هذه الأمارات، ومن هذه السمات؛ أنه يفشو الجهل ويُرفع العلم ويُقبض أو يموت العلماء؛ فإذا فشا الجهل فشا الشرك، لأن الشرك ملازم للجهل كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم) أو (يُرفع العلم ويفشو الجهل)، (وإن الله لا يأخذ العلم ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبضه بقبض العلماء)؛ فإذا قبض الله العلماء، إذا مات العلماء (لم يُبقِ عالماً (وفي رواية أخرى: لم يبقَ عالمٌ)، اتخذ الناس رؤوساً جهالا فسألوهم، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)، وظهر الشرك بين الناس لعدم وجود العلم. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذه هي بداية الشرك، ثم يحدث بعد ذلك الشرك في الأمة، يدب في هذه الامة ويعبدون الأصنام من دون الله، يرجعون أدراجهم كما كان يفعل أهل الجاهلية.

وهذا الحديث له أحاديث على شاكلته كثيرة؛ منها قول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله عنها-: (لا يذهب الليل والنهار حتى يُعبد اللات والعزى)، ترجع الناس فيعبدون اللات والعزى مرة أخرى، اللهم اعصمنا من كل زلل يا رب العالمين. وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى يلحق أقوام من أمتي بالمشركين) أو (حتى يعبد أقوام من أمتي الأصنام مرة أخرى).

ثم بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذه سنة كونية، وأن النساء يضطربن يطوفن بذي الخلصة الذي هو في ناحية اليمن بتبالة (طائفة في اليمن) يعبدونها من دون الله جلَّ في علاه. تأويل الحديث: (تضطرب أليات)، يعني أعجزهن، (تضطرب أليات نساء)؛ لها تأويلان، والتأويلان صحيحان:

١- التأويل الأول: من شدة الزحام، وهذه دلالة على كثرة الفتن وأن أقوام ليسوا بالقليل سيعبدون من دون الله جلَّ في علاه هذا الصنم، قال: (تضطرب أليات)، من شدة الزحام على الطواف على هذا الصنم والعياذ بالله.

٢- وتأويل آخر؛ قال: (تضطرب أليات نساء)، من شدة الرحلة، يعني يرحلون ويضربون أكباد الإبل إلى هذا الصنم يعبدونه من دون الله جلَّ في علاه.

وهذا يجعل الإنسان يقف حائراً؛ هل يمكن للإنسان أن يخاف من هذا الشرك؟ هل يمكن للإنسان أن يرتعد فؤاده من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فتن كقطع الليل، يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً)؟ تتقلب أحوال القلوب ويرجع بعد الإيمان إلى الكفر؟ نعم يقف المرء خائفاً من هذا الحديث، وكما سنبين في الفوائد المستنبطة لا بد أن يعتبر عبرة لهذا الشرك الذي سيدب في الأمة.

هذا الحديث لا بد أن نفهمه على ضوء الجمع بينه وبين حديثين مهمين آخرين:

▪ أولهما قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الشيطان يئس إن يُعبد في جزيرة العرب)؛ وهنا الحديث ظاهره أن الشيطان سيُعبد في جزيرة العرب لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة). والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الشيطان يئس أن يُعبد في جزيرة العرب).

▪ والحديث الثاني الذي لا بد أن نفهم هذا الحديث في ضوئه أيضاً: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم، وهم على ذلك (يعني يقيمون بالحق) حتى تأتيهم الساعة)، وهذا تصريح من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى قيام الساعة ستبقى طائفة من المؤمنين يعضون بالنواجذ على التوحيد. وهذا مخالف أيضاً لظاهر قوله -صلى الله عليه وسلم-: (تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة)، يعني يرجعون إلى الشرك مرة ثانية.

بإذن الله سنبيّن الآن بوضوح كيف الجمع بين الحديثين؛ أما الجمع بين هذا الحديث والحديث الثاني (يئس الشيطان أن يُعبد في جزيرة العرب) له توجيهات ثلاثة، حتى نقول سنتخذ أصلاً أن من الامة من يرجع ويعبد الأصنام، هذا واقع لا محالة. وأن من الأمة يرتد والعياذ بالله ويتخذ من دون الله الأصنام يعبدونها ويصرفون لهم العبادة من دون الله جلَّ في علاه، سواء الأولياء، سواء الأصنام الأحجار الأشجار، سيعبدون من دون الله جلَّ في علاه. هذا أصل أصيل، وهذا محكم.

أمّا حديث: (يئس الشيطان أن يُعبد في جزيرة العرب)، له توجيهات ثلاثة:

- التوجيه الأول أن هذا خاص بجزيرة العرب، أمّا باقي الدول الإسلامية فإنها معرّضة لهذه الفتنة العظيمة وأنهم يرجعون أدراجهم ويعبدون الأصنام من دون الله جلَّ في علاه، أمّا جزيرة العرب فتعصم من هذه الفتنة لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الشيطان يئس أن يُعبد في جزيرة العرب). وهذا التوجيه هو أضعف التوجيهات، لا سيما ونحن نرى أن عبادة الأوثان ظهرت، ظهرت حتى في السعودية، ظهرت في بلد الحرمين، الشيخ محمد عبد الوهاب ما جاهد هذا الجهاد إلّا لعبادة القبور وغيرها، والأصنام. وظهرت في اليمن، وظهرت في بعض مناطق جزيرة العرب على تفسير الموسع لجزيرة العرب. فهذا التوجيه توجيه ضعيف لأن الواقع يخالفه، قد دب الشرك في بعض المواطن من جزيرة العرب.

- أما التوجيه الثاني فيكون المعنى من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يئس الشيطان أن يُعبد في جزيرة العرب)؛ يعني يعبد عبادة متمحضة، يعني يتركوا عبادة الله، ينكروا وجود الله جلَّ في علاه، لا يصرفون أية عبادة لله جلَّ في علاه، والعبادة تكون متمحضة للشيطان أو

للأصنام التي يغويهم الشيطان كود وسواع وغير ذلك. فهذا التوجيه وإن كان فيه شيء من الوجاهة، لكن أقوى منه التوجيه الثالث.

- وسنبين الآثار التي تبيّن لنا أن التوجيه الثالث هو أقوى التوجيهات؛ ألا وهو (يئس الشيطان أن يُعبد في جزيرة العرب) في زمن النبي، يعني هذا الحديث خاص وليس بعام، خاص في الزمن والمكان. عندما يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يئس الشيطان أن يُعبد في جزيرة العرب)، يعني في زمني، في وقتي، لكن بعدما أموت يمكن أن يدب الشرك في جزيرة العرب. والذي يدل على ذلك أحاديث كثيرة، وأيضاً الواقع؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك، وما أحد بعدما دخل الإيمان ارتد عن إيمانه، والدليل لذلك واضح جداً في الصحيح.

ما الدليل على أن من دخلت بشاشة الإيمان في قلبه ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- حي يرزق بينهم يهديهم وينير قلوبهم بالإيمان، أنهم لا يرتدوا عن دينهم بحال من الأحوال؟ ما الدليل على ذلك؟ من الكافر الذي سأل الكافر، والكافر الثاني أسلم -رضي الله عنه وأرضاه؟ هرقل سأل أبا سفيان فقال: هل ارتد أحد غضبا على هذا الدين او سخطاً عن هذا الدين؟ قال: لا. وكذلك الإيمان إذا باشرت بشاشته القلب، فإنه لا يمكن أن يرتد عن دينه.

والدليل الثاني الذي يثبت لنا أنه في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- لا أحد يرتد غضباً على هذا الدين ولا أنه يتسخط على هذا الدين؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدجال عندما قام يصعد في أمر الدجال ويفخم في أمر الدجال ففزعوا وارتجت القلوب، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مطمئناً إياهم: (إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه). إذاً فالنبي جُنة لأصحابه، ووجود النبي -صلى الله عليه وسلم- جُنة لأصحابه. قال: (فإن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، فإن أنا مت كل مؤمن حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم)، فهذه فيها إظهار أن وجود النبي -صلى الله عليه وسلم- جنة لأصحابه من الشرك.

وأيضاً حديث أنس: (لا يأتي زمان إلّا والذي بعده أشر منهم)، وفسرها بعدما قال: ما وارينا الرسول -صلى الله عليه وسلم- في التراب إلّا وعلمنا التغير في قلوبنا. فهذه آثار كلها تدل على أن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يئس الشيطان أن يُعبد في جزيرة العرب)، يعني مع وجودي، مع تبييني لكم الدلالات الباهرات الواضحات على وجود الله وقدرة الله وربوبية الله وإلهية الله جلَّ في علاه، فإن مات النبي -صلى الله عليه وسلم- ومات من بعده من عض بالنواجذ على علمه، انتشر الجهل، فإذا انتشر الجهل انتشر الشرك.

إذا الجمع بين هذا الحديث (تضطرب أليات نساء دوس)، نقول: عند عدم العلم، عند موت النبي، وعند موت الخلفاء، عند قبض العلماء يحدث انتشار الشرك. هذا الجمع بينه وبين الحديث الأول.

أمّا الجمع بينه وبين الحديث الثاني، هو قول لنبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى تأتيهم الساعة)، هذه فيها دلالة على أن هذا العام مخصوص، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (تضطرب أليات نساء دوس) على العموم، يعني كل من في الأرض سيصل إلى الشرك ويعبد الأصنام من دون الله جلَّ في علاه. ومع ذلك النبي يقول: لا، إن هناك كطائفة ستقوم على دين الله جلَّ في علاه تقبض عليه إلى أن تأتي الساعة. فكيف نوجه هذا الحديث مع هذا الحديث؟ ظاهرهما التعارض هنا؟!

- التوجيه الأول: ابن بطال قال: توجيه ذلك أن هذا عام مخصوص، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى) يعني من الكل، هذا عام مخصوص بالطائفة التي تعض بالنواجذ على دين الله جلَّ في علاه، لا سيما وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (حتى تأتيهم الساعة) يعني بعبادة الله حتى آخر وقت في الساعة، حتى آخر نفس للساعة.

- التوجيه الثاني: وهذا التخصيص لم يرضاه الحافظ بن حجر، وهذا الصحيح الراجح، قال: لا تخصيص فيه، بل التأليف بينهم أن هذه الطائفة ستقوم بحق الله حتى تأتي ساعتهم؛ وساعتهم عرفت من أدلة أخرى ألا وهي الريح الطيبة التي تأتي بعد انتصار عيسى -عليه السلام- على المسيح الدجال مع المؤمنين، فتقبض كل رجل فيه مثقال ذرة من خير أو في قلب مثقال ذرة من إيمان. فتأتي هذه الريحة الطيبة على كل مؤمن فتميته، فما يبقى في الأرض إلّا شرار الخلق، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وتقوم الساعة على شرار الخلق)، وفي رواية أخرى قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة على قوم يقولون: الله) أو قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال "الله الله" في الأرض). فتقوم الساعة على كل من دب فيه الشرك والعياذ بالله، على كل المشركين، ليس فيهم مؤمن واحد، هذا التوجيه الصحيح لهذا الحديث مع هذا الحديث.

هذا إجمالاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس).

الفوائد المستنبطة:

- إثبات وجود الشرك في هذه الأمة، وهذا خلافاً لمن يزعم أن الأمة قد انقطع الشرك منها وأن الذين يقولون بأن الشرك سيدب في هذه الأمة متشددون متنطعون، فنقول هذا كلام النبي وليس بكلامنا. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر خبراً لا كذب فيه، إذ هذا من الخبر ليس من الإنشاء، أخبر خبراً أوحاه الله إليه أن الأمة ستعود لعبادة الأصنام مرة ثانية. إذا فالشرك موجود، فإن الشرك سيوجد في هذه الأمة.

- إذا أوحى الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن الشرك سيدب في هذه الأمة، فهذا استنهاض للأمة بحسم الشرك وسد الذريعة لهذا الشرك؛ قال إبراهيم الخليل يخشى على نفسه من عبادة الأصنام قال: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) [إبراهيم:35]، وكان كثرة ما يدعو به النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بك من الشرك والشقاق والنفاق)، فكان يستعيذ بالله من الشرك وهو نبي يوحى إليه.

- أسرع الناس للفتنة هم النساء، ذلك هذا الحديث أنه لمّا ذكر على الغالب، غالب من يطوف حول ذي الخلصة هن من النساء. هذا هو الحق، أسرع الناس إلى فتنة هم النساء، لقوله النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تضطرب أليات نساء دوس). والحديث الثاني ظاهر جداً؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ترتجف المدينة فتخرج كل منافق) للدجال لأنه لا يستطيع أن يدخل، فقال النبي: (وأكثر من يخرج له النساء)، يعني المدينة أكثر منافقيها من النساء، يخرجن من المدينة. وأيضاً حديث ثاني؛ لمّا نبأ النبي -صلى الله عليه وسلم- بالدجال قال: (وأكثر أتباعه اليهود والنساء). فالفائدة من هذا الحديث: (تضطرب أليات نساء دوس)، أن أسرع الناس فتنة في دينهم هم النساء.

- القيامة تسمى الساعة، يعني اسم من أسماء يوم القيامة وهو الساعة؛ ومعنى الساعة: هي الساعة التي يقبض فيها أرواح المؤمنين، ثم يبعثون بعد ذلك يحاسبون عند الله.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس العشرون: باب ما ذكر عن النبي من أمره بلزوم الجماعة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل، كتاب السنة لابن أبي عاصم، نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن يتمثل بالسنة ويعمل بالسنة ويدين الله بسنة النبي. اليوم هناك باب من أهم الأبواب، لا بد من تمحيص النظر فيه ولولا المرض لفصلنا تفصيلاً كثيراً، ويظهر لي أننا لا نفارق هذا الباب حتى نوسع الكلام فيه، واليوم إن شاء الله قدر الإمكان سنشير إشارات أصلية لما سيأتي بعد ذلك.

باب: ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أمره بلزوم الجماعة وإخباره أن يد الله على الجماعة، و"على" هنا بمعنى "مع" كما سنبين في الفوائد.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

باب: ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أمره بلزوم الجماعة وإخباره أن يد الله على الجماعة

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ما كان الله ليجمع هذه الأمة على الضلالة أبداً، ويد الله على الجماعة هكذا، فعليكم بسواد الأعظم، فإنه من شذ شذ في النار).

وعن أسامة بن شريك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يد الله على الجماعة).

وعن كعب بن عاصم الأشعري سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله تعالى قد أجار أمتي من أن تجتمع على ضلالة).

وعن أنس بن مالك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: (إن الله قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة). وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بسواد الأعظم، الحق وأهله).

هذا الباب كما قلت باب كريم جداً، يتكلم على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يستنهض الأمة ويستحث الأمة على أن تنضوي تحت لواء الجماعة. فوجب علينا الآن إذا كانت الأمة مطالبة شرعاً بالنزول تحت لواء الجماعة أن نبين من هم الجماعة؟ وعلى ما يجتمعون؟ وكيف يجتمعون؟ بالأدلة على ذلك. وأن الذين يخالفونهم إن كانوا ليسوا من الجماعة هل هم على الكفر؟ هل هم من الإسلام لكنهم ليسوا من الطائفة الذين بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن نجاتهم في لزوم هذه الجماعة أم لا؟ هذه أمور وتساؤلات لا بد علينا أن نجيب عنها وان نمحص النظر فيها.

أولاً نبيّن أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن من شذ شذ في النار، هذه لا تبيّن ولا توضح لنا أن هذه على الإطلاق، يعني نار الخلود، يمكن أن تكون نار الموحدين يعذب فيها المرء أولاً بمخالفته لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا حال كل مبتدع ضال بعد عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم دخول الجنة فيها، وهذا سيأتي تفصيله بإذن الله. لكن سنختار اليوم كلام على حديث: (إن الله قد أجار أمتي على أن تجتمع على ضلالة)، لأن الحديث وإن كان سنده فيه ضعف لكن الشواهد الكثيرة التي تحفه تثبت حسن هذا الحديث.

(لا تجتمع الأمة على ضلالة)، جاء في بعض الروايات: (لا تجتمع أمتي على ضلالة)، بالنظر الدقيق نحو هذا الحديث العظيم الجليل، نقول لهذا الحديث منطوق ومفهوم، وفي فلك المنطوق والمفهوم لا بد أن ندور حتى نفهم فهماً دقيقاً أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بلزوم الجماعة؛ أهي كل جماعة؟ أم هي جماعة بعينها؟ أم لها سمات وصفات مختصة بها نعلم أن النجاة مع هؤلاء القوم؟

أولاً مفهوم هذا الحديث أن هذه الأمة حتماً لا محالة ستجتمع، وهذا خبر كوني، يعني هذا كوناً لا بد للأمة أن تجتمع، هل كل الأمة؟ لا، كما سنبين أن هذا من العام المراد به الخصوص، طائفة من الأمة يقللها النبي -صلى الله عليه وسلم- ستجتمع على الحق. إذاً لابد للامة أن تجتمع، هذا كوناً أولاً. والثاني وتجتمع الأمة على الحق، وليست كل الأمة كما سنبين، معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أمتي) هل كل أمتي؟ لا، لأن الحق لا يتعدد كما سنبين.

فإذاً ستجتمع طائفة من الأمة كوناً، كتب في اللوح المحفوظ لا مغير لها بحال من الأحوال، وأيضاً ستجتمع على الحق كوناً، لا تغيير له بحال من الأحوال، فهذا خبر. وأقول أيضاً هو إنشاء، ومعنى قولي هو إنشاء يعني الأمة مطالبة شرعاً إلى أن تجتمع، فهم آثمون إن لم يسعوا إلى الاجتماع. فإذاً قدراً كوناً ستجتمع، وشرعاً وإنشاءً وطلباً وأمراً واستنهاضاً من الله واستنهاضاً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وحث الأمة على الاجتماع هذا هو الشرع، فلا بد للأمة أيضاً أن تسعى لتنضوي تحت لواء الجماعة.

لذا فنقول: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تجتمع أمتي على ضلالة) هذا المنطوق: تجتمع وتجتمع على الحق، المفهوم: إذا اجتمعت على غير الحق أو إذا اجتمعت اجتماعاً ليس على الحق فلا بد أن نقول أنهم أوزاعاً وأشتاتاً وإن كانوا جماعة، لقول الله تعالى: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ) [الحشر:14]. والأمر الثاني؛ أنهم سيجتمعون ويتألبون أو يتحزبون لكن على الضلالة، قلوبهم شتى، والظاهر في اجتماعهم أنهم على قلب رجل واحد وقد أبى الله عليهم ذلك: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ) [الحشر:14]. وسندور في الكلام على المفهوم والمنطوق، والمنطوق: سنبحث ما هو أصل الضلال عندهم؟ ما هو أصل النزاع الذي أوقعهم في هذا الضلال وأبعدهم عن الخط المستقيم الذي رسمه له الله ورسمه لهم رسوله -صلى الله عليه وسلم-؟

أولاً المنطوق: (تجتمع الأمة)، ويستحث النبي الأمة على الاجتماع، ويأمر الله الأمة على الاجتماع؛ قال الله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) [آل عمران:103] أمر ونهي، وأيضاً قال الله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا) [الأنفال:46] أمرهم بالاجتماع حتى لا يفشلوا، وقال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) [الأنعام:159] نهاه أن يقترب منهم وهم ليسوا منه في شيء، أيضاً في سورة آل عمران قال: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا) [آل عمران:105] فتفرقوا وبعد ما تفرقوا اختلفوا. ونقول هناك لزوم بين الافتراق وبين الاختلاف، فباختلافهم تحدث الفرقة بينهم.

إذاً استحث الله في كتابه الأمة على الاجتماع، وأيضاً استنهض النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة على أن تجتمع على قلب رجل واحد؛ حيث يقول: (وكونوا) يعني جميعاً، (وكونوا عباد الله إخواناً) كلكم تحت لواء واحد، لواء الأخوة في الإسلام. والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان في إحدى سفراته مع أصحابه الأجلاء، فلمّا عرّسوا في الطريق، نزلوا منزلاً في الطريق كلٌ منهم أخذ مجموعته وجلس في مكان بعيد عن الآخر، فنظر إليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- مغضباً منكراً ما حدث، قال: (ما أرى أن تفرقكم هذا (يعني أوزاعاً وأشتاتاً) إلّا من عمل الشيطان)، وقال في رواية أخرى: (مالي أراكم عزين (يعني متفرقين)، هذا من عمل الشيطان، اجتمعوا). ولذلك يقول الراوي: فبعد ذلك كان إذا فرش البساط جمعهم جميعاً من شدة التئامهم وشدة اجتماعهم.

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل ذلك في الصلاة التي هي أهم العبادات، يسوّي الصفوف ويجعلها متراصة، ويكونوا عباد الله إخواناً لا يجعل كل واحد منهم فرجة بينه وبين أخيه، دلالة وإشارة على أنه لا بد ألا تكون هناك فرقة في القلوب، ولذلك قال: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)، فيستنهض النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة على الاجتماع. وأتانا حديث مرعب من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول كما في مسند أحمد: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الشياه، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)، فقال: (فلا تتبعوا الشعاب) يعني لا تتفرقوا في الشعاب، (وعليكم بالجماعة وعليكم بالمسجد وعليكم بالعامة) يقصد العامة الذين تمسكوا وعضوا بالنواجذ على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأيضاً (حذيفة لما سألنا النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما نحن فيه من خير بعده شر؟ قال: نعم شر، قال: فيه بعده من خير؟ قال: نعم، خير فيه دخن)، فلمّا علم الدخن قال: وما دخنه؟ فسر له النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم قال له: (عليك بلزوم الجماعة)، ثم نصحه نصيحة أخيرة قال: (عليك بالجماعة) أو (عليك بلزوم الإمام والجماعة). وأيضاً في مسند أحمد حديث عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يأمر فيه معاذ ويأمر أصحابه أن يلتزموا بالجماعة، وقال: (فعليك بالجماعة وعليك بالمسجد)، ورواية أخرى قال: (وعليك بالعامة) عامة العلماء الذين تمسكوا بكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

اذاً يؤمر المرء وتؤمر الأمة بأسرها على الاجتماع وعلى الانضواء تحت لواء النبي -صلى الله عليه وسلم-، تحت لواء الحق، فنقول: هذا الأمر الذي أمرنا به النبي -صلى الله عليه وسلم- لا بد أن يكون في الاستطاعة، ولا بد أن نقول هذه الطاعة لا نكلفها ونحن لا نستطيعها لأن الله جلَّ وعلا قال: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة:286]، (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) [الطلاق:7]. فما هي السبل التي يمكن لنا أن نحقق فيها أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

السبيل الأول: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اجتمعوا)، قلنا نجتمع بأمرك يا رسول الله، سمعنا وأطعنا، لكن على ما نجتمع يا رسول الله؟ فيجيب النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا على الحق، لأنكم لا تجتمعون على الضلالة. فقام سائل يسأل: كل جماعة رأيتها تقف تقول نحن على الحق، إذاً من الذين سننضوي تحت لوائهم؟ الكل أم شرذمة قليلة أو طائفة قليلة هم بحق الذين هم على الحق؟ قال: (اجتمعوا على الحق)، وما هو الحق؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كأنه يجيب ويبين لنا: (الحق أبلج والباطل لجلج)، ومن أراد الحق فيصل إليه، كما قال السبكي: من أطال الطرق ولج ومن صدق الله فيصدقه.

فإن أردت الحق فالحق عليه نور يظهر لك إن كنت باحثاً بقلب صادق تبحث عن هذا النور، والحق لا يمكن أن يبعد قيد أنملة عن كتاب الله وعن سنة النبي -صلى الله عليه

وسلم-، فقد سمى الله كتابه حق وآياته الباهرات حق، وسمى نبيه -صلى الله عليه وسلم- حق، وأوامره في سنته حق؛ قال الله تعالى: (وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) [هود:120]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال له عبدالله بن عمرو ابن العاص: يا رسول الله يلومونني أكتب عنك كل شيء؟ قال: (اكتب، والذي نفسي بيده لا أقول إلّا الحق). فكتاب الله حق وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- حق، (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) الحق (وَالْحِكْمَةِ) [الأحزاب:34] سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وكتاب الله هدى وعليه نور، وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هدى وعليها نور، فإن الله جلّ وعلا قال: (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) [المائدة:15-16]، فهو نور مبين، عليه نور، الحق هو نور، فإن الله أوحى نوراً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- وقال في نبيه: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى:52]، وقال في كتابه الذي هو عليه النور: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الإسراء:82].

نقول: يحصر كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تجتمع الأمة)، قلنا تجتمع، وأمراً "سمعنا وأطعنا". تجتمع على ماذا؟ تجتمع على الحق، ما هو الحق؟ الحق هو كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقام قائم وقال: سمعنا وأطعنا، سنجتمع ونجتمع على كتاب الله، لكنا وجدنا كل ناعق يتكلم ما يتكلم إلّا بكتاب الله وما يتكلم إلّا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. ترى الفضائيات الكثيرة الآن في ربوع الأرض مشارقها ومغاربها، كلٌ منهم يدّعي وصلاً بليلى وهي لا تقر لهم بذلك، وكل يقول: قد قال الله وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. إذاً فاحتجنا إلى بيان آخر من النبي -صلى الله عليه وسلم- يجلّي لنا، بدل هذه التخبطات وكلٌ يقول أنا أتمسك بالكتاب والسنة وغيري لا يتمسك بالكتاب والسنة.

بيّن لنا يا رسول الله، أظهر لنا وجلّي لنا الصفات الصحيحة التي نعلم أن هذه الجماعة التي قصدتها أنت أنها لا تجتمع إلّا على الحق؛ قال: لهم سمات ولهم صفات، إذا ضبطتم هذه السمات وهذه الصفات عرفتم هذه الجماعة. فسألنا وقلنا: ما هذه الصفات وهذه السمات؟

١- أول صفة وأول سمة هم قلة في الناس، قلة وليسوا كثرة، وهذه تدلك على أن الكثرة الكاثرة هباءً منثوراً، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لكنكم اليوم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)، وقد قال الله تعالى وقرر ذلك في كتابه: (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ) بيان الكثرة، (وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) [الأنعام:116]. فهم قلة، ولذلك كان يشير يقللها ويقول: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم). فإذاً هم قلة، وسنبين هؤلاء القلة لهم سمات أخرى،

هناك القلة أيضاً فيهم بعض الصفات والسمات ممكن أن تعلم وصفات مغيبة عنا لا نعلمها.

٢- قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: سأجلّي لكم أكثر من ذلك، هم قلة وهم غرباء، مع قلتهم فهم غرباء. قلنا: غرباء؟ أي هاجروا من أوطانهم وبلدهم إلى الأوطان الأخرى؟ فكل مهاجر يكون على الحق؟ قال: لا هذا فهم مغلوط، الفهم الصحيح هم غرباء بما يتمسكوا به، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء).

وفي رواية أخرى انفرد بها حذيفة أو غيره قال: (طوبى للغرباء، قلنا: من يا رسول الله؟)، فبدأ يبين لنا لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كأنه استحضر أن الصاحب الجليل الفقيه اللبيب الأريب سيقف ويقول: يا رسول الله غرباء؟! من الغرباء؟ ما صفة الغرباء؟ ما وسم الغرباء الذين هم على الحق؟ قال: سأبين لك، فذكر لنا صفات ثلاثة اعلم أن من تمسك بها علم أنه على الحق:

- قال في رواية: (ناس قليلون صالحون)، فأعطاهم صفتين: الصفة الأولى القلة، والصفة الثانية الصلاح، وسنبين ميزان القلة والصلاح، (ناس قليلون صالحون في أناس سوء كثير).

- الصفة الثانية بنفس الحديث قال: (من يعصيهم أكثر ممن يطعهم)، هذه صفة والله من أجلى ما تكون، تبين لك أن الله جلَّ في علاه لما اصطفى الطائفة وقللها جعلها كالرعيل الأول، جعلها كزمن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما سنبين.

فوصف لنا صفات معينة قال: (هم ناس قليلون صالحون في أناس سوء كثير)، ثم ذكر الصفة الثانية: (من يعصيهم أكثر مما يطيعهم).

- فنظرنا في هذه الرواية فوجدناه في رواية أخرى، في رواية ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-، سئل نفس السؤال: من هم الغرباء يا رسول الله؟ فقال: (هم الذين يُصلِحون حين يفسد الناس) أو (يَصلَحون حين يفسد الناس)؛ فأعطاهم صفة أخيرة ألا وأنهم يُصلِحون حينما ينتشر الفساد بين الناس.

فتعالوا إلى هذا المنطوق، وننظر طالما تأهبنا إلى أمر النبي، وقلنا سمعنا وأطعنا ودنا الله بأمر رسول الله واستنهاض الله للأمة للاجتماع، وكل قلوبنا تتهافت وتتشوق لأن نجتمع ونكون عباد الله إخواناً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم بعد ذلك لما سألنا الاجتماع يكون على ماذا؟ قال: على الحق، قلنا ما صفة الحق؟ ما صفة أهل الحق الذين نجتمع معهم فوصفهم لنا؟ قال: أولاً (ناس قليلون)، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم) أو قال: (يقاتلون على الحق حتى تأتيهم الساعة). و"حتى تأتيهم الساعة" فسرناها الأسبوع الماضي يعني تأتيهم ساعتهم.

وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تبرح عصابة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين)، البخاري بعد ما ذكر هذا الحديث ترجم وقال: والله ما أعلم إلّا أهل العلم، يعني ما أعلم هذه الطائفة ولا العصابة إلّا أهل العلم. وقال أحمد بن حنبل وعبدالله ابن المبارك: إن لم يكونوا أهل الحديث فمن هم؟ لا نعلمهم، فهم أهل الحديث. وهذه ظاهرة قوية جداً؛ الرعيل الأول يثبتون أن الطائفة التي ستقوم على الحق طائفة ترفع شعار (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ)، على العلم وعلى إتقان وليس على هوى ولا ثقافة، على علم، (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:108]، ولذلك قال البخاري "جبل الحفظ": هم أهل العلم، وقال الإمام أحمد "إمام أهل السنة والجماعة": هم أهل الحديث لا أعلم غيرهم، وكذلك قال إسحاق، وكذلك قال عبدالله بن المبارك.

(لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم)، طائفة قليلة وليست كثيرة في الناس، (ناس قليلون صالحون) هم على صلاح؛ وهذا الصلاح يدّعيه كل إنسان، وليس الصلاح بالتقشف ولا بالتزهد ولا بالمظاهر وإن كانت المظاهر نوعاً من أنواع الصلاح، الصلاح ضابطه في كتاب الله جلَّ في علاه.

أقسام الناس ثلاث: سابق بالخيرات، مقتصد، ظالم لنفسه. أمّا الظالم نفسه فلسنا منه في شيء، لن نتكلم عنه اليوم، فأهل الصلاح على طائفتين أو على قسمين:

- سابقون بالخيرات: أعلى صفة وأعلى سمة الذين يتسابقون بالخيرات الذين يأتون بالفرائض، ثم يتبعون الفرائض بالنوافل، ثم ينتهون عن المحرمات، ثم يتبعون ذلك المكروهات، وهذا كله مضموم تحت قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: من عادى لي ولياً)، فأهل الصلاح هم أولياء الله جلَّ في علاه. فقال الله جلَّ وعلا يبين لنا من هم الأولياء: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بأحب إليّ مما افترضته عليه)، فأول خطوة من خطوات أهل الصلاح المسارعة والعض بالنواجذ على فرائض الله جلَّ في علاه، وهذا أحب ما يكون لله جلَّ في علاه، فلا يلام أحد بعدما يأتي بالفريضة.

ولذلك جاء ثائر الرأس يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ماذا علي؟ قال: خمس صلوات في اليوم والليلة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلّا أن تصدق. قال: الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلّا أن تصدق)، وذكر الصوم وذكر العبادات، فقال: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فما كان ملاماً عند ربه جلَّ في علاه، بل كان ممدوحاً، بل قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سرّه أن يرى رجلاً من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)، وفي رواية قال: (أفلح وأبيه)، وفي رواية قال: (أفلح إن صدق). فمن أتى بالفرائض وانتهى عن المحرمات، وإن لم يأتِ بالنوافل وإن لم ينتهِ عن المبيحات والمكروهات فهو من أهل الصلاح. إذاً (ناس صالحون)؛ سمة الصلاح العض بالنواجذ على الفرائض وترك المحرمات.

- الثاني والطائفة الثانية هم أرقى منزلة عند الله جلَّ في علاه، هم الذين يتبعون الفريضة بالنافلة. ولذلك قال الله تعالى: (ولا يزال عبدي)، عبدي الصالح الذي أتى بالفريضة وانتهى عن المحرم وليس مذموماً أبداً، قال: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه)، هذه الدرجة تسمى درجة المحبوبية. أمّا الدرجة الأولى درجة أهل الفرائض "درجة المحبة"، وبينهما تفاوت كما بين السماء والأرض.

انظر كيف فضائل درجة المحبوبية؛ فقال الله تعالى: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإن أحببته كنت سمعه الذي يسمع به)، لا يسمع إلّا ما يرضيني، (وكنت بصره الذي يبصر به، وكنت يده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها)، انظر إلى الفضيلة التي بعدها: (ولئن سألني) مسارعة وهرولة لإرضائه، (ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه). والذي أدهش العقول في هذه الدرجة، يقول الله جلَّ في علاه: (وما ترددت)، الله يتردد؟ نعم صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، (وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن)؛ ليس كل مؤمن، هذا عام يراد به المخصوص، من هم؟ السابقون الذين يتقربون بالنوافل بعد الفرائض، كل هذه الفضائل جاءت لمن؟ لمن يتسابق بالخيرات، يتبع الفرائض بالنوافل. قال: (ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن) يعني الصالح الذي يتسابق بالخيرات، (ترددي في قبض روح المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته)، هذه الفائدة الكبرى.

هذه السمات والصفات لهؤلاء القلة؛ أناس صالحون، يحافظون على الفرائض، ما ترى الفريضة تقام إلّا ويقوم ويصلي الله جلَّ في علاه، في كل مسجد تراه في المسجد يعمر مساجد الله جلَّ في علاه، في الصلاة تراه متقدماً. في الزكاة تراه في أول النصاب بعد ما يبلغ النصاب وأول ما يحول عليه الحول يخرج زكاة ماله، تراه في الحج يذهب إلى حج الفريضة، تراه في كل أمر أمره الله به يعمل به. تراه في النهي؛ إذا حرم الله عليه الربا، حرم الله عليه الزنا، حرم عليه الشرك، يفعل كل ذلك، ينتهي من المحرمات قدر الاستطاعة. والآخر يتسابق بعد ذلك في النوافل وترك المكروهات، لكن ما منا من أحد ملك، لا بد أن يزل، لكل واحد منا هنات وسقطات وزلات، من ذا الذي له الحسنة فقط؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه كان يقول: (اللهم إن تغفر تغفر جماً، وأي عبد لك لا ألمّا)، من الذي لم يلم الذنب؟ لا والله، (كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون).

ولذلك العلماء قالوا: من ارتقى لمنزلة المحبوبيه لا يسقط منها أبداً، السابق بالخيرات لا يسقط من هذه المنزلة. قالوا كيف؟ له الهنات والزلات والسقطات والمعاصي؟ قال: نعم، لكن الله من فضله عليه بعدما يسقط في الزلة يلهمه التوبة ليرتفع درجة أعلى، فهذه إلهام بالتوبة مفاده من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله قال: (كنت سمعه، كنت بصره، كنت يده، كنت رجله التي يمشي بها)، يعني الله يوفقه ويسدده في كل خير، فإذا سقط سدده الله للتوبة.

(ناس قليل)؛ صفة هؤلاء القليل يسارعون بالخيرات، كما قال مولى للنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قدم له الوضوء وتوضأ النبي وقال: (تمنى عليّ، قال: مرافقتك في الجنة) سابق للخيرات همم كالجبال، فقال: (أعني على نفسك بكثرة السجود)، فلا بد من متابعة الفرائض بالنوافل.

(ناس صالحون قليلون صالحون في ناس سَوْء (أو سُوء) كثير)؛ ونحن كما قلنا هذا الواقع الذي نشاهده الآن، فسد البشر بأغلبيتهم ونزلت الزلازل ونزلت المحن والبلايا، وليس هذا إلّا بسبب فساد البشر لأن الله جلَّ في علاه قال: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [الروم:41]، فنحن في عصرنا الآن (القابض على دينه كالقابض على الجمر). فهم قليل صالحون في صلاح في أناس كثير سوئهم.

قال: (ناس قليلون صالحون في ناس سوء كثير)، ثم ذكر الصفة الثانية ألا وهي: (من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)؛ والواقع مشاهد، لذلك تراهم رجعيون، تراهم متطرفون، تراهم كذا، تراهم كذا. لأنهم يعضون بالنواجد على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كأنهم مخبولون لأنهم تمسكوا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: والله حذو قذة بالقذة على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقالوا: هم رجعيون، هم يرجعون إلى الأزمنة الغابرة السالفة، ولا يرفعون لهم قامة ولا يعرفون لهم قيمة.

هم عندما ينشرون سنة النبي لا يطاعون إلّا في القلة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم)، وهذا هو الخير الذي أعطاه الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- واختاره الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ في الرعيل الأول في زمن الدعوة في مكة، عندما أخذ هرقل أبا سفيان وسأله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الذين يدخلون في دين الله جلَّ في علاه، ماذا قال؟ قال: ما يدخل إلّا الأفراد في دينه أو إلّا الآحاد، هم العبيد الفقراء فقط، قليل الذين يسمعون ويطوعون للنبي -صلى الله عليه وسلم-. هؤلاء تمثلوا بحال النبي -صلى الله عليه وسلم-، أيضاً الذي يسمع لهم ويطيع لهم قلة وليسوا بكثرة، يتمثلون بذلك ويتذكرون حال النبي أول دعوته أنه كان ما يسمع له ولا يطيع إلّا القلة، هذه هي الصفة الثانية، فمن كان كذلك فليحمد الله لأن هذه صفة الذين هم على الحق.

الصفة الثالثة في المنطوق قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يُصلحون حين يُفسد الناس) أو (يَصلحون حين يَفسد الناس)؛ التفسير الثاني أو التأويل الثاني أو الرواية الثانية نفس تأويل صالحون. أمّا التأويل الأول أو التفسير الأول أو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يُصلحون حين يُفسد الناس)؛ ما تراه يمل ولا يكل، صاحب الحق يعلم أن له قضية يعيش من أجلها، يقول ليل نهار أنا وقف لله سأبلغ آية عن رسول الله أتقنها وأعمل بها عملاً بقول الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، عملاً بقول الله تعالى: (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل:125]. يعمل بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بلغوا عني ولو آية)،

يعمل بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نضّر الله امرئً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها). فهو يبلغ دعوة الله جلَّ في علاه ليل نهار، يسد الخلة التي وجدت من الناس أو السنن التي اختفت في الناس بسبب هؤلاء المفسدين. فإنه لا يألو تقصيراً بحال من الأحوال أن يدعو إلى الله جلَّ في علاه وأن ينصر دين الله جلَّ في علاه، سواء باللسان أو بالسنان، بضوابط الشرع التي جاءت في الكتاب وجاءت في السنة.

جعلنا الله وإياكم منهم وجعلنا الله وإياكم ممن ينظر ويمحص النظر في نفسه وفي غيره. فينظر هؤلاء الصالحون هل الصلاح هو صلاح الباطن أم الظاهر أو الصلاح هو صلاح الظاهر والباطن؟ فينظر في نفسه هل صلح ظاهراً؟ تمثل بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ظاهراً؟ هل صلح باطناً في معاملاته مع ربه جلَّ في علاه؟ فإن المرء يدور في معاملته بين أمرين أو بين دائرتين: معاملة مع البشر أو مع المخلوق، ومعاملة مع الخالق، ظاهراً وباطناً، فهل صلحت علانيته وصلحت سريرته؟ فإذا وجد الإجابة نعم أنا كذلك، فليعلم أنه من أهل الحق أو من الطائفة القليلة التي مدحها النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيّن أنها من الطائفة المنصورة، إن لم يجد أنه كذلك فعليه أن يراجع نفسه ويراجع من معه ليعلم كيف يصلح ظاهراً ويصلح باطناً. هذا الكلام على المنطوق.

أمّا المفهوم؛ إذا اجتمعت الأمة على الحق فإنها إن تفرقت لا بد أن تتفرق على ضلالة، لا يمكن أن تجتمع الأمة إلّا على الحق ولا تتفرق إلّا على الضلالة وبسبب الضلالة. ونحن اليوم نبحث ما سبب الضلالة؟ ما سبب الفرقة؟ إن كانت الفرقة عذاب، ما هي الأسباب التي تؤدي إلى الفرقة وإلى الضلال؟

أول الأسباب والأصل الأصيل في ذلك هو عدم رد المتنازع فيه لكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن الله أناط الحق وأهل الحق بأنهم يرجعون في كل مختلف فيه للكتاب والسنة؛ قال الله تعالى: (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ) [الشورى:10]، وقال جلَّ في علاه: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) [النساء:59]. وأيضاً قال الله جلَّ في علاه وأناط الإيمان برمته: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36]، (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ) ثلاث مؤكدات، (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ) يعني يحكموا كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، (حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65].

وسبب الضلال البيّن هو البعد عن الكتاب والبعد عن السنة، وكل متنازع فيه لا يرجع فيه إلى الله ولا يرجع فيه إلى الرسول، بل للأهواء والاذواق والوجد، ولك قصص ثلاث تثبت لك ذلك:

♦ أولاً عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، الفقيهة الصديقة بنت الصديق قالت: ما وقعت الفتن في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلّا أنهم لم يطبقوا آية واحدة من كتاب الله؛ انظر ما طبقوا آية فظهرت الفتن التي لا يمكن أن تغلق بحال من الأحوال،

نزف دم هذه الأمة دماً عبيطاً كثيراً لا يمكن أن يقف بسبب تركهم لآية واحدة. قالت عائشة: قال الله تعالى: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) [الحجرات:9]، قالت عائشة: فترك الناس أمر الله (فَأَصْلِحُوا)، لم يصلحوا بين الناس، ماذا حدث؟ الفتن جاءت تتراً: قتال علي مع معاوية، ثم بعد ذلك الحسين، ثم بعد ذلك بني أمية، ثم بعد ذلك بني العباس. وما زلنا في الفتن تتراً إلى اليوم وكلٌ منا يرى هذه الفتن ويقول لا حول ولا قوة إلّا بالله، اللهم اعصمنا من هذه الفتن، والعصمة موجودة في كتاب الله وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

♦ وأيضاً ابن مسعود يثبت لنا ويؤكد كلام عائشة، أن الضلال والمحن والفتن لا تتنزل إلّا في البعد عن كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ أبو موسى الأشعري سئل سؤالاً فغاب عنه سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا السؤال كان في المواريث وقلته أكثر من مرة، سئل أبو موسى الأشعري: عن رجل مات عن بنت وبنت ابن وعن أخت، فقالوا له: ورث؟ فلم يتذكر ولم يستحضر حديث النبي. وانتبهوا لهذه الواقعة، لما قاله ابن مسعود، يعني قولاً مرعباً لكل من خالف سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقال أبو موسى الأشعري: أرى أن البنت لها الشطر بقول الله تعالى: (فَلَهَا النِّصْفُ) [النساء:11]، والأخت لها الباقي تعصيباً مع الغير، والبنت تأخذ الشطر.

انظروا كيف أن ابن مسعود يؤكد أن الضلال كل الضلال إذا حكم الحاكم بغير سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ماذا قال ابن مسعود؟ قالوا له: يا ابن مسعود إن أبا موسى الأشعري قال كذا وكذا وكذا في هذه المواريث، تقول بقوله؟ قال: (قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) [اللأنعام:56]. يعني أبو موسى ضل؟ حاشا لله، أقول أخطأ نعم، لكن كأن ابن مسعود يشير لنا إلى عموم القضية أو القضية الكلية: أن أي حكم يخالف حكم النبي ضلال، وهذا فيه تفريق عالي بين النوع وبين العين؛ الفعل ضلال، القول ضلال، لكن الفاعل والقائل لا يمكن أن تسمه بالضلال.

نعم هذا القول ضلال، إذا قلت ما في مهدي هذا القول ضلال، لكن القائل ضال؟! حاشا لله أن يقال ذلك. ضلال لأنه مخالف لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، نفس الأمر عند أبي موسى الأشعري. إذا قلت ما في نزول عيسى هل هذا ضلال؟ نعم ضلال لأنه مخالف لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. لو قلت ما في مسيح دجال هذا ضلال، لأنك خالفت سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. لكن هل القائل يضل؟ لا والله، ممكن أن يكون قد اجتهد فأخطأ فله أجر واحد وليس له أجران. نفس الأمر أبو موسى أخطأ، لكن لمّا كان ابن مسعود يعلم أن في المسألة سنة قال: إذاً الضلال المبين أن يخالف السنة، فقال: (قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)، فبيّن أن الحكم يرجع للرسول: أن رسول الله جعل للبنت النصف وبنت الابن السدس [تكملة الثلثين] والباقي للأخت تعصيباً، فحكم فيها بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

إذاً أصل الضلال البين هو مخالفة كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتحكيم الأهواء والوجد والذوق والثقافات والواقع الذي نعيشه، دون أن يرجع لكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. الذين خالفوا هؤلاء الشرذمة القليلة أو الطائفة القليلة، الذين ضلوا وخالفوا الكتاب والسنة هل كلهم على ضلال؟ هل كل من خالف هذه الطائفة يكونون على ضلال؟ نقول هذا من الظلم البيّن؟ لا والله، ليست كل مخالفة ضلال، بل الخلاف إن كان أصله مخالفة الكتاب والسنة، لكن الخلاف على نوعين أو على قسمين: خلاف تنوع أو يكون خلافاً معتبراً، والثاني خلاف تضاد غير معتبر الخلاف.

١- الأول خلاف تنوع، هذا ليس فيه ضلال وإن خالف فيه الجماعة التي ترى أن الحق معها، لو خالفهم في أمور لهم فيها أدلة ليس هذا بضلال، وإن كان راجح مرجوح. وأقول: القسم الأول خلاف التنوع لا مشاحة فيه ولا إشكال فيه ولا تنازع فيه، وهو أيضاً ينقسم إلى نوعين:

▪ تنوع فاضل ومفضول؛ كالوتر، أفضل أوقات الوتر هي آخر الليل (اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً)، فهذا أفضل ما يكون في صلاة الوتر. صلاها قبل أن ينام؟ أقول له ذلك وهذا فضل، لكنه مفضول بالنسبة للأول لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر أبا هريرة كما قال: (أوصاني خليلي بثلاث)، قال: (وأن أوتر قبل أن أنام). فمن أوتر من أول الليل فقد أتى بفضل، لكن من أوتر آخر الليل فقد أتى بأفضل، فالتنوع هذا اسمه تنوع فاضل ومفضول أو فاضل وأفضل.

نقول مثلاً مثل صلاة الضحى أربع ركعات، أفضل من أن يصليها ركعتين، بالحديث الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا ابن آدم اضمن لي أربعاً أول النهار أضمن لك آخر النهار)، والأربع يقصد بها صلاة الضحى، فهي أفضل من اثنتين، ومن صلى الثنتين كان في فضل. فهذا الاختلاف اسمه اختلاف تنوع فاضل ومفضول.

▪ النوع الثاني من اختلاف التنوع: راجح ومرجوح؛ قبل أن أفصل، ما الفرق بينهما؟ الراجح والمرجوح كلاهما ليس بحق، والحق لا يتعدد بحال من الأحوال، الحق مع طرف وأخطأ الطرف الثاني، لكن لا يتنازع يناصح لأنه استدل بفهم في الأدلة، فالخطأ كان في الفهم ليس في الدليل.

مثال ذلك الشرب قائماً؛ أقوام يقولون من شرب قائماً فحرام، يعصي الله جلَّ في علاه، يأثم إذا شرب قائماً؟ نعم، ويستدلون بأدلة حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أتريد أن يشرب معك الهر؟ قال: لا، قال: يشرب معك الشيطان)، فقال القوم: يحرم على الإنسان أن يشرب قائماً، هذا قول يستند لفهم حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. جاء الجمهور وقالوا: لا، الشرب قائماً مكروه وليس بمحرم، وأيضاً يرجع هذا للفهم. قالوا: قد شرب النبي -صلى الله عليه وسلم- قائماً، فإذا حرّم النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئاً لا يمكن أن يفعله، لكن لو كان مكروهاً يفعله ليبيّن للأمة أن من فعل ذلك لا يكون آثماً.

فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- شرب من شنٍّ (يعني من قربة) معلقة قائماً وكان يستطيع الجلوس، فشرب قائماً ليبيّن للأمة أن هذا ليس بمحرم لكنه مكروه. فالحق مع من قال إن الشرب قائماً مكروه، والخطأ مع من قال بأن الشرب قائماً محرماً. هذا فيه التناصح وليس فيه العتب والملاومة، لأن المسألة مسألة واسعة، في اجتهاد وفي الدليل الموجود عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذا القسم الأول، يسلم كل من دخل دائرة القسم الأول.

٢- أما القسم الثاني فهي الدائرة التي فيها العطب وفيها الضلال، بل وفيها العذاب، بل وهي فرقة من الفرق الثلاثة وسبعين التي بينها النبي -صلى الله عليه وسلم-. هذا الاختلاف هو اختلاف التضاد؛ واختلاف التضاد الذي لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال، وهذا اختلاف التضاد هو الاختلاف الذي يخالف فيه من لا يحتج بالكتاب والسنة. فيقول قائل: كلٌ يحتج بالكتاب والسنة! نقول: نعم لكن منهم من يلبّس، لأن الشياطين لا يأتون ويأتوك بالحرام البيّن، يلبّس، قلّب بعض الباطل ببعض الحق. منهم من يلبّس ويقول: قال الله وقال الرسول، لكن ليس له ثمة دلالة في الكتاب ولا في السنة، هو يأتي به ليبين للناس أنه يتكلم بقول الله وقال الرسول.

وأوضح مثال في ذلك الساحر؛ أحد منكم عاصر ساحراً يعالج أحداً؟ أنا عاصرت ورأيت ونظرت في الكتاب، أول ما رأيت استهل الكلام: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، وآيات باهرات، ثم سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم يبيّن كيف يعالج المريض، وبعد ذلك يخفي التمتمات والكلمات المعجمة تحت هذه الآيات. فهو يصدّر الباب أمام الناس ويلبّس عليهم، قال الله قال الرسول قال الصحابة ليس بالتمويه، ثم ذلك يخفي ما عنده. وإذا محصت النظر في الأدلة التي يأتي بها، لا دلالة في المتنازع فيه.

مثال ذلك كثير؛ كالذي يقول الربا حرام، لكن الربا نوعان: ربا كثير فاحش وربا قليل، فالربا القليل حلال والربا الكثير حرام. قلنا يا بني كيف أتيت بهذا؟ قال: الله هو الذي قال ذلك، أنا ما أتكلم إلّا بالكتاب والسنة. قلنا كيف ذلك؟ قال: قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً) [آل عمران:130]، هذا منطوق وأنتم أصولياً توافقوننا في المنطوق والمفهوم، فمنطوقه لا تأكل الربا أضعافاً مضاعفة، ومفهومه كلوه بالهين، قليلاً قليلاً. كل كيفما شئت جنيهان ثلاث أربعة، درهم درهمين لكن كثير لا، (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً). فهذا قد استدل بالكتاب، لكنه زيف وزور على الناس.

مثال ذلك أيضاً أن يأتي بحديث منسوخ وينشره بين الناس ويقول هذا الحلال؛ كنكاح المتعة، يأتي: نكاح المتعة قد أباحه النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة نكحوا نكاح المتعة في أسفارهم، ويأتي ينشر في الناس حلية نكاح المتعة. هذا الخلاف خلاف تضاد، لا يمكن أن يكون تنوع، لأن هذا الحديث بالإجماع منسوخ، ونكاح المتعة حرام البتة،

حتى ابن عباس ورد عنه الرجوع عن ذلك. وأيضاً النكاح بدون ولي، هذا راجح أنه اختلاف تضاد وليس اختلاف تنوع.

فهذه هي الفهم الذي يمكن أن ننظر فيه منطوق هذا الحديث ومفهوم الحديث، هو أن اصل الضلال هو البعد عن الكتاب والسنة، وأن اصل الاختلاف والفرقة اختلاف تنوع واختلاف تضاد. هذا جمل وأصول نشير إليها، حتى نفصل بعد ذلك صفات وسمات الذين يعضون بالنواجذ على كتاب الله وسنة النبي بقوله -صلى الله عليه وسلم-: (تفترق هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة)، ثم ذكر: (إلّا واحدة ففي الجنة، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)، وتفصيل ذلك سيأتي تباعاً إن شاء الله الأسبوع القادم.

الفوائد المستنبطة:

١- أولاً إثبات اليد لله جلَّ في علاه؛ وهذا عمق العقيدة، في الحديث الثالث قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يد الله على الجماعة)، و"على" هنا بمعنى "مع". وهذه فائدة فاتت قد سبق وبيناها: تناوب حروف الجر "من" و"في" و"على"، تأتي بمعناها إثبات اليد لله جلَّ في علاه. قال: (يد الله على الجماعة) أي يد الله مع الجماعة، تستنبط من هذا الكلام:

أن الموفق المسدد من كان في جمعٍ الله وفقه وسدده إلى الحق وهو التمسك بكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، له التوفيق وله التسديد. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يد الله على الجماعة)؛ فيه أولاً إثبات اليد لله، وهي صفة ذاتية خبرية؛

- خبرية: يعني لا يمكن أن نثبتها لله إلّا بالسماع بالخبر عن الله وعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

- ذاتية: يعني لا تنفك عن الله جلَّ في علاه.

ضابط الصفات الخبرية أن مسماها عندنا أجزاء وأبعاض؛ يعني اليد جزء مني، لكن بالنسبة لله تقال صفة كمال وجلال، لا يقال جزء من الله ولا بعض من الله، حاشا لله، ضلال مبين هذا. تقول: صفة من صفات الكمال والجلالة. العين جزء مني، وهي بالنسبة لله عين الله، تسمى صفة من صفات الكمال. فضابطها حتى أقول هذه الصفة ما نوعها؟ خبرية ذاتية لا تنفك عن الله؛ خبرية بالخبر، وهي خبرية لأن مسماها عندي جزء وبعض، فالساق جزء مني وهي صفة كمال الله جلَّ في علاه. فضابط الصفة الخبرية أن مسماها عندي أجزاء وأبعاض، وتنسب لله صفة كمال وجلال.

فهي صفة خبرية ذاتية يعني أزلية أبدية، ثبتت بالكتاب وبالسنة وإجماع خير الأمة ألا وهم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ثبتت بالكتاب؛ قال الله تعالى: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، قال الله تعالى: (أَيْدِينَا) [يس:71]، وقال الله تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) [المائدة:64]. ومن سنة النبي -صلى

الله عليه وسلم-؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يمين الله ملأى) سماها يمين (يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار)، وأيضاً في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)، فهذه فيها إثبات ليد الله جلَّ في علاه. وأجمع الصحابة الكرام الأفاضل أن لله يد، وهي صفة كمال وجلال تليق بجلال الله جلَّ في علاه.

فقام قائم وقال أنتم تقولون لله يد، كيف يد الله؟ فجاء الجواب من الإخوة الأفاضل طلبة العلم، قام أشهر سيفه علينا قال: يد؟! تصفون الله باليد أيها الضلال؟! أعوذ بالله، الحمد لله، قد وصف الله نفسه باليد وقد وصفه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قال: إذاً نحن معكم، إذا قال الله أن له يد وقال الرسول أن له يد، كيف يد الله؟ اليد معلومة في اللغة، كلٌ منا يعرف، محمد له يد. فاليد في اللغة معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب أوجبه الله وأوجبه الرسول -صلى الله عليه وسلم-، والسؤال عنه بدعة. فإذاً الكيفية غير معلومة عندنا، لكن الكيفية موجودة.

يد الله جلَّ في علاه ثابتة بالكتاب وبالسنة، لازم اليد القوة والبطش والعطاء والمنع، فإن الله يمسك السماء أن تقع على الأرض، فالله يبطش بيده، فالله يعطي يمنع، فلازم اليد القوة والبطش (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) [البروج:12].

كيف يتعبد المرء باعتقاده السديد الصحيح بأن لله يد:

▪ أولاً يعلم أن يد الله جلَّ في علاه عطاء سحاء الليل والنهار، ما تنزل النازلة، ما يضيق به الضيق، ما تنزل البلايا على الإنسان إلّا ويعلم أن له رباً ينزل إلى السماء الدنيا يبسط يده ليتوب المسيء، ليسأل السائل، ليعطي من دعا. فإن الله جلَّ في علاه يقول هل من سائل فيعطيه بيده سبحانه جلَّ في علاه، إذا صح التعبير أن يمين الله ملأى ينفق كيف يشاء، من سأل الله يعطيه، من تذلل إلى الله وتضرع يستجيب له. قال: (من يستشفيني فأشفيه)؛ فإن سألته أعطاك، فإن دعوته أجاب، فإن استشفيت الله جلَّ في علاه شفاك.

▪ الثانية؛ ما منا من أحد إلّا وله سقطات وزلات وهنات ومعاصي يقع بها ويقترفها، يعلم أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، فيتوب إلى الله جلَّ في علاه ويعلم أن الله سيسارع له بالتوبة. أيضاً لا يخاف من أحد، ما دام الجبار وبطش الجبار وأن الدنيا باسرها في ملكوت وقبض يد الله جلَّ في علاه، فإنه لن يخاف إلّا من الله جلَّ في علاه.

هذا بالنسبة للكلام الموجز لإثبات صفة اليد لله جلَّ في علاه، وسيأتي إن شاء الله المباحث للرد على أهل البدع الذين قالوا اليد هي القدرة أو اليد هي النعمة. يبقى مبحث أخير في الكلام الموجز عن اليد؛ يد الله يدان، كأن سائلا يسأل وكم يد لله؟ أثبتم لله يد وقلتم أن الكيفية لا نعلمها، كم يد لله جلَّ في علاه؟ قلنا لله أيادي، ما معنى الأيادي؟ نهائي، لكن إذا قلت يد الله فلله يدان، والدليل على ذلك قول الله تعالى عندما قالت الأمة

المغضوب عليها: (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) قال الله تعالى (غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) مثنى، (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) [المائدة:64]، وأيضاً لما أنكر على إبليس عدم السجود قال: (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) فهذه التثنية. وأيضاً من السنة كثير جداً يثبت أن لله يدين؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يطوي السموات بيمينه وبيده الأخرى) ما ذكر الشمال وهذا خلاف عريض لا ندخل فيه الآن، لكن ذكر اليد الأخرى. وأيضاً في صريح قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وكلتا يدي ربي يمين)، فلو كان أكثر لبينه النبي -صلى الله عليه وسلم-. إذاً في هذا الحديث من الفوائد المستنبطة إثبات اليد لله جلَّ في علاه.

٢- الإجماع حجة شرعية؛ وحجة شرعية يعني ملزمة، يعني إذا قيل لك هذه المسألة أجمعت الأمة عليها لا يجوز لك أن تعمل بخلافها، ولا يجوز لك تركها. والاستدلال بذلك بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يجمع الله أمتي على ضلالة)، فإذا لو اجتمعوا لا يجتمعون إلّا على حق، وهذا حق لا بد أن تتبعه لأن الله جلَّ وعلا قال: (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) [يونس:32]، فالإجماع حجة شرعية.

والإجماع كما عرّفه الأصوليين: هو اجتماع أهل الحل والعقد أو اجتماع العلماء الأبرار على حكم مسألة معينة؛ يقولون هذا حرام، الكل يقول حرام، كل علماء الأمصار في المدينة ومكة والحجاز والخليج ومصر وهنا وهنا، كل عالم نحرير في هذه المسألة يقول حرام، فتجتمع الكلمة على حرمة هذه المسألة، فيحرم مخالفة هذا الإجماع، هذا معنى إجماع الأمة أصولياً.

الإجماع حجة شرعية، والإجماع قسمان: إجماع على مسألة دليلها قطعي، وإجماع على مسألة دليلها ظني.

▪ الإجماع على مسألة دليلها قطعي؛ كشرب الخمر، كالزنا، والدليل القطعي هو الدليل المتواتر، إمّا القرآن وإما الأحاديث المتواترة، ليس السنة فقط، البخاري ومسلم أكثرها آحاد، ما في غير ثلاثة عشر حديث هم الذين نقلوا متواترين. فدليل القطعي من الكتاب أو من السنة المتواترة.

▪ أمّا الإجماع دليله ظني وهو الدليل الآحاد؛ كالسدس للجدة هذا دليل آحاد، إذا قلنا بالإجماع.

والقسمان لهما أحكام؛ قال العلماء: من رد إجماع الأمة التي مستندها الدليل القطعي فقد كفر، "فقد كفر" ما معناها؟ نوع وليس عين، ما أحد يتجرأ على تكفير شخص معين بحال من الأحوال، هذا ضلال مبين. فنقول من أنكر الإجماع الذي دليله قطعي، كما قال الآمدي وقال الجويني وغيره، بالاتفاق يكفر بذلك.

الثاني إن كان الدليل ظني فلا يكفر بذلك، لكنه يفسّق ويبدّع، إذا أنكر شيئاً قد بلغ حد الإجماع فإنه يبدع ويفسق في ذلك إن كان الدليل دليلاً ظنياً.

٣- الفائدة الثالثة؛ الحق واحد لا يتعدد، وهذه تبيّن لك الفهم المغلوط عند الناس الذين يقولون: هذا له حق وهذا حق، وزيد كعبيد كعمر، فكل رجل فيه خير ويتكلم بالخير فخذ منه واعمل بما يقول. نقول: لا، الحق غير متعدد، الحق واحد، والدليل على ذلك مفهوم من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يجمع الله الأمة على ضلالة) يعني يجمعهم على الحق. والحق واحد غير متعدد بدليل قول الله تعالى: (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) [يونس:32]، هو إمّا حق وإمّا ضلال، فالحق لا يتعدد.

وإذا استدل مستدل بحادثة بني قريظة وغيرها فقد أجبنا عليها كثيراً، فإن الحق واحد لا يتعدد، والدليل على ذلك القاطع للنزاع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر) إذاً ليس الكل مصيب، لا بد واحد فقط يوافق الحق عند الله. وأمّا بالنسبة لبني قريظة من خلاف التنوع الذي ينزل تحت دائرة الحق الواحد الذي لا يتعدد.

٤- الفائدة الرابعة والأخيرة؛ يأتي اللفظ بالعموم ويراد به الخصوص، من باب كما قال الشافعي في الرسالة: عام يراد به الخاص، كقول الله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [آل عمران: 173]، قال الله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ) الصحابة من الذين قال لهم أنهم جمعوا لكم؟ رجل واحد وسماه الناس، فهذا عام يراد به الخصوص.

أيضاً عندنا دليل آخر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تجتمع أمتي على ضلالة) أو (لا يجمع الله الأمة على ضلالة)، ليس المقصود بها كل الأمة، بل المقصود بها الطائفة القليلة التي وصفها النبي: (ما أنا عليه وأصحابي)، الذين تمسكوا وعضوا بالنواجذ على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ظاهراً وباطناً.

هذا آخر الفوائد المستنبطة يأتي تباعاً إن شاء الله الكلام على سمات وصفات هذه الطائفة، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الحادي والعشرون: من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب الجلّيل كتاب السنة لابن أبي عاصم، وهذا الباب الجليل "باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أمره بلزوم الجماعة وإخباره أن يد الله على الجماعة" يعني مع الجماعة، وذكرنا جملاً في هذه المسألة. ولا زلنا مع هذه المسألة الخطيرة -نسأل الله جلَّ وعلا التوفيق والتسديد-، وما كان لمثلي أن يتكلم في هذه المسألة لا سيما وأنها تفرّق بين الناس وليس لمثلي ان يفرّق بين الناس، لكننا نبيّن ما رسم لنا علماؤنا أسساً وأصولاً على غرارها، وبعد النظر إليها يمايز أو يميز كل إنسان نفسه هل هو من هؤلاء الذين بشرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أم ليس منهم، فإن كان منهم فليحمد وليزداد مما فيه من خير، وإن لم يكن منهم فليستغفر الله جلَّ في علاه ويتوب ويؤوب إلى ربه جلَّ في علاه ويترسم خطى وصفات هؤلاء القوم حتى يكون منهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

وعن عامر بن سعد عن أبيه قال: وقف عمر بالجابية فقال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة، فإن الشيطان مع الفُذِّ).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة).

وعن قتادة عن أنس بن مالك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: (إن الله قد أجار أمتي أن تجتمع على ضلالة). وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم الإختلاف فعليكم بسواد الأعظم الحق وأهله).

الأسبوع الماضي بيّنا بأن الله جلَّ في علاه تدارك هذه الأمة بلطفه ورعايته وتوفيقه وتسديده، فإن الله جلَّ في علاه وفق لهذه الأمة طائفة تقوم على هذا الدين وتعمل به وتعض عليه بالنواجذ حين يَفسد الناس وحين يُفسد الناس، فيصلحون حين أفسد الناس يقومون على دين الله حتى يموتوا على ذلك. وبيّنا بعدما لملمنا شمل الأحاديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بلزوم الجماعة، وسنبيّن من الجماعة، وهم على كثرة وقلة كما بيّنا الأسبوع الماضي.

ثم بيّن لنا سمات وصفات هؤلاء بأنه أشار يقللهم، وجعل لهم صفات وسمات ذكرناها الأسبوع الماضي، واليوم نجلي لها العلامات الظاهرة التي أيضاً من الأحاديث والآثار أثبتها الشرع لهم علّنا نترسم خطى هؤلاء القوم ونكون من الناجين كما نجوا، فإن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بالجماعة)، ولمّا قال: (افترقت هذه الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة)، وذكر أن منها هي الناجية، قالوا: من يا رسول الله؟ قال: (الجماعة)، ولمّا سألوه عن الجماعة قال: (ما أنا عليه وأصحابي). فإذا محّصنا النظر في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أراد بحبوحة الجنة)، أو قول عمر: (من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة)، فعلينا أن نقول من الجماعة؟ كثرة هم أم قلة؟

أقول الجماعة المقصود الأصلي والأسمى لها هم صحابة رسول الله، هم الجماعة، هم الأسوة، هم القدوة، وفي الرعيل الأول الرعيل التقي النقي، رعيل القيادة والسيادة والريادة كانوا كثرة، وملأوا ربوع الأرض مشارقها ومغاربها ذكراً لله جلَّ في علاه، عبّدوا الناس لرب الناس جلَّ في علاه. فكانوا في كثرة، وذكرهم الله جلَّ في علاه معدِّلاً إياهم من فوق سبع سماوات، وعدّلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة بأسرها أن تقتفي أثرهم وأن تعض على سننهم وأن تعض على طريقهم.

قال الله تعالى: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [الفتح:26]، وقال جلَّ في علاه: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) [الفتح:29]. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أصحابي أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه)، وأيضاً كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجعل علامات الإيمان حب صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما سنبين، وأيضاً أمر بأن نعض بالنواجذ على سنن هؤلاء الأخيار: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور). وأيضاً قال: (اقتدوا بالّذين بعدي، أبي بكر وعمر)، وأمر الأمة ان تسترشد بهما، وأن الأمة

إذا اتبعت أبا بكر وعمر رشدوا وفلحوا، وكان النجاح والفلاح والسداد والتوفيق موافقاً لهم. فالجماعة المقصود بها هم صحابة رسول الله، وهم كانوا على كثرة في الرعيل الأول. أمّا في هذه الأزمنة التي توالى فيها الفساد كما قال أنس وبيّن أن ما من زمن إلّا والذي بعده أشر منه، فإنهم في قلة. ولذلك أشار النبي -صلى الله عليه وسلم- يقلل هذه الطائفة في ناس الفساد فيهم كثير، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ناس قليل صالحون في ناس سوء كثير)، وقال: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم). فالتقليل في الزمن المتأخر هل هو يجعل طائفة قليلة أو حفنة صغيرة في بوتقة النجاة والباقون على هلكة؟ هذا الذي لا بد أن نفصّل فيه ونبيّنه، حتى لا يلتبس الأمر على كثير من الناس فيقول أدخل نفسه ومن معه وأخرج الآخرين، ونعوذ بالله ممن يقنّط من رحمة الله جلَّ في علاه أو يحجّر واسعاً وسّعه الله جلَّ في علاه.

اليوم على موعد أيضاً مع الصفات الجلّية الظاهرة التي وسمها النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذه الطائفة حتى نترسم خطاها، من هذه الصفات:

١- أعظم الناس تمسكاً بالسنة، يعني هذه الصفة علامة مميزة جداً لهذه الطائفة، أنهم يسارعون إلى التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- والعمل بها وتطبيق هذه السنة، ويفرون من البدعة فرارهم من الأسد. فهم أقرب الناس إلى سنة وأبعد الناس عن بدعة، وأعظم الناس تعظيماً لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- عملاً بآية: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) [آل عمران:31]، وعملاً بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)، وبقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني).

فترى هؤلاء القوم يعظمون السنن، يسألون عنها ويطبقونها، تشتاق قلوبهم إلى فعل النبي، إلى نوم النبي، إلى طعام النبي، إلى جلوس النبي، يفعلون ما يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم-، قلوبهم تطير إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كيف يطبقون ما فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واقعاً حياً بين الناس. كما كان يفعل ابن عمر رضي الله عنه وأرضاه؛ ينظر إلى أثر القدم كيف كان يمشي النبي -صلى الله عليه وسلم- فيمشي كما كان يمشي النبي، كيف كان يبول النبي -صلى الله عليه وسلم- فيبول كما يبول النبي، يقتفي أثر النبي -صلى الله عليه وسلم- ويعظّم آثار النبي -صلى الله عليه وسلم-. هذا تأخذه من الصحابة ومن بعدهم الذين مدحهم الله جلَّ في علاه: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ) هذه هي الجماعة، والذين بعدهم علامتهم علامة النجاة مع الصحابة قال: (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ) [التوبة:100]، فاتباع الصحابة بإحسان هو أن تترسم خطاهم وأن تعمل مثل ما عملوا.

ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه كان يسير إلى المسجد ذاهباً إلى المسجد، ما كان في داخل المسجد وما جلس في جلسة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يسير إلى المسجد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وسط أصحابه فتكلم بكلمة لأصحابه، لا لابن مسعود، فقال: (اجلسوا)، وكان ابن مسعود خارج المسجد فجلس ائتماراً بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وتعظيماً لكلام النبي -صلى الله عليه وسلم-.

جلس عمران بن حصين يحدث التابعين عن رسول الله وعن أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فذكر لهم حديث الحياء، فقال قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الحياء لا يأتي إلّا بخير)، فقام كعب الأحبار [كان من التابعين وقد أسلم] فقال: نعم، إن من الحياء لوقار، إن من الحياء لسكينة. فغضب عمران بن حصين غضباً شديداً تعظيماً للآثار والسنن فقال: أحدثك عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتحدثني عن حكمائك وعن فلان وفلان، إذا حدثتك عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلا تذكر معه أحداً كائناً من كان. فكانوا يعظمون سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فعلامة هؤلاء القوم تراهم يسارعون في السنن، يتعلمونها ثم يطبقونها ثم ينشرونها بين الناس، وهم أكثر الناس تعظيماً للسنة. إن كانت طائفة تعظم هذه السنة ولا تستطيع أن تطبقها، هؤلاء لا يخرجون من الطائفة التي بشرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، عندهم ما يحول بينهم وبين السنن ما يعذرون عند ربهم أو يعتذرون، يقولون: نعم هذه سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا بد أن نبجلها، لا بد أن نعمل بها، لا بد أن نأخذ بها، لا بد أن نطبقها، ولكن يحول بيننا وبينها كذا وكذا؛ عندهم أعذار. أمّا الذي تراه أمام الناس يأتي بالسنن ويستهزئ بها ويستهزئ منها ويستهزئ ممن يطبقون سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا لا تعده منهم. الذي مثلاً يقول: أين نحن من هؤلاء الذين يقولون بالثوب القصير أو بالسواك أو يرون أن صلاتهم لا تصح من غير السواك، وليل نهار يكلموننا عن دورات المياه والحيض وغير الحيض والنفاس. يستهزءون بمن يتمسك بالسنن، بل ويستهزؤون بالسنة، هذا لا يمكن ان تعده من هذه الطائفة لأنه لم يعظم السنة.

لو كفاه أنه لم يطبق السنة ثم اعتذر وقال: يحول بيني وبينها كذا وكذا، لكن هذه سنة النبي، وحري بنا حتى ولو كانت سنة نافلة ليست واجبة أن نطبقها، وإن لم نستطع فعذرنا عند الله جلَّ في علاه؛ فيعظمها ويعظم أهلها. أمّا أن يعادي أصحابها ويعادي من يتمسكون بها، بل ويستهزئ بها ويتنطع على من يتمسك بها ثم يرميه بالأقاويل التي تقلل من شأنه، فهذا لا والله، لا يكون من هذه الطائفة بحال من الأحوال، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- رسمها ووصفها ودقق في وصفها قال: (ما أنا عليه وأصحابي).

والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان على ذلك، النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يتكلم عن مسألة إسبال الثوب يقول: (الإسبال مخيلة) ولم يفرّق بين كبر ولا غير كبر، ولمّا دخل عليه ابو بكر رضي الله عنه وأرضاه قال: يا رسول الله إن إزاري يسقط مني وأنا

أتعهده؛ يسقط منه فيكون تحت الكعب، فلو كان في موضعه في الوسط أين يكون؟ فوق الكعب، يعني ما كان تحت الكعب، لكن هو لأنه نحيف من نحافته ينزل إلى تحت الكعب، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لست منهم)، أنت أصالةً مقصِّر ثوبك فوق الكعب، فأنت لنحافتك يسقط منك.

والذي يوضح ذلك جليّاً؛ ابن عمر الأثري، ابن عمر المعظّم لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يظن به انه كان من الكبر بمكان، هذا الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نِعْمَ العبد) يقصد ابن عمر رضي الله عنه وأرضاه، (لو كان يقوم من الليل قسطاً). فعبدالله بن عمر استأذن لرسول الله، فقال: من؟ يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: من الطارق؟ من الداخل؟ فقال: عبدالله، فنظر إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فوجد إسبال الثوب. ونحن نظن أن ابن عمر ليس متكبراً وليس من أهل الخيلاء بحال من الأحوال، فإذا لو قلنا بأن ابن عمر أسبل إزاره إلى تحت الكعبين أسبله بغير خيلاء. لو كان كما يفرّقون كما يزعمون بهذا التفريق لفرَّقه النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو كنت عبداً لله لرفعت ثوبك)، وهذا على العموم. فكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أناط العبودية والذلة لله جلَّ في علاه بأن يرفع ثوبه فوق كعبيه، وهذه دلالة واضحة جداً على أنها لا تفرِّق بين الخيلاء وبين غير الخيلاء، مصداقاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الإسبال مخيلة). ولذلك ترى أهل السنة والجماعة يعظّمون السنن، لا يمكن أن تراهم حتى وإن لم يعملوا بها، لا يمكن أن يحتقروا سنة، ولا يقللوا من شأنها.

عمر بن الخطاب على فراش الموت، بعدما طُعِن وهو ممدد على الأرض، دخل عليه شاب قد أسبل إزاره فأحسن القول في عمر: أنت وأنت وزير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنت خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حكمت بالسوية وعدلت وقسمت بالسوية، وجلس يثني عليه. فنظر إليه ابن عمر وقال: إن سألك ربك تجيب عن ذلك أو تقول بما قلت؟ قال: أقول بما قلت. بعدما ذكر عمر رحل الشاب، فقال: ائتوني بهذا الشاب، فجاء الشاب ونظر إلى ثوبه فوجده مسبلاً إزرار، فقال له: يا بني ارفع ثوبك مرضاة لربك ومطهرة لثوبك. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو يموت في هذه المسألة تعظيماً لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، نستشهد بذلك أنه لا فرق بين المخيلة وغير المخيلة. إذاً لو كانت مخيلة لقال له عمر: يا بني أأنت أسبلت هذا الإزار كبراً وخيلاء؟ إذا قال له: لا، فإذاً يقول له: إذاً ارحل راشداً لأن النهي منصّب على الكبر وعلى الخيلاء.

فنقول حتى ولو كانت المسألة خلافية وتكلم بها بعض العلماء، وقالوا: يحمل المطلق على المقيد، وهذا مرجوح، وقد بيّنا خلاف التنوع وخلاف التضاد. لمّا نقول بأن هذا الخلاف هل يصح للإنسان أن يتجرأ ويتنطع أو نقول يتجرئ على من يقيم هذه السنة فيسب فيه ويطعن فيه لأنه يتمسك بهذه السنة؟ وهل له أن يتكلم عن هذه السنن في

الاستهزاء والتخفيف ويقول هذا تفريق للأمة؟ لا والله، هذا جمع للأمة، وشمل الأمة يلتئم بالتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فترى علامة الناجي، علامة الموفق المسدد، حتى وإن لم يعمل بالسنة وإن لم يطبق السنة. فهو يعظم السنة ويقول: هذه السنة فوق رأسي، في قلبي، في عيني، ما استطعت أن اطبقها عذري عند ربي، ثم يعظّمها ويعظّم من يطبقها ولا يشن الحرب الشعواء على من يطبق السنة.

فهذه أول صفة التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم-، صفة جلية ظاهرة، فخذ عندك واحفره بين صدرك؛ من رأيته يعظّم رسول الله ويعظم سنة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فهو من الطائفة الموفقة المسددة التي أشار إليها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أنا عليه وأصحابي)، ومن رأيته يطعن فيمن يتمثل بالسنن أو يقلل من شأن سنة يقول: هذه سنة يمكن أن نفعلها أو لا نفعلها، فاعلم أنه ليس من أهلها، فليتوب وليؤوب إلى الله جلَّ في علاه وباب التوبة مفتوح. إذاً علامة ظاهرة أيضاً بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- وصفاً دقيقاً لهذه الفرقة وهذه الطائفة.

٢- العلامة الثانية: تراهم يعظّمون صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يحبونهم من كل قلوبهم، لا يطلقون ألسنتهم في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يقولون: حب صحابة رسول الله دين وإيمان وإحسان، وبغض صحابة رسول الله كفر وبغي وطغيان. ويعلمون أن النفاق كل النفاق هو التجرأ على صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والإيمان كل الإيمان هو حب صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومدح صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

لا غرو ولا عجب، فإن رسول الله أناط الإيمان بحب الأنصار، وأناط النفاق ببغض الأنصار، كما في الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه وأرضاه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (علامة الإيمان حب الأنصار)، حب صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتعظيم صحابة رسول الله، أهم سمة أنهم يترسمون خطاهم ويعلمون أن هؤلاء النجاة في طريقهم. (علامة الإيمان حب الأنصار وعلامة النفاق بغض الأنصار)، فجعل بغض الصحابة من علامة النفاق.

ولذلك قال بعض المحدثين من التابعين -ما استحضر اسمه الآن- وهو يحدِّث قال: معاوية بوابة الصحابة أو معاوية بوابة النجاة؛ من تجرأ على معاوية فهو على غيره أجرأ، فمن تكلم في معاوية سينزل ويتكلم في باقي الصحابة. فما بالكم فيمن يتكلم في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وهؤلاء الأخيار الأئمة الكبار؟!! فنقول معاوية بن أبي سفيان كعلي بن أبي طالب كعثمان بن عفان كأبي بكر، ما من أحد من الصحابة نذكرهم إلّا ونقول "رضي الله عنهم وأرضاه".

ولذلك علامة هذه الطائفة أنهم إذا ذكر عندهم الصحابة يترضون عليهم، وعلامة هذه الطائفة أنهم لا يفرّقون بين الصحابة في الفضل، يقولون هم كلهم سواء في الفضل، هم خير الناس، لكن التفاوت في الدرجات كما بيّنه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكما أجمعت عليه الصحابة: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم بعد ذلك باقي العشرة المبشرين، ثم بعد ذلك الأفاضل الأخيار كابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وهؤلاء الأخيار الأماجد. فتراهم يحبون صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعملون بقول مالك: إن من الدين أن تعلِّم أبناءك حب أبي بكر وعمر، إن من السنة أن تعلم أبناءك حب صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وكما قلت إن النفاق علامته أن يقع في صحابة رسول الله؛ فإن رأيت رجلاً تكلِّمه عن أبي بكر أو عن عمر أو عن عثمان أو عن علي أو عن معاوية، فيشمئز قلبه أو يتضايق ويبيّن لك اشمئزاز القلب، فاعلم أن هذا رجل في قلبه من النفاق ما فيه كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وبغض الأنصار) أو "بغض الصحابة" على التوسيع وعلى التعميم، "بغض الصحابة علامة من علامات النفاق".

فالعلامة الثانية لهذه الطائفة؛ يحبون صحابة رسول الله، يترضون عليهم ويكفون بألسنتهم عما وقع بينهم. يترضون على كل واحد منهم معاوية قبل الصحابة الآخرين، قبل علي وقبل عثمان، لِمَ؟ لأن البدعة كل البدعة هنا وقعت في الكلام على معاوية -رضي الله عنه وأرضاه-.

وأيضاً عندما يفضّلون، يفضّلون من فضّلهم رسول الله، علي بن أبي طالب نفسه قام خطيبا في الناس فقال: أيها الناس أفضل هذه الأمة بعد نبيها -صلى الله عليه وسلم- أبو بكر ثم عمر بن الخطاب ثم الله أعلم بمن؛ يعني لم يفضّل عثمان عليه، وهذا فيه خلاف بين أهل السنة والجماعة: تقديم عثمان على علي أم تقديم علي على عثمان؟ كثير من أهل الكوفة قدّموا علي، وبعد ذلك إجماع أهل السنة كان تقديم عثمان على علي بن أبي طالب، استقر عليه القول بعد ذلك. الغرض المقصود؛ أن الكلام في أي واحد من الصحابة دلالة على علامة البدعة، لا على علامة السنة.

٣- العلامة الثالثة التي تميز هذه الطائفة: يعتقدون في الله الإعتقاد الصحيح، إذا أردت أن تعلم أن هذا العبد الموفق المسدد سله عن يد الله جلَّ في علاه، سله عن نزول الله جلَّ في علاه، سواء الصفات الذاتية أو الخبرية أو الصفات الفعلية. يقول الله تعالى: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، فإذا سألت الرجل وقلت له: قال الله: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)، (يد الله مع الجماعة)، (يد الله على الجماعة). فسألته: ما هي يد الله جلَّ في علاه؟ كيفية يد الله؟ تراه منطلقاً يقول: سأثبت ما أثبت الله لنفسه وأثبته له رسوله وأثبته له الصحابة، فهو حذو القذة بالقذة على اعتقاد الرسول في ربه وعلى اعتقاد الصحابة الكرام في ربهم جلَّ في علاه، فيقول: يد الله يدٌ حقيقية لا نعلم كيفيتها، هي لها كيفية لكن لا نعلم كيفيتها، والإيمان بها واجب والسؤال عنها بدعة.

فيثبتون لله ما أثبته لنفسه وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه؛ قال الله تعالى: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [فصلت:46]، فيقولون ننفي عن الله الظلم لكمال عدله جلَّ في علاه، فهم يعتقدون كما يعتقد السلف. وتراهم أيضاً في الصفات الفعلية يثبتونها لله جلَّ في علاه دون تحريف ولا تأويل؛ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ينزل ربكم ثلث الليل الآخر فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داعي فاستجيب له؟)، فيقولون: ينزل ربنا؟ نعم ينزل ربنا، حقيقةً، هذا فعل من أفعال الله جلَّ في علاه، دلالة على كمال الله وعلى جلال الله، ولا نكيّف النزول، بل ولا نتنطع ونقول إذا نزل هل يخلو منه العرش أم لا يخلو منه العرش، نقول: ينزل ونزوله يليق بجلاله وجماله سبحانه جلَّ في علاه. فهم يثبتون في عقيدتهم ما أثبته الصحابة لربهم وما أثبته رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، شعارهم في ذلك يسعنا ما وسع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويسعنا ما وسع الصحابة، قال الله تعالى ينزل، قلنا ينزل كما قال النبي.

قال الله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (استوى الرحمن على العرش)، وقال الصحابة: (استوى)، لا نقول استولى لأنه يسعنا ما وسع الصحابة، لأن الافتراضات في هذه المسألة: إمّا أن نكون نحن أعلم من رسول الله وأعلم من صحابة رسول الله، وهذا لا، الإجابة لا بالإجماع. وإمّا أن نقول بأن الرسول والصحابة كتموا الحق فلم يبلغوه، فبالإجماع لا. فإذاً تكون الإجابة السديدة: إذاً يسعنا ما وسع الصحابة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الرحمن على العرش استوى).

أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن الضلال والهدى بيد الله، الله يضل؟ نعم يضل، وليس هذا ظلماً وليس إجباراً، هذا فهم خاطئ وفهم مغلوط لمن يعمق العلم في العقيدة. نعم، بيد الله الضلالة وبيد الله الهداية؛ قال الله تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ) [النحل:6]، هذا إجمال ائتني بالآية التي تثبت أن الله يضل عباده؟ قال الله تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ)، نعم الله يضل، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله يضل الذي يستحق الضلالة، (جْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]. ونقول هذه عقيدة صحابة رسول الله، هذه عقيدة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهذه من علاماتهم أنهم يعتقدون في ربهم ما يعتقده رسوله، ويعتقدون في ربهم ما يعتقده هؤلاء الأخيار وهم صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

٤- السمة الرابعة التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأحاديث الكثيرة التي جاءت في صفة هؤلاء القوم: لا يتجرأون على تكفير أحد؛ وهذه مسألة محط أنظار وقد بينتها كثيراً وقد وقفت معها كثيراً، وقلت لا يتجرأ على التكفير إلّا جريء جاهل، وهذه المسألة شائكة جداً وهي ليست بالهينة وتوابعها وخيمة. فإن علامة أهل السنة والجماعة لا يطلقون التكفير على أحد ولا يقنّطون أحداً من رحمة الله جلَّ في علاه، لا يكفّرون إلّا من أجمعت الأمة على تكفيره، لا يكفرون إلّا من كفّره الله في كتابه وكفّره رسوله

-صلى الله عليه وسلم-، لا يتجرأون على أحد أتى بالطامات أن يقولوا هو كافر إلّا بدليل أوضح من شمس النهار، يخافون، هذه عقيدة الصحابة وعقيدة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

انظروا إلى عقيدة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في حديث أسامة أجلى ما يكون؛ أسامة يقول: بعدما أرسلنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في سرية، فصبحنا القوم فغنمنا فلاذ مني رجل خلف الشجرة وكان معي أخي الأنصاري، فتوقف عنه الأنصاري، كف عنه الأنصاري، فأخذت الرمح لأطعنه فقال: لا إله إلا الله. دخل الرجل بذلك في الإسلام، لماذا دخل في الإسلام؟ نطق بالشهادة الركن الركين، فقال: لا إله إلا الله. فقام أسامة وهو يجتهد، انظروا اجتهاد أسامة ليس كاجتهاد الآحاد أمثالنا الأراذل أمثالنا الضعاف الذين لا يفقهون ويهرفون بما لا يعرفون، أسامة العربي الكح، أسامة الذي نظر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتربع على مائدته ويتعلم، أسامة باجتهاده قال: هذا الرجل فيه زيغ وبطلان، هذا الرجل ما يتكلم إلّا بهتاناً يفر مني بهذه الكلمة. فقتله تأولاً على أن الرجل يقول ذلك حتى يفر من القتل، فبعدما قال لرسول الله: قتلته، قال له رسول الله: (أقتلته بعد ما قال "لا إله إلا الله"؟) قال: يا رسول لاذ مني وما قال ذلك إلّا خوفاً من الموت، فقال: (يا أسامة أقتلته بعد ما قال "لا إله إلا الله"؟)، يعنف ويؤكد ويغلظ أن من دخل حظيرة الإسلام لا يتجرأ أحد على إخراجه منها إلّا بدليل أوضح من شمس النهار، واجتهادك هذا باطل لا يصح.

كما قلت كثير من الأئمة قالوا: لو كان الرجل على مئة تسعة وتسعين من الكفر وواحدة من الإيمان، لحملناه على واحدة من الإيمان. احترم الظن بالمسلم، لا يمكن لك ولا أن تتجرأ على أن تقنّط عباد الله من دين الله جلَّ في علاه ولا من رحمة الله جلَّ في علاه، كما قال ابن أبي العز: لا يحل لأحد كائناً من كان أن يقنّط عباد الله من دين الله جلَّ في علاه، أو قال: لا يمكن لأحد أن يحكم بأن الله لن يغفر لفلان أو أن الله سيخلِّده في نار جهنم. هذا تألّي على الله جلَّ في علاه، هذه من الغيوب لا يعلمها إلّا الله.

فمن علامات أهل السنة، من علامات الفرقة التي نجاها الله ووفقها وسددها، لا يتجرأون على تكفير أحد بحال من الأحوال، فضلاً عن الأئمة والولاة. فهم لا يتجرؤون على التكفير لِمَ؟ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما)، وفي رواية أخرى أيضاً في الصحيح قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من قال لرجل يا فاسق (أو قال له يا كافر)، ارتدت عليه، فإن كانت على صاحبه فكان) يعني كان هذا القول له حقاً، (وإلّا فارتدت عليه فحارت عليه) يعني رجع باء بذنبه بما تجرأ على أنه أخرجه من دين الله جلَّ في علاه. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن لعن المؤمن كقتله)، فلا يهمك قتلته أم قلت أنه كافر، فهذه مساواة كهذه بتلك. فمن علامات هؤلاء أنهم لا يتجرأون على تكفير أحد بحال من الأحوال.

إن هذا من هدي أهل السنة والجماعة، من بعيد تقول أن هذا من أهل السلف، هذا من أهل السنة والجماعة، هذا الذي يتمسك بدين الله جلَّ في علاه أنه لا يتجرأ على تكفير أحد. وإن كان وقع الكفر ووقع الفسق الذي قام الدليل على أن هذا الفعل كفر، وقام الدليل من الكتاب من قول الله أن هذا كفر، وقام الدليل من السنة أن هذا كفر، نقول حتى ولو وقع منه الكفر والفسق بدليل من الكتاب ليس بالهوى ولا بكلام أصحاب الهوى، أقول قال الله كذا سمّاه كفراً، قال النبي كذا سمّاه كفراً، عندنا الدليل الظاهر أن هذا فعل كفر والقول كفر.

حتى ولو وقع القول بالكفر والفعل بالكفر، فأقول عندنا علماء السلف كما تعلّموا من نبينا فرّقوا بين النوع وبين العين؛ فيقولون القول كفر والفعل كفر، والقائل والفاعل ليس بكافر، ولا يمكن لنا أن نتجرأ ونخرجه من دائرة الإسلام حتى تقام عليه الحجة من عالم مجتهد نحرير يعلم هذه المسألة كيف يقيم هذه الحجة ويزيل هذه الشبهة. فإذاً علامات أهل السنة والجماعة، علامات الفرقة الموفقة المسددة التي بينها النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها لا تتجرأ على تكفير أحدٍ كائناً من كان حتى ولو وقع في الكفر، إلّا أن يكون كفراً بواحا أجمعت الأمة على كفره؛ ككفر النصارى واليهود، وكفر أبي لهب وكفر الوليد بن المغيرة، هؤلاء قد دل الدليل على كفرهم. فنحن نقول بما قاله الله جلَّ وعلا، وبما قاله رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

فإن وجدت من تجرأ على تكفير الآحاد والجماعات، فاعلم أنه من أهل البدعة والضلالة واعلم أنه ليس موفق ولا مسدد، فادعُ الله له أن يوفقه ويسدده، وناصحه إن استطعت إلى ذلك وناظره إن استطعت، (ولإن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيٌر لك من حمر النعم). واعلم أنه ليس موفق ولا مسدد ولا من هذه الطائفة التي بشرها النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٥- العلامة الأخيرة التي تستنبط من كثير من آثار النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ أنهم يرون السمع والطاعة لولاة الأمور، حرمة الخروج عليهم.

أيضاً هذه المسألة قد أشبعنا فيها القول، ولكن تعريجاً بإيجاز عليها أن الله جلَّ وعلا أمر أمراً علينا أن نأتمر به قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) [النساء:59]، وقلت أولي الأمر المقصود بها في الآية العلماء والأمراء بأدلة كثيرة على ذلك. ما الدليل على أن أولي الأمر هنا يدخل فيها العلماء الذين يعضدون شأن الأمراء؟ لقول الله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) [النساء:83]، فسمّاهم أولي الأمر، فهؤلاء العلماء والأمراء لهم علينا السمع والطاعة كما قال الله تعالى.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (على المرء السمع والطاعة في المنشط والمكره)، وقال: (وعلى أثرة منا)، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإن ضرب ظهرك

وأخذ مالك فعليك السمع والطاعة)، بل في رواية أخرى عندما استُفسر من النبي -صلى الله عليه وسلم-: أرأيت إن ظلموا؟ أرأيت إن جاروا؟ أرأيت إن أخذوا المال؟ أرأيت إن نهبوا المال؟ إن ضربوا؟ إن قتلوا؟ إن ظلموا؟ إن جاروا؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- راداً عليهم: (عليكم ما حُمّلتم وعليهم ما حُمّلوا، أدِّ ما عليك وسَلِ الله ما لك)، هذه صراحة من النبي -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة لولاة الأمور.

فترى أن أهل السنة والجماعة يقيمون بذلك السمع والطاعة لولاة الأمور مع المناصحة، فإذا وجدوا زوراً، إذا وجدوا ظلماً، إذا وجدوا فسقاً فإنهم يناصحونهم -كما قلت- إمّا بالمراسلات وإما بالدعوة في السحر، وهذه على كل مسلم كما قال الفضيل بن عياض وقال مالك وقال أحمد: لو لي دعوة مستجابة لخبأتها لولاة الأمور. ومع ذلك يقولون: وإن ظهر الفساد، وإن ظهر الزور، وإن ظهر الظلم لا يجوز بحال من الأحوال الخروج عليهم. وهذا نقل فيه كثير من العلماء الإجماع من السلف والخلف، والذي نقل من المتأخرين عن المتقدمين عدم جواز الخروج على الأئمة وإن كانوا فسقة وإن كانوا ظلمة: النووي وابن حجر والقاضي عياض والقرطبي؛ قال النووي: وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز الخروج على ولاة الأمور، وإن ظهر فسقهم وإن جاروا وإن ظلموا. وأيضاً قال الحافظ ابن حجر بنفس الكلام بالنص: وأجمع الفقهاء على السمع والطاعة لولاة الأمور وحرمة الخروج عليهم وإن ظلموا وإن جاروا.

وهذه دقة نظر من علمائنا، لأنهم علموا أن الفساد المستشري واستباحة الدماء والفوضى بين الناس لا تكون إلّا بذلك، وإلّا فعندنا السلف ابن عمر وأنس كانوا في عصر أظلم الظلم وأطغى الطغيان ظهر من الحجاج، بل اختلف بعض العلماء في تكفيره، لكن نقول ظهر ظلمه وجوره، بل أهين الصحابة الذين لا بد أن يحملوا فوق الرأس، أهينوا الصحابة في عصره ولم يقل أحد من العلماء بالخروج عليه، بل أنكروا فتنة ابن أبي الأشعث لمّا خرج، وسعيد بن جبير مع أن سعيد بن جبير قُتِل مظلوماً ولكن العلماء خطأوا فعل سعيد بن جبير لخروجه على الحجاج. فهذا تنصيص من علمائنا السلف يظهرون أن المصالح تُقدّم على هذه المفاسد العظيمة، وهي عدم الخروج، (وسَلِ الله ما لك وأدِّ ما عليك).

هذه أيضاً من علامات هؤلاء الطائفة، أنهم لا يتجرؤون، لا يؤلبون الناس على ولاة الأمور، بل يناصحون سراً ويدعون سراً، وأيضاً يلملمون شمل الناس بالالتفاف حول الكتاب وحول السنة. هذه هي العلامة الأخيرة التي نستنبطها من هذه الأحاديث التي ذكرت صفات هؤلاء القوم الذين بشرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم جماعة، وبشرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنجاة، وبشرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتوفيق وبالتسديد. والأسبوع القادم إن شاء الله لا بد أن نتعرض للكلام على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من شذ، شذ في النار).

قبل أن أدخل في هذا الموضوع المهم جداً والشائك، حتى لا يعلم أحد أننا نقول بأن هذه الطائفة التي تمسكت بالسنة وعضت عليها بالنواجذ وعملت كذا وعملت كذا بالصفات التي ذكرناها أن غيرهم من أهل النار، وأن غيرهم من أهل الضلال والبدع، سنبيّن التفصيل؛ أولاً هذه السمات وهذه الصفات التي ذكرناها الأسبوع الماضي وهذا الأسبوع تدل على درجات الكمال، يعني هذه درجات الكمال، فمن بلغها بلغ الكمال وبلغ شأوه، والذي انتقص منها انتقص بقدره وبحسبه، فمن تركها كلية فلا أشك بحال من الأحوال أنه من أهل البدعة والضلال بل من الفرق الثلاثة والسبعين، وإن كان ترك منها شيئاً عُذِر به، إن كان له العذر فهذا أمر آخر، لكن تركه عمداً فهل يخرج من الثلاثة والسبعين أم لا؟ هذا الذي سنفصله، والراجح أنه لا يدخل بحال من الأحوال، بل عليه ما حُمِّل وله الخير الذي أظهره بتمسكه بكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الفوائد المستنبطة:

١- أولاً عناية الله بهذه الأمة، هذه الأمة ما خلقها إلّا لتقود ولتسود ويكون لها مطلق الريادة والسيادة والقيادة، رحمةً من الله لهذه الأمة، ما في أمة مرحومة مثل هذه الأمة. قال الله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) [آل عمران:110]، فهذه الأمة مسددة موفقة، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بشّر هذه الأمة بالرفعة والسنا)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (في أمتي الخلق لا يدرى كالمطر)، يعني الخير في الأمة من الأول ومن الآخر ولا يدرى هل هو في أوله الجم أم في آخره الجم، فالأمة فيها الخير فيها الخير.

هذه الفائدة من أين نستنبطها؟ من أين نستنبط أن عناية الله تتدارك هذه الأمة وأن رحمة الله ولطف الله ورفعة الله بهذه الأمة؟ أو خص الله جلَّ وعلا بالرفعة وحفظ الأمم بهذه الأمة؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يد الله مع الجماعة)، "مع" هنا المعية، فنقول هذه الأمة مسددة مرحومة لأن معية الله معيتان: معية عامة ومعية خاصة؛

- المعية العامة: معية العلم، معية الربوبية؛ عندما قال الله تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) [الحديد:4]. هذه معية الكتابة، معية العلم: (يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ) [النور:64]، الغيب والشهادة، يعلم كل شيء. هذه معية العلم ليس فيها من يجهل، يستوي فيها المؤمن والكافر.

- أما المؤمن فخصّه الله بمعية أخرى هي هنا المذكورة، وهي معية النصرة معية التوفيق معية التسديد، ودلالة ذلك: (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ* فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ) [الشعراء:61-63]، فهذه دلالة على التوفيق والتسديد. كان بعضهم يقول: إن يوشع بن نون أخذ الخيل وقال: أين أمرك ربك يا موسى؟ قال: هنا، فينزل بالخيل إلى الماء حتى يغطي الماء رأسه، فيقول: يا موسى إني أعلم أنك صادق، أين أمرك ربك هنا؟ هنا الموت، فيقول: أمرني ربي هنا. فلمّا التحم الصفان وعلم أصحاب

موسى أنهم مدركون والبحر أمامهم والعدو وفرعون خلفهم، قام موسى قال: لا، إن كان الله معنا عامة يكتب ما نحن فيه، هو معي بالتسديد والنصرة ووعدني بذلك، فقال: (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي) سينصرني سيسددني سيوفقني، (سَيَهْدِينِ) وهداه، (فَأَوْحَيْنَا)؛ "الفاء" للتعقيب، فالنصرة والتسديد والتوفيق جاء هنا.

آية أخرى تبيّن لنا معية التسديد والنصرة: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ) [طه:45-46]، أسمع سمع إجابة وأرى ما يحدث ويدور بكم سأنصركم وأؤيدكم وأمنعكم من كل سوء.

أيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي بكر عندما قال: لو نظر أحدهم من أعلى لرآنا، فماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- المستيقن في نصرة ربه وتوفيق ربه وتسديد ربه؟ قال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، معنا بماذا؟ بتوفيقه وتسديده ونصرته، والآيات تدل على ذلك. انظر إلى العجز وانظر إلى الصدر وانظر إلى النهاية والمقدمة في السياق قال: (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا) [التوبة:40]، تسديد وتوفيق ونصرة من الله جلَّ في علاه. فهنا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يد الله مع الجماعة) يعني توفيقاً وتسديداً، لأن الله مع البشر أجمعين يكتب ما هم عليه يعلم الغيب والشهادة.

٢- الفائدة الثانية التي تستنبط من هذا أن الخلاف سيقع في هذه الأمة سيقع، لكن المرحوم من ألّف الله قلبه على ما عليه الجماعة، على ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام، بقول الله جلَّ في علاه: (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) [هود:118-119]. فإذاً يرحم ربك عباده بأن يوفقهم ويسددهم إلى الطريق القويم المستقيم، ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان عليه الصحابة الكرام.

إن شاء الله الأسبوع القادم سنبيّن معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من شذ، شذ في النار)، وهل هذا يعني يأخذ كل الذين في الساحة ونقول كل هؤلاء في النار وكل هؤلاء ضلال ونحن فقط أهل السنة والجماعة ونحن فقط رافعين شعار النجاة وبعد ذلك الضلال والهلاك للآخرين؟ لا والله هذا تجرؤ على الله جلَّ في علاه، لكن يكون لها تفصيل آخر وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من شذ، شذ في النار)، وهل (شذ في النار) معناه الخلود في النار أم هو الكلام على بدعة معينة؟ أو نقول مساوئ معينة يهذب بها المرء ثم بعد ذلك يدخل إلى الجنة؟ هذا الأسبوع القادم نفصله بإذن الله.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، جزاكم الله عنا خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثاني والعشرون: عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، واليوم بإذن الله نختم بإيجاز شمولية الكلام على الطائفة التي عناها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالذكر بأن النجاة والتسديد والتوفيق لها، ونبيّن معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فعليكم بالسواد الأعظم، فإنه من شذَّ شذّ في النار). وأيضاً نختم هذا الكلام على هذه الجماعة، وهل هي تقتصر على طائفة من الناس؟ أم هي يجتمع فيها شمل جميع الطوائف التي تكلمت في أمر الدين أو تمسكت بهذا الدين؟ هذا إن شاء الله نختمه بإيجاز، ثم نتعرض لأسئلة الأخوة حتى لا نترك شيئاً في هذه المسألة الشائكة يكون فيه ثمة إشكال بإذن الله وبحوله وقوته وكرمه.

أقول؛ قد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن هذه الأمة المرحومة، التي خلقت للقيادة والريادة والسيادة لها منهاج خاص، وهذا المنهاج لابد أن تسير عليه حتى تصل إلى الرفعة وتصل إلى القيادة والسيادة والريادة، وبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن من خطا على نهج هؤلاء القوم، على ما كان عليه هو وأصحابه الكرام هم الذين يكون لهم مطلق التسديد والتوفيق، وأيضاً النجاة في الآخرة. قال الله تعالى: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ) [التوبة:100]، وليس المقصود في

هذه الآية التابعين في المطلق الحديث أو المصطلح المعروف، بل كل من اتبع هؤلاء اتباعاً بالتقييد الذي قيّده النبي -صلى الله عليه وسلم-، اتبعهم اتباعاً بإحسان؛ فهؤلاء الذين لهم النجاة وهؤلاء الذين رضي الله عنهم. والاتباع بالإحسان هو حذو القذة بالقذة أن تأخذ ما فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم ائتسى به صحابته الكرام، فتفعل ما فعلوه حتى تفوز كمن فازوا.

بيّنا في الأسابيع الماضية صفات وسمات هذه الطائفة أو هذه الأمة، أو نقول الجعبة التي أولاها الله جلَّ وعلا بالتسديد والتوفيق، بّينا صفات وسمات هؤلاء، ثم تلينا بالأسبوع الذي بعده بجمل من معتقدات هؤلاء وأعمال هؤلاء القوم الذين كتب الله لهم في اللوح المحفوظ النجاة والفوز والتوفيق والتسديد في هذه الدنيا. اليوم نبيّن من خالفهم هل يكون من أهل النار؟ وهل يكون من الفرقة التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلهم في النار إلّا واحدة) أم لا؟ وأيضاً لا بد أن نبيّن قول النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما فصّل وصفهم ثم أجمل في هذا الحديث؛ قال: (بالسواد الأعظم)، هل السواد الاعظم هذا صفة سائدة لهم أم لا؟

أولاً سنتعرض لهذا الحديث من نقاط ثلاث:

- الأولى معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بالسواد الأعظم).

- ثم بعد ذلك نبيّن تفسير النبي للسواد الأعظم، هو الحق وأهله كما قال في الحديث.

- والثالث نبيّن هل يقتصر الحق على طائفة من الناس؟ يعني كأهل الحديث كما قال البخاري وأحمد وابن مبارك وهؤلاء، قالوا: ما نعرفهم إلّا هم أهل الحديث، يعني أهل الفقه خرجوا وأهل اللغة خرجوا أم لا؟

ثم بعد ذلك نبيّن أهل الانحراف الذين قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن شذَّ شذّ في النار)، هل المقصود ب"فمن شذّ" طائفة؟ "فمن شذّ" يعني من انفرد أم لا؟ هذا الذي بصدده الآن في الكلام عليه.

أقول قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بالسواد الأعظم)، قد يقصد به الكثرة فيكون لا بد للإنسان أن يلتئم وينضوي تحت راية الكثرة الكاثرة التي تعلو أصواتها بأنها تتمسك بالكتاب والسنة، قد يعني بذلك وقد يعني لا، لا يعني بالكثرة بل يعني بالقلة، ولهذا دليل ولهذا دليل.

أمّا الواقع في القرون الخيرية "قرون الثلاثة": في واقع النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة الكرام، ومن تبعهم بإحسان الذين يتبعوهم، ثم تابعي التابعين. فهؤلاء يقصد عليهم الكثرة والحق سواد أعظم، لأنهم كانوا في كثرة؛ فصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هم خير القرون، وهم الذين تمسكوا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-

وعضوا عليها بالنواجذ وعملوا بها، ثم من جاء بعدهم ترسموا خطى الصحابة بالتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- والعمل بها، ثم من جاء بعدهم. وهذا كله يترجمه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم)، وفي رواية أخرى قال: (خير أمتي من كان في قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ثلاث مرات، فهذا السواد الأعظم على الكثرة.

أمّا في الازمنة المتأخرة لا سيما وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من زمان إلّا ويأتي زمان بعده أشر منه)، والفساد يستشري، فلا يقصد أبداً بالسواد الأعظم الكثرة، بل هم على قلة. والسواد الأعظم المقصود به هنا في هذا الحديث هو الحق، ولذلك سئل ابن مسعود من الجماعة هل الكثرة؟ هم الجماعة؟ قال: الجماعة أن تكون على الحق وإن كنت وحدك؛ يعني حتى وإن كان الناس كلهم قد خالفوك وأنت وحدك على الحق، فأنت جماعة وأنت يُعنى بك السواد الأعظم. وأيضاً ابن عباس لمّا سئل عن السواد الأعظم أو عن الجماعة قال: واحد أو اثنان أو ثلاثة يعني الذين يتمسكون ويعضون بالنواجذ على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فالمقصود بهذا الحديث في المتأخرين القلة وليس الكثرة، ويقصد بالسواد الأعظم يعني الحق وأهله، وهذا التفسير الذي جاء من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ليس من عندية نفسي، بل النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فعليكم بالسواد الأعظم)، وفي رواية: (فسترون اختلافاً كثيراً، فعليكم بالسواد الأعظم)، ثم قال: (الحق وأهله)؛ فكأنه يفّسر بدل من السواد الأعظم يعني الحق وأهله. إذاً تفسير السواد الأعظم عندنا في هذه الأزمنة لا يمكن أن نقول بالكثرة أبداً، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن في الصفات كما بيّنا سابقاً أنهم قلة: (ناس قليلون صالحون في قوم سوء كثير)، قلة لكنهم على الحق.

فإذاً السواد الأعظم هو الحق، فما هو الحق؟

الحق لا يعدو أن يكون الكتاب والسنة، وثالثهم الذي هو من الكتاب والسنة "الإجماع"؛ فالكتاب هو الحق والسنة الحق والإجماع أيضاً هو الحق، هذا الذي يعني به السواد الأعظم. قال الله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ) [المائدة:48]، فيقصد به كتاب الله جلَّ في علاه، (وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ) [هود:120]. فكتاب الله حق، والسنة حق كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وأيضاً حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- عندما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قالوا: يا رسول الله تمزح معنا؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نعم أمزح معكم ولا أقول إلّا حقاً). والإجماع حق لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة، بل يجمعهم على الحق).

فإذاً الحق في الكتاب والحق في السنة والحق في الإجماع، والإجماع نابع من الكتاب ومن السنة؛ فهو حق في أمره ونهيه، فهو حق في أخباره، فهو حق في إنشائه، فهو حق في وعده، فهو حق في وعيده، فهو حق. فالجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، وكلام الله حق. فإذاً الحق هو الكتاب والسنة، وغير الكتاب والسنة باطل، ولذلك نقول الأمور في هذه الدنيا على ثلاث:

١- حق محض محكم: وهو الذي وافق الكتاب والسنة، هذا جلي لا يمكن لأحد أن يعترض عليه، كل ما وافق الكتاب والسنة وكان نابعاً حكمه من الكتاب والسنة فهذا حق محض أو حق محكم لا شبهة فيه.

٢- باطل محض: كل ما خالف الكتاب والسنة، قال به من قال، كائناً من كان. كل من خالف الكتاب والسنة فهذا باطل، فمن نحى الناس عن عقيدة اعتقدها النبي واعتقدها أصحابه واعتقدها التابعون فهذا باطل، لأنه خالف الحق. فالباطل باطل محض أو باطل محكم: كل ما خالف الكتاب والسنة؛ فمن جاءك فقال نزول عيسى ليس بحق، نقول هذا باطل بل الحق نزول عيسى، من قال لك إن الشمس لم تطلع من مغربها، قل هذا باطل لأنه خالف الكتاب والسنة أو صريح الكتاب والسنة، لأن هذا حق الأخبار. من قال لك لن يخرج يأجوج ومأجوج، فقل هذا باطل ليس بحق لأنه مخالف للكتاب والسنة، فكل من خالف الأصول الثابتة في الكتاب والسنة فهذا باطل محكم، لأنه خالف الكتاب والسنة.

٣- الأمور المشتبهة: حقٌ مشتبه فيه أو نقول حق وباطل، أمور اشتبه فيها. فماذا نفعل في هذه الأمور المشتبهة؟ وهذا كثير، وهذا الذي فيه الخلاف واللغط، فالأمور المشتبه فيها أو الوسط بين الحق المحكم والباطل المحكم هي الأمور المتنازع فيها، فهذا يمكن معرفته إن كان في ميزان الحق أو في ميزان الباطل برده للكتاب والسنة، ورأس مالنا في هذه النتيجة قول الله تعالى: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) [النساء:59].

إذاً التنازع سيحدث، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ومن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً)، هذا واقع لا محالة، أمر كوني قدري لا يمكن، (فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). وكأن سائل قام قال: يا رسول الله ستختلف الأمة؟ قال: ستختلف الأمة، قال: وما السبيل إلى معرفة الحق؟ قال: ارجع إلى كتاب الله وردّ الأمر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وردّ الفهم بفهم سلف هذا الأمة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وهنا (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ)، وهنا أيضاً عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه سيحدث الاختلاف،

قالوا: ما علينا يا رسول الله؟ قال: (عليكم بالسواد الأعظم)، ما هو السواد الأعظم؟ قال: (الحق وأهله)، وتفسير الحق كما قلنا من الكتاب.

إذاً الاختلاف والتنازع لا بد أن يكون الرد فيه للكتاب وللسنة، انظر إلى هذه الآية: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ)، يعني إلى كتابه كما أجمع السلف على ذلك، (فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)، قالوا: إلى الرسول في حياته، إلى شخص الرسول -صلى الله عليه وسلم- حتى يوحى إليه فيفصل في المسألة، قال الشافعي: وبعد مماته إلى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم أناط الله جلَّ في علاه الإيمان ومحض الإيمان بذلك، فقال الله جلَّ في علاه: (إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)؛ مفهوم الآية إن لم تردوا المتنازع فيه لله وللرسول فأنتم ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فيكم نوع من ذلك، فيكم شبهة من هذه. فأناط الإيمان أو كمال الإيمان أو تمام الإيمان، لا أصل الإيمان، بأن المتنازع فيه لا بد أن يرد إلى الله وإلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

قال: (ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)؛ قال ابن القيم كلاماً بديعاً في هذا الباب، قال: والخير هنا يجمع بين خير الدنيا وخير الآخرة. فالمتنازع فيه إذا رد إلى الله ورد إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فالخير عاجلاً في الدنيا بالتثبيت والتوفيق والسعادة وعدم الهم وعدم الغم وراحة القلب، وهذا هو أهم الخير، فخير في الدنيا بالتوفيق والتسديد والنصرة مع هذه الطائفة، وخير في الآخرة هو النجاة من النار، وأيضاً أن يرد المرء على حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا يرد ولا يقال له: (سحقاً سحقاً، بعداً بعداً لمن بدّل بعدي)، فأناط الله الإيمان برد تنازع فيه لله ولرسوله.

وأيضاً بيّن الخيرية والسعادة في الدنيا برد المتنازع فيه لله وللرسول -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك وضحها في كثير من الآيات: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36]؛ فجعل الله جلَّ في علاه علامة الإيمان أيضاً أن ترد كل حكم لله ولرسوله، ولا يكون لك خيرة في هذه الأمور، الله يختار لك وأنت تقول سمعت وأطعت فإني لقدر الله راضٍ، كما قال عمر بن الخطاب: والله لا يهمني أصبحت على خير أم على بلاء، إن كنت على خير شكرت فلها عبادة وإن كنت على بلاء صبرت ولها عبادة، ولذلك كان عمر بن عبد العزيز يقول: راحتي وسروري في قضاء الله جلَّ في علاه. كل هذه ترجمة لقول الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ) سواء قضاءً شرعياً أو قضاءً كونياً، (إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)، لا يعارض قضاء الله جلَّ وعلا لا بالأهواء ولا بأقوال الفقهاء ولا بالوجد ولا بالذوق ولا بشيء، لسان حاله يقول: وعجلت إليك رب لترضى، ولسان حاله يقول: آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد

الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ولذلك أيضاً فسّرها الله جلَّ وعلا لنبيه -المؤكدات ثلاث-: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]؛ نقطة لطيفة جداً في هذه الآية، لأن الله جلَّ في علاه علّق الإيمان على أمور ثلاثة ما هي؟ هذه الآية تعتبر تشمل جميع الآيات التي ذكرناها سلفاً، يا من يريد النجاة، يا من علمتم أن النجاة في كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم -، (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي).

الإيمان هنا علق على الثلاثة أصول، ابن القيم يرى أن الثلاثة من اللوازم، وهذه القاعدة التي قعّدها شيخ الإسلام ابن تيمية؛ إن الحكم إذا تعلق بأمور فلا يتوفر إلّا بوجود الثلاثة، فلما أناط الله جلَّ وعلا الإيمان بوجود أمور ثلاثة، فقال: إذا وجدت وجد الإيمان، فإذا خلت واحدة كان قادحاً في أصله؛ الدلالة على ذلك كثيرة: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا) [النساء:61]، فهذه الآيات التي ممكن أنت تثبت بها ظاهر القرآن. الصريح أو الصحيح الذي لا محيد عنه هو ما قاله ابن القيم: لا بد من علامة إيمان عند الرجل ظاهراً وباطناً، هو الاستسلام التام لله جلَّ في علاه وهو الإيمان لله جلَّ في علاه. أما قال الله تعالى: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ)، فترجم إسلامه انه استسلم قال: (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [البقرة:131]، استسلم ظاهراً وباطناً.

فإذاً لا بد يستسلم المرء لحكم ربه جلَّ في علاه؛ الحكم القدري والحكم الشرعي، ما لم تأتِ الصوارف أو القرائن المحتفة تثبت لنا أن هذا الرجل حاد عن تحكيم ربه أو تحكيم سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- لأمر معين أو لرشوة أو لغيرها، هذا أمر آخر. أنا أتكلم على التأصيل العام أن كل مسلم علامة إسلامه أنه يقول: كل شيء أقع فيه حكمه إلى الله وحكمه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم لا يجد حرجاً في حكم الله وحكم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأيضاً لا بد أن يسلّم تسليماً.

أمّا الأخوة الذين نظروا للأصل والكمال، فنحن نقول: بالنسبة للاستسلام إن قُصِد بالاستسلام الرضا فليس بأصل هو كمال، لكن إن قصد بالاستسلام الصبر فهو على الأصل، هذا التفصيل الذي ممكن تفصله فيه بين الكمال وبين الأصل. لكن هي مجملة، خذها مجملة كما أجملها ابن القيم، قال: الحكم معلّق على صنوف ثلاث لا بد أن تتوفر حتى يتوفر الحكم، المؤمن هو من حكّم الله ورسوله ورضي بحكم الله ورسوله، ولم يجد الحرج في حكم الله ورسوله، واستسلم أيضاً لقضاء الله وقضاء رسوله -صلى الله

عليه وسلم-. هذا مجمل ما نقول في المشتبه فيه أو المتنازع فيه، أنه يرد أيضاً إلى الكتاب والسنة فيظهر الحق المحض والباطل المحض.

نبقى مع الجزئية الثانية؛ قال: (فمن شذّ شذّ في النار)، هل معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: (من شذّ) يعني انفرد بنفسه؟ انفرد برأيه؟ انفرد بقوله؟ لا والله، على نفس التفسير الأولي؛ "من شذّ" يعني من شذّ عن الحق، (الصوت غير واضح):

- الاجتهاد: وهذا المجتهد عنده آلة الاجتهاد فلا يشمله حديث: (من شذّ شذّ في النار)، وهذا يثبت لك أن هناك ظلم واقع من آحاد الناس أو من الأفراد، الذين يقعون ويلغون في أعراض طلبة العلم أو العلماء لأخطاء وقعوا فيها باجتهاد وعندهم آلة الاجتهاد، فيبدعونهم ويفسقونهم ويخرجونهم من دائرة أهل السنة والجماعة، ولا حق لهم في ذلك كما سنبيّن.

- النوع الثاني: مخالفة نتيجتها الهوى والذوق أو الوجد، والمخالفة الصريحة لكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعلامتها عندما تراجعه بالكتاب والسنة يصد عنك ولا يقبل منك هذا الكلام من الكتاب والسنة. هذه المخالفة هي التي تقول فيها: (فمن شذّ شذّ في النار)؛ يعني من خالف الكتاب ومن خالف هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن خالف فهم السلف الصالح فهو في النار، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد) يعني باطل، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني). وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يرد الناس على حوضي، وليختلجنّ أناس من على حوضي يشربون ما يشربون)، يختلجنّ: أي يختطفون، ومن حول حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ربي، أصحابي أصحابي، فيقال له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول: سحقاً سحقاً، بعداً بعداً لمن بدّل بعدي). فهذا التبديل هو الذي يقال فيه الشذوذ؛ مخالفة الكتاب والسنة بالآراء أو بالأهواء، هذه الجزئية الثانية.

الجزئية الثالثة؛ هل يقتصر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (السواد الأعظم) أو (الجماعة) على طائفة معينة؟ كما قال البخاري وقال عبدالله بن المبارك وقال أحمد ابن حنبل: لا أعرفهم إلّا أهل الحديث، هل هم أهل الحديث فقط أم يدخل معهم طوائف أخرى؟ الصحيح الراجح أنه: (فلولا نفر من كلِّ فرقةٍ طائفةٌ منهم)؛ أن الطائفة الناجية هي من اختصت بعلم الحديث أو علم الفقه أو علم الأصول أو علم البلاغة، بل وعلم الطب وعلم الهندسة وهم يفعلون ذلك ليرفعوا الجهل عن أمتهم، ينتوون بذلك رفعة هذه الأمة، يدخلون في الطائفة. ولا تقتصر هذه الطائفة على شخصية معينة أو نوع معين من الناس، فهي تعم كل هؤلاء، وهذا كما قال النووي بالاتفاق أو بالإجماع؛ فيدخل فيه الفقهاء والمحدثون وغيرهم.

أمّا تأويل أو توجيه كلام البخاري وكلام عبدالله بن المبارك: ما أعرفهم إلّا أهل الحديث؛ يعني هؤلاء هم أفضل الطائفة أو أكمل الطائفة، فأكمل الناس في هذه الطائفة الناجية الطائفة الموفقة الطائفة المسددة هم الذين عنوا بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، واعتنوا بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- دراية ورواية، هذا الراجح الصحيح، فهي لا تقتصر على أشخاص دون أشخاص.

أختم الكلام على هذه المسألة الشائكة، ألّا وهي: من أخطأ وخالف أهل هذا المنهج هل يكون منهم أم يخرج عنهم؟ وهذه هي المسألة التي لا بد أن نفصّل فيها، يعني من خالف أهل المنهج في مسألة من المسائل أو خالفهم في أمر من الأمور أو معنى من المعاني هل يخرج من دائرتهم؟ أو يكون منهم لكنه قد أخطأ وخطأه هذا مغفور؟ فالتفصيل يأتيكم الآن؛ أولاً لا بد أن نثبت قواعد حتى نفصّل القول على الناس ونسقط الحكم على الناس:

▪ قاعدة أولية لا بد أن نتقنها ونثبتها: لا عصمة لأحد، إن الله ما كتب العصمة إلّا لكتابه وإلّا لأنبيائه ورسله فقط، فلا عصمة لأحد.

▪ سيقع الاختلاف سيقع الاختلاف، والخطأ سيقع من العلماء ومن الاتباع سيقع وقد وقع من الصحابة كما سنبيّن. وإلّا فكيف نؤول قول الله تعالى: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) [البقرة:286]، قال: قد فعلت، كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رُفِع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه). فكل من التزم بالمنهج فلا بد أن يقع، وتكون له هنات وتكون له سقطات، فهل بهذه الهنات وهذه السقطات يصعد لنا الصاعد الناشئ في طلب العلم ولا يعرف نواقض الوضوء، فيأتي يلغ في أعراض هؤلاء العلماء وطلبة العلم الذين يحملون الشريعة لينفروا الناس عنهم؟ هل لهم حق في ذلك؟ هل هم أسود أهل السنة والجماعة والباقين هم من أهل البدعة والضلالة؟

لا والله، إن هذا تنطع وعدم فقه وعدم فهم لهذه المسألة العظيمة، ألا وهي أن من التزم المنهج ومن صرّح أمام الناس أن إمامه هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأن الفهم الدقيق لكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هو فهم السلف الصالح، ثم أخطأ في مسألة أو وقع في بدعة باجتهاد منه لا يخرج عن هذا بحال من الأحوال، لأن من دخل في منهج أهل السنة والجماعة بيقين لا يخرج إلّا بيقين. وتأويل هذا يُغفر، وهذا من كلام السلف؛ السلف بيّنوا أنه لا يمكن أن ترى الكمال، كما قال الذهبي في السير: الكمال عزيز ولكن يوزن المرء بالأكثرية [أي بالغلبة]، فإن كان الأكثر في حاله الحسن اغتفرت المساوئ، وذيّل على ذلك فقال: (إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث). وابن المبارك وأحمد بن حنبل وأكثر أهل السنة والجماعة يقولون: إن المرء

لا يصل إلى الكمال، له مساوئ وله محاسن، كما قال ابن المبارك: للعالم محاسن وله مساوئ، فمن كانت محاسنه أكثر من مساوئه اغتفرت المساوئ، بل لم تذكر المساوئ، ومن كانت مساوئه أكثر من محاسنه، ذُكِر بالمساوئ ولم تذكر المحاسن.

فإذاً الميزان الحق هو أن ترى هذا المرء الذي وقع في البدعة أو أخطأ الخطأ أو اجتهد فأخطأ، هل هو يرفع شعار الكتاب والسنة؟ يرفع شعار إمامة النبي -صلى الله عليه وسلم- والاقتداء بصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد دخل فيهم بيقين، ولا يخرج بخطأ وقع فيه. وقد ظهر ذلك في قرون الخيرية في الصحابة وفي التابعين وفي الذين تبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، ومع ذلك لم يفسّق أحدٌ أحداً، ولم يبدّع أحدٌ أحداً، ولم يخرجهم من دائرة أهل السنة والجماعة.

هذه عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- خالفت جميع الصحابة وخالفت جميع أمهات المؤمنين، بأنها تبنت مذهباً فقهياً: ألا وهو أن رضاع الكبير يحرِّم؛ أي رجل كبير كانت عائشة -رضي الله وأرضاها- تريد أن يدخل عليها فيتعلم منها أو يسألها بدون أي حرج حتى يكون محرماً لها، جعلت أختها ترضعه وترى بأن رضاع الكبير يصح. خالفها بذلك أم سلمة وزينب بنت جحش وكل نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-، وخلفها في ذلك جمهرة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بل وخالفها باتفاق الأئمة الأربعة أن كلامها كلام غير صحيح، وأن هذه المسألة "مسألة حذيفة" التي احتجت بها خاصة. فهل من واحد من الصحابة قد بدّع عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-؟ هل قال عائشة ليست من أهل السنة والجماعة؟

بل قامت عائشة وخرجت مع الزبير، أرادت الصلح، لكن خرجت والنبي -صلى الله عليه وسلم- نهاها عن ذلك، وإن صحح بعضهم مسألة كلاب الحوأب وكانت أرادت أن ترجع فما رجعت وما أحد تكلم عنها. لمّا تكلم عليها الرجل أمام عمار بن ياسر، سبها، فكاد يقتله عمار، قال: اسكت صهٍ، إنها زوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الجنة، وإن الله ابتلاكم بها ليرى اتتبعونها أم تتبعون الله ورسوله؛ يعني تتبعون الحق ولو كانت عائشة قد أخطأت في اجتهادها، فعائشة ها هي أخطأت في اجتهادها وما أحد لامها وتكلم عليها ولا أخرجها من دائرة أهل السنة والجماعة.

ابن عباس نفسه قد خالف جماهير الصحابة في مسائل كالشمس معروفة عند الصحابة، وما رأينا أحد بدّعه ولا فسّقه ولا أخرجه من جمهرة أهل السنة والجماعة؛ ابن عباس يقول بنكاح المتعة، وقلنا في هذا التفصيل، بل دعك من نكاح المتعة لأنه له مخرج فيه. نتكلم على الربا؛ كان يقول إذا بدّلت الدرهم بالدرهمين يجوز، إن كان في تقابض في المجلس وما في نسيئة يجوز أن تبدّل الدرهم بالدرهمين والعشرة بالعشرين والخمسة بالعشرة، وهذا الكلام باطل لأنه مخالف مخالفة صريحة لحديث النبي -صلى الله عليه

وسلم-: (الذهب بالذهب والفضة والفضة هاء وهاء، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى). وابن عباس أمام الناس جميعاً يفتي بهذه المسألة، ولم يفسّقه أحد ولم يبدّعه أحد، لأن له مسوغ من الاجتهاد.

وقد ظهر عن ابن عباس أنه حبر الأمة، هو الذي يرفع شعار كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هو الذي يقول: لا تضربوا الأمثال لأحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. فظهر وبان للناس أن الرجل يقول بكلام الله، يقول بكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- يحكّم الله ويحكّم الرسول في المتنازع فيه، فإن أخطأ وزل باجتهاد وله مسوغ فيه، لا يحل لأحد كائن من كان أن يخرجه من هذه الدائرة أو يفسّقه أو يبدّعه، فضلاً عن أن ينفر الناس منه ويبعد الناس عن أن يتعلموا منه. وهذا ظلم بيّن، فيقف من فعل ذلك أمام ربه جلَّ وعلا يحاسب على ما يفعل.

* وأيضاً عمر بن الخطاب -رضي الله وأرضاه- خالف الجميع، لأنه في صلح الحديبية أبى على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصلح، وجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: بلى، قال: أليسوا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار، ومع ذلك النبي يقول: (أنا رسول الله ولن يضيعني الله). ويأبى عمر وما يسكت، ويقول أذهب إلى أبي بكر لعله يؤثّر على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويقول لأبي بكر: يا أبا بكر، ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ انظر إلى هنا التوفيق والتسديد من الله جلَّ في علاه في التماس ذيل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فقال أبو بكر: هو رسول الله ولن يضيعه الله الزم غرزه.

وكان عمر بن الخطاب يقول فعلت لذلك أفاعيل، هل أبو بكر قال له: يا فاسق؟ حاشا لله وحاشا لرسوله وحاشا لأبي بكر أن يقول لعمر بن الخطاب وزير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذلك، هل من أحد بدّع عمر بن الخطاب؟ هل من أحد تكلم عن عمر بن الخطاب في خطأ أخطأه؟ اجتهاد اجتهده لكنه لم يوفّق عليه. فهذه الاجتهادات التي يخطئ فيها المرء وله المسوغ، لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يخرجه من دائرة أهل السنة والجماعة.

بل الأئمة الأربعة قد أخطأوا ووقعوا في الخطأ ومع ذلك يُغتفر هذا في بحر حسناتهم في جلِّ الخير الذي هم فيه؛ هذا الإمام مالك، يقول: يجوز لك أن تأكل الأسد وتأكل النسر وتأكل كل ذي مخلب وكل ذي ناب، يقول بذلك!! تتعجبون، نعم الإمام مالك يقول بهذا. وهل هذا الكلام صحيح؟ وهل يوافق على هذا الكلام؟ كيف بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنه نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع ونهى عن أكل كل ذي مخلب من الطير)؟ ومع ذلك له تأويل مسوغ لأنه يرى أن الكتاب المتواتر؛ قال: (فَكُلُوا مِمَّا

ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) [الأنعام:118-119]، فهنا قال: فصّل لنا ما حرم علينا ولم يذكر في الكتاب الأسد، لم يذكر الناب ولم يذكر المخلب، فقال: إذا فصل لنا ما حرم علينا، فالمخلب طالما لم يذكر والناب طالما لم يذكر فهو حلال. خطأ، لِمَ؟ لأنها مخالفة صريحة لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيّن لكلام الله جلَّ في علاه.

هل من أحد تنطع وتكلم على مالك العظيم؟ مالك الأثري، مالك الذي كان يمشي في المدينة حافياً ويقال له: لِمَ تمشي حافياً في المدينة؟ يقول: تعظيماً لقبر النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ مالك الذي رفع شعار وقال: كل يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب هذا القبر. فإذا أخطأ مثلاً في مسألة اجتهادية له مسوغ فيها، لا يجوز أن يتنطع أحد ويتجرأ على عرضه ويحدث الفرقة بين أهل السنة والجماعة ويخرجه من دائرة أهل السنة والجماعة.

هذا الإمام الشافعي؛ الإمام الشافعي في الفقهاء هو النجم كما أن الإمام مالك في المحدثين هو النجم، الإمام الشافعي في الدنيا كالشمس أو كالعافية للبدن، الإمام الشافعي نفسه يقول: بأن الرجل إذا زنا بامرأة فحبلت منه فأنجبت له أن يتزوج هذه البنت، يعني يقول له أن يتزوج ابنته من الزنا. وأُنكِر على الإمام الشافعي هذا الكلام، وخولف وخُطّئ في ذلك. هل من أحد تكلم على الشافعي؟ لأن له مسوغ من الاجتهاد. أحمد وأبو حنيفة خذ هذه مسائل كثيرة جداً خالفوا فيها أيضاً جمهرة أهل العلم، ومع ذلك لم يتنطع أحد ويتكلم في أعراض هؤلاء العلماء. أحمد نفسه كان يقول: ما عبر الجسم مثل إسحاق بن راهويه، -رضي الله عنه وأرضاه- كان قريناً للإمام أحمد، قال: وإن كان يخالفنا في كثير من المسائل؛ يخالفهم؟ نعم الخلاف موجود بين العلماء، ما فيها شيء، لا كل من خالفك في مسألة أصبح مبتدعاً، ولا أن تقول مثلاً هذه بدعة أو الذي فعلها مبتدع، لا يجوز، لا يجوز لك أن تخرج قوماً من أهل السنة والجماعة من دائرة أهل السنة والجماعة لمخالفة خالفوك فيها أو لخطأ وقعوا فيه باجتهاد مسوغ.

أنا أقول لك الإمام النووي، الحافظ ابن حجر؛ وعز عليّ أن أقول هذا، وليس لجرثومة مثلي أن يذكر هؤلاء الأخيار الأفاضل بهذه الأمور، لكن هو تبيين للأخوة وبراءة لساحة أهل السنة والجماعة. النووي عنده مسحة من الأشاعرة، النووي يتكلم ويؤول صفات الله جلّ في علاه. نفس الأمر ابن حجر متذبذب في كتاب فتح الباري، تارة ينقل كلام أهل السنة والجماعة في الصفات، وتارة ينقل كلام الأشاعرة على أنهم متكلمي أهل السنة والجماعة في الصفات. ابن الجوزي نفس الأمر، كثير من هؤلاء العلماء الأخيار الذين ماتوا من أجل رفع راية "لا إله إلّا الله"، من أجل حفظ سنة النبي -صلى

الله عليه وسلم-، ولم تجد أحد استطاع أن يخرجهم من دائرة أهل السنة والجماعة إلّا بعض الأوباش الذين قالوا لا بد أن يحرق كتاب فتح الباري ولا بد أن يهدم كتاب صحيح مسلم لما فيه من الأباطيل. هؤلاء السفهاء لا يعلمون عن دين الله شيئاً، والله الذي يخرج النووي أو الحافظ ابن حجر أو أمثال هؤلاء الجبال من أهل السنة والجماعة لا خير فيه، وهذه ثلمة في دينه، بل قدح في دينه وفي تقواه وورعه.

الخطأ الذي يقع من العالم الذي ظهر لنا وبان لنا تمسكه بالكتاب والسنة، لا يمكن أن نفسّقه به ولا نبدّعه به، من دخل في دائرة أهل السنة والجماعة بيقين، برفع شعار الكتاب والسنة فوق رأسه، وإمامه هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لا يجوز إخراجه إلّا بيقين، فتبيّن له الحق من الكتاب وتبيّن له الحق من السنة فيقدّم هواه على الكتاب والسنة أو يقدّم أراء الفقهاء على الحق والسنة أو يقدّم الوجد والذوق على الكتاب والسنة، هذا حُقَّ لك أن تقول ليس هذا من أهل السنة والجماعة، هذا رفع شعار أهل البدعة ويشمله قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من شذّ شذّ في النار). هذه آخر المسألة الشمولية على هذا الباب وعلى هذه الطائفة، نسأل الله جلَّ وعلا، ويجعلنا من الطائفة الناجية ويجعلنا ممن يرفع شعار الكتاب والسنة والنجاة مع الجماعة الذين يترسمون خطى صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

الفوائد المستنبطة:

١- السواد الأعظم لا يمثل الكثرة ولا القلة، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الحق وأهله)، ولذلك قال بعضهم: الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله. فإذاً الحق ليس قال فلان وقال علان، أو قال الشيخ الفلاني أو قال الشيخ العلاني، الحق قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه.

٢- الخلاف سيقع لا محالة وهو أمر كوني قدري، يعني كُتِب في اللوح المحفوظ أن هذه الأمة ستختلف ستختلف، هذا أمر كوني لا بد أن يقع، وهذا ابتلاء من الله الحكمة فيه أن الله يختبر العباد من يتبع هواه ممن يقول: لا نفسي راضية بكلام الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فالنجاة في هذا الاختلاف أن تعض بالنواجذ على كتاب الله وعلى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي).

٣- أهمية الاجتماع دون الفرقة، وقد بيّنت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحرص على ذلك في القتال وفي الصلاة وفي الجلوس وفي كل شيء؛ أما في القتال فأنتم تعرفون القصة المشهورة، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يسوّي الصفوف كان بطنه خارج عنه فضربه بعصاه وقال: استوي يا سواد، فقال: يا رسول الله أوجعتني، فقال: ما تريد؟ قال: القصاص. النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقتص بأبي هو وأمي، ما

كان يترك شيئاً. قال: القصاص، فرفع النبي -صلى الله عليه وسلم- ثوبه وقال: اقتص مني، فجاء سواد فقبل بطن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: ما حملك على هذا؟ قال: يا رسول الله ترى ما نحن فيه، هي النهاية إما القتل أو الموت، فأردت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمس بشرتي بشرتك. الغرض المقصود من هذا، من خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- رفيع يقتص منه هذا الصاحب الجليل، ومن فقه الصاحب الجليل أن يجعل آخر ما يلمسه في الدنيا هو بشرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يريد هنا الاصطفاف ويريد هنا التآلف ويريد الاجتماع.

وأيضاً كان في الصلاة يقول: (استووا، استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)، ولمّا نزلوا في أحد أسفاره متفرقين قال: (ما لي أراكم عزين)، وفي رواية قال: (والله ما أرى تفرقكم إلّا من عمل الشيطان). فالاجتماع فيه النجاة، ولذلك عمر بن الخطاب قال: (من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة)، يعني عليه بالاجتماع ينضوي تحت كلمة الحق. فيأتي السائل فيسأل كما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم-: إن لم نجد لهم جماعة؟ قال: (أن تعض على أصل شجرة)، تكون وحدك متمسكاً بكتاب الله وسنة النبي، اعتزل البشر وعليك أن تأخذ بكتاب الله وبسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذه آخر الفوائد المستنبطة، وسندخل بإذن الله في هذا الكتاب الجليل بعد ذلك الكلام على: (ثلاثة لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم)، فهي مهمة جداً. وبعدها الكلام على القضاء والقدر، وبحور القضاء والقدر، لأنه سيأتي بحديث: (إن الله جلّ وعلا أول ما خلق القلم، قال له: اكتب، قال ما أكتب؟ قال: اكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة)، وسنفصّل فيها أمور من مسائل القدر المهمة.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثالث والعشرون: من خرج عن الجماعة وفارق الجماعة مات ميتة الجاهلية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

اليوم بإذن الله مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، ننتهي من المسألة الشائكة، ونسأل الله جلَّ وعلا أن نكون وفيناها حقها، وحتى الإيجاز الذي تكلمنا به على هذه المسألة ما يكون إيجازاً مخلاً، وهي مسألة الجماعة ووصف هذه الجماعة الناجية التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصفات ووسمها بسمات، ومن ترسّم خطاها فالنجاة والتوفيق والتسديد في الدنيا وفي الآخرة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من خرج عن الجماعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية). وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من فارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية).

وعن كعب بن عاصم قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله تعالى قد أجار لي على أمتي من ثلاث: لا يجوعوا، ولا يجتمعوا على ضلالة، ولا يستباح بيضة المسلمين). وعن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- قال: قال رسول

الله -صلى الله عليه وسلم-: (الجماعة رحمة والفرقة عذاب). وعن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان فقيل له: ما بعث إليك إلّا ليسألك عن شيء، فقال: سألني عن أشياء سمعتها عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (نضر الله امرئ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقهٍ ليس بفقيه، ورب حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه. ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم).

إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما استعرضنا الأحاديث في الأسابيع الماضية قد بيّن أن النجاة والسداد والتوفيق، بل القيادة وعود العزة مرة ثانية لهذه الأمة لا تكون إلّا بلزوم جماعة موفقة مسددة ظاهرة على من خالفها، هذه الجماعة لها صفات وسمات بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- في غير ما حديث، وبيّن أن من شذّ عن هذه الجماعة شذّ في النار، وأن من انفرد بهوى أو بذوق أو بوجد ولم يتبع سبل النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الكرام، فالنار النار والبوار البوار.

وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا في ختام هذه الأحاديث في هذا الباب أن من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية؛ فكأن سائلاً يسأل يقول: يا رسول الله لو ما وجدنا الجماعة؟ فقال: (عض على أصل شجرة)، فقال الآخر: وجدنا الجماعة لكن ما السبيل إلى أن الإنسان يستطيع أن يجبر نفسه على أن يصبر وينضوي تحت لواء هذه الجماعة؟ أو يقول: إذا كنت مع الجماعة فما النجاة يا رسول الله؟ قال: إذا كنت مع الجماعة أو كنت وحدك فإن الله إذا نظر لا ينظر إلّا إلى قلبك، فمدار نجاتك ومدار بوارك، ومدار فلاحك ومدار خسارتك على نقاء قلبك أو دغل قلبك. فقام الآخر كأنه يقول: كيف أصل إلى نقاء القلب؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: سأرجع لك إلى التأصيل الأولي؛ نقاء قلبك يكون بلزومك لجماعة المسلمين الذين رفعوا راية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ونقاء قلبك يكون بترسّم خطى صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذين ردوا المتنازع فيه للكتاب والسنة. اليوم إن شاء الله سنبيّن هذه المسألة "مسألة السبيل إلى لزوم الجماعة"، وهو بتنقية قلب المؤمن، وفوائده أخرى جمة ستكون نتيجة لنقاء القلب.

النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم)؛ يعني لا يحمل الغش ولا الخداع ولا الغبش ولا الدغل ولا الحقد ولا الحسد، نقاء تام، هذا النقاء الذي به النجاة. قال الله تعالى: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء:89]، الجنة لا يقبل الله جلَّ وعلا أن يُدخل فيها أحدٌ إلّا بقلب سليم، والله جلَّ في علاه جعل مناط الرفعة والعزة بنقاء القلب، وجعل مقام الحقارة أو مقام الضياع والبوار بعدم نقاء القلب؛ قال

الله تعالى: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) [الإسراء:25]، وقال الله تعالى: (إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ) [الأنفال:70]، فمدار الأمر يدور على القلب. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله).

فمناط النجاة على القلب، ومناط الرفعة على القلب في الدنيا وفي الآخرة، حتى القيادة والسيادة مناطها على نقاء القلب، بل الفهم ودقة النظر في العلم لا تكون إلّا بنقاء القلب كما قال ابن عباس: يؤتى المرء الفهم بنيته؛ فمن لم يفهم في كلام الله جلَّ في علاه وكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- فليرجع إلى قلبه فلينقيه من الدغل والحسد والحقد، فإن الله سيفتح له الأبواب المغلقة.

(ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة الأمور، ولزوم الجماعة)، نحن الآن بصدد لزوم الجماعة، لكن لا بد لنا أن نتكلم في المقدمات التي قدمها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ألا وهي إخلاص العمل لله:

- الإخلاص: هو تجريد العمل لله جلَّ في علاه دون أن يشوبه أدنى شائبة من الرياء.

- قال بعضهم: الإخلاص هو تجرد قصد وجه الله جلَّ في علاه، أو العمل ابتغاء وجه الله جلَّ في علاه.

- وقال بعضهم: هو أن تتعامل مع الخالق بلا خلق، لا تنظر للخلق، كل تعاملك لله وبالله وفي الله. أن تتعامل مع الخالق بلا خلق، وأن تتعامل مع المخلوق بلا نفس، فأنت لله وبالله وفي الله.

- وبعضهم كان يقول: الإخلاص هو دوام النظر إلى الله جلَّ في علاه، ودوام النظر لله جلَّ في علاه يوجب لك إن أعطيت أعطيت لله، وإن منعت منعت لله، إن ابتسمت ابتسمت لله، إن غضبت غضبت لله، إن رضيت رضيت لله، تستكمل بذلك مكامن الإيمان، أو ولاية الله جلَّ وعلا تستحقها بهذا، بتجريد النظر أو دوام النظر لله جلَّ في علاه.

ولأهمية الإخلاص ولأن نقاء القلب يدور على الإخلاص، فإن الله جلَّ في علاه استنهض هذه الأمة أن تنقي قلوبها بإخلاص العمل لوجهه الكريم، وقال جلَّ في علاه: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [البينة:5]، وقال جلَّ وعلا: (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) [الزمر:3]، وأيضاً قال الله تعالى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110]، يعني يخلص إخلاصاً تاماً نقياً لله جلَّ في علاه. وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله كانت هجرته إلى

الله ورسوله) يعني إخلاصا لله ورسوله، (ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه).

ثمرات الإخلاص:

▪ فإخلاص العمل لله جلَّ في علاه هو السبيل الأوحد أو السبيل الأصيل لنقاء القلب، هذه ثمرة من ثمراته. ثمرة الإخلاص نقاء القلب، وكما قلت مدار النجاة على نقاء القلب، (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) [الشعراء:89].

▪ الثمرة الثانية للإخلاص للمخلصين، ويا لفرحة المخلصين، قبول العمل عند الله جلَّ في علاه، فإن الله لا يقبل من عبد عملا إلّا أن يكون مخلصاً فيه لوجه الله جلَّ في علاه، لا تشوبه أدنى شائبة من الرياء، قال الله تعالى: (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110].

الفضيل بن عياض سئل عن تفسير آية كريمة في كتاب الله، عندما قال الله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك:2]، فقالوا يا إمام: ما (أَحْسَنُ عَمَلًا)؟ قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: ما أخلصه وما أصوبه؟ فقال: إن كان العمل صالحاً (يعني متابعاً فيه للنبي -صلى الله عليه وسلم-) ولم يكن مخلصاً فيه لله لا يُقبل، وإن كان العمل مخلصاً فيه لله ولم يكن متابعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يُقبل، فجعل شرط قبول العمل هو الإخلاص لله جلَّ في علا.

ولذلك صح عن نبينا في الصحيحين فيما يرويه عن ربه، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من راءى راءى، الله به ومن سمّع سمّع الله به)، وفي السنن سنن النسائي والدارمي وغيره من السنن؛ أن النبي جاءه رجل فقال: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل يلتمس الذكر، أو قال: إن الرجل ليقاتل يلتمس الذكر ما له؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا شيء له)، له يعني إن لم يخلص في هذا العمل لله جلَّ في علاه فلا شيء له، قالوا: يا رسول الله ما له؟ للمرة الثانية، قال: (لا شيء له)، قالوا: يا رسول الله ما له، قال: (لا شيء له، إن الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان مخلصاً وكان صالحا وابتغي به وجهه). إذاً مناط قبول الأعمال عند الله جلَّ في علاه هو الإخلاص لله جلَّ في علاه، أن يعمل المرء العمل لا يريد بهذا العمل إلّا وجه الله، هذا من ثمرة الإخلاص.

▪ العصمة من كل كيد، والعصمة من كل بلية وردية؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن ذلك في سيرته، وبيّن لنا الله جلَّ في علاه في كتابه أن الله يعصم عباده المخلصين من كل بلية وردية ومن كل فتنة. هذا يوسف -عليه السلام-؛ إن الله حفظه وحماه من

أن يقع في الفاحشة بسبب إخلاصه لله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ)، لِمَ؟ الجواب: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) [يوسف:24]، فالإخلاص كان داعياً لأن يُنقذ هذا العبد الأريب الفقيه الصالح النبي المرسل من ربه جلَّ في علاه، حفظه الله بإخلاصه لله جلَّ في علاه.

وأيضاً قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) [الحجر:28] .... إلى آخر الآيات، عندما أمر الله بسجود الملائكة لآدم، فأبى إبليس واستكبر، ولمّا سأله الله جلَّ وعلا عن إبائه للسجود: (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ *إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) [الحجر:33-40]. إذاً لا سلطان للشيطان على العبد المخلص الذي نقى قلبه لله جلَّ في علاه، لا يستطيع أن يوسوس في قلبه، لا يستطيع أن يشوش على قلبه لأنه نقى قلبه لله جلَّ في علاه. ولذلك ترى الله يقول: (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) [النحل:100]، فهو ليس له سلطان على المخلصين.

▪ وأيضاً من ثمرة الإخلاص لله جلَّ في علاه بعد نقاء القلب وقبول الأعمال: محبة الله؛ هذه التي تنافس عليها المتنافسون وشمّر عن ساعد الجد المجتهدون ليصلوا إلى محبة، ولله در ابن القيم عندما قال: ليس الشأن أن تُحِب، أنت لا بد أن تحب ربك جلَّ في علاه، أنت مفطور على ذلك مجبول على ذلك، إنك تحب ربك لنعائمه التي أغدقها عليك، إنك تحب ربك لجبروته لقوته لعزته لصفاته وأسمائه الحسنى وجلاله وكماله وجماله، فليس الأمر بعجب ولا غرو أن تحب ربك من كل قلبك، ولكن الشأن كل الشأن أن يحبك مالك الكون بأسره، أن يحبك الجبار سبحانه وتعالى.

فالمرء يصل إلى محبة الله، يحبه الله إذا أخلص لله جلَّ في علاه، وثمرتها كثيرة: أن الله يثني عليك في الملأ الأعلى، يلهج بذكرك الملائكة، بل جبريل أعلى الملائكة يحبك بمحبة الله لك. كما قال الله جلَّ في علاه مادحاً موسى ومبيّناً مكانته عنده وحبه له قال: (إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) [مريم:51]، والمخلَص فوق المخلِص بدرجة، نسأل الله أن يجعلنا من المخلِصين المخلَصين. قال النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيّناً ثمرة حب الله للعبد: (إن الله إذا أحب عبدا نادى في السماء أن يا جبريل إني أحب فلاناً فأحِبَه)، هنا الله جلَّ في علاه يحببك للملائكة، بل يجبر الملائكة على حبك، ثم يكتب لك القبول في الأرض، وسنبيّن أن هذا ليس على الإطلاق.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أحب الله عبدا نادى في السماء يا جبريل إني أحب فلاناً، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء: يا أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه الملائكة) خير صديق ومعين على الخير وعلى الطاعة، (ثم يكتب له القبول في الأرض)؛ أمّا القبول في الأرض ليس على الإطلاق، القبول في الأرض مقيد بالأخيار، فإن وجدت الأخيار يحبونك، إن وجدت الأخيار يقربونك ويقتربون منك ويتلمسون دعائك فاعلم أنك لك المنزلة عند الله والحظوة عند الله جلَّ في علاه، وإن وجدت أن العامة الدهماء هم الذين يقتربون منك ويقربونك والأخيار يبعدونك فلا بد أن تراجع إيمانك وتراجع طاعتك عند الله جلَّ في علاه. فإن الله بيّن لك علامة وآثار محبته لك، أن ترى الأخيار يقتربون منك ولنِعْمَ الجليس الجليس الصالح، هذه من ثمرة الإخلاص.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: الإخلاص لله جلَّ في علاه)؛ المحبة هي آخر الثمرات في الإخلاص، وإن العبد إذا أحبه الله وفقه وسدده وكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به كما شرحنا سابقاً.

ثم قال: (النصح لولاة المسلمين)؛ بيّنا في الأسابيع الماضية أن ولاة الأمور على ضربين: ضرب هم الأمراء وهذا الظاهر فيها، وضرب آخر مهم جداً بل الدنيا تستنير بهم "العلماء". فإذاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والنصح لولاة الأمور) يقصد بهم العلماء والأمراء، والدلالة على ذلك كما قلنا قول الله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ) [النساء:83]، و(الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ) هم العلماء، فالنصح للعلماء له وجوه.

العلماء هم منارات الدنيا، العلماء هم مصابيح الدجى وأئمة الهدى، إن الله جلَّ في علاه أناط إعمار هذه الدنيا بوجود العلماء، وإن الله جلَّ في علاه أذن للدنيا بالخراب عند عدم وجود العلماء، كما في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لا تقوم الساعة حتى يفشو الجهل (أو يظهر الجهل) ويقبض العلم، وإن الله لا يقبض العلم ينتزعه من صدور العلماء انتزاعاً، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقَ عالمٌ (في رواية أخرى: لم يُبقِ عالماً) اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً فسألوهم فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)، حينها قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تقوم إذاً الساعة). فالله جلَّ في علاه جعل العلماء جنة لهذه الدنيا، وجعل العلماء نجوم هداية لهذه الدنيا، فإذا مات العلماء تخبط الناس وأذن الله للدنيا بالخراب. فكان من فضلهم ومن مكانتهم لربهم جلَّ في علاه أن أمر بالنصح لولاة الأمور يعني هم العلماء، والنصح للعلماء له وجوه ثلاثة:

١- الوجه الأول: حفظ هيبتهم واحترامهم وتبجيلهم، وهذا بنص كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وبفعل التابعين له بإحسان إلى يوم الدين؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد صح عنه أنه قال: (إن من إجلال الله)، وأنت مأمور شرعاً بإجلال الله جلَّ في علاه، (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) [الزمر:67]، إنكاراً على من لا يجلّ الله جلَّ في علاه. (إن من إجلال الله)، كأنك تقف وتقول: أنا أريد ان أجِلّ الله أو أعظّم الله جلَّ في علاه من كل قلبي لكن ما السبيل؟ السبيل هنا تراه في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم) الكبير في السن، (إكرام ذي الشيبة المسلم والإمام المقسط) يعني ولي الأمر العادل، (والإمام المقسط وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه)؛ فجعل حامل القرآن وهو من العلماء بنص وبقيد "غير غلو وغير جفو"، هذا الذي لا بد أن تجلّه، وهذا من النصح للعلماء. وهنا يدخل عالم القرآن تحت قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه).

لكن يسأل السائل: هذا خاص بالقرآن وليس بعلم الشرع، فكيف تقول أن هذا من العلماء؟ الآن نقول: (النصح لأئمة المسلمين) يعني العلماء، واستدلوا على النصح بحفظ الهيبة والإجلال من هذا الحديث، لكن قام أحدهم يسأل ويقول: إن هذا الحديث مقيد بحفظ القرآن، بحفظ حروفه، بعلم التجويد وليس عاماً فكيف تعممه؟ كيف نستدل به على أن توقير وتبجيل العلماء نستنبطه من هذا الحديث؟ الإجلال جاء في شخص بعينه ألا وهو حافظ القرآن، وحافظ القرآن لا يضيعه الله جلَّ في علاه، يحفظ كلام الله؟ قلت لا والله، هذه المسألة على العموم، حافظ القرآن لا بد أن يكون من العلماء ويدخل تحت لواء العلماء فنجلّهم بإجلال الله لهم.

دليل أن عالم القرآن هو أقوى علماء الأمة؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما ضمه قال :(اللهم علّمه التأويل وفقهه في الدين)، فكان حبر الأمة وهو العالم بالقراءات والعالم بتأويل القرآن وبوأوه المنزلة العليا وعندنا أدلة كثيرة منها: أن عمران بن حصين قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة للقرآن، فمن تعلم القرآن لا بد لزاماً إن تبحّر فيه أن يكون عالماً بالسنة ثم عالماً بالفقه لفقه آيات الأحكام، ثم عالماً باللغة ثم عالماً بالبيان والبلاغة، لابد أن يحيط بذلك.

وإليكم نبأ عظيم؛ عالم جليل يجهله كثير من الناس، وهذا والله في حقنا ثلمة ولا يمكن أن نرضي ربنا بجهلنا بمثل هذا العالم الجليل، وهو الشنقيطي، حتى الألباني نفسه قال: لمّا نظرت إليه رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية يمشي على رجله أمامي. الإمام الشنقيطي من تبحّر في كتابه أضواء البيان يرى فيه الدقة والفقه وعلم الأصول وعلم الحديث والقواعد والبلاغة وكل شيء، فمن انشغل بعلم القرآن وتطبيقها وتعليمها للناس فهذا

خير للعلماء، وهذا الذي لا بد أن يجلّ ويدخل في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وعالم القرآن)

والحديث الثاني الذي يصرّح بأن النصح لأئمة المسلمين هو حفظ هيبتهم وإجلالهم؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتصريح: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقِّر كبيرنا ويعرف لعالمنا حقه)، لأن العالم له حق عظيم على هذه الأمة، الأمة بأسرها تستنير بضوء العالم، الأمة بأسرها لا تتخبط إن وجد فيها العالم الذي يفصل لها في عضل المسائل، الأمة بأسرها لا يمكن أن تهتدي إلّا بهداية وريث النبي -صلى الله عليه وسلم-. ولذلك حفظ ووعى الدرس أصحاب رسول الله، وكانوا يصفون لنا كيف كانوا يوقّرون جلسة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا يحفظون هيبة مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فهذا أبو سعيد الخدري يقول: كنا في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يُسمع لنا صوتنا، إنا إذا جلسنا في مجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- كأن على رؤوسنا الطير.

وهذا الذي جعل التابعين يفعلون ما فعل صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فهذا عبد الرحمن بن مهدي فارس الميدان في الحديث، كان يعتبر قريناً للشافعي، لا يصح أن نقول قريناً لأحمد بن حنبل. يعني عبد الرحمن بن مهدي كان فارس الميدان في الحديث، وعبد الرحمن بن مهدي كان يعلِّم الناس أن حفظ هيبة العلماء هذه دين يدان به الله جلَّ في علاه، فكان إذا جلس في المجلس يصِّور لنا المحدث الذي يجلس ويكتب يقول: ما كنا نخط خطاً في مجلس عبد الرحمن بن مهدي وما كان أحد منا يستطيع أن يبري قلمه ولا أن يعمّق النظر في عبد الرحمن بن مهدي، كنا نجلس وكأن على رؤوسنا الطير، من حفظ هيبة مجلس عبد الرحمن بن مهدي. ولذلك عاقبهم عقاباً شديداً لمّا لم ينفذوا هذا الأدب مع العلماء؛ كان يجلس في مجلس التحديث ويحدِّث، فابتسم أحدهم، لمّا نظر إليه فتبسم، قال: تضحك وأنا أسرد عليك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-! ما علّمتكم شهراً. ما في مجلس تحديث شهر كامل، لأنه يعلم أن حفظ هيبة الحديث من حفظ هيبة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. هؤلاء الصحابة وهؤلاء التابعون يعلمون أن النصح لأئمة المسلمين حفظ هيبة هؤلاء.

وكان أيضاً شعبة -رضي الله عنه وأرضاه- يحفظ إجلال من يعلّمه حرفاً واحداً ويقول: والله ما تعلمت حديثاً واحداً من عالم من العلماء فكان حياً إلّا وصرت له عبداً، ما رأيته مرة إلّا وسألته عن الحديث وأنا أحفظ الناس بالحديث، لكن منة أبيّنها له. (من صنع لكم معروفا فكافئوه)، كان يقول: إني عبد له ما عاش، لأنه علّمه حرفاً من حروف النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢- أيضاً من النصح لأئمة المسلمين وهم العلماء الدعاء لهم؛ وهذا إن رفع المرء فدعا دعوة للعالم فإن المستفيد الأول في هذه المسألة هو الداعي، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (الملك يقول آمين ولك بالمثل). وأنت إن لم تدعُ فإن الله جلَّ وعلا كلّف أهل السماوات وأهل الأراضين وأهل البحار والأشجار والثمار وكل شيء في السماوات وفي الأرض يدعو لطالب العلم وللعالم؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (طالب العلم يستغفر له كل من في السماوات والأرض، حتى الحيتان في البحر، حتى النمل في الجحر)، فأنت المستفيد الأول عندما تدعو للعالم، فمن الأدب أو من النصح للعلماء أن تدعو لهم الله جلَّ في علاه.

كان الإمام أحمد يعلم أن هذا من الأدب الجم مع العلماء، فكان يقول: كنت في كل صلاة أدعو للشافعي وأدعو لكذا وكذا. لكن كان يقول: أدعو للشافعي في كل صلاة من صلاتي، لأن الشافعي هو الذي علّمه علم البيان والعام والخاص والمطلق والمقيد، علوم والناسخ والمنسوخ، فكان يحفظ له المنة ويدعو له في كل صلاة حفظاً لمنته. وأيضاً كان يقول عبد الرحمن بن مهدي: كتبت إلى الشافعي أطلب منه علم الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد فكتب لي الرسالة، فتكلم ومدح بالشافعي وأثنى عليه قال: والله استفدت ما استفدت من هذه الرسالة، ما صليت صلاة إلّا ودعوت للشافعي. وما من إمام من الأئمة إلّا وهو يرفع يده سحراً يدعو لمن علّمه حرفاً من هذه الحروف، فمن النصح لأئمة المسلمين الدعاء لعلماء الأمة لأن بهم التسديد وبهم التوفيق وبهم القيادة والريادة.

٣- الوجه الثالث من وجوه النصح لأئمة المسلمين: غض الطرف عن عيوبهم؛ الكمال عزيز ولن تجد أحداً كاملاً، والمعصوم من عصمه الله، ولا عصمة إلّا لرسل الله جلَّ في علاه. فالزلات والهنات والسقطات تقع من هؤلاء العلماء، فمن الأدب الجم على أن من أراد أن يكون من المتقين وأن يكون من المرتفعين عند ربهم جلَّ في علاه يحفظون لأهل العلم هيبتهم، يغضون الطرف عن الزلات والهنات والسقطات لهؤلاء العلماء. أمّا أن تشهّر به، أمّا أن تتصيد له هذه الأخطاء وتبينها للعامة لتسقط هيبته فتسقط الشريعة بعد ذلك، فأنت قد عصيت الله ورسوله. فمن النصح لأئمة المسلمين ألّا تصطاد لهم الأخطاء، وإذا أوقعك الله على السقطات أو الهنات أو الزلات فعليك أخي المسلم بأمرين:

- الأمر الأول: أن تحمد الله أنك لم تقع في هذه السقطات والزلات، هذا عين القدر، ترحمه وتحمد الله جلَّ وعلا أنك لم تقع في هذا الأمر.

- الأمر الثاني: الشرعي، ألا وهو تدعو أن يغطي الله عليه هذا العيب أو يستر الله عنه هذا العيب ولا يظهره للناس، ثم تذهب إليه فتكتب له رسالة أو بلطف ورفق تتكلم معه،

لعل الله جلَّ وعلا يجعل الخير والصدق في لسانك فتسد خلته وتستر عنه هذا العيب ويأخذ بنصيحتك ويغالب نفسه أو يعاود نفسه حتى يستر عليه هذا العيب، لا أن تشهّر به. هذا أيضاً من باب النصح لكل مسلم، وكما قال الشافعي: النصيحة على الملأ فضيحة، ولا بد إن أردت أن تنصح بحق وتكون مخلصاً لله جلَّ في علاه أن تنصح في السر حتى يسمع لك وتقبل منك نصيحتك، تنفيذاً لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والنصيحة لأئمة المسلمين).

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والنصيحة لولاة الأمور)؛ الصنف الثاني من أئمة المسلمين هم ولاة الأمر، ولاة الأمر لهم نصائح أيضاً، النصح لهم من وجوه ثلاثة:

١- الوجه الأول: أن تسمع وتطيع لمثل هؤلاء، لولاة الأمور، من أمّرهم الله عليكم، من ولّاهم الله أمركم، فعليك بالسمع والطاعة. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) [النساء:59]، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإن تأمّر عليكم عبد حبشي رأسه كأنه زبيبة فعليك بالسمع والطاعة)، وحديث عبادة: (بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وفي عسرنا ويسرانا)، فعليك بالسمع والطاعة. فأول النصح لولاة الأمور أن تسمع وتطيع، وقلنا السمع والطاعة ليس على الإطلاق بل على التقييد؛ (إنما الطاعة في المعروف)، (ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق).

٢- الأمر الثاني من النصح لولاة الأمور: الدعاء لهم، وهذا الدعاء يكون علناً ويكون سراً؛ علناً لتحمل الناس أن يدعوا له وألّا تؤلب عليه الناس، وسراً هذا دأب السلف الصالح كما قال ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه-: وإنا لننصحهم سراً، وقال الفضيل ابن عياض: إني أصلي صلاتي بالليل وصلاتي لنفسي (يعني صلاحي لنفسي)، ثم أختم صلاتي بالدعاء لولاة الأمور، لأن بصلاح ولاة الأمور تصلح الأمة بأسرها. وقال أيضاً الإمام أحمد: لو علمت أن الله جلَّ في علاه خبأ لي دعوة مستجابة فقد خبأتها لولاة الأمور، فبصلاحهم تصلح الأمة بأسرها.

٣- أيضاً من النصح لولاة الأمور ألّا تخرج عليهم ولا تؤلب عليهم الناس؛ عدم الخروج على ولاة الأمور من وجهين:

- الوجه الأول: عدم الخروج باللسان بأن تبين مثالبهم أو نواقصهم أو تبين أخطاء وقعوا فيها بين الناس فتؤلب عليهم الناس، هذا من باب الخروج عليهم، وهذا لا يجوز البته بحال من الأحوال، ومفاسده أعظم بكثير من المصلحة التي يرجوها هذا الفاعل، ويكون بذلك عصى الله ورسوله.

▪ الوجه الثاني: الخروج بالسيف لا يجوز بحال من الأحوال، بل يُقتل من شق عصا الطاعة على أمير قد ولّاه الله الأمر فجاء ينازعه في هذا الأمر، فقال: (اقتلوا الذي ينازع من بويع بهذا الأمر)، فالنصح لولاة الأمور عدم الخروج عليهم لا باللسان ولا بالسنان.

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ذلك ختاماً لهذا الحديث وهذا الباب العظيم: (ولزوم الجماعة)؛ ولزوم الجماعة تشمل كل هذه الثلاثة، فنقاء القلب لا يكون إلّا بلزوم الجماعة، ونقاء القلب لا يكون إلّا بالنصح لأئمة المسلمين ولولاة الأمور. فمن نصح لولاة الأمور وأئمة المسلمين، فمن أخلص لله جلَّ في علاه فقد التزم الجماعة، ومن التزم الجماعة فقد نجى، ومن شذّ شذّ في النار. هذه بفضل الله سبحانه وتعالى آخر ما يمكن أن نتطرق إليه في هذا الباب الجليل العظيم.

الفوائد المستنبطة:

١- مدار الرفعة على القلب، فإن العبد ليعمل بالعمل وهو دقيق ويكون عند الله من العظمة بمكان بسبب نقاء القلوب، فإن مناط الرفعة ومدارها بعمل دقيق على نقاء القلب. أما رأيتم عبد الرحمن بن عوف عندما قال: أيها الناس، إن أبا بكرٍ ما سبق هذه الأمة بكثرة صلاةٍ ولا صيام، سبق هذه الأمة بشيء وقر في القلب. وقلت بأن الله جلَّ وعلا يرفع أقواماً بسبب نقاء القلوب، ويخفض آخرين بسبب دغل القلوب.

وأيضاً نقاء القلب سبب في أن العمل الواحد يعظم عند الله فيغفر الله به كل الذنوب السابقة؛ دلالة ذلك المرأة التي فعلت الفاحشة، بغي من بني إسرائيل كانت تضاجع كل ليلة رجلاً، وجاءت في ذات يوم وجدت كلباً يلهث بلغ منه العطش ما بلغ، وكانت قد شربت، قالت: هذا الكلب بلغ منه العطش مثل ما بلغ مني، فنزلت فسقته، فشكر الله لها، فتقاطرت هذه الحسنة الواحدة على جبال السيئات فأذابتها لما وقر في قلبها.

وإليكم نبأ الرجل الذي قتل مئة نفس، ما فعل خيراً قط، ظاهراً هو ما فعل، إلّا بقلبه، نقى قلبه من كل شيء ومن الدغل وكان صادق التوبة مع ربه جلَّ في علاه، تحرك إلى المدينة التي فيها أهل الخير لكن مات في الطريق، ومع ذلك لعلم الله بنقاء قلبه وبصدقه أمر أرض الخير أن تقترب وأمر أرض الشر أن تبتعد، وبدلاً من أن تتخطفه ملائكة العذاب أخذته ملائكة الرحمة، هذا كله بنقاء القلب. فعلى الإنسان أن يعلم أن أعمال الجوارح وإن كانت جيدة وإن كانت حسنة وإن كثرت، لا تعظم عند الله إلّا بالقلب.

هذا الرجل كان يمشي بين الناس ويُشّر بالجنة، وما كان له كثير من صلاة ولا صيام، حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عندما قال: كان بيني وبين أبي من شيء أريد أن

أبيت عندك، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يخرج اليوم عليكم رجل من أهل الجنة)، وفي اليوم التالي قال: (يخرج عليكم رجل من أهل الجنة)، واليوم الثالث يخرج نفس الرجل. عبد الله بن عمرو بن العاص من الهمة كالجبال يريد يفعل مثل ما يفعل، فقال: ننظر كيف يقيم الليل، كيف يصوم النهار، كيف يتصدق، كيف يسبّح، كيف يزكي، كيف يقرأ. نظر لم يجد صياماً، لم يجد زكاةً، صدقات غير الزكاة، لم يجد ذكراً كثيراً، لم يجد شيئاً فوق ما أن يؤدي الفرائض. فتعجب عبد الله بن عمرو بن العاص، فسأله عن ذلك فقال: يا هذا، هذا ما رأيته مني هذه هي عبادتي، لكني والله لا أبيت وليس بقلبي لأحد من شيء. ينقي قلبه، لا دغل لا حسد لا حقد، ينظر إلى السماء ولا ينظر إلى الأرض، فبنقاء قلبه بُشِّر بالجنة وهو يمشي بين أظهر الناس.

٢- الهلاك في الفرقة والاختلاف والرحمة في الوحدة والائتلاف، وهذا الذي بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم- في كثير من الآثار التي ذكرناها؛ (من شذّ شذّ في النار)، (من خرج عن جماعة قيد أنملة مات ميتة جاهلية).

٣- طلب العلم أشرف ما في الوجود، أشرف عبادة يمكن أن يتقرب بها العبد إلى ربه جلَّ في علاه، كما قال الإمام أحمد: ما وجدت عبادة أجلّ من طلب العلم لمن خلصت نيته، إن الله جلَّ في علاه يرفع أقواماً ويخفض آخرين بهذا العلم. قال الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلة:11]، وقال الله جلَّ في علاه يبين مكانة أهل العلم وشرف أهل العلم: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) [آل عمران:18]، قرن أولو العلم مع الملائكة، فهم خير شاهد على خير مشهود ألا وهو توحيد الله جلَّ في علاه.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (العلماء هم ورثة الأنبياء، وإنما الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر). وفي الصحيحين عن معاوية -رضي الله عنه وأرضاه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، فالذي لا يتفقه في دينه لم يرد به خيراً. وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، وفي رواية أخرى قال: (وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)، وشتان شتان بين القمر وبين سائر الكواكب.

هذا في العلوم عامة بقيد الشرع، يعني لا يدخل فيه علم الدنيا، علم الدنيا يؤجر عليه المرء لكن لا يدخل تحت هذا المدح الذي مدحه الله في كتابه ومدحه رسوله في سنته؛ فهندسة وطب مما يحتاج من المرء في دنياه، له به الأجر إن انتوى رفعة المسلمين، لكن لا يحظى بهذا الثناء وهذا المدح إلّا من تعلّم علم الشرع، فكل هذا الثناء في الكتاب وكل هذا المدح في السنة على علم الشرع خاصة. أقول هذا على طلب الشرع عامة،

وطلب الحديث خاصة لهم شرف وحظوة عظيمة، فإن شرف أهل حديث يؤخذ من هذه الآثار، إن الله جلَّ في علاه أعطى الحظوة والمكانة السامية لأهل الحديث:

- أولاً أهل الحديث هم أهل القرآن، لأنه كما قال عمران: القرآن أحوج إلى السنة من حاجة السنة إلى القرآن؛ لا تفسّر ولا يمكن بيان المجمل ولا تفصيل المجمل ولا أيضاً إظهار الفرائض على حالتها إلّا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعالم السنة عالم بكتاب الله جلَّ في علاه، هذا أول شرف وأول منقبة.

- الأمر الثاني: أن الله خص أهل الحديث فقط بنضارة الوجه، هذه لأهل الحديث فقط، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في بداية هذا الحديث :(نضّر الله امرئ سمع مقالتي فوعاها)؛ أي ملأ وجهه نوراً ونضارةً لأنه يحفظ حديث النبي، هذه خصيصة لأهل الحديث، ويا للشرف الذي منحه الله لأهل الحديث، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نضر الله امرئ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها). وإن ارتقى فوقه أحد بعلم فقه الحديث دراية ورواية، لكن تبقى هذه خصيصة لأهل الحديث منقبة لأهل الحديث.

- المنقبة الثالثة لأهل الحديث أو لشرف أهل الحديث: أنهم الموفقون المسددون الظاهرون على من خالفهم، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- وتفسير جبال أهل العلم لقوله: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)؛ مسددين موفقين منصورين، البخاري قال: هم أهل الحديث، وقال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل وعبد الله ابن المبارك: إن لم يكونوا أهل الحديث، لا أعرف من؟. فهذه أيضاً منقبة عظيمة لأهل الحديث، فهم دائماً موفقون مسددون لأنهم عنوا بكلام النبي -صلى الله عليه وسلم-، والتوفيق والتسديد لا يكون إلّا بكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي ينبثق عن كلام الله جلَّ في علاه.

- والمنقبة الرابعة وهذه أيضاً لا تكون إلّا لأهل الحديث: طلب الحديث وحده عبادة، كيف تكون هذه منقبة؟ أقول والمنقبة الرابعة وهي مهمة جداً حتى أهيب بإخواني لا يتركوا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، كونوا من أهل الأثر، قال بعض المحدثين: وطلبه عبادة. الغرض المقصود؛ زيّنه ابن حبان وفصّل هذا الكلام، قال: وطلبه عبادة. فهذه منقبة عظيمة جداً جليلة لا تكون لأهل الحديث، أن طلب الحديث في حد ذاته عبادة، كيف تكون هذه منقبة؟ الصلاة في حد ذاتها عبادة، كيف تكون هذه منقبة؟! عامةً الحديث قال فيه العلماء: من أراد به الدنيا أخذها ومن أراد به الآخرة أخذها، حظوة لأهل الحديث، هذا فضل الله، ولذلك أقول أهيب بإخواني كونوا مع أهل الأثر.

أقول ما من عمل يقبل عند ربي إلّا بنية مسبقة وهي نية الإخلاص، إلّا طلب الحديث، فطلب الحديث لو لم يخلص فيه المرء فإنه عند ربه عبادة ومقبولة، وهذا تخريج كثير

من العلماء وله نظائر في الشرع سأبيّنها. الغرض المقصود كيف نستنبط ذلك؟ نقول: نعم طلب الحديث في حد ذاته عبادة ولو لم يخلص فيه المرء لله، لكن لم يأتِ برياء ولا سمعة، لم يخلص فيه المرء لله، لم تسبق نيته أنها لله جلَّ في علاه للنفع المتعدي، لأنه لمّا يحفظ سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة بأسرها ستستقيم عبادتها بهذه السنة التي حفظها لهذه الأمة، فكانت عبادة جليلة عند الله وإن لم تسبق نيته الإخلاص. هذا تخريج بعض العلماء بقول بعضهم: وطلبه فقط عبادة؛ طلبه في حد ذاته عبادة.

وبعضهم خرجه من وجه ثاني قال: طلبه عبادة، يعني إذا طلبه أولاً ولم يخلص فيه لله ولم ينتوي أنه ابتغاء وجه الله جلَّ في علاه، بالذات منقبة علم الحديث سيجره إلى الإخلاص، يعني لو لم تسبق النية فإن طلبه وشرف طلبه للحديث سيجره إلى الإخلاص. واستدلوا على ذلك بمقال عبد الله بن المبارك وسفيان الثوري وابن عيينة قالوا: طلبنا العلم لغير الله فأبى (لشرف الحديث) ألّا يكون إلّا لله؛ أي شيء آخر يمكن أن يزل فيه المرء ولا يجر إلى الإخلاص إلّا طلب الحديث، لو طلب الحديث للظهور وطلب الحديث لأن يقال هذا محدِّث مثلاً، فإن الله جلَّ في علاه لشرف الحديث ولمنقبة أهل الحديث فإنه سيجر بعد ذلك للإخلاص، وهذه آخر فائدة.

نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا من حملة حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وممن يعتني بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. ندخل إن شاء الله الأسبوع القادم على معمعان القدر، وأسأل الله جلَّ في علاه أن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس لرابع والعشرون: مقدمة في باب القدر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

اليوم بإذن الله مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"؛

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً):

وعن بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يغالب هذا الدين يغلبه). وعن أبي برزة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يشادّ هذا الدين يغلبه).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين). وعن أنس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كان لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك بي شيئاً. قال: وأحسبه، قال: ولا أدخلك النار، فأبيت إلّا الشرك بي)

وعن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمةً مضلين). وعن أبي أمامة قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلّا أوتوا الجدال، ثم قرأ: (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا) [الزخرف:58]).

باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم:

عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق تعالى القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء).

عامةً كان المفروض أن نتكلم عن الهدي القاصد لكن أردت أن أدخله مع الكلام عن القدر، لا سيما أننا سنتكلم في مسألة الدجال والأئمة المضلين في أشراط الساعة على ما يأتي إن شاء الله ذكره، فالغلو في الدين من الأبواب المهمة جداً، وسنضم الكلام عليها إلى الطوائف الذين ينظرون إلى القدر وأنهم طوائف ثلاث: الطائفة الأولى غلو، والطائفة الثانية جفو، والطائفة الوسط هي طائفة أهل السنة والجماعة.

تكلم بعد ذلك في هذا الباب العظيم وهو باب: (عندما خلق الله القلم فقال له: اكتب)؛ هذا الباب هو باب القدر، وهو باب عظيم جداً، سر من أسرار الله جلَّ في علاه. من أتقن هذا الباب من العقيدة فقد أتقن باباً عظيماً من أبواب العلم، لا سيما وأن باب القدر كما قلت دحض مزلة، لا يعمق فيه النظر أحد إلّا تاه وتخبط وزل وضل، فأقول "ضل" بيقين، قد ضلت طوائف كثيرة جداً في باب القدر. وهو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه. تستنبطه من قول الله تعالى: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) [الأنبياء:23]، وأيضاً من قول الله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) [هود:107].

فالقدر كما قلت قدرة الله جلَّ في علاه، وهو من لوازم الربوبية، وهو ركن من أركان هذا الدين العظيم، من لم يؤمن به فقد كفر وخرج من الملة، والدليل على ذلك حديث جبريل -عليه السلام- في الصحيحين لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أخبرني عن الإيمان، فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه والقدر خيره وشره، وأن تؤمن باليوم الآخر)، فقال: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره)، فأصبح ركناً ركيناً من أركان الإيمان. والدلالة على أن الذي لا يؤمن بالقدر يخرج من الملة حديث عبادة بن الصامت، الحديث الطويل عندما قال: (وكيف أؤمن بالقدر؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، ثم قال له: يا بني إن مت على غير ذلك دخلت النار)، نعوذ بالله من الخذلان.

قد وردت آيات كثيرة تثبت أن الله جلَّ وعلا قد كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق، وأيضاً علم كل شيء قبلها، علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون،

وسنبيّن هذا تفصيلاً. قال الله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، وقال جلَّ في علاه: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ)، يعني يؤمن أن هذا كان مكتوبا قبل أن يُخلق، (وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن:11]، ويجعل النور في قلبه لأنه آمن في هذا القدر. وأيضاً قال الله تعالى: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) [القمر:52-53]، وقال الله تعالى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا) [الحديد:22]، ما معنى نبرأها؟ يعني نجعلها موجودة، نخلقها ونخرجها للوجود، فهي في كتاب من قبل أن تُخلق.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيّناً أمر القدر عندما سئل: (يا رسول الله أرأيت ما نعمل؟ أفي أمر قد مضى؟ (يعني كُتِب وانتهى؟)، أم هو أنف؟ (يعني نستأنفه؟) قال: لا فيما مضى، قال: يا رسول الله إن كان فيما مضى ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له). وفي مسند أحمد عن عبد الله عمر بن العاص قال: (أخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- كتابين وبيّن أن الله جلَّ وعلا كتب كتابين، فقال: هذا بأسماء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آباءهم ثم ختم على ذلك، ثم قال عن الذي في اليد الأخرى: وهذا الكتاب فيه أسماء أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك، ثم قال: فرغ ربكم من العبادة، فعلم أهل الجنة وعلم أهل النار).

وأيضاً يبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أحاديث كثيرة عن القدر ويثبتها وأنها ركن ركين من هذا الإيمان، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح: (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ صحفتها ولتنكح، إنه لا يأتيها إلّا ما قُدِر لها)، هذا وجه الشاهد من الحديث قال: (لا تسأل المرأة)، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: لِمَ تسألي طلاقها؟ فإن الله لو كتب أنها تطلق ستطلق وإن لم يكتب طلاقها لن تطلق، والخسارة عليك، فأنتِ خسرتِ بأنك لم تعملي بقدر الله جلَّ في علاه ولم ترضي بقدر الله وأسأتِ بمخالفة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأنك سألتي طلاق أختك، قال: (فإنه لا يأتيها إلّا ما قدر لها).

وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيّناً لنا مكانة القدر: (المؤمن القوي خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك)، فيها دلالة قوية جداً لأهل السنة والجماعة الذين ينظرون بعين القدر وعين الشرع، قال: (احرص)، خذ بكل الأسباب التي تنتفع بها، (احرص على ما ينفعك)، ثم قال بعدما تحرص وتأخذ بالأسباب الشرعية عينك إلى القدر: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله) يقيناً، وهذا للقدر لأنك تتوكل بقلبك على الله فتأخذ بالشق الشرعي في الأخذ بالأسباب الصحيحة، ويقينك وقلبك معلق بقدر الله جلَّ في علاه وبالتوكل على الله. (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإذا أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما

شاء فعل، فإن لو تفتح أبواب الشيطان)، لأنك ستتسخط بعد ذلك على قدر الله جلَّ في علاه.

فهذه أدلة كثيرة تثبت أن القدر ركن ركين من هذا الدين، وأن الإنسان لا يفلح ولا ينجح ولا يقبل إيمانه إلّا بالإيمان بالقدر، ولا يستقيم إيمان عبد بالقدر كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث القلم كما سنبيّنه بالتفصيل إلّا بالإيمان بأربع مراتب، وخذها مني بالترتيب: علمٌ فكتابةٌ فإرادةٌ فخلقٌ؛

١- العلم، لأن الله جلَّ وعلا علم كل شيء، علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. المعتزلة في هذا الزمان يتمسكون بالعلم، لا يردوه، كانوا في البداية يردوه لكن هؤلاء لا يردوه يتمسكون فيه يقولون: علم كل شيء، لكن ما خلق أي شيء.

٢- الكتابة، لأن الله جلَّ وعلا كتب كل شيء؛ (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) [القمر:52-53]، كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق.

"علم فكتب فأراد فخلق"، هذه الأربع مراتب، لا بد أن تؤمن بالعلم وبالكتابة.

٣- وبأن المشيئة نافذة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٤- وأيضاً الخلق وهو الإيجاد.

هذه الأربعة مراتب التي لا بد أن تتأصل عليها وهذا سيأتي تفصيلاً إن شاء الله، يبقى لنا في الكلام عن القدر بكلمة موجزة، طوائف الناس بالنسبة للقدر ثلاث طوائف:

١- الطائفة الأولى فيها الغلو وهم القدرية، هؤلاء لم ينظروا، كل منهم أعور كل طائفة من الطائفتين غير أهل السنة والجماعة أعور ينظر بعين واحدة؛ هؤلاء نظروا بعين الشرع ولم ينظروا بعين القدر، محصّوا النظر في عين الشرع، نظروا الأوامر والنواهي وقالوا الإنسان يأخذ الجنة بما فعل أو بما لم يفعل، يعني الإنسان إذا فعل ما "أمر" يستحق الجنة ولا يدخل الجنة برحمة الله، بل يدخل الجنة بعمله. هؤلاء يخالفون النبي -صلى الله عليه وسلم- ينظرون بعين واحدة، ينظرون بعين الشرع ولغوا القدر، ولذلك جعلوا كل إنسان خالق لإرادته مع الله جلَّ في علاه.

الطائفة الثانية أخبث من هذه الطائفة، يعني هذه الطائفة أرحم من الطائفة التي ستأتي.

٢- الطائفة الثانية الجبرية الذين نظروا إلى القدر وأزاحوا الشرع، ما نظروا إلى الشرع. هذه الجبرية، الذين يقولون ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال إياك إياك أن تبتل بالماء، هؤلاء الذين يعذرون إبليس، يقولون إبليس هو مطيع لربه في عدم السجود لأنه وافق إرادة الله جلَّ في علاه ووافق قدرة الله جلَّ في علاه، لأن الله جلَّ وعلا هو الذي خلق فيه ذلك فوافق إرادة الله جلَّ في علاه، يعتذرون لإبليس والعياذ بالله. فهؤلاء أخبث

من القدرية، الجبرية يرون الإنسان كالريشة في مهب الريح لا إرادة له، نفوا إرادة البشر بالمرة.

٣- الطائفة الثالثة وهي طائفة أهل السنة والجماعة، هؤلاء بفضل الله نظروا إلى القدر بعينين: عين القدر والقضاء وعين الشرع، ووفقوا بينهما، قالوا إن الله علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وأن الله كتب كل شيء، وأن الله إذا شاء شيئاً كان وإلّا فلا يكون، وأن الله إذا شاء شيئاً خلقه وبرأه أو أخرجه للناس. نظروا للقدر فجعلوا الله جلَّ وعلا له مشيئة وإرادة، ونظروا للشرع فجعلوا العبد إمّا مأمور بشيء أو نُهي عن شيء، فالعبد هنا له إرادة أيضاً في الأمر والنهي الذي عليه. فنظروا إلى إرادة الله وإرادة العبد قالوا: للعبد إرادة ولله إرادة.

أمّا الطائفة الأولى فقالوا: لا إرادة؛ كيف ذلك؟ هم قالوا أصلاً إن الله لا يضل ولا يهدي العبد، بعمله هو اهتدى، بعمله هدايته، وإذا ضل ضلاله بعمله، نفوا إرادة الله جلَّ في علاه المتحكمة في العبادة.

والطائفة الأخرى الأخبث "الطائفة الثانية" قالوا: لا إرادة للعبد، هو ريشة، يعني يحركه الله كيف يشاء. ولذلك والعياذ بالله يتهمون الله بالظلم، يقولون لو عذّب إبليس لظلمه، ولذلك قال كبيرهم: لو كنت أمام ربي لحججت عن إبليس عندما قال له: لِمَ لم تسجد لما أمرتك؟ لقال -والعياذ بالله وخاب وخسر بما قال-: لاحتججت لإبليس قال بفعلك أو بإرادتك، أنه لا إرادة لإبليس والعياذ بالله، يعني كأنه طوّع إرادة الله جلَّ في علاه.

وأمّا أهل السنة والجماعة فقالوا: للرب إرادة وللعبد إرادة، لا غلو ولا جفو، لكن إرادة العبد تحت إرادة الخالق، لا تنفرد بحال من الأحوال، هي منشأها من الخالق. فيجعلون الأفعال التي وقع فيها العبد كالزنا والسرقة وغيرها، يجعلونها من الله جلَّ في علاه، ينسبها لله خلقاً وإيجاداً، وكله كمال، لأن كل أفعال الله كمال. فكل الأفعال تنسب لله خلقاً وإيجاداً لما فيها من حلوها ومرها شرها وخيرها، وأيضاً تنسب للعبد فعلاً واكتساباً.

وهذا الذي يجعلك توافق عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأعوذ بك من شر ما قضيت)، ما قال له: من شر ما قضيت من فعلك، يعني من قضائك، لا، قال: (من شر ما قضيت) يعني من شر القضاء نفسه ليس من شر قضائك، يعني فعلك لا والعياذ بالله، الشر في المقضي ليس في فعل الله جلَّ في علاه. فأهل السنة والجماعة لمّا نظروا إلى ذلك جعلوا للعبد إرادة، كما أنهم جعلوا للرب إرادة، وتفصيله إن شاء الله سياتي بالغلو والجفو، وقبلها نشرح مسألة حديث القلم مع المراتب الأربعة والرد على أهل البدع في مسالة القدر، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الخامس والعشرون: عليكم هدياً قاصداً (1)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

عادت بفضل الله وبحوله وكرمه وقوته هذه الدروس المباركة في هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، بلغنا إلى الكلام على حديث القلم، أنه أول ما خلق الله القلم، وقدمنا مقدمة في القدر. وأغفلنا قبلها الباب الذي يسبقه وهو باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً)، لا سيما وأن هذا الباب يحمل تحت طياته أموراً عظاماً، فلا بد أن نتعرض لها قبل أن ندخل في عمق الكلام على القدر.

لا سيما وأن له بابين: الباب الأول كلام على ميثاق الفطرة، الباب الثاني هذا الحديث الذي يتكلم عن ميثاق الفطرة يجرنا على الكلام هل أهل الفترة يعني هم من المعذورين؟ أم هم من أهل الرسالة فالموحد منهم يدخل الجنة والمشرك منهم يدخل النار؟ كما انقسم أهل السنة والجماعة فريقين بسبب هذا الحديث، وهو حديث: (قد أردت منك أهون من ذلك، أردت منك ان تعبدني لا تشرك بي شيئاً وأنت في صلب آدم فأبيت إلّا الشرك)، هذا الحديث عمدته ميثاق الذر عندما مسح الله جلَّ في علاه على ظهر آدم فأخرج ذريته من ظهره. الباب الثاني نرجئه إن شاء الله للجمل المهمة في الباب الأول ألا وهو القصد أو الهدي الوسط، وأن هذه الأمة أمة وسطية، وأن أهل السنة والجماعة هم الوسط بين الغاليين وبين الذين فيهم الجفو. فنتعرض للبابين بإذن الله اليوم؛ لباب مسألة الغلو في

الدين، وأيضاً حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمة مضلين).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً)

وعن بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يغالب هذا الدين يغلبه). وعن أبي برزة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يشادّ هذا الدين يغلبه).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين). وعن أنس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كان لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك بي شيئاً. قال: وأحسبه، قال: ولا أدخلك النار، فأبيت إلّا الشرك بي)

وعن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمةً مضلين).

هذا الحديث كما قال الشيخ رحمه الله رحمة واسعة: إن كان إسناده فيه ضعف الجابر الجعفي، لكن هذا الحديث أتى عن عمر بن الخطاب وعن علي وعن غيره من الصحابة رضوان الله عليهم، فشواهده كثيرة، والحديث حسن لغيره إن لم يكن صحيح لغيره، صحيح أنه حسن لغيره؛ (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمة مضلين). وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصافهم كما سنبيّن أنهم أئمة مضلين أو أنهم منافقون، وأيضاً بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن فيهم هوى وفيهم جهل كما سنفّصل في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-.

بدأ المصنِّف بالعلاج ثم ثنى بعد ذلك بالداء العضال، كأنه يبيّن أو يقول بهذا الترتيب: عليكم بالعلاج حصانة لكم، وعليكم بالتوضيب حصانة أو سداً منيعاً حتى لا تصابوا بهذا الداء العضال ألا وهو الغلو في الدين. كأن سائلاً يسأل يقول: ما هو المرض؟ فالإجابة: الغلو في الدين داءٌ عضال، والعلاج من هذا هو الهدي القاصد الذي بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-. لذلك سنتعرض اليوم للكلام على الغلو في الدين بتعريف الغلو في الدين، ثم الغلو في الدين مذموم في ديننا في الشرائع السابقة، وبعد ذلك أنواع الغلو في الدين، ثم التفصيل في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال)، كأن الأئمة المضلين أشد هلاكاً وفتكاً بهذه الأمة من فتنة الدجال، لا سيما

وأن العدو القريب الذي يغفل عنه الناس أشد نكايةً من العدو الذي يُعرف، أو يقول المرء إني احترس من هذا العدو فأعرف عداوته لي.

الغلو: هو مجاوزة الحد؛ الراجح الصحيح في ذلك بلغة الشرع، الغلو هو: مجاوزة الحد سواء في الاعتقاد أو في العمل، يعني سواء في الأعمال أو في الاعتقادات. ولها بعض الألفاظ التي تواكبها وتشابهها كالتنطع في الدين كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هلك المتنطعون)، والتعمق، وأيضاً التطرف وهذه لغة الغربيين على الذين يتمسكون بالدين وفيهم نوع من الغلو في الفكر، أو عامةً التطرف والحيدة عن الطريق القويم يمكن أن تطلق عليه بالغلو، فهذا يكون غلواً في الدين فهو مجاوزة الحد.

الغلو في الدين أو مجاوزة الحد في الاعتقاد أو في الأعمال مذموم في ديننا ومذموم في الشرائع السابقة، قدمه بقدم نوح -عليه السلام-، لأن نوح -عليه السلام- ما أرسل إلّا لقطع دابر الغلو في الدين؛ فإن البشرية كانت على التوحيد حتى حدث الغلو في ود وسواع ويغوث، فكانوا بعدما رسموا لهم الأصنام والتماثيل يذهبون يتذكرون عبادتهم يتقربون بذلك لله جلَّ في علاه، ثم اندثر العلم وظهر الجهل والشيطان تملّك في القلوب والعقول وبعد ذلك غلوا في هؤلاء الصالحين فعبدوهم من دون الله جلَّ في علاه، فأرسل الله نوحاً ليقطع دابر الغلو.

وأيضاً أشد الأمم غلواً في الدين سواء في الاعتقادات أو في الأعمال هم النصارى، وهم من بني إسرائيل، والله جلَّ وعلا يقول: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) [النساء:171]، فغلو النصارى في الدين كان في الاعتقاد وفي العمل: أمّا في العمل؛ فابتدعوا عبادات لم يكتبها الله جلَّ وعلا عليهم، ولذلك ذمهم الله وما مدحهم: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27]. وأيضاً غلو شديد في الاعتقاد بأنهم وسموا عيسى -عليه السلام- بأنه ابن الرب، حاشا لله فهو واحد أحد. وأيضاً قالوا أنه الرب نفسه وهذه التي أنكرها الله عليهم، فهذا الغلو مذموم فيمن سبقنا.

وفي ديننا قد حذر منه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين)، وأيضاً كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (هلك المتنطعون)، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يرشد: (عليكم هدياً قاصداً). لكن لِمَ يا ترى هذا الذم وهذا التحذير البيّن من النبي -صلى الله عليه وسلم- للأمة حتى لا تقع في هذا المستنقع "مستنقع الغلو" في الدين، فتهلك وتهلك؟! فالعلل في ذلك كثيرة منها:

١- الغلو في الدين ازدياد على شرع الله جلَّ في علاه وتقدّم بين يدي الله جلَّ في علاه إمّا بلسان المقال وإمّا بلسان الحال، كأن الذي يأتي بالغلو في العبادات أو في الاعتقادات يرى أن الشرع الذي شرعه الله جلَّ في علاه لا يكفيه، ويرى أن المنزلة لا تكون أرقى

ولا تكون أعلى ولا تكون أسمى له في العبادة إلّا إذا غلا في دينه وأتى بالعبادة المنقطعة النظير.

يجليها لنا القصة الصحيح؛ الثلاثة نفر الذين جاءوا يسألون عن عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلما ذكر لهم كيف يصوم، كيف يقوم، كيف ينام، كيف يطعم، كيف يأكل، كيف يشرب، كيف يأتي نساءه، فكأنهم تقالوها. هذا نوع الغلو الذي جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- زاجراً رادعاً على مثل هذا الفكر، أو مثل هذا الذي يُعتقد وثم بعد ذلك يترجم إلى عمل. قالوا إن النبي -صلى الله عليه وسلم- عبدٌ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم قام قائلهم يقول: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أنا أقوم ولا أنام، وهذا كما قلت زين لهم الشيطان أن هذا من حسن العبادة لله جلَّ في علاه وحسن التقرب لله جلَّ في علاه، غلو في الدين. وقال الآخر: إني لا أتزوج النساء، امتنع عن هذه الشهوة. فلمّا جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبر بالخبر اشتد غضبه ونكيره على مثل هؤلاء، لأن هذا باب فتنة ليس بعده فتنة، وسنبيّن كيف كان فتنة في الأمة كما خرجت الخوارج بسبب هذا الغلو في الدين.

فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً في الناس ينكر علناً على من قال ذلك، قال: (ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا وكذا)، وثم بيّن في بعض الروايات أنه أخشى الناس وأتقى الناس لله جلَّ في علاه قال: (أمّا أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء)، ثم أعلنها صراحةً: (وهذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني). وهذه براءة من هذه الأعمال، براءة من الغلو في الدين وأن الوسطية هو الدين الحق، فقال: (أقوم وأنام، أصوم وأفطر، أتزوج النساء. هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني).

إذاً الذي يغلو في دين الله جلَّ في علاه يقدّم نفسه بين يدي شرع الله جلَّ في علاه، كأنه لا يقبل تشريع الله جلَّ في علاه، ويرى أنه لا يرتقي بمثل هذا التشريع. وهذا الذي فقهه الفقيه الأريب النجم كما قال الشافعي: إذا ذكر الحديث فمالك النجم، إمام دار الهجرة عندما قال للرجل: لا، لا تفعل، لا تحرم من مكان قبل مكان النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: لِمَ؟ زيادة الخير خير، قال: لا. ليس الأمر إنكاراً على أن هذا الفعل يجوز شرعاً أو ما يجوز، هو يجوز شرعاً حتماً، لكن كان الإنكار لأمر وراء ذلك؛ قال: ترى نفسك فعلت أمراً قصّر عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. هنا الغلو؛ يقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- ما فعله وهو يأتيه فعله، كأنه تقدّم بين يدي عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه يشتد اجتهاده في العبادة دون النبي -صلى الله عليه وسلم-. قال: ترى نفسك فعلت فعلة قد قصّر عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أخشى عليك من الفتنة، ثم قرأ قول الله تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور:63]، فهذه العلة الأولى أو السبب الأول في ذم الغلو.

٢- السبب الثاني في ذم الغلو؛ أن الإنسان بعد الغلو إذا اجتهد في العبادة لا بد حتماً سينقطع عن هذه العبادة ويتركها كليةً كأنه يزهد فيها، وينسى هذه العبادة وأصلها. يعني تراه يجتهد كثيراً في قيام الليل في ليلة واحدة ثم يبقى عاماً كاملاً لا يقيم الليل، أو يغض بصره عن النساء مرة واحدة حتى عن أهله وحتى عن زوجه، ثم تراه بعد ذلك يقع في الزنا. فهذه المذمة العظيمة التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن الإنسان إذا غلا لا بد سيقع في المحظور سيقع في المحظور، وأيضاً سينقطع عن هذه العبادة سينقطع عن هذه العبادة، سواء زهادة فيها أو نفرة منها، وهذا واقعاً حديثاً من قول النبي -صلى الله عليه وسلم- وأيضاً من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- ليأتسي الناس به.

الدلالة على ذلك أن (النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل على عائشة وكان عندها امرأة فقال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة بنت فلان، تذكر من قيامها بالليل)، تذكر صلاتها وكيف كانت تقوم الليل كله. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- زجراً لا غلو في هذا الدين: (مه! عليكم من الأعمال بما تطيقون، فوالله إن الله لا يمل حتى تملوا). وفي الصحيحين أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (عليكم من الأعمال بما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا)، ما يستنبط من هذا الحديث الجليل؟

أولاً هي صفة ليست خبرية، فضابط الخبرية مسماها عندنا أجزاء وأبعاض، بالنسبة لله هي صفة كمال وجلال لكن بالنسبة لنا جزء وبعض. إذاً ليست صفة خبرية ولكنها صفة فعلية، كيف هي صفة فعلية؟ الضابط من الحديث: يوصف الله بها في وقت "عندما تمل"، ولا يتصف بها عندما لا تمل. كيف تثبت أنها صفة ثبوتية؟ بمفهوم المخالفة نثبت الصفة؛ هذه الصفة الجليلة هي صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، أمّا الملل بالنسبة للإنسان فهي شيء عجز في النفس وكسل وفتور، أمّا الله فلا وألف لا، صفة كمال وجلال يتصف بها الله جلَّ في علاه، معناه أنه لا يمتنع عن إعطائكم الثواب إلّا إذا أبيتم أنتم الثواب، هذا معنى الصفة.

فهي صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، لازمها أن الله جلَّ وعلا يغدق لكم الثواب ويعطيكم الثواب ولا يوقف هذا الثواب عنكم إلّا إذا أبيتم الثواب، يوضحها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى)، فإن أبيتم الثواب فلا ثواب لكم، وإن رضيتم بالثواب فالله يغدق عليكم الثواب الحسنة بعشرة أمثالها إلى أضعاف مضاعفة إلى سبعمائة ضعف، هذا الكلام الصحيح عند من قرره المحققون من أهل السنة والجماعة وإن كان المسألة أيضاً فيها خلاف معتبر. الغرض المقصود: هذا حديث جليل جداً، قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا).

وأيضاً (النبي -صلى الله عليه وسلم- مر في المسجد فوجد حبلاً معلق في المسجد، فقال: لمن هذا الحبل؟ قالوا: هذا لزينب تقيم الليل فإذا شق عليها أخذت وأمسكت بالحبل)، فقطعه النبي -صلى الله عليه وسلم- زجراً رادعاً، لِمَ يفعل المرء من الغلو في الدين يحمل نفسه فوق طاقته؟! لأنه سينقطع بعد ذلك عن العبادة، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا)، وأرشدها أن تقيم إذا كان هناك بعض النشاط عندها، وإلّا فلا بد أن ترقد وأن تنام لتقوى على قيام الليل كما قال ابن مسعود: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، أي ينام ليستطيع أن يقيم هذا الليل.

وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن الذم الشديد والوعيد الأكيد للمرء الذي أحسن الله إليه وثبّت له طاعة وبورك له فيها ثم تركها، لأنه من الغلو والشدة على نفسه نفر منها وزهد فيها، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل)، وقال كما في الصحيح: (يا عبدالله لا تكن مثل فلان، كان يقيم من الليل ثم تركه). الله جلَّ في علاه ذم من غلا في شيء واشتد على نفسه ثم قطعه وبتره ولم يستمر فيه، قال الله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا) [النحل:92]. ولذلك على المرء الهدي القاصد، على المرء أن يتوسط في العبادة، يكلّف نفسه من العمل ما يطيق حتى يستمر عليه لأن الله يحب من العبد أن يستمر على هذه الأعمال الصالحات وإن كانت قليلة. ولذلك عائشة تصف النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان إذا أقام طاعة ثبت عليها، والدليل الواضح الجلي في ذلك حديث سنة بعد العصر؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- قضى سنة الظهر بعد العصر فثبت عليها، لأنه ما كان يقوم بطاعةٍ -بأبي هو وأمي- إلّا ويثبت عليها.

٣- السبب الثالث في الذم الشديد على هذا الغلو أن الذي ينتحل هذا الأمر فإنه يخرج أمام ربه جلَّ في علاه خالياً، صحيفته ليست فيها شيء، يصل بعد ذلك إلى الخواء. والدلالة على ذلك أثر ضعيف وحديث صحيح؛ أقدم الأثر الضعيف على أن معناه من الصحة بمكان، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن المنبت لا ظهراً أبقى ولا أرض قطع)، لأنه بعد ما اشتد على نفسه قطع العبادة ونكص على عقبيه. فإن المرء يصل إلى ربه ليس له من العمل من شيء بقي له، لأنه سينفرط عقده ولا يقوم على هذه الأعمال ولا يستمر عليها فيذم عند ربه جلَّ في علاه.

والأمر الثاني أن الغلو في الدين بابه البدعة، والمبتدع مردود باطل عمله عند ربه جلَّ في علاه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا)، والغلو ليس عليه أمرنا لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن ذلك بقوله: (فمن رغب عن سنتي فليس مني). قال -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا)،

(من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد)، يعني فهو باطل. وابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- عندما جاءه أبو موسى مهرولاً فقال: أبا عبد الرحمن رأيت عجباً، قال: ما رأيت؟ قال: رأيت أقواماً في المسجد يتحلقون حلقاً، كبيرهم يقول: سبحوا مئة، كبروا مئة، هللوا مئة. فتلثم ابن مسعود ثم دخل عليهم، ثم كشف عن وجهه وقال: ألا تعرفوني؟! أنا صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنا أبو عبد الرحمن عبد الله ابن مسعود، إنكم على ملة أهدى من ملة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو مفتتحو باب ضلالة. فقالوا: يا أبا عبد الرحمن والله ما أردنا إلّا الخير، هذا الغلو بالأعداد كما سنبيّن في الأعمال هذه والأذكار والأوراد التي لم ينزل الله بها من سلطان، هذا غلو في الدين ونوع من الغلو في الدين الذي لا بد من بتره. فقالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلّا الخير، فقال -رضي الله عنه وأرضاه-: وكم من مريد للخير لم يبلغه، لِمَ؟ لأنه لم يتبع في ذلك هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الغلو نوعان: غلو عملي وغلو اعتقادي.

▪ الغلو العملي: كما بيّنا هذه في الأذكار والأوراد والأعداد الكثيرة من الركعات التي لم ينزل بها الله من سلطان، وإن أرادوا بذلك الخير يقال لهم: وكم من مريد للخير لم يبلغه، عليكم بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنه من يعش من بعدي منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فقالوا: أوصنا يا رسول الله، فقال: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). فإن الغلو العملي هو أن يأتي بعبادة لم يأت بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، والأصل في العبادات التوقيف لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، ومن الكتاب: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7].

وأشكالها وألوانها كثيرة في العبادات، منها ما حدث واقعاً مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كالنذور التي خالف فيها الناذر هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن ينذر الرجل أن يمشي إلى مكة مثلاً ليحج حجاً ماشياً ويكون له الأجر يعمل بذلك بقوله -صلى الله عليه وسلم-: (أجرك على قدر نصبك ونفقتك). نقول: لا هذا غلو في الدين، لا بد من بتره وقطعه وهذا النذر لا يعمل به. ولذلك لمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المرأة تمشي نذراً إلى البيت الحرام، قال: (الله غني على إتعاب هذه بنفسها، فلتمشي ولتركب).

وهذا رجل اسمه إسرائيل، كان قد نذر أن يصوم ولا يفطر ويقوم ولا يقعد ولا يستظل بالشمس، فرفضه النبي -صلى الله عليه وسلم- لأن هذا من الغلو في الأعمال وهذا ليس على هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: (لا، مروه فليصوم وليفطر، وليقوم وليقعد وليستظل بالشمس). فهذه أيضاً من أنواع الغلو التي رفضها النبي -صلى الله

عليه وسلم- وأصّل أصولاً، قال على هذه الأصول وعلى هذا الخط الذي رسمته لا بد أن تسيروا.

▪ الغلو الاعتقادي: غلو مهم جداً وهو أكثر فساداً في الأمة، الغلو الأول فساده ممكن ما يتعدى إلّا للآحاد والأفراد، أمّا الغلو الثاني هو فساده يعمل في الأمة بالانهيار. الغلو الاعتقادي هو أن ينزل المخلوق منزلة الخالق، وهذا كثير في هذه الأمة، وهذا غلو في الاشخاص أصله تعظيم الأشخاص، أصله ما كان من يوم نوح -عليه السلام-، أصله الغلو وتعظيم الأشخاص على شرع الله جلَّ في علاه.

فخرجت أقوال يؤلهون النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقولون خُلِق من نور ويعتقدون فيه أنه يحرك الكون أو أنه يشفع عند ربه دون إذن من ربه جلَّ في علاه، فهذا غلو في رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تعظيم النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أن تجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- فوق حد النبي الله -صلى الله عليه وسلم-. النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قالوا له: أنت سيدنا وابن سيدنا، خيرنا وابن خيرنا، قال: (قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان)، وقال: (إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله)، جمع بين منزلة الرسالة، وبين أن يكون عبداً متذللاً خاضعاً متمسكاً لربه جلَّ في علاه حتى لا يرقّيه أحد عن منزلته.

وخرجت خارجة أيضاً، أقوام اعتقدوا في علي الإلهية، قالوا علي إله -والعياذ بالله-. وهؤلاء لمّا حرقهم علي بالنار ماذا قالوا؟ قالوا: هذا أعظم دليل على إنك الإله، لأنه لا يحرق ولا يعذب بالنار إلّا الله. غباء بله سفهاء، ارتقوا مرتقاً صعباً، فهؤلاء غلوا في علي فألهوه عن درجة الولاية -رضي الله عنه وأرضاه-. ثم قام قائمهم أيضاً فجعلوا الولي أفضل من النبي، جعلوا درجة الولاية أفضل من درجة النبوة والرسالة، أو قالوا أفضل من النبوة لكنها ليست بأفضل من الرسالة؛ فقال: قائلهم الولاية برزخ بين الرسالة وبين النبوة، يعني الولاية فوق النبوة وتحت الرسالة، هذا أيضاً من باب الغلو الاعتقادي الذي لا بد أن يقطع.

ومنهم من يعتقد في أولياء الله الصالحين الذين ندين الله بحبهم وبالولاية لهم، لكنهم يغلون فيهم فيعتقدون في ولي من أولياء الله الصالحين أنه يحيي الجنين في بطن أمه، أو أن الولي يحرك الكون والأقطاب والأبدان كما يقال بذلك. فهذا أيضاً غلو في الاعتقاد لا يصح ولا يمكن أن يقبل، وهو يودي بالأمة إلى الانتكاس أو إلى الانهيار.

من الغلو في الاعتقاد أيضاً البدعة المميتة التي خرجت علينا وهو الغلو في مسألة الإيمان، وهو التكفير بالمعصية؛ أقل معصية يكفِّرون، يكفِّرون بالكبيرة ويكفِّرون بالصغيرة، وأرقاهم منزلة الذين يكفِّرون بالكبيرة دون الصغيرة، والمآل واحد والنتيجة واحدة، هذا غلو مذموم يأتي على الأمة بالانهيار لأنه إذا كفّر الأمة استباح دماء الأمة

وأعراض الأمة وأطفال الأمة وأموال الأمة، وهذا الذي يحدث الآن، بل يكون تحت مسمى مثلاً الجهاد أو غير الجهاد أو التعبد لله جل في علاه. لِمَ؟ يكفِّرون الأمة بالغلو في مسألة الإيمان، فهذا هو الغلو الاعتقادي وهذا أشد كما قلت وأكثر إفساداً في هذه الأمة وهو الذي يودي بالأمة إلى الانبطاح وإلى الانهيار.

فأنواع الغلو: غلو عملي، وغلو اعتقادي؛ والله جل في علاه أوحى لنبيه ليبيّن لنا أصول وأسس هذه الأقوام الذين يغلون في دين الله جلَّ في علاه، ثم بيّن مظاهرهم. الغلو الأخير وهو الغلو في تكفير الأمة بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- ووسمهم ووصفهم بأوصاف تعرفها على كل أحد؛ دخل هذا الذي يغلو في دين الله يرى أنه متقدم على رسول الله، نرجع إلى المسألة الأولى: لِمَ ذم الغلو؟ ازدياد على شرع الله وتقدم بين يدي الله ورسوله. هذا القائل، نظر فكأنه أتقى لله من رسول الله، لمّا دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقسم الغنائم قال له: يا محمد اعدل، اتق الله. أأنت أتقى لله من رسول الله؟ حاشا لله وحاشا لرسوله -صلى الله عليه وسلم-. فقال: يا محمد اتق الله، إن هذه القسمة لا يُراد بها وجه الله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ومن يعدل إن لم يعدل محمد)، فقام خالد بن الوليد فقال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، دل على نفاقه هو ليس بنفاق، والصحيح أن هذا غلو في الفكر.

وخرج من ضئضئ هؤلاء ومن صلبهم الذين كفّروا الأمة، من سماتهم يقتلون أهل الإسلام والتوحيد ويتركون أهل الأوثان والكفر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)، ثم وصفهم وقال: (يخرج من ضئضئ هؤلاء أقوام يقرأون القرآن)؛ ويتعبدون كما تتعبدون، يقيمون الليل كما تقيمون، يصومون النهار، لكن الغلو أودى بهم إلى الهلاك. فقال: (يخرج من ضئضئ هؤلاء أقوام يقرأون القرآن لا يبلغ حناجرهم)، لا يتدبرون، يهرفون بما لا يعرفون، الجهل قائدهم وليس العلم قائدهم. انظروا إلى الجهل وصل بالناس بالغلو في العبادة فكان عابداً جاهلاً، أو للغلو في مسألة الاعتقاد فكان عالماً فاجراً، أو كان جاهلاً أوصل نفسه إلى الهلاك. ولذلك كان ابن عيينة يحذر الأمة من عابد جاهل أو من عالم فاجر، لأنه سيصل بها إمّا للغلو في العبادة "الغلو العملي" أو يصل بها في الغلو الاعتقادي، ويصل بعد ذلك إلى تكفير هذه الأمة.

العلاج من هذا الغلو الذي يودي بالأمة إلى هذا الهلاك والانهيار بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً)، وهذا لا يكون إلّا ببصيرة العلم، (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، أنت ستخرج في هذا الدين كالشعرة من العجين ما بين غلو وبين جفو لا يكون والله إلّا بالعلم، قال الله تعالى: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:108].

ثم ننتقل إلى الحديث الثاني؛ عن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمة مضلين).

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أشفق الأمة بالأمة، وأرحم الأمة بالأمة، يخشى على الأمة من كل صاعقة ومن كل واقعة، ويحذِّر الأمة من كل ما يضلهم أو يفتنهم في دينهم. قام النبي -صلى الله عليه وسلم -ذات يوم من طلوع الفجر إلى صلاة العصر يقف على المنبر يحمر وجهه ويعلو صوته ويظهر الغضب في وجهه وهو يحذِّر الأمة من الدجال، حتى قال الراوي: من شدة ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحذّرنا من الدجال خشينا أن يكون خلف النخل، يعني خلفنا الدجال. فنزل النبي -صلى الله عليه وسلم- ووجد الرجفة في قلوب أصحابه، ووجد الخوف يملأ أعين أصحابه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما لكم، إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن خرج ولست فيكم فالله خليفتي على كل مسلم)، من رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يشتد نذيره ويشتد تخويف الأمة من فتنة الدجال.

ثم بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هناك فتنة إذا نزلت بالأمة أودت بها إلى الهلاك، هذه الفتنة التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أئمة مضلين)؛ هؤلاء الائمة الذين يودون بالأمة إلى الهلاك، خاف النبي -صلى الله عليه وسلم- على الأمة منهم، وخاف عمر بن الخطاب على الأمة منهم، وخاف عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب على الأمة منهم. لذلك ترى عمر بن الخطاب أخذ هذا الحديث نصب عينه، وكان كان يستعمل الأحنف على البصرة، فكان الأحنف بارعاً مفوهاً خطيباً مؤثراً، ما يصعد على المنبر إلّا والرقاب كلها تشرئب نحوه والقلوب تؤخذ عندما يتكلم. فنظر عمر ابن الخطاب فوجد تأثيره القوي على الأمة فخشي على الأمة، لأنه دائماً يتذكر الأئمة المضلين، (أخوف ما أخاف على أمتي). فاستدعاه فعمر بن الخطاب، فأجلسه عنده شهراً كاملاً يبحث أحواله، ينظر إليه في الليل وينظر إليه في النهار وينظر إلى تعاملاته المادية وينظر إلى أخلاقياته حتى تأكد من أن الرجل على الطريق القويم المستقيم، على هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاحتضنه وقال: الحمد لله. فاندهش الرجل: ما بي؟ كنت عاملاً لك هناك وأخذتني شهراً تختبرني، ما الذي جرك إلى ذلك؟ قال: جرني إلى ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (أخوف ما أخاف على أمتي من الدجال، الأئمة المضلين).

كيف عرف عمر أن الأئمة المضلين لهم هذه الأوصاف؟ بضمنية الأحاديث الأخرى، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان)، فوصفة أنه عليم اللسان معسول القول، يؤثر على الناس، يتكلم بحلو الكلام وقلبه حنظل والحقد يملأ قلبه على السنة وعلى أهلها، والله أعلم به ولا يمكن أن يستقر ذلك حتى

يظهر وينضح على وجهه لأن الله جلَّ وعلا قال: (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) [محمد:30]. وأيضاً من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى يرفع العلم وينتشر الجهل، والله جل وعلا لا يقبض العلم ينتزعه من صدور العلماء ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا قبض العلماء لم يبقَ عالمٌ (لم يبقِ عالماً) اتخذ الناس رؤوساً). هؤلاء أخوف ما أخاف على أمتي، ونحن نعيش هذا الواقع والله يرى ذلك والأمة تعلم ذلك، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فاتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسألوهم فأفتوا بغير علمٍ فضلوا وأضلوا).

فمن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة حذرهم من هؤلاء؛ كأن سائلاً سأل: يا رسول الله خشيت على أمتك من الأئمة المضلين ونحن لا نعرف كيف نفرق بين إمام الهدى وإمام الضلالة؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سئل عنهم قال: (دعاة على أبواب جهنم)، من استجاب لهم زجوه فيها، أنزلوه، اللهم استر علينا يا رب. ولذلك سنبيّن في الختام كل منا لا بد أن يقف وقفة مع هذه الأوصاف التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-، نحن منهم؟ نعوذ بالله، نستغفر الله، نرجع نتوب نؤوب حتى لا نكون من أئمة الضلالة. وأقول دائماً قولي بقلبي ولساني وعيني وجوارحي: ولأن أكون ذنباً في الحق خير لي من أن أكون رأساً في الباطل.

لهم أربع علامات؛ فاعلم أن أئمة الضلال ليسوا من العلماء الربانيين، ليسوا من أئمة الهدى هم أئمة الضلال بحديث النبي. قال هناك أئمة مضلين؟ نعم هناك أئمة مضلين، وفي كل عصر ومصر، لكن نقول ما هي أوصافهم حتى نحذرهم أو حتى نمحص أنفسنا، نحن منهم؟ نعوذ بالله نستغفر الله نرجع ونؤوب ونتوب لأن الحمد لله أن أمد الله في أعمارنا أن نتوب وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، ونحن كما قلت ننساق من رؤوسنا إلى رضا الله جلَّ في علاه عملاً بحديث أبي هريرة، ولو جرونا بالسلاسل إلى رضا الله نحن معهم، والله نقبل الأقدام قبل الأيدي بسنة إلى من بين لنا طريق الهدى وإن كنا على ضلال نسير في طريق الهدى.

١- أول العلامات وأشهر العلامات الجهل بالدين؛ أنا أتذكر وقلت لكم أكثر من مرة لكنها أعجبتني جداً، أتذكر المرأة كانت تنكر جداً على هؤلاء المتطرفين الذين يقولون يحرم على الرجل أن يسلِّم على المرأة، فتقول: من أين أتوا بمثل هذا؟ ورسول الله يجلس وبجانبه أبو بكر وبجانبه عمر، وجاءت المرأة فاستحيت من رسول فمدت يدها لأبي بكر، فسلم أبو بكر ثم سلم عمر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يضحك ويبتسم ويقر. قالت فهذه سنة أيها الجهلاء، سنة تسمى تقريرية، أقر النبي -صلى الله عليه وسلم- للمرأة أن تسلم على أبي بكر وعلى عمر.

هذا نعم بحق والله من أطاعهم فيها زجوه في نار جهنم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بسند كالشمس يقول: (لإن يشج أحدكم بمخيط على رأسه خيٌر له من أن يمس امرأة لا تحل له)، وعائشة تقول عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا أصافح النساء)؛ والأصل في التشريع العموم وليس الخصوص، فإذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا أصافح النساء)، أبو بكر لا بد أن يقف خلفه ويقول: لا أصافح النساء، أنا أقف خلفه وأقول: لا أصافح النساء لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك هو بأبي وأمي، ائتسي به وهو قدوتي إلّا ما دل الدليل على أن هذا خاص برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذه واحدة من ألف مسألة.

الحديث جلي جداً؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فاتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسألوهم فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)، وهذا ظاهر جداً إذا محّصت النظر في فتاوى هؤلاء المشاهير، نحن لا نتكلم على العموم، أنا أتكلم على هذه النوعية، أنا سمعتها بأذني. وفي أشياء أخرى نقل عن بعضهم يقول: النمص يا أحبابي ليس محرماً مطلقاً، النمص المحرم هي أن تأخذ موس وتحلق الحاجب كله ثم تأتي بقلم فتجعل هذا القلم بنوعية معينة رفيعة هذا هو النمص، غير ذلك ليس بنمص. وأنت أدخل في بحور كلام أهل العلم كلهم؛ إما يجعل النمص هو أخذ شعر الحاجب سواء بالقص أو بالملقاط أو بالنتف أو بأي شيء، خلافاً لأحمد الذي قال بجواز القص في مسائل معينة وهذا كلام طبعا شاذ مرجوح جداً، وبعضهم يقول النمص هو أخذ شعر الجسد كلية ليس الحاجب فقط. أمّا أن تقول الحاجب حلق الحاجب!! وهذه ما رأينا فيها من دليل.

فإذاً العلامة الأولى إذا غربلت كلامهم إمّا تراهم أولاً يحتجون بالاحاديث الموضوعة والضعيفة ويهرفون بما لا يعرفون، تراه يقوم ويقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا كله ضعيف وموضوع، لا سيما في السير وفي غيرها، وإذا نظرت إلى كلامه ما رأيته يلوح بشيء من الشرع. وهذا عند الغلو في الاعتقاد، وهم أهل التكفير؛ الفكر الذي يودي بالأمة إلى الهلاك ويجعل الأمة يستبيح بعضها دماء بعض، ونحن نحاربه قصداً حتى يرجع كل منا إلى حظيرة الإسلام الصحيحة فترتقي الأمة بالالتئام وبالإتلاف وبالوئام.

٢- ازدراؤهم للسنن؛ إذا قلت لهم هذه سنة النبي تشمئز قلوبهم تتمعر وجوههم، صاعقة كهربائية جاءت عليهم، تراهم يحاربون ويقاتلون، ومنهم الألطف منهم يعتذر ويقول هذه سنة افعلها ولا تفعلها، قلنا نعم لك ذلك لكن أما علمت أصولياً بأن السنة: سنة واجبة وسنة مستحبة وسنة مباحة، فماذا تقول في السنة الواجبة؟ أيضاً لك أن تفعل ولك ألّا تفعل؟ ترى من أشد علاماتهم أنهم يزدرون السنن ويزدرون أهل السنن الذين يتمسكون بالسنن، وهذه أولاً علامة نفاق وليست علامة إخلاص، لأن علامة الإخلاص لا بد من

متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ (مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) [النساء:80]، (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) [النور:54]، ربط وأناط الهداية بطاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٣- لا يحبون الله ويزعمون زيفاً وبهتاناً وزوراً أنهم يعملون لله، لأن الله امتحن أقواماً أمثالهم من قديم وزعموا أنهم يحبون الله ورسوله، فامتحنهم بهذه الآية الخاصمة للجدال: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) [آل عمران:31]. فهذه دلالة واضحة جداً على أن علامة محبتكم لله وعلامة محبتكم لرسول الله، العض بالنواجذ على سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-. لا غرو ولا عجب، إن كنت لا تستطيع أن تقيم سنة فقل هذه سنة ومستحبة وافعلوها أيها الناس وعندي ما يمنعني من فعلها، لا عتب عليك، بينك وبين ربك، حسابك عند ربك. لكن أن تزدري السنن جهاراً، وأن تقول عقلي مقدم على السنن، من البخاري وهذا البخاري خلف ظهري، عقلي يقدم، لا أرضى بهذا الحديث مثلاً. فأن تحارب السنن وتزدريها هذه ليست من علامة الإخلاص، ليست من علامة التوفيق ولا التسديد، وإن الله محّص أقواماً فقال: (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ).

وتراه كثيراً ما يتكلم عن السنن، حبيبي يا رسول الله، أحب رسول الله. أين أنت من رسول الله؟ في شبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ تشبه به قدر إمكانك، أو قل تشبهوا وائتسوا برسول الله، وإن لم استطع أقول: ما استطعت لعلة عندي.

٤- يقدمون الأهواء وقول الرجال والفقهاء على قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذه لها حالتان:

- الحالة الأولى: يقدّمون قول الفقيه ليس على قول النبي، بل يقولون نقدّم قول المذهب أو قول الفقيه لفهمه لحديث النبي لأنهم أفهم منا لحديث النبي، قلنا لهم نعم ولا فض فوكم، نعم نقول بهذا ونأخذ به.

- الحالة الثانية: يقدّمون قول الفقهاء ويقدمون قول الآراء والأهواء والذوق والوجد على حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا هو المذموم لأن ما من إمام من أئمة الهدى إلّا وقال: إن خالف قولي قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فخذوا بقول رسول الله واضربوا بقولي عرض الحائط، وقد قال مالك: كلٌ يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب هذا القبر.

٥- النفاق؛ منهم من إذا نظرت إلى وجهه قلت والله هذا وجه منافق. وأنا صراحة رأيت وجه رجل أنا ما قلت ذلك، لكن كان بعض مشايخنا أجلس بجانبه عند وقت الصلاة وكان رأى رجلاً تكلم في الدين، لكن أول ما نظر إليه قال: والله أمليت النظر في وجه

الرجل ما رأيت وجهه إلّا وجه منافق. فأنا أقول هذه من علامات المنافق، يراها من يراها من كرامات الله جلَّ وعلا للمتقين والصالحين، لكن لا يصح للواحد أن يرجم بالغيب على كل إنسان بهذا الكلام، لكن لهم علامات أخرى تظهر نفاقهم، ما هي العلامات؟ لحن القول.

أختم بقصة تظهر لكم أئمة الضلالة؛ دخل رجل من المحدثين، ويا ليته ما كان من المحدثين، العلم عليه ليس له. دخل على أمير المؤمنين وكان من الخلفاء العباسيين وكان يحب اللعب بالحمام، يطير حمام، فلمّا دخل عليه فقال: جاءني الحديث عن عمك يعني ابن عباس، يرفع لمن؟ للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قال: (لا سبق (يعني لا جائزة) إلّا في خف أو حافر أو نصل)؛ نصل هي الرماية، ممكن مسابقات وجائزة على الرماية. أو الخف الذي هو الحافر يعني خيل أو بعير، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك. ثم لمّا رآه يلعب بالحمام، فمن نفاقه قال له: لا سبق إلّا بخف أو حافر أو نصل أو جناح، فقال له: هذه سنة من سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فسحة لك لما تفعل، ما أحد يمكن أن ينكر عليك. فقام الأمير فأمر له بجائزة، أخذ صرة من المال، فلمّا ولّى نظر إليه فقال: أشهد الله أن قفاك قفا كذاب، يكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإني لأعلم أن رسول الله ما قال ذلك، قال: (لا سبق إلّا في خف أو حافر أو نصل). ثم قال: أنا الذي جررته إلى ذلك، فأمر بذبحه نكاية لما أنه جر هذا الرجل أن ينافقه ويداهنه فيكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

هذه سمات وهذه بعض الأوصاف التي وصف بها النبي -صلى الله عليه وسلم- أئمة الضلالة، فكلٌ منا يجلس ليلاً الآن ويقول: هل في صفة من صفات هؤلاء؟ فيستغفر الله ويتوب ويؤوب، نحن لسنا من الملائكة، يمكن أن أقول وأكاد أجزم كل منا ممكن لا يخلو منه صفة من هذه الصفات ويغفر الله لنا، ونسأل ربنا جلَّ في علاه أن يردنا إليه رداً جميلاً. فإذا وجد صفة من هذه الصفات فليستغفر ربه وليتوب وليؤوب، وليعلم أن الممدوح بحق من مدحه الله والمذموم بحق من ذمه الله، من كان الله معه فمن عليه، وليعلم أن ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

ثم إذا رأى أن الله قد عافاه من هذه السمات وهذه الصفات وليس منهم ويعلم أحداً هو من هؤلاء، عليه أولاً أن ينظر إليه بعين القدر ثم بعين الشرع؛ بعين القدر يحمد الله أنه ليس منهم وأن الله عافاه من هذه الصفات، ثم يبكي عليهم ويقول اللهم بحق "لا إله إلّا الله" ردهم إليك رداً جميلاً، ويدعوا لهم بالصلاح والانصلاح ويدعو لهم بأن الله جلَّ وعلا يجنّد لهم من يبيّن لهم طريق الهدى وأن ينساقوا لمن يبيّن لهم طريق الهدى. وبعين الشرع عليك أن تنكر هذه الصفات، إن كان رجلاً مرموقاً في الناس فعليك أن تراسله وعليك أن تدعو له وعليك أن تجعل المسألة بينك وبينه في الصمت، أو تأخذ

المسألة شمولية لا على الأشخاص لأنك لا تحارب أشخاصاً ولا تتكلم عن أشخاص وليس لك أن تتكلم عن الأشخاص، دع الأشخاص لرب الأشخاص هو الذي يحاسبه. لكن أنت تأخذ أمراً معيناً في الدين تقيسه على كتاب الله وعلى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا وافق كتاب الله قلت حي هلا به ومرحباً وكرامةً، وإن كان يخالف كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- رددته رداً لطيفاً، لعل الله جلَّ وعلا يهدي بك رجلاً واحداً يكون لك خير من حمر النعم.

الفوائد المستنبطة:

١- إثبات وجود الدجال، وهذا باتفاق أهل السنة والجماعة أنها من علامات الساعة الكبرى أو هي من إرهاصات علامات الساعة الكبرى، أن ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال)، ففيه إثبات ظهور الدجال. واختلف بعض أهل السنة والجماعة، وإن كان الجماهير في مسألة وجود الدجال أيام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الآن؛ هم اتفقوا جميعاً أنه سيخرج وفيه فتنة وأشد ما تكون الفتنة، معه جنة ومعه نار كما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الاختلاف كان في مسألة وجوده وهل هو موجود الآن أم لا؟

جر بعض المعاصرين مسألة النظر إلى الأقمار الصناعية وغيرها فخطف بريق الأقمار الصناعية عينه، وقال: ما أتى الدجال، الأقمار الصناعية ما رأته. طبعاً هذا كلام باطل، يعني الأقمار الصناعية ممكن ما ترى قرية صغيرة، ما تعرف أين هي، والله جلَّ وعلا علّام الغيوب هو الذي يخبئ من شاء في أي مكان شاء سبحانه جلَّ في علاه. لكن عندنا حديثان فيه: حديث يثبت وجوده في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وحديث يرد عليه الإشكال.

أمّا الحديث الذي يثبت وجوده حديث في صحيح مسلم، هو حديث تميم الداري وهو حديث مشهور بحديث الجساسة؛ عندما قام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً في الناس يبتسم ويقول: (حدثني تميم الداري)، لذلك كانت أعظم منقبة لتميم، ما من أحد إلّا ويقول: حدثني رسول الله، وهو الوحيد الذي حدّث عنه رسول الله. قال: (حدثني تميم الداري بحديث كنت قد حدثتكم به)، وفرح النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك فقص قصة الدجال. هذه فيها إثبات أنه مسلسل وأنه موجود في عصر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

يرد عليه فقط حديث: (ما من نفس منفوسة يمر عليها مائة عام إلّا وتموت)، قال: (ومنها الدجال) فكيف نجيب على هذا الإشكال؟ ممكن بوجه آخر نقول أن حديث النفس المنفوسة عام يخصه حديث الدجال، وأوجه منه أن نقول إن الخطاب من باب العام الذي يراد به الخاص كان موجهاً لمجموعة قرن النبي -صلى الله عليه وسلم-، لمجموعة

صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلم يدخل فيها أصالةً الدجال حتى نقول خص من العموم. لأن حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كان موجهاً فقط لقرنه، للمجموعة التي معه، لأصحابه فقط، وهذا الأوجه.

فإذاً الأول إثبات وجود الدجال، والصحيح الراجح أنه كان موجوداً في عصر النبي إلى الآن، وسيأذن الله له بالخروج ونسأل الله أن يعصمنا من كل فتنة.

٢- إياك من العدو الصاحب دون العدو البعيد، أو يقول العدو الظاهر، إياك من العدو الذي يظهر لك بجلدك ويتكلم بلسانك كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الحنظل، قالوا: يا رسول الله صفهم لنا، قال: يتكلمون بألسنتنا ويتزيون بزينا)، يعني هم منا، ولذلك الله جلَّ وعلا بيّن أن المنافقين هم أشد ضرر على الأمة الإسلامية: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) [التوبة:47]، من أين نستنبط هذه الفائدة؟ من قوله: (أئمة مضلين)، فوصفهم أنهم أئمة أولاً، هم يلبسون مسوح أهل الإسلام وأهل الدين بل أهل الفتوى وأهل العلم، منهم هكذا ومنهم هكذا، والله أعلم بالمخلص من غيره. الغرض المقصود هؤلاء يكون ضررهم أشد لأنهم يتكلمون بنفس اللسان، وأيضاً يعملون للإسلام ظاهراً، والله أعلم بنواياهم هل يضربون الإسلام في كبده أو في سويداء قلبه أم لا؟

٣- ديننا يسر وسماحة، والسماحة في الوسطية، إن الهدي الصحيح هو الوسطية وإن الدين الحق هو الوسطية وإن اليسر والسماحة في الوسطية، (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) [البقرة:143]، من أين نستنبط هذه الفائدة؟ (عليكم هدياً قاصداً)، وسطاً عدلاً، ثم قال: (فإنه من يشاد الدين يغلبه).

٤- نبوءة النبي تتحقق، ما هي؟ وأين هذه الفائدة؟ (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع)، ظهر فيهم الغلو فظهر فينا الغلو، ظهر فيهم الأئمة المضلون فظهر فينا الأئمة المضلون. انظر لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)، هذه دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: إن من كان قبلكم عندهم الغلو وفيهم الأئمة المضلين.

٥- ثم نستدرك ونقول فائدة أخرى أخيرة؛ طالما المسألة من سنن الذين من قبلنا كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الله اكبر إنها السنن، قلتم مثل ما قال أصحاب موسى لموسى)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع). تجرنا إلى فائدة أخيرة ألا وهي: سنة الله لا تبديل لها؛ (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) [فاطر:43]، (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) [هود:83]. كما غلوا وظهر فيهم الأئمة فأهلكهم الله جلَّ في علاه، يغلون هنا وتظهر فيهم الأئمة ويهلكهم الله جلَّ في علاه لأن سنن الله لا تتبدل. ولذلك حذر النبي -صلى

الله عليه وسلم- أيما تحذير: (إنما أهلك من كان قبلكم)، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ولو كان فيهم من ينكح أمه لظهر في هذه الأمة من يفعل مثل ذلك)، وقد ظهر ولا حول ولا قوة إلّا بالله، فهذه بعموم قول الله تعالى: (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

والقاعدة: لا نسب بين الله وبين عباده، من أساء فله السيئة ومن أحسن فله الحسنى في الدنيا قبل الآخرة، وإن الله يملي لكنه لا يهمل بحال من الأحوال، (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) [الفجر:14]. أمّا الظالم فإن الله لا يفوته بحال من الأحوال، لكن الله جلَّ في علاه كما بيّن رسوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله ليملي للظالم) يفتح له، (ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) هذه في الدنيا، وفي الآخرة الفضيحة الكبرى والعذاب الأليم الذي لا يمكن أن يرد، وإيّاكم إيّاكم من الظلم وإيّانا إيّانا من الجهل والفتوى بغير علم، إيّانا من التجرأ بين يدي الله جلَّ في علاه إلّا بعلم حتى لا يتقحّم النار أحد على بصيرة.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس السادس والعشرون: عليكم هدياً قاصداً (2)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وانتهينا إلى باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً).

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كان لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك بي شيئاً. قال: وأحسبه، قال: ولا أدخلك النار، فأبيت إلّا الشرك بي).

إن الله تبارك وتعالى يحشر عباده جميعهم؛ المؤمن والبر، والفاجر والكافر، يكلمهم كفاحاً ليس بينه وبينهم ترجمان، يقرر العبد بما فعل إن كان شركاً أو إن كان كفراً أو إن كان طاعة. ما من أحدٍ إلّا وسيكلمه الله جلّ في علاه ويشهده على ما فعل، يختم على فيه ثم يجعل الشهيد من نفسه، إمّا تشهد عليه أيديهم أو أرجلهم أو كل جزئية من جسد الإنسان، والله جلّ وعلا عندما يخاطب الإنسان ويقرره بما فعل -كما قلت- من معصية أو من طاعة أو من غيرها، والظاهر في الأحاديث كل ما فعل من معصيةٍ، يقرره بذلك ثم يجعل مآله إلى النار. هذا الحديث العظيم يبيّن لنا أن الله يخاطب المرء ثم يزيده حسرات، ويبيّن لهم أنه لو امتلأت الدنيا ذهباً وكانت ملكاً له أيفتدي بها من عذاب يوم القيامة؟ من هذا العذاب الذي رآه؟! ولك أن تنتبه أنه قال:

(أهون أهل النار عذاباً)؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن الله جلَّ وعلا يقول: (أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم، فيقول الله جلَّ في علاه: طلبت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم، أن تعبدني ولا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلّا الشرك).

هذا الحديث عظيم جداً، فيه جمل وفوائد عزيزة وغزيرة، لكنا سنتكلم عن مسألتين في العقيدة ثم الفوائد المستنبطة إيجازاً دون التفصيل؛

المسألة الأولى وهي مهمة جداً وهي صلب هذا الحديث، ألا وهي "ميثاق الذر"؛ هذا الحديث يبيّن لنا أن الله أخذ على بني آدم ميثاقاً ثم يذكّره بهذا الميثاق، قال: (وأنت في صلب آدم طلبت منك ألّا تشرك بي شيئاً)، كما قال العلماء هذا ميثاق الذر. والمواثيق التي أخذها جلَّ في علاه على عباده ثلاثة: ميثاق الذر وهذا الذي نحن بصدده الآن، ميثاق الفطرة، وميثاق الرسل.

١- ميثاق الذر هو الذي عناه الله جلَّ وعلا في قوله: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ) [الأعراف:172]، وأشهدهم على أنفسهم، قررهم بربوبيته. وهذا الذي بيّنه عمر بن الخطاب في حديث قد تكلم العلماء في سنده، والتكلم في السند لأنه ذكر بالتصريح أن لله شمال، وهذا كما بيّنا له خلاف الصحيح. الحديث عن عمر بن الخطاب المتكلم في سنده: (أن الله مسح على ظهر آدم فاخرج من ذريته فقال: هؤلاء لأهل الجنة ولا أبالي، ومسح بشماله فأخرج ذرية فقال: هؤلاء لأهل النار ولا أبالي). وابن عباس ورد عنه موقوفاً وهو في حكم مرفوع، بل ومرفوع: (أن الله جلَّ وعلا خلق بني آدم ثم أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى)، وشهدوا وأقروا بربوبية الله جلَّ في علاه. فلمّا قرروا ربوبية الله، هنا جاء التقرير بالحساب، أن الله ذكّرهم بهذا الميثاق؛ مسحت على ظهر آدم ثم أوجدتكم ثم أقررتم بربوبيتي وألزمتكم بها، بعدما أقررتم انتكستم وأبيتم إلّا الشرك، ويقرون بذلك ويعذبون على هذا. هذا الميثاق احتج به بعض العلماء وقال: ميثاق الذر حجة، وهذا الذي نستنده بعد ذلك.

٢- الميثاق الثاني هو ميثاق الفطرة؛ أن الله جلّ وعلا جبل الناس الإقرار بربوبيته، وجبل الناس بميل قلوبهم على توحيده الخالص جلَّ في علاه دون أن يشوبه أية شرك، قال الله تعالى: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) [الروم:30]، وقال جلَّ في علاه: (صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) [البقرة:138]. وصح عن نبينا أن كل مولود يولد على الفطرة، على الإسلام، على الإقرار بربوبية الله، على الإقرار بإلهية الله جلَّ في علاه، (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه)، ولم يقل يؤسلمانه لأنه يولد على هذه الفطرة التي هي الإسلام، التي هي الإقرار بتوحيد الله جلَّ في علاه سواء الربوبية أو الإلهية أو الأسماء والصفات. وأيضاً في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء) يعني عن الشرك إلى التوحيد، (فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) يعني حادوا بهم عن الطريق القويم وعن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه أية شرك. هذا الميثاق ميثاق الفطرة، وأيضاً نازع فيه العلماء هل هو حجة؟ يحاسب البشر عليه أم لا؟.

٣- الميثاق الثالث هو ميثاق الرسل؛ إن الله جلَّ وعلا بعث الرسل حجة على البشر للبشارة والنذارة ولتبليغ آيات الله الباهرات ولتبليغ حجة الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ)، وهذه تفسيرها أن بعض الأمم لم يأتِ لها النذر وسنبيّن، (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل:36]، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء:25]، وقال الله تعالى: (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء:165]. فالله قطع هذه الحجة بإرسال الرسل، والآيات الباهرات التي تبيّن أن الله لا يعذّب أحداً إلّا بإرسال الرسل كما سنتكلم.

إذاً الميثاق الثالث هو ميثاق الرسل، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين: (والذي نفسي بيده، لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن)، اشترط أولاً وقيّد قال: (لا يسمع)، يعني إذا سمع وبلغته الحجة وعلم بأني مرسل من قبل ربي هذا الذي عليه الحساب عند الله جلَّ في علاه، (والذي نفسي بيده، لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار). فهذه دلالة على أن ميثاق الرسل، أرسل الله الرسل لقطع حجة البشر.

النزاع بين العلماء هل المواثيق الثلاثة حجة على البشر؟ يحاسبون عليه أم هو ميثاق واحد يذكر بالميثاقين السابقين؟ الصحيح الراجح أن ميثاق الذر ليس بحجة، ولا ميثاق الفطرة يكون حجة، بل الفطرة تبدلت ويمكن للإنسان أن يقف أمام ربه: كيف تؤاخذني على فطرة قد تبدلت؟ وجدت آبائي قد بدلت فطرهم ووجدت قبل آبائي قد بدلت هذه الفطر. وأيضاً الثاني يقف أمام ربه جلَّ في علاه يقول: كيف تؤاخذني على أمر قد نسيته ولا أعلمه؟ وإن ابن آدم جبل على الجحود والنسيان، نسي آدم فنسيت أمته، جهل آدم فجهلت أمته، فجبل المرء على النسيان فله الحجة أمام رب كيف تؤاخذني على أمرٍ قد نسيته ولا أتذكره حتى الآن؟ أوقظتني فأقررت بالربوبية لكني نسيت ذلك.

فالصحيح الراجح أنه ليس بحجة، والحجة الصريحة في إرسال الرسل بقول الله تعالى -وهذا ظاهر جداً-: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:15]، وأيضاً قال الله تعالى: (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) [الأنعام:131] يعني غافلون عن الرسالة وعن الرسل، فهذه دلالة واضحة جداً أن الله لا يعذّب إلّا إذا ارسل الرسول، ولتصريح قول الله تعالى: (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء:165]، وهذه الآية كما قلت واضحة جداً: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا).

اذاً الراجح بعد سرد هذه المواثيق، الميثاق الوحيد الذي هو حجة على البشر، يسألون عنه يوم القيامة ويعذبون بمخالفته هو ميثاق الرسل. يبقى لنا إذا قلنا هذا الراجح، إشكال وإيراد لا بد من الرد عليه؛ ألا وهو هذا الحديث وهو حديث الباب، قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يقول: قد طلبت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم)، وهذا احتجاج بميثاق الذر، (وأنت في صلب آدم، فأبيت إلّا الشرك)، فكيف نجيب عن هذا الحديث؟ هذا حديث إشكال لنا لأنه صراحةً صريح بأن الله أخذه وأن الله عذبه بميثاق الذر، قال: (طلبت منك ما

هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم). هذا الإيراد إيراد قوي صراحة وظاهره قوي، قال: (وأنت في صلب آدم)، يحاسبه على ميثاق الذر!! المسألة هذه ستجرنا إلى مسألة مهمة جداً وهي "حكم أهل الفترة"، لأن الذي يقول بأن هذا الميثاق حجة سحب الحكم على أهل الفترة، ومنهم المحقق المحدث الفقيه الدقيق الإمام النووي، ومنهم الأصولي النحرير القرافي المالكي؛ يقولون الذر حجة، فلازم قولهم سحبوه وجروه على أن أهل الفترة بأسرهم في النار أو هم أهل الفطرة يقرون بالوصف لكن لا يقرون بالحكم.

دائماً في المشكلات، لمّا تجد حيرة وتجد المسألة تتعبك قف وتدبر قاعدة واحدة وادعُ لي بعدها، انظر في المحتملات وانظر في المحكمات سيحلون لك الإشكال. التوحيد؛ ولذلك هم العلماء يقولون لا نزاع في الفروع النزاع في الأصول، هو يحتج عليه بهذا الميثاق: قد أردت منك التوحيد وأردت من الكل التوحيد فأبيت إلّا الشرك، وعمّم جاءك رسول أو لا الحجة عندك في ذلك في صلب آدم.

نقول المحكمات؛ الآيات الباهرات التي لا إشكال فيها ولا احتمال فيها (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)، قطعاً من قول الله تعالى، (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) فسمّاه ظلماً إن عذبهم من غير حجة ورسول، أصبحت الآية محكمة؛ ما في عذاب إلّا برسول. وهنا يقول له: (وأنت بصلب آدم)؟!!

الحديث يحتمل إضمان، لم يتعرّض جاءك رسول أو لم يأتيك رسول، فنحن نقول الآن إذا كان الحديث ساكت عن رسول له أو ليس بمجيء رسول له سندخل نحن بقوتنا ونقول في الحديث إضمان. معناه؛ قد طلبت منك وأنت في صلب آدم ما هو أهون من ذلك، أن تعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وجاءتك رسلي تذكرك، بذلك فأبيت إلّا الشرك. لأنه مسكوت عنه، وعندنا المحكمات، تقول إذاً المحكمات لا بد أن تتدخل، المحتملات لا تقطع لنا النزاع ولا حكم بها. فنقول معنى الحديث بهذه المحكمات: أنت وأنت في صلب آدم الله أقرك بالربوبية فنسيت، فجاءتك رسل فذكرتك بهذا الميثاق فأبيت إلّا الشرك. ويكون هذا الحل لهذه العقدة، ونقول: إذاً الصحيح الراجح أنه لا حجة إلّا في ميثاق الرسل.

متى يكون ميثاق الذر حجة ومتى يكون ميثاق الفطرة حجة؟ إذا ذُكِّر به، يعني لمّا يأتي الرسول: اتقِ الله ربك، إن الله جبلك على التوحيد فكيف تحيد عن هذه الفطرة؟ اتقِ الله ربك، إن الله أوقفك أمامه وقال: أنا ربكم الأعلى، قلت: نعم، أنت ربنا الأعلى. فيذكّره فيتذكّر، فيكون الحجة في التذكير، وهذا المضمن الموجود.

إذاً الصحيح الراجح حجة في ميثاق الرسل، لكن أبى علينا الذين يحتجون بهذا إلّا بمسألة أخرى عظيمة جداً وسحبوا الحكم عليها وهي حكم أهل الفترة، وهذه المسألة الثانية المهمة جداً "حكم أهل الفترة".

الفترة معناها: فتور الوحي، يعني مدة لم يأتِ فيها الرسل، لم تأتِ الحجة، لم تبلّغ حجة على الناس، هذا معنى أهل الفترة. أهل الفترة أيعذبون أم لا؟ تخيلوا معي؛ رجل الله مسح على ظهر

آدم فأخرجه فأشهده أنه ربه فوافق على ذلك وأقر على ذلك: أنت ربنا سمعاً وطاعة، والله جلَّ وعلا جبله وقلبه يميل إلى الذل والخضوع لله والإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه. هذا رجل فيه الميثاقين ولم يأته رسول، عفى عليه الزمان ومر عليه الدهور والزمن والأعوام ولم يأتِه رسول يذكره بهذين الميثاقين، فمات قبل أن يسمع ببعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- أو ببعثة عيسى -عليه السلام- أو ببعثة موسى -عليه السلام-. الميت هذا بالميثاقين عنده ما حكمه؟ هذه هي المسألة التي هي حكم هذه الفترة.

الذين يقولون بأن ميثاق الذر حجة، قالوا هو في النار، قالوا كل أهل الفترة في النار؛ وهذا كما قلت الذي رشحه النووي من المحققين الشافعية ورجحه القرافي من المحققين المالكية، وكفى بهما علماء لا يزيدهم شرفاً أن نتكلم عنهم، احتجوا على ذلك بأثر وبنظر من الكتاب ومن السنة:

أمّا من الكتاب قالوا: قد قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) [النساء:48]؛ من عبد صنماً أو وثناً فقد أشرك بالله، جاءه رسول أم لم يأته رسول هو ينزل تحت الآية. فالاستدلال هنا في الآية بالعموم، بعموم أن الله لا يغفر أن يُشرك به سواء جاءه الرسول أو لم يأتِه الرسول، وهذا يسمى مشركاً فهو ينزل تحت الآية لأن الآية لم تتعرض مجيء رسول أم لا. وأيضاً قالوا: قال الله تعالى: (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ) [المائدة:72]؛ عموم الآية تثبت أن الذي يشرك حرّم الله عليه الجنة سواء جاءه الرسول أو لم يأتِه الرسول، لأن الله مسح على ظهر آدم وأقره بالربوبية. أيضاً استدلوا بقول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا) [آل عمران:10]؛ قال: (الَّذِينَ كَفَرُوا) وهو كافر لأنه يعبد وثناً أو صنماً. وأيضاً استدلوا بقول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [البقرة:161]؛ قال: وهذا كان كافراً ومات كافراً لأنه يعبد الصنم مع الله جلَّ في علاه. هذه الآيات العمومات كلها تدلنا على أن أهل الفترة الذين عبدوا الأصنام أو الأوثان من الكفار، هم في نار جهنم.

من السنة؛ قالوا في صحيح مسلم: (النبي -صلى الله عليه وسلم- جاءه عبد الله بن حذافة يقول له: يا رسول الله أين أبي؟ فقال له: أبوك في النار)، كانت شديدة وكبيرة عليه فاغتم واهتم بذلك واستدار ليسير، فناداه النبي يلطف قلبه، قال: (تعال، أبي وأبوك في النار)، وفي رواية أخرى قال: (إن أبي وأباك في النار)، وهذا تقرير تصريح في صحيح مسلم. فالحديث صريح كالشمس يقول: (إن أبي وأباك في النار)، وجه الدلالة من هنا أبو ما أتاه رسول، فيكون مسماه وصفه من أهل الفترة، وهو من أهل النار، لِمَ؟ (إن أبي وأباك في النار). الحديث الثاني أيضاً في صحيح مسلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي)، فذهب فزار قبرها فبكى وبكى القوم من حوله بأبي هو وأمي، ما هو وجه الدلالة عند القوم من هذا الحديث؟ ليس لمؤمن أن يستغفر لمشرك، (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ) [التوبة:113]، فمنع النبي -صلى الله عليه وسلم- من الاستغفار لأمه، فقالوا: منعه لأنها كانت مشركة، وكانت من

أهل الفترة ما أتاها رسول. ويستدلون أيضاً بقول الله تعالى: (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) [السجدة:3]، قالوا هذا قطعاً، إذاً هم من أهل الفترة وحكم الله لهم انهم من أهل النار، هذه الأدلة التي استدلوا بها من الأثر.

واستدلوا من النظر؛ قالوا: عقاب النار لمن أشرك بالله، فكان الشرك علة لحكم وهو الخلود في النار، والحكم يدور مع علته حيث دارت وجوداً وعدماً، وجد الشرك لا بد أن يكون النار. فقالوا: الشرك علة للحكم، وجد الشرك فلا بد أن يكون هناك النار مع وجود العمومات. قالوا هذه أدلتنا، وقتالنا معكم ضاري لأن هذا من الأثر ومن النظر.

الجماهير من أهل العلم يرون أن أهل الفترة الذين عندهم ميثاق الذر وميثاق الفطرة، هؤلاء ليسوا من أهل النار واستدلوا على ذلك أيضاً من أثر ونظر، قالوا كما أتيتم من الأثر نأتي من الأثر. قالوا أما الأدلة من الأثر فمن كتاب الله جلَّ في علاه، كلها من كتاب الله؛ هؤلاء لم يأتيهم الرسول فلا بد أن يدخلوا في قول الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) فهم غير معذبين. وأيضاً قول الله تعالى: (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) يعني غافلون عن الذكر، هذا من الأثر.

ومن النظر الذي يثبت أن أهل الفترة ليسوا من أهل النار؛ قالوا: لو قلنا بأن أهل الفترة سيدخلون النار ستكون لهم الحجة على الله، والله قطع لأي إنسان يكون له حجة. كيف تكون لهم الحجة؟ قالوا: ألم تسمعوا قول الله تعالى بغير ما آية أنه: (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) [طه:134]، فعندهم الحجة، وهم يقولون لله: حجتنا ما أتانا من رسول. فقالوا: إذا قلتم أنهم من أهل النار ولم يأتيهم رسول كانت لهم الحجة على الله جلَّ في علاه، والله قد بيّن في غير ما آية أنه قطع الحجة عن البشر بإرسال الرسل.

فهذه الأقوال لجماهير أهل العلم وللذين يخالفون في أهل الفترة.

الراجح في ذلك التفصيل؛ وهو أن أهل الفترة الذين لم تأتيهم حجة من رسول أو من رسالته، فهؤلاء لا هم من أهل النار ولا هم من أهل الجنة، بل يمتحنون يوم القيامة، هذا صنف سنفصّل القول فيه، وهذا الذي بفضل الله يجعلنا نرد على كل الأحاديث التي أتوا بها. وصنفٌ آخر هم من أهل الفترة، أهل فتور الوحي، لم يأتهم وحي ولم يأتهم رسول لكن أتتهم رسالة رسول. في مكة فيهم من هم أهل فترة لم يأتيهم رسول ولا رسالة، وفيهم من هم أهل فترة ما أتاهم الرسول لكن أتتهم رسالة. قول الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)، ما معناها؟ لا بد من رسول يأتي، فنحن الآن من أهل الفترة، فالمعنى رسولاً بذاته أو رسالته وأن تبلغ الحجة. فنحن نقول هنا: أهل الفترة فيهم من بلغتهم الحجة وإن لم يأتيهم رسول بذاته، ومنهم من لم يأتهم الرسول ولم تبلغهم حجة، هذا التفصيل سيريحنا جداً عندما نرجّح.

فنقول أهل الفترة الذين بلغتهم الحجة هم من أهل النار، وهؤلاء الذين يشملهم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أبي وأبوك في النار)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (استأذنته أن

استغفر لأمي فلم يأذن لي)، فهؤلاء بلغتهم الحجة وإن لم يأتيهم رسول. وبهذا نفهم قول الله تعالى: (مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) يعني بذاته، لكن بلغتهم الحجة. فقام قائم قال: أنت تدعي، اتقِ الله ربك أين الحجة التي بلغت؟ وكيف تبلغ أهل قريش الذين كانوا يعبدون الأصنام هذه الحجة؟ قلت الحجة إن شاء الله من وجهين:

- أمّا الوجه الأول من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-، كيف ذلك؟ أولاً قطع النبي بأن أباه في النار، وهو الذي تلى علينا قول الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا).

- الثاني هو قول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما دخل فاتحاً مكة بأبي هو وأمي، يطأطأ رأسه متواضعاً لربه، فوجد التصاوير في الكعبة لإبراهيم عليه السلام يستقسم بالأزلام، فلمّا نظر ذلك قال: (كذبوا والله، لقد علموا) وهنا الحجة، (لقد علموا) أي أهل قريش، (لقد علموا أن إبراهيم ما استقسم قط)، عندهم حجة من أن إبراهيم على التوحيد. دخل النبي فوجد صورة يستقسم بالأزلام، والاستقسام بالأزلام أدناه شرك أصغ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كذبوا والله) كذبوا على إبراهيم، (قد علموا) وهنا الشاهد؛ يعني عندهم علم، جاءتهم الحجة، ويعلم النبي أن حجة إبراهيم أتتهم، (قد علموا أنه ما استقسم بالأزلام قط).

- والدليل الثالث؛ ورقة بن نوفل قد آمن بشريعة عيسى -عليه السلام-، كانت الشرائع يأخذ من شاء شريعة من شاء، لكن يبقى على الأصل وهو توحيد الله الخالص، فهذه فيها دلالة أن الحجة قد بلغت أباه وبلغت أمه فأبوا إلّا الشرك، والله له حكم في ذلك سبحانه جلَّ جلاله.

فإذاً نقول إن الذين بلغتهم الحجة هم من أهل النار، والذين لم تبلغهم الحجة؟ هناك أناس ما بلغتهم الحجة، بل في عصرنا هذا أناس لم تبلغهم الحجة، بلغهم إسلام مشوّه، فهؤلاء أيضاً من أهل الفترة، ما حكمهم؟ الصحيح الراجح حكمهم أنهم يمتحنون يوم القيامة في أرض المحشر على عرصات يوم القيامة يبتلون، يأتي الله جل في علاه يأتي بهم ويقول ادخلوا النار، والله يخرج علمه السابق فيهم؛ فمن كان سعيداً فانه سيسمع ويطيع ويلقي بنفسه في النار فيجدها برداً وسلاماً، ومن كان عاصياً شقياً مكتوب في اللوح المحفوظ على ذلك فإن الله سيخرج علمه فيه فيأبى على الله أن يدخل النار.

والحديث في ذلك صحيح كالشمس؛ أحمد أخرجه في مسنده عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أربع لهم الحجة على الله يوم القيامة: أصم وأحمق وهرم وأهل فترة). (فأمّا الأصم فيقول: ربي أتاني رسولك)، أصدق جاء الرسول وجاء النذير لكن كأنه لم يكن موجوداً لأنه بوجود الرسول لم تبلغ الحجة، (يقول: أتاني رسولك فلم أسمع شيئاً)، فلو الحجة عند الله لأن الرسالة لم تبلغه مع وجود الرسول بذاته. (وأمّا الأحمق فيقول: ربي أتاني رسولك، ولكن كان الصبيان يحذفوني بالبعر)، وجاء الثالث وهو الهرم (فقال: ربي أتاني رسولك وكنت لا أعقل عنه شيئاً)، هذا يسمع ويرى لكن كان خرف كبير السن ما كان يفهم شيء، (ولا كنت أفقه شيئاً). فهنا يبين لك رحمة الله بالعباد، أن المسألة ليست بذات الرسول، المسألة ببلوغ الحجة بل وفهم الحجة، هذه أيضاً تقوي لنا أننا نقول لا بد للإنسان أن يجعل بينه وبين التكفير ساتراً، لأن الحجة ليس فقط أن تبلغ الحجة المرء بل لا بد أن يفهمها مثله. فيقول الهرم: ما فقهت عنه شيئاً، فيكون له

الحجة عند الله. ويأتي الرابع وهنا الفارق بين الثلاثة وهذا، الثلاثة يقرون بمجيء الرسول بذاته لكن الرسالة والحجة لم تأتيهم، يأتي الرابع من أهل الفترة ويقول: (ربي لم يأتني رسول)، لا جاءت رسالة ولا جاء رسول، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فيكون لهم الحجة على الله يوم القيامة، فيأمرهم الله بالنزول إلى نار جهنم)، فمن كان سعيداً نزل فيها فكانت برداً وسلاماً عليه، ومن كان شقياً في بطن أمه -والعياذ بالله- فإنه يأبى على الله هذا التكليف فيكون من أهل النار، فيبقى فيها طويلاً، بل خالداً مخلداً فيها، وهذا هو الراجح الصحيح.

أختم هذا الدرس بإيراد على هذا الحديث؛ اشتد علينا من قال بالقول الأول، قالوا: انتظروا أنتم ترجحون ونترك لكم الساحة هكذا بدون منازعة، لا بد أن نخرج علم من عندكم؛ أولاً هذه الأحاديث لا نقف عندها، فيها إيرادات كثيرة. قلنا هاتوا الإيرادات؛ هذه الإيرادات أوردها ابن عبد البر قال:

- أولاً هذه الأحاديث ضعيفة، هذا أول إيراد يورد على هذا الحديث الذي فصل لنا في النزاع.

- والإيراد الثاني هذا تكليف بما لا يطاق، كيف يأمر الله ويكلف عبداً أن يلقي بنفسه في النار؟! هذا تكليف بما لا يطاق، وهذا يخالف قواعد الشريعة الكلية، الله جلَّ وعلا يقول: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة:286]، وهذا فوق وسعهم.

- الإيراد الثالث قالوا: فإن استطعتم المرور من الإيرادين الأوليين فإننا عندنا إيراد لا تستطيعون الرد عليه. قلنا ما هو؟ قالوا: أنتم ونحن متفقون على أن الآخرة دار جزاء وليست دار تكليف، وأنتم تقولون هو مكلف في دار الآخرة، خالفتم الإجماع بأن الآخرة دار جزاء أصبحت دار تكليف بقولكم.

أولاً؛ أمّا الإيراد الأول فهو أوهن من بيت العنكبوت، نقركم قد جاء هذا الحديث من طرق كثيرة منها ما هو ضعيف ومنها ما هو حسن ومنها ما هو صحيح، والضعيف ينجبر بالحسن والصحيح، فكلها درجة الصحة يحتج به، فهو بالغ درجة الاحتجاج، ومن عنده أدنى نسبة من عقل يعلم من علم الحديث شيئاً لا يستطيع أن يقف أمام هذا الحديث ويضعّفه، والإسناد بيننا وبينه، فالحديث صحيح ليس فيه ثمة شيء.

الإيراد الثاني قالوا: هذا تكليف بما لا يطاق، والله جلَّ وعلا يقول: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا). الرد الأول؛ أقول الآية فيها الرد، إن ربنا عندنا مصدّق سبحانه جلَّ في علاه، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، إذا قال الله لا يكلف إلّا بالوتر فإن دخول النار بالوتر. قالوا: نعم فهمنا عنكم ذلك وسمعنا وأطعنا، لكن في قلوبنا من كلامكم شيء، ممكن أن نقول نعم الله صدق في ذلك، لكن هذا التكليف مغاير. نقول لهم أن عندنا الأدلة التي تبيّن أن هذا التكليف يطاق، إن الله بني البشر في الدنيا بمثل هذا ولم يعترض أحد ولم يقل أحد إن هذا لا يطاق؛ إن الله جلَّ في علاه على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- أخبرنا بأن الدجال الذي هو أكبر فتنة سيأتي بجنة ويأتي بنار، فالنبي يكلف البشر أن من وقف أمام الدجال وقال بأن هناك ثمة جنة ونار، والدجال يقول على لسان نفسه: إن كفرت

به أنه يزجه في النار. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فليدخل أحدكم النار)، فقد كلفه بأن يدخل النار، فإذا دخلها وجدها برداً وسلاماً. ونحن نقول بهذا، إذا دخلها في الآخرة وجدها برداً وسلاماً.

أيضاً قد كلف الله بني إسرائيل توبة لهم، وهذا أشد وأقوى من أن يزج بنفسه في النار، لأن المحصلة الموت لكن هذا موت بسكين والثاني موت بدخول النار، فقد كلفهم أيضاً بما يطاق وقد تابوا إلى الله جلَّ وعلا وقتّلوا أنفسهم، وهذا دلالة على أنه يطاق. التكليف في الدنيا يكون أشد وأقوى لأن هذا غيب، لكن الغيب أصبح شهادة وقدرة الله أمامهم، يعني في كل شيء المفروض يكون الأمر اسهل وأيسر عليهم.

لمّا سلموا لنا في الإيرادين، قالوا: عندنا الإيراد الثالث؛ الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا تكليف، وأنتم الآن خالفتم الإجماع، فقلتم الآخرة دار تكليف وسيكلّف الله الأربعة ينزلون في نار جهنم. أقول نحن نوافقهم، والآخرة دار جزاء وليست دار تكليف، والناس على عرصات القيامة في مقدمات الآخرة. فنحن نوافقكم؛ عندما يدخل أهل الجنة الجنة هذه آخرة، عندما يدخل أهل النار النار هذه آخرة، لكن عرصات يوم القيامة وأرض المحشر هذه مقدمات الآخرة وفيها التكاليف، لأن الله جلَّ وعلا عندما يكشف عن ساقه يكون التكليف فيخرّون سجداً، والسجود عمل لأنه في مقدمات الآخرة وليس في الآخرة. فيكون الإيراد هذا إيراد ضعيف جداً، هو قوي عند أول وهلة، عندما تمحّص النظر تراه من الضعف بمكان. ونحن نوافق بأن الآخرة دار جزاء وليست دار تكليف، لكن الآخرة معناها أن يدخل أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار، ففي عرفات يوم القيامة يمكن أن يكلف المرء، وبعد ذلك يمتحن الله جلَّ في علاه الذين هم من أهل الفترة؛ إن كانوا من أهل الجنة كما كتب الله في اللوح المحفوظ فهم من أهل الجنة، وإلّا فهم من أهل النار والعياذ بالله، وينتهي حديث إلى ذلك.

الفوائد المستنبطة:

١- صفة الكلام لله جلَّ في علاه؛ إن من صفات الله الكلام، من أين نأخذها؟ (يقول الله)، فإذاً القول من الله، وقول الله جلَّ في علاه يكون بصوت وبحرف، فقد تكلم الله. وهذه الصفة صفة فعلية، لأنه يتكلم وقتما شاء ولا يتكلم وقتما شاء يعني ضابطها بالمشيئة، فأنت لا تقول بأن الله تكلم من الأزل: (يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) [طه:11-12]، لا، ما قال: (يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) حتى جاء موسى عند الشجرة. وما كان الله من الأزل يقول: (قد طلبت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم)، لا، سيقول ذلك متى؟ يوم القيامة عندما يكلمه كفاحاً ليس بينه وبينه ترجمان.

٢- (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله)؛ أنا أرى أن هذه الفائدة أبعد ما تكون عن الحديث، من أين هذه الفائدة؟ أين الشاهد؟ قال: (أهون)، فهذه الدلالة على التوحيد أيسر ما يكون.

٣- الرد على الجبرية؛ قال: (فأبيت)، من الذي أبى؟ فجعل له إرادة. لكن الجبرية يقولون: ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال إياك أن تبتل بالماء، ما له إرادة. ولذلك قال قائلهم عندما قرأ قول

الله تعالى: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، قال: لو كنت مكانه لأجبت وأقول إرادتك يا رب. أعوذ بالله، كأن الشيطان مطيع لربه بذلك، الإرادة كونية يعني، ما في إرادة العبد، وهو يقول الآن هذه رد على الجبرية من أن له إرادة.

٤- إن النار دركات، يتفاوت أصحابهم بجرمهم. من أين هذه الفائدة؟ (أهون)؛ إذاً هناك هين وهناك أهون، وهذه دلالة على الدركات أصعب وأعظم كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل عن عمه: ما فعلت له؟ فإنه كان ينصرك وكان يدفع عنك؟ قال: (هو بدعائي، هو في ضحضاح من النار، يغلي به دماغه، يحسب أنه أشد الناس عذاباً، وهو أهون الناس عذاباً).

٥- هوان الدنيا على الله؛ من أين الفائدة؟ (أرأيت لك مثل هذه الدنيا ملأت ذهباً أكنت مفتدياً به؟)، دلالة أنها في الآخرة لا تساوي شيء، قال: (نعم). وأيضاً إن افتدى بها لا تساوي شيئاً، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلّا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله عنا خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس السابع والعشرون:

- باب ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال

- باب ذكر القلم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل، كتاب فيه ميزان الأسماء والصفات والإيمان والقدر وكل ما يجري من أمور الاعتقاد، ببسط جليل ونسق عجيب لهذا المؤلف العظيم ابن أبي عاصم، بلغنا إلى الباب ثلاثة وعشرين.

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم:

وعن أبي أمامة قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلّا أوتوا الجدال، ثم قرأ: (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا) [الزخرف:58]). هذا الباب ينبه فيه المصنف على أمر خطير جليل، وهو الأمر الذي سيأتي، وهو الكلام على القدر، إذ القدر دحض مزلة؛ فإن الإنسان إذا أعمل عقله في القدر دخل في الجدال وصعب عليه الأمر، بل وسقط صريعاً.

باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم:

عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق تعالى القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء). وهي رواية "أولَ

ما خلق الله القلم"، رواية أخرى: (أولُ ما خلق الله القلم)، ففيها في الضم والفتح. ما الفرق بين الجملتين؟ هذه ميزان عظيم جداً يفصل لنا في النزاع في مسألة أول ما خلق، جملتان:

- (أولُ ما خلق الله القلم)؛ مبتدأ وخبر، فهذا إثبات بأن أولية الخلق للقلم.

- والثانية (أولَ ما خلق الله) ظرف، يعني عندما خلق القلم أمره أن اكتب، وهذه لا تدل على أولية الخلق.

عن الوليد بن عبادة عن أبيه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له: اكتب، قال: وما أكتب يا رب؟ قال: اكتب القدر، قال: وكتب ما هو كائن).

عن عطاء بن أبي رباح قال: سألت الوليد بن عبادة كيف كانت وصية أبيك حين حضرته الوفاة؟ قال: أي بني، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق الله تعالى القلم فقال: اكتب، قال: وما أكتب يا رب؟ قال: اكتب القدر، قال: فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وبما هو كائن إلى الأبد).

عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق الله تعالى القلم فقال: اكتب، فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد).

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق الله تعالى القلم، فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين، قال: فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول، من بر أو فجور، رطب أو يابس، فأحصاه عنده في الذكر. فقال: اقرأوا إن شئتم (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [الجاثية:29]، فهل تكون النسخة إلّا من شيء قد فرغ منه).

عن الوليد بن عبادة عن أبيه أنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول شيء خلق الله تعالى القلم وقال: اجرِ، فجرى تلك الساعة بما هو كائن).

عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أول شيء خلق الله تعالى القلم، فأمره فكتب كل شيء).

يذكر هنا القدر، وعندنا في هذا الباب العظيم "باب القضاء والقدر"؛ القدر هو التقدير، والقضاء هو ما أوجده الله في خلقه أو الذي يبرأه الله في خلقه. فالعلماء بيّنوا أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ يعني إذا اجتمع القدر والقضاء في الذكر افترقا في المعنى، فكان القدر هو التقدير، الكتابة "العلم السابق"، وكان القضاء هو ما يقضيه الله بين العباد من إحياء وإماتة ورزق ومطر وغير ذلك من أفعال الله تعالى في عباده. وإذا افترقا اجتمعا في المعنى، فإذا ذكر القدر دخل تحته معنى القضاء، وإذا ذكر القضاء ولم يذكر القدر دخل تحته معنى القدر.

بيّنا مقدمة كان لا بد على طالب العلم أن يتفهمها جيداً لأبواب القدر المغلقة، التي لا يستطيع أحد أن يفتحها إلّا بفهم هذه المقدمة، وقلنا القدر سر من أسرار الغيوب وأن الله امتحن عباده في الأيمان بالغيب، قال: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [البقرة:3]. وأخفاه الله وطواه عن كل خلقه، سر من أسرار الله جلَّ في علاه، هو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، لا يعلمه ملك مقرب أو نبي مرسل؛ قال الله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، وقال الله تعالى: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) [الأحزاب:38]، (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) [القمر:52-53]، مكتوب كما سنبيّن. وبيّنا بأن الله جلَّ في علاه قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، وقلنا للقدر أربع مراتب: علم فكتابة فإرادة فخلق، هذه المراتب الأربع لا بد للإنسان أن يتفهمها ويتقنها حتى يستقيم له الإيمان بالقدر، وسنفصّل القول في هذه المراتب ونتكلم على المرتبة الثانية التي ذكرها هذا الحديث بالتفصيل إن شاء الله.

الإيمان بالقدر؛ لا يستقيم إيمان عبد ولا يستوي عند ربه مسلماً مؤمناً إلّا بالإيمان بالقدر لأنه من علم الغيوب كما بيّنا، وامتحن الله إيمان العبد الإيمان بالغيب. وأيضاً في الحديث العظيم "حديث جبريل -عليه السلام-" عندما جاء يعلم الناس أمر دينهم، سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان فأجابه بأخص ما يكون للإيمان بأركان الإيمان، وذكر من أركان الإيمان قال: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره). وقلنا المفهوم أنه إن لم يؤمن بالقدر خيره وشره ليس بمؤمن، ويفسر لك حديث مسلم أنه قال: (فإن مت على غير ذلك دخلت النار)، إنك لن تجد طعم الإيمان أو لن تذق طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

المراتب الأربع قد سبق وتكلمنا عن مرتبة العلم، اليوم المصنف يأتينا بهذا الذي الحديث يبيّن لنا المرتبة الثانية وهي مرتبة الكتابة.

- الكتابة الأولى: علم الله كل شيء، كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وكتب الله كل شيء في اللوح المحفوظ، والكتابة أجمع عليها أهل الإسلام وأجمع عليها المجتهدون من الصحابة وأيضاً التابعين، الإجماع يستند إلى الكتاب وإلى السنة.

أمّا الكتاب الذي يثبت لنا الكتابة السابقة على الخلق؛ قال الله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء:105]، وهذه بشرى لأهل الإسلام لأنه اتفق المحققون من أهل التفسير أن هذه الآية المعني بها أهل الإسلام، خاصة برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني يرثها عبادي الصالحون من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-. لكن أقول هذه الآية تثبت أن الكتابة سبقت الخلق، أين الدلالة؟ (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ)، كأن سائلاً يقف ويقول: متى كتب في الزبور؟ أولاً الزبور هو الكتاب الذي نزل على داوود، والمحققون من أهل التفسير قالوا: المقصود هنا ليس خاصة زبور داود، بل كل كتاب نزل إلى

رسول مرسل لقومه، القرآن وأيضاً التوراة والإنجيل ينزل تحت المسمّى العام "الزبور"، ففي كل كتاب أنزله الله على نبي من الأنبياء كتب فيه أن النصرة لعباده الصالحين. فهنا يقول: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ) يعني من بعدما كتبنا في الذكر، فأيهما أسبق؟ الذي كتب بالذكر، والذي كتب بالذكر هو اللوح المحفوظ. فهذه آية صريحة جداً تثبت لنا أن الذي كتب في الزبور مطابق منسوخ مستنسخ من الذي كتب في الذكر، والذي كتب في الذكر هو اللوح المحفوظ.

أيضاً من الآيات التي تثبت أن الله كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق، قول الله تعالى: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)، يعني كتبناهم، (مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) [الأنعام:38]، ما فرطنا في الكتاب الذي عندنا والذي كتبنا فيه كل شيء من شيء. ما من جناحٍ يطير، ما من دابةٍ تسير، ما من طائرٍ يقع أو يطير أو يحلّق إلّا كتبناه في اللوح المحفوظ. وأيضاً قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) [يس:12]، والإمام المبين يقصد به الذكر، يقصد به الكتاب المحفوظ، يقصد به هو اللوح المحفوظ. أيضاً قال الله تعالى: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) صحف الملائكة كما سنبيّن، (وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد:39] أي اللوح المحفوظ. هذه آيات تثبت لنا أن الله جلَّ وعلا كتب كل شيء، كل ما هو كائن في هذه الدنيا إلى يوم الساعة، إلى دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، كتب الله كل ذلك لوح المحفوظ قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة كما سنبيّن في الأحاديث المفسرة لذلك.

أمّا من السنة فحديث الباب وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أولَ ما خلق الله القلم) أو (أولُ ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟) هذه من أعاجيب ربنا جلَّ في علاه كما سنبيّن على قدرة الله في هذا، (قال: وما أكتب؟ قال: اكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة). فكتب كل شيء؛ صغير وكبير، دقيق وجليل، كتب الحياة، كتب الممات، كتب الرزق، كتب الرفعة، كتب العزة، كتب الذلة، كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

وأيضاً في حديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه كتابان: كتاب بيمينه وكتاب بيده الأخرى ثم قال: هؤلاء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم ختم على ذلك) انتهى هذا الكتاب مكتوب أولاً، (ختم على ذلك فلا زيادة ولا نقصان)، وهذا الذي يثبت لنا أن هذا يصح أن نستدل به على أن هذه كتابة قبل خلق كل شيء، للعلة التي قال فيها: (فلا زيادة ولا نقصان)، وهذا الوصف لا يكون إلّا اللوح المحفوظ، لأن أي كتابة أخرى يمكن أن تتبدل وأن تتغير. أين وجه الدلالة؟ (جف القلم بما أنت لاق)، وكما في حديث ابن عباس -رضي الله وأرضاه-: (جف القلم وطويت الصحف)، انتهى الموضوع. (لا زيادة ولا نقصان)، وهذا الحديث أيضاً دلالة على أنه لا يزاد في اللوح المحفوظ ولا ينقص، هو ثابت، والذي يمحو الله جلَّ وعلا أو يثبت في الصحف الأخرى.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: (خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه كتابان، كتاب بيمينه وكتاب بيده الأخرى، قال: هؤلاء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم ختم على ذلك لا زيادة ولا نقصان، وهذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء أباءهم وختم على ذلك لا زيادة ولا نقصان، قد فرغ ربكم من العباد)، انتهى الأمر. ولذلك (قالوا: يا رسول الله أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قالوا: ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا (أو قال: سددوا وقاربوا) فكلٌ ميسر لما خلق له).

وهذه أدلة صريحة في أن الله جلَّ وعلا قد كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق.

بالتفصيل متى كتب الله هذه الكتابة؟ عندنا في حديث في صحيح مسلم عن أنس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)، هذا تحديد تفصيلي يبيّن أن هذه الكتابة الأزلية التي في اللوح المحفوظ، جعلنا الله وإياكم ممن كتبوا من السعداء قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. والذي يعضد ذلك حديث الصحيحين "احتجاج آدم مع موسى"؛ عندما (قال له موسى: أنت آدم، خلقك الله بيديه ونفخ فيك من روحه، عصيت ربك وأكلت من الشجرة وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم -عليه السلام-: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه تلومني على ذنب قد كتب الله عليّ) وهنا احتجاج بالقدر، (قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فأقره موسى)، وبيّن أن الحجة كانت لآدم قال: (فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)، وهذا إقرار من النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما قاله آدم أن هذا الذنب كتبه الله عليه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

فهذه الكتابة أزلية لا تبديل فيها ولا زيادة ولا نقصان، وقد فرغ ربكم من العباد، كتب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وكتب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم. وهذه الكتابة كما قلت كتابة أزلية تتبعها كتابات أخرى وهي: الكتابة العمرية والكتابة العامية والكتابة اليومية، فتصبح أربع كتابات.

▪ الكتابة الثانية: وهي الكتابة العمرية، كتابة في بطن الأم عندما يكون المرء جنيناً في بطن أمه يأتي الملك ويكتب كل شيء عنه، يكتب رزقه ويكتب أجله يكون شقياً أم سعيداً، كل ذلك يكتب، والأحاديث كثيرة في ذلك. عمرو بن واثلة بن الأسقع كان يجلس بجانب ابن مسعود، فقال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره. وكان إبراهيم بن أدهم عندما يدقون عليه الباب ويقولون: أيها الزاهد اخرج لنا، وكان من المتعبدين من الحفاظ الزهاد العباد، كان يبكي بكاءً شديداً عندما يسمعهم وهم ينادونه فيقول: يا ويل أمي، ما أدري أكتبت 8عند ربي سعيداً في بطن أمي أم شقياً؟

والذي يدل على ذلك أحاديث كثيرة منها: أولاً حديث ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- في الصحيحين: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك،

ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يأتي الملك فيؤمر بنفخ الروح)، وبعد ذلك قص ابن مسعود الحديث فقال: (يكتب الرزق والأجل والشقاء والسعادة، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ثم لا يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيختم له به، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ثم لا يكون بينه وبينها إلّا ذراع حتى يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيختم له بعمل أهل الجنة).

أيضاً من هذه الأحاديث "حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه وأرضاه-"، قال: (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، أمر الله الملك فيخلق لحماً وعظماً وجسماً) أو (يصورها لحماً وعظماً وجسماً) ... إلى آخر الحديث. أنا أريد من هذا الحديث قول حذيفة: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا مرت بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، أُمِرَ الملك بتخليق هذه النطفة). هذا الحديث عجيب لا بد له من وقفة، والذي يدعوني أن أقف له هو حديث ابن مسعود قال: (أربعون، ثم يؤمر الملك بالتخليق)، وهنا قال: (إذا مر بها ثنتان وأربعون)؛ أثم تعارض بين الحديثين أم لا؟

والله هذا الحديث من أعظم الاحاديث، أن كثير من الأخوة كانوا يعارضونني جداً عندما تتصل المرأة تقول: ما مر إلّا شهر واحد على الجنين وما أستطيع أن احتمل زوجي سيطلقني، لا بد أن أجهض هل يجوز أم ما يجوز؟ فكثير من المفتيين تسمع ويقول: ما مر؟ تقول: مرة شهر، فيقول لها: ما يهمك إنه سقط لا إثم عليك فيه ولا شيء عليك.

حديث ابن مسعود كان فيه التفصيل أكثر وبيّن قال: يمر على نطفة ثم علقة ثم مضغة، أمّا حديث حذيفة أجملها قال: إذا مرة ثنتان وأربعون على النطفة، وما ذكر إذا مر عليه وهو مضغة، ولا مر عليه وهو علقة، مر عليه بعد ما استوى نطفة، ما بيّن. فأصبح حديث حذيفة مجمل وحديث ابن مسعود مفصّل، ولا تعارض. إذا أبى علينا من يسمع ذلك، قلنا له هذا الحديث حج لنا في أمر آخر؛ من أوجه الإجابات أن نقول إذا أبيتم علينا الجمع الأول، نقول الجمع الثاني: إذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء لا بد أن نأخذ به، وثبت عنه أمر آخر لا بد أن نأخذ به. وثبت عنه أن الملك يأتي بعد ثنتين وأربعين ليلة فيكتب ويبدأ التخليق، وهذه في الصحف الأولى، وبعدما يكتب ويكتمل الأمر إلى المئة وعشرين يأتي الملك (أو غير هذا الملك) مرة ثانية فيكتب ويسأل ذكر أم أنثى، ويبدأ بنفخ الروح لأن نفخ الروح لا يكون إلّا بعد مئة وعشرين، وتكون هذه الزيادة مع الملك الثاني.

إذاً الأولى ليس فيها النفخ وفيها التخليق، والثانية يكون فيها النفخ مع الزيادة، وتكون كتابتين. وهذا الحديث من أمتن الأدلة على أنه لا يجوز إسقاط الجنين بعد شهر، أو بعد ثنتين وأربعين حتى تكون الدقة في الكلام، لأنه ابتدأ أن يكون مخلّقاً. ولذلك الأئمة الأربعة: الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، والإمام أحمد والإمام الشافعي يرون أن المرأة إذا أسقطت ونزل الجنين فيه شيء من التخليق عليها الدية وفي الجنين الغرة، لماذا؟ لأنه بدأ التخليق، أصبح في حيز بني

آدم فتحاسب على ذلك. إذاً هذا الحديث من أمتن الأحاديث ومن أقوى الأحاديث التي تثبت الكتابة العمرية أو الكتابة في بطن الأم.

وأيضاً حديث أنس -رضي الله عنه وأرضاه-: (وَكَّلَ الله بالرحم ملكًا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه)، ويكتب كل ذلك في صحف الملائكة.

هذه الكتابة العمرية أيضاً ليست لها ميزة الكتابة الأولية الأزلية، ففيها التبديل وفيها التغيير. والذي يدلك على ذلك عندما طاف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- بالبيت يبكي ويقول: اللهم إن كنت قد كتبتني (يعني في بطن أمي، في صحف الملائكة) شقياً فامحها واكتبني عندك سعيداً، كما يكون في اللوح المحفوظ (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد:39]. هذه الكتابة الثانية وهي الكتابة العمرية، فيها ثلاثة أحاديث: من أهم الأحاديث حديث ابن مسعود، وحديث أنس الذي فيه (فإذا أراد الله أن يقضي خلقها) كما سنبيّن أن هذه من قدرة الله في صفات الله في الفوائد المستنبطة، والحديث الثالث هو حديث حذيفة. حديث ابن مسعود وهذا مفصّل، وحديث حذيفة وحديث أنس من المجملات، ويبيّن لك أيضاً أن السنة تفسّر السنة.

▪ الكتابة الثالثة: وهي الكتابة العامية، في كل عام تحدث كتابة وتنشأ كتابة، وهذه الكتابة تستنسخ من اللوح المحفوظ ويمكن أن يكون فيها ثمة تغيير. هذه الكتابة منشأها كما اتفق المفسرون وأهل التحقيق في التفسير في قول الله تعالى: (حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) [الدخان:1-4]؛ قال مجاهد وقال سعيد بن جبير وقال سيدهم وهو ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه-: يُكتب الحياة والممات والرزق والمطر، يُكتب كل شيء في هذا العام؛ يكتب الله أسماء الحجيج، يكتب الله الأموات، يكتب الله الأحياء، يكتب الله الذي يولد، يكتب الله الرزق، يكتب الله الشقاوة، يكتب الله السعادة والرفعة وغير ذلك في هذا العام. هذه الكتابة كتابة عامية، ملائكة يختصون بكتب يكتبون ما يحدث في هذا العام، وهذا في ليلة واحدة وهي ليلة القدر.

▪ الكتابة الرابعة: وهي الكتابة اليومية؛ فعندنا الكتابات: كتابة أزلية، كتابة عمرية، كتابة عامية، الكتابة الأخيرة وهي كتابة يومية.

ملائكة تختص معها الصحف تكتب، وهذه دلالة على أنه جلَّ وعلا أحصى كل شيء، ما ترك عبدا إلّا وله ملائكة يكتبون حتى النفس حتى الضحكات حتى النوم حتى القيام، كل شيء لا بد الله على العبد. فهذه الكتابة اليومية أيضاً مستنبطة ومستقاة من قول الله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) [الرحمن:29]، قال ابن مسعود وأقرّه المفسرون: لا يستغني عبد عنه بحال من الأحوال،

يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعز أقواماً ويذل آخرين، يرزق هذا ويمنع هذا ويحيي هذا، كل ذلك كتابة في يوم واحد، فهذه الكتابة أيضاً كتابة يومية.

فاجتمع لنا في هذا الحديث العظيم أن من مراتب القدر: مراتب الكتابة، وأن تؤمن بأن الله جلّ وعلا كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، هذه الكتابات أربع مراتب: الكتابة الأولى في المحفوظ لا تبديل فيها ولا تغيير، الكتابة الثانية كتابة عمرية يمكن أن يمحى منها شيء وممكن أن يثبت فيها الأشياء، الكتابة الثالثة كتابة عامية وهذه في ليلة القدر، والرابعة الكتابة اليومية وهي مستقاة من قول الله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ).

السؤال هنا: إذا كتب الله كل شيء في المحفوظ وكتب كل شيء أيضاً في الكتابة العمرية، هل كتب الله جلَّ في علاه هذا القرآن في اللوح المحفوظ؟ هل كتب الله جل وعلا أفعاله؟ هل كتب الله جلَّ في علاه أحواله مع عباده أم لا؟ القرآن المجيد مكتوب في اللوح المحفوظ، وما هو اللوح المحفوظ؟ الذكر "أم الكتاب". إذاً القرآن مكتوب، والقرآن من أفعال الله، فالله كتب أفعاله في اللوح المحفوظ أيضاً ثم نزل منجّماً على الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع الأحداث. وقد كتب الله في اللوح المحفوظ أنه سيقول لموسى: (يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) [طه:11-12]، وكتب الله في اللوح المحفوظ أنه سيفرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد أن يُعرج به إلى السماء السابعة خمسين صلاة، كتب الله ذلك في اللوح المحفوظ.

فإذاً اللوح المحفوظ مكتوب فيه القرآن قبل أن ينزل، مكتوب فيه صفات الله، مكتوب فيه أسماء الله أو أفعال الله جلَّ في علاه. أو تقول مكتوب فيه أفعال الله، وهذا هو الصحيح، ونقف عند هذا حتى لا ندخل في الإشكالات. نقول أفعال الله نعم كتبها الله جلَّ في علاه، كما أن القرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ. هذا إجمالاً ما يقال في هذا الحديث العظيم الذي يبيّن المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي مرتبة الكتابة.

الفوائد المستنبطة:

١- ذكر صفات الله جلَّ في علاه؛ هنا ذكر الله صفات ثلاث، قال: (إن أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة):

◆ الصفة الأولى "الخلق"، الدليل: (أول ما خلق)، والخلق صفة من صفات الله الخالق، ثبتت لله بالكتاب والسنة والإجماع؛ (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) [الزمر:62]، (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) [السجدة:4]. ومن السنة حديث ابن مسعود الذي ذكر سابقاً، وأيضاً حديث ظاهر جداً في الرد على المعتزلة: (إن الله خلق كل صانعٍ وصنعته)، وأجمع أهل السنة والجماعة عليها. وهذه الصفة فعلية ضابطها المشيئة والدليل من الأثر في حديث أنس: (فإذا أراد الله أن يقضي خلقها)، إذا أراد أن يخلق خلق وإن لم يرد لم يخلق، دلالة واضحة على أنها تتعلق بالإرادة وتتعلق بالمشيئة.

◆ الصفة الثانية "صفة الكلام لله جلَّ في علاه"؛ وهي صفة ثبوتية أثبتها الله لنفسه وأثبت له رسوله وبالإجماع؛ من الكتاب: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:164]، وفي السنة: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي) هذا نداء للعباد والنداء لا يكون إلّا بصوت وحرف، والصوت والحرف هذا معنى الكلام أو معنى القول. حديث أصرح: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، أين وجه الدلالة على هذا الحديث أن الله يتكلم؟

- الوجه الأول وهو الأقوى: لو كانت الكلمات مخلوقة لكان شركاً لأنه استعاذ بغير الله جلَّ في علاه، فإذاً هذه الكلمات صفة من صفات الله جلَّ في علاه.

- والوجه الثاني: هي مضافة لله، وإضافة المعاني هي إضافة الصفة للموصوف.

◆ الصفة الثالثة "صفة القدرة"، تؤخذ من إنطاق الله للقلم لأن القلم من الجمادات لا يتكلم، لكن الله جلَّ وعلا من قدرته جعله يتكلم، ومن قدرته جعله يكتب، فهذه دلالة باهرة على ربوبية الله جلَّ في علاه ودلالة عظيمة على قدرة الله جلَّ في علاه.

٢- دلالة لمن يقول إن (كلتا يدي ربي يمين)، وهذه تنتزع من قوله في حديث: (وكلتا يديه يمين). وهذا خلاف بين العلماء من أهل السنة والجماعة هل يوصف الله بالشمال أم لا؟ كثير من أهل السنة يرون أن الله يوصف بالشمال، واستدلوا على ذلك بحديث عمر بن الخطاب: (إن الله لمّا مسح ظهر بيمينه فأخرج ذريته من أهل الجنة، قال: هؤلاء للجنة ولا أبالي. ومسح ظهره بيده الشمال وقال: هؤلاء للنار ولا أبالي)، هذه فيها ذكر الشمال ودلالة واضحة جداً. أيضاً في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: (خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه كتابان: كتاب بيمينه وكتاب بشماله، ثم قال)، يعني الله أخذ بشماله أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك.

وأمّا المحققون من أهل السنة والجماعة يرون أن الله لا يوصف بالشمال، وحديث مسلم الذي ذكر فيه أنه أخذ بيمينه وبشماله، قالوا هذه لفظة شاذة لأن البخاري أخرجه ومسلم أخرجه قال: (بيمينه وبيده الأخرى)، ولم يقل ويصرِّح بالشمال. وهذا الأقرب للصواب لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كلتا يدي ربي يمين)، ولا تؤول اليمين بالبركة دون إثبات الأصل؛ (كلتا يد ربي يمين) هذا إثبات الأصل، وأيضاً من اليمن وهو البركة، وهذا الراجح الصحيح، وهذا حديث يدل لنا على ذلك، قال: (وكلتا يد ربي يمين).

٣- الاختلاف بين العلماء أي الخلق كان أولاً: العرش أم القلم؟ ابن القيم يرى أن العرش هو الذي خُلِق أولاً ورجّحه، وأدلة ابن القيم صراحةً أدلة قاطعة قوية جداً، لكن المصنف يميل لغير ذلك وانا مع المصنف بإذن الله.

فيقول ابن القيم: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أنس في الصحيحين: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على

الماء)، فهذه دلالة على سبق وجود العرش وحدثت الكتابة، ووجه الدلالة عنده التي تقوي ذلك رواية: (أولُ ما خلق الله القلم قال له: اكتب)، أو (أولَ ما خلق الله القلم قال له: اكتب)، فهذه فيها دلالة المقارنة بين الخلق وبين الأمر بالكتابة، يعني بعدما خلق الله القلم أمره: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فإذاً قلت: (أولُ ما خلق) أو (أولَ ما خلق)، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وكان عرشه على الماء)، أولاً سابق على ذلك الماء. هذا كلام القيم، وهذا الذي رجّحه جماهير العلماء، وطبعاً علماء الحجاز المتأخرين من السعدي وغيره وحتى الشيخ محمد خليل الهراس، كل هؤلاء رجحوا ما رجحه ابن القيم تباعاً له.

لكن نحن بفضل الله ندور مع الأثر حيث دار وندور مع شرعنا حيث دار، والعلم قال الله قال رسوله. قد ثبت عن نبينا في مسند أحمد أنه قال: (أول شيء خلقه الله القلم)، وهذا فاصل في النزاع؛ لولا هذا الحديث لقلنا بمسألة اللغة إن "أولَ" الظرفية أو "أولُ" المبتدأ والخبر، أنهانا الله جلَّ في علاه بالحقيقة الشرعية لتقدم على الحقيقة اللغوية. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أول شيء خلقه الله القلم)، وهذا حديث صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بسند كالشمس فلا محيد عنه، ويكون أول المخلوقات هو القلم لا العرش.

٤- أهمية العلم؛ أليس هذا هو الحق؟ والله الأمة لن تستقيم إلّا بالعلم، نحن ما أخذنا حديث ولا آية إلّا وكلها علم وتشير إلى العلم. نستنبط أهمية العلم من هذا الحديث بأن القلم إشارة العلم وطلب العلم، أما قال الله تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) [العلق:3-4]، فهذه دلالة عظيمة جداً بإشارة من القلم لأهمية العلم بالتنصيص في الآية (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)، فهي إشارة للعلم. وأهمية العلم طبعاً قد أخذناها كثيراً حتى نموت، كما سئل الإمام أحمد بن حنبل: إلى متى؟ قال: مع المحبرة إلى المقبرة، إلى أن نموت ونحن نطلب العلم ونهيب بالأخوة أن يطلبوا العلم. وقد قال الحافظ ابن حجر معلنها صراحةً يُعرِّف الناس بالعلماء: لا يزال العالم عالماً ما جد في الطلب.

٥- الرد على المعتزلة؛ (أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، والرد على المعتزلة بهذا الحديث الجليل من وجهين:

- الوجه الأول: غلاة المعتزلة الذين هم الجهمية رفضوا العلم، وبالطبع رفضوا الكتابة وقالوا الأمر أنف. ولذلك ابن عمر -رضي وأرضاه- قال: إن ترى أحداً منهم فأخبره أنه لو انفق مثل أُحُد ذهباً ما قُبِل منه عند ربه جلَّ في علاه، لأنه لم يؤمن بالله والقدر خيره وشره. فهم يقولون الأمر أنف، وهنا ليس الأمر أنف، بل (قال له: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، فالأمر قد فرغ منه، (جفت الأقلام وطويت الصحف).

- الوجه الثاني: وهو مدرجة في الأول؛ المعتزلة قالوا إن الله لا يتكلم، وأشكلوا بمقدمة على أهل السنة والجماعة، فقالوا لهم: إذا قلتم بإن الله يتكلم فيستلزمون الكلام وجود المخرج يعني الفم، فإذا قلتم بذلك شبهتم الخالق بالمخلوق. فهنا نقول القلم قد تكلم أين فم القلم؟ فهذا فيه رد

على المعتزلة نقول لهم: تكلم الله بكيفية لا نعلمها، ولا يستلزم الكلام وجود المخرج، فقد تكلم القلم وتكلمت النار وتكلمت الجنة وتكلمت السماء، وتكلم الطعام بالتسبيح أمام صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يستلزم من هذا الكلام المخرج، إذاً فالمقدمة فاسدة فالنتيجة تكون أفسد، ولا تشبيه بين الخالق وبين المخلوق.

٦- التوكل على الله وثبات القلب بالإيمان، من أين تؤخذ هذه؟ إن الله قد كتب كل شيء، فإذا علم العبد أن الرزق بيده والإماتة بيده والإحياء بيده مال قلبه لربه جلَّ في علاه، ذل لربه وخضع لربه وما خضع لأحدٍ سواه. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب)، فعنق التوكل سيكون على الله جلَّ في علاه لأن الأمر قد فرغ وقد كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، وهذا يزيد المرء ثباتاً.

٧- من آداب سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- ألّا نعمل العقل إلّا بعد أن نكمل الإحاطة بكل الروايات، لأن السنة تفسرها السنة. فإذاً نأخذ تفسير السنة أولاً من السنة أي تفسير الحديث يكون من الحديث، ثم تفسير الحديث من أقوال الصحابة، ثم بعد ذلك من اللغة، ولا مدخل للعقل. وهذا يجعلنا نقدّم النقل دائماً على العقل، رداً على المعتزلة.

العلم قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

والذي يدلك على ذلك الأحاديث الأولى التي جاءت مجملة، ثم بعد ذلك الأحاديث الأخرى التي جاءت مفسّرة، وأروع ما يضرب مثلاً لذلك حديث حذيفة أنه قال: (إذا مر على النطفة ثنتان وأربعون ليلة أمر الله الملك) هذه مجملة، ثم أتت مفسرة في حديث ابن مسعود بيّن أنها مراحل وأطوار ثلاثة: الطور الأول أن يكون نطفة، ثم يكون علقة، ثم بعد ذلك يكون مضغة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيراً.

شرح السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثامن والعشرون: باب ثواب من يدعو إلى خير، وعقاب من يدعو إلى شر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

بفضل الله وبمنه وكرمه علينا ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، انتهينا إلى الكلام على القدر وبيّنا أن الله جلَّ في علاه عندما خلق القلم أمره أن يكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

باب ثواب من يدعو إلى خير وعقاب من يدعو إلى شر:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ما من داعٍ يدعو إلى شيءٍ إلّا وقف له يوم القيامة).

وعنه -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه، لم ينتقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص من آثامهم شيئاً).

الحديث الأول فيه الليث بن أبي سليم وهو مشهور أنه ضعيف، أمّا الحديث الثاني فهو صحيح وله شواهد كثيرة. هذا الباب باب عظيم، يبيّن لنا فضل الدعوة إلى الله جلَّ في علاه. هذا الحديث عظيم جداً جليل القدر، لو قال أحد من العلماء: هذا الحديث من أرجى أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأصاب وما أبعد لأن الامة أعمارها قصيرة وأعمالها قليلة، والله جلَّ في علاه

رحمته سابغة على هذه الأمة؛ قد تدارك هذه الأمة في الأعمار القصيرة والأعمال القليلة، جعل أجر العمل الواحد يضاعف إلى عشر ثم إلى سبعين ثم إلى سبعمائة ثم إلى أضعاف كثيرة بفضله ومنه سبحانه جلَّ في علاه. ثم جعل لهم هذا الباب العظيم الذي يلجون منه سريعاً إلى الجنات ألا وهو أن كل إنسان دعا إلى الله جلَّ في علاه سواء بلسان مقاله أو بلسان حاله، فكل امرئ ائتسى به وتأثر بكلامه أو بفعاله، عمل مثل ما عمل، فإنه في ميزانه من غير أن ينقص من أجر الآخر العامل شيئاً.

قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من دعا إلى هدى)؛ فالدعوة إلى الله جلَّ في علاه هي من أفضل الأعمال، وقد قال ابن عيينة: خير الناس الواسطة بين رب الناس وبين الناس، وهذه المنزلة ظاهرة جلية في منزلة الرسل والأنبياء؛ فإن الله اصطفاهم على الناس، (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) [الحج:75] ليجعلهم واسطة بينهم وبين الناس، ومنزلة الأنبياء كما قلنا هي أفضل المنازل على الإطلاق. هذا الحديث ينبثق من قول الله تعالى: (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل:125]، لأنها من مشكاة واحدة، كله واحد. وقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ) [المائدة:67]، هذه هي وظيفتك وهذا هو عملك في هذه الحياة، أشرف الوظائف على الإطلاق. وقول الله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]، وهذا أسلوب من أساليب الدعوة وهو أن تبيّن للناس ما أغلق عليهم من أمور الدين. وأيضاً قول الله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) [فصلت:33].

وأيضاً من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بلغوا عني ولو آية)؛ هذا يستنفر الأمة ويستثير همم الأمة ويستحث الأمة ويستنهض الأمة على هذه الوظيفة، أنه إذا حمل حديثاً واحداً ففهمه فهماً دقيقاً وعمل به وطبقه أن ينشره بين الناس، لأنه بهذا الحديث يؤجر عليه لتعلمه، ثم يؤجر عليه بتطبيقه، ثم بعد ذلك يؤجر عليه بنشره، ثم بعد ذلك الله جلَّ في علاه يجعل كل من يعمل بهذا الحديث في ميزان هذا الرجل. وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نضّر الله امرأ سمع مقالته فوعاها فأداها كما سمعها)، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فليبلّغ الشاهد الغائب)، كل هذا يستحث الأمة على التعلم ونشر دين الله جلَّ في علاه بين الناس والمكافأة والثواب، كل أحد يتأثر بهذا الكلام ويعمل به فهو في ميزان هذا الداعي.

ولذلك قال بعض الحكماء: لعل الداعي الذي يدعو إلى الله جلَّ في علاه ولا يستطيع أن يعمل بهذا الحديث؛ يعني هو يدعو الى الله بحديث معين لا يعمل به، ما استطاع أن يعمل به لكن بينه للناس، فاهتبل الفرصة رجلٌ من الأمة أو كثير من الأمة أخذوا هذا الحديث فطبقوه، كُتِب عند الله جلَّ في علاه أنه قد طبق هذا الحديث بتطبيق من سمعه منه وعمل به. فهذا فوز للذين ينشرون دين الله جلَّ في علاه، الذين تعلو هممهم لحفظ دين الله جلَّ في علاه ثم نشره بين الناس.

(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه)؛ كما قلت هذه وظيفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعلّم أصحابه ورباهم على ذلك أن يحملوا دين الله للتطبيق وللنشر، لا للتطبيق فقط. وأفضل الأمثلة التي تُضرب في ذلك هو فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهو أعظم من دعا إلى هدى وهو أفضل من أرشد الناس إلى خير، صلى الله عليه وسلم، بأبي هو وأمي. منذ أن اكرمه الله جلَّ في علاه بالرسالة، (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) [المدثر:1-4]، (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا) [المزمل:1-2] لِمَ؟ ليستعد إلى نشر دعوة الله جلَّ في علاه؛ فما ترك باباً إلّا طرقه، ولا بيتاً إلا دخله، ولا ندوةً إلّا صاح فيها وخطب فيها. وكان يقول لأهل قريش: (خلّوا بيني وبين الناس، أدعو إلى ربي جلَّ في علاه)، وساوموه بالجاه والسلطان والنساء حتى يترك دعوته، قال: (لو انفردت السالفة ما تركت دعوة ربي جلَّ في علاه).

ثم بعد ذلك ربى أصحابه على ذلك، فهم أصحاب همم كالجبال، وهم الذين فهموا وعرفوا أنهم بالعمل القليل وهو نائم على سريره يأخذ أجور أمة بأسرها؛ فهذا مصعب بن عمير قصير عمره في الالتزام والإسلام، بعدما منّ الله عليه بالإسلام ودخلت بشاشة الإيمان في قلبه، إن النبي -صلى الله عليه وسلم- هيأه تهيئة كاملة لنشر دين الله جلَّ في علاه ولدعوة الله جلَّ في علاه. فارتقى مصعب مرتقى صعباً، ارتقى إلى منزلة عظيمة، كان مبعوثاً من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أهل المدينة، فذهب إلى أهل المدينة، فمن دخل في دين الله أفواجاً من أهل المدينة كله كان في ميزان مصعب، ومصعب عمره في الإسلام قليل، وكل هؤلاء الذين ناصروا النبي -صلى الله عليه وسلم- من المهاجرين والأنصار في ميزان مصعب بن عمير لمّا حباه الله جلَّ في علاه.

هذه المنة وهذا الكرم العظيم، ذهب ينشر دعوة الله، ذهب يدعو إلى الله جلَّ في علاه؛ جلس في المجلس وكان معه أسيد بن حضير، فدخل عليه سعد بن معاذ سيد الأنصار، سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن فرحاً بقدومه، سعد بن معاذ وهو أكرم الأنصار على الله جلَّ في علاه أقسم على الله وأبره؛ قال سعد بن معاذ: اللهم إن كنت قد أبقيت حرباً بين قريش وبين رسولك -صلى الله عليه وسلم- فأبقيني لها، وإلّا فاقبضني، ثم قال: اللهم لا تقبضني حتى تمكني من بني قريظة. فأجاب الله له، وكان قبل موته حكّمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بني قريظة عندما قالوا: لا نرضى إلّا بحكم سعد، فقال: ترضون بي؟ وكان سعد من أدبه بعدما جاء على فرسه قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قوموا إلى سيدكم فأنزلوه)، فقال عمر: إنما السيد الله. نريد الآن حل هذا الإشكال لأن هذا كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم يعارضه عمر بن الخطاب؟ ننتهي من القصة ثم حل الإشكال

فهنا سعد بن معاذ -رضي الله عنه وأرضاه- بفضله وبمكانته العظيمة، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (قوموا إلى سيدكم فأنزلوه)، وسيّده عليهم، فلمّا نزل قال لبني قريظة: أترضون

بحكمي؟ قالوا: اللهم نعم، أنت حليفنا. ثم نظر بأدب إلى المكان الذي فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فلم يطرف بعينه إلى المكان، بأدب أشار بإصبعه قال: وأنتم ترضونه؟ ويقصد بذلك فيكم من يحكم فينا جميعاً، فيكم من يأتيه الوحي من السماء، بأدبٍ جم مع النبي -صلى الله عليه وسلم-. قال: أو ترضون بحكمي؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال: أحكم أن تقتل رجالهم وأن تسبى نساؤهم... إلى آخر ما حكم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قد حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات).

هذا سيد الأنصار الذي له المواقف السامية، الذي له المواقف التي رفعته عند الله جلَّ في علاه واهتز العرش بقدوم سعد بن معاذ، هو في حصيلة مصعب وسبب ذلك دعوة مصعب له؛ لأن سعد بن معاذ جاء إلى أسيد بن حضير والجماعة يجلسون مصعب بن عمير، أراد قتل مصعب، ولمّا اشتد الخطب على مصعب فقال له مصعب منصفاً وكان منصفاً، ولذلك أقول عقلاء أهل الكفر إذا خاطبتهم وخاطبت عقولهم بهذه الدعوة السامية، بهذا الدين الحنيف لا بد أن يخضعوا ويسلموا إلّا إذا كانت الدنيا قد ملئت قلوبهم. فهذا سعد بن معاذ كان منصفاً، قال له مصعب: اجلس فاستمع لنا فإن أعجبك القول فهذا الذي نرجوه، وإلّا فلك ما تريد. فلمّا سمع سعد قال: اللهم أن هذا هو القول، فجلس فسمع القرآن الذي يُتلى من قبل مصعب بن عمير، فدخلت بشاشة الإيمان قلب سعد بن معاذ، فذهب إلى قومه فأسلموا عن بكرة أبيهم.

انظروا أسلموا عن بكرة أبيهم بدعوة سعد، بلسان الحال سيدهم قد أسلم وهم أتباعه فأسلموا، كلهم في ميزان سعد بن معاذ، وسعد معاذ برمته ومن في حصيلته كله في حصيلة مصعب لنشره دعوة الدين.

أسيد بن حضير الذي كان له المكانة السامية عند النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان يقول: ما هي بأول بركتكم يا آل بكر، كان في ميزان مصعب بن عمير. فأهل المدينة بأسرهم مع المدة الوجيزة التي أسلم فيها مصعب كانوا في بوتقة مصعب بن عمير، وإن مات مصعب بن عمير وقتل في غزوة أحد، ما زال حتى الآن مصعب بن عمير يُكتب له الحسنات إلى يومنا هذا كما سنبيّن. فهذا فضل الدعوة، وهذا أروع الأمثلة التي تضرب للهمم العالية بنشر دعوة الله جلّ في علاه.

الإجابة على الإشكال السابق؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (قوموا إلى سيدكم فأنزلوه)، قال عمر بن الخطاب: إنما السيد الله. وهذا حق، بل ورد في حديث صريح صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما دخل فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، قال: (إنما السيد الله)؟

السيادة قسمان: سيادة مطلقة وسيادة مفرّغة من الإطلاق (سيادة مقيدة)؛ فالسيادة المطلقة لا تكون إلّا لله جلَّ في علاه، سيادة الربوبية والإلهية، سيادة الأسماء والصفات، سيادة الربوبية على التخصيص الصحيح هي لله جلَّ في علاه، السؤدد الكامل لا يكون إلّا لله في علاه. والسيادة

المقيدة لا بأس أن تصف بها أحداً تعلم أنه لا يعجب بذلك، ولا يرتقي بها إلى السيادة التي هي سيادة الربوبية. لمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قوموا إلى سيدكم)، انتبه عمر فخشي أن يفهموا من ذلك السيادة المطلقة، فقال: يا رسول الله، إنما السيد الله، فأقره النبي -صلى الله عليه وسلم-. نعم السيادة المطلقة لله جلَّ في علاه، لكن هو سيد القوم، فالصحيح الراجح الذي يفسر لنا ذلك كله هو حديث لمّا قالوا له: أنت سيدنا وابن سيدنا، فأقر النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قولوا بقولكم أو ببعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان) فترتقوا بالسيادة من السيادة المقيدة إلى سيادة الله جلَّ في علاه، التي هي سيادة الربوبية وهي السؤدد الكامل لله جلَّ في علاه، هذا الجمع بينهم.

والمثل الثاني الأروع الذي يضرب في ذلك معاذ بن جبل -رضي الله وأرضاه- جلس يتعلم العلم ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه: (معاذ بن جبل يأتي يوم القيامة بينه وبين العلماء رمية حجر، يتقدم برتوة وهو ابن الثلاثين) يعني مات على الثلاثين. معاذ بن جبل كان واسع الخطوة في العلم، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يصفه ويقول: (وأعلم الأمة بالحلال والحرام هو معاذ). فلمّا تربى على مائدة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ابتدأت المهمة وابتدأت الوظيفة، أن يكون موظفاً عند ربه جلَّ في علا بكمال هذه الوظيفة، ينشر دعوة الله جلَّ في علاه. فبعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيراً لينشر دعوة الله جلَّ في علاه، لينشر دعوة التوحيد وهي أهم ما تكون من دعوة كما سنبين، فقال النبي: (فليكن أول ما تدعوهم إليه "لا اله إلّا الله"). هذه دعوة معاذ -رضي الله عنه وأرضاه- بعدما تربى وبعدما تعلم، عمل بقول الله تعالى: (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل:125].

أيضاً ربعي بن عامر حتى في جهاده قام يبيّن أنه يقول نحن ندافع بالسنان على اللسان، ندافع عن دعوة ربنا جلَّ في علاه، ما ابتعثنا الله إلّا لندعو إلى جلَّ في علاه؛ عندما دخل على رستم فقال: من أنتم؟ وماذا تريدون؟ قال: نحن عباد الله، ابتعثنا الله لنخرج عباد الله من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، بالدعوة إلى الله جلَّ في علاه وحفظ الدعوة بالجهاد بعد ذلك. فالغرض المقصود أن أهم الوظائف التي لا بد أن يتوظف الإنسان وينشغل بها أن يكون وقفاً لله جلَّ في علاه؛ في متجره، في مدرسته، في عمله، في وزارته أن يدعو إلى الله جلَّ في علاه في كل مكان يشغله بالعمل. هذه هي الأولى التي نقول فيها من دعا إلى الله.

قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر)؛ الهدى أنواع وشعب ودرجات تتفاوت كثيراً، وأفضل الهدى هو التوحيد أو العلم، من دعا إلى علم. فإذا قلت: من دعا إلى هدى، فنزعت "هدى" وكتبت "علم" كان صحيحاً، فالدعوة إلى العلم أو الدعوة إلى الهدى بالعلم هو أفضل أنواع الدعوة إلى الله جلَّ في علاه.

الدعوة إلى الله بالتوحيد بأصول الدين وفروع الدين، بتوحيد الله جلَّ في علاه بتوحيد الإلهية وتوحيد الربوبية، توحيد الأسماء والصفات، بالنبوات، بالغيبيات، بالكلام في العقائد والغيبيات.

كل هذه دعوة الى الله جلَّ في علاه، بل هي أفضل الدعوة التي يمكن أن يدعو بها إنسان، لأن الإنسان ما خلق إلّا لتوحيد الله جلَّ في علاه، وما خلق الله الكون بأسره إلّا ليتعبّد لله جلَّ في علاه، كما قال ابن القيم: خلق الله الكون كله لك وخلقك أنت لأهم وظيفة في هذه الحياة هو أن توحّد ربك جلَّ في علاه، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56].

فأفضل ما تقدمه دعوة إلى هدى هي دعوة إلى توحيد الله جلَّ في علاه، وبيان ما ينافيه من الشرك، ثم بعد ذلك الدعوة إلى فروع الدين من فقه وأصول فقه وحديث ولغة وأدب، وكل ذلك أيضاً من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من دعا إلى هدى)، لأن "هدى" نكرة، ونكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ يعني: كل الهدى، يعني يصح أن تقول "من دعا إلى كل هدى"، "كل هدى" كما قلت يأتي عليه أصول الدين وأيضاً فروع الدين.

وأدنى هذه الدعوات إماطة الأذى، وإماطة الأذى من أقل ما تدعو به إلى الله جلَّ في علاه، يكون لك الأجر وأجر من عمل بما دعوته؛ إمّا بلسان المقال كأن تقول: (الإيمان سبعون شعبة (أو بضعٌ وستون شعبة)، أعلاها "لا إله إلّا الله"، وأدناها إماطة الأذى)، فإن قلت فقد دعوت. أو بلسان الحال، إن وجدت الأذى على الطريق فأزلت هذا الأذى فإنك بذلك تكون قد دعوت إلى الله جلَّ وعلا بلسان حالك، وأنت إذا بشّرت الناس بما فعل رجل أنه أخذ شوكاً كان في طريق الناس فنحاه جانباً فشكر الله له فأدخله الجنة وغفر له ذنبه، فاستنهضت الأمة على أن تفعل ذلك، فقد دعوت إلى هدى ولك مثل أجر من يفعل بذلك.

ثم قال: (ومن دعا إلى ضلالة)؛ وما قيل في الهدى يقال في الضلالة، لكن الضلالة أيضاً أنواع: أعلاها وأرقاها وأعظمها ظلماً هو الشرك بالله جلَّ في علاه، أن ينشر الشرك بين الناس. أنت مأمور أن تنشر التوحيد، فترى هذا ينشر الشركيات بين الناس، سواء الشرك الأكبر أو الشرك الأصغر؛ كعبادة القبور وغيرها من العبادات التي تصرف لغير الله جلَّ في علاه، كدعاء غير الله، كسؤال غير الله، كالنذر لغير الله، كالذبح لغير الله جلَّ في علاه. فمن نشر هذه الشركيات ينزل تحت طائلة هذا الحديث، والتهديد الأكيد من النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من دعا إلى ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينتقص من وزره شيئاً).

وأيضاً إذا قلنا أعلاها هو الشرك، فأدناها عدم إماطة الأذى، فهذه الأعلى وهذه الأدنى، وهذا الذي يمكن أن يقال إجمالاً في هذا الحديث.

الفوائد المستنبطة:

١- رحمة الله جلَّ في علاه بهذه الأمة؛ إن رحمة الله جلَّ في علاه نالت هذه الأمة عن باقي الأمم أو عن سابقيها من أمه اليهود وأمة نصارى، الله جلَّ وعلا غفور رحيم، ورحمة الله مئة رحمة كما وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنزل الله واحدة يتراحم بها الناس في هذه الدنيا، وابقى الباقي في الآخرة ليرحم بها عباده المؤمنين).

رحمة الله بالأمة كثيرة جداً، من هذه الرحمات التي لا بد أن نتعرض لها أن الله جلَّ في علاه أنزل سابغ رحمته على العباد بعمل واحد يمكن للإنسان أن يصل إلى الدرجات العلا، إلى الفردوس الأعلى بعمل واحد، أن يتقن عملاً يتعبد به علماً ثم عملاً ثم ينشره بين الناس، ما يجلس مجلس إلّا وينشر هذا العمل الذي تعلمه. بهذا العمل يمكن الأمة باسرها أن تعمل به، فيرتقي إلى الفردوس الأعلى بعمل واحد، لا بالأعمال كلها، وهذه من رحمات الله بهذه الأمة. ومما يدل على ذلك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لو يعلم الكافر من رحمة الله ما قنط من رحمة الله أبداً وما يأس من رحمة الله أبداً).

٢- أهمية العلم وفضله؛ من أين هذا؟ كل حديث نرى فيه أهمية العلم، سبحان الله من هذه الاحاديث نستنبط استنباطاً عليها أهمية العلم وفضله، هل من هدى أعظم من العلم؟ العلم هو الهدى، والهدى هو العلم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كما في سنن أبي داود عن أبي كبشة الأنماري بسند صحيح قال: (الدنيا لأربعة نفر؛ رجل أتاه الله العلم وأتاه المال فهو يسلّط على هلكته في الحق، فيصل به رحمه ويتصدق به على الفقير) يستخدم العلم في النفقة، فقال: (فهذا بأرقى المنازل) هذا أعلى المنازل بعد منزلة النبوة والرسالة، ثم قال: (ورجل أتاه الله العلم ولم يؤتيه المال) انظروا إلى الهدى هو العلم هنا، هذا الرجل اهتدى بهذا العلم وعمل به ونشره وزاد فوق ذلك أنه (قال: لو أتاني الله مالاً مثل ما أتى فلان لفعلت فيه مثل ما فعل فلان، فهما في الأجر سواء)، مع أنه لم ينفق درهماً واحداً لكن بعلمه ودعوته إلى الهدى ودعوة نفسه للهدى وارتقاء نفسه إلى الدرجات العلا وصل إليها.

٣- الصحابة أعلى الناس وأرقاهم درجات، وهذا عجيب، لأنه سيشكل علينا إشكال أعجب منه ألا وهو حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-: تكلم عن قوم يأتون ذلك يعملون أعمالاً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أجر العامل منهم بخمسين منكم)، فقام الصحابة فقالوا: يا رسول الله بخمسين منهم؟ كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أدركه الوهم بأبي هو وأمي مثلاً لم يقل بخمسين منهم، فقال: (بخمسين منكم)، فراجعوه: يا رسول الله بخمسين منهم؟! الصاحب كفى برؤية النبي -صلى الله عليه وسلم- فضلاً يرتقي به. فقال: (لا، بل بخمسين منكم)، كما قال: (أمتي الخير فيها كالمطر لا يدرى في أوله أم في آخره).

فهنا إشكال: نقول الآن من هذا الحديث نستنبط أن الصحابة أرقى الناس منزلة عند الله جلَّ في علاه وأرقى الناس يوم القيامة منزلة، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أجر العامل منهم بخمسين منكم)؟! إذا كانوا يقيمون الليل ركعة فمن قام ركعة فبخمسين منهم؟! أليس هذا هو مفاد الحديث؟! يعني أنت ممكن تعمل بخمسين عمل من عمل أبي بكر -رضي الله عنه-؟

- التأويل الأول: (من دعا إلى هدى)؛ من دعانا إلى هذا الهدى؟ جاءنا الدين غضاً طرياً على أكتاف من؟ على أكتاف الصحابة، فكل صحابي بأمة بعده، لأن كل صحابي قد جاء الدين عن طريقه، فكل من يعمل بالخير فهو فيه صحيفته، هذا التأويل الأول وهو أرجح التأويلات.

- التأويل الثاني: أننا نوافق على أن (أجر العامل منهم بخمسين منكم) هذا الأجر، ثم يبقى المضاعفة؛ والزيادة هنا لسبعمائة أو الأضعاف كثيرة، وهنا الأتقى والأنقى قلباً هو الذي يرتقي في المضاعفة.

فتكون المضاعفة الأكثر للصحابة، يكونوا حازوا بالفضل كله، فالمضاعفة لهم لأنهم الأنقى والأتقى والأعلم والأورع والأحسن خلقاً، أبر الناس قلوباً وأعمق الناس علماً وأحسن الناس صحابةً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، اختارهم الله صحبة لنبيه، عدّلهم من فوق سبع سماوات: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [الفتح:26]، هذه واحدة. والثانية؛ كل هذه الحسنات في ميزانهم لأن الدين ما وصل إلّا عن طريقهم. ولذا من الطريقين نقول الصحابة بالاتفاق والإجماع هم أرقى الناس منزلة عند الله، ولن تجد أحداً يفوق أحداً من الصحابة بحال من الأحوال، بل أقل الصحابة قدراً (بالنسبة للصحابة) أفضل من أمة بعده. قال الله تعالى: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ) [البقرة:137]، وحتى عن المنافقين قال الله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) [النساء:146] جعلهم تبعاً للمؤمنين، فهم أرقى منزلة عند الله جلَّ في علاه على الإطلاق.

٤- منزلة النبي -صلى الله عليه وسلم-، من أين هذه الفائدة؟ عظم منزلة النبي عند في هداية الأمم بأسرها، أمة الدعوة يدخل فيها المسلمون واليهود والنصارى والمجوس والجن والإنس، بُعِثَ النبي -صلى الله عليه وسلم- للثقلين، فهو أعظم الناس منزلة. (من دعا إلى هدى) هذا أعظم منزلة، وأعظم الناس دعوة إلى الهدى هو رسول -صلى الله عليه وسلم-. الحديث النص في هذه المسألة؛ (موسى -عليه السلام- عندما رأى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد مر عليه ثم فاقه في الدرجات فبكى، فقالوا: ما يبكيك؟ قال: إن الله جلَّ وعلا يبعث نبياً بعدي من يتبعه أكثر ممن يتبعني). ويؤكد ذلك أن (النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما ظهر له في الأفق سواد قال: هذه أمتي؟ قالوا: لا، هذه أمة موسى -عليه السلام-، فظهر سواداً أعظم سد الأفق، فقالوا: هذه أمتك. وليست أمتك فقط، ثم قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ومعهم سبعون ألف يدخلون الجنة بغير حساب، ويحثو الله ثلاث حثيات)، كما قال عمر بن الخطاب وكبّر على ذلك.

ولذلك الحديث الذي فيه ضعف ويستأنس به للشواهد الكثيرة؛ قال: (تناكحوا تكاثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة)، لأن أكثر الناس تبعاً هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فهو أعظم الناس منزلة ويشهد له ذلك أنه أعظم الناس تبعاً.

٥- من صيغ العموم "من" لأنها من الأسماء المبهمة، قال: (من دعا إلى هدى)؛ امرأة، رجل، طفل، كبير، شيخوخة، كل أحد دعا إلى هدى له هذا الأجر ومن عمل بهذا الأجر، حتى ولو كان طفلا يُكتب في أجره وإن كان غير مكلف، لو علّم واحداً من الناس الوضوء كُتِب له هذا المتوضئ وصلاته إلى أن يموت هذا الرجل كله في ميزان هذا الطفل من غير أن ينقص من أجره من شيء.

وأيضاً التنكير في سياق يفيد العموم لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من دعا إلى هدى)؛ "هذى" نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم، كل هدى سواء من أصول الدين أو من فروع الدين، سواء بآية، سواء بأحاديث، سواء بشعر، سواء بلغة، سواء بكل ما يخدم هذا الدين فإن له في ذلك الأجر.

٦- قدرة الله وعزته، من أين أتت هذه؟ انظروا إلى حديثين اثنين: حديث إسناده ضعيف معناه صحيح، وحديث صحيح وإن كان غريباً. وجه الشاهد وجه الدلالة: قدرة الله وعزة الله في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من داعٍ يدعو إلى شيءٍ إلّا وقف له يوم القيامة)؛ التأويل تأويلان:

- التأويل الأول: أن يقف من اهتدى به فيحج له عند ربه جلَّ في علاه، يقول: ربي هذا دعاني وهؤلاء كلهم من دعوته لي.

- التأويل الثاني وهذا هو الأهم: هو أن العمل نفسه فيقف أمام الله جلَّ في علاه يحتج لهذا العامل، بلسان وشفتين، الله قادر على ذلك. والدليل على أن الميت في قبره يأتيه عمله الصالح على صورة رجل صالح بريح طيبة، والفاسد يأتيه بالعكس برجل -والعياذ بالله- على صورة غثة أو صورة قبيحة جداً وأيضاً بريح نتنة قبيحة. وكذلك القرآن يأتي يحج ويتكلم عن العبد، وأيضاً سورة البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غيايتان أو غمامتان، يحجّان عمن قرأ، وأيضاً يأخذ القرآن برأس المرء شفيعاً له يدخله الجنة، يوم الجمعة يأتي كالعروس. الموت يكون على هيئة كبش ويذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، خلود فلا موت بعده. يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقال: يا أهل النار خلود ولا موت بعده. "لا إله إلّا الله" لكن لا تتمثل، هي على أنها توزن، فهذه فيها دلالة قوية جداً على قدرة الله جلَّ في علاه أنه يحيل الأشياء بقدرته لأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، جزاكم الله عنا خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس التاسع والعشرون: باب ما يطبع المؤمن عليه

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وبلغنا بفضل الله وبكرمه علينا إلى باب ما يطبع المؤمن عليه.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ما يطبع المؤمن عليه:

عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يطبع المؤمن على كل شيء إلّا الخيانة والكذب)

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يطبع المؤمن على كل شيء إلّا الخيانة والكذب).

وعن معاذ بن جبل وعوف بن مالك -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (نعوذ بالله من طمعٍ يهدي إلى طبع).

إن نبينا -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله رحمة للعالمين، وبعثه الله جلَّ في علاه ليتمم مكارم الأخلاق، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يبث الأخلاقيات الحسنة بين الناس، وجاء ليمحو الأخلاقيات السيئة. وقد بيّن فضل حسن الخلق وفضل أصحاب الأخلاق الحسنة، حيث إن الله

جلَّ في علاه مدحه بأرقى الصفات وأعلى السمات، مدحه بحسن الخلق فقال جلَّ من قائل: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سئلت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- عن خلقه قالت: (كان خلقه القرآن). وكان كما في الصحيح أنس يصف لنا خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ما مست يدي حريراً ولا ديباجاً ألين من يد رسول الله)، هنا شاهد حسن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا والله ما قال لي لشيء أنا فعلته لِمَ فعلته، ولا لشيء لم أفعله لِمَ لم تفعله) هذا كأنه لا يعاوده ولا يعاتبه على أشياء وقع فيها، يعوّل ذلك على القدر من حسن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأيضاً تصف عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- تقول: (ما مست يده الشريفة امرأة قط، لا ضارباً ولا حتى لامساً للنساء ولو كانت في البيعة) من حسن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

لا غرو ولا عجب، فإنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وقد بيّن رسولنا الكريم بأن أعلى الدرجات وأسمى المكانات عند رب الأرض والسماوات بحسن الخلق؛ حيث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلة يوم القيامة مساويكم أخلاقاً)، وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث عائشة في المسند: (أن المرء يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في السنن بسند صحيح: (وأنا زعيم ببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)، هذه دلالة على أن حسن الخلق لها مكانة عند الله جلَّ في علاه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- جمع التقوى بأسرها في حسن الخلق.

ومساوئ الخلق هي التي تنزل بالمرء إلى الدركات ولا يرتقي الدرجات عند رب العباد، ومساوئ الخلق لا بد للمرء المسلم المؤمن التقي أن يبعد عنها وأن ينأى عنها قدر استطاعته، ولو وقع فيها مرة أو مرتين فعليه بالتوبة، بل ولو زاد فعليه بالتوبة كما أرشدنا إلى ذلك وقال: (فإن أسأت فأحسن)، وفي بعض الروايات قال: (فإن أسأت سراً فسراً، وإن أسأت علناً فعلناً)؛ يعني إن أسأت في السر فضع مكان هذه السيئة حسنة في السر، وإن كانت في الجهر فضع مكانها في الجهر. فسوء الخلق يبعد المرء عن الله جلَّ في علاه، ويبعده منزلة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ومن أسوأ الأخلاقيات التي لابد للمرء أن ينأى عنها هي: الكذب والخيانة، نعوذ بالله من الخيانة. فإن الكذب مهلكة كما أن الصدق منجاة، وإن الخيانة من أعظم الذنوب، كفى بأن الخيانة تكون نقصاً بأن الله جلَّ وعلا لم يصف نفسه بها حتى ولو في جهة المقابلة. فإن المكر والخداع والاستهزاء وصف الله بهذه الصفات نفسه عند المقابلة، وعند المقابلة تكون على الكمال، لكن عند الإطلاق تكون نقصاً، قد قال الله تعالى: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال:30]، (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) [النساء:142]، وقال في سورة البقرة: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [البقرة:14-15]، فهذه عن طريق المقابلة. أمّا في الخيانة لأنها نقيصة عظمى ولأنها على الإطلاق من قصف لم يصف الله نفسه بها قال الله تعالى: (وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ)، ما وصف نفسه عن طريق المقابلة، قال: (فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ) [الأنفال:71]، دلالة على عظم هذه السيئة، على هذه النقيصة، على عظم سوء الخيانة.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يطبع المؤمن على أي شيء) من المساوئ، كثير من المساوئ يطبع عليها المرء، بل تكون طبعا له جارياً في أوقاته، (إلّا الخيانة والكذب) فإن الإيمان ينسلخ من الخائن كما نقول استبرأ أو نقول إن دم يوسف بريء منه الذئب. فكما بين الله جلَّ في علاه وبيّن رسوله أن المرء المكلّف ينزع منه الإيمان بسبب خيانته، قال الله يحذر الناس من الخيانة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنفال:27]، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيّناً أنها من علامات النفاق، وهذه لابد لكل امرئ أن يتقي ربه ويجلس ينظر في نفسه هل خان الله ورسوله؟ هل خان الأمانات أم لا؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيناً أن: (آية المنافق ثلاث)، منها (إذا اؤتمن خان). وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً) وذكر منها: (إذا اؤتمن خان).

بل إن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرّح بأن الأمانة تنزع من الخائن والعياذ بالله، سواء كان خائناً لله ورسوله كما سنبيّن أو خائناً لأمانات الناس؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في مسند أحمد: (لا إيمان لمن لا أمانة له)، فمن كان خائناً فلا إيمان له، والمعنى لا إيماناً كاملاً أو بالتأويلات التي سبق وفسرناها. بل جعل الله البركة مع الصدق ونزع البركة مع الخيانة، هكذا في المسند قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر)؛ إذا وجد الله جلَّ في علاه فالبركة كلها فالتوفيق التسديد في الدنيا وفي الآخرة، وإذا نزع الله نفسه فانتهى الأمر.

ما دام المرء المكلّف في تعامله له تعاملان: تعامل مع الرب جلَّ في علاه، وتعامل مع عباد الرب جلَّ في علاه، فالخيانة تكون خيانة مع الله وخيانة مع رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والخيانة أيضاً تكون مع عباد الله والذين يتبعون رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

١- أمّا الخيانة مع الله جلَّ في علاه فالخيانة العظمى، والأعظم أن يخون التوحيد، أن يشرك بالله جلَّ في علاه، هذه أعظم الخيانة أن يخون توحيد الله جلَّ في علاه. إن الله ما خلقه إلّا لهذه المهمة العظيمة، إن الله ما أوجده في هذا الكون وما أوجد هذا الكون كله له وسخره له إلّا لتوحيده، فإن خان هذه الأمانة فهذا أعظم الخيانة، وهذا تستنبطه من قول ابن مسعود لمّا سأل النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أي الذنب أعظم، قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك).

وأقل من ذلك الكبائر في خيانة الله وخيانة دين الله جلَّ في علاه وخيانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ وخيانة دين الله بتقديم أعداء الله على أولياء الله، بمحبة أعداء الله على محبة أولياء الله، بنصرة أعداء الله على أولياء الله جلَّ في علاه، هذه اعظم الخيانة. خيانة دين الله جلَّ له أن تقدم أي دين مهما كان على دين الإسلام الذي ارتضاه الله جلَّ في علاه للبشرية أجمعين، وخيانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخيانة سنته بأن تقدم آراء الفقهاء وأقوال الفقهاء على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن تقدم عقلك على ما قاله الرسول -صلى الله عليه وسلم-، هذه خيانة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فالخيانة الأولى خيانة مع الله ومع رسوله، خيانة لدينه، خيانة لتوحيده، خيانة لشرعه، خيانة لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهذه التي قال فيها الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ) [الأنفال:27]، لا يصح أن تكونوا من المؤمنين وتخونوا الله ورسوله، لا يمكن أن نطلق عليكم مسمّى الإيمان وأنتم ما دمتم على خيانة توحيد الله جلَّ في علاه أو خيانة شرع الله وخيانة سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢- خيانة لعباد الله جلَّ في علاه، وأعظم الخيانة لعباد الله جلَّ في علاه إضلالهم عن دين الله جلَّ في علاه أن تلبّس عليهم الحق بالباطل وتميّع القضايا حتى لا يفرق المؤمن الغر الكريم بين الحق وبين الباطل. هؤلاء الذين يجعجعون كثيراً ويلبّسون الحق بالباطل هم الذين يترجمون قول الله تعالى: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) [الأنعام:121]، فهؤلاء يلبّسون على الحق بالباطل ويمزجون العقل مع النص ليحسب الذي يسمع أن هذا هو الحق وهذا هو الدين فيقف عنده، فهذه خيانة من أعظم الخيانة.

وأيضاً من أعظم الخيانة لعباد الله جلَّ في علاه هو أن يزني المرء بحليلة جاره، أن يخون جاره الذي وصّى النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه، إمّا أن يزني بها صوتاً أو كلاماً أو فعلاً أو تطبيقاً أو ميلاً، فهذه خيانة من أعظم الخيانات كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه لما سئل: (ثم أي الذنب أعظم؟ قال: وأن تزاني بحليلة جارك).

وأيضاً من الخيانات، الخيانات في العمل؛ أن يكون الرجل يعمل أجيراً عند مدير الشركة ترك معه مثلاً ختمه أو ترك مستندات الشركة عنده وهو يلعب فيها كيفما شاء، يختلس المال، يبيع دون أن يقول له أو يرشده إلى ما فيه مصلحة له. ومن باب الخيانات أيضاً إذا استشير لا يكون مؤتمناً، إذا جاءت امرأة تسأله مثلاً سؤالاً معينا تستشيره في قضية إن لم ينصح لها النصح الكامل خائن لهذه الأمانة، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المستشار مؤتمن)، فهذه إن لم يكن ناصحاً أميناً فهو خائن والعياذ بالله. فهذه الخيانة كما قلت من أسوأ الأخلاق التي أبعدنا النبي -صلى الله عليه وسلم- عنها وأبعدنا الشرع عنها.

يبقى أن نقول: يستثنى من هذه المسائل مسألة مهمة؛ إذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يطبع المؤمن على كل خلة) وهذا رواه الطبراني برواة ثقات، حتى نقول بأن هذا الحديث وإن

كان ضعيفاً رواة الطبراني بسند صحيح، قال: (يطبع المؤمن على كل خلة ليس الخيانة والكذب) على عموم الخيانة والكذب. لكن نقول: استثنى العلماء -وهذا الراجح الصحيح- في مسألة أن يكون المرء له الحق عند إنسان لا يستطيع أن يأخذ حقه إلّا بالحيلة أو بالخداع له فله أن يأخذ حقه، وهذه تخرج من عموم (إلّا الخيانة والكذب). الدلالة على ذلك حديث هند -رضي الله عنه وأرضاها- لما جاءت النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني نفقتي ولا نفقة أولادي، فلها الحق أن تأخذ منه، أمرها النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تخادعه وتأخذ منه الحق لأن هذا استجلاب لحقها ولا تستطيع أن تأخذ حقها إلّا بذلك، ولذلك قال لها: (خذي من ماله) دون أن يدري، وهذه إن عدّها بعضهم خيانة، نقول هذه لو كانت خيانة تكون من الخيانة المباحة ولا تسمى خيانة ولا تكون مذمومة. قال: (خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف)؛ يعني ما عرف واشتهر على ما يكفيك وولدك.

وأيضاً حديث الضيافة أن له حق ثلاثة أيام، بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه إن بخس حقه المضيق له إن يأخذها إمّا بالخداع أو بالحيلة؛ وقد فعل ذلك الرقية عندما نزلوا وحلّوا أضيافاً على بعض الناس فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيدهم، فقالوا: هل عندكم من راقي؟ قالوا: والله لا نرقي حتى تضربوا لنا سهماً من الغنم، فضربوا لهم سهماً من الغنم فرقاه الرجل بالفاتحة، فكأنما نشط من عقال. وأخذ المال وأخذ الغنم، فأرادوا أن يقسموا الغنيمة على أنفسهم، قالوا: لا، حتى نأتي رسول الله، كيف نفعل ذلك؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اضربوا لي معكم بسهم). الغرض المقصود أن هؤلاء أخذوا هذا الحق بهذه الحيلة.

وأيضاً الواضح في هذه المسألة هناك أحاديث أخرى تبيّن لنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أباح لمن يحتال على حقه إذا سُلِب منه أو أخِذ منه؛ من هذه الأحاديث حديث هند وحديث الضيافة، وأمّا الثالث فالآية التي تدل على ذلك آية صريحة.

أنت ممكن يعترض عليك بما قلنا الآن: يستثنى من هذه الخيانة رجل له حق وجاء الرجل استأجره وأخذ حقه وهو يرى حقه أن يأخذه بالحيلة، فأنت إذا أخذته بالحيلة جاءك المعترض وقال: اتقِ الله أنت خائن الآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد منعك من ذلك. قلنا: لا هذا مستثنى، (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف). فيقول لك: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك). المسألة مثلاً: أحمد أجير عند المدير محمد، محمد حبس راتب أحمد، وأحمد وقع تحت يده مال بالضبط هذا المال هو مقدار راتبه، ومحمد المدير لا يعرف، هل لأحمد أن يأخذ هذا الراتب أم لا؟ هذه هي المسألة، هل تكون خيانة للأمانة؟ نقول: لا محمد خانه أولاً فحبس عنه راتبه.

الآية هي: (فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) [البقرة:194]؛ فنقول: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك)، هذه ليست بخيانة، هذا رب الكيل بالكيل والصاع الصاع، وقد قال الله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ

بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ)، وهذا ليس فيه ملامة. لا سبيل على من ينتصر لنفسه، لكن السبيل على من يبغى ويطغى ويظلم. فهذه كما قلت مستثناة من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس الخيانة والكذب)، إن صح الحديث.

وبعض الأمور قد عدّها الصحابة الكرام من الخيانة، ولا نستطيع أن نقول من الخيانة لأن هذه الأحاديث على التكرار ليست على انفراد، يعني من خان مرة أو خان مرتين أو خان أحداً ويعني أصابه في دينه أو في مكانته أو في شرفه أو في عرضه، أقول المرة والمرتين لا يحاسب عليه المرء، ولا نقول طُبع على الخيانة، لكن التكرار هو علة أن يطبع المرء على الخيانة. من ذلك الصحابة من ورعهم وشدة تقواهم أنهم كان كل واحد منهم يذم نفسه بالخيانة على مرة واحدة، وقد غفر الله لهم ذلك، إذ المرة أو المرتين في ميزان حسناتهم تغمر، ولا يصح وسم الصحابة بذلك.

لكن نقولها للعبرة وللتقى والورع الذي كان فيه الصحابة؛ هذه الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ) [الأنفال:27]، الواحدي ذكر أن أبا لبابة ذهب إلى بني قريظة وكان أبوه أو أولاده وأهله عندهم، بعدما ذهب إليهم قالوا له: يا أبا لبابة ما رأيك ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأبو لبابة أشار إليهم وقال: لا، قالوا: لِمَ؟ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- خيّرهم ينزلون على حكم سعد؟ قالوا: اللهم نعم. فلمّا سألوا أبا لبابة كأنهم يستشيرونه، والمستشار مؤتمن ولابد أن يرد بأمانة ويبيّن لهم الحق، فبيّن لهم الحق وقال لهم: لا الذبح، هو فعل ذلك تكون يداً من أجل أولاده وأهله كما سنذكر في القصة الثانية. فقال: لا تنزلون على قول سعد فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه. ثم قال: ما إن قرأت هذه الآية إلّا وعلمت أنها نزلت فيّ، والله قد علمت من يومها أني قد خنت الله ورسوله. يا التقى والورع، مع أن الله جلَّ وعلا قد قضى أمراً وكان مفعولاً، وقد نزلوا على حكم سعد، وبفضل الله سبحانه أنهى الله المسلمين من ضرر بني قريظة. لكن الغرض المقصود من التقى والورع أنه وسم نفسه بذلك، فعمل أعمالاً لهذه المصيبة التي وقع فيها.

وأقول أيضاً لا يمكن أن تسم صحابياً بفعل ولا أي أحد من المؤمنين بهذا الحديث إن خان مرة، وهي على التكرار. والحادثة الثانية حادثة حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه وأرضاه-، كان عيناً للمشركين على المؤمنين وهذه تدلك حتى الذي يكون عيناً للظلمة على العدول هو نفس الأمر من الخيانة بمكان، وإن شاء الله سيلقى ربه بهذا الحديث (ليس الخيانة والكذب)، فإن كان مثلاً عيناً للكفرة على المسلمين أو عيناً لأهل الطغيان على العدول الأتقياء أيضاً لا يمكن أن يفر من هذا الحديث. حاطب بن أبي بلتعة بعث برسالة إلى أهل قريش وقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجهّز الجيش لكم تسير إليكم، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أوحي عليه أن حاطب قد بعث بهذه الرسالة، فبعث علي بن أبي طالب والزبير حتى أتيا بالرسالة، فأخذ

النبي -صلى الله عليه وسلم- الرسالة وذهب إلى حاطب بن أبي بلتعة، الجاسوسية لا يمكن أن تغتفر وحتى ولو كان صحابياً.

فأخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- الرسالة فقال: ما هذا يا حاطب؟ فلمّا قرأ عمر قال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. انظروا الخيانة وسمته بالنفاق مع أنه كان بدرياً، ونسأل الله جلَّ وعلا أن يغفر له هذه الزلة، وقد غفر الله له هذه الزلة جزماً بفضل الله سبحانه وتعالى. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، النبي -صلى الله عليه وسلم- لم ينكر عليه أنه وسمه بالفعلة هذه أن يكون منافقاً، لكن قال بعلة أخرى أن النفاق قد نُزع أو رُفع عنه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- فضيلة الوجود في غزوة بدر أن الله جلّ وعلا غفر له كل هذه الزلات حتى ولو كانت هذه الزلة.

الغرض المقصود لو لم يغفر له هذه الزلة، نقول لأنه من أهل بدر أيضاً لا يصح لك أن تقول أنه خان الله ورسوله أو أنه طُبع على الخيانة، لأن مناط الخيانة أو الوسم بالخيانة أو الصفة بالخيانة هو أكثر من مرة، هو تكرار ذلك كما قلنا في الكبيرة وغيرها، والفسق يكون باستقرار لا بمرة ولا بمرتين.

ثم الخلق الثاني الذي حذر منه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس الخيانة والكذب)؛ والكذب مهلكة كما أن الصدق منجاة، وإن الكاذبين عند ربهم جلَّ في علاه على مقت عظيم، قال الله تعالى عن المؤمنين عندما يروا الكاذبين: (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [هود:18]، ووجوههم يوم القيامة كما بيّن الله تأتي مسودة، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل غادر يُرفع له لواء ويقال: هذه غدرة فلان).

إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بيّن للناس فحش الكذب، قال: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي للجنة، ولا يزال المؤمن يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار)، والذي يبيّن لكم أنه على التكرار: (ولا يزال المرء يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً). وقد نزع الله الإيمان عن الكاذب ووسمه بالنفاق، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب)، وأيضاً قال: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً)، قال فيه: (وإذا حدّث كذب)، فإن المؤمن لا يكذب بحال من الأحوال.

إذا قلنا الكذب كله مهلكة والكذب محرّم شرعاً وهو من الكبائر، فإن الكذب كذبان: كذب على الله ورسوله، وكذب على الخلق.

أمّا الكذب على الله فأعظمه كما قلت أن يجعل لله نداً أو يبدّل في دين الله جلَّ في علاه أو يقول قد أوحي إليه ولم يوحى إليه شيء؛ كما قال مسيلمة الكذاب، كذب على الله وقال: قد أوحى الله

لي وأرسل إليّ كما أرسل إلى محمد، حتى لمّا جاءه عمرو بن العاص فقال: أما ترى ما أنزل علي الليلة البارحة، كان نزل على رسول الله قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) [الفيل:1]، فقال: أنزل عليّ مثله، استغفر الله هو ينسب لله هذا: يا ضفدع يا بنت ضفدعين... إلى هذه الكلمات الساقطة، فنظر إلى عمرو بن العاص فقال: ما تقول؟ قال: أشهد الله أنك كذّاب، حتى على كفره عمرو بن العاص قال: أشهد الله أنك كذاب، وأنه ليس بمرسل أو يوحى إليه. فهذا كذب على الله؛ أن يدّعي أنه قد أوحي إليه أو أرسل إليه أو أنه اختتم الرسالة مع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والكذب على رسول الله؛ هو أن يضع الاحاديث لرسول الله أو يضع الاحاديث على رسول الله كما قال الطبراني. والحديث الذي يرّهب المؤمنين من الكذب على رسول الله حيث يقول: (إن كذباً عليّ ليس ككذب على أي أحد، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، وأيضاً بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من روى حديثاً يُرى أنه كذب)، هو ما يعني يستيقن من كذبه ولا يعلم أنه قد وضع أن لم يوضع على النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: (فهو أحد الكاذبين)، فالكذب على الرسول أن يضع أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والكذب على الخلق أفحشه هو أن يكذب على الخلق بيمين ليقتطع مال امرئ مسلم، وهذا هو اليمين الغموس الذي يكذب فيها صاحبها ليقتطع مال المسلم. وأيضاً من الكذب؛ الكذب حتى يمدح أو يُضحك الناس، كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من ترك الكذب ولو كان مازحاً، فأنا زعيمٌ ببيت في ربض الجنة)، وأيضاً (النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل على امرأة قالت لابنها تعال أعطيك، فقال: تعطيه؟ قالت: نعم، قال: أما لو كنت لا تعطيه فقد كتبت عليك كذبة)، الكذب أيضاً يكون على الأطفال وعلى النساء وعلى الرجال. فهذه الكذبات لا تُقبل عند الله جلَّ في علاه، وخلق المسلم يأبى والصدق منجاه والكذب مهلكة.

مسائل ثلاث استثناها النبي -صلى الله عليه وسلم-: الكذب في الحروب، والكذب عند الإصلاح بين المتخاصمين، والكذب على الزوجة.

- الكذب في الحروب: وقد وردت عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- قولاً وفعلاً، أستغفر الله ليست كذباً صريحاً ولكن كانت تنويهاً وتعريضاً وتلميحاً، لا كذباً، ممدوح عن الكذب.

أمّا قولاً فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الكذب ليس في ثلاث: في الحرب وفي الإصلاح بين الاثنين ومع الزوجة ليطيب خاطرها)، أو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أمّا فعلاً؛ لمّا سأل عن قريش: كم عددهم وأين هم الآن؟ فسأله الرجل: من أين أنتم؟ قال: (نحن من ماء). ولذلك العلماء قالوا التعريض ممدوحة عن الكذب، يعني أنت لو وضعت في مكان ستكذب وأبيح لك الكذب لك أن تعرّض أفضل من أن تكذب.

▪ الكذب على الزوجة: يدخل على امرأة يبغضها بغضه للشيطان، لكن يعلم أنه برضاه عليها وأن الله جلَّ وعلا يرضى بحسن عشرته معها وحسن (**) لها هي أيضاً له فتذهب إلى الجنة، يدخل يقول أحبك وما أرى في الدنيا غيرك، ويا ليتك تموتي لكن هذا في قلبه. يعني هو أصلاً يكذب عليها بحبه لها وعاطفته له ذلك، والنبي النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ليطيب خاطرها)، وهل هذا على الإطلاق والعموم؟ نعم على الإطلاق وعلى العموم، له أن يكذب عليها.

▪ الكذب عند الصلح بين اثنين متخاصمين: لأن الله جلَّ وعلا قال: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) [النساء:114]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فساد ذات البين هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)، فالإصلاح بين المتخاصمين من أفضل القربات ومن أصلح الطاعات.

يبقى لنا مسألة أخيرة في مسألة الكذب هذه؛ إن صح وأبيح الكذب في حالات هل للمرء أن يقسم على هذا الكذب أم لا؟ دخل رجل على امرأته بعد ما تعطر وتطيب وكان عند امرأته الثانية، فقالت له: أنت متزوج، قال: غير متزوج، قالت: والله لا أصدقك حتى تقسم بالله، فأقسم بالله أنه غير متزوج، هل يصح أم لا؟

أيضاً دخل رجل على رجل قال له: إن محمد يقول فيك كذا وكذا، وإن محمداً يقول فيك كذا وكذا ويمدح فيك، ومحمد يكون قد سبه ولعن أجداده أيضاً. فهو يقول له: لا هذا الرجل يبغضني، لا بد أن يكون سبني، لا ما مدحني. فيقول له: والله الذي لا إله إلّا هو قد مدحك، فيقسم على ذلك. هل يباح له أن يقسم على أمرٍ قد علم يقيناً أنه قد كذب فيه؟ هذه المسألة التي فيها المعترك الدامي بين العلماء.

الجماهير على أنه لا يجوز له أن يقسم بحال من الأحوال، لأنه يعلم أنه يقسم على يمين قد علم يقيناً أنه قد كذب فيها، فيدخل في اليمين الغموس أو في معنى اليمين الغموس بظاهر الأدلة. والصحيح الراجح ما رجحه ابن حزم، بل يجوز للمرء إن أبيح له المقصد وأبيحت له الوسيلة، له أن يقسم على ذلك لأن النبي -صلى الله عليه وسلم قد استثنى وقال الكذب هنا حلال، فإن أقسم على أمرٍ حلال ما أقسم على أمرٍ حرام. وهو يقسم ويقصد بالقسم الصلح بين الاثنين، فقد أقسم على أمرٍ مباح، فيجوز له القسم على ذلك، وهذا هو قول ابن حزم وهذا الذي أميل له وأدين الله به.

الفوائد المستنبطة:

١- يجتمع في المؤمن الكفر والإيمان، والبر والفجور، والمعصية والطاعة. من أين هذا؟ (يطبع)؛ يطبع على كل شيء خير وشر، يطبع على البر والتقوى والصلاح وأيضاً يطبع على الفسق والفجور، ويقبل منه هذا ونقول يستطيع أن يتوب منه، إلّا إذا وقع في الخيانة والكذب

يمكن أن يغلق الله عليه الباب، فإن الله قليلاً ما يوفّق الخائن والعياذ بالله. كما قلت (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ)، لأن الله يبغض الخائن والعياذ بالله.

٢- الإيمان يزيد وينقص؛ عندنا أدلة كثيرة تثبت أن الإيمان يزيد وينقص، قال الله تعالى: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) [مريم:76]، وقال الله تعالى: (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) [الفتح:4]، وأيضاً في النقصان قال: (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ) [التوبة:125]. من أين نستنبط هذه الفائدة العظيمة؟ قال: (يُطبع المؤمن) فشهد له بالإيمان، ثم قال: (إلّا الخيانة والكذب)، لأن الخيانة والكذب ستنزل من إيمانه وتنقص من إيمانه.

٣- الرد على القدرية والجبرية؛ هو أصالةً (يُطبع المؤمن على كل خلق) أو (على كل خلة) في رواية أخرى، (إلّا الخيانة والكذب)، هذا خبر يراد به الإنشاء، لكن في الشطر الثاني فقط وليس الشطر الأول، يعني يقول: إياكم والخيانة والكذب -هذا يراد به الإنشاء الآن-، إياكم وهذا الخلق الذليل، إياكم وهذه الصفات السيئة.

لو قلت "يطبع" فيها رد على القدرية، لأن القدرية قالوا إن الله لا يتحكم في أفعال العباد؛ فإذا قلت "يطبع" أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلقه على ذلك، خلقه فإنه مفتّن، وهذا يعضدها أحاديث كثيرة أن المؤمن مفتّن له ذنب يأتيه، يرجع إلى هذا الذنب وبعد ذلك يؤوب ويتوب. أما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون)، وأيضاً خلق الله الناس بأسرهم في ظلمة، فإن الله جلَّ وعلا يتحكم في أفعال العباد، فهنا إذا قلنا "طبع" يعني خلق على ذلك.

والرد على الجبرية: (ليس الخيانة والكذب)؛ يعني يتخلّق بالخيانة والكذب ويجعلها طبعاً له بعد ذلك، يعني الله لم يطبعه عليها لكنه يعتاد الخيانة، يبقى خائناً يخون كل أحد من أولياء الله جلَّ في علاه، فإذا خان واعتاد على الخيانة جرت مجرى الطبع فيكون هذا من فعله، فإذاً كان له فعل. فهذا رد أيضاً على الجبرية الذين يقولون ألقاه في اليم مكتوف اليدين ثم قال إياك إياك أن تبتل بالماء، لأن الجبرية يقولون: العباد لا يفعلون شيئاً، الله جلَّ وعلا هو الخالق وهو الفاعل. فهنا نقول: لا، العبد هنا الآن هو الذي يجري خلف الخيانة حتى يتخلّق بها، بل تكون طبعاً له. والدلالة الثانية التي توضح لك ما قلناه بالرد على الجبرية، الرواية الأخيرة: (نعوذ بالله من طمع يهدي إلى طبع)، يعني يكون طبعاً بعد ذلك للإنسان، فيكتسب المرة بعد المرة حتى يصبح خلقاً له.

٤- يشترط العلم حتى تثبت الخيانة؛ لا يصح أن تقول لأحد فعل فعلة تراها أنها مخالفة للكتاب والسنة أو أبلغ بلاغاً عن أحد فتقول في هذه الحالة خيانة، حتى يعلم من والسنة أنه قد خان الله ورسوله. من أين نستنبط هذه الفائدة؟ يعني لا يحاسب المرء ولا يتصف ولا يوصف بالخيانة حتى يعلم أن هذا الفعل الذي يفعله خيانة لله ولرسوله. كيف أنه يشترط في الخائن أن يعلم أنه قد أتى بخيانة؟

لكن إن كان الفعل الذي فعل ويحسب أنه ليس بخيانة، لا يصح أن تقول له أنت خائن، ككثير من الناس الذين يعادون أهل الإسلام ويعادون المسلمين والملتزمين فقط لأنه في أذكارهم أن هؤلاء من المتشددين من الإرهابيين المتطرفين، فيهم وفيهم. هذا ما تستطيع أن تقول أنت عدو الله وعدو شرع الله، أنت تكون ظالم له. يمكن أن نقول عنده فكر مغلوط عنده أو علم مغلوط أو ناس عمّوا عليه. متى تقول أن هذا الرجل حقاً هو من أعداء الله أو من أولياء الله؟ عندما تقيم عليه الحجة وتزيل عنه الشبهة وتبين له أن دين الله هو الذي يقول بذلك، فيبقى على ما هو عليه من العداوة الضارية بينه وبين أهل الإسلام أو بينه وبين أهل الالتزام، فتقول هذا هنا عدو الله بحق.

لا يمكن أن تسم وتصف أحد بالخيانة، حتى ولو فعل خيانة حتى يعلم أنه يخون، عندكم آية تثبت لكم ذلك، الآية تقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنفال:27]، يعني تعلمون أنكم تخونون الله ورسوله. ولذلك قال أبو لبابة: علمت أنني قد فعلت كذا، ذكر الخيانة لمّا قال لهم بالذبح، علم أنه أفشى سراً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

من أين الفائدة؟ لا يكون طبعاً إلّا إذا كرر، وإذا كرر فقد أراد، لا يكرر المرء شيئاً إلّا إذا أراده وعلمه، فإن الإرادة لا بد لها من علم. أما قلنا حتى الأشاعرة لمّا أثبتوا لله العلم قالوا نثبت لله إرادة، لِمَ؟ قالوا: هذا الخلق لا يكون إلّا بإرادة، والإرادة لا بد أن يسبقها علم بالمراد. فنقول: صار طبعاً له، كرر فإذا كرر أراد وهذه الإرادة لا تكون إلّا عن علم، فنسأل الله أن يعافينا من الخيانة ومن الكذب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثلاثون: باب ذكر الرضا بالقدر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك ومسائله العظام، كتاب السنة لابن أبي عاصم، واليوم إن شاء الله تكملة لباب مهم جداً ألا وهو باب ذكر الرضا بالقدر، هو المفروض يكون الإيمان بالقدر والرضى به.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر عن عبد الله قال: حدثني عمر قال: (بينما نحن مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ جاء رجل هيئته هيئة مسافر وثيابه ثياب مقيم، فقال: يا رسول الله أدنو منك؟ فدنا حتى وضع يده على ركبته فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث والجنة والنار والقدر كله، فإذا فعلت ذلك فقد آمنت، قال: نعم، قال: صدقت. قال: فلمّا ولّى قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: عليّ بالرجل، قال: فطلبوه فلم يجدوه، فقال: هذا جبريل -عليه السلام- جاء يعلمكم أمر دينكم).

وعن ابن عمر -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- نحوه: (وتؤمن بالقدر كله).

وعن عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (وأسألك الرضا بالقدر). وعنه -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يدعو: (وأسألك الرضا بالقدر).

هذا الباب عظيم جداً كما بيّنا، وقلنا أبواب القبر أبواب مهمة لا بد على الإنسان أن ينتبه لها وأن يفتح قلبه وعقله لفهمها، ثم التعبد بها لله جلَّ في علاه، أو التسليم التام لربنا جلَّ في علاه دون معارضات العقول لأن هذا الباب دحض مزلة، لأن باب القدر من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، وهو سر من أسرار الله حجبه الله عن كل عبد، لا يعلمه ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وكما قلت لا بد للإنسان ولا يستقيم إيمانه ولا يكتب عند الله في طائفة المسلمين حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره، كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- مفصّلاً هذا الإجمال. أقول ولا يستقيم إيمان عبد أيضاً بالقدر حتى يؤمن بالمراتب الأربعة التي بيّناها قبل ذلك.

الأدلة على أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وأن العبد الذي لا يؤمن بالقدر لا يكون مؤمناً، ولا يكتب عند الله بالإيمان، ولا ينجو يوم القيامة النجاة التامة إلّا بأن يؤمن بالقدر؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل: ما الإيمان؟ فدلل عن الإيمان أو أجاب عن الإيمان بأهم أركان الإيمان، ثم ذكر الأركان ومنها وأن تؤمن بالقدر خيره وشره. وفي الحديث الثاني؛ أن الرجل وهو يعلم ابنه على الإيمان بالقدر وسأله عن القدر، فقال: (أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)، ثم قال له: (فإن مت على غير ذلك كنت من أصحاب النار)، فهذه شريطة لقبول الإيمان هو أن يؤمن بالقدر. وابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- كما في الصحيح لمّا كلموه عن أناس يقولون إن الأمر أنف، لا يؤمنون بقدر الله جلَّ في علاه، قال: أبلغهم أني منهم بريء وهم مني براء، لو أنفقوا مثل جبل أحد ذهباً ما تُقبّل منهم. لِمَ؟ لأنهم خرجوا من الإيمان بعدم إيمانهم بالقدر.

فهذه أدلة تدلك على أن الإيمان بالقدر هو ركن من أركان الإيمان، وقد بيّنا أنه لا يستقيم إيمان عبد بالقدر حتى يؤمن بالمراتب الأربعة.

وقبل أن ندخل في صلب هذا الحديث العظيم وفيه جمل قوية جداً، منها قول: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره)، ثم قال: (وحلوه ومره)، ما معنى الحلو والمر؟ والشر والخير؟ وأيضاً المسألة الثانية تعامل عبد الله مع القدر، ثم المسألة الثالثة في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (شره وخيره)، هل في القدر شر؟ والجمع بينها وبين وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وقني شر ما قضيت)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والشر ليس إليك)، ثم بعد ذلك الفوائد المستنبطة.

بادئ ذي بدء المسألة الأولى قبل أن أدخل عليها، ما هي المراتب الأربعة التي لا يستقيم إيمان عبد بالقدر حتى يؤمن بهذه المراتب؟ علم فكتابة فإرادة فخلق؛ دون أن ندخل في التفصيل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن تؤمن بالقدر كله)، هذا إجمال فسّره في أحاديث وروايات أخرى قال: (أن تؤمن بالقدر كله خيره وشره، حلوه ومره). أمّا الخير والشر فهذه في العاقبة؛ تكون بالقربات والطاعات والأعمال الصالحات، يدخل بها المرء الجنات، هذا الخير. والشر

يكون أيضاً في العاقبة، الويل والثبور لمن فجر ولم يبر، لمن عصى ولم يطع ربه جلَّ في علاه. (حلوه ومره)؛ المقصود به عند وقوع القدر، سواء كانت سراء أو كانت ضراء.

فإذاً الشر والخير ينظر فيها للمآل وللعاقبة، والحلو والمر ينظر فيها عند وقوع القدر. وأقول وهما متلازمان، يستلزم الخير والشر الحلو والمر، الخير من الطاعات والقربات يستلزم الحلاوة؛ إن العبد إذا عبد ربه جلَّ في علاه أو علم أنه لن يوفق للطاعة إلّا بالله جلَّ في علاه كما كان يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا صمنا ولا صدقنا ولا صلينا)، وأيضاً قال الله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) [الأنبياء:73]، فالفضل كل الفضل الله جلَّ في علاه. وأنت تؤمن جازماً بذلك، (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، فتعلم أن هذه القربات من الله وأن الله هو الذي يسّر لك هذه الطاعات ووفقك وسددك لتقيم هذه الطاعات، فتجد حلاوة الإيمان في قلبك إقراراً أولاً بربوبية الله جلَّ في علاه، وأيضاً نسبة النعمة لباريها سبحانه جلَّ في علاه، ثم التذلل لله بها كما سنبين، فهذا الخير.

فالخير يستلزم الحلاوة، (ذاق) التذوق من الحلاوة، (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً) يعني رضي عن أقدار الله جلَّ في علاه، (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد -صلى الله عليه وسلم-نبياً ورسولاً). وأيضاً قول الله تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن:11]؛ يعني يؤمن بقدر الله وأن ما نزل عليه من النعماء أو من السراء أو من الضراء من الله، (يَهْدِ قَلْبَهُ)، وهداية القلوب أن تستشعر حلاوة الإيمان، تشعر كأنك في جنة والناس ما دخلوا الجنة، تعلم أن الناس لو استشعروا بما شعرت أنت لفاز الناس بالسعادة التي في الدنيا قبل أن يصلوا إليها بها إلى الآخرة، فالخير يستلزم الحلاوة.

أيضاً الشرور سواء كانت في العاقبة من نار تلظى أو العقاب الأليم يستلزم المرارة؛ عند وقوع المصيبة إن العبد إذا تصبّر كانت مرارة الصبر يستشعر بها، وإن تسخط فمرارة ألم التسخط سيأتي عليه أيضاً، فمرارة في الحالتين، حتى ولو أتى شهوته بعد الشهوة يستشعر بهذا الألم، وهذا أيضاً يستلزم العذاب الشديد يوم القيامة، لأنه إمّا يتسخط على أقدار الله وإمّا ألّا يرضى بأقدار الله جلَّ في علاه وإمّا يكفر بالله كليةً. ففي الحالات كلها المرارة في الدنيا عدم راحة البال وعدم راحة القلب، ثم بعد ذلك العذاب الشديد عند الله جلَّ في علاه.

وأقول: وفي كلٍ خير، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (في خيره وشره) خير، (وفي حلوه ومره) خير، وفي كلٍ خير، ثم أقول: وفي كلٍ شر. أنا جمعت بين النقيضين، مع أن العقل يقول لا يجمع بين النقيضين، ومع ذلك أنا أجمع من النقيضين أقول: وفي كلٍ خير، وفي كل شر. كيف؟ وفي كلٍ خير للمؤمن فقط، وفي كلٍ شر للعبد الفاسق الفاجر الكافر، لِمَ؟ لأن النبي -صلى الله غليه وسلم- قال كما في الصحيح: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر وهذا له خير، وإن أصابته ضراء صبر وهذا له خير). إذاً في كلٍ خير

للمؤمن لأنه لمّا تتنزل عنده النعائم فينسبها لباريها ويعلم أنها من الله جلَّ في علاه وهذا له خير، ويشكر كما سنبين التعامل مع القدر وأقدار الله جلَّ في علاه. وفي كلٍ خير أيضاً له إذا نزلت عليه البلايا والمصائب، قال: الحمد لله لم تكن أكبر من ذلك وإن ربي أرحم عليّ من أمي، وركن إلى ربه جلَّ في علاه فأصبح في ذلك أيضاً الخير له.

وفي كلٍ شر للعبد الفاجر الفاسق أو للعبد الكافر الذي كفر بربه جلَّ في علاه، لأنه لمّا تتنزل عليه الرحمات من الله جلَّ في علاه ينسبها لنفسه ولا ينسبها لله جلَّ في علاه، كقارون عندما قال: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي) [القصص:78]، وصاحب الجنة قال: (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا) [الكهف:36]، حتى لمّا رفع عنه الله الشرور والآثام ما شكر ربه، ماذا قال؟ قال: (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) [هود:10]، يعني حتى لم يشكر ربه جلَّ في علاه، ففي كلٍ شر. ولمّا تنزل عليه البلايا كثرة، يبدأ يقول ما في الدنيا أحد مظلوم إلّا هو، الله جلَّ وعلا لم يقدّر المصائب إلّا عليه هو، وتراه يتسخط على أقدار الله جلَّ في علاه.

ففي كلٍ خير وأيضاً في كلٍ شر؛ في كلٍ خير للمؤمن، وفي كلٍ شر للعبد الفاجر والعياذ بالله.

إذاً الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، فلا يقبل إيمان عبد إلّا به، فكيف يتعبد المرء تجاه أقدار الله؟ أو نقول كيف يتعامل العبد مع أقدار الله؟ أقول: قد قسّم النبي -صلى الله عليه وسلم- أقدار ربه جلَّ في علاه على قسمين: قسم خير وقسم شر، وفي كلٍ عبادة. فكيف يتعبد العبد لربه جلَّ في علاه في أقدار الخير؟

▪ أولاً شكر النعمة، شكر القدر، أن يشكر ربه جلَّ في علاه إن رزقه الله برزق أو مرأة صالحة أو طاعة أو علم ينتفع به أو غير ذلك من أرزاق الله جلَّ في علاه السابغة التي تنزل تتراً على العباد ليل نهار. فعلى العبد أن يتعبد بهذا القدر أولاً يشكر نعمة الله جلَ في علاه، وهذا الشكر أولاً ينسب النعمة لباريها حتى لا يكون جاحداً، لا يكون كافراً بنعمة الله جلَّ في علاه، يقول: كل الخير من ربي جلَّ في علاه، فينسب النعمة لباريها جلَّ في علاه ويقول قول الله تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، ويتذكر آنذاك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي يرويه عن ربه جلَّ في علاه: (يا عبادي كلكم ضال إلّا من أهديته، فاستهدوني أهدكم)، ويتذكر في ذلك أيضاً: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [النحل:78].

فعليك أن تشكر ربك، هذه أول معاملة القدر أن تتعبد لله بالشكر؛ والشكر أولاً ذكر باللسان، أو نقول تثبت النعمة لباريها بلسان المقال ولسان الحال، أمّا بلسان المقال فتقول قول الله تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) [الضحى:11]، فتحدّث أن الله أنعم عليّ وأسبغ نعائمه عليّ؛ كنت فقيراً فأغناني، كنت جاهلاً فعلّمني، كنت عزباً فزوجني، كنت وكنت وكنت، وتذكر للناس وتعدد نعائم ربك عليك، تشكر ربك في ذلك. لا تجحد بنعائم ربك جلَّ في علاه، وهذا بلسان المقال.

أمّا بلسان الحال؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)، فهذا أيضاً شكر لنعائم الله بلسان الحال، هذا الأول باللسان.

▪ ثم بالقلب أو القلب قبل اللسان، نحن لا نرتب. القلب أولاً؛ والقلب أن تجزم وتقر في قلبك إقراراً جازماً أن النعمة من الله جلَّ في علاه، وأن الله هو الذي يرحم عبده، وأن الله جلَّ في علاه أقرب ما يكون العبد ويسارع للعبد في الخيرات، وإن العبد إذا تاب تاب الله عليه، وإن العبد إذا سأل أعطي، وإن العبد إذا تذلل رفعه الله جلَّ في علاه، (من تواضع لله هكذا، رفعه الله هكذا). فإذا أقرّ العبد في قلبه ذلك وكشف الله عن قلبه فرآه أنه يقر بأن النعمة ليست إلّا من الله جلَّ في علاه، زاده الله على هذه النعائم كما سنبيّن، هذه الثانية.

▪ الثالثة بالجوارح؛ أن تستخدم هذه النعيم في رضا الله جلَّ في علاه. أبيّن أولاً بالدليل أن الشكر لا يتم ولا يكون عند ربنا جلَّ في علاه إلّا بالثلاثة: بالقلب واللسان والجوارح. أمّا باللسان وبالقلب بيّنا، أمّا في الجوارح فقد قال الله تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا) [سبأ:13]، فإذاً العمل يبيّن أنك تشكر الله جلَّ في علاه، فعملك يكون شكراً لله جلَّ في علاه.

بيّنا أنه ركن من أركان الشكر أن تشكر بالجوارح كما تشكر بالقلب كما تشكر باللسان، كيف يشكر العبد ربه على أقداره "أقدار الخير" بجوارحه؟ إذا كانت الحواس هذه كلها نعائم؛ لسان وعين بصر وسمع، وأيضاً هذه الجوارح، قوة البدن كل ذلك تسخيراً لعبادة الله، كيف ذلك؟ ألّا يسمع وألّا يبصر وألّا ينظر وألّا يتكلم إلّا بما يرضي الله، ولذلك سأل الناس بعض الحكماء: كيف أعرف مكانتي عند ربي؟ قال: إذا أردت أن تعرف كيف مقامك فانظر أين أقامك؛ فإن أقامك على طاعته، إن أقامك على مجالس العلم، إن أقامك على نشر العلم، إن أقامك على الصدقات، إن أقامك على تلاوة القرآن، إن أقامك على سماع دروس العلم والقرآن، إذا أقامك على أنك لا تبصر إلّا في القرآن وفي الحديث، فهذا مقامك عند ربك جلَّ في علاه. أمّا إن كانت الأخرى، نعوذ بالله من الخذلان.

إذاً الشكر: شكر لسان وشكر قلب وشكر الجوارح، وهذه عبادة مقابل أقدار الله التي هي خير. والمكافأة أنك إن شكرت مع الشكر الزيادة، قال الله تعالى: (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) [إبراهيم:7]، تستجلب من الله الخير. أما علمت أن يعقوب -عليه السلام- عندما شفاه الله جلَّ في علاه نزل عليه جراد من الذهب، ماذا حدث؟ أخذ يحذف الذهب، فأوحى إليه: ألم أكن قد أغنيتك؟ قال: لا غنى لي عن بركتك. هذا هو الفقه التعامل مع الله، إن خزائن الله لا تنفذ أبداً، فاطمع في الكريم واشكر تزدد، فكلما شكرت كلما ازدادت النعائم. ولذلك في بعض الإسرائيليات لا تصدق ولا تكذب؛ أن داوود قال: يا ربي كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: الآن شكرتني، وهذه زيادة لأنه يشكر بعدما شكر بلسانه أوزع الله في قلبه أن هذا الشكر باللسان نعمة من الله، فأصبحت النعائم المتجددة من الله جلَّ في علاه، فأصبح الحب أقوى وأكثر وأعلى لله جلَّ في علاه.

هذا بالنسبة لقدر الخير، فكيف يتعبد المرء لقدر الشر؟ وهذا كله تفسير لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (بالقدر كله)، يعني خيره وشره حلوه ومره.

القدر الشر؛ أقول للمرء عبادة تجاه قدر الله الذي ظاهره على العبد أنه شر، هذا الظاهر فقط وإلّا ففي باطنه الخير كل الخير. الغرض المقصود نقول: أقدار الشرور أو المقضي الشر حتى نثبت الكلام الصحيح، لأن ليس في قدر الله شر. في المقضي شرور، فالمقضي نوعان: شر يمكن دفعه، وشر لا يمكن دفعه.

- أمّا الأول: قدر شره يمكن دفعه، تدفع القدر بالقدر، هذه العبادة التي لا بد أن تتعبد بها وإن لم تفعل فأنت آثم، تدفع قدر الله بقدر الله، كيف؟ إن توقعت بلاءً فادفع البلاء، قدر الله سينفذ نعم، لكن تدفعه كيف؟ يدفع بالدعاء، يعتلجان الدعاء إن كان أقوى يرفع البلاء، قدر البلاء تدفعه بقدر الدعاء، الجوع والعطش تدفعه بالطعام والشراب، قدر الجهل تدفعه بقدر العلم.

هذه التي تتعبد بها لربك جلَّ في علاه وهو دفع القدر بالقدر، وهذا فقه لا يصل إليه أي أحد، لأنك ستفر من الجبرية وتفر من القدرية، وتعبد الله لا تضرب القدر بالشرع، تقول أقدار الله حالتان: الحالة الأولى قدر يدفع؛ المرض يدفع بالتداوي، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تداووا عباد الله، ولا تداووا بحرام)، والتداوي هذا أمر من النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كان أمر استحباب، لكن هو أمر من النبي -صلى الله عليه وسلم- لتدفع قدر المرض بقدر التداوي، وفي كلٍ خير لأن الله جلَّ في علاه جعل لك في باطن ذلك الخير كما سنبيّن.

- الثاني: قدر شر لا يمكن دفعه، الذي هو المقضي، مقضي فيه شر؛ مصيبة الموت لا أحد يستطيع أن يدفعه بحال من الأحوال، هذا ليس عليك عبادة إلّا الرضا، فإن لم تستطع فانزل مرتبة إلى الصبر، وهذا الواجب، هذا المجزئ حتى لا يتسخط عليك ربك ولا يغضب عليك ربك. إذا نزلت المصيبة فاتجاه هذه المصيبة أن ترضى، فإن لم تستطع فعليك بالصبر، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط).

وأيضاً المرأة -كما في الصحيح- التي كانت تتكشف ويأتيها الجن يؤذيها، فكانت تتكشف وذهبت للنبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: ادعُ الله لي أن يكشف عني هذا البلاء، فقال لها -عليه الصلاة والسلام-: (لو شئتِ صبرتِ)، وهذا البلاء من النوعين، يعني هذا قدر يمكن دفعه لأنها اتخذت سبباً صحيحاً، ذهبت للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليدفع هذا القدر بقدر الدعاء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يوجهها توجيه أولى منه وأفضل قال: (إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوت لكِ)، فالمرأة كانت فقيهة، قالت: بهذا الصرع فقط يكون الجنة، قالت: لا الجنة، الصبر، ثم قالت: ادعُ الله لي ألّا أتكشف، فالغرض المقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لها: (اصبري).

ولمّا مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على امرأة تبكي على ولدها وتنعى ولدها، قال لها: (يا أمة الله اتقي الله واصبري)، هذه هي الدرجة. إذاً القدر الذي ينزل لا يمكن دفعه فعلى المرء الرضا، فإن لم يستطع فعليه أن يصبر على هذا القدر وله الجزاء الوفير، هذا بالنسبة لتعامل العبد مع القدر.

سؤال هنا: كيف نجمع بين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تؤمن بالقدر كله خيره وشره، حلوه ومره)؟ فقد أثبت النبي في القدر شر، فالسؤال هنا هل في أقدار الله من شر؟ الجواب: نعم، لأن الدليل جاءنا. نقول: إذا قلنا نعم فلا بد أن نوجه بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (والشر ليس إليك)، وإبراهيم -عليه السلام- يقول: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [الشعراء:80]، لو كان المرض من الله لقال: وإذا أمرضني جلَّ في علاه، فهذا ينجب لنا إشكال لا بد من حله. أثبت في هذا الحديث أن فيه شر، قال: (خيره وشره)، وفي الحديث الثاني قال: (والشر ليس إليك)، في الآية قال: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)، فالشر لا ينسب إلى الله جلَّ في علاه فكيف نوجه هذا التوجيه؟

التوجيه في ذلك أن نقول إن أقدار الله: قضاء ومقضي؛

والقضاء أو القدر من فعل الله، وأفعال الله كلها كمالات لأن الله له الأسماء الحسنى والصفات العلى، الكمال كله لله، الجمال كله لله، الجلال كله لله فكل أفعال الله على الكمال. فإذاً القدر الذي هو أفعال الله، كله خير، وكله كمال. والمقضي هي المفعولات.

ففعل الله كله خير لأنه ينسب لله جلَّ في علاه الذي له الكمال المطلق وله الجلال المطلق والجمال المطلق، المقضي وهي المفعولات فيها الشرور وفيها الخير. فيها الشرور؟ نعم فيها شرور؛ الله جلَّ وعلا خلق الشيطان وخلق المعاصي وخلق الزنا، كل هذا مخلوق لله جلَّ في علاه، ينسب لله خلقاً إيجاداً وينسب للعبد فعلاً واكتساباً.

في المقضي وفي المفعولات شرور؟ نعم في المقضي والمفعولات شرور، والواقع يثبت ذلك والأدلة كما سردناها. يبقى لنا أن نبيّن بأن حتى هذه الشرور لم تكن شراً محضاً، إن الله لم يخلق شراً محضاً بحال من الأحوال. خلق الله شراً؟ نعم، في المخلوق شر والدلالة على ذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وقني شر ما قضيت)، وقال الله تعالى مبيناً لنا كيف نتعبد له بالاستعاذة من الحسد ومن غيره: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) [الفلق:1-2]، ما قال: من شر فعله -حاشا لله-، من شر قدري -حاشا لله-. قال: (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)؛ من شر المخلوق، يعني هنا الشر نسب للعقرب، نسب للحية، نسب لفعل الإنسان. فالشر نسب للإنس والجن، فقال: (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، فهذا النسبة نسبة الشر للمخلوق، للمقضي، للمفعول، وليس لفعل الله جلَّ في علاه.

ونقول حتى في ذلك لم يخلق الله شراً محضاً، بل هو شر من وجه وخير من أوجه، أو خير من وجه وشر من وجه؛ حتى الشيطان ملئ شراً، الشيطان يوسوس ويغوي ويورث العداوة وينفث في عباد الله جلَّ في علاه حسد وحقد وقتل وزنا وشرك بالله جلَّ في علاه، هذا المطلوب من الشيطان، فكله شرور. نقول وجود الشيطان في الدنيا فيه خير، والخير الذي تعرفه من وجود الشيطان هو التمايز؛ لن يتميز عبدٌ مصلح وعبدٌ مفسد إلّا بوجود الشيطان، لأن الشيطان سيأتي للعبد يوسوس له أن يزني، أن يكذب، أن يسرق، أن يفعل الفاحشة، فإن العبد الصالح يتجنب ويقول: نهاني ربي، أمّا العبد الفاسق سيهجم على هذه المعاصي دون روية وسيتجرأ على حدود الله جلَّ في علاه.

وتمييز الخبيث من الطيب هذه من عدل الله جلَّ في علاه ومن حكمة الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) [ص:28]، أبداً لا ينزل الأبرار منزلة الفجار، لا والله، من عدل الله أنه لا يسوّي بين المختلفين ويفرّق بين المختلفين، ويسوّي بين المتماثلين. فوجود الشيطان مع أنه ابتلاء ومع أنه محنة، فيه الخير الكثير للتمييز بين الخبيث والطيب.

وأيضاً الشرور الأخرى مثل البلايا والمصائب التي تنزل على المرء تتراً هذه كلها خير، وإن ظهرت العبد شر؛ إن مات أبوه، مات أخوه، سُرِق ماله، إن حدث له ما حدث من البلايا والمعاصي هذا في باطنه الخير، ليعلم العبد أن الله والله يدركه برحمته، وأن الله جلَّ في علاه أرحم عليه من أمه ونفسه عندما يبتليه. أما رأيت الطبيب عندما يعطي المريض الدواء المر، يعطيه الدواء المر ليقتله؟ لأنه يقول هذا سبب الشفاء. ترى العصا والسوط معلّقة، يدخل التلميذ ويجد المدرس يعلّق السوط والعصا في الفصل ليقتل التلاميذ وليهين التلاميذ ويهين كرامتهم صحيح؟ لا والله يفعل ذلك ليرتفعوا ولينتبهوا وليذاكروا وليختبروا، وعند الاختبار تظهر الكرامة فيرتقوا.

نفس الأمر؛ إن الله يبتلي العبد رحمةً من الله بالعبد، ليقف نقياً ذهباً خالصاً أمام الله جلَّ في علاه، فإنه يبتليه لأمرين:

- إن كان صالحاً فإن هذا البلاء يرفع بالدرجات، عمله لا يصل به إلى هذه الدرجة فيبتليه فيرفعه بهذه البلايا.

- أو رجل كان صالحاً وقلبه فيه نقاوة، قلبه فيه صدق وإخلاص مع الله، فيبتليه الله جلَّ وعلا، يُنزل عليه البلاء صباً، يخسر مالاً، يخسر بناتاً، يخسر ولداً، يخسر أباً، يخسر أماً، ينزل عليه البلاء صبا لينقيه، ليبقى ذهباً عنده يوم القيامة. وإليكم الأدلة على ذلك؛ أما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما يصيب المرء من همٍ ولا غمٍ ولا نصبٍ ولا وصبٍ، حتى الشوكة يشاكها إلّا كانت كفارو له)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مرض مرضاً شديداً فدخل عليه ابن مسعود فقال: (يا رسول الله مالي أراك توعك وعكاً شديداً؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إني أوعك وعك رجلين، فقال ابن مسعود: ذلك لأنك لك أجر رجلين، قال: نعم).

ولذلك بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن البلاء ينزل صباً على العبد المؤمن، وكلما ازداد الإيمان كلما ازداد البلاء، حتى يقف أمام ربه جلَّ في علاه خالصاً مخلّصاً، يوم القيامة لا يحاسب على معصية. انظروا إلى هذه البلايا كلها خير للعبد لو علم العبد ذلك، فإن جهل فعليه أن يصبر ويسكت حتى لا يضيع أمام ربه جلَّ في علاه.

هذا السؤال جوابه: الشر ليس في أفعال الله بل الشر في مفعولات الله، الشر ليس في قدر الله الشر في المقضي. (من شر ما قضيت)، (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، نسبت الشرور إلى المخلوقات، هذا هو الجواب. والجمع بين الاثنين أن نقول: أمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من شر ما قضيت)، وقوله: (والشر ليس إليك) يثبت أن شرور في المقضي وليس في أفعال الله جلَّ في علاه، وأمّا قول إبراهيم -عليه السلام-: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) هذا أدب من إبراهيم مع ربه جلَّ في علاه؛ حتى وإن كانت الشرور في المفعولات فإنه يتأدب مع ربه ولا يصرّح بأن الله هو الذي أمرض وأن الله هو الذي ابتلى أو أصاب، هذا من حسن الأدب مع ربنا جلَّ في علاه. هذا آخر ما يمكن أن يتكلم فيه في هذه المسألة فقط في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره).

الفوائد المستنبطة:

١- ذكر خاص بعد العام لا يكون إلّا للتوكيد، توكيداً تاماً، لأمرٍ مؤكد؛ مثلاً الله جلَّ وعلا قال: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [آل عمران:14]، فمتاع الدنيا فيها الخير والرزق والمال والبنون والنساء. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في نسائهم)، هنا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- النساء خاص بعدما ذكر العام، وكما قال علماؤنا ذكر الخاص بعد العام للتوكيد، وهذا الحديث عظيم جداً فيه ذكر خاص بعد عام للتوكيد.

من أين أتت هذه الفائدة؟ (القدر كله) هذا إجمال، ثم فسّر "كله" قال: (خيره وشره، حلوه ومره). أن تؤمن بالله، والإيمان بالله يتضمن إيمان بالله، بإلهية الله، الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى، الإيمان بربوبية الله، ومن لوازم الربوبية القدر، أليس الخلق وأفعال الله من لوازم الربوبية؟ إذاً لمّا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن تؤمن بالله) بإلهية الله وبربوبية الله، ثم ذكر خاص من الربوبية (وتؤمن بالقدر خيره وشره)، فذكر الخاص بعد العام كأنه يقول: وأؤكد عليكم من الإيمان بالله أن تؤمن بأفعال الله، بقدر الله جلَّ في علاه.

٢- الحكم الذي يتعلق على شروط لا يتوفر إلّا بشروطه، أو نقول الجمل المتعاطفة التي يعقبها حكم لا يكون الحكم ولا يظهر إلّا بعد وجود هذه الجمل المتعاطفة كلها؛ لا يمكن أن تكون مؤمناً بالقدر عندما تؤمن به في الحلوة ولا تؤمن به في المرة، ولا تكون مؤمناً بالقدر عندما تؤمن به في الخير ولا تؤمن به في الشر.

من وجهة أخرى؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في آخر الحديث: (فإذا فعلت ذلك فقد)، إذاً ما حكمنا عليك بالإيمان إلّا بكل المتعاطفات: أن تؤمن بالله وبالملائكة. يعني من قال: آمنت بالله وبالقدر وبالبعث وبالحياة وبالموت ولم أؤمن بالملائكة، تقول له: ما آمنت. آمن بالله والملائكة والكتب وآمن بالبعث والقدر، ولم يؤمن برسول، آمن بكل الرسل إلّا محمد، ليس بمؤمن لأنه قال: (ورسله) يعني كل الرسل. قال: (فإذا فعلت ذلك فقد آمنت).

٣- أعطى الله القدرة للملائكة على تحويل صورتهم من الصورة الملائكية إلى الصورة البشرية، وهذا فارق بين الجن والملائكة؛ الجن لهم ذلك هذه القدرة أيضاً، فإن الجن يمكن أن يتمثل في بني البشر، يتمثل إنساناً. لكن الفارق بين الملك وبين الجن: الجن إن أصيب على صورة الإنسان لا يستطيع أن يرجع بعد ذلك على صورته الجنية، يعني لو قتل ما يستطيع أن يرجع، لو حدث عور لعينيه ما يستطيع أن يرد ذلك في الصورة الجنية.

أمّا الملك له ذلك، والدلالة على ذلك بحديث جبريل -عليه السلام-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن الوحي يأتيه على مراحل ثلاثة، ثم بيّن أخف هذه الأحوال أن يأتينه الملك على صورة رجل، وكان جبريل -عليه السلام- أشبه ما يكون بدحية الكلبي. وقد دخل الملك بين الصحابة وجلس بين أيديهم وجلس أسند ركبتيه إلى ركبتي النبي -صلى الله عليه وسلم- وتحدث مع النبي -صلى الله عليه وسلم- سؤالاً وجواباً. فالملك يستطيع أن يتحول إلى صورة بشرية، وإذا حدث له شيء في صورة البشرية يستطيع أن يردها إذا تحول إلى الصورة الملكية. والدليل على ذلك أيضاً حادثة موسى -عليه السلام-، عندما دخل له ملك الموت فلطمه ففقأ عينه، الرواية قالت: (فرد الله عليه عينه)، فرد الله عليه عينه بفعل الله أو بأن الله أقدر الملائكة على أن يردوا في حالة صورتهم الملكية.

وهذه فائدة تعرف بأن الملائكة يمكن أن تكون كالبشر، ولذلك لك أن تتصور أن الملائكة كانت تسير في الأراضي بجانب صحابة رسول الله. أمّا الآن الشياطين تفر منا تقول هؤلاء سيعلمون الشرور، يبعدون عنا، فيغفر الله لنا. الملائكة كانت تسير بجانب الصحابة وتسلم عليهم، قال عمران بن حصين: ما زلت أرى الملائكة يسلمون عليّ حتى استويت، فلمّا استويت كفت الملائكة بالسلام عليّ فتبت إلى الله ورجعت (لأن هذا فيه نوع من قطع في التوكل)، فرجعت الملائكة تسلم عليّ. وأيضاً الصاحب الجليل عندما كان يقرأ القرآن جاءت ظله تظلله من النور، بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هؤلاء الملائكة جاءوا يصحبون هؤلاء الأخيار.

النبي -صلى الله عليه وسلم- كان جالساً في مكان، وأبو بكر جالس، وأبو بكر يشتم ويشتم والملك يرده، فأبو بكر اشتد على الرجل الذي شتمه، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- فلمّا سأله قال: الملك كان موجوداً يرد لك. لكن لو كانت مظلمة؛ لمّا قال عروة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما أرى حولك إلّا أوباشاً من الناس، أو قال: أشواباً من الناس يفرون عنك، ماذا

حدث؟ قال أبو بكر: امصص بظر اللات، ولم يقم النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يعاتب أبا بكر لأنه (فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) [البقرة:194].

والغرض المقصود أن الملائكة هي مصاحبة للبشر، تسير معهم، تنافح عنهم، تسددهم وتنصحهم، خير صديق لك هو الملك قبل البشر. والدلالة على ذلك سليمان -عليه السلام- عندما قال: لأطوفن الليلة بتسعة وتسعين امرأة، تلد كل امرأة رجلاً يجاهد في سبيل الله. فجاء الملك الصديق الذي يرشد إلى الخيرات فقال له: قل إن شاء الله، يبيّن له إذا أردت ذلك سيأتيك، لكن قل إن شاء الله. يعضده الملك ويرشده ويبين له الخير، قل إن شاء الله، فلمّا لم يقل ما حدث ذلك. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ولو قال لكان دركاً له). هذه فائدة هذه الصورة، أن الملك يأتي ويمشي بين الصحابة ويسلم على الصحابة، بل ويرفق بالصحابة ويعلمهم ما جهلوا حتى يعبدوا ربهم على بصيرة.

٤- التعليم له كيفيات وله أساليب، ومن أفضل أساليبه السؤال والجواب، والدلالة على ذلك فعل جبريل، جاء جبريل يسأل. من أين نستنبط هذه الفائدة؟ أولاً اللفظ الذي استنبطنا منه هذه الفائدة: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم)، فسمّاه تعليماً، فكان بالسؤال والجواب: (يا محمد) مع أنه عالم. ولذلك عمر بن الخطاب يقول: تعجبنا من هذا الرجل، يسأل ويصدّق بعد ذلك، يقول: يا محمد ما الإسلام؟ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله.... إلى آخره، فيقول: صدقت. فتعجبوا، صدقت؟!! أنت سائل لتتعلم!! لا، هو سأل ليعلم الآخرين.

فالتعليم بالسؤال والجواب هو من أفضل أنواع التعليم، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل مع أصحابه ويقول: (نخلة تشبه ابن آدم)، فقام الصحابة كلٌ منهم يضرب حتى يحزر النبي -صلى الله عليه وسلم- عقولهم، فما أتى بها إلّا ابن عمر في نفسه وما استطاع أن يجيب، حتى أجاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٥- الرد على بعض الطوائف من المعتزلة؛ يثبتون الخير فقط، يقولون الخير من الله لكن المعاصي من العبد والشرور من العبد، وهي جلية واضحة ظهرت في بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنهم كانوا على نفاق، عندما قال الله تعالى حاكياً مجليّاً لنا أوصافهم: (وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ)، فرد الله عليهم: (قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) [النساء:78]. كله من عند الله الخير والشر، لكن له أسباب وليس هذا مجاله، هذا فيه رد عليهم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (خيره وشره).

٦- إذا انفردا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا؛ سأله عن الإسلام ففرّق وجعله الأعمال الظاهرة، وسأله عن الإيمان ففرّق وبيّن أنه الأعمال الباطنة، وقال: (جاء يعلمكم أمر دينكم)، وسأله عن الإحسان فعلمنا أن الدين مراتب، وهذه المراتب: إحسان وإيمان وإسلام. فلمّا ذكرا معاً فرق

بينهما، وفي الآيات الأحاديث الأخرى التي بيّناها لمّا افترقا دخل الأول تحت الثاني والثاني تحت الأول.

٧- آداب طالب العلم مع معلمه، فإن بركة العلم لا تأتي بثمارها إلّا إذا تأدب الطالب مع معلمه، من أين نأخذ هذه الفائدة من الحديث؟ قال: (يا رسول الله أدنو منك؟)، استأذن أن أدنو منك، من الأدب هنا الاستئذان من القرب من المعلم، والاستئذان أدب. بنفس النص الذي نستلم منه أدباً عالياً راقياً: (يا رسول الله)، لقّبه ما قال: يا محمد، بلقب عظيم قال: (يا رسول الله أدنو منك؟)؛ لقّبه أولاً ثم تأدب مرة ثانية يستأذن. وأبلغ من ذلك في نفس الحيز: (أسند ركبتيه إلى ركبتيه)، دل ذلك على أن وضعية الجلوس على الركبتين هذا من الأدب، هذا أدب في البداية، يعني يتأدب به المرء في البداية كأنها تدل على وقار وأيضاً ذلة واستحياء المتعلم ليخضع لمعلمه، ثم بعد ذلك يبدّل جلسته. لكن الجلسة الصحيحة أدباً أولاً أن يجلس على ركبتيه، ثم يبدّل كيفما شاء.

ووضع أيضاً يديه على ركبة النبي، هذا من تمام الأدب؟ حاشا لرسول الله وحاشا لجبريل، وقد أخطأ بعض المفسرين فيه أن قال: وضع يديه على رسول الله، لا والله، فبعد كل هذا الأدب يقول: يا رسول الله وأستأذنك أن أقترب منك، ويضع يده على فخذيه؟ لا، ووضع يديه على ركبتيه يعني ركبة جبريل، هذا من تمام الأدب من ذلك.

وأبلغ من ذلك أدباً؛ فهو يسأل ويصدّق، لكن كيف؟ هذا أبلغ مبالغة في الأدب، لو علمتم المعلم من المتعلم لقلتم أي أبلغ: جبريل المعلم للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ويظهر أمام الناس بصورة المتعلم، وأمام النبي -صلى الله عليه وسلم- يخضع بصورة المتعلم. هذا أبلغ ما في الأدب، أن تكون أنت أعلم بالمسألة وهو يتكلم معك المعلم وتقطع وكأنك أول مرة تسمعها وتبيّن جهلك لتستفيد. وكنت دائماً يعني أبحث كثيراً كيف تأدب علماؤنا وسلفنا بهذا الأدب ومن أين استنبطوها؛ كان الثوري وابن عيينة والشافعي وغيره يقول: يأتيني المرء يكلمني عن مسألة قد انتهيت منها من سنين، أعلمها من قبل أن يولد، ويكلمني عنها وأتعلمها منه وأبيّن أنني أجهلها. فقلت من أين هذا الأدب؟ ومن أين استنبطوه؟ كان الظاهر في ذلك هو فعل جبريل، هو المعلم، فيظهر أمام الناس في صورة المتعلم، وأمام النبي -صلى الله عليه وسلم- في صورة المتعلم. ولذلك جزاءً وفاقاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (جاء جبريل)، هو الذي يعلم ليس أنا الذي علمتكم، (جاء جبريل يعلمكم أمر دينكم)، وهذا هو أبلغ في الأدب طالب العلم.

نسأل الله جلَّ وعلا أن يتقبل منا ومنكم وإياكم الإخلاص. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وجزاكم الله عنا خير الجزاء.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الحادي والثلاثون: باب ذكر احتجاج موسى وآدم عليهما السلام

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك، نسأل الله جلَّ في علاه أن ييسر علينا إتمامه، وهذا فضل الله علينا، ونسأل الله ثبات هذا الفضل إلى الممات. في هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم" نتكلم من الأسبوع الماضي وقبل الماضي على أمور مهمة في السر الذي اختزله الله جلَّ في علاه إن صح التعبير، أو أقول السر الذي لم يكشف الله عنه لأحد، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، الاعتقاد في القدر أو الإيمان بالقدر. واليوم إن شاء الله على موعد مع باب آخر ألا وهو ذكر احتجاج موسى وآدم عليهما السلام.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

باب ذكر احتجاج موسى وآدم عليهما السلام:

عن عمر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن موسى النبي -عليه السلام- قال: يا رب أرنا أبانا الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فأراه الله تعالى آدم -عليه السلام-، فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: نعم، قال: أنت الذي نفخ الله تعالى فيك من روحه وعلّمك الأسماء كلها وأمر ملائكته فسجدوا لك؟

قال: نعم، قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ قال له آدم: ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلمك ربك من وراء حجاب لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم، قال: فما وجدت ذلك في كتاب الله تعالى أن ذلك كائن من قبل أن أُخلَق؟ قال: نعم، قال: ففيمَ تلومني في شيء سبق من الله تعالى في القضاء قبلي؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فحج آدم موسى عليهما السلام).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لقي آدمَ موسى عليهما السلام)؛

(لقي آدمُ موسى عليهما السلام)، (لقي آدمَ موسى عليهما السلام)؛ أيهما الأرجح الآن؟ أين القرينة التي تجعلكم تقدمون وتؤخرون؟ القرينة التي تجعله يرجّح (لقي آدمَ موسى) يعني موسى هو الذي لقي آدمَ، أن موسى هو الذي تقدّم بالطلب من ربه جلَّ في علاه فأكرمه الله فلقي موسى آدمَ.

عن أبي هريرة -رضي عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لقي آدمَ موسى عليهما السلام، فقال: أنت آدم الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال له آدم: أنت الذي اصطفاك الله على الناس برسالته وبكلامه؟ قال: نعم، قال: فلم تجد فيما أنزل الله تعالى عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلنيها؟ قال: نعم، فخصم آدم موسى).

وعنه -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال: فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل عملته كتبه الله علي قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: فحج آدم موسى عليهما السلام).

وعن جندب أو غيره أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (احتج آدم وموسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته؟ فعلت الذي فعلت فأخرجت ذريتك من الجنة؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وآتاك التوراة؟ قال: فأنا أقدم أم الذكر؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فحج آدم موسى عليهما السلام).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (احتج آدم وموسى عليهما السلام، فقال له موسى: أنت أبونا الذي أخرجتنا وأحرمتنا؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكتب لك التوراة بيده؟ فلِمَ تلومني على أمر قدّره الله تعالى عليّ قبل أن يخلقني بأربعين عاماً).

إن الله خلق الخلق لعبادته وتوحيده، قال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، فإن الله خلق الخلق وأمرهم بأوامر شرعية على المرء أن يأتمر بها، فسعادة المرء أن يأتمر بأوامر الله الشرعية، يعمل بها عابداً لله متذللاً خاضعاً ذليلاً. وأيضاً قدّر الله عليه مقادير أو أقدار، ومن سعادة المرء أيضاً أن يرضى بأقدار الله جلَّ في علاه. فإن دائرة العبد الذي من تمام عبوديته ألّا يضرب الشرع بالقدر وأن يأتمر بأمر الله أو بأمر الشرع، وأن يرضى بقدر الله جلَّ في علاه ولا يضرب الشرع بالقدر، هذه هي تمام العبودية للإنسان.

ولذلك ضلت طوائف كثيرة في هذا الباب؛ منهم من أخذ بالقدر فقط، ومنهم من أخذ بالشرع فقط، ومنهم من ضرب الشرع بالقدر، ومنهم من توسط ينظر في هذه الدنيا وفي هذه العبادات بعينين: عين القدر وعين الشرع. وسعادة المرء بالعينين، عين واحدة لا يصل بها المرء، وعين أخرى دون الأولى لا يصل بها المرء، كالجناحين للطائر، إذا طار بجناح واحد لا بد أن يسقط، فلا بد من الجناحين، أن ينظر بعين القدر وأن ينظر بعين الشرع.

وبصدد ذلك نحن أمام مناظرة من أعظم المناظرات، التي تثبت لنا أهمية العلم، وتثبت لنا أنه لا مجال للأبوة ولا البنوة في إظهار الحق، فإن الحق لا بد أن يظهر تأدباً للصغير مع الكبير، تأدباً ورحمةً من الكبير مع الصغير، ومع ذلك لا يشوش هذا على الحق بحال من الأحوال، فلا بد من ظهور الحق.

موسى -عليه السلام- أفضل البشر على الإطلاق وقت أن بعثه الله إلى بني إسرائيل، أو نقول موسى -عليه السلام- من أفضل خمسة من الرسل على الإطلاق على البشر أجمعين بما فيهم آدم -عليه السلام-، لمكانة موسى عند ربه جلَّ في علاه؛ كان يكلمه الله من وراء حجاب، ولم يبعث إليه رسولاً يعني في هذا الكلام، وإلّا سنبيّن أنه أوحى إليه كما أوحى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الله اصطفاه بكلامه. ولمّا سمع موسى كلام الله جلَّ في علاه وشعر بحلاوة ذلك، اشرأبت عنقه إلى ما فوق سماع الكلام، إلى رؤية الباري لمّا حلاوة الكلام جاءت إلى مسامعه؛ (قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) [الأعراف:143].

فالغرض المقصود طلب موسى من ربه أشياء فأكرمه الله بأن لبّى له ما طلبه من هذه المطالب؛ طلب موسى -عليه السلام- أن يرى آدم أباه -عليه السلام- فلبى الله له طلبه، فرأى آدم فناظره مناظرة لطيفة تثبت لك المجادلة بين الابن وأبيه، وأيضاً تظهر لك حنو الأب على الابن. فقام موسى -عليه السلام- يجادل أباه فيما حدث: أنت آدم خلقك الله بيده نفخ فيك من روحه، هذه الفضائل التي كُرّمت بها على البشر أجمعين، كيف

أخرجتنا من الجنة؟ مع أن آدم ما أخرجنا من الجنة، ولكن هذا كما سنبين في الفوائد المستنبطة أن المتسبب كالمباشر. فقال: أخرجتنا ونفسك من الجنة إلى هذا الشقاء، مع أننا كنا في الجنة سنكون في نعيم. فيأتي بلطف باهر عظيم من الأب بحنو مع الابن ويبيّن له أن هذا أمر كتبه الله عليّ في الذكر قبل أن يخلق السماوات والأرض، قبل أن يخلقني قد كتب الله عليّ ذلك.

هنا فصل النزاع شاهداً هو أفضل شاهد على هذه المناظرة، ألا وهو رسول -صلى الله عليه وسلم-، كما تشهد أمته على باقي الأمم شهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على هذه المناظرة وفصل في النزاع وحسم في المادة، ليعلّمنا ما جهلنا والحجة كانت مع أبيه آدم على موسى، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خصم آدم موسى) أو قال: (حج آدم موسى). فالحجة كانت مع آدم، هذا إجمال ما سمعتم من هذه الأحاديث العظيمة الجليلة، ونأتي إلى المسائل التي تتعلق بهذا الباب الجليل.

أهم هذه المسائل حديث عظيم فيه مقولة للنبي -صلى الله عليه وسلم- حيّرت عقول كثير من أهل السنة والجماعة وكثير من طوائف أهل البدع: (حج آدم موسى)، فوقف الناس أمام قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حج ادم موسى)، لاختلاف الفهوم اختلفت طرقهم في النظر لهذا الحديث إلى طوائف ثلاثة:

- طائفة ردت الحديث رداً قوياً وما أخذت به، وقالت هذا حديث آحاد، ولو قلتم كما يترنم بعض أهل الحديث هذا إسناده كالشمس لا يستطيع أحد أن يرده، نعم إسناده كالشمس لكنه من الآحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في العقائد. وهؤلاء الذين يقولون بالقدر، يقولون هو أنف، ردوا الحديث رداً قوياً، وقالوا لو أخذنا بهذا الحديث أبطلنا الشرع بأسره؛ لأنه (حج آدم موسى)، ويقول له: أنت تلومني؟ أنا أكلت من الشجرة، وسوس إليّ الشيطان لكن الله كتب علي أنني سآكل من الشجرة، فاحتج آدم على موسى بأن الله كتب عليه أنه سيأكل من الشجرة. قالوا لو أخذنا بهذا الحديث رددنا كل أوامر الشرع، وما من عاصٍ في الدنيا إلّا وسيقول كتب الله عليّ هذه المعصية؛ (ألم ترَ أن الله قدّر ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض)، وهذا حق. فقالوا لو أخذنا بهذا الحديث كانت هناك حجة لمن يرد الشرع كليةً، فردوا الحديث وقالوا لا نعمل به.

- وطائفة ثانية طاروا بهذا الحديث طير الطير إلى السماء، وفرحوا به فرحاً لم يفرحوا بغيره بحال من الأحوال، وقالوا هذا من أعز وأرجى الأحاديث لنا، هؤلاء الذين يقولون بالجبر. قالوا هذا حديث حجة بليغة ظاهرة باهرة على أن الإنسان ما منه شيء، المسألة من الله جلَّ في علاه، هو يُلقى في اليم مكتوف الأيدي ويقال له إياك إياك أن تبتل بالماء. كيف ذلك؟ هو كالريشة في الهواء، إن الله يحركه كيف شاء. ولذلك قال قائلهم وهو ابن سينا ولا بد أن نصرّح به لأن هذا هو قوله، ابن سينا كان يقول: من تطلّع إلى سر القدر

لم ينكر منكراً. مقولة عظيمة جداً تكتب بماء الذهب لكن ليست في صدور المؤمنين بحال من الأحوال، نريد تفسير هذا الكلام الذي لا يمكن لإنسان مؤمن بالله متعبد له يعمل بالشرع والقدر أن يقول به؟ هم يرون أن الله هو الفاعل حقيقةً ليس العبد، يقول لا يجوز أن تنكر عليه، لأن الله هو الذي فعل هذا. ولذلك قال قائلهم: لو كنت موجوداً عندما قال الله تعالى: (يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، لقلت له أنت الذي جعلتني لم أسجد. نعوذ بالله من الخذلان. فهؤلاء طاروا بهذا الحديث، وقالوا قد حج آدم موسى بشهادة الرسول، وفيها دلالة على أن آدم قال: (ألم ترَ أن الله قد كتب علي ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض؟)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حج آدم موسى).

طوائف من الضلال بمكان عندما قالوا هذه المقولة بالنسبة للقدر.

▪ أمّا الذين ينظرون بعينين، لا بعين عوراء، ينظرون لعين قدر وينظرون إلى عين الشرع، ويوافق القدر الشرع، قالوا: نحن ننظر في فهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، في كلام رسول الله، والمطلوب منا شرعاً أن نفهم مراد الله ونعقل ما يريده الله منا ويريده منا رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فقالوا مقولة الشافعي: آمنت بالله وبما جاء الله على مراد الله، وآمنت برسول وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله؛ كأنهم يقولون ما مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث؟ أو من هذا الكلام؟ قالوا يعتري الحديث احتمالات كثيرة منها:

١- الاحتمال الأول: (حج آدم موسى) معناها أن آدم هو أب لموسى، وأن موسى ابن لآدم، ولا يصح للابن أن يخاصم الأب تأدباً مع الأب، فالحجة الآن أصبحت مع آدم لأنه أبوه. واحترام الأب وتوقير الأب وتعظيم الأب وتبجيل الأب يمنع أن تكون الحجة مع موسى، فالحجة كانت مع آدم لأنه أبوه، هذا الأول، وهذا الاحتمال ضعيف جداً.

إذاً هذا الاحتمال الأول، قالوا هذا الاحتمال معنى كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- (حج آدم موسى)، لأن آدم هو الأب وموسى الابن، فكيف نلغي التوقير والتبجيل والتعظيم ونقول إن موسى هو الذي معه الحجة؟ لا، الحجة مع آدم، والعلة المؤثرة أنه الأب.

٢- الاحتمال الثاني: قالوا إن موسى أخطأ في ملامة آدم، لأنه لامه في دار الجزاء وليس في دار التكليف. اللوم كل اللوم يكون في دار التكليف، لا في دار الجزاء، وآدم الآن في دار الجزاء، فلا يصح الملامة في دار الجزاء، هذا الاحتمال الثاني وهذا ضعيف كما سنبيّن.

٣- الاحتمال الثالث: قالوا (حج آدم موسى)، الحجة لآدم كيف ذلك؟ قالوا لأن موسى قد لام آدم على ذنب قد ارتكبه آدم ثم تاب منه، ومن تاب من ذنب تاب الله عليه، وقد دلت الدلائل على أن الله قد تاب على آدم: (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) [البقرة:37]. فإذا تاب آدم من هذا الذنب بقي كمن لا ذنب له، فكيف يعيّره موسى بذنب قد تاب منه؟ وإن الله جلَّ في علاه إذا تاب على العبد محى له هذه السيئة، بل بدّل السيئات حسنات، فليس لموسى أن تكون له الحجة.

٤- الاحتمال الرابع: هو أن الحجة كانت مع آدم، لأن آدم -عليه السلام- لمّا حجه موسى حجه على مصيبة، ما هي المصيبة؟ أنه أخرجه ومن معه، أخرجه وذريته من الجنة. فلمّا احتج عليه بهذه المصيبة، احتج عليه آدم بأن هذه المصيبة قد قدّرها الله جلَّ في علاه من فوق سبع سماوات قبل أن يخلق السماوات والأرض بأربعين. هذا احتمال رابع على أن الحجة كانت لآدم على موسى، لأن موسى تخاصم معه على مصيبة، والمصائب الذي يقدّرها الله جلَّ في علاه لأن الله جلَّ وعلا قال: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن:11]، فهي من عند الله جلَّ في علاه، فكانت الحجة لموسى.

الآن إلى التحليل والتفنيد وننظر أي الحجج صحيحة وأي الاحتمالات صحيحة، حتى نرجّح هذا القول ونقول هنا نظرنا بعين القدر وعين الشرع فأبطلنا قول القدرية وأبطلنا قول الجبرية. الذين قالوا لا ندفع الحديث، نقول: لا، نحن نقبل الحديث حباً وكرامة وعلى العين وعلى الرأس، هذا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف نرده؟ ولا نقول نطير به وندفع به القدر، نضرب الشرع بالقدر، نوفق بين الشرع والقدر.

الآن هذه الاحتمالات منها ما هو ضعيف ومنها ما هو قوي ومنها ما هو الأقوى، أين مواطن الضعف؟ وكيفية الرد؟ هذه احتمالات أربع وممكن أن نورد على ذلك احتمالين آخرين لكن قلت نقصر المسافة.

أقول أربع احتمالات فيهم ضعف وفيهم قوة؟

أول واحد هو أضعف الاحتمالات، الأبوة والبنوة ليست علة مؤثرة في الحق، لا تظهر حقاً ولا تبطله، والدلالة على ذلك من الشرع كثيرة؛ آزر كان عماً أو كان أباً لإبراهيم -عليه السلام- ولم تكن الحجة معه بل الحجة مع إبراهيم وقال: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ) [مريم:43]، وبيّن له (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) [مريم:44]، (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) [مريم:46]، فذهب عنه واستغفر له، بعد ذلك نُهِيَ عنه، الغرض المقصود كان آزر أباه ولم يكن الحق معه بحال من الأحوال.

أيضاً إذا أتينا بالمثل الذي يثبت أن الأبوة لا تكون قرينة للحق، أيضا البنوة ليست قرينة بالحق؛ نوح -عليه السلام- ابنه معه، كان الحق مع نوح؛ (يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ) [هود:42-43]، فكانت الأبوة هنا الحق معها.

فالأبوة والبنوة ليست مؤثرة في حق ولا في غيره، فإذاً الكلام الأول ضعيف جداً، ليست الحجة مع آدم لأنه أبوه وليست الحجة مع موسى، أو الحجة ليست على موسى لأنه ابن والصغير يكبر للكبير. لا والله، الحق حق إذا كان مع الصغير أو كان مع الكبير، وهذه دلالة واضحة جداً سنبيّنها في الفوائد المستنبطة. فالأول ضعيف، والضعف ظاهر جداً من قصص القرآن ومن تعامل الأنبياء بعضهم مع بعض.

الثاني؛ قال احتجاج موسى على آدم في دار الجزاء وهذا لا يصح، الاحتجاجات تكون في دار التكليف لا في دار الجزاء. هذا الكلام ضعيف من وجهين:

- الوجه الأول: لو كانت الحجة لآدم بهذا لبيّنه، لقال: يا موسى كيف تلومني وأنا في دار الجزاء ولا ملامة على أحد في دار الجزاء؟ فهذه حجة بيّنة كان لا بد أن يبيّنها آدم، فلمّا لم يبيّنها علمنا أنها ليست حجة لآدم.

- الوجه الثاني: وهو مهم جداً، نقول هذه حجة باهتة، لأن دار الجزاء فيها ملامة، أمّا رأيت أن الملائكة يوبخون أهل النار؛ (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ *قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ) [الملك:8-9]، وأيضاً (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) [الزخرف:77]. فالملامة موجودة، والله جلَّ وعلا سيلوم ويوبخ أهل الكفر عندما يأتي بالكافر فيقول: (لو أن لك ما في الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب يوم القيامة؟ قال: اللهم نعم، قال: طلبت منك ما هو أهون من ذلك) هذا توبيخ، (طلبت منك أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلّا الشرك)، فدار الجزاء فيها الحجة وفيها التوبيخ.

أيضاً أربعة لهم الحجة على الله يوم القيامة، في دار الجزاء: الأصم والخرف الهرم والأحمق وأهل الفترة، للدلالة على أن هذه الحجة باهتة ضعيفة.

الثالثة صراحة من القوة بمكان، القول الثالث قالوا: قد لام موسى آدم على ذنب تاب منه آدم -عليه السلام-، والذي يعيّر أحداً بذنب تقول: لا بد أن يقع فيه، ولا يصح لمؤمن أن يعيّر لمؤمنٍ مؤمناً بذنب، لا سيما إن كان قد تاب منه. فلذلك كانت الحجة مع آدم لأنه قد تاب من الذنب، ومن تاب من ذنبه كمن لا ذنب له. نقول وإن كان هذا الباب أو هذه الحجة قوية لكن أيضاً فيها ضعف والرد عليها من وجوه ثلاثة:

- لو كانت حجةً له لقال آدم: كيف تلومني يا موسى على ذنب تاب الله عليّ منه؟ ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له، فكيف تجرؤ أن تلومني وتعيّرني على ذنب تاب الله عليّ منه؟

- والوجه الثاني يبعد كل البعد؛ موسى كليم الرحمن، موسى أفضل الخلق في وقته أن يعيّر أحداً بذنبه بحال من الأحوال، آحاد المؤمنين لا يفعل ذلك.

- موسى نفسه قد وقع في ذنب وما رضي أن يُلام عليه عندما قتل الرجل ثم قال: (هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ) [القصص:15-16]. فما قبل أن يلومه فرعون على ذلك؛ (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ) [الشعراء:19]، ما رضي من فرعون أن يذكّره حتى بقتل هذه النفس. فالغرض المقصود أن آحاد المؤمنين لا يمكن أن يلوم أحد على ذنب قد تاب منه، فكيف يقع موسى الكليم في هذا؟ فهذا الوجه الثاني الذي يبيّن ضعف هذه المسألة، موسى ليس له أن يلوم آدم عليه السلام من ذنب تاب منه، لأن من تاب من الذنب قد تاب الله عليه.

نقول أقوى الأقوال هو القول الرابع، وأن حجة آدم كانت على موسى أن موسى لمّا احتج على آدم احتج عليه بالمصيبة؛ أما رأيت ما فعلت بنا؟ ما هذه المصيبة العظيمة التي ابتلينا بها بسببك أنك أخرجتنا من الجنة؟ قال: (أخرجتنا ونفسك من الجنة). وهذا القول الراجح الصحيح، أن حجة آدم كانت على موسى لأن موسى لامه على المصيبة، فلمّا لامه على المصيبة قال هنا يصح لي أن أحتج بالقدر، إذ الاحتجاج بالقدر على المصائب وليس على المعايب، فقال له: قدّر الله وما شاء فعل، قدّر الله أن تخرج أنت ويخرج من بعدك وتخرج الذرية كلها من الجنة، وهذه مصيبة قدّرها الله قبل أن يخلق السماوات والأرض.

وقد قلنا للإنسان أن يحتج بالقدر في المصائب وليس له أن يحتج بالقدر في المعايب، وهذه التي تجرنا إلى المسألة الثانية في هذا الحديث وهي حالات الاحتجاج بالقدر.

حالات الاحتجاج بالقدر حالتان:

♦ الحالة الأولى حالة ممنوعة، حرام البته، لا يستطيع المرء فيها أن يحتج بالقدر، وإلّا لضرب الشرع بالقدر ووصل إلى درجة الجبرية، وهؤلاء أضل قوم هم الجبرية الذين ضربوا القدر بالشرع، لأنهم سووا بين إبليس وبين جبريل -عليه السلام-.

فنقول الاحتجاج بالقدر على المعاصي لا يجوز بحال من الأحوال، وهذه نبيّنها في نقاط عدة قد نفاها الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن

قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) [النحل:35]، هنا إشارة على أن الله كذّبهم، الرسل جاؤوا يبينون لكم أن هذا أمر لا بد أن تأتمروا به والقدر لا بد أن تحملوه وترضوا به. في الآية الأخرى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ)، ماذا قال الله تعالى؟ (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا) [الأنعام:148]، فكذّبهم الله جلَّ في علاه. فنقول هذه آيات تثبت لنا أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي لا يجوز بحال من الأحوال، وتفسير ذلك:

١- أولاً أن الله جلَّ في علاه جعل المعاصي من فعل العبد وليس من فعل الرب، فلا يجوز أن ينسبها لله جلَّ في علاه، عندما قال: (إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) [الأعراف:28-29]، فهذا رد عليهم. فنقول أولاً نسب الله المعاصي لفعل العبد هذه دلالة على أن العبد فعل ذلك، قال الله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [الروم:41]، وقال تعالى: (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [التوبة:82] فهذا كسب المرء وهذا عمل المرء.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، فمن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى). قال الله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا) هذا من فعلهم، (فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]، فكل هذه أفعال نسبت للعبد. إذاً الطريق الأول الذي يبين لنا أن الحجة عليهم وليست لهم في الاحتجاج بالمعاصي أن فعل العبد منسوب للعبد.

٢- النقطة الثانية أن نقول صدق الله في قوله سبحانه جلَّ في علاه أنه لا يظلم أحداً، قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) [النساء:40]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً)، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]. فإن كانت المعصية أو القدر حجة للعاصي فإن الله سيظلم، لأنه سيعذّب عبداً بغير جريرته، بغير فعله، وهذا مخالف لقول الله تعالى: (إني حرّمت الظلم على نفسي)، وقول الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44].

٣- وأمّا الثالثة الاحتجاج بالقدر إثبات ما نفاه الله جلَّ في علاه ويتضمن ذلك تكذيب الله، ونحن لا نقول أنهم يكذّبون الله، لكن نقول أن هذا من اللوازم الباطلة. الاحتجاج بالقدر فيه نفي ما أثبته الله أو فيه إثبات ما نفاه الله جلَّ في علاه، في الحالتين يتضمن تكذيب الله جلَّ في علاه، فهذه من اللوازم الباطلة التي تجعلنا نقول الاحتجاج بالقدر لا يجوز بحال من الأحوال، لأنه يلزم ممن احتج بالقدر أنه سيكذّب الله؛ الآية لمّا قالوا ما أشركنا إلّا بأمر الله جلَّ في علاه (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا)، كذّبهم الله قال: (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا) [الأنعام:148]. والآية هذه أجلى ما تكون: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) [الروم:41] فالله جلَّ وعلا نسب سبب الفساد في البر والبحر (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)، هذا إثبات من الله. هم جاءوا وقالوا هذا ليس من كسب أيدي الناس، بل هو من فعل الله، فنفوا ما أثبته الله. ونفي ما أثبته الله جلَّ في علاه يستلزم تكذيب الله جلَّ في علاه، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87].

نقول إذاً الآن لا يصح لأحد أن يحتج بالقدر على المعاصي بحال من الأحوال، لأنه لو احتج بالقدر كذّب الله جلَّ في علاه، لو احتج بالقدر كذّب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لو احتج بالقدر ضرب الشرع بالقدر وهو مأمور أن يتعبّد الله بالرضا بالقدر ويأتمر بأمر الشرع، وسعادة المرء أن يكون عابداً لله جلَّ في علاه، أن يرضى بقدر الله وأن يأتمر بأمر الله الشرعي، هذه الوجهة الأولى.

إذاً الحالة الأولى الاحتجاج بالقدر على المعاصي يمنع منعاً باتاً، إلّا في حالة واحدة مستثناة وهي إذا فعل العبد ذنباً ثم تاب من هذا الذنب فرفع اللوم، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. فمن تاب من الذنب رفع اللوم عنه، فإذا رفع اللوم له أن يحتج بالقدر، يقول قد قدّر الله عليه هذا الذنب بعد ما تاب منه، وهذا يستقى ويستخلص بأن موسى قال لآدم: (أغويتنا)، فأشار إليه بالذنب الذي وقع فيه من أكل الشجرة، قال وبيّن له أنه قد تاب. وإجمال احتجاج آدم بقدر الله جلَّ في علاه على المصيبة وأيضاً بقدر الله على الأكل من الشجرة، فلمّا احتج بذلك قلنا هذه حجة، وإن لم تكن حجة لمن قال في القول الثالث، لكن هو حجة تستخلص لأن التائب من الذنب رفعت عنه الملامة، فإذا رفعت عنه الملامة يصح أن يقول قدر الله وما شاء فعل عليّ هذا الذنب، يقول قد كتب الله عليّ هذا الذنب وقد تبت منه. فمن تاب من الذنب في هذه الحالة فقط من الاحتجاج بالقدر على الذنوب أن يتوب منها، فإن تاب منها له بعد رفع الملامة عنه أن يقول قدر الله وما شاء فعل.

♦ الحالة الثانية: له أن يحتج بالقدر في المصائب وليس في المعايب، وهذه قاعدة قوية جداً، لو ما خرجت من الدرس إلّا بها كان أولى لكم، الاحتجاج بالقدر على المعايب ما يصح، لكن على المصائب يصح.

الاحتجاج بالقدر على المصائب له دلائل قولية وفعلية:

▪ أمّا الدلائل قولية؛ فقد قال الله تعالى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن:11]؛ (وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ) يعني يرضى بهذا القدر (يَهْدِ قَلْبَهُ) له أن يحتج به، هذه فيها إشارة.

▪ أمّا الدلالات الفعلية فكثيرة جداً منها:

- أولاً هذا الحديث؛ فإن آدم -عليه السلام- لمّا حجه موسى على المصيبة قال: (أخرجتنا ونفسك من الجنة)، قال: قدّر الله وما شاء فعل، فاحتج على هذه المصيبة بأنها كتبت قبل أن يخلق الله السماوات والأرض.

- الثاني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نام عن صلاة الفجر، وهذه مصيبة. نام النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما عرس بالليل، وقال بلال أنا احفظ لكم الفجر، ناموا فغلب بلال النوم فما استيقظ إلّا عمر، حر الشمس هو الذي أيقظ عمر. فقام عمر قال: الله أكبر ضاعت الصلاة، فأيقظ النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أرواحنا بيد الله يقبضها حيثما شاء ويبعثها حيثما شاء، انطلقوا من هذا الوادي، هذا الوادي فيه شيطان)، فذهب إلى وادٍ آخر، أذّن بلال وصلى النبي -صلى الله عليه وسلم- السنة ثم أقام ثم صلى الفجر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- احتج بالقدر على هذه المصيبة.

- أيضاً من القول قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير)، قال في هذا الحديث: (فإن أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل)، فأنت هنا يبيّن لك النبي -صلى الله عليه وسلم- قولاً أنك تحتج على المصيبة بقولك "قدّر الله وما شاء فعل". (فإن أصابك شيء)؛ هذه معناها أصابك شيء بلا دخل من نفسك، أصابك شيء دون ملامة عليك، فأنت لك هنا في المصائب التي لا دخل لك فيها، لا بمعصيتك، أن تقول قدّر الله وما شاء فعل، لأن "لو" تفتح عمل الشيطان.

- أيضاً علي بن أبي طالب نام طيلة الليل ونامت فاطمة، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فأيقظ الاثنين فقال: (أما تقوما تصليا من الليل)، فقام علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله أرواحنا بيد الله يقبضها كيف يشاء ويبعثها كيف يشاء، النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يستطيع أن ينكر لأنه هنا احتج بقدرٍ على مصيبة، فلمّا سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطاه ظهره وضرب على فخذه وقال: (وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف:54]. هو ما لامه، هذا جدل بحق لأن الروح بيد الله جلّ في علاه، فهنا له أن يحتج بها في هذه المسألة.

للمرء أن يحتج بالقدر في المصائب التي لا دخل له فيها، وليس بسبب معصيته، يحل للإنسان أن يفعل ذلك، وهذه هي المسألة المهمة الثانية التي تتعلق بهذا الحديث الجليل العظيم وهي قول آدم لموسى: (أنت موسى)، ثم ذكر علته، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حج آدم موسى) لأنه احتج بالقدر على المصيبة، (قد كتبها الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بأربعين)، قدّر الله وما شاء فعل.

الفوائد المستنبطة:

١- آدم أول مخلوق بشري، رداً على صلاح عبد الصبور بالتصريح، قال: آدم له أب وأم؛ هذا الحديث رد قاطع عليه، ومن ليس عنده علم بحال من الأحوال وعرف هذا الحديث سيرد عليه ولا يستطيع أن يرده كيف ذلك؟ الغرض المقصود أن في غاغة طلعت وقالت آدم ليس بأول البشر، بل ليس بأبو البشر هو له أب وأم، كيف الرد عليه بهذا الحديث؟ والله رد باهر قاطع فاصل في النزاع قال له: (أنت أبو البشر)، فلو كان هناك بشر قبل آدم ما يقال أنت أبو البشر، لأن أنا ما وجدت إلّا أن تجدوا أنتم فتعلموني ما جهلت، ما وجدت أن ابناً ينجب الأب وجدتم ذلك؟ لا في البشر ولا في الحيوانات ولا في أحد. إذاً لمّا يقول: (أنت أبو البشر)، قبل آدم كان ابنه وابنه هو الذي انجبه؟!! هذه دلالة على أن الأب الوحيد أو الأب الأصلي هو آدم، هذا رد قاطع قاصم للظهور لمن يقول أن هناك خلق قبل آدم.

٢- من تسبب في شيء كمن باشره، سواء كان خيراً أم شراً؛ وهذه قاعدة تنسحب في الحكم على من يبيع العنب لمن يعتصره خمراً، على من يبيع الموس لمن يحلق لحيته، على من يبيع تبغ لمن يستخدمه دخاناً. هذه مستنبطة من هذا الحديث بأن آدم -عليه السلام- هو السبب في خروج كل البشرية من الجنة، ولذلك قال له موسى: (أنت أخرجتنا ونفسك)، ما قال نفسك مع أنه ما أخرجها، ولأنه تسبب في خروجنا فكأنه الذي أخرجنا، هذه تدل على القاعدة العريضة المتسبب كالمباشر، ومنها من تعاون على شيء له أجره؛ إن تعاون على خير فخير وإن تعاون على شر فشر، فينسحب الحكم لمن باع عنباً لمن يعتصره خمراً من باب المتسبب كالمباشر، الذي يعتصره خمراً ما اعتصره خمراً حتى أخذه عنباً، فنزل هذا وذاك سواء في الوزر.

٣- إضافة الروح لله جلَّ في علاه إضافة تشريف، عندما قال: (خلقك الله بيديه ونفخ فيك من روحه)، هل آدم فيه جزء من الله جلَّ في علاه؟ حاشا لله، (نفخ فيك من روحه) يعني روح عنده، روح خلقها الله جلَّ في علاه.

والمضاف إلى الله نوعان: إضافة تشريف وإضافة معنى "صفة إلى موصوف". إذا قلت رب العزة، إضافة الصفة للموصوف، العزة معنى، فإذا أضيفت إلى الله إضافة صفة للموصوف. وأمّا الكعبة فهذا ليس معنى ولكنه عين قائمة، فتقول الكعبة بيت الله، فإضافتها لله تشريف. فيقول: (روح منه)، يعني رح من عند الله جلَّ في علاه، لأن الروح كينونة لها كيان، فالروح لها عين يعلم الله مداها. عيسى روح الله، يعني روح من عند الله جلَّ في علاه.

٤- قول آدم -عليه السلام-: (لم يجعل بينك وبينه رسولاً) هذا عام مخصوص، بل جعل الله بينه وبينه رسولاً. نقول هذا عام مخصوص، والصحيح الراجح أنه لم يجعل بينك

وبينه رسولاً في أن تسمع كلامه ويكلمك الله جلَّ في علاه من وراء حجاب. دليل على هذه الفائدة؟

قلنا هذا عام مخصوص، ما يمكن أن نقول: لا هناك رسول بين الله وبين موسى -عليه السلام-، لكن هذا يراد به عند الكلام وعند سماع الكلام ليس بينه وبينه رسول، من وراء حجاب كلمه الله فسمعه موسى وقال: (أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ) [الأعراف:143]؛ نقول الآن (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ) [الشعراء:63]، لها متعلق، فالوحي لابد يكون رسول. نقول: لا، كلاماً إلّا أن تأتي بقرينة دليل يثبت أن جبريل كان يأتي لموسى؟ إذا أتيت بدليل جبريل يأتي لموسى نقول هذا عام مخصوص. حديث ورقة بن نوفل، عندما جاء وقص عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- القصص ماذا قال؟ قال: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، فهذه فيها دلالة واضحة جداً أن جبريل كان يأتي موسى. إذاً قول آدم لموسى: (لم يجعل بينك وبينه رسولاً)، هذا عام مخصوص، وهذه فائدة أصولية قوية جداً لطلبة العلم.

٥- إثبات صفات لله جلَّ في علاه سواء صفات فعلية أو صفات ذاتية؛ أثبت صفة الخلق، أثبت صفة الكلام، أثبت صفة اليدين لله جلَّ في علاه، مجموع هذه القدرة. هذه إثبات الصفات لله جلَّ في علاه، والفرق بين هذه الصفات: صفة الكلام، صفة اليد، صفة الخلق:

▪ صفة الخلق: فعلية تتعلق بالمشيئة، ضابطها إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق، وهذه أوضح ما تكون صورة الجنين الذي يسقط؛ (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا) [الشورى:49-50]. وأيضاً نقول إن الله جلَّ في علاه إذا قدّر أن الجنين يحيا يحيا، وإلّا إذا قدر سقوطه يسقط ولا يُخلق، فإن شاء خلق وإن شاء لم يخلق.

▪ صفة الكلام: صفة ذاتية فعلية، إن شاء تكلم وإن شاء لا يتكلم؛ سيتكلم في عرصات يوم القيامة إن شاء، وتكلم مع موسى عندما جاء موسى، فإن شاء تكلم وان شاء لم يتكلم سبحانه جلَّ في علاه.

▪ صفة اليد: صفة ذاتية خبرية ضابطها أنها مسمّاها عندنا أجزاء وأبعاض، كاليد والعين والساق.

٦- كتب الله بيده؛ إذاً الله يكتب؟ نعم هذه صفة الكتابة لله، تثبت لله، ونؤمن بذلك. قد كتب الله بيده، كيف كتب الله بيده؟ كتب التوراة بيده، بكيفية نعلمها علم اليقين أنها كيفية تليق بجلال الله وكمال الله وهي غائبة عنا والسؤال عنها بدعة، والدلالة على ذلك أنه قال: (وكتب لك)، في رواية قال: (خط لك التوراة بيده).

٧- الفضائل تخص، وتفسير آخر يمكن أن يكون للمفضول علم ليس عند الفاضل، كيف ذلك؟ من أين أتينا بهذه الفائدة؟ ائتوني بالأدلة على أن المفضول هو آدم وأن موسى هو الفاضل؟ الله جلَّ وعلا فضّل النبيين والمرسلين على الخلق أجمعين، ثم فضّل عليهم أولو العزم وموسى من أولو العزم كما قال الله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) [النساء:164]، (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) [البقرة:253]. هذه دلالة على أن موسى هو الفاضل وآدم كان المفضول، ومع ذلك العلم كان عند آدم وليس عند موسى، وقد حج آدم موسى.

وهذه ظهرت مع موسى مرتين؛ لمّا موسى سئل من أعلم أهل الأرض؟ قال: أنا، لمّا قال أنا، انظروا التهذيب جاء مرتين. وهذه تدلك على قاعدة أهل السلف يقولون بها: التخلية قبله التحلية، ولولا أن موسى يقر في نفسه من تواضعه أنه ليس بأفضل البشر ما أوتي هذه المنزلة. كما ورد في الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب؛ أوحي إلى موسى: أتعرف لِمَ فضلتك على الناس واصطفيتك بكلامي وبرسالتي؟ قال: لا أعرف، قال: ما رأيت أحداً إلّا أقررت في نفسك أنه أفضل منك. تواضع عالي، (من تواضع لله هكذا رفعه الله هكذا)، فلذلك جعله الله جلَّ وعلا فوق البشر أجمعين في عصره.

لكن لمّا قال: أنا أعلم أهل الأرض، قالها ليس تكبراً، ولكن قالها ضمناً لأن الله اصطفاه وكلمه وبعث إليه جبريل، فعلم أنه من الرسل ومن أولو العزم من الرسل، فهو أعلم أهل الأرض. فهذّبت هذه الصفة مرتين:

- المرة الأولى مع الخضر؛ موسى جاء للخضر يتعلم، وهذه دلالة على قمة تواضع موسى، قالها ضمناً ما قالها كبراً، ولذلك تواضع للخضر وأتى خلفه وقال: (أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) [الكهف:66]، لكن صبره نفد، ما استطاع أن يصبر. وهذه دلالة على أن الذي يتواضع يتعلم، والذي يتكبر لا يمكن أن يأتيه العلم، ولذلك ابن عيينة قعّد قاعدة قال: نبل المرء يظهر أن يتعلم ممن هو دونه قبل أن يتعلم ممن هو فوق. وذهب موسى يتعلم من الخضر.

- ثم بعد ذلك جاءت الحجة القوية من آدم على موسى، والله جلَّ في علاه يؤتي فضله من يشاء.

٨- الرد على النصارى في عقيدتهم؛ (نفخ فيك من روحه)، فيه رد عليه في مسألة روح منه، أنتم تقولون إن آدم مخلوق من تراب كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنت آدم خلقك الله ونفخ فيك من روحه)، وأيضاً عيسى نفخ الله فيه من روحه. الروح هنا روح من عند الله، وليس من الله، وليست جزءً من الله جلَّ في علاه، لأنكم قلتم آدم ليس جزءً من الله فعيسى ليس جزءً من الله، وهذه بالإشارة.

أمّا بالتصريح فهو رد عليهم في عقيدة التثليث أو نقول في عقيدة المخلِّص أو عقيدة الفداء؛ هم يعتقدون أن عيسى -عليه السلام- ما بعثه الله إلّا ليفدي به جميع الخلائق من خطيئة آدم، لأن آدم لمّا أخطأ البشرية بأسرها كانت ستؤخذ بخطيئة آدم، فبعث الله المخلِّص وهو عيسى، فكيف يكون هذا رد عليهم؟ الله تاب على آدم -عليه السلام-، فإن تاب الله على آدم فكيف يأخذ ذريته بالذنب، (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [الأنفال:51].

٩- أدب نبينا الجم، من أين نأخذ هذا؟ مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أظهر الحق: (حج آدم موسى)؟! قال: (موسى النبي)، فلقّب موسى أدباً منه. وقال: (عليهما السلام)، هذا من أدب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ينزل الناس منازلهم ويعرف لكل ذي قدر قدره. قال: (موسى النبي) لقّبه، وأيضاً قال: (عليهما السلام) تأدباً مع أبيه ومع أخيه موسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام، هذا دلالة على أدب النبي -صلى الله عليه وسلم- الجم.

١٠- القدر كان في شرع من قبلنا؛ قال: (ألا تجد ذلك أن الله قد كتب هذا قبل أن يخلق السموات والأرض بأربعين)، هذه دلالة على أن في كتب موسى أو التوراة التي خطها الله بيده وأوحاها إلى موسى يكتب فيها القدر، وأن الإنسان يحتج بالقدر على المصائب.

١١- حنو الأب مع الابن؛ صحيح أن موسى -عليه السلام- كان يجادل حتى يظهر الحق، فلمّا ظهر له الحق انصاع وسكت، لكن هنا يظهر لنا أمر مهم جداً ألا وهو حنو الأب مع الابن، كيف ذلك؟ قال له بحنو الأب: (أنت الذي اصطفاك ربك بكلامه؟ أنت الذي فضلك على البشر؟ أنت الذي كتب الله لك التوراة بيده؟)، بيّن فضائل موسى، وموسى مع ذلك اشتد وقال: (أنت أغويتنا، أنت أخرجتنا). فهذه دلالة على حنو الأب مع الابن حتى ولو كان هناك شدة في الجدال، لأن الأب يعلم أن الابن ما يجادل إلّا ليظهر الحق. سبحان الله!

١٢- أهمية العلم، من أين نأخذ هذا؟ جعل الله الحجة مع آدم على موسى مع أنه المفضول، لما فضله عليه من العلم. وهذا يدلك أيضاً على أن آدم كان فضله على الملائكة بالعلم، عندما قال: (أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ) [البقرة:31]، فعجزوا وما استطاعوا، فلمّا تعلم آدم الأسماء وبيّن الله فضل آدم بعلمه عليهم سجدوا لآدم وعلموا أنه من الفضل بمكان بهذا العلم، وهذه دلالة على أهمية العلم. ويا لسعادة آدم -عليه السلام- لمّا كانت الحجة معه، لأنه كان أرقى علماً في هذه المسألة فقط.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله عنا خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثاني والثلاثون: إنما تعملون في أمر قد فرغ منه

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

بفضل الله وبكرمه وحوله وقوته ومنه علينا ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل "كتاب السنة"، ونسأل الله أن يديم علينا هذه الخيرات ما حيينا، اليوم إن شاء الله سنتكلم في أمر هام وهو باب من أهم الأبواب، هو باب القدر، وقلت لكم كثيراً أبواب القدر أبواب من أشق ما تكون، من أتقن هذه الأبواب أتقن أبواب العقيدة بأسرها. واليوم نحن على موعد مع أمر معين، سأوصل لكم بإذن الله تأصيلات ثلاث من اتقنها الذي يأتي بعده يكون أيسر ما يكون. اليوم إن شاء الله على موعد مع باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إنما تعملون في أمر قد فرغ منه).

الحمد لله الصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إنما تعملون في أمر قد فرغ منه)

عن عمر بن الخطاب أنه قال: (قلت: يا رسول الله أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه أم على أمر نستقبله؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: بل على أمر قد فرغ

منه، قال عمر: ففيمَ العمل؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: كلا لا ينال إلّا بعمل، فقال عمر: إذاً نجتهد).

وعن ابن عمر عن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (أرأيت ما يعمل فيه قد فرغ منه أو في أمر مبتدأ؟ قال: فيما قد فرغ منه، فقال عمر: أفلا نتكل؟ فقال: اعمل يا ابن الخطاب فكلٌ ميسر، أمّا من كان من أهل السعادة يعمل للسعادة ومن كان من أهل الشقاء يعمل للشقاء).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: (يا رسول الله أنعمل في أمر نأتنفه أم في أمر قد فرغ منه؟ قال: بل في أمر قد فرغ منه، فقال: ففيمَ العمل؟ فقال: يا عمر كلا، لا يدرك إلّا بعمل، قال: فالآن نجتهد يا رسول الله).

وعن سراقة بن مالك قال: (قلت: يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أم نستأنف العمل؟ قال: نعمل لشيء قد فرغ منه، قلت: يا رسول الله ففيمَ العمل؟ قال: كلٌ ميسر له عمله، قال: فالآن نجد، الآن نجد، الآن نجد).

وعن هشام بن حكيم أن رجلا أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (يا رسول الله انبتدئ الأعمال أم قد قضي القضاء؟ فقال: إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميّسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميّسرون لعمل أهل النار).

وعن عمر -رضي الله عنه- قال: لمّا نزلت هذه الآية: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) [هود:105]، سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: أنعمل على أمر قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ قال: (بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، وكلٌ ميسر لما خلق له)، وإسناده ضعيف.

هذا الباب باب عظيم يبيّن للناس أن الأمر قد انتهى، أو (قد فرغ ربكم من العباد، أهل الجنة عرفوا بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأهل النار عرفوا بأسمائهم وأسماء آبائهم). أقول هذه المسألة صعيبة جداً على كثير من الناس، ما ترى إلّا أن ينجم لك سؤالاً مهماً جداً، يقول الرجل: إذا فرغ ربنا من العباد ففيمَ العمل؟ كما فعل الصحابة، الآن أهل الجنة قد عرفوا وأهل النار قد عرفوا، ولِمَ خلق الله جلَّ في علاه للجنة أناساً وللنار أناساً؟ لِمَ لم يجعلهم كلهم لهم لأهل الجنة؟ أو يجعلهم كلهم لأهل النار؟ هذا سؤال ينجم عن كثير من الذين لا يتقنون هذا الباب.

أقول قبل أن نلج في هذا الباب العظيم نيسره بتأصيلات ثلاثة:

- أول هذه التأصيلات: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) [الأنبياء:23]، إن الله جلَّ في علاه لا يُسأل عن شيء فعله البتة سبحانه جلَّ في علاه، وكل الخلق يسألون، لأن الله

له الكمال المطلق وله الحكمة المطلقة يضع الشيء في موضعه، وأن الله جلَّ في علاه كل أفعاله خارجة عن كمالات سبحانه جلَّ في علاه. فلذلك (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)، فلو عذّب أهل السماوات والأرض لا يُسأل عن ذلك، ولو نعّم أهل السماوات والأرض فلا يُسأل عن ذلك لحكمة منه سبحانه جلَّ في علاه، إذاً (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) لأنه الحكيم العليم الذي يضع الشيء في موضعه.

▪ التأصيل الثاني: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]، (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)[الأنفال:51]، إذا خلق هؤلاء للنار وأدخلهم النار ليس بظالم لهم، وإذا خلق هؤلاء للجنة وأدخلهم الجنة فليس بظالم لهم سبحانه جلَّ في علاه، يعلم ما خفي ويعلم ما ظهر. قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]، وقال جلَّ في علاه: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [النحل:118]، (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [النحل:33]. وأيضاً في الحديث القدسي أشرف حديث لأهل الشام كما في الصحيح، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً). فالله جلَّ في علاه ليس بظلام للعبيد، فلو خلق كل الخلق وأكبهم عن بكرة أبيهم في النار فليس بظالم لهم سبحانه جلَّ في علاه، وحاشاه. ولذلك في السنن بسند صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو عذّب الله أهل السماوات وأهل الأراضين لم يكن ظالماً لهم)، هذا التأصيل الثاني الذي يريحك فيما سيأتي بأن ربك قد فرغ من العباد.

▪ التأصيل الثالث: رحمة الله قد سبقت غضب الله، ولا يهلك على الله إلّا هالك، والدلالة على ذلك كثيرة؛ لأن الله تعالى قال: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف:156]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) [النساء:122]، (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) [النساء:87]، وأيضاً في الحديث القدسي كما في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كتب كتاباً عند العرش قال: رحمتي سبقت غضبي). فرحمة الله تدرك الأمة بأسرها.

انظروا إلى رحمات الله، دعك من المسلمين الآن ورحمات الله سابغة عليهم تنزل تتراً ليل نهار على المسلمين، انظر إلى أهل الكفر، بل أعتى أهل الكفر الذين يسبون الله وينتقصون من قدره وينتقصون من قدر رسوله -صلى الله عليه وسلم- وينتقصون من قدر رسله جميعاً، الذين ينسبون له الولد ويسبونه ويشتمونه، ومع ذلك من رحمة الله جلَّ في علاه أنه يعافيهم في أبدانهم ويرزقهم من الدنيا ما اشتهوا وما لم يشتهوا، وأيضاً أعطاهم الله جلَّ في علاه أكثر وفوق ما يأملون من هذه الدنيا، هذه من رحمات الله جلَّ في علاه. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- متعجباً مندهشاً: (ما رأيت أحدا أصبر على أذى من الله جلَّ في علاه، يسبونه وينسبون له الولد، ويرزقهم ويعافيهم)، فرحمة الله سبقت غضب الله جلَّ في علاه ورحمة الله سابغة على عباد الله جلَّ في علاه.

إذاً لا يهلك على الله إلّا هالك، فمن رحمة الله جلَّ في علاه خلق العباد، وخلقهم ليبيّن لهم ويرشدهم ما يسعدهم، فأبوا عليه ذلك، ولذلك قال الله تعالى: (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) [هود:118-119]، اختلف أهل التفسير وأرجح التفسيرات في هذه: ولرحمته خلقهم، يعني ولذلك لأن يرحمهم خلقهم لكن أبوا عليه الرحمة. (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]، ما ترى واحداً من أهل الكفر أو من الزناة أو من العصاة أو من الفسّاق إلّا وجعل الله وازع الإيمان في قلبه وجعل من ينصحه وجعل من يرشده وجعل من يرده عما هو فيه، وهو عاتي ما يريد إلّا ذلك. قال الله تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36]، فلا يهلك على الله إلّا هالك.

ثلاث تأصيلات، إن ضبطت هذه التأصيلات وعلمتها وفقهتها سهل عليك هذا الباب جداً.

هذه الأحاديث العظيمة مجمل الشرح فيها خلق الله الخلق، أو خلق الله آدم -كما وردت الآثار- ومسح على ظهره فأخرج كل ذريته ثم أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ فشهدوا بربوبية الله قاطبةً جميعاً، شهدوا بربوبية الله جلَّ في علاه فأشهدهم على أنفسهم، وهذا ميثاق الذر: (مسح على ظهر آدم وأخرج الذرية وأشهدهم على أنفسهم/ الست بربكم؟ قالوا: بلى)، في بعض الآثار: (إن الله جلَّ وعلا أخذ بكفه بيده اليمنى قال: هؤلاء أهل الجنة ويعملون بعمل أهل الجنة، وباليد الأخرى هؤلاء في النار ويعملون بعمل أهل النار، فرغ ربكم من العباد). فلمّا خلق الله الخلق قسمهم إلى فريقين: فريق قد سعدوا وفريق قد بائسو شقوا، هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار. وقد ورد في الآثار والأدلة الكثيرة التي تثبت لنا ذلك، ولذلك سنتعرض لهذه الأحاديث في الكلام عن مسألتين:

- المسألة الأولى: (فرغ ربكم من العباد)
- المسألة الثانية: هل يدعو ذلك إلى التقاعس؟ هل يدعو ذلك إلى الاتكال على الكتب أو القدر المقدور؟

- الأول: (فرغ ربكم من العباد)، نعم فرغ ربنا من العباد قبل أن يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة، كتب أسماء أهل الجنة وآباء أهل الجنة والذين في الجنة والصغار الذين في الجنة، وكتب أسماء أهل النار وآباء الذين في النار والصغار الذين يكونون في أهل النار، إذا قلنا بأن صغار المشركين في النار على المرجوح، الغرض المقصود (فرغ ربكم من العباد). في مسند أحمد كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- معه كتابان؛ كتاب بيده اليمنى وكتاب بيده الأخرى اليسرى، فقال في الكتاب الذي بيده اليمنى: (فرغ ربكم من العباد، هذا الكتاب في أسماء

أهل الجنة وأسماء آبائهم وأسماء ذرياتهم) ثم اجمل على ذلك وقال: (لا زيادة ولا نقصان). وباليد الأخرى في الكتاب الثاني قال: (وهؤلاء أسماء أهل النار وآباء أهل النار)، ثم أجمل على ذلك أغلق: (لا زيادة ولا نقصان، فرغ ربكم من العباد).

وفي الصحيح حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في مقبرة، دخل يدفنون أحداً من الموتى، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من أحد منكم إلّا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار، فرغ ربكم من العباد، هذا من أهل الجنة وهذا من أهل النار)، ولذلك قال علي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له)، (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ) [الليل:5-10].

وأيضاً في حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا حضر عقل التابعي الذي يسأله عن القدر وقال له: أترى ما نعمل؟ أفيما نستقبل أم أمر قد مضى علينا وكتب؟ قال: فيما مضى، قال: أليس هذا بظلم؟ عمران يسأل التابعي لينظر في عقله قال: أليس هذا بظلم؟ قال: حاشا لله، لأن عنده التأصيلات هذه أن ربنا ليس بظلّام للعبيد، قال: ما قلت ذلك إلّا لأرى قوة عقلك. فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سأله نفس السائل فقال: (يا رسول الله أرأيت فيما نعمل؟ أمر نستقبله أم هو فيما مضى؟ قال: بل فيما مضى، قال: أفلا نتكل يا رسول الله؟ قال: لا، اعملوا فكل ميّسر لما خلق له).
وأيضاً في حديث عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (أرأيت ما يعمل فيه قد فرغ منه أو في أمر مبتدأ؟ قال: فيما قد فرغ منه، فقال عمر: أفلا نتكل؟ فقال: اعمل يا ابن الخطاب فكلٌ ميسر). فهذه أحاديث كثيرة تثبت لنا أن الله جلَّ وعلا فصل الأمر في العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ويدلك على ذلك أيضا حديث الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله كتب كل شيء)؛ "كل" نص في العموم، يعني كتب أهل الجنة وكتب أهل النار، (كتب كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة). وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بيّن أنه رفعت الأقلام وجفت الصحف: (إن ما أصابك لم يكن يخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك).

إذاً فرغ ربكم من العباد كتب أهل الجنة وكتب أهل النار قبل أن تولد، بل قبل أن تخلق بخمسين ألف سنة، عُرِف أهل الجنة وعُرِف أهل النار. إذا اعتقدنا هذا اعتقاداً جازماً فإن هذا من تمام الإيمان بربوبية الله، أما قلنا بأن العلم والكتابة وأن القدر سر من أسرار الله، وهو من لوازم الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه، إذاً من تمام الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه أن تعلم أن الله قد فرّق الناس إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير

وعلم ذلك وكتب ذلك قبل أن يخلق أن يخلق السموات بخمسين ألف سنة. وهذه دخل فيها المؤمن والكافر، لأن كثير من المشركين يؤمنون بالربوبية كما سنبيّن.

إذاً لمّا فرغ ربنا من العباد، لا بد من السؤال الذي نجم لعمر ينجم لنا ونقول: إذا علم أهل الجنة وأهل النار فلِمَ العمل؟ هل هذا العلم يجعلنا نقصّر في الأعمال؟ يجعلنا نتقاعس في الأعمال؟ أقول: الإجابة لا وألف لا، بل العلم بأن الله جلَّ في علاه قد كتب أهل الجنة وأهل النار يجعلنا نجد ونجد ونسعى، وهذا من فقه الصحابة العالي. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا قال: (لا يا ابن الخطاب اعمل)، وقال: (لا يا ابن الخطاب إنما عند الله لا ينال إلّا بالعمل، قال: الآن نجد، الآن نجد، الآن نجد). وقال بعض السلف: والله ما ازددت اجتهادا في عبادة ربي حتى علمت أن الأمر قد فرغ منه؛ لمّا علموا أن الله جلَّ وعلا علم مكان العباد اشتدوا في العبادة كما سنبين. إذاً الإجابة لا، والله هذا العلم يجعلنا نجتهد ونزداد في عبادة الله جلَّ في علاه، كيف ذلك؟ نقول من وجوه ثلاثة، وهذه الوجوه هي التي تحث الإنسان الذي آمن بالقدر على أن يجد في عبادة الله جلَّ في علاه:

١- أولها بأن الفطرة والعقل والشرع يقرُّون بأن الله جلَّ في علاه هو الذي خلق الأسباب وخلق المسببات وربط النتائج بالمقدمات، فمن رام الجنة وأراد الفردوس الأعلى علم بالفطرة وبالعقل وبالشرع، ويقدِّم الشرع، وأخرته الآن لأني أبين أن هذه مجبول عليها الإنسان، بالفطرة وبالعقل وبالشرع أن الإنسان إن رام الفردوس الأعلى وجب عليه أن يجد على طريق الفردوس الأعلى، من الاجتهاد في الفرائض ثم النوافل ثم الاستغفار ثم التوبة ثم الأوبة ثم العمل لدين الله جلَّ في علاه، ثم يكون المرء وقفاً لله جلَّ في علاه ليصل إلى الجنات.

(قال الرجل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما أراد أن يكافئه بعد ما أتاه بالوضوء، فقال: اطلب، فقال له: ما أطلب إلّا مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ قال: هو ذلك، قال: أعني على نفسك بكثرة السجود)، فإن أبواب الجنة مفتوحة على مصرعيها لمن سعى في طريق الجنة وسعى في مرضاة الله جلَّ في علاه.

أيضاً عقلاً يمكن لنا أن نسرد لك قصة رجل فقيه عالي الفقه، متقن جدا في أبواب القدر، علم من الشرع أن النبي يباهي بهذه الأمة الأمم يوم القيامة، وأن المقصود الأسمى من الزواج والنكاح هو كثرة النسل وكثرة الأولاد، قال: إذاً أقيم هذا الشرع، أفرح نبيي بذلك، فاتصل بامرأة فعقد عليها وقال: أتزوجها من أجل إكثار النسل حتى يفرح ويسعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فلمّا عقد عليها وتزوجها قال: إذاً سأنجب الأولاد. أنتِ في بلدك في فلسطين مثلاً أو أنتِ في بلدك في سوريا أو أنتِ في مصر وأنا في الإمارات، وطالما حدث العقد فإن الولد سيأتي، المرأة كانت عاقلة قالت: كيف

وأنت بعيد عني لم تمسني؟ مريم نفسها عندما بُشّرت بعيسى ماذا قالت؟ أبشر بولد ولم يمسسني بشر!! فكأنها استشكلت الأمر وقالت: كيف ذلك؟ قال: ألا تؤمنين بالقدر، إنما قدر سيكون وإليك الحديث الذي يثبت ذلك: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا جاءه جابر وغيره قالوا: نعزل عن الإماء حتى لا تلد ونستطيع بيع الإماء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عزلت أو لم تعزل، إن قدّر الله جلَّ في علاه خلق النطفة لو كانت على صخرة لخُلِقت)، فقال: هذا دلالة واضحة على أن الله جلَّ وعلا إذا قدر الولد فالولد سيأتي وأنتِ في مصر وأنا في الإمارات. فجلس الرجل دهراً ينتظر التليفون الذي يبشره بالمولود، فلمّا سمع الناس عن قصته قالوا هو فقيه عالم بالقدر يريد الولد وقد تزوج، لم يعمل. قال: مكتوب، أنا لي ولد عبدالله وأحمد وزيد وعبيد.

نقول خالفت العقل والفطر والشرع، فإن الله جلَّ في علاه ربط المسببات بالأسباب، والنتائج لا تكون إلّا بالمقدمات. إذاً الجنة لا تكون إلّا بالعمل الصالح، هذا أول ما يجعل الإنسان أن يجد ويعلم أنه لن يصل إلى العلا إلّا بالعمل الصالح، بالأخذ بالأسباب، ولذلك قال قائلهم: من جد وجد، ومن طلب العلا سهر الليالي.

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله *** لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

لا بد من عمل وجد واجتهاد حتى تصل إلى ما تريد.

أمّا الملحدون الذين يضربون الشرع بالعقل، يقولون ما كتب سيكون، نعم هو سيكون رغم أنفك سيكون، لكن الله جلَّ في علاه قد ربط ما سيكون بسببه. فإن الله جلَّ وعلا بيّن أن الأرض لا تنبت إلّا أن تضع البذرة وإلّا أن ينزل المطر وإلّا أن ترعاها وإلّا أن تنتفي الموانع حتى تنبت هذه النبتة أو هذه الثمرة، فلا بد من توفر الشروط وانتفاء الموانع. إذاً الوجهة الأولى التي تجعل الإنسان يقول: لا والله اجتهد أجد الآن، أجد الآن أجد الآن، كما قال عمر، لأن الله جلَّ في علاه بالفطرة وبالعقل وبالشرع خلق المسببات وخلق الأسباب وربط النتائج بالمقدمات، لا يمكن أن تدخل الجنة إلّا بالعمل الصالح. الذي يجعلنا نجد ونجتهد في عبادة الله أن نعلم أن القدر قد كتبه الله والقدر هذا مكتوب بسببه، أن الله جلَّ وعلا كتب أن محمد يدخل الجنة بعمله الصالح، توافقون؟

الآن إذا وافقنا على أن الله جلَّ وعلا ربط النتائج بالمقدمات فماذا تقولون عن حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال لأصحابه: (لن تدخلوا الجنة بعملكم، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمدني الله برحمته)، هذا إشكال عظيم. قلنا إن الأوجه التي تستحث الإنسان وتستنهضه على أن يعمل أن الله جلَّ وعلا قال: قدر أهل الجنة يكونوا في الجنة بسبب أن يعملوا بعمل أهل الجنة، وهذا الدليل الواضح جداً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اعملوا فكلٌ ميسر لما خُلِق له)، كما سنبين أن هذه في بشارة الله جلَّ في علاه.

ماذا نفعل بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لن تدخلوا الجنة بعملكم)؟

"الباء" هنا ليست للنفي، هنا "الباء" نفي المقابلة، يعني الباء هنا ليست بالمقابلة لا يمكن أن تدخل الجنة بعملك، العين فقط تطيش بكل الأعمال. فباء المقابلة منفية، نفاها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ولا أي عمل يوافي ولا يكافئ نعمة من نعائم الله جلَّ في علاه، فهنا لم ينفِ النبي أن تدخل بعملك، ينفي أن تدخل بعملك فيكون الجنة مقابلها الأعمال. وهذا قول المعتزلة يقولون: ندخل الجنة بما فعلنا وتعبدنا لله جلَّ في علاه، ولا ينظرون لنعائم الله. فنفي النبي هنا للباء "باء المقابلة"، نفى المقابلة أن تكون الجنة ثمن للأعمال، وأثبت باء السببية لأن الله جلَّ وعلا قال: (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة:17]؛ بسبب ما كانوا يعملون، باء سببية، والتفاوت بهذه الأعمال، لكن النفي هنا في الباء على أن تكون للمقابلة.

إذاً أثبت النبي -صلى الله عليه وسلم- أن للأعمال تأثير، والله جلَّ وعلا أثبت في كتابه أن للأعمال تأثير، وأن العبد إذا سار على نهج أهل الصلاح وسار على عمل أهل الجنة فهو من أهل الجنة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمن كان من أهل الجنة فييسر عليه عمل أهل الجنة فيعمل بعمل أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فييسر عليه عمل أهل النار فيعمل بعمل أهل النار، نعوذ بالله من الخذلان. إذاً هذا الوجه الأول الذي يجعل نستنهض الأمة بمعرفتها بالقدر أن تسارع في طاعة الله جلَّ في علاه، لأن الله جلَّ في علاه جعل النتائج مرتبطة بالمقدمات.

٢- الوجه الثاني وهو وجه مهم جداً، ألا وهو إذا قلنا الإيمان بالقدر أو الإيمان بأن الله قد فرغ من عباده وكتب أهل وكتب أهل النار، هذا من تمام الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه. والإنسان لا ينجو بالربوبية، لا بد له من الإلهية. فنقول: الإيمان بالقدر المكتوب والعلم السابق من الله جلَّ في علاه، هذا إيمان بالربوبية، ويلزم لنجاة المرء أن يؤمن بالإلهية، والإيمان بالإلهية هو الائتمار بأمر الله جلَّ في علاه. فالقدر ربوبية، والشرع إلهية، ولا ينجو المرء إلّا بقدر وبشرع، إلّا بربوبية وإلهية.

فمن تمام الإيمان بالإلهية أن يعمل بشرع الله جلَّ في علاه، وشرع الله فيه: يا أيها الذين آمنوا أقيموا الصلاة، يا أيها الذين آمنوا لا تشربوا الخمر، يا أيها الذين آمنوا افعلوا، يا أيها الذين آمنوا لا تفعلوا. فمن تمام الإيمان بإلهية الله جلَّ في علاه أن تأتمر بأمر الله، وأن تنتهي عمّا نهاك الله جلَّ في علاه. فإذاً إذا آمنت بالشرع وعملت به فقد آمنت لزوماً أو ضمنا بربوبية الله، وهو علم الله السابق. فالوجه الثاني الذي يستحث الإنسان ويستنهض الأمة على العمل أن نقول: من تمام الإيمان بإلهية الله جلَّ في علاه أن تؤمن بالشرع وتعمل به، لا تضرب القدر بالشرع.

٣- الوجه الثالث الذي نقول فيه بالإجابة على السؤال، هل نتقاعس بعد ما علمنا أن الله قد فرغ من العباد؟ لا والله، البشارة هي التي تحثنا على العمل؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن عندما أمر ابن الخطاب (اعمل)، أمره شرعاً، وهذا أمر لا بد أن نعمل به. ثم بشره قال: (اعمل فكلٌ ميسر لما خلق له)؛ فالجزئية الأولى أمر من النبي، فوجب عليك إن لم تستطع أن تتفهم الإيمان بالقدر وبربوبية الله والإيمان بالشرع إيمان بإلهية الله جلَّ في علاه، وأن الإيمان بالقدر لا يتم حتى لا تضرب الشرع بالقدر، إن لم تستطع أن تصل إلى هذا وتتفهم هذا، فما عليك إلّا أن تقول خلقني الله لأكون عبداً.

أنت ما استطعت أن تتصور مسألة القدر والشرع والربوبية وإلهية، أقول لك أمر أسهل من ذلك، لِمَ خلقك الله؟ للعبادة (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]. ما معنى أن يعبد الله؟ أن يأتيه الأمر من الله فيقول سمعت وأطعت، وأن يأتيه الأمر من رسول الله فيقول سمعت وأطعت. الآن جاءك الأمر، فإذاً لا بد أن نستحثك على العمل بأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-، قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز). ما تستطيع أن تنظر لعين القدر وعين الشرع، اعمل بما أمرك به النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا عملت بما أمرك به النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزف إليك بشارة أن الله جلَّ وعلا قد كتبك من أهل الجنة. إذا سمعت وأطعت عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعمل يا ابن الخطاب)، فإذا سمعت وأطعت لك هذه البشرى، أنت من أهل الجنان.

كيف ذلك؟ أنرجم بالغيب؟ قلنا لا والله، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فكلٌ ميسر لما خلق له)، هذه بشارة. إذا علمت أن الله جلَّ وعلا يفتح لك أبواب الطاعة من حيث لا تدري؛ تجلس في مجالس العلم، تذكر الله جلَّ في علاه، تراجع ما علمت من مسائل، تقرأ القرآن، تستغفر الله، تقوم سحراً، ترى نفسك في ضائقة فترفع يديك فتبكي فتبتهل فتتمسكن فتخضع لله جلَّ في علاه، تذكر هذه البشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: (كلٌ ميسر لما خلق له). فمن جلس في مجلس العلم واستدام عليه قال لنفسه: إذاً أنا ميسر للعلم، أنا ميسر لعبادة الله جلَّ في علاه، أنا ميسر لأنشر دين جلَّ في علاه، إذاً قد كتبني الله جلَّ في علاه في اللوح المحفوظ أنني من أهل الجنان، فيزيدك ذلك خيراً على خير.

والذي فقه هذه المسألة جداً رسول الله أولاً، ثم بعد ذلك أبو بكر، ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم خيار الصحابة، ثم من بعدهم من التابعين الذين عقلوا عن رسول الله مراده. إليكم الصور التي تثبت لكم أن هذه البشارة هي التي حركت القلوب وشدت السواعد للاجتهاد في طاعة الله جلَّ في علاه؛ قال الله تعالى: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) [الشرح:1-4]، رفع الله له

ذكره وغفر له ذنبه، لِمَ العمل؟ ولذلك عائشة استشكلت هذه المسألة، قام النبي -صلى الله عليه وسلم- مجتهداً في عبادة الله جلَّ في علاه تتورم قدماه من كثرة القيام، فقالت له عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: أنت عبد قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!! وهذا قدر انكشف لرسول الله، قطعي لا احتمال فيه، قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)، فما زاده علمه بالقدر إلّا الاجتهاد فوق الاجتهاد.

قال الله تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) [الإسراء:79]، "عسى" في القرآن كما قال ابن عباس: واقعة استوجبت، (عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ) يعني إذاً ربك يبيّن لك وكشف لك الغيوب وفي القدر كتب (عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ) يعني سيبعثك ربك مقاماً محموداً، ما زاده إلّا اجتهاداً. لمّا قال الله تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ)، أي من بعض الليل، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقوم من الليل أكثره ويقوم حتى تتورم قدماه، بل لمّا ثقل عليه اللحم وكبر سنه كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بما كان يقرأ به شباباً، لكن كان يقرأ قاعداً إلى أن يصل إلى مئة آية، ما بقي عليه إلّا المئة آية، فعندما يصل إلى المئة آية يقوم النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقرأ المئة آية قائماً، والباقي كان يقرأ بها قاعداً لما شعر من التعب أو ثقل لحمه، فهذا اجتهاد النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ما علم القدر.

أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- أشد الناس اجتهاداً في عبادة الله بعد رسول الله، مع أنه بشر بالجنة وهو يمشي على الأرض، عرف مكانته عند رسول الله وعرف مكانته عند ربه جلَّ في علاه؛ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اشتد غضبه على عمر الفاروق من أجل أبي بكر، وكان أبو بكر مخطئاً في حق عمر، كان في تعامل أبي بكر حدة على أنه أرحم الأمة بالأمة، فاشتد على عمر ثم رجع إلى عمر يتسامح (يعني يطلب السماح من عمر)، فأبى عمر، فقال: لأستعدين عليك رسول الله. فذهب إلى رسول الله وهو يأخذ بطرف ثوبه حتى ارتفع إلى ركبته، فنظر إليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه ليست فراسة أي مؤمن، هذا سيد المؤمنين، قال: (أمّا صاحبكم فقد غامر).

ثم دخل أبو بكر فاشتكى له، فاشتد غضب النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى جاء عمر عاتب نفسه فرجع إلى بيت أبي بكر فقال: أثم هو؟ أثم أبو بكر؟ هنا أبو بكر؟ فقالوا: لا. فذهب إلى المسجد ليرى أبا بكر، فلمّا ذهب وجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فعلم أبو بكر من وجه رسول الله أنه سيشتد على عمر من أجل أبي بكر، فقال: والله يا رسول الله كنت أظلم، أنا أظلم يا رسول الله، حتى يهدأ الأمر على عمر. فلمّا دخل، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مغضباً لعمر يبيّن له مكانة أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-: (هلا تركتم لي صاحبي، قد قلتم كذب وقال صدق، وواساني بأهله وماله، سدوا عني كل خوخة إلّا خوخة أبي بكر).

أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أفضل الأمة بعد نبيها -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك لما علم أنه من أهل الجنان وعلم أنه الصاحب الخليل للنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يحمله هذا على التقاعس عن العبادة، بل اشتد واجتهد في العبادة.

عمر بن الخطاب الوزير الثاني لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، له مكانته المعروفة؛ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه: (لو سلك عمر فجاً لسلك الشيطان فجاً غير فج عمر). عمر -رضي الله عنه وأرضاه- ما ترك العبادة قط، بل كان يقوم من الليل يفزع الشياطين، لمّا مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على قيام ليل لأبي بكر فوجده يصلي بصوت منخفض، ولمّا مر على عمر فوجده يصلي بصوت جهوري، فسأل فقال: هو يوقظ النائم ويفزع الشياطين، يفر الشيطان من عمر -رضي الله عنه وأرضاه-. وبشر بالجنة وهو يمشي على الأرض، وكان يشتد في عبادة الله جلَّ في علاه بعد ما تعلم القدر، ولذلك في حديث علي بن أبي طالب: عندما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر ورأى عمر يمشيان فقال لعلي بن أبي طالب: (أرأيت هذين هما سيدا كهول أهل الجنة، فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله أفلا أبشرهما؟ قال: لا)، شفقة عليهم من شدة الاجتهاد في عبادة الله جلَّ في علاه.

فهذه كلها صور تبيّن لنا الذين أتقنوا قدر الله جلَّ في علاه وعلموا أن الله قد فرغ من العباد، اشتدوا واجتهدوا في عبادة الله، لأنهم علموا أن الله جلَّ وعلا ربط النتائج بمقدماتها أو المسببات بالأسباب. هذا آخر ما يتكلم في هذه المسألة، ولعلنا بلغنا نقول الأصل الأصيل في هذه المسألة أن تعلم أن الله جلَّ في علاه لن يدخلك الجنة إلّا بعملك، وعملك هذا من تيسير الله عليك، لو كتبك الله في الأزل أنك من أهل الجنان. فليستبشر من وجد نفسه يسارع في الخيرات ويسارع في التوبة من المعاصي والمحرمات، وليحزن على نفسه من رأى نفسه إذا أراد الخير صد الباب في وجهه، ومن سعى إلى أن يرضي ربه فلا يرضيه، فليعلم أنه على خطر عظيم ولعل الله قد كتبه من الأشقياء، نعوذ بالله من الخذلان.

الفوائد المستنبطة:

١- الصحابة أفقه الناس؛ وهذا يقوي مذهب بعض الأصوليين وهو قول الشافعي، قال في القديم: قول الصاحب حجة.

الصحابة أفقه الناس، الدلالة على ذلك سؤال عمر، فإن العلم لا يكون إلّا بالسؤال. فعمر لم يستحِ بين الناس أن يسأل ويكرر السؤال على النبي -صلى الله عليه وسلم-: ففيمَ العمل يا رسول الله؟ وهو يعلمه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم بعد ما يعلم يعمل. هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل.

ولذلك قلنا كثير من المحدثين، أربعون حديث لا بد أن تعمل بحديث واحد. تعلمت أربعين مسألة، اعمل بمسألة واحدة تتعبد بها لله جلَّ في علاه. ولكن عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة كان إذا تعلم مسألة لا يمكن أن يعدوها حتى يعمل بها ويستمر على العمل بها، ولذلك ذكر أن عمر بن الخطاب ما حفظ سورة البقرة إلّا في سنوات عدة، ست سنوات أو أكثر، لأنه كان يحفظ الآية فيتقنها فيصلي بها، فيتعبد بها لله جلَّ في علاه، هذا كان دأب صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من علو فقه هؤلاء الأخيار.

هذا يجرنا إلى الفائدة المهمة: قول الصاحب حجة؛ فسرنا الفائدة المستنبطة لكن هذه الفائدة كيف تجرنا إلى أن نقول "قول الصاحب حجة"؟ هناك خلاف أصولي: لو جاءك قول عن عمر، جاءك قول عن زيد بن ثابت، جاءك قول عن ابن عباس، هل يكون حجة عليك تتعبد الله بهذا القول وتعمل به أم لا؟ نقول هذا الحديث يقوّي مذهب من قال "قول الصاحب حجة"، إذا قلنا أفقه الناس هم الصحابة وأعقل الناس عن مراد الله ومراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إذاً هم أقرب الناس إلى الصواب، فإن اجتهدوا في أي مسألة فهم أقرب الناس للصواب، للتقى والورع والزهد في الدنيا والعمل بما علموا، أبر الناس قلوباً وأحسن الناس خلقاً، أخير الناس اختارهم الله جلَّ في علاه صحبةً لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، إذاً قول الصاحب واجتهاد الصاحب يكون حجة عند عدم المخالفة.

بعض الأصوليين ما غض الطرف، قال: نعم، قول الصاحب حجة ويكون إجماع أصولي إن لم يكن هناك مخالفة. لكن نقول لو كانت المخالفة، ننظر في القول الأول والقول الثاني، ولنا قرائن في الترجيح؛ إن كان القول الأول قول لأبي بكر وإن خالف عمر والأمة بأسرها قول أبي بكر يقدّم، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اقتدوا بالذين بعدي أبي بكر وعمر)، وأبو بكر بالإجماع يقدّم على عمر، وعمر نفسه قال: ليتني شعرة في صدر أبي بكر -رضي الله وأرضاه-. وإذا اتفق أبو بكر وعمر فدعك من أي أحد يخالفهم بعد ذلك، يعني دعك من قول من يخالف، لكن كلهم أخيار بفضل الله، لكن خذ وعض بالنواجذ على قول أبي بكر وعمر لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن يتبعوا أبا بكر وعمر يرشدوا)، الرشد كل الرشد أن تتبع أبا بكر وعمر. إن كان علي بن أبي طالب وعمر وأبو بكر وعثمان، فالخلفاء الراشدين الأربعة قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ).

٢- إذا أراد الله شيئاً هيأ له السبب؛ غزوة بدر، هذه الغزوة ما أرادها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما خرج رسول الله إلّا للعير، وما خرج يريد قتال قريش، وما خرج يريد

الغزوة بحال الأحوال، الآية التي تدل على ذلك: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) [الأنفال:7]. الذي يفسر لك ذلك أنه ما أراد النبي الغزوة، ولكن لمّا أراد الله الغزوة هيأ له الأسباب، (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ) [الأنفال:43]، وقال: (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا) [الأنفال:44]، إذاً هذه تهيئة لأمر يقضيه الله جلَّ في علاه، فإذا أراد الله شيئاً هيأ له سبباً.

لمّا أراد الله جلَّ في علاه أن يبعث محمداً هيأه تهيئة كاملة؛ جعله يتيماً، جعله صادقاً، جعله أميناً، جعله زاهداً، جعله تقياً ورعاً، لا يشرب الخمر، لا ينظر إلى النساء، لا يذهب إلى الأفراح، جعله زاهداً متعبداً يتقلل من الدنيا، وحبب إليه الخلوة يخلو بنفسه حتى يأتيه الملك، وهو قد تكاملت كل الكمالات في البشر، وضعت بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، فهيأ النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يبعثه، والأمثلة على ذلك كثيرة. الغرض المقصود بالمثال فقط تتضح الفائدة، من أين استنبطنا هذه الفائدة؟ (فأهل الجنة ميسرون)، فإذا أراد الله جلَّ في علاه بعبدٍ خيراً يسر له أبواب الخير وفتح له أبواب الخير، إن كان جاهلاً علّمه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، فأول أبواب الجنان أن تتعلم دينك، فإن تفقهت في دينك فأنت على الطريق المستقيم الذي يصل بك إلى الجنان، فإن الله إذا أراد شيئاً هيأ له سببه.

٣- إثبات العمل للإنسان وفيه الرد على الجبرية، لأن الجبرية يقولون أن لا إرادة للعبد ولا عمل للعبد، ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال إياك إياك أن تبتل، فكذّبهم الله في هذه الأحاديث. من أين استنبطنا هذا؟ (فسيعمل بعمل أهل الجنة)، نسب العمل له، وفيه الرد على الجبرية.

٤- إثبات الكف لله، (ثم أفاض بهم في كفيه)، أثبت النبي -صلى الله عليه وسلم- لله الكف، والكف صفة ثبوتية ذاتية خبرية.

- ثبوتية: يعني ثبتت لله بالكتاب والسنة أو بالسنة، وقد ثبتت بالسنة.

- ذاتية: يعني لا تنفك عن الله جلَّ في علاه.

- وخبرية: ضابط الخبرية أن مسماها عندنا أجزاء وأبعاض، هي أجزاء وأبعاض مني، لكنها بالنسبة لله صفة كمال وجلال سبحانه جلَّ في علاه.

٥- الدلالة الواضحة على أن ميثاق الذر ليس بحجة؛ ربط دخول الجنة بالعمل، والعمل لا يعرف إلّا بإرسال الرسل، لأن مسألة المعتزلة هم الذين يقولون بالاستحسان والاستقباح، لكن نحن نقول العمل حسن أو العمل فاضل عند الله جلَّ في علاه لا نعرفه

إلّا بالشرع، فهو قال: وهو ميسر لهذا العمل عمل أهل الجنة، ولا يعرف العمل إلّا بميثاق الرسل أو بإرسال الرسل.

أيضاً في وجهة أخرى تبيّن لنا دلالة واضحة على أن ميثاق الذر ليس بحجة، هو الذي قال فيه النووي في مسألة أهل الفترة، لا بد يؤمنوا بالربوبية وأن يأتوا بها وبالتوحيد ولا يشركون، نحن نقول هم آمنوا بالربوبية ومع ذلك قسمهم الله إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، إذاً ميثاق الذر غير مؤثر. وإن كانت هذه الوجهة فيها شيء من النظر، لكنها أيضاً تعضد ويستأنس بها على أن ميثاق الذر ليس بحجة.

٦- الكتابة كتابات؛ في إسناد ضعيف لكن نحن نستفيد ونقول له شواهد، (وجرت به الأقلام)، فلمّا قال "أقلام" أثبت لنا القلم الأول الذي كتب في اللوح المحفوظ، والقلم الثاني قلم الملك الذي يأتي وهو في بطن أمه، والقلم الثالث قلم الملائكة التي تكتب العمل العمري واليومي. الكتابات التي بيّناها لأنه قال: (جرت الأقلام)، جمع قلم، إذاً ليس بقلم واحد هم أقلام.

٧- لا نسب بين الله وبين عباده؛ يا لها من قوة هذه المسألة، وهذه والله ما أردت أن أكتب هذه الفائدة، أنا خفت على نفسي لأن ما منا من أحد إلّا وقد قصّر في حق الله جلَّ في علاه، وما منا إلّا ويتمنى شيئا عند ربه وعمله لا يصل به إليه، ودائماً تزعجني هذه القاعدة وهذه الفائدة، وهذه الأحاديث تتم لنا هذه الفائدة: لا نسب بين الله وبين عباده. طبعاً نذكركم بما قلنا قبل ذلك في الآثار التي لا تصدق ولا تكذب، أن داوود -عليه السلام- قال: رب كن لسليمان كما كنت لي، فأوحى الله إليه اجعل سليمان يكون لي كما كنت أنت لي، أكون له كما كنت لك.

من أين نأخذ هذا "لا نسب بين الله وبين عباده"؟ قال: (لا يدرك إلّا بعمل)، لا تدرك يا عمر يا ابن الخطاب، لا تدرك ما عند الله إلّا بالعمل. وذكرني هذا الحديث بأخ لي له أماني واسعة، يريد أن يكون عالماً طالباً للعلم متقناً، يريد كذا وكذا وهو لا يجد في هذه المسألة، حتى في دروس العلم ما يتقن أن يأتي مبكراً أو يتقن ان يلزم نفسه في طلب العلم، فكيف يكون عالماً؟ فكيف يكون طالباً للعلم وهو لا يدارس في المسألة ولا حتى يجلس في مجالس العلم يتذلل في مجالس العلم حتى يكون عالماً؟ هذه أماني، والذي أتبع نفسه الأماني قد خاب وخسر وما ربح، (إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) [الأنعام:80]. هذه المسألة مستثناة، لأن كثرة العمل ليست علامة على القرب من الله جلَّ في علاه، لكن المسألة كلها تدور على هذا، وهذا كلام يفصّل في مقام آخر.

٨- لا انشغال برزق، سواء رزق الآخرة أو رزق الدنيا، إذ الرزق رزقان: رزق آخرة ورزق دنيا، أو نقول: رزق قلوب ورزق أبدان.

- وأمّا رزق القلوب فعلى الله،

- وأمّا رزق الأبدان أيضاً على الله من باب أولى، أو تضمينا كما في الحديث: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب).

أمّا الفائدة كيف استنبطناها؟ استنبطناها من كلام عمر بن الخطاب عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، عندما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا عمر إن ما عند الله لا يدرك إلّا بالعمل)، و "ما" تدل على العموم؛ إن ما عند الله من رزق الدنيا، إن ما عند الله من رزق القلوب، إن ما عند الله من رزق الأرواح، إن ما عند الله من رزق الآخرة، لا يدرك إلّا بالأعمال. لا يمكن أن تجد رجلاً يريد الغنى ويريد المال وليس بتاجر وليس بعامل وليس بمدير، نائم على سريره ويقول غداً ستمطر السماء فضة وذهب!! تمطر نعم، لكن خذ بالأسباب حتى تمطر عليك السماء.

فالصحيح الراجح في ذلك أن نقول: إن ما عند الله لا يدرك إلّا بالعمل، لا انشغال بالرزق لكن خذ بالأسباب، والله جلَّ وعلا قد كتب الرزق عنده وسيأتيك ويبحث عنك كما يبحث عنك ملك الموت لتموت.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثالث والثلاثون: الشقي من شقي في بطن أمه

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

أدام الله علينا هذا الخير وهذه الدروس إلى مماتنا، أسأل الله جلَّ وعلا أن يثبت لنا هذا الخير إلى الممات، أقول ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وانتهينا في الأسبوع الماضي إلى باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الشقي من شقي في بطن أمه).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عن علي -رضي الله عنه- قال: خرجنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في جنازة، فلمّا انتهينا إلى بقيع الغرقد قعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقعدنا حوله، فأخذ عوداً فنكت به في الأرض ثم رفع رأسه فقال: (ما منكم من نفس منفوسة إلّا قد علم الله مكانها من الجنة والنار شقية أم سعيدة)، فقال رجل من القوم: يا رسول الله أفلا ندع العمل فنتكل على كتابنا فمن كان من أهل السعادة صار إلى السعادة ومن كان من أهل الشقاوة يعني صار إلى الشقاوة؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (اعملوا فكلٌ ميسر، من كان من أهل السعادة يسر لعملها ومن كان من أهل الشقاوة يسر لعملها).

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الشقي من شقي في بطن أمه والطبع والجبل والخير)

عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق حدثهم: (إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله تعالى إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل عمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخل الجنة).

وعن أبي الطفيل أنه سمع ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: (الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره)، قال: فأتيت حذيفة فأخبرته بقول ابن مسعود، فقال: وما تنكر من هذا يا ابن واثلة وأنا سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقوله.

وعن عامر بن واثلة أن حذيفة بن أسيد الغفاري، ولفظ حديثه يختلف عن لفظ ابن مسعود فإنه بلفظ: (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله؟ فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا ربي رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (ألا إنما الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره)، وعن أبي الطفيل قال: كان عبدالله ابن مسعود يحدّث في المسجد: (إن الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره)، قال: فأتيت حذيفة بن أسيد الغفاري فقلت ألا تعجب من عبد الله ابن مسعود يحدّث في المسجد أن الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره، قال: فما بال هذا الطفيل الصغير؟ قال: لا تعجب سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مراراً ذات عدد يقول: (إن النطفة إذا وقعت في الرحم أربعين ليلة [وقال أصحابي: خمسة وأربعين ليلة]، نفخ فيه الروح)، قال: (فيجيء ملك الرحم فيدخل فيصور له عظمه ولحمه ودمه وشعره وبشره وسمعه وبصره، ثم يقول: أي رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي الله إليه فيه ويكتب الملك، فيقول: أي رب أشقيٌ أم سعيد؟ فيقضي الله إليه ما يشاء ويكتب الملك، ثم يقول: أي رب أثره؟ فيقضي الله تعالى ويكتب الملك، فيقول: أي رب أجله؟ فيقضي الله ما يشاء ويكتب الملك، ثم تطوى تلك الصحيفة فلا تمس إلى يوم القيامة).

إن الله جلَّ في علاه على كل شيء قدير، خلق الخلق وأرانا عجائب قدرته في خلقه؛ فقد خلق آدم -عليه السلام- من تراب وجعله من صلصال من حمأ مسنون، وأمر الملائكة فسجدوا له، فخلقه من غير أب ولا أم، ووصف الله لنا وصفاً بديعاً لخلق آدم في غير ما آية من آيات الكتاب الحكيم، قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) [الحجر:28-30] ... إلى آخر الآيات. فخلق الله آدم من غير أبوين، خلقه من طين، ثم لمّا انجدل آدم في طينته نفخ الله فيه من روحه، يعني من روح خلقها الله جلَّ في علاه وأضيفت إلى الله إضافة تشريف، فالله جلَّ في علاه شرّف آدم بأن خلق روحه من عنده وأضافها له تشريفاً له وخلقه بيده تشريفاً وتعظيماً لآدم -عليه السلام-.

ثم من عجائب قدرته جلَّ في علاه خلق حواء من ضلع آدم، خلقها من أب بدون أم. ثم أكمل هذه العجائب سبحانه جلَّ في علاه بخلق عيسى -عليه السلام- من أم ولم يكن له أب، فخلقه الله جلَّ في علاه من بويضة الأم ولم يخصِّب هذه البويضة مني، فسبحان الله على قدرته. ثم خلق الله جميع الخلق بعد ذلك من ماء مهين، يدخل المني يخصِّب البويضة ثم بعد ذلك يكون نطفة، ثم مثل ذلك أربعين ليلة علقة، ثم بعد ذلك مضغة. ويمر الجنين بأطوار ثلاثة في رحم الأم يغذى ويعتنى به، وهذه من عجائب قدرة الله جلَّ في علاه، في ظلمات ثلاث الله جلَّ في علاه يعتني به؛ يمر بأطوار ثلاثة:

١- الطور الأول: يكون نطفة (تخصيب المني للبويضة).

٢- ثم علقة، والعلقة كتلة الدم.

٣- ثم مضغة، والمضغة هي قطعة اللحم.

هذه الأطوار التي يمر بها الجنين في بطن أمه، ثم يمر بمرحلتين بعد ذلك، هذه المراحل على تقسيم أو على الجمع بين الروايات أنه يمر بمرحلتين بعد ذلك:

- مرحلة يكون فيها التخليق والتصوير
- ومرحلة يكون فيها النفخ في الروح.

والخلاف هنا أو النظر في الأربع كلمات: هل يكتب الملك الرزق والأجل، وشقي أم سعيد، ذكر أم أنثى، عند التخليق أم عند النفخ في الروح؟ الراجح والله أعلم بعد سرد الأحاديث، لأنه قال: (ثم يؤمر)، "ثم" هذه للتراخي، والكلام في حديث حذيفة -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون)، فهذه المرحلة الأولى التي يحدث فيها التخليق، يأتي الملك الموكل بالرحم فيخلق السمع والبصر والعظام واللحم، (ثم قال: أي رب ذكر أم أنثى؟)؛ "ثم" هذه للتراخي فتدل على أنه بعد مرور المئة

وعشرين يوماً الملك (إمّا هو الملك أو ملك آخر) يؤمر بنفخ الروح ثم يقول: ربي ذكر أم أنثى؟ ربي شقي أم سعيد؟، هذا جمع بين الروايتين.

فإذاً نقول المرحلتان المهمتان:

▪ مرحلة التخليق: تخليق السمع والبصر والعظام واللحم تكون بعد مرور ثنتين وأربعين ليلة، وهذا يدلك بإشارة مهمة جداً انه لا يجوز للمرأة أن تسقط الجنين بعد مرور هذه المرحلة أو بعد مرور هذا الوقت، ونرى كثيراً من الفتاوى دائماً إذا سئل المفتي المرأة الآن تريد أن تسقط الجنين إمّا لمال، إمّا لإرادة الزوج، إمّا لعلة أخرى، فيقول: مر مئة وعشرون يوماً؟ تقول: لا، يقول: أسقطيه ما عليك من شيء. وهذا خطأ فادح وخطأ فاحش، لأنه يبدأ التخليق كما قلت بعد أن يمر ثنتان وأربعون ليلة، فهنا يبدأ التخليق ويبدأ تكوين السمع والبصر والعظم واللحم.

ولذلك العلماء اختلفوا في دية الجنين لو سقط الجنين، هل يكون عليه دية ولا ما يكون عليه دية؟ المرأة التي أسقطت الجنين، أو نقول امرأة ضربت امرأة فقتلت جنينها هل يكون عليها دية أم لا؟ الجنين عليه غرة، ديته الغرة. العلماء اختلفوا متى تكون الغرة ملزمة للذي قضى على الجنين؟ اتفقت كلمات الأئمة الأربعة على أنه لو نزل فيه شيء من التخليق (إصبع، رأس، رجل) يثبت أنه جنين فعليها الدية، والمسألة لا تتعلق بنفخ الروح، وهذه تدلنا على أن إسقاط الجنين بعد مرور ثنتين وأربعين ليلة لا يجوز بحال من الأحوال، لأن هذه المرحلة هي مرحلة تخليق الجنين، لأن الأحاديث كلها تدل على ذلك.

▪ والمرحلة الثانية هي مرحلة نفخ الروح، ونفخ الروح تكون بعد مئة وعشرين ليلة كما في حديث ابن مسعود الظاهر.

هذه قدرة الله جلَّ في علاه، وعجائب الله في قدرته على خلق الجنين في بطن الأم بعدما أن يخصِّب المني البويضة، ثم يأتي ملك إمّا أن يكون هو صاحب النفخ أو غيره، يأتي ملك يبدأ في تخليق السمع والبصر واللحم بعد مرور ثنتين وأربعين ليلة، ثم بعد مرور مئة وعشرين ليلة يقول الملك: ربي ذكر أم أنثى؟ ربي شقي أم سعيد؟ ربي الرزق؟ ربي الأجل؟، ثم بعد ذلك يؤمر بنفخ الروح. هذه هي الجزئية الأولى من هذه الأحاديث التي سردها علينا الأخ الكريم.

الجزئية الثانية مهمة جداً وهي عصب الباب الآن الذي سنتكلم عليه وهي التي تتعلق بأبواب القدر، وهي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ما يكون بينه وبين الجنة إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب [يعني يكون من أهل النار وكتب في اللوح المحفوظ أنه من أهل النار] فيعمل بعمل أهل النار

فيختم له بعمل أهل النار فيدخل النار). هذا الحديث حديث مهم جداً، النظر فيه من جزئية معينة ألا وهي: الأعمال بالخواتيم، والأمر الثاني: يعمل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار هل هذه مظلمة؟ هل الله جلَّ وعلا يظلمه أم لا؟ المسألة الثالثة أن نشرح الكلام هذا إجمالاً ثم نفصّل، وهذا هو الأولى أن نأتي به عليه إجمالاً ثم نفصل هذه البنود.

"يعمل المرء عمل أهل الجنة"؛ ظاهر هذا الحديث أنه قد أتى بالعمل الذي أمر به أمر به الرب الجليل على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-، لأنه قال: (بعمل أهل الجنة)، وأهل الجنة يعملون العمل الذي أمرهم به ربهم جلَّ في علاه على لسان نبيهم -صلى الله عليه وسلم-. فنقول هذا العمل الذي هو من عمل أهل الجنة له شرطان: أن يكون في الظاهر على شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفي الباطن على إخلاص لله جلَّ في علاه.

فهو يعمل بعمل أهل الجنة ظاهراً فيما يبدو للناس، أنه في الرواية الأخرى قال: (فيما يبدو للناس)؛ فهو ما يصلي إلّا كما صلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما يزكي إلّا كما زكى النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما يحج إلّا كما يحج النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، قال: (خذوا عني مناسككم)، وعلمنا كيف نزكي. فهو يتتبع أثر النبي -صلى الله عليه وسلم- في كل عبادة فيعمل بعمل أهل الجنة، فقد توفر الشرط الأول، فلم يختم له بأعمال أهل النار مع أنه التمس الشرط الأول للقبول؟

نقول هناك قوادح في هذه الأعمال منها أن يتخلف الشرط الثاني ألا وهو الإخلاص لله، ولذلك يقول النووي: كثير من الناس يعمل بالمعاصي ويختم له بالصالحات. وهو كثير في الواقع الدي نعيشه، نرى كثير من الناس يكونون على المعصية ثم يختم له بعمل الصالحات ليدخل الجنة، لكن قليل من الناس من تراه على عمل أهل الصلاح ثم ينقلب الحال في آخر حياته فيختم عليه بعمل أهل الفساد، قال: وما ذلك إلّا من سوء طويته. وقال ابن رجب: خاتمة السوء تتعلق بما في القلوب؛ يكون في القلب دغل وحقد وحسد، يكون في القلب رياء وسمعة وعدم الإخلاص، فيختل الشرط الأهم الذي على قوامه قبول العمل فيختم له بأعمال أهل النار، لأنه أتى بالعمل ظاهراً ولم يرده أو لم يربطه بالعمل الباطني ألا وهو الإخلاص لله جلَّ في علاه.

وطبعاً هذا الحديث بهذا الحل يكون لا إشكال بحال من الأحوال، لأن كثير من الناس يقولون هو يعمل بعمل أهل الجنة في المساجد، يكون معنا في الزكوات أول من يدفع الزكاة، في الحج نراه أمامنا في عرفة، فالرجل يعمل بعمل أهل الجنة ظاهراً أمامنا فكيف أن الله جل وعلا يختم له بعمل أهل الجنة وعمل الصالحات؟ فنقول الدخن في

ذلك هو في قرارة قلبه، فإن الله جلَّ في علاه أناط لقبول الأعمال شرطين أو اشترط شرطين: الشرط الأول هو الإخلاص لله جلَّ في علاه، والشرط الثاني هو متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم-. (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110]، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يعمل بعمل أهل الجنة) يعني متابعاً فيه سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) وهذا عمل قلبي، وكما قال الله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك:2]؛ قيل الفضيل بن عياض: ما "أحسن عملاً"؟ قال: أخلصه وأصوبه. أما أصوبه: فهو متابع فيه للنبي كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فيما يبدو للناس)، يعمل بعمل أهل الجنة منضبطاً فيه بالسنة فيما يبدو للناس. أمّا اخلصه: لا يعمله إخلاصاً لوجه الله جلَّ في علاه، ولذلك لما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الجهاد عصبية أو حمية أي ذلك في سبيل الله؟ ما له عند الله؟ قال: (لا شيء له، إن الله لا يقبل من الأعمال إلّا ما كان لوجهه خالصاً) أو (ابتغي به وجه الله جلَّ في علاه).

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يفصّل لنا الأعمال إلى: مقبولة ومردودة؛ بعدما بيّن الرد في عدم اتباع السنة أتى بعظم المسألة الكبرى ألا وهي يرد العمل بعدم الإخلاص لله جلَّ في علاه، في الحديث القدسي قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)، وأيضاً قال: (من راءى، راءى الله به، ومن سمّع، سمّع الله به). وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- وكل هذا في الصحيح: (أول من تسعّر بهم النار ثلاثة منهم: عالم ومجاهد ومتصدق)؛ أمّا العالم فلم يعمل بعلمه أو لم يبلّغ علمه ابتغاء وجه الله مع أنه على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بلّغوا عني ولو آية)، يجلس ويعقد المجالس ويحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ويفسر كلام النبي ويبين الأحكام وهذا فيما يبدو للناس قد عمل بعمل أهل الجنة، الصلحاء الواسطة بين الرب وبين العبد، لكن فيما يبدو للناس. أمّا باطناً فلم يعمل لله جلَّ في علاه، (من راءى، راءى الله به، ومن سمّع، سمّع الله به)، فإن الله جلَّ في علاه لم يقبل من الأعمال إلّا ما كانت خالصة لوجه الله الكريم.

والدلالة على ذلك أيضاً هذا الرجل الذي قاتل قتالاً شديداً شجاعاً جداً مقداماً ينافح عن رسول الله وعن راية رسول الله، فالكل قال: هو من أهل الجنة، والنبي-صلى الله عليه وسلم- يقول: (هو من أهل النار)؛ هو يعمل بعمل أهل الجنة يقاتل ينافح من أجل رفع راية "لا إله إلّا الله"، لكن ما قاتل لله جلَّ في علاه، عمل بعمل أهل الجنة ظاهراً، أمّا باطناً تخلّف الباطن عن الظاهر، والدلالة على ذلك كما قال ابن الجوزي: أن في بعض الروايات قال: والله ما قاتلت إلّا لك ولقومك، لبعض أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني قاتل حمية ولم يقاتل من أجل وجه الله جلَّ في علاه.

إذاً الحديث لا إشكال، فيه يعمل بعمل أهل الجنة ظاهراً، ونحن نقول العمل يقع موقع القبول عند الله جلَّ في علاه بشرطين اثنين ظاهراً وباطناً، إن تخلّف الباطن فلا يقبل، وإن تخلّف الظاهر لا يقبل لكن يمكن أن يؤجر لأن النوايا الصالحة يأخذ بها صاحبها الأجر عند ربه جلَّ في علاه، لكن بالنسبة لتخلّف الباطن لا يمكن أن يؤجر بحال من الأحوال ولو تمثّل بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فإذاً لا إشكال في هذا الحديث: (وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة).

لكن هناك ثم قوادح ما هي القوادح وأهم هذه القوادح عدم الإخلاص لله جلَّ في علاه، فلذلك يسبق عليه الكتاب، وقد بيّنا أكثر من مرة مدار النجاة والهلاك على القلوب، قد قال الله تعالى: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)؛ إن كان دخناً، إن كان نفاقاً، إن كان حسداً، إن كان رجل يخبب رجل لا يصلح أعماله أو نواياه مع الله جلَّ في علاه، فإن الله يؤتيه بنقيض قصده، قال الله تعالى: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ) يعني صالح الباطن، أمّا الظاهر فهو يعمل بعمل أهل الجنة، (إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) [الإسراء:25].

والرجل يعمل بعمل أهل النار؛ يعني يتخلّف عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يتخلّف عن الصلوات، يتخلّف عن الزكاوات، يتخلّف عن الأوامر ويرتكب المناهي، لكن عندما يكشف الله عن قلبه يجده مخلصاً ويريد أن يسارع في الخيرات، يريد أن يتقرب إلى الله جلَّ في علاه وشهوته تغلبه ويعذره ربه لأن الله جلَّ في علاه رحمته سبقت غضبه. كل عاصي لو بلغت المعاصي الى السماء ثم تاب إلى الله جلَّ في علاه تاب الله عليه، وهذا من رحمة الله جلَّ في علاه، ولذلك نقول نرجو لكل عاصي قد اقترف المعاصي وقد اجترئ على حرمات الله جلَّ في علاه مع وجود النقاء في القلب، يُرجى له أن تختم له الأعمال بالصالحات.

إذاً لا إشكال في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس)، أو في الرواية الأخرى: (فيما يبدو للناس ظاهراً)، تلمس فيه السنة لكن لم يخلص العمل لله جلَّ في علاه. وأيضاً (يعمل بعمل أهل النار)؛ تخلّف عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن في قلبه إخلاص يريد أن يسارع في الخيرات ويريد أن يقترب من ربه جل في علاه والله يعلم ذلك منه، فلذلك يختم الله له بأعمال الصالحات. وأروع ما يضرب مثلاً لذلك رجلان:

الرجل الأول الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، رجل عاث في الأرض فساداً قتلاً وسفكاً للدماء، وهذه من الكبائر، هذه من أم الكبائر. اختلف العلماء هل يتوب القاتل للنفس أم لا له توبة له؟ ومع ذلك لمّا علم الله من قلبه الإخلاص والتوبة الصحيحة النصوح فإن الله وفقه إلى أن يموت على الخيرات، مات على توبة وأوبة ولم يذكر ولم

يتلفظ بأي خير، بل لم يعمل خيرات، ولذلك اختلفت الملائكة ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ قالت ملائكة العذاب: لم يعمل خيراً قط؛ لكن العمل الخيري عنده القلب، وعند الجوارح يعمل وهو التحرك إلى أرض التوبة، فهذا الرجل بعد ما عاث في الأرض فساداً، ورحمة الله سبقت الغضب، على أن هناك ثمة نقاء في قلبه فإن الله جلَّ في علاه وفقه لعمل الخير.

الرجل الذي كان كافراً يعبد الأصنام ويشرك بالله، ثم علم الله من قلبه النقاء فأسلم فنزل في ساحة الوغى ولم يركع لله ركعة واحدة، ولم يسجد لله سجدة واحدة، فقُتِل في وقتها، أسلم فمات، ختم الله عليه بعمل الصالحات. لِمَ؟ لأنه كان رجلاً نقي القلب يريد الله جلَّ في علاه فوفّقه الله في آخر حياته إلى عمل الصالحات، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله إذا أحب عبداً عسّله، قالوا: يا رسول الله وما عسّله؟ قال: يوفقه إلى عمل الصالحات فيقبضه على هذا العمل)، يعني يختم له بأعمال الصالحات.

إذاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس) يعني ظاهراً دون الباطن، ولذلك قلنا لا بد للإنسان أن يراقب قلبه الفينة بعد الفينة، الوقت بعد الوقت، الثانية بعد الثانية. ويعلم أن الله جلَّ في علاه إمّا يرفع أو يخفض، كل ذلك مداره على نقاء القلوب، بل قلت رزق الأبدان ورزق الأرواح لا يكون إلّا بنقاء القلب. حتى ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- بيّن التفاوت بين العلماء بعضهم من بعض قال: يؤتى المرء الفهم بنيته. انظروا إلى هذه القصص التي بيّنها الله جلَّ في علاه في كتابه، وبيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته، يبيّن لنا هذا الحديث العظيم ترجمة واقعية لكل من عصى الله جلَّ في علاه وكان في قلبه النقاء فختم الله عليه بالصالحات، ولكل من عبد الله جلَّ في علاه وفي قلبه الدغل ولم ينقِّ قلبه فختم الله عليه بالطالحات والعياذ بالله.

من ذلك برصيصا العابد كما بيّنا قبل ذلك، كان يتعبد لله بصومعته ليل نهار، كان جاهلاً وفيه دغل في قلبه، فلمّا كان يتعبد لله بالجهل ليل نهار وما اهتم بنقاء قلبه ختم الله عليه بالطالحات، زنى بالمرأة وقتلها ثم كفر بالله العظيم والعياذ بالله. هذا يطبّق عليه الحديث (وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس)، ظاهراً دون الباطن. ولذلك دائماً علماؤنا يقولون: التخلية قبل التحلية، التزكية حتى يمتلئ المرء علماً وعملاً لا بد أن يخلي قلبه من الدغل والحقد والحسد وكل هذه الآفات وعيوب القلوب. فهذه قصة تبيّن لنا (يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ثم يسبق عليه الكتاب فيختم الله له بعمل أهل النار)، والعياذ بالله.

وكثير من الذين يعملون المعاصي يعمل بعمل أهل الجنة في آخر حياته؛ هذا الرجل الذي كان يعيث في الأرض فساداً، والمرأة التي كانت تزني وتضاجع كل ليلة رجلاً

فإنها مشت للصحراء وبلغ منها العطش ما بلغ ثم وجدت بئراً فشربت، فوجدت كلباً بلغ منه العطش ما بلغها، فنزلت أخذت الخف فملأته ثم سقت الكلب، فشكر الله لها عملاً دقيقاً أو جليلاً صغيراً مثل هذا وعظّمه حتى تقاطرت هذه المياه على جبال السيئات فغسلته، لِمَ؟ لنقاء القلب، هي تعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس ظاهراً لكن علم الله من قلبها أنها تأبى هذه المعصية وتبغضها لكن شهوتها تغلبها، شهوتها تكون أعظم عليها، ما تستطيع أن تتراجع لكن يعلم الله من قلبها ومن صدق قلبها أنها لو فتح لها باب الخيرات لسارعت فيه، فلذلك ختم الله عليها بالصالحات فعملت بعمل أهل الجنة.

فهذا الحديث عظيم جداً يبيّن لنا ميزان الأقدار عند الله جلَّ في علاه، وأن الله يكتب أصحاب الجنة وأصحاب النار أيضاً مرتبطة بالأسباب، وأن الله اشترط لقبول العمل شرطين مهمين: شرط في الظاهر وشرط في الباطن.

▪ أمّا شرط الظاهر: متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكثير من الناس يستطيعون أن يعملوا بهذا العمل أو يقيموا بهذا الشرط الأول.

▪ أمّا الشرط الثاني فهو أقوى، والشرط الثاني هو أغلظ، والشرط الثاني هو الذي يجعل الإنسان يرتفع عند ربه أو الإنسان يسقط، قال الله تعالى عن الكفار: (إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ) لا في أعمالكم، (إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ) [الأنفال:70]. وقد قال ابن القيم: إن المرء ليصلي بجانب المرء فهو يقرأ الفاتحة والثاني يقرأ الفاتحة، وهذا يقول "الحمد لله رب العالمين" والثاني يقول "الحمد لله رب العالمين"، يتفاوتون كما بين السماء والأرض، وما ذلك إلّا لشيء قد وقر في القلب؛ هما يعملان بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، لكن بينهما اختلاف في عمل الباطن. ولذلك كما قلت الموفق المسدد من اهتم بنقاء قلبه، من اهتم بإخلاصه لربه جلَّ في علاه، ومن أراد الله أراد الله له ما يريد، ومن أراد التقرب لربه جلَّ في علاه سارع وهرول إليه ربه جلَّ في علاه.

هذا آخر ما يقال في هذا الحديث العظيم في الجزئية المهمة جداً: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة)، ولا إشكال في ذلك، (فيما يبدو للناس ظاهراً) بالشرط، ويختم الله عليه بعمل أهل النار لأنه تخلّف عنه الشرط الثاني وهو أهم الشروط ألا وهو الإخلاص لله جلَّ في علاه. (وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ) [البقرة:272]، قال الله تعالى: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) [الزمر:2]، (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) [البينة:5].

ولذلك نحن نقول إن كثير من أهل السلف الذين يقولون من زهّاد السلف يتصوفون على الكلمة الصحيحة بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما يفعل الجنيد وإبراهيم بن أدهم، هؤلاء الذين يعتدلون بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم؛ كان جُل اهتماماتهم بالقلوب،

وكل اهتماماتهم في عبادات الله جلَّ في علاه كعبادة التفكر والتدبر لا القيام ولا القعود، يمكن للإنسان أن يصلي دائماً ويصوم دائماً وهو عند الله قد سقط لقادحة من القوادح: إمّا عدم الإخلاص، وإمّا وجود العجب أو الكبر. هذا القادح الثاني في هذا الحديث أنه يقول: (ويعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ثم يسبق عليه الكتاب)؛ لأنه بعدما عمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس بالتمسك بالسنة وبالمسارعة في الخيرات، جاء قادح لهذه الأعمال ويكون ظاهراً وباطناً، أخلص لله لكن جاء قادح خارجي على غير هذا الشرط ألا وهو العجب الذي يورث الكبر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة).

فهو فيما يبدو للناس يعمل عمل الصالحات، لكن هناك شروط اختلت أو موانع قد أتت، وقلنا كل حكم لأي إنسان لا بد أن تتوفر فيه الشروط وتنتفي الموانع. فالشروط التي تتوفر: شرط ظاهري وشرط باطني؛ الشرط الظاهري هو العمل بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، الشرط الباطني هو الإخلاص لله جلَّ في علاه. انتفاء الموانع، من هذه الموانع العجب الذي يورث الكبر، هذه نهاية ما يمكن أن يقال إجمالاً في هذا الحديث.

الفوائد المستنبطة:

١- الخشية مما سبق عليه الكتاب؛ هذا فعل العلماء الربانيين، ولذلك كان كثير من علمائنا كإبراهيم بن أدهم كما قلت والجنيد وغير هؤلاء يبكون بكاءً شديداً جداً بعد قيامهم لليل وبعد صيامهم للنهار وبعد نفقاتهم، وعندما يسألون عن ذلك يقولون: مالي ولأعمالي، إني أتدبر فيما كتبت وأنا في بطن أمي، الشقي من شقي في بطن أمه، فما أعلم والله أكتبني الملك من الأشقياء أم من السعداء؟ ولذلك قال ابن مسعود: (الشقي من شقي في بطن أمه)، ولذلك كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- يطوف بالكعبة ويبكي ويقول: اللهم إن كنت قد كتبتني (يعني في بطن أمي) شقياً فامحها واكتبني عندك سعيداً.

فهذا فعل الفقهاء العلماء الربانيين، يخشون على أنفسهم مما سبق من الكتاب، ولا ينظرون لا للأعمال الصالحات ولا حتى للزلات والهنات، لأنهم يعلمون أن الكتاب سيسبق سيسبق، ولو سارع في الخيرات وعلم الله من قلبه الدغل سيسبق عليه عمل أهل النار فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها والعياذ بالله. من أين استنبطنا هذه الفائدة؟ (الشقي من شقي في بطن أمه)؛ تفسيرها فيؤمر بأربع كلمات، قال: (أشقي أم سعيد؟) وهو جنين في بطن أمه يكتب شقي أم سعيد.

٢- الرزق مقسومٌ مقسوم فلا خشية عليه؛ والدلالة والاستنباط من جزئية أنه قال: (أي رب الرزق؟ أي رب الأجل؟). فإذاً الرزق والأجل اقترنا، وهذه فائدة عظيمة جداً، قرن الملك الرزق والأجل لأنهما يتفقان ولا يفترقان، يتلازمان ملازمة ليست بعدها ملازمة،

أو الملازمة الحري أن نقول الملازمة للشخص؛ كما أن الموت يلازم الشخص ويلاحقه حتى تأتي ساعته فيقبض على روحه، نفس الأمر الرزق يسعى خلفه كما يسعى الموت خلف الإنسان، وقد جاء به مصرحاً من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن الرزق ليسعى خلف المرء كما يسعى خلفه الموت، مدركه لا محالة)، يعني الرزق سيأتيك سيأتيك لا محالة كما أن الموت سيأتيك سيأتيك، إن لم تستطع أن تفر من الأجل فإنك لن تستطيع أن تفر من الرزق، وهذه تنادي بأعلى صوتها للناس (اتقوا الله وأجملوا في الطلب).

إن علمت أن الرزق يسعى خلفك كما أن الموت يسعى خلفك، وأن الموت لا يمكن إلّا أن يصيبك فإن الرزق لابد أن يصيبك، فالرزق كالموت خلفك كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرزق ليسعى خلف المرء كما يسعى الموت خلفه، مدركه لا محالة)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب). لِمَ تجمل الطلب؟ لأنك لو سرقت مالاً، كان هذا المال إن لم تسرقه سيأتيك من باب حلال، فأنت لو اتقيت ربك جلَّ في علاه لفتح الله عليك الأبواب الخير.

ولذلك كثير من الإخوة الذين يسألون أعمل في بنك ربوي، أعمل في خمارة، أعمل في كذا أعمل، في كذا، أترك العمل من الآن؟ يأتي كثير من المفتيين يقول: يا بني لا نضيق عليك ولا نحجّر واسعاً، ابحث عن عمل وأنت في هذا العمل حتى تنتهي فتأخذ. تقول له: ألا تعلم أبواب القدر وتوكل هذا إلى ربك جلَّ في علاه، إن الله قد كتب الرزق في السماء وقال: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) [الذاريات:22-23]، ولذلك الأعرابي قال: من أغضب الجبار فيقسم على أمر قد كتبه الله جلَّ في علاه؟ وما كتبه الله فهو نافذ. قال الله تعالى: (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) [النحل:1]، كيف أتى وكيف لا تستعجلوه؟ فنقول هنا محل النظر أن الله جلَّ في علاه إذا قال شيئاً قد قضاه وانتهى الموضوع، ولذلك يقول: (فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) لأن الله قد كتب أنه سيأتي. نفس الأمر الرزق، قال: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ)، وحق من الله جلَّ في علاه.

فلذلك نقول لو تعلمت أبواب القدر ما قلت ذلك، وما كنت فيما أنت عليه من المعصية، وقلل منها ثم ابحث عن عمل، اقطع هذا لأنك في الحالتين المال الذي سيأتيك في المعصية، اجلس في بيتك سيأتيك. سيأتيني وأنا في بيتي؟ أقسم بالله سيأتيك على شرط ألّا تكون متواكلاً، قد أخذت بالأسباب الصحيحة، أجملت في الطلب لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)، ما عليكم إلّا الإجمال في الطلب.

وأبواب الطلب كثيرة: منها تقوى الله، ومنها الأخذ بالأسباب الصحيحة من طلب العلم. وهذا تخفى عن كثير من الناس، كثير من الذين يغفلون عن هذه الميزة العظيمة، طلب العلم هو أكبر أبواب الرزق، كيف ذلك؟ أقسم بالله أغنى الأغنياء ظاهراً وباطناً، بالحس وبالمعنى هو طالب العلم، ستفتح عليه أبواب الدنيا. الشيخ الألباني كان ساعاتي، كان ما يرى قوت يومه، يصلح الساعة ويخرج الحديث، ثم انتهى من ساعات الدنيا بأسرها وانشغل بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان من أغنى أهل الأردن وترك الميراث لأهله، يعلم الله ما تركه الشيخ الألباني بهذا، لِمَ؟ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث الصحيح جاءه رجل فقال: يا رسول الله إن أخي يأتيك في المجالس (مجالس التحديث ومجالس العلم)، وأنا أكد له وأعمل، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (دعه لعلك ترزق به)، أنت رزقك ما يأتيك إلّا به.

فطلب العلم خير مفتحة للرزق، ولذلك الإمام أحمد بن حنبل لمّا اشتدوا عليه فيما يفعل ويخالف في مسألة خلق القرآن، فقال: إن هذا العلم شريف لو أردت به الدنيا أخذتها، ولو أردت به الآخرة أخذتها. وأقسم بالله من أراد الآخرة بطلب العلم أتته الدنيا وهي راغمة تحت قدميه، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كانت الدنيا همه شتت الله عليه شمله وجعل فقره بين عينه ولم يؤته من الدنيا إلّا ما كُتِب له، ومن كانت الآخرة همه جمع الله عليه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة). الدنيا مخدومة، تخدم أهل الصلاح الذين ينشغلون بالله جلَّ في علاه، ما عليك إلّا أن تتقي الله وتجمل في الطلب.

(نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب)؛ فمن طلب منه أن يحلق لحيته، فقل له لا تحلق لحيتك، من طلب منه أن يترك الصلاة في وقتها فلا يفعل ذلك، من طلب منه أن يبقى في عمله المحرم حتى يجد عملاً فلا يفعل ذلك، فإن ربه جلَّ في علاه قد كتب له في اللوح المحفوظ رزقه يسعى خلفه كما يسعى الموت خلفه، وما عليك إلّا اليقين في الله جلَّ في علاه. وحسب ما تعامل ربك يعاملك، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء، فإن ظن بي خيراً فله وإن ظن بي غير ذلك فله)؛ يعني إن ظن شراً فله. فالعبد لا بد أن يحسن الظن بالله جلَّ في علاه ويعتقد يقيناً أن رزقه يسعى خلفه كما أن الموت يسعى خلفه، فإن الملك يقول: (أي رب الرزق؟ أي رب الأجل؟ أي رب شقي أم سعيد؟).

طبعاً قصة لطيفة ذكرناها كثيراً عن الحسن البصري؛ الحسن البصري كان رجلاً محدثاً فقيهاً واعظاً مذكراً وعابداً، قالوا كلامه يشبه كلام الأنبياء لأن اعتقاده أشبه باعتقاد الأنبياء، ووالله الذي لا إله إلّا هو كل إناء بما فيه ينضح، إن صح ما في القلب

خرج الصحيح، وإن كان في القلب نقاء خرج النقاء من اللسان. ولذلك الحسن البصري كان يتكلم بالكلام يحسبون أن هذا هو كلام الأنبياء، يرفعونه للنبي -صلى الله عليه وسلم-، المغفلين من الرواة لمّا يأخذوا كلام الحسن يحسبون من حلاوة كلام الحسن أنه من كلام الأنبياء فلا يوقفونه على الحسن بل يرفعونه للنبي -صلى الله عليه وسلم-، يحسبونه من كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأنه أشبه الأنبياء بالاعتقاد، فأشبههم في الظاهر لمّا شابه الأنبياء في الباطن.

كان دائماً يخرج إلى الأسواق يبيع تمره، فيبيع التمر فيرى قوت يومه، فيقول هذا قوت يومه، فيسحب نفسه من السوق ولا يزداد. فيقول الناس: يا رجل اتق الله ربك فتح عليك الله في الرزق، فيقول: لا، علمت أن رزقي بيد ربي ولن يذهب لغيري فاطمئن قلبي. المسألة منتهية، قد كتب الملك: (أي رب الرزق؟ أي رب الأجل؟)، كتب ذلك وثبت عند ربنا جلَّ في علاه فلن يذهب لغيره بحال من الأحوال.

٣- الأعمال بالخواتيم؛ (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ثم يسبق عليه الكتاب ويكون من أهل النار)، (وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة) لأن الله قد كتب أنه من عمل أهل الجنة. إذاً مقياس الناس عند رب الناس جلَّ في علاه في أعمالهم بالخواتيم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من مات على شيء بعث عليه)، فالأعمال بالخواتيم.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أحب الله عبداً عسّله، قالوا: وما عسّله؟ قال: إذا أحب الله عبداً وفقه لعمل الخير فقبضه على هذا العمل). قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة)، ولذلك يوصي العلماء بكثرة ذكر الله جلَّ في علاه. لمّا جاء الرجل الشيخ الكبير يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: استنصحك ولا تكثر عليّ ما أستطيع، لا صلاة ولا صيام ولا زكاة، فقال له: (اجعل لسانك رطباً بذكر الله)، العلماء لمّا نظروا في هذه النصيحة الغالية الثمينة التي تحفر على الصدر بماء ذهب، قالوا: لأنه لو كثر ذكر الله جلَّ في علاه بلسانه فإنه يختم عليه بالذكر.

ولذلك أنت تراها واقعاً؛ هذه وقعت معي كثيراً جداً، يمكن أنام في مسألة علمية لا أستطيع حلها والمسألة يعني لا أستطيع الوصول إليها بسهولة وأقول هذا الخلاف كيف حله؟ كيف الرد على هذا؟ أموت ورب السموات والأرض ما إن أستيقظ إلّا وأجد نفسي أتكلم بالإجابة وأرجع إلى كتب أهل العلم فأجد الإجابة كما تكلمت به، هذا فضل الله يؤتيه ما يشاء، فأنت لو دمت على شيء لا بد أن يختم لك بهذا الشيء. ولذلك كثير من المحدثين كانوا يديمون النظر في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلا يموتون إلّا على "لا إله إلّا الله".

وقصة أبي زرعة مشهورة جداً بين العلماء؛ في مرض موته التفوا حوله يذكرون حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: هذا الحديث أنتم تقلبون إسناده وإسناده كذا وكذا وكذا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة)، فمات على ذلك، مات على نهايته. وقد ورد أن امرأة كانت تقرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) كثيراً، فلمّا حان وقت الموت عندها قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم * (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، وماتت بعد ذلك.

وعلى النقيض الرجل الذي يدندن بالعود ما مات إلّا والعود في حضنه، وكثير من المغنيات والمغنيين وشُرّاب الخمر ما ماتوا إلّا على ذلك، يعني -كما قال ابن القيم- كثير ممن كان يلهو ويترك عبادة الله وكان يلعب بالشطرنج مثلاً فعندما حان وقت الموت يقولون له يا رجل قل: لا إله إلّا الله، يقول كش ملك. وأيضاً بعضهم كان يموت على الغناء، يسمع لأم كلثوم ويموت بخاتمة سوء على ذلك. فإن المرء إذا إن سار على شيء مات عليه، فالأعمال عند الله جلَّ وعلا بالخواتيم، وقد أناطها الله جلَّ في علاه بصلاح الظاهر والباطن، فمن أصلح وعمر باطنه بالخير وأصلح ظاهره فإن الله يختم له بالصالحات.

٤- لا يأمن مكر الله إلّا القوم الكافرون؛ من أين هذه؟ (يعمل بعمل أهل الجنة) أمن العذاب، (فيسبق عليه الكتاب). ولذلك قال عثمان بن عفان: لو وضعت اليمنى في الجنة وبقيت اليسرى ما أمنت مكر الله جلَّ في علاه، ولذلك قال الله تعالى: (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ* أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ* أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) [الأعراف:97-99]؛ لا يأمن مكر الله إلّا المنافق، ولا يأمن مكر والعياذ بالله إلّا القوم الكافرون الذين أعجبوا بأنفسهم ولم يعلموا أن الله جل وعلا يستدرج عباده، كما قال بعضهم: إذا رأيت الرجل تنجم معصيته والله جلَّ في علاه يغدق عليه النعم فاعلم أن الله يستدرجه من حيث لا يعلم. نعوذ بالله من الأمن من مكر الله جلَّ في علاه.

٥- الرد على القدرية والرد على الجبرية؛ في هذا الحديث جزئية فيها الرد على القدرية وجزئية فيها الرد على الجبرية:

- الرد على الجبرية بالحديث: (إن الرجل ليعمل)، أين وجه الدلالة؟ (يعمل)، فنسب العمل له، وهم يقولون لا أعمال له، ألقاه في اليم مكتوف اليدين فقال إياك إياك أن تبتل بالماء. وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يعمل)، نسب العمل له.

- الرد على القدرية، وجه الدلالة في هذا؟ مكتوب قبل ذلك، هم يقولون الأمر أنف، وهنا يقول: (فيسبق عليه الكتاب).

يبقى إشكال ثاني على الحديث؛ هنا ثمة إشكال في هذا الحديث: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ثم يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيختم له بعمل أهل النار فيدخل النار)، وإشكال عجيب!! حديث عمر بن الخطاب -رضي الله وأرضاه-: (مرت جنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: وجبت، ثم مرت جنازة أخرى فأثنوا عليها شراً، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: وجبت، أنتم شهداء الله في الأرض)، فهذا الحديث نورد به إشكال على هذا الحديث.

(يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس)، فسيقول الناس خيراً: رجل من أهل الجنة، رجل صالح، فأثنوا عليها خيراً، فيقال: وجبت. ويعمل بعمل أهل النار، فيقولون: فاسق فاسد عاث في الأرض، نقول: وجبت. هذا إشكال عظيم كيف نحله؟ مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أقر وقال: (أنتم شهداء في الله في الأرض).

متى قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وجبت)؟ وهو ماشي في الجنازة، ما في أي إشكال لأنه في الجنازة بعد ما مات وعلموا خاتمته، فقالوا خيراً، فأثنوا عليه خيراً، فقال: وجبت. والآخر الذي حمل الجنازة، الجنازة المحمولة الثانية ختم عليه بعمل أهل النار، فقالوا شراً، فوجبت. إذاً لا إشكال، لأن الحديث يقول: (فيما يبدو للناس)، لكن سيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل، فالناس في الظاهر تقول: صالح، طالح؛ حتى يسبق عليه كتاب النار فيعمل بعمل النار، فيقولون: سبحان الله أين الصلاح؟ قد مات الرجل على الفساد، هذا رجل فاسق فيه حقد، فيه كذا، فيه كذا، في قلبه. فيثنون عليه شراً، فتكون وجبت ولا إشكال في ذلك.

والذي يدلك على أن الرجل الذي قاتل قاتل قتالاً مريراً من أجل رفعة هذا الدين، فقال الناس: هذا رجل من أهل الجنة، فلمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هو من أهل النار)، قال صاحبه: أنا آتيكم بالخبر. فقارنه حتى رآه قد قتل، لمّا قتل نفسه وقال للناس الذين أعجبوا بشجاعته قد قتل نفسه، ماذا سيقولون؟ ويل له وثبور قد قتل نفسه. إذاً أثنوا عليه شراً، فنقول الآن: وجبت، فلا إشكال في الحديث لأن المسألة كلها على الخاتمة. من هذا قول الإمام أحمد: بيننا وبينهم الجنائز؛ الجنائز ستكشف أهل البدع وأهل السنن، وأهل الصلاح وأهل الطلاح.

جزاكم الله عنا خيراً، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك وأشهد أن لا إله إلّا أنت.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الرابع والثلاثون: الطبع والجبل والخير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا بفضل الله ومنه وكرمه علينا مع هذا الكتاب العظيم "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، ونسأل الله أن يديم علينا هذه الخيرات، وأن نشكر الله جلَّ في علاه أولاً بأن تمنن علينا بكرمه وبفضله أن رحمنا بأن نعيش هذه اللحظات في حياتنا، أن نسعى لنشر العلم نتعلم ونعلم، ونشكر أيضاً كل من يسّر لنا مسألة هذه المجالس التي يذكر فيها الله جلَّ في علاه ويثنّى بالصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-. ونسأل الله أن يوزع في قلوب من ييسر علينا ذلك أن يحتسبوا الأجر عند الله في تيسيرهم لنا في هذه الدروس، علهم يسعدوا بذلك يوم القيامة عند ربهم جلَّ في علاه. أقول بإذن الله اليوم إن شاء الله على باب تكلمنا عنه وهي مسألة الكتابة وسبق القلم بكل ما هو جرى إلى يوم القيامة، ولولا أن هذا الباب فيه بعض الطرائف واللطائف ما تعرضنا إليه، لعرجّنا على باب المواثيق كان يكون أولى لنا، لكن الأفضل لنا قدر الإمكان نعرّج على اللطائف التي تضمنها هذا الباب.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة -رضي الله عنهما- قال: قال لي أشج بن عصر قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجلَّ، قال:

قلت: وما هما؟ قال: الحلم والحياء، قلت: قديماً كانتا فيّ أم حديثاً؟ قال: قديماً، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله عز وجلَّ).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إذا اشترى أحدكم خادماً فليأخذ بناصيته وليقل: اللهم إني أسألك من خيره وخير ما جبلته عليه). وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مُغير الخُلق كمُغير الخَلق). وعنه -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كتب الله تعالى على كل نفسٍ حظها من الزنا).

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن أبي بن كعب -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً)، وعنه -رضي الله عنه- يرفع الحديث إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً، ألقى الله تعالى على أبويه محبةً منه).

ما زلنا ندور في فلك القضاء والقدر، وما زلنا نتعرض إلى الأحاديث التي تثبت أن الله قد فرغ من العباد، كتب أهل الجنة وكتب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم، ولا يزاد على ذلك ولا نقصان. أقول لهذه الأحاديث التي سردت فيها حديث لا بد أن نتوقف عنده وهو حديث الخضر وموسى -عليه السلام-؛ موسى -عليه السلام- كليم الرحمن، إن الله جلَّ في علاه فضّل موسى على سائر خلقه في زمانه وفي وقته، اصطفاه الله جلَّ في علاه برسالاته واصطفاه الله جلَّ في علاه بكلامه، فلما تمتع بسماع صوت الله جلَّ في علاه تطلع إلى ما هو فوق ذلك وطلب رؤية الله جلَّ في علاه، فقال الله تعالى: (انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) [الأعراف:143]. ومع هذه الكرامة، ومع هذه المكانة، نرجع إلى القاعدة الأصيلة: ليس بين الله وبين عباده نسب، هذه قاعدة مرعبة لكل إنسان يتقاعس في طاعة الله جلَّ في علاه أو يتجرأ على محارم الله جلَّ في علاه.

فإن موسى -عليه السلام- كليم الرحمن، وهو صفي، لا من خلقه وهو الذي له المنزلة العظمى، وهو من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك لمّا حدث منه بعض الأمور التي لا يرضاها الله جلَّ في علاه عاتبه عليها وجعله تابعاً لا متبوعاً. كما في الصحيح ابن عباس يرويه عن أبي: أن موسى -عليه السلام- وقف أمام القوم فسئل من أعلم الناس؟ فقال: أنا، فلمّا قال: أنا، عاتبه ربه جلَّ في علاه، إذ من يحيط بكل شيء علماً؟ الله، فكان أولى وأجدر بموسى -عليه السلام- أن يرد العلم لله جلَّ في علاه. فلمّا قال: أنا، عاتبه الله جلَّ في علاه وأراد أن يبيّن له لست بأعلم أهل الأرض، العلم يعلمه الله جلَّ في علاه.

قال: عبد من عبادي أعلم منك، وبيّن له هذا العبد وهو الخضر، فأمره أن يذهب إليه. هذا خلق الأنبياء؛ لم يتكبر موسى -عليه السلام-، ولم يقل أنا من أولي العزم من الرسل كيف أكون تابعاً لا متبوعاً؟ بل تواضع لله جلَّ في علاه وعلم أنه لا بد أن يسعى راحلاً خاضعاً متواضعاً ليتعلم العلم الذي حباه الله لغيره، حتى جعل الله له علامات يعرف بها الخضر، وهي مسألة الحوت، فلما رأى هذه العلامات ذهب إلى الخضر.

من هذه اللطائف في هذه القصة، وبعض العلماء يعني أتى بلطيفة لا بد أن نذكرها لطلبة العلم: أن طالب العلم ميّسر عليه الطلب في كل حين وآن إذا صدق الطلب واستنبط العالم الجليل. هذه اللفتة العظيمة من أين؟ من أنه قال لمّا سار موسى والغلام -والراجح في الغلام هو يوشع بن نون- كان صادقاً للتعلم فلم يشعر بالوقت ولم يشعر بالرحلة ولا عناء الرحلة، لكن لمّا تجاوز المكان أو المقام الذي أراد أن يتعلم فيه حدث له التغيير بالعناء والمشقة وشعر، ولذلك سأل الفتى وقال: ائتنا غدائنا. وفي طيلة الرحلة لم يحدث ذلك، لِمَ؟ لأنه سار في هذا الطريق ليطلب العلم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا تقريراً بهذه المسألة أن (من سلك طريقًا يطلب فيه العلم ابتغاء وجه الله، سلك الله به طريقاً إلى الجنة)، وسهّل الله كل أمره دقه وجلّه، وهذا الذي حدث مع موسى -عليه السلام-.

لمّا تجاوز المقام حدث التفريق وشعر بالمشقة، فرجع بعد ذلك سأل الغلام حتى رأى العلامة وذهب إلى الخضر. فلمّا ذهب إلى الخضر ما ذهب على أنه من أولي العزم من الرسل، وما ذهب على أنه صفي من أصفياء الله جلَّ في علاه، ولا على أنه أكرم خلق الله على الله في هذه الآونات وهذه الأوقات، لا. ذهب متعلماً مستأذناً خاضعاً للخضر، وهو بالإجماع موسى أفضل من الخضر، بل الخضر الاختلاف فيه ظاهر بين العلماء هل هو ولي أم نبي؟ ولكن الفضائل تخص، خصه الله بعلم لم يعلمه موسى -عليه السلام-. فذهب خاضعاً متذللاً، يسأل بتواضع أن يكون تابعاً للخضر. فهذه تكون نبراساً لكل طالب علم يريد أن يتعلم هذا العلم، أن يتواضع للعلم حتى يحوز هذا العلم. فتواضع موسى للخضر وذهب تابعاً للخضر، حتى أن الخضر شق عليه وقال: (فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) [الكهف:70]، (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) [الكهف:69] لكن إنكار موسى -عليه السلام- أنه وجد ما لا صبر له عليه من الإنكار الشرعي.

وأيضاً لفتات أخرى أو نقول لطائف أخرى من هذه القصة؛ أنه لمّا ركب السفينة مع الخضر خرق الخضر السفينة، انظروا اللطيفة؛ قالوا: هكذا الأنبياء والرسل والصلحاء والكرماء الأماجد الأفاضل، لا ينظرون لأنفسهم، ينظرون لعباد الله، لأن الله ما أرسلهم إلّا رحمة للناس، ما أرسلهم إلّا رحمة على الناس، فلن يفكر في نفسه يغرق أو يموت

أو يُقتل، ولم يفكر فيه هو أيضاً لأنهم جند من جنود الله جلَّ في علا، رحمة على عباد الله، كما بيّنا أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- رحمة مهداة، فكل رسول كذلك. فقال له موسى: (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) [الكهف:71]، ما يهمني نفسي، ما يهمني أنت، يهمني هؤلاء البشر الذين أرسلنا الله لهم ندعوهم إلى دين الله جلَّ في علاه، فأنكر عليه إنكاراً لطيفاً.

ثم بعد ذلك لمّا قتل الطفل -ونحن مع هذا الطفل في هذا الباب الذي سنتكلم عنه- أنكر عليه إنكاراً شديداً وقال: (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا) [الكهف:74]؛ أشد من الأول، قال: (إمراً) أولاً، ثم الثانية قال: (نكراً)، ثم هدم الجدار إلى آخر القصة المشهودة والمعلومة. الصحيح الراجح هو موسى بن عمران، والصحيح الراجح أن الخضر كان نبياً كما سنبيّن. هذا مجمل ما يمكن أن يقال في هذه القصة اللطيفة، ثم نتبعها بأن ابن آدم كتب عليه الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فنبدأ الأول بالكلام على الخضر وموسى -عليهما السلام-.

الخضر وموسى وأهم اللطائف التي ممكن أن نستنبطها من هذه القصة في باب القدر بالذات؛ قتل الخضر للطفل لأن الحديث جاء يصرّح: غلام الخضر طُبع يوم طُبع كافراً، وهذه كلها تنصب في بوتقة حديث واحد وهو حديث ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: (يأتي الملك الموكل بالرحم فيقول: أي رب شقي أم سعيد؟)، أيضاً قول ابن مسعود: (الشقي من شقي في بطن أمه). فإذاً هذا الطفل كتب في صحيفة الملك أنه من الأشقياء، ومع ذلك قد قتله الخضر غلاماً، و"الغلام" كما قال بعض علماؤنا الأغلب في اللغة: "الغلام" على الذي ناهز الحلم، لم يحلم بعد، وأمّا قليل في اللغة يمكن أن يطلق الغلام على الرجل الكبير البالغ المكلّف. لكن هنا في قصتنا أن غلام الخضر لم يبلغ الحلم، لأنه هناك الزيادة في مسلم ومسند أحمد قال: (إذا عاش سير هقهما طغياناً وكفراً).

هو قال: يوم طُبع طُبع كافراً، ولمّا قتله الخضر قتله غلاماً، فهذا سيعن لنا إشكال: كيف نقول هو كافر وقد قتله ولم يبلغ؟ هذا فيه إشكال أنه ما قتل كافراً لأنه لم يكلّف، فلا يصح أن نقول أنه كان كافراً، فإذاً يدخل لنا أن الغلام يطلق على الكبير.

أمّا لمّا عرج بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أكان صغيراً؟ بعد الأربعين بعثته. فلمّا مر على موسى وصعد، بكى موسى -عليه السلام-، فقيل ما يبكيك؟ قال: (غلام بعثه الله بعدي، من يتبعونه أكثر ممن يتبعوني). لكن هنا الصحيح الراجح في الغلام هنا هو الصغير الذي لم يبلغ الحلم، والدلالة على ذلك بالزيادة في مسلم ومسند أحمد قال: (إن عاش سير هقهما طغياناً وكفراً)، يعني بعد بلوغه الحلم.

فقام الخضر فنظر إلى هذا الطفل فقتله، فاشتد نكير موسى -عليه السلام-: كيف تقتله؟ ولِمَ تقتله؟ مع أنه قال له: (فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)، لكن لا يصبر على ذلك، فقال له واشتد عليه المعلم للمتعلم فخضع، وقال بأدب: (إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا) [الكهف:76].

نقف وقفة مع قتل الخضر لهذا الطفل: أولاً كان طفلاً صغيراً غير مكلف، فكيف يقتل هذا الطفل؟ وهذا الذي جعل موسى يشتد نكيره عليه: كيف تقتل هذا الطفل؟ الطفل لم يجني جناية فكيف تقتله؟ وهو لم يكلّف حتى الآن فكيف تقتله؟ فهذا الذي جعله يشتد نكيراً. نقول لمّا أجاب الخضر لموسى علة وحكمة قتل هذا الطفل قال: هذا الطفل سيكون كافراً فيكفر والديه، أو قال: هو يوم طبع طبع كافراً، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فسيرهق أباه وأمه، وكانا مؤمنين فمن حبهما له سيكونا كافرين على الكفر الذي هو عليه، سيجذبهما إلى ما هو عليه من الكفر، فقتله حتى يحمي والديه منه بل ويحمي نفسه منه. كيف ذلك؟ لأن العلماء لمّا نظروا في قتل الخضر للطفل قالوا هناك وجهان:

▪ الوجه الأول: أنه علم؛ وعلم هذه تحتها مئة خط لتعلم أن الخضر ليس بولي بل هو نبي، لأنه لا يمكن أن يعلم ذلك إلّا بالوحي، والوحي لا يكون إلّا للأنبياء. فعلم أنه إذا كبر سنه سيكون كافراً، فلمّا علم كفره مآلاً قتله حالاً، وقال العلماء: قتله حالاً كان في شرعه؛ يعني كأن رجل قام يكفر مآلاً، له الحجة، سيقول للخضر: كيف تقتلني؟ أكفرت أمامك؟ فيقول: لا، فيقول: فلِمَ تقتلني؟ يقول: أعرف أنك عندما تكبر تكون كافراً، فيقول له: لا حجة لك لأنني لست بكافر. فلذلك العلماء قالوا: هي خاصة بالخضر، لأنه لمّا علم باطن الأمر من الله جلَّ في علاه أنه إذا كبر سنه سيكفر قتله في الحال، وهذا في شرعه يجوز، وصراحة هذا الوجه في النفس منه شيء.

▪ الوجه الثاني: أنه قتله بعد معرفته بعلم الغيب من الله جلَّ في علاه أنه سيكون كافراً من باب مقاصد الشريعة الكلية، وهذه تتفق فيها الشرائع، وهي إذا تعارضت المفاسد ارتكب المرء المفسدة الأدنى لدفع المفسدة الأعلى. ويا ليت الذين يقتلون ويفعلون ما يفعلون يتعلمون هذا الباب، وهذا الباب من أعظم أبواب الشرع. فهنا جاء الخضر يقتل نفساً زكية، وهذه مفسدة ليست بعدها مفسدة، فلمّا نظروا العلماء قالوا: لا، هذه المفسدة التي ارتكبها من أجل ألّا يقع في مفاسد ثلاثة منها:

١- أولاً أن الأب والأم كانا مؤمنين فسيصيران كافرين، وهذه مفسدة من أعظم المفاسد، لأن قتل النفس في الدنيا لا توجب الخلود في النار، أمّا الكفر والموت عليه يوجب الخلود في النار، والخلود في النار خسارة في الدنيا وفي الآخرة، فمن أجل هذه المصلحة الكبرى قتل الطفل.

٢- الأمر الثاني أن الولد إذا كبر سنه سيكون كافراً، فإذا قتل وهو لم يبلغ الحلم فإن مآله على الراجح يكون في الجنة، فهذه مصلحة أعظم مما تكون من حياته، لأنه سيموت ويكون من خدم أهل الجنة كما صحح علماؤنا من علماء الحديث، حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أولاد المشركين خدم أهل الجنة)، وصححه الشيخ الألباني، هذا آخر ما صحح من الأحاديث التي تثبت أن أولاد المشركين في الجنة. فإذا قتل طفلاً لم يبلغ الحلم فهو من أهل الجنة، ولو كان كبيراً لصار من أهل النار، وهذه مصلحة أعظم مما تكون من مصلحة قتله.

٣- الثالثة أنه إذا تركه يكبر يكفر (هذه مفسدة)، ثم يكفر أباه ثم أمه (هذه مفسدة ثانية)، ثم يركب هذا الذنب عليه في ميزانه لأن من دل على شر كمن دل على خير له أجره أو له وزره، فقطع وحسم المادة حتى ينصب في حسناته ولا ينصب في سيئاته. فقالوا: هنا من باب درء المفسدة العظمى بارتكاب المفسدة الصغرى، ولذلك لمّا بينها لموسى -عليه السلام- خضع وما تكلم، ثم قال: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) [الكهف:82].

تستنبط من ذلك رحمات الله جلَّ في علاه الله، وفضل الله على عباده، وفضل الله على الأبوين المحبين لهذا الطفل، وفضل الله على الطفل، ورحمة الله التي أدركت هؤلاء الثلاثة أنهم اصبحوا في الجنة أخلاء لقتل هذا الطفل حتى لا يصير الأبوان إلى الكفر. هذه المسألة الأولى أو الحديث الذي لا بد أن نقف عنده وقفة، وهي مسألة الخضر مع موسى -عليه السلام-.

المسألة الثانية في حديث آخر، وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كتب على ابن آدم الزنا مدرك ذلك لا محالة)، هذا يدور في فلك أن كل شيء دقيق وجليل، صغير وكبير مكتوب عند الله جلَّ في علاه قبل أن يخلق الخلق؛ الزنا، الكلام، البطش. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كتب على ابن آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة)، يعني لا بد أن يقع لا بد أن يقع، كما قال ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه-: إن الله كتب الضحك والبكاء وغير ذلك، واستدل بقول الله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ) [النجم:43]. وفي حديث ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أن الله خلق العقل وخلق الكيف وخلق كل شيء، حتى في الحديث الصريح قال: (خلق الله كل صانع وصنعته)، فإذاً خلق الله العين والجوارح وجعل فيها الآلة التي تستخدم في الخير أو في الشر، وأوزع في قلب من استخدمها في الشر هذه الإرادة.

(كتب على ابن آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة)؛ (العين تزني)، وفي روايات أخرى في مسلم وفي غيرها زيادة قال: (العين تزني وزناها النظر)، وسمّاها زنا من باب تسمية الوسائل بالمقاصد، لأن القاعدة عند العلماء: أحكام الوسائل هي أحكام

المقاصد، يعني الوسيلة لها حكم المقصد. قال: (العين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واللسان يزني وزناه الكلام، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي والخطى إلى هذه المعاصي، والقلب يهوى ذلك ويتمنى)، ما قال يزني، قال: (والقلب يهوى ذلك ويتمنى) وسنقف عنده وقفة قبل أن نصل إلى الفوائد المستنبطة، قال (والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه)، يعني يصدّق كلية هذه الزنا أو يكذّب كلية هذه الزنا.

نقف وقفة مع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القلب يهوى ويتمنى)، ولم يذكر أنه زنى. فهل القلب يزني كما أن العين تزني واللسان يزني والأذن تزني؟ أم القلب يفارق ويخالف هذا الحكم؟ السؤال واضح: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه الكلام، والأذن تزني وزناها السمع) وسنبيّن أن هذه الجوارح كلها عليها عبادات لا بد أن تؤدى، هل قول النبي: (والقلب يهوى ويتمنى) يعني القلب يزني وزناه الهوى والتمني؟

الآن السياق والسباق من المفسرات، والسياق محكم، قال: (العين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واللسان يزني وزناه الكلام، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي والخطى إلى هذه المعاصي، والقلب يهوى ذلك ويتمنى، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه) وهذه مسألة مهمة جداً لأن من أطلق البصر فقد زنا وكتبت عليه معصية، وشوش على ذلك في قلبه كما قال بعض العلماء: القلب كعبة المحبين، والمعبود لا يرضى بالأصنام. فكل بصر؛ يطلق على امرأة عارية مثلاً أو يطلق على معصية لله جلَّ في علاه تشوش على القلب، تنقش على القلب ظلمة على القلب لا يستطيع المرء أن يفرّق بين الحق والباطل بإطلاق البصر، ولذلك قال بعضهم أسوأ مفسدات القلب هو إطلاق البصر. وأيضاً الكلام زنا، (واللسان يزني وزناه الكلام)، فتكتب معصية. (والأذن تزني وزناها السمع) ويكتب معصية، لكن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والقلب يهوى ويتمنى) هل يساوي: والقلب يزني وزناه الهوى والتمني لأن سياق الحديث هكذا؟

القول عندي هو يزني ولا يزني، نقول كيف؟ هو لا يزني لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)، فكلّما كان الهوى والتمني في القلب دون تحريك الجوارح فلا يسمى زنا ولا يكتب. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يُرى للمتحابين سوى النكاح)، هذا الحديث فاصل في النزاع أنه لو أحب امرأة هو ليس عند ربه مذموماً، لكن لو حرّكه هذا الهوى وهذا العشق لبعث الرسالة في الموبايل، لكلام في التلفون دون أن يكون عاقد، ليراها، ليذهب بها، إذاً وقع في الزنا، فهو لا يزني وهذا هو الدليل.

والثاني هو يزني، كما قرر الأخ الكريم أن هذا هو عمل القلب، الهوى والتمني بداية زنا القلب، فإن حدث هذا الهوى والتمني فأصبح عزماً على معصية فإن الفرج سيصدّق هذا بأمر من الملك جالس على عرشه وهو القلب، لأنه الملك على الجوارح، فيأمر الفرج فيصدّق. هنا نثبت للقلب زنا لأن الفرج سيصدّق بأمر القلب.

فالمسألة تحتاج إلى تفصيل وأن القلب يزني، ولا يزني. في الحالتين التي فصلنا إيّاهما فهذه اللفتة التي لا بد أن نقف عندها في هذا الحديث ونبكي على أنفسنا، ونقول ما منا من أحد إلّا وله هذه السقطة، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مدرك ذلك لا محالة)، ونحمد الله على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)، الحمد لله على هذا الحديث والحمد لله على هذه المنة وهذه النعمة، (وكل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون).

فإذاً لا يلومن أحد نفسه ويقول أنا منافق، أنا أنظر إلى المرأة وأقول يا رب تبت توبة نصوح ولن أنظر إليها، ويعاود الكرة وينظر، ثم يتوب ثم يعاود الكرة وينظر، فيقول هذا نفاق. فنقول: لا والله ليس بنفاق، قلبك ينبض بالحياة بفضل الله، عليك أنك تراجع نفسك متى ترى أنك في محل نفاق إن استدرجك الله فلن تشعر بأن هذا النظر سهم مسموم ولم تشعر بأن الله جلَّ في علاه فتح لك أبواب الشر فولجت فيها، فهذه هي المصيبة. أما كلما تقول أنا نظرت استغفر الله، استغفر الله، وتتوب من الذنب لله جلَّ في علاه فقلبك فيه الحياة. وقد بيّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- جزم وقال: (مدرك ذلك لا محالة)، هذا الذي يمكن أن يقال من طرائف ولطائف في هذه الأحاديث.

الفوائد المستنبطة:

١- مقاصد الشريعة: وكما قلت هذه التي تهذب شبابنا وتهذب أفكارنا، وتعلمنا أن المتجرئ على الشريعة ضائع وتائه ولا بد أن يرجع لأهل العلم قبل أن يتحرك يميناً ولا يساراً. لأن المفاسد العظمى التي يراها هي عظمى أمامه ويقول هذا منكر لا بد أن أغيره، لابد أن أفعل وأفعل، نقول له: انتظر، انظر للشرع، هل الشرع أباح لك ذلك أم لا؟ هل هذه المفسدة التي تريد أن تزيلها ستأتي بمفسدة أعظم منها أم لا؟

وهذه المسألة من أعظم مسائل الدين، وأولها وأعلاها وأرقاها وأسها وأساسها البول، الأعرابي أروع أمثلة مقاصد الشريعة؛ دخل الأعرابي وأول ما دخل هيّج مشاعر الصحابة، أول ما دخل نظر إلى الصحابة ونظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً)، فهذا أول الغل في قلوبهم، ثم ترك البشر وأخذ ناحية المسجد فبال، لمّا بال في نهاية المسجد، قالوا: الحمد لله قد وقع، ثم ذهبوا إليه هموا ليقتلوه، انظروا إلى أروع التعليم الذي يكون من النبي -صلى الله عليه

وسلم-، قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزرموه)، (لا تقطعوا عليه بوله)، (اتركوه).

هنا من الفوائد واللطائف أعظم مما يكون: هو أخذ ناحية المسجد يبول، فبال فنجس المكان، انظروا هذه مفسدة ومن المصلحة أنه يقطع البول في هذا المسجد الذي يذكر فيه الله، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: لا اتركوه على هذه المفسدة، لأن إزالة هذه المفسدة ستأتي بمفاسد أعظم؛ (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)، وتقتل المؤمن ويقال: أقتلت مؤمناً؟ ثم يقال المسلمون يكفر بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، والله أعلم بما سيأتي بعد ذلك. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزرموه)، اتركوا هذه المفسدة لأنكم لو قطعتم عليه بوله أتيتم بمفاسد أعظم.

المفسدة الثانية؛ هو قد أفسد هذا المحل، فإذا قلت اقطع بوله سيمر ويذهب يميناً ويساراً فينجس أكثر من مكان، فهذه المفسدة متحققة في أكثر من مكان. الأمر الثاني؛ إذا قطعت عليه بوله سيرجع البول على الثوب، وأيضاً طبياً كما قال العلماء: إذا قطع بوله سيحدث له ضرر أعظم وهو مرضه، وإن الدين جاء بحفظ الضرورات الخمس ومنها حفظ النفس، فكيف نحن نلحق بمسلم هذا الضرر؟ فلذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقطعوا عليه بوله).

المفاسد الأعظم تجعلنا نقول هذه المفسدة تبقى على ما هي عليه، ولا نغير هذه المفسدة حتى لا نأتي بمفاسد أعظم، هذه أولها وأسها وركنها الركين. وهنا نستنبطها من فعل الخضر؛ أتى بمفسدة من أعظم المفاسد وهي إسالة الدماء، ودم الطفل محفوظ عند ربه جلَّ في علاه، لكن هذه المفسدة أتى بها ليدرأ مفاسد أعظم منها ألا وهي: كفر الطفل بعد بلوغه، كفر أبويه، الخلود في النار للثلاثة، وعذاب أشد لهذا الطفل. والمصالح الأعظم من قتل الطفل: أنه سيكون من خدم أهل الجنة، أبواه مؤمنان يكونان في الجنة، الثلاثة يجتمعون في الجنة. فإذاً مسألة المصالح والمفاسد من أعظم الفوائد المستنبطة من هذا الحديث.

٢- حديث: (إن فيك خلتين يحبهما الله)، الأخلاق منها جبلي أو مكتسب، والدلالة على المكتسب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الحلم بالتحلّم، وإنما الصبر بالتصبر)، وعلى الجبلي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن فيك خلتان يحبهما الله، قال: يا رسول الله أهي قديماً أم حديثاً؟)؛ قديماً يعني كتبت في الأزل وخلقني الله بهما، أم هي حديثاً اكتسبت هذه الصفات. قال: (لا قديماً، جبلك الله على ذلك، فقال: الحمد لله الذي جبلني على صفة يحبها الله جلَّ في علاه).

٣- لا يجوز للخاطب أن يتكلم مع المخطوبة إمّا في التلفون أو على النت أو مع المحرم؛ من أين أتينا بهذا الحكم؟ (كتب على ابن آدم حظه من الزنا)، قال: (والأذن تزني)،

الاستمتاع بصوت المرأة، فإن كانت الاستمتاع بصوت المرأة فهذا زنا، والمخطوبة موعودة بالزواج وليس معقوداً عليها فلا يجوز الكلام معها. وكتب على ابن آدم حظه من الزنا باللسان، إذا تكلم ويغفر الله لنا ما سقطنا فيه جميعا ونستغفر الله على ذلك.

٤- الأدب مع الله: ولنعم الأدب مع الله جلَّ في علاه، وحسن الخلق يظهر في تعاملك مع ربك. كيف ذلك؟ نقول قد تأدب الخضر وموسى وتأدب سيدهم مع الله جلَّ في علاه، وتأدب الخليل مع الله جلَّ في علاه. هذا الأدب من أين يستنبط؟ لا ينسب الشر لله، من أين؟ قال: (غلام خضر طبع يوم طبع كافراً)، ما قال "طبعه الله كافرا"، مع أن الله الذي خلقه وخلق كل شيء، لأن الشر ينزل تحت العموم، وهذا أدب جم مع الله جلَّ في علاه ألّا ينسب الشر صراحةً لله جلَّ في علاه. فكيف ينسب لله؟ لأن الله خلقه، والله لم يخلق شراً محضاً، لكن خلقه، ولنا أحوال ثلاث في نسبة الشر الله جلَّ في علاه:

◆ أولاً ينزل تحت العموم، هذا من الأدب مع الله أن تقول الله خالق كل شيء، فينزل الشر تحت كل شيء، فخلق الشر والخير.

◆ أو تنسب الشر لنفسك تقول: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [الشعراء:80] كما قال الخليل، وأيضاً كما قال الخضر: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) [الكهف:79]، ما قال "أراد الله" مع أن الإرادة إرادة الله، هو الذي أوحى إليه أن يفعل ذلك لأنهم أحسنوا إليه وأتى من غير أن يدفع أجرة، ومع ذلك خرق السفينة لأنه من أمر الله، فنسب العيب لنفسه. فإذاً الحالة الثانية أن تنسب لنفسك، (وَإِذَا مَرِضْتُ)، مع أن الله هو الذي أمرضه، لكن قال لا أدبا مع الله: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ).

◆ والحالة الثالثة أن تأتي بها بالمبني للمجهول، كأن تقول: (طبع يوم طبع كافراً)، مع أن الذي خلقه هكذا هو الله جلَّ في علاه، وهذا أدب جم الله جلَّ في علاه.

٥- علم الله أحاط بكل شيء؛ إن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، ونحن الآن بصدد الثالثة: يعلم الله ما لم يكن لو كان كيف سيكون، هو لم يخرج لكن لو خرج يعلمه الله جلَّ في علاه، قتل الغلام هو علم الله لأن في الرواية زيادة أنه لو عاش سيرهق والديه كفراً، فيكون كافراً، هذا من باب أن الله جلَّ وعلا يعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون. ونظائر ذلك في الشرع أن الله جلَّ في علاه لمّا وقف أهل النار على النار (فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [الأنعام:27]، فقال الله تعالى: (بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:27]، يعني لو ردوا للدنيا مرة ثانية سيعودون كما كانوا على الكفر، هذه فيها دلالة على إحاطة الله جلَّ في علاه بكل شيء علماً.

٦- هذه الأحاديث فيها الرد على الجبرية وعلى القدرية. كيف ذلك؟

▪ (طبع كافراً)؛ من الذي طبعه على ذلك وجبله على ذلك؟ الله جلَّ في علاه، قديماً أم حديثاً؟ قديماً، وهم يقولون الأمر أنف، فهذا رد على القدرية.

▪ (قتله الخضر)، فنسب القتل لمن؟ للخضر، أي نسب العمل للعامل، وهذه دلالة ورد على الجبرية أنهم قالوا: ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال إياك إياك أن تبتل بالماء.

٧- إثبات صفة من صفات الأفعال لله من أروع الصفات وهي صفة المحبة لله جلَّ في علاه، من أين؟ هذا تصريح قال: (يحبهما الله) فأثبت الصفة لله، أضاف الصفة للموصوف، يحبهما من؟ الله. الله يحب؟ نعم يحب. وقد قال بعض الناس: المحبة هنا إرادة الثواب والبغض إرادة العقاب. قلنا لهم: نحن نثبت ما تثبتون ونقول إن الله جلَّ في علاه إذا أحب شخصا أراد له الرفعة وأراد له الثواب، أما علمت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال: (إن الله جلَّ في علاه إذا أحب عبداً نادى في السماء أن يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويكتب له القبول في الأرض)، والقبول في الأرض ليست مطلقة بل مقيدة بأهل الصلاح، فيكتب لك القبول عند أهل الصلاح. فإن الله إذا أحب عبداً أراد ثوابه وأراد جنته وأراد له الخير كله، فنحن نثبت الصفة ونثبت لازم الصفة، وقد فصّلنا القول في هذه المسألة في شرح أصول السنة والجماعة.

هذه صفة ثبوتية فعلية، لأنها تتعلق بالمشيئة: إن شاء أحب وإن شاء بغض، الله يحب فلان ويبغض فلان، يحب ولا يحب، مثلاً: الله ما يحب فرعون. فالله يحب فلان ويبغض فلان، يحب هذا ولا يحب هذا، يحب محمداً وهو أكرم الخلق على الله جلَّ في علاه، ولا يحب فرعون لأنه من أكفر أهل الأرض. إذاً صفة المحبة صفة ثابتة لله جلَّ في علاه في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، وهي صفة فعلية تتعلق بالمشيئة، إن شاء أحب وإن شاء لم يحب.

٨- فتنة البنين هي من أشد فتن الدنيا، فهي أشد من فتنة المال، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد خطب على المنبر وهو أعظم الخلق وأطوع الخلق وأذل الخلق للخالق وهو أعز الخلق، كان يخطب في الناس فرأى الحسن والحسين يتهادى كل واحد منهم، كل واحد منهم كاد يقع بعد ما اشتد عليه الأمر في السعي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فترك الخطبة وترك الناس ونزل من على المنبر وذهب مسرعاً إلى ابنه الحسن وابنه الحسين يضمهما، رحمة من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: (صدق الله، (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)). ففتنة البنين فتنة شديدة عظيمة، وهذه الفائدة مستنبطة من أين؟ (لو كبر سير هقهما طغياناً وكفراً)، فمن شدة محبة الأم له ومن شدة محبة الأب له فيكون كافراً من أجل حبه لولده.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الخامس والثلاثون: باب ذكر أخذ ربنا الميثاق من عباده

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

الحمد لله على إتمام هذه الدروس التي منّ الله علينا ويسرها علينا، ونسأل الله جلَّ وعلا أن ييسر لنا هذا دائماً وأن يديم علينا هذه الخيرات وأن يشكر لمن يسّر علينا ذلك. أقول هذا الكتاب كتاب السنة الذي ندرسه الآن من أمتع الكتب لأنه إن لم يكن كل جمل العقيدة، فأكثر وأغلب جمل العقيدة وأفضليته، على أن كثير من الإخوة الذين لم يحضروا معنا الكتب التي شرحت سابقاً فإنها تضم أيضاً داخل هذا الكتاب الجليل، فتكون المسائل التي لم يدرسها بعض الإخوة يمكن أن يراجعها معنا تأصيلاً فقط لا اتساعاً، فالاتساع نعول فيه على ما مضى من شرح الكتب، فنحن نعرّج في أبواب القضاء، مكثنا فيها كثيراً ولا يمل المرء من المكوث في مثل هذه الأبواب التي هي من أهم أبواب العقيدة، بحيث أن الإنسان يركز عقله بتأصيلات علمية سبقت تكون نبراساً لمن يبتدئ، وأيضاً تثبيتاً ومراجعةً لمن درس هذه الكتب قبل ذلك.

ما زلنا كما قلت في أبواب القدر، واليوم إن شاء الله على مشارف القول في المواثيق التي أخذها الله على العباد. طبعاً ضمناً هذه المواثيق سينزل تحتها الكلام على ميثاق الذر والكلام على أهل الفترة: هل هم محاسبون؟ هل هم مخيرون؟ هل هم من أهل الجنة؟ هل هم من أهل النار؟ وبعد ذلك طبقات المكلفين، وهذا الذي سنفرد له الأسبوع

القادم إن شاء الله في الكلام على أطفال المسلمين وأطفال الكافرين هل هم في الجنة أم هم في النار؟

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ذكر أخذ ربنا الميثاق من عباده:

عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر سئل عن هذه الآية: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) [الأعراف:172]، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُسأل عنها فقال: (إن الله تعالى خلق آدم -عليه السلام- ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج ذريته فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، ففيمَ العمل؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إذا خلق الله تعالى العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عملٍ أهل الجنة، وإذا خلق الله تعالى العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عملٍ من عمل أهل النار فيدخل النار).

وعن سعيد بن عبد الجبار يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ورأيي فيهم أن يستتابوا، فإن تابوا وإلّا قتلوا؛ يعني القدرية.

وعن مروان بن محمد الطاطري قال: سمعت مالك بن أنس يسأل عن تزويج القدري فقرأ: (وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ) [البقرة:221].

وعن أبي سهيل بن مالك قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في القدرية: أرى أن يستتابوا، فإن تابوا وإلّا قتلوا؛ قال أبو سهيل: وذلك رأيي، قال مالك: وذلك رأيي.

وعن علي بن بكار يقول: كان ابن عون يبعث إليّ بالمال أفرقه في سبيل الله فيقول: لا تعطي قدرياً منه شيئاً، وأحسبه قال فيه: ولا يغزوّن معكم فإنهم لا ينصرون؛ وإسناده ضعيف.

وعن مسلم قال: سألت نعيماً عن هذه الآية: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) [الأعراف:172]، قال نعيم: كنت عند عمر إذ جاءه رجل فسأله عنها فقال عمر -رضي الله عنه-: كنت عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ جاءه رجل فسأله عنها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (خلق الله تبارك وتعالى آدم)، فذكر نحو حديث مالك.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أخذ الله تعالى الميثاق من ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم- بنعمان [يعني عرفة]، فأخرج من

صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه كالذر كلهم مثلاً وقال: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) [الأعراف:172-173].

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله تعالى يوم خلق آدم -عليه السلام- قبض بكفيه قبضتين فوقع كل طيب بيمينه وكل خبيث بشماله، فقال: هؤلاء أصحاب اليمين وهؤلاء أصحاب الجنة، وهؤلاء أصحاب الشمال وهؤلاء أصحاب النار، ثم ردهم في صلب آدم فهم يتناسلون على ذلك الآن)؛ وإسناده ضعيف جداً.

وعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: لمّا نزلت آية الدين قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن أول من جحد آدم، إن الله تعالى لمّا خلقه مسح ظهره فأخرج منه ما هو من ذراريه إلى يوم القيامة فعرضهم عليه).

وعن عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لمّا خلق الله تعالى آدم)، ثم ذكر الحديث.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لمّا خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه قال بيده وهما مقبوضتان: خذ أيهما شئت يا آدم، فقال: يمين ربي، وكلتا يداه يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، وإذا كل إنسان منهم عنده عمره مكتوب).

وأسأل قبل أن نبدأ في الدرس: (إن أول من جحد آدم)، ما معنى الجحود هنا؟ هي بالنسبة لآدم -عليه السلام- لابد أن تقول النسيان، لكن هو الإشكال الذي عنّ لنا أنه وردت آثار جمع فيها بين النسيان وبين الجحود؛ قال: (جحد آدم فجحدت ذريته، ونسي هذا فنسيت ذريته)، فيتفقان ويفترقان، لكن ليس هذا باب التفصيل اليوم، اليوم فقط نبيّن أن المقصود بإطلاقها هنا هو النسيان.

على ما صححه الشيخ الألباني ونحن نركن إلى تصحيح الشيخ الألباني هنا، والخلاف عريض بين العلماء، وإن كان ابن كثير يميل إلى ضعف كل هذه الأحاديث: "مسألة مسح الظهر وإخراج الذرية" و"مسألة الاستدلال بهذه الآية على ميثاق الذر"، ابن كثير يرفض ذلك ويرده. ولكن نحن مع الأثر، وهذا الأثر قد صح ونحن معه. فإن الله جلَّ في علاه خلق آدم ثم مسح على ظهره، فأخرج ذريته كالذر فأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فالكل قد شهد ولكن طوعاً وكرهاً؛ فمنهم من شهد طائعاً راضياً، ومنهم من كان كارهاً خائفاً فأقر بربوبية الله جلَّ في علاه ولكن في باطنه أنه لا يقر

بذلك. فالذي أقر طواعية نفعه هذا الإقرار عندما ذكّره ميثاق الرسل بميثاق الذر، أرسل الله إليه الرسول ليذكره بميثاق الذر، وأيضاً بميثاق الفطرة كما سنبين. والذي أقر كراهية أو أقر وهو يبطن الرفض، فهذا الذي لم ينفعه تذكير الرسل.

هذه المسألة لابد أن نقف معها وقفة ونقول إن الله جلَّ في علاه نظر إلى عباده فأخذ منهم مواثيق، وهذه المواثيق اختلفت أنظار أهل العلم فيها: هل هذه المواثيق حجج على بني آدم إذا وقفوا أمام الله جلَّ في علاه سألهم عنها فحوسبوا على هذه المواثيق أم لا؟ فهذا الذي سنبينه.

أقول أولاً المواثيق أربعة: ثلاثة عامة وواحدة خاصة:

١- الميثاق الأول هو ميثاق الذر؛ وهذا الذي أجلاه لنا هذه الأحاديث، وهو عندما خلق الله آدم مسح على ظهره فأخرج كل الذرية ثم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا. فهذا الميثاق بيّنه عمر بن الخطاب، وإن كانت الرواية عن عمر بن الخطاب فيها انقطاع، لكن حديث ابن عباس بفضل الله يغنينا، وحديث ابن عباس صحيح؛ أن الله لمّا خلق آدم مسح على ظهره وأخرج كل الذرية، ثم أشهدهم على أنفسهم فأقروا بربوبية الله جلَّ في علاه.

هذا الميثاق نظر إليه العلماء وسأل سائل: هل هذا الميثاق يحاسب عليه المرء أم لا يحاسب عليه المرء؟ يعني إذا مات المرء قبل أن يأتيه رسول هل الله جلَّ في علاه يحاسبه على هذا الميثاق إن أشرك به؛ رجل عبد صنم، ثم مات قبل أن يأتيه رسول، وقبل أن يأتيه نبي، هل هذا المرء الذي عبد الصنم إشراكاً بالله يحاسب على هذا الشرك أم لا؟

بعض العلماء قال: يحاسب، لأن الله جلَّ في علاه لمّا مسح على ظهر آدم أشهدهم من الرب؟ قالوا: أنت، والربوبية تستلزم الإلهية. ومن أهم أمور الإلهية هو توحيد الله جلَّ في علاه وإن لم يأتِ بالعبادات، المهم أن يوحّد ربه جلَّ في علاه ولا يشرك بالله أحداً.

القائلون بهذا القول استدلوا على ذلك بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث قدسي: (إن الله جلَّ وعلا يوقف ابن آدم أمامه فيقول: يا ابن آدم أرأيت لو كان لك وسع ما في الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به من عذاب يوم القيامة؟ قال: نعم، فقال الله جلَّ في علاه: طلبت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم [يعني ميثاق الذر]، أن تعبدني ولا تشرك بي شيئاً فأبيت إلّا الشرك). فنقول: هو أقر كرهاً، فلمّا نزل إلى الدنيا ولم يرَ ربه جلَّ في علاه ولم يراقب ربه في مسألة الغيوب أشرك بالله جلَّ في علاه وانقلب على عقبيه. فقال: (فأبيت إلّا الشرك)؛ لمّا نزلت إلى الدنيا أبيت إلّا الشرك. قالوا: وهذه دلالة على أن ميثاق الذر حجة على الإنسان، وبالتالي سحبوا الحكم على

أهل الفترة وقالوا: أهل الفترة معذّبون لأنهم لو أشركوا بالله لم يعملوا بميثاق الذر، لمّا مسح الله على ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم، طبعاً هذا الكلام ليس بصحيح كما سنبيّن في النهاية.

٢- الميثاق الثاني هو ميثاق الفطرة، وهناك تلازم بين الاثنين لأن ابن كثير يرى أن هذه الآية: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) [الأعراف:172] أنها نص في ميثاق الفطرة وليس في بميثاق الذر، لأنه هو يقول: ميثاق الذر إن قلتم به إذا فتحتم الباب للتناسخ، وهذا ليس محل التفصيل فيه وهذا كلام مردود أيضاً، لكنه يضعّف هذه الأحاديث ويقول هذه الآية حجة في ميثاق الفطرة.

وميثاق الفطرة هو أن الله فطر الناس وجبلهم على الميل الفطري، ميل القلوب لتأليه الله جلَّ في علاه، وللإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه، وللإقرار بأن الله جلَّ في علاه هو مكوّن الكون وهو خالق الكون وأنه الذي يستحق العبادة وحده سبحانه جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) [الروم:30]؛ (لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) هذا خبر بمعنى الإنشاء، يعني الله يخبركم أن الفطرة لا تتبدل. والصحيح أن المقصود من الآية: لا تبدلوا -أنتم أيها المكلفون- خلق الله جلَّ في علاه. وأيضاً قال الله تعالى: (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) [البقرة:138].

وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة)، وهذا باتفاق جماهير أهل العلم وأن السند فيها ضعيف باتفاق جماهير أهل العلم، (كل مولود يولد على الفطرة) يعني على الإسلام، على الاستسلام لله جلَّ في علاه، على الإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه التي تستلزم الإلهية لله جلَّ في علاه، (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)؛ فلمّا يقول: (يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، ولم يقل "يسلمانه"، دل على أن الفطرة المقصود بها هي الإسلام هو الخضوع والاستسلام التام لله جلَّ في علاه.

أيضاً العلماء نظروا لميثاق الفطرة، هل ميثاق الفطرة حجة؟ قالوا: نعم بالاقتران بميثاق الذر وميثاق الفطرة هو حجة على الإنسان يُسأل عنه يوم القيامة، فإذا أشرك بالله جلَّ في علاه، لا يطلب منه أن يأتي بفروع الشرائع، يطلب منه ان يأتي بالتوحيد فقط والإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه، فإن تخلف عن الإقرار بربوبية الله فأشرك معه غير الله جلَّ في علاه يُسأل عن ذلك، وأيضاً سنبيّن أن هذا ليس بحجة.

٣- الميثاق الثالث هو ميثاق الرسل، وهذا الميثاق هو العمدة في كتاب الله جلَّ في علاه وهو الحجة على البشر بحق، هذا الميثاق هو أن الله جلَّ وعلا ما ترك أمة من الأمم إلّا وقد أرسل إليهم رسولاً؛ إمّا رسولاً شخصاً عيناً، وإمّا حجة عن هذا الرسول، ولذلك قال الله تعالى: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر:42]، وقال الله تعالى: (وَلَقَدْ

بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا) [النحل:36]، وقال الله تعالى في سورة تبارك: (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى) [الملك:8-9]، إذاً كل فوج ينزل إلى النار يقف أولاً وتقام عليه الحجة: جاءكم رسول؟ جاءنا الرسول. وأيضاً في آيات أخرى بيّن الله جلَّ في علاه أنهم قالوا: شهدنا على أنفسنا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ) [الزمر:71]، إقراراً بأن الله ما ترك أمة إلّا وأرسل إليها رسول.

وقلت الرسول ليس المقصود شخص الرسول، بل المقصود إقامة الحجة، إمّا من الرسول وإمّا من وريث الرسول. فما من أمة إلّا وأرسل الله لها رسولاً خاصاً بها، ولكن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أرسله الله للناس كافة، أرسله الله للبشر أجمعين، بل للثقلين: للجن وللإنس، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (والذي نفسي بيده ما سمع بي يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار). فالرسول يأتي ليقيم الحجة ليبلغ الآيات الله جلَّ في علاه، ليذكر بميثاق الذر، ليذكر بميثاق الفطرة التي تبدلت، والحجة كل الحجة في ميثاق الرسل وليست الحجة في ميثاق الذر ولا بميثاق الفطرة.

والدلالة على ذلك أولاً، ثم الرد على من تكلم أو أخذ الميثاق الأول أنه حجة؛ الآية الظاهرة جداً على أن ميثاق الرسل هي الحجة فقط: قال الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) [الإسراء:15]، هذا فصل النزاع، الآية لا تحتمل أبداً أي تأويل. قال الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ) لأي أحد، هذا الميثاق يدل لكل الأمم، ثم (حَتَّىٰ) للغاية، (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)؛ مفهوم المخالفة في الغاية هنا: إن لم نبعث رسولاً هنا فلا تعذيب، لا نعذّب حتى نبعث الرسول، فإذا أرسلنا الرسول فذكّرهم بالمواثيق الثلاث فأخذوا بها هنا الحساب وهنا الحجة. وأيضاً الآيات في ركاب هذه الآية كثيرة جداً، لأن الله جلَّ وعلا قال: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) [التوبة:115]، والسبيل لا يكون إلّا من رسول أو من وريث الرسول، والدلالة على هذا الإرث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بلغوا عني ولو آية).

أمّا الذين قالوا إن ميثاق الذر حجة، أو ميثاق الفطرة حجة، فالحجة للناس عند الله لو أخذهم بميثاق الذر نظراً سيقولون: ربنا نسينا، فأول من جحد آدم، وليس هذا في سياق الذم لآدم -عليه السلام-، ما ذمه الله جلَّ في علاه أنه نسي، هم يقولون: ربنا كيف تؤاخذنا وقد نسينا؟ وقد بيّن الله لنا أنه يرفع الإثم عن الناسي: (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) [البقرة:286]، قال: (قد فعلت، قد فعلت)، وفي الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه). فسيكون لهم الحجة على الله بالغة جداً، يقولون: ربنا أنت مسحت على ظهر آدم وأخرجتنا كالذر ما

كنا على هيئتنا، وأشهدتنا فشهدنا ونسينا. ويكون لهم الحجة على الله جلَّ في علاه، فلا يكون هذا الميثاق حجة بحال من الأحوال.

أمّا الحديث: (فأبيت إلّا الشرك)؛ بمعنى أخرجتك من صلب آدم وطلبت منك التوحيد فأقررت، فلمّا نزلت إلى الدنيا أشركت فأرسلت إليك رسولاً يذكّرك بإقرارك، فأبيت إلّا الإشراك. وهذا الإضمار القرائن المحتفة هي التي جعلتنا نقول به، فإذاً هذا الميثاق ليس بحجة.

أمّا ميثاق الفطرة فأقوى للناس حجة الله جلَّ في علاه من ميثاق الذر، كيف ذلك؟ سيقولون لله جلَّ في علاه: خلقتنا حنفاء، خلقتنا على الفطرة السليمة، لكن جاء الهوى وجاء الفساد وتبدل الأحوال، والشياطين من حولنا بدلوا لنا الفطر فما استقررنا على الفطرة التي خلقتنا عليها. وعندنا حديث ظاهر جداً يبيّن ذلك وهذا الحديث في الصحيح؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء) يعني يميلون بقلوبهم إلى الله جلَّ في علاه، يميلون عن الشرك إلى التوحيد، (إني خلقت عبادي حنفاء) يعني أول ما يولد (إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم) يعني حولتهم، (فاجتالتهم عن دينهم) يعني عن فطرتهم السليمة والاستسلام التام لله جلَّ في علاه، (فاجتالتهم) يعني بدلت لهم الفطرة فأحلت لهم ما حرم الله جلَّ في علاه فاتبعوا ذلك.

وعندنا الواقع يصدق هذا، الواقع يبين أن الفطر كلها تبدلت؛ أنت ترى الميل الفطري للإنسان يميل الرجل للمرأة، لا يميل للرجل، والآن ماذا ترى؟ ترى الآن الشعار الذي يرفع أن الرجل يريد أن يدعو المدعوين إلى حفل زواجه على أخيه الكافر في القاعة الفلانية، يميل الرجل إلى الرجل، فطرة تبدلت الآن. ترى اناس يعبدون الفئران، والبقر يقول: البقرة أفضل من أمي البقرة تعطيني اللبن ولا تتضجر، أمّا أمي إذا أخذت منها اللبن سنة أو سنين، عام أو عامين، أمّا البقرة طيلة أوقاتي أخذ منها ويعبد البقرة، ففطرة تبدلت.

الفطر أنت ترى الله جلَّ وعلا يغدق النعائم على عباد الله جلَّ في علاه، ويبدلون بدل الشكر والفطرة في الداخل دائماً. قالوا قاعدة من أمتع ما تكون، يبين لك الفارق بين امرئ وآخر، بماء الذهب تكتب، قالوا: الإنسان أسير الإحسان؛ أنت إذا أردت أن تعرف كريماً وتعرف شيمه هي من شيم الكرام، تراه ينسى إحسانه للناس ويتذكر دائماً إحسانهم، هذا الكريم. وغير ذلك اضربه خلفك ظهريّاً، ليس بكريم. فالإنسان أسير الإحسان، وهذه فطرة جبل الإنسان عليها من معالي الأمور، لكن لمّا تبدلت الفطر، النعائم تنزل عليهم تتراً من الله جلَّ في علاه فيبدلون بدل الشكر جحود وسب، الله يغدق عليهم النعائم وهم ينسبون له الولد. وقد جاء في بعض الآثار كما بينا قبل ذلك وهي

ليست بحديث: إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري (وهذا تبديل الفطر)، أرزق ويُشكر سواي، خيري إليّ العباد نازل وشرهم إليّ صاعد، وأنا أكلأهم على فرشهم.

الغرض المقصود؛ الفطرة تبدلت ويكون لهم الحجة عند الله جلَّ في علا، يقولون: ربنا الفطرة تبدلت وجاءت الشياطين، أو هوانا تقدم علينا فلم نتذكر أو لن نقر بهذا التوحيد. فإذاً الفطرة تبدلت، والحجة معهم على الله جلَّ في علاه، فلا يكون ميثاق الفطرة حجة لهم.

الثالث هو ميثاق الرسل فيكون هو الحجة على البشر، والناس بالنسبة لميثاق الرسل أصناف خمسة: مؤمنون خُلّص، كافرون خُلّص، منافقون، أهل فترة، غير مكلفين.

▪ الأول: مؤمنون خُلّص هؤلاء الذين سعدوا، وهؤلاء الذين لم تتبدل فطرهم، هؤلاء الذين أقروا طواعية لله جلَّ في علاه عندما مسح على ظهر آدم، لمّا جاءهم الرسول ما احتاج إلّا أن يقول: إن الله يذكركم بميثاق الذر، فقالوا: شهدنا أنه ربنا وعبدنا الله جلَّ في علاه، وهؤلاء الذين سعدوا. وهؤلاء أصناف أيضاً:

- أصناف تأتي بالحجة: فهذا لا يمكن أن يؤمن حتى تأتي له بالدليل وباللطف وبالبيان يأتي معك، كما قال الله تعالى: (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل:125]، ولكن قيّد هذه الدعوة لهذا الصنف الذي لابد لا يؤمن إلّا بحجة لابد من العلم، قال الله تعالى: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) أي على علم. وهذا يبيّن لك خطأ من يتصدر للدعوة ولا علم عنده، فيفسد أكثر مما يصلح، أين أنت من العلم؟ إن كثير من الناس يرتكزون على عقولهم وينظرون في المقدمات والنتائج، هل عندك علم تستطيع أن تقنع أم لا؟ لكن تكون داعي باسم الداعي ولا علم لك، فأنت خالي عن مسألة الدعوة لأن الله قيّدها بقيد عظيم: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ) بشرط وقيد (عَلَىٰ بَصِيرَةٍ). إذاً من اتبع الله واتبع الرسول وكان داعياً، لا يكون داعياً إلّا بعلم، فمن دعا بغير علم لم يتبع الرسول -صلى الله عليه وسلم- بنص الآية: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:108].

❖ وبعض الناس ليس بالحجة ولا بالبيان ولا بشيء، موعظة واحدة أن ترغّب له الجنة وحور العين ودرجة النبي -صلى الله عليه وسلم- والفردوس الأعلى وجوار الله والنظر إلى وجه الله، يخر صريعاً يبكي بكاءً شديداً شوقاً لرؤية وجه الله جلَّ في علاه، وهذا أسهل الناس طبعاً.

❖ والصنف النادر الذي ما ذكرته هو الصديق؛، ما من أحد إلّا وكان له وقفة، ما من أحد عرض عليه الدعوة إلّا وكانت له وقفة مع الدعوة إلّا واحد فقط -نادر- وهو

الصديق. يقول: قال رسول الله صدق، آمنت بالله وآمنت برسول الله -صلى الله عليه وسلم-. والنبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا بيّن فضله على عمر قال: (ما من أحد إلا وكانت له وقفة) أو (كانت له همة) أو (كانت له سكتة، إلّا أبو بكر). ابو بكر ما قيل له إلّا "آمن"، قال: آمنت بالله، دون أدنى روية ودون أدنى تفكير ودون أدنى نظر.

❖ وبعضهم لا يؤمن إلّا بالإكرام والهدية والعطايا كالمؤلفة قلوبهم.

❖ وبعضهم لا يأتي إلّا بالشدة؛ فهذا لابد أولاً أن تستخدم معه السبيل الحسن والدعوة بلطف، ثم تتدرج معه، إن طمعت في دعوته في الشدة اشتد عليه، لكن شدة عن شدة تفرق لأن في شدة لا تكون إلّا لولي الأمر ولذلك قال عثمان بن عفان: إن الله لا يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؛ فالقرآن على العلماء وشدة من صاحب البيان، تكون هذه الشدة لا ترتقي إلى شدة ولي الأمر، لأن هذه تختلف، لأن الفساد فيها أشد، ترجو مصلحة فتأتي

فهذه الأقسام الأربعة بالنسبة للمؤمنين.

▪ كافرون خُلّص؛ هؤلاء الذين جهروا بقوة وبجراءة، للنبي قالوا: لا نؤمن لك ولا نقبل منك دعوة، هؤلاء كافرون خُلّص، ما قبلوا الرسول ولا قبلوا الدعوة، هؤلاء الذين تبدلت فطرهم وهؤلاء الذين أقروا لا صدقاً مع الله جلَّ في علاه ولكن أقروا جبراً، فهؤلاء ردوا الرسل وهؤلاء كفروا وهؤلاء لهم نار جهنم -والعياذ بالله- وخالدين فيها.

▪ الصنف الثالث هم المنافقون؛ هؤلاء الذين تمتعوا بالإسلام وتمتعوا بالكفر، هؤلاء الذين أقروا أيضاً جبرا ولكنهم في النهاية لمّا بُعث إليهم الرسل أقروا بالرسل وتمتعوا بالإسلام، تزوجوا من المسلمين وأكلوا طعام المسلمين وذبيحة المسلمين، وأيضاً كانوا مع الكافرين في الباطن. فهؤلاء أشد وأنكى من الكافرين الخُلّص، لأن عذابهم في الآخرة كما بيّن الله جلَّ في علاه أنهم في الدرك الأسفل من النار، وهذا أشد عذاباً من الكافرين الخُلّص. فانظروا الذي ميّع ولم يصفِّ لم يُصفَّ له، والذي خادع خدعه الله جلَّ في علاه كما قال الله تعالى: (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) [النساء:142]، (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ) [الأنفال:30].

▪ الصنف الرابع هم أهل فترة لم يأتيهم الرسل، هؤلاء ما آتاهم رسول، وهؤلاء قسمان، والقسمان يتفقان بأنهم ما آتاهم الرسول شخصاً، لكن: قسم منهم أتتهم دعوة الرسول، وقسم لم يأتهم دعوة الرسول.

والفريقان ينصبان في مسألة قريش؛ مكة فيها القسمان، لم يأتهم النذير، اتفقا في ذلك، لم يأتهم النذير شخصاً وعيناً، قال الله تعالى: (لِتُنذِرَ قَوْمًا) أهل قريش (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ) [السجدة:3]، ما أتاهم من نذير شخصاً وعيناً، لكن هل النذارة

وهل الرسالة وهل الحجة أقيمت عليهم أم لا؟ نقول قسمان أيضاً: قسم بلغتهم دعوة الرسل، وقسم لم تبلغه.

❖ القسم الذين بلغهم دعوة الرسل: أبو النبي -صلى الله عليه وسلم- وأم النبي وجد النبي، والدلالة على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن أبي وأباك في النار) فحكم لأبيه أنه في النار، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي)، لِمَ؟ (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ) [التوبة:113]، (واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي).

ومنهم من بلغتهم الدعوة أيضاً فآمنوا ولم يشركوا: ورقة أبن نوفل قد تنصّر، الشرائع لا يلزم بها المرء لكن عليه أن يأتي بأصل الدين وهو أصل التوحيد، فورقة بن نوفل وبعض الذين ذكرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم لم يسجدوا لصنمٍ قط ولم يأتيهم النذير، فهؤلاء بلغتهم الدعوة وهؤلاء أيضاً الذي عناهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما صوروا التصاوير بأن إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، قال: (كذبوا والله، ولقد علموا) وهذا نص، (ولقد علموا) أي بلغتهم دعوة إبراهيم، (ولقد علموا أنه ما استقسم قط).

فهؤلاء بلغتهم الدعوة: فهؤلاء الذين آمنوا منهم في الجنان، والذين كفروا منهم في النيران.

❖ القسم الثاني من أهل الفترة الذين لم يأتهم النذير ولم تبلغهم الدعوة، وهؤلاء يختبرون يوم القيامة كما بيّنا على الراجح أن الله يأمرهم أن ينزلوا النار، فإذا نزلوا كانت برداً وسلاماً عليهم. وهذه ليس في عصر مكة فقط، بل في عصرنا هذا يمكن أن نجد أناساً لم تبلغهم الدعوة ولم يأتهم نذير، حجة الرسل لم تصل إليهم؛ فأدغال إفريقيا كثير منهم لم يصلهم الإسلام الصحيح، بعض أوروبا لم يصلهم الإسلام الصحيح، هؤلاء حكمهم حقاً حكم أهل الفترة لأنه لم يبلغهم الإسلام الصحيح، فهؤلاء يختبرون يوم القيامة.

▪ القسم الأخير وهم قسم غير المكلفين؛ هؤلاء أتاهم الرسول، جاءهم النذير وأقيمت الحجة عليهم، لكنهم هم غير مكلفين وغير مؤاخذين، وهم أصناف منهم:

❖ أولاً من زال عقله كلية: السفيه والمجنون والخرف الهرم، هذا أيضاً أتاه النذير وكأنه لم يأته، لأن المقصود من إرسال الرسول هو إقامة الحجة؛ قال الله تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) [الكهف:56]، (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء:165]. هنا سيكون له حجة يقول: ربي أتاني رسولك ولم أعقل عنه شيء، إذاً لا حجة فهذا لا عقل له.

❖ والثاني الأطفال: والأطفال لا يقال أنهم قد زال عقلهم، لا، الأطفال منهم المميز ومنهم غير المميز، والأطفال عامة عندهم عقول لكنهم غير مكلفين، وهذا حقهم سيأتي بإذن الله منهم أطفال المسلمين وأطفال المشركين.

- أطفال المسلمين الخلاف فيه ضعيف جداً، فأشبه ما يكون بالاتفاق أن أطفال المسلمين في الجنان، خدم أهل الجنة.

- أمّا أطفال المشركين ففيها أقوال ثلاثة، وهذا الذي يأتي تفصيله إن شاء الله في طبقات المكلفين الأسبوع القادم، والأقوال الثلاثة نعجلّ بها الآن:

◆ القول الأول: الله أعلم بما كانوا عاملون، الأمر مبهم ولا نعلم، وأحالوا الأمر على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وهذا قول أيضاً في أطفال المسلمين لكنه ضعيف، فلذلك لن نلتفت له، بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أطفال المشركين الله أعلم بما كانوا عاملين)، بعد ذلك عندما يكبروا، ولكن ماتوا كطفل الخضر.

◆ والقول الثاني: أنهم في النار، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هم منهم)، فإذاً هم اتباع آبائهم، فإن كان الآباء في النار فهم في النار.

◆ القول الثالث: أنهم في الجنة، وهذا الذي سنفصل فيه النزاع الأسبوع القادم بإذن الله.

٤- الميثاق الرابع هو ميثاق خاص وهو ميثاق الرسل، كل رسول أخذ الله عليه ميثاق، ما من رسول إلّا وأخذ الله عليه الميثاق كرامةً وتعظيماً لمحمد -صلى الله عليه وسلم-؛ أخذ عليه الميثاق أنه إن أتاه رسول بوصفه المعلوم وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- وجب عليه أن يتبعه، ولا يسعه أن يخرج عنه قيد أنمله. قال الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ) [آل عمران:81]، ثم قال الله تعالى: (فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) [آل عمران:8283].

وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما رأى عمر -رضي الله عنه وأرضاه- يأخذ التوراة بيده يقرأ، قال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً)، وموسى من أولي العزم من الرسل، فموسى له شرف وكرم وعظمة عند الله جلّ في علاه، ومع ذلك قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما وسعه إلّا أن يتبعني). وهذه حجة قوية جداً عند العلماء في أن الخضر ليس بحي، لأن النووي يميل وبعض العلماء يميلون إلى حياة الخضر، وأتوا بحكايات، وكل هذه القصص صراحةً لم ينزل

الله بها من سلطان. والدليل واضح جداً على موت الخضر لأنه (لو كان حياً ما وسعه إلّا)، فأين هو؟ كان لابد أن يحمل لواء النبي -صلى الله عليه وسلم-، أين هو؟ كان لابد أن يبايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أين هو؟ كان أولى الناس بالخلافة من أبي بكر لأن أبا بكر أفضل الناس سوى الأنبياء والمرسلين، والراجح في الخضر أنه نبي. فهذا دليل يستدل به العلماء على أن الخضر ليس بنبي لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، وإن كان موسى لا يسعه إلّا أن يتبع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالخضر من باب أولى. فإذاً الميثاق الرابع هو ميثاق النبيين أنهم يتبعون رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

الفوائد المستنبطة:

١- المضاف إلى الله نوعان: إضافة نوع أو معنى، وإضافة عين. هنا إضافة عين وإضافة معنى:

▪ أمّا إضافة العين إلى الله جلَّ في علاه عين قائمة بذاتها كالكعبة، الكعبة هذه عين قائمة أمام عينك، فإذا أضيفت إلى الله لا تضاف إلى الله أنها جزء منه أو صفة من صفاته -حاشا لله-، هي إضافة تشريف. عيسى كان يمشي بين الناس ويأكل ويشرب، عين قائمة، لمّا يضاف إلى الله يقول: عيسى روح الله، هل هو روح الله أو روح من الله جزء من الله أو صفة من الله؟ حاشا لله، الإضافة هنا إضافة تشريف.

وهنا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لمّا خلق آدم ونفخ فيه من روحه)؛ "روح" مضاف و"الهاء" مضاف إليه، و"الهاء" عائدة على الله جلَّ في علاه، فالمضاف إلى الله إن كانت عيناً فتكون الإضافة إضافة تشريف. إذاً هذه الروح يعني روح خلقها الله وألصقها الله به إضافةً تشريفاً لهذه الروح وتمييزاً لهذه الروح عن الأرواح الأخرى التي ينفخ فيها الملك بأمر الله جلَّ في علاه.

▪ أمّا إضافة المعنى فهي إضافة صفة للموصوف، ليست عين قائمة؛ تقول: يد الله، عين الله، أصابع الله، رجل الله؛ كل هذه ثابتة بالسنة، إضافة المعنى هي صفة للموصوف: كعزة الله، كلام الله، قدرة الله، حب الله، روح الله؛ والروح هنا بمعنى رحمة الله جلَّ في علاه لأنه قال: (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ) [يوسف:87]، وفي بعض الأحاديث: (لو علم الإنسان ما من رحمة الله جلَّ في علاه ما يأس من رحمة الله من شيء)، فروح الله يعني رحمة الله جلَّ في علاه، فتكون هذه إضافة معنى، هذه إضافة صفة للموصوف.

وهنا في الأحاديث إضافة المعاني كثيرة جداً: صفة اليد؛ إثبات صفة اليد لله جلَّ في علاه من أين أخذت في الأحاديث؟ (فمسح بيده)، فهذه دلالة على اليد، لكن لمّا قال:

(فمسح بيده) أضاف، والمضاف يعم، يعني لله يد وثانية وثالثة ورابعة وخامسة؟؟ السائل ممكن أن يقول ذلك ويقف عندها، يقول: "يده" هذه مضافة والإضافة تفيد العموم، فيأتيه حديث آخر ورواية أخرى تحد له هذا التفسير ويقول: لا لربك يدان فقط؛ قال: (يمينه .... وشماله)، فأثبت أن لله يدان اثنتان لا أكثر.

(وكلتا يدي ربي يمين)؛ هذه الأحاديث تثبت أنه لا يصح نصف الله بالشمال، آخر حديث قال: (وكلتا يدي ربي يمين مباركة)، وهذا الإسناد الحسن، وأمّا التي ذكر فيها الشمال فهي ضعيفة. وأول حديث: (إن الله تعالى خلق آدم -عليه السلام- ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج ذريته فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون)، فصرّح باليمين. وهناك رواية في مسلم قال: (وبشماله)؛ فقال العلماء: هذه الرواية وإن كانت في مسلم هي رواية شاذة، والصحيح الراجح أنها ضعيفة لأن الراوي فيها ضعيف كما ضعّفه البيهقي وغيره من المحدثين، وأمّا المتفق عليه من البخاري ومسلم: قال: (وكلتا يدي ربي يمين)، فلا يصح أن تصف ربك بالشمال.

٢- يوصف الله بأفعال من هذه الأفعال: المسح على الظهر [وهذه صفة اليد أيضاً]، القبض والبسط كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، سحاء الليل والنهار). (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) [المائدة:64]، فالبسط والقبض صفة من صفات الأفعال لله جلَّ في علاه.

٣- الرد على الجبرية وعلى القدرية؛ (وبعمل أهل الجنة يعملون) هذا رد على القدرية ورد على الجبرية:

- كيف يكون رداً على الجبرية؟ بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وبعمل أهل الجنة يعملون) نسب العمل للعامل، وهم يقولون: لا عمل للعامل.

- ورد على القدرية أيضاً، كيف؟ (خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون)، (خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون)، لمّا قال: (خلقت) يعني فرغ ربكم من العباد، إذاً القدر سابق وليس الأمر أنف.

٤- التصريح بكفر قدرية، وهذه المسألة صراحةً لا يوافق عليها المستنبط، هو فقط هو تصريح من عمر ومن ابن عمر. ونحن نقول هذا ليس في أوانهم، التصريح بالكفر القدرية في أوانهم لأنهم أنكروا علم الله جلَّ في علاه، قالوا: لا يعلم. ولذلك الشافعي قال: خاصموا أهل القدر بالعلم؛ فلو قالوا: الله لا يعلم، إذاً كذبوا الله في كتابه، والله جلَّ في علاه يبيّن أنه عليم قدير، يعلم كل شيء يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان

كيف سيكون، فإن انكروا علم الله جلَّ في علاه كذبوا الله في كتابه، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أصدق من الله قيلاً.

التصريح بكفرهم هنا لأنهم كذّبوا الله جلَّ في علاه ونفوا علمه، لكن القدرية المتأخرين لا يقال فيهم هذا لأنهم يثبتون علم الله جلَّ في علاه، لكنهم يقولون إن الأفعال لم يخلقها الله جلَّ في علاه، وهذا ضلال مبين، لكن لا نستطيع أن نقول بمسألة الكفر، لا نستطيع أن نقول ذلك ولا نتجرأ عليه.

هم يؤولونها ويحرفونها، لا ينكرونها، ولذلك العلماء احتاروا في مسألة المؤول فقالوا: المؤول لا يكفر لأن عنده معاني تحتها والله أعلم بنيته، ولذلك العلماء قعّدوا قاعدة مهمة جداً: لازم القول ليس بقول؛ لا تستطيع أن تكفّر أمرئً بلازم قوله. نقول: نفصّل في القدرية، وهذا الذي فصله أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: غلاة القدرية يكفرون، أمّا الذين هم اتباع أو عوام لا يكفرون، لأنهم لا ينكرون علم الله جلَّ في علاه.

٥- العلة في الاستشهاد على الدين: من أين أتت هذه؟ (إن أول من جحد آدم)؛ ولذلك هذه الحكمة من آيات الدين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) [البقرة:282]، فأنت ممكن تعطيه الدين وتأتي في الأجل يقول: ما رأيتك إلّا اليوم، فلذلك أمر الله بالكتابة. ولولا آية السفر والرهان لقلنا بوجوب الإشهاد، لكن الذي صرف الوجوب إلى الاستحباب، لأن الله جلَّ وعلا قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ) هذا أمر على الوجوب، لكن قال: (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ) [البقرة:283] فصرف الوجوب له الاستحباب. والحكمة من ذلك أن الإنسان ينسى ويجحد. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أول من جحد آدم)، (نسي آدم)؛ فأنت ابن آدم فلابد أن يعتريك النسيان، فحتى لا تنسى إذا أقرضت فاكتب.

لكن ترى بعض العوام إذا قلت له بعد ما تحسن إليه وتعطيه القرض، تقول اكتب، يقول أنت لا تستأمني؟ ألا تتقي الله؟ يعني ملتحي ومطوع وتفعل ذلك. نقول له: هذا الدين، بل أنا أنصح كل أخ إذا أقرض أخ أن يكتب عليه، هذا أقل أحواله الاستحباب، لأن الحسن وعطاء وغير هؤلاء قالوا بوجوب كتابة الدين أو الإشهاد على الدين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس السادس والثلاثون: باب ذكر أطفال الكفار الذين يموتون صغاراً

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وانتهينا بفضل الله إلى باب: ذكر أطفال الكفار الذين يموتون صغاراً.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ذكر أطفال الكفار الذين يموتون صغاراً وآباؤهم كفار:

عن ابن عباس عن الصعب بن جثامة قال: (سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أهل الدار من المشركين يبيّتون وفيهم النساء والصبيان، فقال: هم منهم).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (سئل عن أولاد المشركين من مات منهم صغيراً، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: (سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أطفال المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين).

وعنه -رضي الله عنه- قال: (سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أطفال المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين).

باب في ذكر أطفال المشركين:

عن علي قال: (سألت خديجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أولادها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: هم في النار، فلمّا رأى ما في وجهها قال: لو رأيت مكانهم لأبغضتهم، قالت: قلت فأولادي منك؟ قال: في الجنة والمشركون وأولادهم في النار)، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم) [الطور:21]؛ وإسناده ضعيف، وضعفه في علتين: علة محمد بن عثمان وهو ضعيف، وأيضاً علة الانقطاع زادان الراوي عن علي بن أبي طالب، لم يسمع من علي بن أبي طالب، وهذا سيأتي في الشرح إن شاء الله.

أقول رحمة الله جلَّ في علاه أوسع ما تكون، فإن الله جلَّ في علاه رحمته وسعت كل شيء، إن الله خلق الرحمة وجزأها مئة جزء، كما قال النبي إن الله أنزل جزءً من هذه الأجزاء [أجزاء الرحمة] في الدنيا يتراحم بها الكبار والصغار حتى الحيوانات، واحتجز الباقي عنده رحمة لأهل الموقف من هول يوم القيامة. فرحمة الله واسعة، وقد قال الله في كتابه: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف:156]، ووصف النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه: (إن الله جلَّ في علاه كتب كتاباً هو عنده فوق العرش، قال فيه: رحمتي سبقت غضبي).

ومن رحمة الله بالعباد أنه ألحق الذراري، ألحق الأطفال بآبائهم؛ إن كانت الآباء في منازل ومراتب عليا فإن الله برحمته بهؤلاء يلحق الأبناء الآباء، وما ينقص من مراتب الآباء من شيء، وهذا فضل الله جلَّ في علاه ورحمة الله بالناس. وأيضاً يرحم الله جلَّ في علاه الآباء بالأبناء إذا ماتوا صغاراً، فهم فرط لهؤلاء، يتقدمون آباءهم ويأخذون بأيديهم إلى الجنان، وهذا فضل الله جلَّ في علاه. بل من رحمة الله الواسعة على عباده أن الإخوان يشفعون في إخوانهم، ولذلك صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (فلتستكثروا من الإخوان)، إخوانكم في الله يشفعون لكم والحديث الجلي في هذه المسألة يوم القيامة كما في الصحيحين: (يأتون يجادلون عن إخوانهم، يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويحجون معنا ويتصدقون معنا، فيشفّعهم الله ويقبل شفاعتهم ويقول: اذهبوا فأخرجوا من النار من تعرفون من كان في قلبه مثقال ذرة) إلى آخر الحديث. يا لسعادة من استكثر من أحبائه في الله الصلحاء الفضلاء، لا سيما إن كانوا من أهل العلم وأهل الدين والتقى والورع، ولذلك استحث واستنهض النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة ألّا يأكل طعامك إلّا تقي وألّا يدخل بيتك إلّا المؤمن، فلا تخالل إلّا المؤمن لأنك به تكون سعيداً في الدنيا وتسعد بشفاعته في الآخرة.

الغرض المقصود في ثنايا كلامنا قلنا أطفال المسلمين لهم الخير أو بهم الخير أو معهم الخير، يأتون يوم القيامة فرطاً لآبائهم فيسحبون ويأخذون بأيديهم حتى يدخلوهم الجنان،

هذا هو حال أطفال المسلمين، واليوم إن شاء الله كما بيّن المصنف نتكلم عن حال أطفال المشركين. هذا هو حال الأطفال المسلمين هم في الجنان، بل أرقى من ذلك هم فرط لآبائهم إلى الجنان. فهل أطفال المشركين بنفس هذه الدرجة ونفس هذه المرتبة أم أقل؟ هذا الذي سنبحثه اليوم إن شاء الله.

الغرض المقصود أردت عليكم وعلى نفسي الإيجاز، لأن هذه المسألة مشكلة جداً وفيها ما يقرب من تسعة أقوال، فأنا سأختزل هذه الأقوال وقدر الإمكان أوجز فيها مع عدم الإطالة في الاستدلالات، لأن في أدلة كثيرة جداً ضعيفة، لولا النفس الطويل الذي قد مات مع من ماتوا وغرق مع الغرقى لأطلت بهذه الأحاديث وبيّنت فيها أو فندنا ما فيها من الأسانيد الضعيفة، لكن سنوجز حتى نبيّن هل أطفال المشركين الذين ماتوا في الهدم أو في الغرق أو في المعارك [يعني ماتوا خطئاً] من أهل النيران أم من أهل الجنان؟ فيها كما قلت تسعة أقوال نختزلهم لستة أقوال، وأيضاً سأوجز قدر إمكاني:

١- القول الأول: هم في الجنة، والقول الأول سيتضمن قولين كما سنبيّن.

٢- القول الثاني: هم في النار.

٣- القول الثالث: يتوقف فيهم لا نعلم لهم جنة ولا نار، متوقف فيهم لا قول فيهم.

٤- القول الرابع: يمتحنون يوم القيامة، وهذا ترجيح شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم.

٥- القول الخامس: هم من أهل الأعراف.

٦- القول السادس: هم في مشيئة الله، إن شاء عذّبهم وإن شاء رحمهم.

فعندنا ستة أقوال، اختزلنا التسعة وجعلناها ستة أقوال.

١- القول الأول: هم في الجنة؛ هذا يتضمن قولين، قبل أن أبدأ أفصل في الأدلة ما الفرق بين القولين؟ هما قولان جعلناهما قولاً واحداً:

- القول الأول قالوا: هم من أهل الجنة، أطفال المشركين في الجنة كأطفال المسلمين.
- والقول الثاني قالوا: لا، هم خدم أهل الجنة.

قبل أن نستدل هل هناك فارق بين القولين؟ وهل يصح لنا أن نتجرأ ونقول اختزلنا القولين في قول واحد؟ هو الصحيح أن نقول يتفقان ويفترقان؛ هما يتفقان أنهم المحصلة والنتيجة أنهم في الجنة، لكن الفارق: كما في الدنيا لو قلنا أمير وعنده أرقاء الأرقاء أين يعيشون؟ في القصور، يعني يتمتعون بهذه القصور لكنهم أرقاء مرتبة أقل. وأمّا إذا كانوا في الجنة خدم أهل الجنة يعني المحصلة النهائية قل أين هم؟ ستقول في الجنة. فإذاً اختزلنا القولين إلى قول واحد فهم في الجنة.

فنقول القول الأول هم في الجنة، واستدلوا على أنهم في الجنة بأدلة كثيرة من الكتاب ومن السنة ومن النظر، سآتي بالأدلة الصريحة أولاً ثم أتى بالأدلة المستنبطة. والأدلة الصريحة هي في السنن: (صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه رأى رؤيا، فرأى إبراهيم -عليه السلام- في الجنة وحوله أطفال فسألوه: أطفال المسلمين؟ قال: نعم)، وهناك أدلة كثيرة جداً تثبت أن أطفال المسلمين في الجنة، (قالوا: يا رسول الله وأطفال المشركين؟ قال: نعم)، وهذا تصريح من النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم حول إبراهيم في الجنة، فهذا إثبات أنهم في الجنة. وجه الدلالة من هذا الحديث هي رؤيا، ورؤيا الأنبياء حق، فكأنها وحي، فكأن الله جلَّ في علاه أوحى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أن إبراهيم في الجنة وحوله أطفال المسلمين وأطفال المشركين.

أيضاً هناك حديث إسناده ضعيف، لكن بمجموع طرقه صح، فهو حسن لغيره أو صحيح لغيره، والصحيح أن يقال حسن لغيره؛ هذا الحديث قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن أطفال المشركين: (هم خدم أهل الجنة). واستدل أصحاب هذا القول بأدلة كثيرة منها: (كل مولود يولد على الفطرة)، وصراحة لا دلالة في هذه الأحاديث. الصحيح أن الأحاديث المصرحة بأن أطفال المشركين في الجنة، وهذا من فضل الله جلَّ في علاه بهذا الحديث: (هم خدم أهل الجنة)، والثاني قال: (وأطفال المشركين في الجنة حول إبراهيم يطوفون مع إبراهيم -عليه السلام-).

وأمّا من الكتاب فاستدلوا بقول الله تعالى: (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى) [الليل:15]، ما لنا ومال هذه الآية؟ الآية ما لها ومال أطفال المشركين؟ ما لها ومال الجنة؟ الآن الآية تتكلم عن النار، قال الله تعالى: (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)، قالوا: وهذه الآية من أدل الأدلة على أن أطفال المشركين في الجنة؟ نحن نقول: نعم هذه الدلالة دلالة واضحة جداً، قال الله تعالى: (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى)، ولا يوصف أحد بأنه أشقى إلّا إذا كُلّف وأتته الأدلة فرفضها فعاش في الشقاء وفي الضنك العظيم بربه الحجة الربانية، فهذه دلالة على أن أطفال المشركين في الجنة.

أيضاً قالوا الدلالة على ذلك قول الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً) [الإسراء:15]، ونحن نُشهد الله أن الرسول جاء للأطفال كما جاء للرجال فما وجه دلالتكم في هذه الآية؟ إذا قال الله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً) معنى الآية يعني تقام الحجة، والحجة لا تقام على غير المكلّف، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رفع القلم عن ثلاث) منهم (الطفل حتى يبلغ الحلم). إذاً هذا الطفل لم يبلغه الرسول، لم تبلغه الحجة، لم تأتيه الحجة فليس بمكلف، فهو من أهل الجنان. هذه الدلالة الثانية، هذا من الأثر وطبعاً الأدلة كثيرة جداً نحيناها جانباً، أن هذه هي أصرح الأدلة.

ومن النظر قالوا: نقول أطفال المشركين إمّا أن يعذبوا وإمّا أن ينعموا؛

يعذّبوا بأمرين: كانوا مكلفين أو غير مكلفين:

- فإن كانوا مكلفين فعذابهم بسبب أعمالهم.
- وإن كانوا غير مكلفين فلا عذاب عليهم.

قلنا لِمَ؟ قالوا لأن العذاب قد بيّنه الله جلَّ في علاه أنه لا يهلك قرية ولا أمة ولا أحداً حتى يأتيه رسول يقيم عليه الحجة، فإن كانوا مكلفين فانتهى أمرهم، وإن كانوا غير مكلفين فإن الأصل الأصيل (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]، والأطفال لم يعملوا عملاً يُكتب عليهم في الصحائف، فلذلك نقول هم من النظر أيضاً من أهل الجنة.

إذاً من الأثر هم من أهل الجنة لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هم خدم أهل الجنة)، وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يطوفون مع إبراهيم -عليه السلام- أو هم حول إبراهيم في الجنة، والآيات التي سردناها. ومن النظر؛ قالوا الملائكة لم تكتب في صحائفهم لا حسنة ولا سيئة، بل أمثال هؤلاء لابد أن يكونوا في الجنة. هذا القول الأول وهذه هي أدلة أصحاب القول الأول.

٢- القول الثاني [مقابلة]: أطفال المشركين في النار، أي أحد من بلاد الكفر مات تحت هدم، غرق في السفينة، مات خنقاً، مات خطئاً هو من أهل النار، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة نبيّن أيضاً أصرحها بالقوة وبالضعف.

أمّا أصرحها بالقوة: كما في الصحيح (سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أطفال المشركين قال: هم منهم)، أي هم من المشركين. ما وجه الدلالة من هذا الحديث على أنهم في النار المشركون؟ كلهم قطعاً إجماعاً في النار يخلدون فيها لأن الله حرم على الكافرين الجنة، فلمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هم منهم) تساوى حكمهم، فإن كان حكمهم في الآخرة العذاب والخلود في النار فأطفال المشركين معهم. لو وجدت امرأة كانت في سفينة ترضع طفلها فقدر الله هاجت الأمواج وغرقت السفينة تقول الأم في النار والبنت أو الابن الصغير هذا في النار، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هم منهم)، فهم مخلدون في نار جهنم.

واستدلوا أيضاً على ذلك بأدلة أخرى منها حديث علي بن أبي طالب: أن خديجة سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ولديها قبل الزواج منه، قال: (هم في النار)، فتغير وجه خديجة وكان يحبها النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال لها: (لو رأيت مكانهم لأبغضتهم). كما في إبراهيم -عليه السلام- عندما تحاج عند الله جلَّ في علاه لأبيه فلمّا رأه شبه خنزير تبرأ منه، فبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك لها. (فقالت: وأولادي

منك؟ قال: هم في الجنة)، أولاد المؤمنين مع المؤمنين في الجنة، وهذا فاصل النزاع، وأولاد المشركين مع المشركين في النار. وهذا الحديث بفضل الله ضعيف، فيه علتان:

- العلة الأولى: محمد بن عثمان؛ كما بينه شيخنا الفاضل وعلامة العصر -رحمة الله عليه- محدث الشام، وذكره ابن حجر وغير ابن حجر وابن القيم في تضعيف الحديث فيه، محمد بن عثمان وهو مجهول لعلة الجهالة.

- العلة الثانية: زادان؛ لم يلقَ علي بن أبي طالب الذي يروي عنه، ففيه أيضاً علة الانقطاع فهو ضعيف.

استدلوا أيضاً بحديث ثالث عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: (قالت: يا رسول الله ماذا عن ذراري المشركين؟ ماذا عن أطفال المشركين؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: لو شئتِ أسمعتك تضاغيهم في النار)، فهذا فيه تصريح أنهم في النار. قال: (لو شئتِ)، كأنه يقول لدعوت الله أن تسمعي أصواتهم وهم يعذبون في النار، فهذا تصريح لعائشة أيضاً أنهم يعذبون في النار. وأيضاً هذا الحديث بفضل الله ضعيف، فيه يحيى ابن المتوكل وهو واهي الحديث، فالإسناد هالك به فلا يصح.

فإذاً استدلوا بحديث (هم منهم)، واستدلوا بحديث خديجة وحديث عائشة، عندهم حديث رابع لا نستطيع أن نتكلم فيه في البخاري؛ أن الجنة احتجت مع النار، فقالت: النار ملئت بالمتكبرين الجبارين والجنة قالت بالضعفاء، الغرض المقصود في نهاية الحديث قال الراوي: قال رسول الله: (فينشئ الله للنار)، لأن كلٌ له مكان في الجنة وفي النار، ولذلك أهل الجنة سيرثون أهل النار يأخذ كل منهم مكانهم. فالغرض المقصود؛ تبقى النار تريد مزيد (هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) [ق:30]، فقال الراوي: قال رسول الله: (فينشئ الله لها خلقاً يملؤها به)، ما وجه الدلالة من هذا الحديث؟ أقول استدلوا بحديث في البخاري بعد احتجاج الجنة والنار، قال الراوي: فتبقى النار تريد المزيد، هل من مزيد؟ (فينشئ الله [يعني يخلق الله خلقاً جديداً] لها خلقاً يملؤها به)، قالوا هذا فيه دلالة على أن أطفال المشركين في النار.

الأطفال قد عملوا الحسنة وعملوا السيئة وإن لم تكتب عليهم، أقصد أنه حتى وإن لم تكتب عليهم السيئات فهم عملوا سيئات، فإذاً كان الله قد خلق خلقاً لم يعملوا عملاً قط للنار فقط ويعذّبهم بالنار وليس بظالم لهم لأن هذا أصل أصيل، فإذاً من باب أولى هؤلاء الأطفال أن يكونوا من أهل النار، وهذا اسمه قياس جلي أو قياس الأولى. هذه أدلة القوم الذين قالوا بأن أولاد المشركين في النار.

٣- القول الثالث: قالوا نتوقف فيهم، يعني نقول لا من أهل الجنة ولا من أهل النار، لا نعرف شيئاً، نتوقف في حكمهم واستدلوا على ذلك بأدلة نوجزها: الدليل الأول سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث ابن عباس في الصحيح عن أطفال المشركين قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين). نفس الحديث عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- لمّا سئل أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أطفال المشركين قال: (الله أعلم إذ كانوا عاملين، الله أعلم بما كانوا عاملين)، وجه الدلالة عندهم أنه فوّض الأمر لله جلَّ في علاه في حكمهم، يعني ما نعلم حكمهم، حكمهم عند الله.

٤- القول الرابع: أنهم يمتحنون وهذا استدلوا به بأحاديث أربعة: حديث الأسود التميمي، وحديث أنس بن مالك، وحديث أبي سعيد الخدري، وحديث معاذ بن جبل. وأجمل لكم ما في الأحاديث الأربعة:

- أمّا حديث الأسود مختلف فيه، وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أربعة لهم الحجة على الله)، فذكر منهم من مات صغيراً.

- وحديث أنس ومعاذ وأيضاً أبي سعيد قال: (الهالكين صغاراً لهم الحجة على الله يوم القيامة، يقولون: ربنا لو أعطيتنا عمراً)، يعني لو أعطيتنا عمراً للبلوغ حتى نفهم الحجة ونعمل بها، فيحتجون على الله جلَّ في علاه بهذه الحجة فتكون لهم الحجة على الله يوم القيامة، فيأمرهم أن يدخلوا النار فإذا دخلوا النار كانوا من أهل الجنة وكانت برداً وسلاماً عليهم، وهذا ترجيح شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم.

٥- القول الخامس: أنهم من أهل الأعراف، وهذا ليس عليه ثمة دليل ظاهر، الأربعة أحاديث فيها: عطية العوفي وليث بن أبي سليم وأيضاً عمرو الواقد الليثي.

- عطية هذا متهم أصلاً.

- ليث بن أبي سليم مدلس وضعيف.

- عمرو الواقد أنكى وأشد من عطية، لأن عطية مختلف في مسألة الاتهام فيه.

فالأحاديث الأربعة كل إسناد فيه راوي ضعيف فيسقط به الحديث.

فالقول الخامس هو قول أنهم في الأعراف، قول لبعض المفسرين قالوا بدليل نظري: الأعراف يعني يقفون أمام الجنة ولا النار، ينظرون إلى أهل النار يقولون: ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء، ينظرون إلى أهل الجنة يقول أنتم تسعدون ويدعون لأهل الجنة. هؤلاء استخلصوا هذا القول من أين؟ قالوا نظرنا في أطفال المسلمين فوجدنا أن حكمهم حكم آبائهم، فآباؤهم في الجنة فألحقهم الله بآبائهم، فنظرنا إلى آباء هؤلاء فوجدناهم في النار وجاءت الأدلة أنهم لا يلحقون بآبائهم، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ثم نظرنا في

أهل الجنة فوجدناهم عملوا الخير فدخلوا بأعمالهم الجنة جزاءً بما كانوا يعملون، ووجدنا أهل النار دخلوا النار جزاءً بما كانوا يعملون، وهؤلاء ما عملوا بعمل أهل النار ولا عملوا بعمل أهل الجنة، فحق لهم أن يكونوا وسط النار والجنة فهم من أهل الأعراف، فدليلهم نظر.

٦- القول السادس قالوا: هم في المشيئة إن شاء الله رحمهم وإن شاء عذبهم، لأن الله هو الذي خلقهم (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) [الأنبياء:23].

فما الراجح؟ هل الراجح ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم؟ أو الراجح القول الأول؟ الصحيح الراجح في هذه الأقوال كلها هو القول الأول وأن أطفال المشركين في الجنان برحمة الله لهم، وهذا أيضاً نكاية في أهل الكفر وحسرة عليهم زيادة في حسرتهم وعذابهم وهم في النار ينظرون إلى أطفالهم يتمتعون في الجنان. والدلالة على ذلك كما قلت صريحاً بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا قالوا له: (في الجنة إبراهيم وأطفال المسلمين حوله، قالوا: وأطفال المشركين؟ قال: وأطفال المشركين) وأيضاً في الحديث الآخر قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أطفال المشركين: (هم خدم أهل الجنة)، وهذه فيها دلالة صريحة جداً أنهم داخل الجنة، فهم في الجنة، وهذا الراجح الصحيح.

الرد على المخالفين:

◆ أقول من قال بأنهم في النار هم الخوارج، وهو قول لبعض الحنابلة؛ القاضي أبي يعلى قال به ونسب القول للإمام أحمد وأبطله كثير من أصحابه في المذهب. فالصحيح أنه قول للخوارج أن أطفال المشركين في النيران واستدلوا بهذه الأدلة.

أولاً الرد عليهم في أدلتهم: الدليل الأول حديث خديجة، حديث ضعيف كما بيّنا العلة فيه. والحديث الثاني حديث عائشة أيضاً فيه يحيى بن المتوكل وهو واهي الحديث فهو ضعيف، والقاعدة عند العلماء: الأحكام فرع على التصحيح، والحديث ضعيف ولا حجة لكم فيه.

قالوا: نعم معكم أنتم علماء الحديث وفرسان الميدان، لكن تعالوا إلى الأحاديث الصحيحة عندنا في الصحيح البخاري: الجنة والنار لمّا تحاجا خلق الله للنار خلقاً يملأ النار، فهذه فيها دلالة على أن أطفال المشركين في النار. قلنا لهم: ثبت العرش ثم انقش، قالوا: هذا في البخاري وأن البخاري فيه أحاديث ضعيفة موضوعة كأصحابنا الذين يتنطعون على البخاري. لا أبداً، نقول لهم البخاري أصح كتاب بعد كتاب الله جلَّ في علاه، قالوا: ماذا تفعل؟ قلنا: لا، هذه اللفظة فقط قد انقلبت على الراوي ودلت الأدلة بالآثار والأخبار الكثيرة التي أثبتت أن الراوي روى الحديث مقلوب، فهنا الحديث صحيح ليس به ثمة شيء لكن هذه اللفظة انقلبت على الراوي، وعندنا نظائر في ذلك في الشرع كثيرة،

قالوا: إذا أذن ابن أم مكتوم فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن بلال، والمفروض العكس: (إذا أذن بلال فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم)، انقلب على الراوي، والصحيح أن بلال كان يؤذن في الأذان الأول وابن مكتوم هو الذي يؤذن في الأذان الثاني يقال له: أصبحت أصبحت (يعني طلع الفجر) فأذّن.

فالحديث المقلوب انقلب على الراوي، نفس اللفظة انقلبت على الراوي والصحيح فيها: (إن الله ينشئ للجنة خلقاً يكونون فيها)، إن الله ينشئ للجنة خلقاً يملؤها فيه. والأدلة على ذلك وردت عندنا بأسانيد كالشمس: (إن الله جلَّ في علاه عندما تقول النار: هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ هل من مزيد؟ يضع الجبار رجله فيها، فتقول: قط قط)، إذاً لا تُملأ لا بنشأ ولا بخلق، لا تملأ إلّا إذا وضع الجبار رجله -سبحانه تقدست أسماؤه- في النار، فهذه فيها دلالة على انقلاب اللفظة على الراوي، فهذا الرد على الحديث الأول.

الحديث الثاني؛ قالوا النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هم منهم)، وهذه صريحة في الدلالة. قلنا معكم حق وهذا الحديث كالشمس أيضاً إسناده، لكن انظروا للحديث، السياق والسباق واللحاق من المفسرات، هذا الحديث جاء في المغازي لأنهم قالوا: يا رسول الله نبيّت المشركين؛ وهذه يثبت لك أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يقاتل من أجل القتل، نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- المسلمين عن قطع الشجر وعن قتل الأطفال والنساء، فلمّا قال لهم ذلك وهو يؤدبهم بهذه الآداب، قالوا: يا رسول الله نبيّت القوم ولا نستطيع أن نفرق بين الكافر المقاتل ولا بين المرأة ولا بين الراهب ولا بين الطفل، فلمّا لم نستطع أن نفرق بينهم ونبيّتهم من أجل الدعوة فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هم منهم)، يعني إذا قتلوا معهم فهم منهم.

فالمسألة كلها دائرة في مسألة حكمهم في الدنيا، في مسألة أنهم يبيّتون القوم فيجدون الأطفال والنساء لا يستطيعون أن يفرقوا بين الرجل والمرأة ولا الراهب ولا الطفل، فقال: (هم منهم). ف هذه حالة خاصة ولا تعمم في الدنيا وفي الآخرة، فالصحيح لا حجة لكم في هذا الحديث. وأنا قلت أن هذا قول الخوارج، والصحيح أن رحمة الله تسبق وأن الله يدخل هؤلاء الجنة وليسوا من أهل النار.

◆ القول الثالث "التوقف"، واستدلوا على التوقف بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الله أعلم بما كانوا يعملون)، قلنا لا توقف، إن هذا الحديث خبر محض أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخبر أن الله يعلم إذا كبروا ماذا سيفعلون؟ إذا أتاهم الرسول هل يستقبلونه على الرحب والسعة؟ هل يأخذون الحجة ويعبدون الله ويتذللون له؟ هل يتنكبون الصراط؟ قال الله تعالى: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:28]، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الله أعلم) لأن الله يعلم ما كان وما

يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فهو إخبار محض من النبي أن الله من صفاته العلية أنه يعلم كل شيء، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. ولم يتعرّض النبي لحكمهم في جنة أو في نار، الحديث لا يدل بالمرة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تعرّض هل هم في الجنة أم في النار لأن الحديث قال: (الله أعلم بما كانوا يعملون)، "إذا كبروا هل يسمعون ويطيعون أم لا؟" الحديث تعرّض لهذا ولم يتعرض لجنة أم نار.

والوجه الثاني في الرد عليهم؛ نقول هذا الحديث يعتريه الاحتمالات، وعندنا دليل لا احتمال فيه، قاطع، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هم خدم أهل الجنة)، هم في الجنة فهذا يقضي على كل الاحتمالات.

◆ الرد على القول الرابع، والذين قالوا هم يمتحنون، هذا قول جيد لكن الرد عليه من وجهان:

- الوجه الأول: كل الأحاديث التي جاءت فيها الأربعة الذين يمتحنون -والأحاديث هذه صحاح- ذكر فيها: الهرم والأصم والمجنون وأهل الفترة، ولم يذكر الأطفال، هذه الأحاديث الصحيحة. وأمّا هذه الأحاديث فأحاديث ضعيفة، والحكم فرع على التصحيح، فلا حجة لكم فيها.

- قالوا: تنزلوا معنا، حديث من هؤلاء الأحاديث "حديث الأسود التميمي" حديث صحيح، قلنا نتنزل معكم وهو صحيح لا مخالفة معنا في قولكم، هم يمتحنون وهم من أهل الجنة، كأن الله أخبر النبي أنهم سيمتحنون يوم القيامة وينجحون في الإختبار ويكونون من أهل الجنة بدلالة (الله أعلم بما كانوا يعملون)؛ فإذا علم الله أنهم سيختبرون وينجحون في الإختبار ويسمعون ويطيعون ويدخلون النار فتكون برداً وسلاماً عليهم، ثم في مآلهم الأخير يكونون من أهل الجنان، فهذا الرد عليهم من الوجه الثاني هو أن الله جل وعلا يعلم بما كانوا يعملون، يعني آخرتهم هي في الجنة.

◆ القول الخامس هم من أهل الأعراف؛ هذا كلام لا دليل عليه ولا نأخذ بقول أحد لم يستدل على قوله، وعندنا الدليل ظاهر كالشمس الساطعة في رابعة النهار: (هم خدم أهل الجنة)، هم في الجنة.

◆ القول السادس أضعف الأقوال: هم في المشيئة إن شاء رحم وإن شاء عذّب؛ قلنا هذا لا دليل عليه، ولو عندكم دليل فنحن نقول هذا دليل لنا وليس علينا، لأنكم إذا قلتم هم في المشيئة نقول: رحمة الله سبقت غضب الله، ومن رحمة الله أن يدخل الأطفال الذين لم يعملوا شراً قط أو لم يعملوا عملاً يحاسبون عليه في الجنان.

وتسلم لنا الأدلة، ويبقى القول الفاصل الصحيح الراجح الذي لا مدخل فيه: أطفال المشركين كأطفال المسلمين رحمة بهم أنهم في الجنان، زيادة في حسرة المشركين ينظرون إلى أطفالهم الذين ماتوا معهم فيرونهم يتمتعون في الجنة وهم يعذبون في النار.

هذا آخر ما يتكلم فيه في هذا الحديث وأمّا الفوائد المستنبطة فنرجئ الكلام على أي فائدة إلى الباب الذي بعده. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله عنا خير الجزاء.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس السابع والثلاثون: إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، نسأل الله جلَّ في علاه أن يديمنا على هذا الخير وأن يديم الخير لنا وأن يجعلنا ممن يعمل لدينه صدقاً وإخلاصاً. انتهينا في الأسبوع الماضي من الكلام على باب ذكر أطفال المشركين، وبيّنا أن الراجح أنهم من أهل الجنة، اليوم إن شاء الله نأخذ بابين وفيها من المراجعة والمذاكرة التأصيل ما يفيدنا بإذن الله.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عن ابن مالك -رضي الله عنه- عن أم حبيبة -رضي الله عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أريت ما تلقى أمتي من بعدي وسفك بعضهم دماء بعض فأحزنني فشق ذلك علي).

عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لمّا بعثه إلى اليمن خرج معه يوصيه، ثم التفت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة فقال: (إن أهل بيتي هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بي وليس ذلك، إن أوليائي منكم المتقون

من كانوا وحيث كانوا، اللهم إني لا أحل لهم فساد ما أصلحت، وَايمُ الله لَتُكفَأنَّ أمتي عن دينِها كما يُكفَأن الإناء في البطحاء)، وإسناده صحيح.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن أوليائي يوم القيامة هم المتقون، وإن كان نسب أقرب من نسب، لا يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم وتقولون: يا محمد، فأقول: هكذا وأعرَضَ في كِلا عِطْفَيْهِ)، وإسناده حسن.

وجب علينا الآن الكلام على قاعدة لطالما ترددت في الكلام عليها وإنها لمرعبة ومخيفة، بأن الإنسان لو تعامل بها أو عومل بها خسر كثيراً، لكن هو من باب العلم الذي يظهر، ونسأل الله جلَّ في علاه ألاّ يعاملنا بما نحن أهل له ويعاملنا بما هو أهل له. أقول هذه القاعدة: ليس بين الله وبين عباده نسب؛ (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات:13]، إن عباد الله لو جاءوا وهم أقرب الناس لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- نسباً لم يشفع ذلك لهم عند ربهم شيئاً، وإن الله جلَّ في علاه لم يترك لنبي خطئاً إلّا وقد أشار إليه بل وصرح به وهو نبي من الأنبياء، بل من أولي العزم من الرسل كما سنبين.

قام النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرر هذه القاعدة العظيمة وسط الجموع الغفيرة من قريش وهو يقول: (يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً)، ويقول: (يا عباس ابن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة محمد لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله من شيء). وهنا الحديث يبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمن يتفاخر بأنه من أهل بيته وأنه من نسله إن كان على غير صلاح فليس بولي للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان على صلاح فحيا هلا به، ولنعم ما قرب به مقربة من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيجب لأمرين عظيمين جسيمين: التوحيد والصلاح والتقى أولاً، ثم القرابة من النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وأروع ما يضرب مثلاً لذلك أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- كانوا إذا أجدبوا قاموا، فقام عمر بن الخطاب فدعا ربه جلَّ في علاه قال: ربنا إنا كنا إذا أجدبنا استسقينا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ يعني بدعاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، السياق والسباق المفسر لهذا ولسنا بصدد الكلام على المسألة نفسها، لكن الغرض المقصود قال: كنا نستسقي برسول الله (أي بدعاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم-)، فلمّا مات رسول الله، قال: فإنا نستسقي بالعباس (يعني بدعاء العباس). لِمَ؟ لتوحيده وتقاه ولورعه وأيضاً لقرابته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإلّا فعمر أفضل من العباس بالإجماع، بل وهناك كثير من الصحابة يقدّمون، علي بن أبي طالب

(ابن أخ العباس) أفضل من العباس بالإجماع، ومع ذلك عمر -رضي الله عنه وأرضاه- يقدّم العباس لعمومته ولقرابته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فإن كان صالحاً موحداً تقياً، فلنعم ما كان أنه من الصلاح بمكان ومن قرابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمكان، فإذاً لا نسب بين الله وبين عباده.

ولكم أروع الأمثلة التي تقرر لكم هذه القاعدة العظيمة التي كما قلت مرعبة بالنسبة لنا، أنه لا نسب بين الله وبين عباده، حتى ولو كان أهل الإسلام قد ظلموا أكفر أهل الأرض فإن الله يقتص من أهل الإسلام لأهل الكفر، وإن كان هؤلاء يوحدون وهؤلاء يكفرون بالله جلَّ في علاه، لأن الله حكم العدل، لا نسب بين الله وبين عباده.

آدم -عليه السلام- خلقه الله بيده وشرّفه أن نفخ فيه من روحه، يعني روحاً خلقها الله جلَّ في علاه وشرّفها بالإضافة له، ثم علّمه الأسماء كلها ثم كرّمه وأسجد له الملائكة بأسرهم، ومع ذلك لمّا أكل من الشجرة التي نهاه الله جلَّ في علاه أن يأكل منها، قال الله في كتابه قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) [طه:121]، وإن كان قد تاب عليه لكنه قد أنزله من الجنة. لا نسب بين الله وبين عباده، ولو كان هذا هو آدم، ولو كان هذا هو الذي سينجب أفضل البشر من الرسل والأنبياء، ومع ذلك لا نسب بين الله وبين عباده.

نوح -عليه السلام- أول الرسل لأهل الأرض، وهو من أولي العزم من الرسل، وله المكانة العظمى عند ربه جلَّ في علاه، ومع ذلك لا نسب بين الله وبين عباده، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، ومقياس الله جلَّ في علاه مقياس عدل. فإن نوحاً -عليه السلام- قال: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) يريد نجاة ابنه وهو الرسول وهو أول رسول إلى الأرض وهو من أولي العزم من الرسل، (فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) [هود:45]، فيقول الله جلَّ في علاه ويبيّن لنا هذه القاعدة الجلية: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [هود:46]، انظر تهديد لأفضل الرسل في وقته، لأولي العزم من الرسل، لرجل له مكانة عظيمة عند الله جلَّ في علاه، لكن لا نسب بين الله وبين عباده.

وأيضاً عندك خذ مثلاً ذا النون عندما دعا القرية وهو يأتمر بأمر ربه جلَّ في علاه، لكن لمّا رأى العتو والكفر فيهم قال: إن عذاب الله سيقع بهم، فأخذ بنفسه وهرب عنهم وقال: غضب الله وعذاب الله سينزل بهم، فذهب مغاضباً، لم ينتظر أمر الله جلَّ في علاه، فماذا حدث؟ مع أن يونس بن متّى يقول فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تفضلوني على يونس بن متى)، وماذا حدث؟ فإن الله جلَّ في علاه ابتلاه حتى ابتلعه الحوت وعاش أمداً في ظلمات البحر وظلمات الحوت، لا نسب بين الله وبين عباده.

موسى أقرب الناس وأقرب الرسل منزلة من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك بعدما اصطفاه الله برسالاته وبكلامه حتى أنه طمع طمعاً شديداً في رؤية الملك سبحانه جلَّ في علاه، مع ذلك لمّا سئل من أعلم أهل الأرض فقط، لم يرد الأمر لله جلَّ في علاه على غالب ظنه ولم يتجرأ ولم يقدّم بين يدي الله ولم يقول أنا أعلم من الله، حاشا لله وحاشا لرسوله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام. غالب ظنه أنه من أولي العزم من الرسل وأنه هو سيد بني إسرائيل وأنه اصطفاه الله برسالاته وبكلامه وأعطاه الألواح وخط التوراة بيده، فغالب ظنه هو أعلم أهل الأرض، فلمّا قال إنه أعلم أهل الأرض ولم يرد الأمر لله جلَّ في علاه، أبى الله عليه ذلك، ليس بين الله وبين عباده نسب. فأمره الله جلَّ في علاه أن يكون تابعاً بعدما كان متبوعاً، وتابعاً لمن اختلف العلماء فيه (الخضر) هل هو من الأولياء أم هو من الأنبياء؟ وإن كان الراجح الصحيح أنه من الأنبياء. لكن ليس بين الله وبين عباده نسب، موسى الآن المصطفى، موسى من أولى العزم من الرسل، جعله الله تابعاً للخضر لمّا لم يرد الأمر لله جلَّ في علاه.

وهذا نبينا -صلى الله عليه وسلم- لم ينفع صحابته الكرام الذين هم خير صحبة صاحبة نبياً، لم يشفع لهم وجود النبي -صلى الله عليه وسلم بينهم-؛ لمّا زلوا فإن الله جلَّ في علاه جعل الكلمة والدولة عليهم لأهل الكفر عليهم، فإن في غزوة أحد لمّا عصى الرماة أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ماذا حدث؟ تربص خالد بن الوليد -رضي الله عنه وأرضاه- بهؤلاء، فلمّا نزلوا إلى الغنيمة قالوا: الغنيمة الغنيمة، انقلبت الموازين. ولا نسب بين الله وبين عباده، مع أن فيهم أفضل الخلق أجمعين، مع أن فيهم أكرم الخلق على الخالق، مع أن فيهم محمداً -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك جعل الله الدولة لأهل الكفر تعليماً لهؤلاء أن الله ليس بينه وبين عباده نسب، ولو كانوا هؤلاء من الكفار وأنتم من المسلمين، لكن الله جعل أسباباً وسبلاً لرضاه، فمن حاد عن السبيل ضاع وتخبط، وليس بين الله وبين عباده نسب.

أيضاً في غزوة حنين أعجب الأمثلة التي تضرب في ذلك، بعدما كثرت جموع المسلمين وذهبوا بعدما فتحوا مكة إلى هوازن، أرادوا قتال هوازن وهم نصبوا لهم الكمائن، مشى بعض المؤلفة الذين أُلّفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالعطايا، والطلقاء الذين أطلقهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فدخلوا في الإسلام، وكانوا ثمة ما يقرب من ألفي رجل، لكن أعجبوا بالكثرة فقالوا: لن نهزم من قلة بحال من الأحوال، فدخل في قلوبهم العجب، ولا نسب بين الله وبين عباده. فأراد الله جلَّ في علاه أن يطهّر قلوبهم، فخرج هؤلاء الكافرون عليهم ورموهم عن يد واحدة بالنبل، فتفرقوا عن رسول الله، ما بقي إلّا رسول الله ومعه أبو سفيان بن حرب ومعه العباس، والنبي -صلى الله عليه وسلم- على بغلته البيضاء ويقول: [أنا النبي لا كذب *** أنا ابن عبد المطلب]، ثم قال: يا لبيعة الرضوان، يا للأنصار، فقالوا: لبيك رسول الله، لبيك رسول الله، واجتمعوا عليه.

الغرض المقصود؛ وجود النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يشفع لهم، لأنه لا نسب بين الله وبين عباده.

لذلك قرر هذه القاعدة الرسول -صلى الله عليه وسلم-: لا يفرح أحد بنسبه معي أو قرابته إليّ إن لم يكن موحداً تقياً ورعاً، إنما أوليائي الذين اتقوا ربهم جلَّ في علاه. يبين لك أن مقياس الناس عند رب الناس ليس كمقياس الناس عند الناس، مقياس الناس عند رب الناس التقوى والورع والصلاح، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ). نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا من المتقين الصالحين الذين يعملون بأمر الله جلَّ في علاه وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

الفوائد المستنبطة من هذا الحديث:

١- هذا الدين هو خير الأديان وأفضل الأديان، هو الدين الحق، وأسمى معاني الإيمان لا تجدها إلّا في هذا الدين. هذه الفائدة تستنبطها من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قدّم أخوة الدين على أخوة النسب، ولذلك كان ابن عباس يقول: أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وأن تعطي لله وأن تمنع لله، قال: أمّا ترابط الناس في هذه الآونات (في عصور الخيرية) كانت على الدرهم وعلى الدينار. فهذه أسمى معاني الحياة في أسرها "الأخوة في الله".

ولذلك بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- مكانة الأخوة في الله عند الله عندما قال: (هناك أناس لهم مكانات عند الله جلَّ في علاه على منابر من نور ليسوا بأنبياء ويغبطهم الأنبياء)، كأن النبي يتمنى هذه المنزلة عند ربه جلَّ في علاه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يندهش: (ليسوا بأنبياء لكن يغبطهم الأنبياء). كأن سائلاً يسأل: لِمَ يا رسول الله؟ قال: (تحابوا في الله، اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه)، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ما قرر هذه القاعدة العظيمة قال: (وأحبهم إلى الله أشدهم حباً لأخيه) إن كانت لله. والسبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلّا ظله، يعني ظل عرش الله جلَّ في علاه كما في روايات أخرى بسند صحيح هو: (رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه).

٢- دلائل النبوة من النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم سيأتونه يوم القيامة وهم يتقربون إليه، يتزلفون بنسبه وهو يقول: (سحقاً سحقاً، بعداً بعداً)، (إنما أوليائي المتقون).

الشفاعة:

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن أم حبيبة -رضي الله عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أُوريت ما تلقى أمتي من بعدي وسفك بعضهم دماء بعض، فأحزنني وشق ذلك عليّ، وسبق كما سبق ذلك في الأمم التي قبلها، فسألت الله تعالى أن يوليني شفاعتهم فيهم يوم القيامة ففعل)، وإسناده صحيح.

وعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما ترون وإنه لمن أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار وإنه لمن أهل الجنة)، والحديث طويل، وإسناده جيد.

إن النبي -صلى الله عليه وسلم- من دلائل النبوة أنه أخبر بأن هذه الأمة تتبع الأمم السالفة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، وفي بعض الروايات قال: (ولو نكح منهم أحد أمه لوجد في أمتي من يفعل ذلك)، وقد كان. وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذه الأمة ستنزلق نحو الشهوات والشبهات وتتخطفها الدنيا بما فيها من زينة وشهوات وقال: (كتب على ابن آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر والأذن تزني وزناها السمع واللسان يزني وزناه الكلام) إلى آخر الحديث. وقال النبي: (كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون) وقال أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو لم تذنبوا) إذاً ستذنبون ولابد أن تذنبوا، (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم).

هذه الأحاديث تقسم الناس إلى أقسام أربع:

❖ صنف مؤمنون خلّص لم يعصموا من الصغائر، ولا تجد أحداً قط لم يقع في صغيرة، حتى الأنبياء على الراجح الصحيح أنهم وقعوا في بعض الصغائر، كما قال الله تعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) [طه:121]، لكن إيمانهم أعلى وأرقى بكثير. فهؤلاء الكلام ليس عليهم، لأن منهم الأنبياء والمرسلين ومنهم الذين هم من أهل الصلاح والتقى والورع، فهذا صنف لا نتكلم عنه لأن فيهم الأنبياء والمرسلين وانتهى الأمر.

❖ صنف آخر هم عصاة عصوا الله ورسوله وقبل الممات تابوا من هذه المعصية، ماتوا بعدما عصوا الله ورسوله لكن مكّن الله لهم التوبة، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الأعمال بخواتيمها)، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض الأحاديث بيّن أن من تاب تاب الله عليه. وهذا فضيلة ليست بعدها فضيلة، هؤلاء إن شاء الله نجزم أنهم من أهل الجنة.

❖ وصنف ثالث عصوا الله ورسوله ولمّا يتوبوا ولمّا يأتيهم الأجل، يعني ما زال باب التوبة عندهم مفتوح بفضل الله سبحانه وتعالى. وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بشّر هذه الأمة ببشارات عظيمة: إن الله يفرح بتوبة العبد أشد من فرحة العبد برجوع روحه إليه، وأيضاً بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن باب التوبة مفتوح على مصرعيه حتى تشرق الشمس من مغربها أو تصل الروح إلى الحلقوم (الغرغرة). هؤلاء يرزقهم الله بمن يلهمهم التوبة أو يذكّرهم بالتوبة أو يرشدهم إلى طريق الله جلَّ في علاه، هؤلاء يقع عليهم الحديث الذي بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الرجل يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس)، وهذا الذي إذا رأى الله من قلبه النقاء صدّر له من يرشده إلى طريق التوبة، فيتوب فيموت على عمل خير، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا أحب الله عبداً عسله، قالوا: وما عسله يا رسول الله؟ قال: وفقه لعمل الخير فختم له بهذا العمل)، والأعمال بخواتيمها. وإذا علم الله من قلبه عدم النقاء لم يوفق للتوبة، إن كان صاحب بدعة أو غيرها، لأن الله جلَّ وعلا حجب التوبة عن كل صاحب بدعة.

❖ الصنف الرابع وهو الذي سنتكلم عنه الآن وهو الذي عصى الله ورسوله ولم يتب ومات على المعصية، هذا قد استحق النار مع أنه في مشيئة الله جلَّ في علاه، ولرحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالأمة لمّا علم أن من أمته من يتجرأ على حدود الله ويتجرأ على حدود رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا يوفق للتوبة، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- رحمة مهداة، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا تكلم في كل الأمور واللحظات الحوالك يقول: أمتي أمتي، فلذلك خبأ دعوته شفاعة لأمته. علم أن هناك أناس استحقوا النار، فطلب من الله جلَّ في علاه أن يمنحه الشفاعة ويشفعه فيهم، ولذلك نحن سنتكلم عن هؤلاء الصنف فيما نتكلم عليه من التأصيل العلمي وهو الشفاعة.

إن هذا الحديث بيّن انه طلب الشفاعة فشفعه الله فيهم؛ الشفاعة لغة: هو أن تجعل الواحد اثنين، الشفع غير الوتر. وأما في الاصطلاح: هو التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة. النبي -صلى الله عليه وسلم- يشفع لأقوام استحقوا النار ليدفع عنهم المضرة ألا وهي أن يدخلوا النار، أو جلب منفعة أن الله جل في علاه بعد ما استحق أناس الجنة لا يدخلون إلّا بإذن النبي فيشفع لدخولهم الجنة كما سنبيّن. إذاً الشفاعة اصطلاحًا: هو التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة، هي على الإطلاق.

أمّا في الدنيا فالشفاعة واجبة عند الأمور التي لا يستطيع أن يشفع فيها إلّا رجل قد وكّل بهذه الشفاعة، ولا يجوز أن يأخذ عليها أجرة، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من شفع لأخيه وأخذ على شفاعته هدية فقد فتح بابًا من أبواب الربا)، وهذا الحديث مختلف في إسناده وإن كان صححه الشيخ الألباني بفضل الله رحمة الله عليه. وهذه توافق الفهم الدقيق من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اشفعوا تؤجروا)، ويقضي

الله على لسان نبيه ما يشاء، يعني تؤجروا من قبل الله. إذاً الشفاعة عبادة، والأصل الأصيل أن العبادة لا يجوز أن يؤخذ عليها أجر، فهذه الشفاعة الدنيوية.

أمّا الشفاعة الأخروية فهي التي سنقسمها الآن، التي يبيحها الله جلَّ في علاه لمن يشاء من عباده. الشفاعة شفاعتان: شفاعة مثبتة في الكتاب، وشفاعة منفية:

▪ أمّا الشفاعة المنفية: هي التي نفاها الله عن الكفار أجمعين؛ قال الله تعالى حاكياً عنهم قالوا: (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) [الشعراء:100-101]، لا شفاعة لهم. وقد قال الله في سورة البقرة في غير ما آية: (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) [البقرة:48]، وفي الآية الأخرى قال: (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) [البقرة:123]، منع الله الشفاعة للكافرين.

▪ وبالنسبة للشفاعة المثبتة، هذه الشفاعة أثبتها الله في كتابه ولكنه قيدها بقيدين ولم يطلقها:

◊ القيد الأول: الرضا عن الشافع وعن المشفوع.

◊ القيد الثاني هو الإذن للشافع؛ لا يستطيع الشافع أن يدخل ويقول أشفع لهذا أو لذاك، إن الله جل في علاه لا غالب له، لا أحد يستطيع أن يجبر الله على شيء، يأذن الله لمن يشاء ليشفع.

والدلالة على ذلك مضمومة في آية واحدة في سورة النجم وهي: (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى) [النجم:26]، فجمع بين الإذن وبين الرضا، وأيضًا (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [البقرة:255]، (وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى) [الأنبياء:28]، فهي مفرقة ومجتمعة في آية واحدة، لابد من الإذن ولابد من الرضا عن الشافع وعن المشفوع.

وخلاصة الشفاعة أو المقصود الأسمى منها هو إظهار كرامة الشافع على الله جلَّ في علاه، ولذلك ترى أن الله أظهر مكانة النبي -صلى الله عليه وسلم- عند ربه جلَّ في علاه عندما ادلهم الخطب واشتد الكرب ودنت الشمس من الرؤوس وقام الناس يستشفعون بكل نبي وهو يقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى فلان، اذهبوا إلى محمد، حتى يقول محمد: (أنا لها، أنا لها)، فيأتي فيسجد عند العرش، فإذاً هي إظهار كرامة المخلوق الشافع عند الخالق جلَّ في علاه.

والشفاعة تنقسم إلى نوعين: نوع فيه ثلاث أقسام، ونوع آخر فيه ثلاث أقسام.

❖ النوع الأول: شفاعة خاصة وهذه فيها ثلاث مراتب:

◆ أولها الشفاعة العظمى وخاصة، لأنها خاصة برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لا أحد يشاركه فيها، وهذا أيضاً إعظاماً للنبي -صلى الله عليه وسلم- وإكباراً لمكانته وإظهاراً لشرفه وإمامته للمرسلين أجمعين. إن الله جل في علاه شرّفه بين الأنبياء وخصه بالشفاعة ثلاث مرات.

الشفاعة العظمى وهي شفاعة الموقف أن يقضي الله بين العباد؛ يذهبون إلى آدم فيقول: نفسي نفسي، قد أخطأت خطيئة. ويذهبون إلى نوح يقول: نفسي نفسي، إلى إبراهيم أبو الأنبياء فيقول: نفسي نفسي، قد كذبت ثلاث كذبات. ثم يذهبون إلى موسى، ثم يذهبون إلى عيسى فيقول: اذهبوا إلى محمد، عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فعندما يأتي الناس إليه يستشفعون به فيقول: أنا لها أنا لها، فيظهر الله كرامته أمام الخلائق أجمعين، فيذهب إلى العرش فيسجد فيعلّمه الله محامد فيخر ساجداً ويحمد الله، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطى واشفع تشفع، فيشفع أن يقضي الله بين العباد أجمعين.

◆ الشفاعة الثانية أيضاً تكون خاصة برسول الله إكراماً لمكانة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ أن أهل الجنة بعد ما استحقوا الجنة وبعدما جعل الله لهم طريق الجنان بأنهم من أهل الجنان لا يدخلوها إلّا برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كما قال الله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) [الزمر:73]؛ "الواو" هنا إشعار بأنها لم تفتح بدايةً، لابد من الاستئذان أولاً، فهذه إشارة على أن الجنة لا تفتح إلّا باستئذان، ولا إذن إلّا برسول الله كما في الصحيح (أن النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن على باب الجنة ليدخل أهل الجنة الجنة، يقال: من؟ فيقول محمد بن عبدالله، فيقول الملك: بك أمرت أن أفتح)، يعني بغيرك لا أفتح ولن يدخل أحد الجنة إلّا بك، فتفتح الجنة فيدخل أهل الجنة الجنة.

◆ الثالثة وهي خاصة بنبينا أيضاً؛ بعد ما نفى الله الشفاعة للكافرين، حتى إبراهيم لا يشفع لأبيه، إعظاماً وتكريماً وتشريفاً لمكانة الرسول عند الله جلَّ في علاه شفّعه في عمه أبي طالب، فشفع فيه كما قال العباس: ماذا فعلت لعمك وقد كان يحوطك وينصرك ويفعل ويفعل لك؟ فقال: (لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار، هو يلبس نعلين من نار يغلي بهما دماغه يحسب أنه أشد أهل النار عذاباً)، وهذه هي شدة النار. الغرض المقصود هذه شفاعة خاصة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- خاصة فقط في الكافرين، لأبي طالب فقط، ما في أحد بعد ذلك يشفع له من أهل النار إلّا عم النبي -صلى الله عليه وسلم- كرامةً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

❖ النوع الثاني من الشفاعة هي الشفاعة العامة؛ عامة يعني يدخل فيها محمد -صلى الله عليه وسلم- وإبراهيم ونوح والأنبياء بأسرهم، بل ويدخل المؤمنون فيها، عامة يعني يشترك فيها الخلق. وهذه الشفاعة أو القسم الثاني لها أقسام ثلاثة:

◆ القسم الأول: قوم استحقوا النار ولم يدخلوها من أول وهلة، استحقوا النار بشفاعة النبي وبشفاعة المؤمنين فإن الله يدخلهم الجنة من أول وهلة، لا يعذبوا ويمحو الله كل الخطايا التي وقعوا فيها. وحديثنا اليوم هو الذي نحتج به هو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فأحزنني وشق ذلك عليّ)، بعدما سفكوا دمائهم واقترفوا الآثام قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فسألت الله تعالى أن يوليني شفاعتهم يوم القيامة ففعل)؛ فكلمة "فعل" دلالة على أن الله جلَّ في علاه قبل شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيشفع في أقوام عصوا الله وتجرأوا على حدود الله واستحقوا النار، وبفضل الله وهذه كما قلت ضميناً لك أن الله ينظر إلى القلوب إن كان فيها نقاء ولو عصوا الله ورسوله فإن مدار الكشف على الناس هو مدار القلوب، فلذلك يفضل لهم بفضل منه ورحمة نبيه فيشفع فيهم فيدخلون الجنة.

وأيضاً من الأدلة التي تدل لك على أن بعض الناس استحقوا النار وبشفاعة النبي يدخلون الجنة، حديث ظاهر جداً وحديث في الصحيح: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يتكلم عن الجنازة والصلاة على الجنازة قال: (فإن صلى على الميت أربعون فإن الله يشفعهم فيه)، وهذا حديث ظاهر الدلالة في أن أقواماً استحقوا النار وبالشفاعة يدخلون الجنة. ما وجه الدلالة من هذا الحديث؟ عموم الحديث هو الذي يثبت، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يستشفعون فيشفعهم الله فيه)، حالة الجنازة هنا الميت قد يكون صالحاً تقياً ورعاً، وقد يكون عاصياً فاسداً فاسقاً، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- سوّى بين الصالح وبين الطالح في الشفاعة قال: (فيشفعهم فيه).

فمرحبا بهذه البشرى؛ بأن المرء إذا مات فصلى عليه أربعون، لكن اشترط في حديث ابن عباس مقيد: (يوحدون الله)، بمعنى أنهم وحّدوا الله بغير شوب شرك ولو بالشرك الأصغر، إذاً لابد الأربعين يكونوا على الأقل ممن طلب علم التوحيد فأتقنه فلم يقع في الشرك، هذا الصحيح لأن ابن عباس قيدها قال: (أربعون رجلاً يوحدون الله)، يعني يوحدون الله دون أن يشوبه أدنى شرك. فإذاً هذا الحديث بإطلاقه يدل على أن رجلاً استحق النار شفع المؤمنون فيه فإن جلَّ وعلا يقبل هذه الشفاعة فيدخله بذلك الجنة.

◆ القسم الثاني: أقوام دخلوا الجنة فيشفع النبي -صلى الله عليه وسلم- لرفعة درجاتهم، يعني هم ليسوا في الفردوس الأعلى فيأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- فيشفع لهم ليكونوا من أهل الفردوس الأعلى. اللهم اجعلنا جميعا منهم واجعلنا جميعا ممن يرافق النبي صلى الله عليه وسلم في الفردوس الأعلى. وهذا دليله واضح جداً، لأن بعدما

غسل أبو سلمة دخل عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين)، فشفع النبي -صلى الله عليه وسلم- لأبي سلمة أن يرفع الله درجته، هذه فيها دلالة على أن بعض أناس استحقوا الدرجة الأولى من الجنة فشفع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيهم فاستحقوا الفردوس الأعلى.

رفعة الدرجات وهذه تأتي للمؤمنين حتى بدون شفاعة، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) [الطور:21]، الاتباع جعل لهم شفاعة، فإذاً ارتفع الأولاد إلى درجة الآباء بشفاعة الاتباع، ولأن الله جلَّ في علاه أكرم الآباء بنزول الأبناء أو رفعة الأبناء معهم في نفس المنزلة.

◆ القسم الأخير من هذا النوع ألا وهي في أقوام دخلوا النار لكن بقي أثر السجود، فيأتي النبي فيشفع والمؤمنون فيشفعون فيشفعهم الله جلَّ في علاه، فيخرجون من النار فيلقون في نهر الحياة فيحيون ويدخلون الجنة. وحديث القبضة ظاهر جداً في الصحيحين: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يشفع وأن الملائكة تشفع وأن المؤمنين يشفعون، وفي ضمن الحديث قال: (هم أشد مجادلة)، فيناشدون الله: (ربنا إخواننا يصلون معنا ويحجون معنا ويزكون معنا، فيقول الله جلَّ في علاه: اذهبوا فأخرجوا من شئتم من النار)، بفضل الله جلَّ في علاه.

ولذلك أقول فليستكثر أحدكم من إخوانه في الله، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن مكانة الإخوان: (إن للمرء إخواناً يشفعون له، فلتستكثروا من إخوانكم)، يعني استكثروا من الإخوان في الله الذين سيشفعون لكم يوم القيامة، ويمكن أن ترتقي إلى منزلة عليا بأخٍ لك تحبه في الله، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المرء مع من أحب)، فقال أنس: ما فرحنا بحديث مثلما فرحنا بهذا الحديث، فإني أحب النبي -صلى الله عليه وسلم- وأحب أبا بكر وعمر ولم أعمل بأعمالهم لكن كفاني الحب، لكن قال رسول الله: (المرء مع من أحب).

الفوائد المستنبطة من هذا الحديث:

١- إن هذه الأمة ستكون كأسلافها من الأمم بدلالة نبوءة النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ستسفك هذه الأمة دمائها)، وهذا حدث، أرأيت أن الله جلَّ وعلا لم يسلط عليهم عدواً يستبيح بيضتهم حتى يستبيح أحدهم بيضة الآخر، يقتلون بعضهم البعض فيسلط الله عليهم عدواً من غيرهم.

٢- رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة؛ لمّا قيل له أنهم سيسفكون دماءهم شق ذلك على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاختبأ دعوته شفاعة لأمته، كما قال النبي

-صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين: (لكل نبي دعوة مستجابة، فخبأت دعوتي شفاعة لأمتي)

٣- حمل المطلق على المقيد؛ من أين أتت هذه الفائدة؟ لأن حمل المطلق على المقيد هنا سيفسر للناس ما احتاروا فيه، كيف رجل كل يوم نراه في المسجد ويقيم الليل والفجر معنا والزكاة أمامنا يدفعها والصدقة والصلاح ثم بعد ذلك نجده في نار جهنم؟ كيف ذلك؟ أليس قد عمل صالحاً؟ أليس قد اتقى ربه؟ أليس بالظاهر قد أتى بكل الخيرات؟ فكيف يكون من أهل النار؟

نقول حل الإشكال عندك بحمل المطلق على المقيد، الحديث الثاني قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما ترون)، يعني فيما يرى الناس، فيما يبدو للناس ظاهراً، لكن الباطن فيه الدغل، القلب ليس نقياً، وقلت مقياس الناس عند رب الناس القلوب، (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) [الإسراء:25]. الحديث الثاني قال: (يعمل العامل عمل أهل النار تسعين سنة ثم يختم له بعمل أهل الجنة)، لم يقل "فيما يرى الناس"، وهذا الذي حير الناس فقالوا: كيف يعمل عمل أهل الجنة ثم يكون نصيبه النار؟

قلنا لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قيدها في الحديث الثاني وقال: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يرى الناس)؛ كان يفعل ذلك رياءً وسمعة، كان يفعل ذلك ممدحة، يفعل ذلك وجاهة، يفعل ذلك طلبا للدرهم والدينار، يفعل ذلك طلبا للرئاسة. وهناك بعض الأغرار الأغمار يفعلون ذلك، كما قال ابن القيم: وأعجب ما رأيت، رجل يزيد في توكله على الله من أجل الرغيف والدرهم والدينار. وبضدها تتبين الأشياء قال: وأعجب التوكل ديناً عند الله جل في علاه توكل الأنبياء، فقد توكلوا على الله لنصرة دينه. فانظروا الفارق كما بين السماء والأرض، هذا توكل على الله وعلم أن الله هو الذي يملك الرزق وأن الخزائن كلها بيد الله جلَّ في علاه فأصبح يتوكل على الله بقلبه وجمعية قلبه من أجل الدرهم والدينار، أعطاه الله ما يريد، لكن في الآخرة ليس له ثمة شيء.

لمّا يتوكل على الله جلَّ في علاه بأن يفوز بالآخرة يحوز الدنيا حازها ثم ولت وراحت في دقيقة واحدة، بل في لحظة، بل في ثانية، بل في أقل من ثانية. لكن الثاني قد توكل على الله في نصرة دين الله جلَّ في علاه، توكل على الله في قيام الليل، توكل على الله في صيام النهار، توكل على الله في الصدقات، توكل على الله في الدين فحاز الدنيا والآخرة، وهذه سنة كونية. فلذلك نقول الذي فعل ذلك وتوكل على الله أو فعل لطلب الرئاسة، للوجاهة، للدرهم والدينار، حاز من الدنيا أموراً تافهة ثم خسر الدنيا بعد ذلك والآخرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فيما يرى الناس).

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثامن والثلاثون: باب إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، نسأل الله جلَّ في علاه أن يديمنا على هذا الخير، وأن يديم الخير لنا، وأن يجعلنا ممن يعمل لدينه صدقاً وإخلاصاً.

باب إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، ما شاء أقامه منها وما شاء أن يزيغه أزاغه:

عن النواف بن سمعان الكلابي قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ما من قلب إلّا بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه)، وهو حديث صحيح.

تنبيه: زاد غير المؤلف: وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا دينك)، قال: (والميزان بيد الرحمن، يرفع قوماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة).

وعن سبرة بن فاكهة: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه).

وعن نعيم بن همال قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ما من امرئ إلّا قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يزيغه أزاغه وإن شاء أن يقيمه أقامه).

وعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلّب ويصرّف كيف شاء).

وعن أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يا أم سلمة، ما من آدمي إلّا قلبه بين أصبعين أصابع الرحمن، ما شاء أقامه وما شاء أزاغه).

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإذا أراد أن يقلب قلب عبدٍ قلبه).

القلب كما قال علماؤنا ملك، والجوارح جنود هذا الملك، يأتمرون بأمره ويسيرون بسيره، إن استقام استقاموا، وإن اعوج اعوجوا. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله)، وقال الله تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) [الإسراء:25]. وهذا القلب يملكه الرب جلَّ في علاه، فهو يحول بين المرء وبين قلبه، وهو بين اصبع من أصابع الرحمن جلَّ في علاه، قلوب العباد أجمعين، إن شاء أقام هذا القلب وإن شاء أزاغ هذا القلب من تمام قدرته جلَّ في علاه كما سنبيّن.

فمدار النجاة ومدار الهلاك على القلوب، فلعظم مكانة القلب ولخطر مكان القلب من الإنسان، فإن المرء لابد أن يتدبر حاله وينظر في قلبه ويعلم أن قلبه بيد ربه جلَّ في علاه، فيبتهل ويتذلل ويتمسكن حتى لا يزيغ الله جلَّ في علاه قلبه، كما سيأتي أن الله إذا أراد أن يزيغ العبد أو يضل العبد أزاغ قلبه وأضله. قد قال الله تعالى مبيناً قدرته على عباده أجمعين: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام:125]، وهذه الإرادة الكونية، وهذه المسائل التي سنتكلم فيها في هذا الحديث، لكن لنا وقفة مع القلب وأن الإنسان مدار رفعته ومدار نجاته ومدار مغفرة ذنوبه على سريرته. أصحاب السرائر هم أصحاب العلو والسمو، وليس أصحاب الجوارح وكثرة العبادات، العبادات: عبادات ظاهرة وعبادات باطلة، وأفضل العبادات التي تقترب بالمرء من ربه جلَّ في علاه هي العبادات الباطنة، ألا وهي عبادة القلوب. إن المرء لا يكون كثير صلاة ولا صيام لكنه عند ربه جلَّ في علاه في الأعالي، بل يكتب في الفردوس الأعلى لنقاء قلبه وحسن سريرته، اعلى ما يقال في ذلك كما ما قاله

ابن الجوزي: بحثت كثيراً عن سيرة الإمام مالك، أنظر في كثرة صلاة أو صيامه فلم أجد، لكن كان الرجل صاحب سريرة.

نقاء القلب هو رفعة المرء عند ربه جلَّ في علاه، فإن مدار قبول العبد عند ربه بالقلب، فإن للعمل شرطين حتى يقبل العمل: الإخلاص والمتابعة؛ والإخلاص مناطها أو محلها سويداء قلب الإنسان. مدار الرفعة عند الله جلَّ في علاه والتمكين هو القلب؛ انظروا إلى أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه- عندما نظر عبد الرحمن بن عوف نظرة ممحصة، ما الذي سبق بأبي بكر عن الأمة بأسرها؟ ما الذي جعل أبا بكر يتربع على عرش هذه الأمة بعد نبيها -صلى الله عليه وسلم-؟ تأتيك الإجابة من عبد الرحمن ابن عوف وهو ينظر نظرة الفقيه الممحص ويقول: ما سبق أبو بكر الناس بكثير صلاة ولا صيام، ولكن سبق الناس بما وقر في قلبه، فمدار الرفعة هو القلب. وكذلك أنس ابن مالك -رضي الله عنه وأرضاه- ينظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- متأسياً، وينظر إلى عمر وإلى أبي بكر يتألم ويقول: لا أفعل ما يفعلون، هذا يتسابق في الخيرات وهذا يفعل كذا، وهذا نقاء قلبه يرتفع به. فقال: عزائي كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المرء مع من أحب)، وهذه مدارها على الإيمان، والإيمان مظهره أن يكون داخل القلب كما قال ابن عباس: أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، والله هذا ما هو إلّا عمل القلب، فأوثق عرى الإيمان مناطه القلب.

رفعة في القلب، بنقاء القلب ونقاء السريرة يرتفع المرء؛ عبدالله بن عمرو بن العاص كان رجلاً مجتهداً في العبادة حتى أن امرأته بعد ما تزوجها ما أتاها، هجرها من أول ليلة، فلمّا جاء عمرو بن العاص يسأل عن ابنه قالت: نِعْمَ الرجل هو، يعني لا يأتينا في الفراش في الليل ولا يجتمع معنا بالنهار، فهو في نهاره يكون صائماً وفي ليله يكون قائماً. عبد الله مع اجتهاده في هذه الطاعة جلس مجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يخرج عليكم اليوم رجل من أهل الجنة) يمشي بين أظهرهم، وفي المرة الثانية أيضاً يقول: (يخرج عليكم رجل يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله من أهل الجنة)، وفي الثالثة قام غيرة محمودة (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [المطففين:26]، فقام عبدالله بن عمرو بن العاص وتعقب مكان الرجل وذهب إليه وقال: كان بيني وبين أبي شيء أريد أن أبيت عندك؛ يريد أن يرى اجتهاد الرجل، فيفعل ما يفعل لعله يحظى بما حظي هذا الرجل، فلم يجد منه في الليل قياماً ولم يجد منه في صياماً. فقال له عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه-: والله إني سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول كذا وكذا وكذا، وإني نظرت في حالك فلم أجد كثرة صلاة ولا صيام، ماذا تفعل حتى يشهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لك بالجنة وأنت تمشي بين أظهرنا؟ قال: والذي نفسي بيده إني لأبيت وليس في قلبي لأحد من شيء. فإذاً الرجل نقاء قلبه أسرع به إلى ربه جلَّ في علاه، وشهد له

النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه من أهل الجنة، ومع ذلك ليست له كثرة صلاة ولا صيام.

فمدار الرفعة ومدار القبول عند الله جلَّ في علاه السريرة، وهذه لا يؤتاها أي أحد، لأن العلماء يقولون: مراقبة القلب هي أشق شيء على الإنسان، فالتدريب تدريب قلوب. أيضاً مدار المغفرة أو مدار تكفير السيئات بنقاء القلب، كما قال ابن القيم: حسنة صغيرة بنقاء القلب تصبح عند الله عظيمة، بل تكون كالجبال. فامرأة كانت بغي من بني إسرائيل تضاجع كل ليلة رجلاً، تفعل هذه المعاصي وهذه الفواحش، ومع ذلك ما فعلت خيراً قط غير أنها بلغ منها العطش ما بلغ فشربت، فنظرت فوجدت كلباً بلغ منه العطش مثلما بلغها، فأخذت موقها (خفها) فملأته ماء ثم سقت هذا الكلب، فشكر الله لها هذا العمل الدقيق فقط، شكر الله الله لها هذا العمل وغفر لها هذه الليالي التي كانت تضاجع الرجال فحشاً وزناً، غفر الله لها كل هذه السيئات بحسنة واحدة، لما تعاظم في قلبها من حب الله أو خشية الله أو رجاء الله جلَّ في علاه.

حديث البطاقة أشهر ما يكون، ما منا من أحد إلّا وسيأتي يوم القيامة له هذه البطاقة، وهذه البطاقة تشهد بتوحيد الإنسان، أنه قال: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله. قالها كل إنسان، وليس كل إنسان له هذه البطاقة، الرجل مشهور عند الناس هذا الحديث أنه كان له سجلات، هذه السجلات كلها سجلات معاصي وضعت في كفة، ثم علم الرجل أنه سيعذب أو هو من أهل النار، فجاءته النجاة ببطاقة، فقيل له: إنك لن تظلم، لا يظلم عندنا أحد اليوم. أخذ البطاقة فقال: وما تفعل هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فأخذ البطاقة وفيها "لا إله إلّا الله"، فوضعها في الكفة التي فيها الحسنات فطاشت على كفة السيئات. كما قال ابن القيم أيضاً ممحصاً للنظر في هذا الحديث: كل مسلم يقول "لا إله إلّا الله"، والفرق بعيد جداً بين قائل وقائل؛ فهذا يقولها وهي تستقر في قلبه، فهذا يقولها إخلاصاً لله جلَّ في علاه، فهذا يقولها صدقاً مع الله جلَّ في علاه، فهذا يقولها وهو يتدبر في معانيها ويطبقها قدر استطاعته، فلذلك كانت له نجاة.

فالمغفرة كل المغفرة أيضاً تدور على نقاء القلوب، وأروع الأمثلة التي تضرب في هذا الموقف الرجل الذي قتل مئة نفس، وما فعل شيئاً أيضاً، كل الذي فعله أنه سأل الراهب كيف يتوب؟ ثم مات، لا ذهب إلى أرض التوبة ولا فعل خيراً قط، وحتى ملائكة العذاب لمّا اختصمت فيه قالت: ما فعل خيراً قط، لكن كان فعله داخلي باطني، فعل بقلبه أنه خشي الله جلَّ في علاه ورجا الله جلَّ في علاه وامتلأ قلبه برجاء جلَّ في علاه، فأمر الله أرض الطاعة أن تقترب وأرض المعصية أن تبتعد، ثم أنجاه الله جلَّ في علاه بما في قلبه من نقاء.

والأحاديث كثيرة تثبت لنا أن الله قد غفر الزلات الجبال التي تصل إلى السماء بسبب نقاء القلب، هذا الرجل الذي وقر في قلبه خشية الله جلَّ في علاه قال لأولاده: فعلت ما فعلته في هذه الدنيا، إن أنا مت فاسحقوني ثم ذروري (يعني اجعلوه كالريح)، لئن قدر الله عليّ ليعذبني. ثم أمر الله الدنيا بأسرها أن تجمع شتاته، فجُمع فوقف أمام الله جلَّ في علاه فقال: ما حملك على أن تفعل ذلك؟ قال: خشيتك، وهذا عمل قلبي. فهو ما سجد لله سجدة، ما سارع بخير قط، ولكنه كان يخشى الله جلَّ في علاه، فلمّا علم الله من صدق قلبه أنه يخشى الله جلَّ في علاه غفر له زلاته ودخل الجنة.

أيضاً حتى لطلبة العلم البشرى؛ لكل طالب علم يجد نفسه لا يستطيع حل في مشكلات العلم، أقول تدرب على نقاء القلب ترتقي، ويمكن لك أن تكون أعلم أهل الأرض، ومدار المسألة على القلوب. ولذلك كان ابن عباس يقول: يؤتى المرء الفهم بنيته؛ والإنسان يكشف الله عن قلبه، فإن كان صادقاً يريد هذا العلم لله جلذَ في علاه ولنصرة دين الله جلَّ في علاه يؤتاه، حتى فهم المشكلات من العلم المسألة مدارها على نقاء القلب وعلى طهارة القلب. ولخطر وعظم مكانة القلب تكلم عنه باستفاضة، والآن إن شاء الله المسائل التي تتعلق بهذا الحديث.

أول هذه المسائل: قدرة الله جلَّ في علاه؛ إن الله على كل شيء قدير، ومن تمام قدرة الله ما من كبير ولا صغير ولا جليل ولا دقيق إلّا هو في قبضة الله جلَّ في علاه. (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) [الزمر:67]، وقد قال الله تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا) [نوح:13]، سبحانه جلَّ في علاه خلق المرء وحال بينه وبين قلبه، فمن تمام قدرة الله جلَّ في علاه أنه إذا شاء أن يزغ قلب امرئ أزاغه، وإذا شاء أن يقيم قلب امرئ أقامه. وهذه كما قلت من تمام قدرة الله، تجعل الإنسان يقف مسكيناً ضعيفاً ذليلا متمسكناً أمام ربه جلَّ في علاه يخشى الفتنة في ثانية واحدة، أن يقبضه الله جلَّ في علاه مفتوناً، أو يوفقه لعمل شر فيختم عليه به، أو يقلّب قلبه كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يصبح المرء مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً).

أما لكم في المهدي مثلاً يُضرب؛ المهدي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يصلحه الله في ليلة)، وعلى تفاسير بعض العلماء أنهم قالوا: ما كان من الصلاح بمكان، يعني كان في غير الصلاح فأصلحه الله في ليلة واحدة. فإن الله كل يوم هو في شأن، يقلّب قلب من يشاء يثبت على الحق، أو يزيغ قلب من يشاء. كما أتانا السؤال من قبل، السؤال واقعاً نعيشه، جاءنا السؤال: الرجل كان على الصلاح وكان على التقى واهتدى كثير من الناس على يديه ثم قتل، بل مات على فسق كما جاء السؤال. هذه من الله جلَّ في علاه، يملك قلوب العباد جل في علاه، وهذه الفائدة أن نتكلم عن قدرة الله، لا لنبين قدرة الله، فقدرة الله جليّة، الكون كله بمراميه الشاسعة يثبت لك قدرة الباري جلَّ في علاه،

لكن الكلام هنا في المعنى الإيماني هو أنك تعلم أنك لا تأمن مكر الله لحظة واحدة، فإن الله إذا كشف على قلبك وعلم أنك لست بصادق فإن الله يُزيغ قلبك في لحظة واحدة، بعدما يزيغ قلبك يثبته على هذا الزوغان والروغان، فتضيع أمام الله جلَّ في علاه تخسر الدنيا وتخسر الآخرة. فإذاً المرء عليه أن يتدبر ويعلم أن الله جل في علاه يزيغ قلبه من قدرته أو يثبته من قدرته، فيبقى خائفاً وجلاً، حاله مع ربه جلَّ علاه دائماً يقول: وعجلت إليك ربي لترضى.

الذين ينفقون ويتصدقون ويحسنون وقلوبهم وجلة، حسبت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- الذين فعلوا المعاصي، قال: لا والله، الذين قلوبهم وجلة هم الذين فعلوا الطاعات ويخشون ربهم جلَّ في علاه. لا يأمنون مكر الله جلَّ في علاه، يرد هذه الطاعات ولا يقبل منهم طاعة واحدة، ويزيغ قلوبهم في ثانية واحدة. فمن تمام قدرة الله أنه يحول بين المرء وبين قلبه، ولك أن تتخيل جميع البشر، كل قلوب البشر بين أصبع أو أصبعين من أصابع الرحمن، فما بالك بقدرة الله الجليل الجبار؟ ولذلك كان ابن عباس صح عنه أنه قال: الكون كله في كف الرحمن كحبة خردل في يد أحدكم، وهذه هي قدرة الله جلَّ في علاه.

المسألة الثانية: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يقلّب ويصرّف كيف شاء)، ولنا فيها نظران:

١- النظر الأول: هل الله جل وعلا يضل هذا ويهدي هذا لا لحكمة؟ لا والله، أو ظلم؟ لا والله.

❖ إن الله جلَّ في علاه ليس بظلام للعبيد، هذا أصل من الأصول الذي لابد أن تعرفها قبل أن تفسر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يهدي من يشاء ويضل من يشاء). أولاً الله ليس بظلام من العبيد، كما قال الله تعالى: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [فصلت:46]، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي يرويه عن ربه: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً)، ولذلك نقول لو أن الله قدّر أنه يعذب الملائكة والجن والإنس والحيوانات وكل الخلائق ما كان ظالماً لهم، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرّح بذلك كما في السنن بسند صحيح: (لو عذّب الله أهل السماوات واهل الأراضين ما كان ظالماً لهم)، لِمَ؟ لأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، الكون كونه والعبيد عبيده، وإذا شاء شيئاً قال له كن فيكون، هذا الأصل الأصيل الأول الذي لابد أن تعتقده قبل أن تفسر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يهدي من يشاء ويضل من يشاء).

❖ الأصل الثاني: إن مشيئة الله جل في علاه تابعة لحكمته، يعني لا تقيس البشر على الله أو لا تقيس الله على البشر، ممكن الإنسان من فرط حبه للإنسان يرفعه، ومن فرط

بغضه للإنسان يخفضه مثلاً أو يبتليه أو يمنع عنه الخير مع تأهيله للخير. ليس بين الله وبين عباده نسب كما بيّنا، إن الله جلَّ في علاه بمشيئته يتبع حكمته، والدلالة على ذلك آية واحدة في القرآن تجلّي لنا هذه المسألة الواضحة جداً، حتى لا يأتي متنطع ويقول: فإن الله أضل هذا وهدى هذا، لِمَ؟ أليس هذا ظلم؟ لِمَ أضل هذا ولِمَ هدى هذا؟ إذا قلنا بقدرته فقط خطأ، لأنه يقول يهدي هذا ويضل هذا. لِمَ هذا يضل ولم هذا يهدى؟ فنقول: إن الله جلَّ في علاه فعل ذلك بقدرته ومشيئته تابعة لحكمته، ومن حكمة الله جلَّ في علاه أنه يضع الشيء في موضعه، وأنه لا يمكن في عقل أن يقبل أن يسوي بين الظلمة وبين النور، بين الهداية وبين الفجور، بين البر وبين الفسوق.

آية واحدة تجلّي لنا مشيئة الله جلَّ في علاه أنها تابعة لحكمته، وهذه الآية لابد تنقشها على صدرك، حتى لا يحسبن أحد أن الله إذا أضل فلاناً أضله ظلماً وعدواناً -حاشا لله- أو إذا هدى إنساناً هداه محاباةً أو تقرباً أو تزلفاً -حاشا لله-. قال الله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام:53]؛ هذه دلالة واضحة جداً، عندما قال صناديد أهل الكفر أهل الرفعة والوجاهة والمال: (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا) [الأنعام:53]، فبيّن الله: نعم منن عليهم لا بهواء -حاشا لله-، لا عدوان ولا ظلماً عليكم، لا والله، (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ). كشف الله عن قلوبهم وعلم أنهم أهلاً لنعمته فحباهم هذه النعمة.

ولك أروع الأمثلة؛ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هم قالوا: (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف:31]، ومن أعظم من النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ لكن هو عند الله عظيم، (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا* وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) [الإنسان:27-30]، لا يمكن أن يقترب من الطاعة أو من غيرها إلّا بالله جلَّ في علاه. (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ)؛ كأن واقفا وقف قال: ربي تشاء لهذا وتترك هذا، لِمَ؟ فالإجابة تأتيه: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الإنسان:30]، شاء الله جلَّ وعلا لهذا الهداية لأن الله كان عليماً حكيماً، ثم أكدها (يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ) تابعاً لحكمته، (يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) نتيجة لأنها هداية من الله، (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [الإنسان:31]؛ وهذا أجلى ما يكون، فسر هذه الآيات بعضها ببعض، السياق يبين لك ذلك؛ الله جلَّ وعلا بيّن أنه يدخل من يشاء في رحمته، ثم بيّن لك أن هذه المشيئة تابعة لحكمته (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)، وبعد ذلك بيّن أن هؤلاء من الهدى بمكان وقال إنه فرّق بينهم وبين الطائفة الثانية لأن الطائفة الثانية ظالمون، قال الله تعالى: (وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا). كما قال الله تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36].

إذاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم- يقال: (يقلّب القلب كيف يشاء، إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه)؛ قلنا إن شاء أقامه رحمة من الله جلَّ في علاه، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه)، وقد قال الله تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]. فهذه المشيئة تابعة لحكمة الله، وأن الله يغار أن يضع اللؤلؤة الثمينة في يد من لا يعقل هذه اللؤلؤة، هذا النظر الأول.

٢- النظر الثاني في قوله: (من يشاء)؛ إن هذه المشيئة هي الإرادة الكونية، والإرادة إرادتان: إرادة شرعية وإرادة كونية. هنا في الحديث هذه الإرادة كونية، إذا أراد الله أن يقيم قلب عبد أقامه، ولا يمكن لو اجتمعت أهل السماوات والأرض على أن تزيغه فلن يزاغ، لأن الله أقامه وثبته، فهذه إرادة كونية.

وأمّا الإرادة الشرعية فهي تخالف الإرادة الكونية من أمرين:

- أولاً ضابط الكونية أنها تقع لا محالة، وتقع فيما أحبه الله وما لا يحبه الله جلذَ في علاه، وهذا ظاهر جداً في حديثنا. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن شاء)، يعني إن أراد أن يقيمه أقامه، وإقامة القلب على رضا الله وحب الله والذل لله والخوف والرجاء والتوكل على هذه الإرادة يحبها الله. فالشرط الأول فيما يحب وما لا يحب.

- الشرط الثاني لابد أن يقع، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أقامه) جزماً لا زوغان له. وفي الثانية أجلى وأوضح قال: (وإذا أراد أن يزيغ)، وزيغ القلب أبداً لا يحبه الله والدليل: (وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) [الزمر:7]، لا يحب لعبده الكفر؛ أبو لهب كان كافراً، والله لا يحب له الكفر يحب له الإسلام، والدليل من ناحية النظر أرسل له محمداً يتحبب إليه ويدعوه إلى الله جلَّ في علاه ويبيّن له ثواب الجنة لمن خاف ربه جلَّ في علاه وأناب. كل هذه أدلة تبين أن الله لا يحب كفر الكافر، لكنه يقدّر كوناً كفر الكافر لحكمة الله جلَّ في علاه.

هنا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإذا أراد الله أن يزيغ قلب عبد)؛ يحب أو لا يحب؟ لا يحب، إذاً أصبحت هذه من الإرادة الكونية لأن الإرادة الكونية فيما لا يحب الله جلَّ في علاه أو فيما يحب الله جلَّ في علاه، وهي تقع لابد أن تقع. قال: (أزاغه)، لو اجتمعت الأمة على أن تهديه لن يهتدي. الإرادة الأولى إرادة كونية، ضابطها أنها تقع لا محالة لا مرد لها، والضابط الثاني أنها فيما يحب الله وفيما لا يحب الله جلَّ في علاه. أمّا الإرادة الشرعية فهي فيما يحب الله؛ إذا قلت لك: إذا أراد الله أن يزيغ قلب عبد، قل لي هذه ليست إرادة شرعية لأنها فيما لا يحب الله جلَّ في علاه، فالإرادة الشرعية فيما يحب الله جلَّ في علاه فقط، وهي قد تقع وقد لا تقع.

هذه هي الأوامر الكونية والإرادة الشرعية، وشبيه بذلك القضاء الكوني والقضاء الشرعي، والإذن الكوني والإذن الشرعي، والأدلة في ذلك كثيرة، وقد فسرنا القول فيها سابقاً، فقط أبيّن لك مثلاً واحداً يضبط للأخوة الجدد هذه؛ قال الله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ) [الإسراء:23]، انظر في القضاء فهي أولاً فيما يحب الله، هذه ليست فاصلة نزاع، لأن القضاء الكوني والشرعي يحب أو لا يحب، فهي ليست فاصلة نزاع، فاصل النزاع بين القضاء الكوني والقضاء الشرعي هو: قد يقع وقد لا يقع يكون شرعي، لكن الكوني لابد أن يقع. قال الله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ)؛ كل البشر عبدوا الله وحده لا شريك له، ولم يكفر أحد البتة؟ لا، إذاً هذا ليس بكوني، هناك من آمن وهناك من كفر، فقد يقع وقد لا يقع، هذا هو الشرعي. فضابط الفاصل بين الشرعي والكوني: أن الكوني لابد لزاماً أن يقع، والشرعي قد يقع وقد لا يقع، هذا النظر الثاني في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (وإن شاء أقامه).

أمّا المسألة الثالثة: الخلاص؛ عندما علم العبد أن قلبه بيد الله جلَّ في علاه، يقيمه إذا شاء ويزيغه إذا شاء، فكيف يطمئن القلب أو كيف يسارع المرء حتى تختم له بالصالحات؟ أمران اثنان بيّنهما النبي -صلى الله عليه وسلم-:

- الأمر الأول: أن تناشد ربك بالدعاء، تتذلل لربك بالدعاء أن يثبّت قلبك ولا يزيغه، لأن هذه المسألة بيد الله فوجب عليك أن تتذلل لله ليل نهار، صباحاً في السجود ومساءً في القيام، لابد أن تقول: اللهم ثبت قلبي على دينك، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أعظم الخلق أجمعين، وهو الذي كرّمه الله جلَّ في علاه على الأنبياء والمرسلين، ليل نهار يدعو الله جلَّ في علاه: (يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك، ويا مصرّف القلوب صرف قلبي على طاعتك). ما دمت قد علمت أن القلب بيد الله يزيغه وقت ما شاء، (يمسي المرء كافراً يصبح مؤمناً، يصبح مؤمناً ويمسي كافراً)، فعليك ليل نهار تقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

- الأمر الثاني: عبادة الله بالمراقبة، تريث، وهذا الذي كان يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم- يذكّر نفسه دائماً قلبي بيد ربي يزيغه إذا شاء، يقيمه إذا شاء. كيف كان يذكّر نفسه؟ كان دائماً ما يقسم (لا ومقلب القلوب)، وهذا تذكير لنفسه وعبادة بعبادة المراقبة وعبادة الإحسان. دائماً تذكر نفسك ودائماً تراقب/ قلبي بيد ربي سيزيغه الآن يثبته الآن، فإذا علمت ذلك كلما كنت على معصية أقلعت، كلما كنت على خطيئة تبت وأنبت ورجعت لربك جلَّ في علاه، لان الله لو أزاغ قلبك وثبته على هذا الزيغ ضعت وخسرت الدنيا والآخرة. هذا آخر ما يقال في هذا الحديث.

الفوائد المستنبطة:

١- إثبات الأصابع لله جلَّ في علاه لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أضافها لله، قال: (القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن)، والمضاف إلى الله نوعان:

- يضاف إلى الله عين، وهذه العين قائمة بذاتها فتكون تشريف؛ الكعبة بيت الله، ناقة الله وسقياها، عيسى روح الله. عين قائمة بذاتها، فيكون الإضافة هنا ليست صفة للموصوف، لكن إضافة تشريف.

- وأمّا الثاني إضافة معنى، وإضافة المعنى بمعنى الصفة للموصوف؛ تقول: عزة الله، قدرة الله، سبحانه جلَّ في علاه.

وهنا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بين أصبعين من أصابع الرحمن)، فأضاف الأصابع للرحمن فتكون إضافة معنى، يعني إضافة صفة للموصوف، لكنها صفة خبرية.

٢- صحة القسم بفعل الله جلَّ في علاه، فإن الله يقسم بما شاء من خلقه؛ أقسم بالسماء وبالشمس وبالليل وبالضحى، وأقسم بعمر النبي -صلى الله عليه وسلم- (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الحجر:72]. وأمّا العبد لا يجوز له أن يقسم إلّا بالله: بذاته المقدسة أو بصفاته أو بأفعاله. من أين استنبطنا هذا الاستنباط؟ (لا ومقلب القلوب)، وهذا من أفعال الله جلَّ في علاه. فيجوز أن تقسم بفعل من أفعال الله، كما أنه يجوز أن تقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه.

٣- من عرف نفسه فقد عرف ربه؛ هذه الفائدة تستنبطها من ضعف الإنسان، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وقلب الإنسان كالريشة في مهب ريح)، تميل مرة هكذا وتميل مرة هكذا، تسقط هكذا ترتقي هكذا، دلالة على ضعف الإنسان وأنه عبد مفتّن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-. بل في هناك حديث صريح صححه كثير من العلماء هو (إن للعبد ذنب يعود إليه الفينة بعد الفينة)، خلق العبد مفتّن لكنه إذا روجع يرجع، وهذا هو خير الناس (خير الخطائين التوابون). فهذه دلالة على ضعف الإنسان، وأنه يفتن في لحظة أو يثبت في لحظة، فإذا عرف نفسه أنه مفتون وعلم نفسه أنه ضعيف، علم قدرة الله وعزة الله وتعاظم الأمر في قلبه فانقطعت رقبته وذلت نفسه لربه جلَّ في علاه، والنجاة في ذلك، إذ كمال العبادة بكمال الظلم مع كمال المحبة للخالق الواحد القهار.

٤- الفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، إذ ضابط الإرادة الكونية هو أنها تقع حتماً لا محالة وتقع فيما يحب وما لا يحب، والإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع وهذا فاصل للنزاع بين الاثنين، وأيضاً لا تقع إلّا فيما يحب الله جلَّ في علاه.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس التاسع والثلاثون: إن الله خلق خلقه في ظلمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وما زلنا مع كتاب القدر، باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق خلقه في ظلمة).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق خلقه في ظلمة):

عن عبد الله بن الديلمي قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله عز وجلّ)، وإسناده صحيح.

وعنه -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم نوراً من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله تعالى).

في صحيح مسلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما ذكر لكم) يعني من طين؛ فالله جلَّ في

علاه له في خلقه شئون وأعاجيب، خلق الملائكة من نور ولك أن تقول إن هذا النور يكون نوراً ظاهراً وباطناً، فحديث الصحيح عن أسيد أنه كان يقرأ القرآن ذات ليلة في السحر فأظلته سحابة بيضاء، هذه السحابة كما قص على النبي -صلى الله عليه وسلم- والنبي يقول له: (اقرأ)، يعني استرسل في القراءة (فإنها الملائكة)، فبيّن أن هذه السحابة البيضاء هي الملائكة. فهو نور في الظاهر ونور في الباطن، والباطن هو الأهم، فإن الملائكة على صفاء ونقاء عظيم، خلقهم الله جل في علاه لمهمة عظيمة ألا وهي تسبيح الله أو عبادة الله جلَّ في علاه.

فالملائكة خلقوا ليذكروا الله جلَّ في علاه، يفعلون ما يؤمرون ولا يعصون الله ما أمرهم، لا يتنزلون إلّا بأمره جلَّ في علاه، منهم الساجد والقائم، منهم المسبح الذاكر لله جلَّ في علاه، كما صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- قال: (أطت السماء وحق لها أن تئط) بمعنى الحديث ثم قال: (ما منها من موضع قدم أو شبر إلّا وفيها ملك ساجد وقائم وراكع) يذكر الله جل في علاه. قال الله واصفاً الملائكة: (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) [الأنبياء:20]، أو يلهمون التسبيح وذكر الله جلَّ في علاه. (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) [غافر:7]. ولله ملائكة خاصة يسيحون في الأرض يتلمسون مجالس الذكر ومجالس العلم ومجالس الطلب، يحتفون حول طلبة العلم يكتبون أسمائهم ويصعدون بها لله جلَّ في علاه يستغفرون لهم ويقال: هؤلاء القوم لا يشقى بهم جليسهم. وهناك الرسل الذين يوكلون بالرسالة فيحملون الهداية والنور للبشر، إمّا لرسول من الرسل التي اصطفاهم الله جلَّ في علاه ليبشر أو ليبلغ البشرية هذا النور وهذه الهداية.

فهذا الخلق الأول لا مسيس له بهذا الحديث، لكن إشارة إلى أن خلق الله تنقسم إلى قسمين: قسم ما خلقوا إلّا أنهم الهموا التسبيح وذكر الله جلَّ في علاه والخضوع والتذلل والمسكنة لربنا جلَّ في علاه، والقسم الآخر خلقهم الله في ظلمة ظاهراً وباطناً كالشياطين من الإنس والجن، بل كل الخلق في ظلمة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي كلكم ضال). فخلق الله كل عباده في ظلمة، ثم بعد ذلك بعث إليهم بأنواره سبحانه جلَّ في علاه على ألسنة رسله والآيات الباهرات في الكون العظيم، هذه أيضاً من الأنوار التي من أصابته هذه الأنوار اهتدى ونجا وفلح، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- هناك بعض الناس يتشرب هذا النور ويبعث في جسده كله حتى يذهب إلى ربه جلَّ في علاه راضياً مرضياً. وبعضهم ما يستطيع أن يقبل هذا النور، بل هو والنور ضدان، لا يمكن أن يقبله، فهذا الذي يتردى في المهالك والعياذ بالله.

فإذاً خلق الله جلّ في علاه الجن والإنس أو الثقلين في ظلمة بأسرهم جميعاً، الجن والإنس في ظلمة، ثم بعث إليهم بأنواره فمن تشرب هذا النور اهتدى ونجا، من لم يتشرب هذا النور كان كما قلت في التردي وفي المهالك. هذا مجمل معنى هذا الحديث العظيم، هذا الحديث العظيم فيه مسائل:

▪ المسألة الأولى: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خلق عباده في ظلمة)؛ هذه الظلمة هي ظلمات، نكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، فهو جمع ظلمات وليست ظلمة واحدة. وهذه الظلمات ظلمات الجهل، أم الطامات في هذه الظلمات وأشد الظلمات ظلمات الجهل، فقد خلق الله كل الخلق على جهل عظيم. الأصل في الإنسان أنه جهول، كما قال الله جلَّ في علاه: (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) [الأحزاب:72]، وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: يا عبادي كلكم ضال إلّا من هديته، يا عبادي كلكم جائع إلّا من أطعمته)، فالإنسان أفقر ما يكون إلى الله جلَّ في علاه. فمعنى قوله: (في ظلمة) أي في ظلمة الجهل، وهذه كفاها ظلمة وكفاها تيه وكفاها تردي، فإن الهالك على الله بحق هو الجاهل بحق، أبعد الناس على الله هو الجاهل، ولو تعبد لله جلَّ في علاه فإن بعبادته بالجهل يشرك بربه وهو لا يشعر بذلك كما سنبيّن.

قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يستنهض الأمة إلى البعد عن هذه الظلمة والتيه والتخبط فيها: (من يرد الله به خيراً يفقهه الدين)؛ إذاً من لم يرد الله به خيراً تركه في ظلمات الجهل. ولمّا احتضن النبي -صلى الله عليه وسلم- ابن عباس كافأه بمكافأة عالية جداً: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل). ولذلك علي بن أبي طالب يبيّن لنا البون الشافع بين العلم والجهل وبين أهل العلم وبين لأهل الجهل، بينهما مفاوت كما بين السماء والأرض؛ يقول علي بن أبي طالب: الناس على ثلاث: عالم رباني، وطالب علم على سبيل النجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور العلم ولم يؤووا إلى ركن وثيق، والركن الوثيق المقصود به هو العلم. لذلك ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- قال: كن عالماً أو متعلماً أو محباً لأهل العلم، ولا تكن الرابعة فتهلك.

ولذلك استقى بعض العلماء من هذه الأحاديث العظيمة ومن هذه الآثار، قالوا: الناس على مراتب أربع:

- عالم يعلم أنه عالم؛ هذا الذي خرج من ظلمات الجهل إلى نور الهدى. قال: عالم يعلم أنه عالم، فذاك عالم فاسألوه؛ هذا الذي تلتف حوله وتأخذه منه.

- وعالم لا يعلم أنه عالم؛ ذاك عالم فيه الخير وفيه النور، تشرب نور الله جلَّ في علاه، ذاك عالم التفوا حوله وذكروه حتى تستفيدوا منه، قال: ذاك عالم ناسي فذكّروه.

- جاهل يعلم أنه جاهل؛ هو في ظلمه لكن الفضل كل الفضل أن الله بفضله عليه أراه أنه في ظلمة ويحتاج إلى النور، ثم فتح له أبواب النور ألّا وهو باب العلم، فهذا الجاهل إذا تلمس نور العلم فاز ونجا واهتدى. فقال العلماء: والثالث جاهل يعلم أنه جاهل، فذاك جاهل (يعني في ظلمة الجهل رفقاً به) فعلّموه.

- جاهل لا يعلم أنه جاهل؛ هذا الذي يحسب أنه يحسن صنعاً، جاهل لا يعلم أنه جاهل فذاك أحمق فاتركوه. هذا يعني أفضل منه حمار الحكيم، الذي يدّعي الحكمة ولا حكمة عنده، والحمار ليل نهار يسمع الحكمة والفتاوى صباحاً ومساءً، ويقول في نفسه: لو كنت أتكلم بما يعقل البشر لقلت: لو أنصف الناس كنت أركبه، فجهلي جهل بسيط وجهل راكبي جهل مركب. هذا الذي كما قلت ضاع في ظلمات. ولك أن تتخيل ظلمات الجهل ماذا تنتج عند هذا الكاهن؟ يتربى في المهالك، يبعد عن ربه، يبعد عن سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، يبعد عن الصالحين ويقرب الفاسقين أو يتقرب من الفاسقين.

انظر إلى سير الصحابة وانظر إلى قصص الأنبياء والأمم من سلف، ستجد هلكى بأسرهم كلهم إمّا عابد جاهل وإمّا فاسق جاهل. انظر إلى برصيص العابد؛ كان عابداً يعبد الله جلَّ في علاه ليل نهار، لكنه كان على جهل فاستدرجه الشيطان فتردى في المهالك. وهذا الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، عندما ذهب يستفتي راهب عابد لكنه جاهل، يعبد على جهل. ولذلك ابن القيم يقول: العلم عند الفاسق أفضل بكثير من العبادة عند الجاهل؛ لأن الفاسق إذا رجع وآب، وله أن يعود ويؤوب لأنه سيعلم عظمة الله، كلمّا تراجع أو وقف يحاسب نفسه يعلم عظمة ربه جلَّ في علاه وسطوته ويعلم قوة الله وقدرة الله وجبروت الله، فيستكين فيتذلل فيخضع فيتقطع قلبه ويتفطر ويقول: لولا رحمة الله تدركني لهلكت؛ هذا العالم فيرجع رجوعاً صحيحاً. أمّا العابد الجاهل هو يشرك بالله جلَّ في علاه، ولا يدري أنه يشرك بالله جلَّ في علاه.

هذا الرجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسقاً وفجوراً، وكان مع بيئة لا تحثه على طاعة الله جلَّ في علاه، لمّا ذهب للراهب عابد ليل نهار، (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) [الغاشية:2-3] تسجد وترتفع وتصوم وتفعل الخير، (عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً) [الغاشية:3-4] لأنها ما تعبدت على بصيرة ولا على علم. فلمّا ذهب إليه الرجل يسأله قال: ألي توبة؟ قال: ليس لك توبة. الرجل تسعة وتسعين نفساً قتلهم، لكنه لا يقنط من رحمة الله جلَّ في علاه، ولا يقنط من رحمة الله إلّا الخاسرون الفاسقون. فهذا الرجل خسر الدنيا والآخرة، قال له: قتلت تسعة وتسعين نفساً ليس لك توبة، هذا خسر الدنيا وخسر الآخرة، لِمَ؟ لوسمه بالجهل لأنه لم يتعبد بالعلم، ما نفعته العبادة ليل نهار، جهله أرداه الى الهلاك. هذا الرجل لمّا أفتى بغير علم وقال: لا توبة لك، قتله الرجل. إذاً النتيجة أولاً خسر الدنيا بسبب جهله العميق بأن قتله لأنه قنّطه من رحمة الله، خسر

الآخرة لأمرين اثنين: الأمر الأول أنه تألى على الله وقنط عبد الله من رحمة الله، الأمر الثاني قد أساء الظن بربه جلَّ في علاه أنه لا يقبل التوبة. كيف ذلك؟! والله لو بلغت الذنوب إلى عنان السماء ورفع العبد يده وهو يستغفر مستكيناً متذللاً كما قلنا، قبل الله التوبة. فأساء الظن بربه أولاً لأن الله بأن يقبل توبته، ثم تعدى إلى الغير فقنّطه من رحمة الله جلَّ في علاه، فأراح الرجل والحمد لله هذا الرجل من الدنيا، أراح الدنيا كلها من هذا الرجل فقتله، وتردى هذا، ما تردى إلّا بسبب جهله، فهذه ظاهرة جداً أن الجهل هو الذي أودى بهذا الرجل إلى المهالك.

لو نظرت في سير الصحابة تجد أن هناك أناس قد قاموا الليل وصاموا النهار وأنفقوا المال الوفير وزهدوا في الدنيا بأسرها وهم من كلاب النار بنص كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-، من؟ الخوارج؛ الخوارج هؤلاء ضيقوا رحمة الله جلَّ في علاه وحجّروا واسعاً، وكانوا يقرأون القرآن يقومون الليل يصومون النهار. لك في وصف ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- عندما ذهب يناظرهم قال: وجدت وجوه مصفرة، من شدة قيام الليل والصيام، وكانوا يقرأون القرآن ليل نهار حتى أن ابن عباس تعجّب، لكن كان الجهل يطوقهم؛ فكانوا يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الكفر، وكانوا يتجرؤون على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فسيدهم وإمامهم وقدوتهم دخل على رسول الله متجرئً ويحسب أنه يشيع العدل بين الناس، ويقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: يا محمد اعدل إن هذه ليست قسمة ترضي وجه الله جلَّ في علاه. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (دعوه، إنه يخرج من ضئضئ هذا الرجل أقوام يقرأون القرآن لا يبلغ حناجرهم)، لا يبلغ الحناجر، هم يقرؤونه، يهرفون بما لا يعرفون، هذا هو الجهل، فالجهل جعلهم يتردون يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الكفر.

على النقيض لو نظرت إلى المرجئة، تراهم بعدما هؤلاء قنّطوا الناس من رحمة الله جلَّ في علاه، هؤلاء قد تجرأوا على رحمة الله ففتحوها على مصراعيها وقالوا: إيمان الصالح كالطالح والبر كالفاجر، الذي يصوم النهار ويقوم الليل مثل الذي يفعل الفاحشة أو يزني. فهؤلاء في تيه وتخبط من الجهل بمكانة، وهؤلاء من الجهل بمكانة. انظروا إلى هذه الظلمة العظيمة، قد خلقهم الله في هذه الظلمة وهم ما زالوا فيها، ظلمة الجهل.

وأمّا الظلمة الثانية وهي ظلمة التردي، أيضاً ظلمة الشبهات والشهوات، والنفس الأمارة بالسوء ولا أحد يرتقي عنها. ونسأل الله أن يغفر لنا زلاتنا وسقطاتنا وألّا يتركنا لأنفسنا ولا للشيطان، إن لم تدركنا رحمة الله جلَّ في علاه فنحن سنضيع. قال الله جلَّ في علاه مبيّناً هذه المسألة العظيمة على لسان امرأة العزيز: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) [يوسف:53]، وقد قال الله تعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا) [النور:21]، وصح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من

ضمن لي ما بين لحييه وبين فخديه ضمنت له الجنة). ففتنة الشبهات والشهوات أيضاً ظلمات، لا يخرج منها العبد إلّا أن يتلّمس أنوار العلم والهدى من الله جلَّ في علاه فينقذ من هذا التردي، هذا معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق عباده في ظلمة).

▪ الشق الثاني والمسألة الثانية وهي مسألة مهمة جداً، ألا وهي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فألقى عليهم نوراً من نوره)، ثم قال: (فمن أصابه من ذلك النور)؛ من المصاب ومن الذي أصاب؟ قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فأصابه ذلك النور) فيه إشارة لهدايتين؛ النور بذاته هداية الإرشاد، إذ الهداية أربع مقامات سنتكلم عن مقامين هنا استنباطاً من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فألقى عليهم نوراً)، يسأل المرء ما هذا النور الذي إذا ألقي على العبد نجا من المهالك وفي المآل كان في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر؟

أولاً النور الأول هو هداية الإرشاد، إن الله جلَّ في علاه أنزل نوراً ووكّل رسلاً لبعث هذا النور ينتشر وسط الناس، هذا النور هو هداية الله جلَّ في علاه بالرسالة وبالآيات الكونية وبالآيات المتلوة. إن الله جلَّ في علاه أرسل الرسول بشارة ونذارة؛ قال الله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل:36]، هذا النور الذي بعث به، وأيضاً قال الله تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [المائدة:16]، والله جلّ في علاه: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر:24]، (وَلِكُلِّ قَومٍ هَادٍ) [الرعد:7]. فما من قوم إلّا وبعث الله لهم نوراً يهديهم إلى طريق الرشاد.

هذا معنى الهداية الأولى وهي هداية الرشاد، هداية البيان، هداية الدلالة، أن الله جلَّ وعلا يدلل على الطريق المستقيم الذي إذا سار على دربه المرء وصل إلى الله جلَّ في علاه. هذا الأول تفسيراً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فألقى عليهم نوراً)، يعني هداية الدلالة من الكتاب أو التوراة أو الإنجيل أو الآيات الباهرات التي في السماء أو في الأرض تدلل على وجود الله جلَّ في علاه، أو الفطرة السليمة أو العقل أو الشرع أو السمع الذي يدل على وجود الله وربوبية الله وجبروت الله وقدرة الله وعظمة الله جلَّ في علاه.

الثانية؛ قال: (فمن أصابه) يعني النور الذي أصابه، هذه تدلنا على الهداية الثانية وهي هداية التوفيق وهداية السداد. الأولى هداية الإرشاد، هذه من الله جلَّ في علاه إنزالاً ومن الرسل تبليغاً؛ فهذه يملكها الرسول الملكي، ثم الرسول البشري، ثم ورثة الرسل الذين هم العلماء، ومعهم الدعاة لكن الدعاة لا يرثون من النبي إلّا شيئاً واحداً وهو التبليغ، لكن العلم هو الذي يورَّث، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (العلماء هم ورثة

الأنبياء)، والتفسير يأتي قال: (وإن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورّثوا العلم). فالفارق بعيد بين طالب العلم وبين الداعي، بينهما عموم وخصوص، وإن كان هناك بعض التلازم بينهما؛ فالداعي المخلص هو الذي يرشد الناس إلى الطريق القويم، والعالم هو الذي يعلّمهم ويؤصل ويخرّج منهم من يحمل هم الأمة، فالفارق بعيد والبون شاسع كما بين السماء وبين الأرض.

فالأولى يحملها هؤلاء وهؤلاء، والثانية لا تكون إلّا لرب العباد "هداية التوفيق والتسديد"، هذه هداية القلوب.

مناقشة: القلوب يملكها جبريل دون إسرافيل وميكائيل دون غيره، قال الله تعالى: (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) [الانفطار:12]، وهذا العلم لا يكون إلّا بالتحكم؟!! أما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن للشيطان لمة، وإن للملك لمة)، ولمة الملك تسديد القلب وهدايته إلى الخير. أما رأيتم الناصح الأمين لسليمان -عليه السلام- وكانت عنده تسعة وتسعين امرأة، قال: سأطوف عليهن الليلة كل امرأة تلد واحداً يجاهد في سبيل الله، فماذا قال الملك له؟ قال: قل إن شاء الله. فإذاً هداية القلب بيد بعض الملائكة دون بعض، أو بعض الكتبة. هل هذا خطأ؟ هذا وهم؟

الحديث الصحيح: (قلب المرء بين أصبع من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء)، يعني التقليب هذا يصير مؤمناً ويصير كافراً، هذا بيد الله، وأنا معكم، لا أحد يستطيع أن يقول غير ذلك. لكن هذا لا ينفي أن الملائكة تسدد وتهدي القلوب؛ (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)، (للملك لمة) يسدد القلب؟!!

هناك آية تفصل في النزاع؛ قال الله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) [القصص:56]، لو كان في الملائكة تدخل بين الله وبين الرسول لبيّنه لأنه جعلها مطلقة: (وَلَكِنَّ اللَّهَ)، فقط وحده هو الذي يهدي من يشاء، يعني يهدي القلوب، فهداية القلوب يملكها الله جلَّ في علاه. فقال: (فأصابه هذا النور)، يعني الله أصاب القلب بهذا النور، فتلألأت هذه الأنوار في قلب العبد فعلا إيمانه فاقترب من ربه جلَّ في علاه، وهذه الهداية الثانية التي لا يملكها أحد بحال من الأحوال إلّا الله جلَّ في علاه.

▪ أمّا المسألة الثالثة وهي ختاماً لهذا الحديث؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (جف القلم على علم الله عز وجلّ)، بمعنى إن الأمور قد انتهت كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فرغ ربكم من العباد). كل شيء دقيق وجليل، صغير وكبير، قد كتب عند الله جلَّ في علاه، كتبه الله قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

الفوائد المستنبطة:

١- شدة فقر الإنسان ففقره ذاتي، وعظمة غنى الرحمن فغناه ذاتي. فإذا كان العبد فقره فقراً ذاتياً، وإن كان الرب -وأستغفر الله على أنني قدّمت ذكر العبد لمصلحة- غناه غنىً ذاتياً، يعلم العبد كيف هو أحوج ما يكون وأذل ما يكون وإعوازه الشديد لربه الكريم أن يهدي قلبه وأن يسدده على الطريق القويم. والله والذي نفسي بيده، أصلح الناس لو ترك لنفسه هلك، ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أفقه الناس في هذه المسألة يقول: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (وإن أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)، ولطالما كان يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تتركني لنفسي طرفة عين)، (حسبي الله لا إله إلّا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

فهذه كلها تدل على فقر العبد الذاتي مع معرفته بغنى الرب الذاتي، أمّا الجاهل الذي لا يعلم فقره الذاتي وغنى الرب الذاتي لم يصل إلى هذه النجاة بحال من الأحوال. هذه يترجمها حديث الصحيح، أشرف حديث عند أهل الشام؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي).. في آخر الحديث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا عبادي كلكم ضال إلّا من أهديته، كلكم جائع إلّا من أطعمته، فاستهدوني أهدكم واستطعموني أطعمكم)، وقال في النهاية: (فمن وجد خيراً فليحمد الله)، (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، (ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه).

٢- قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من نوره)، وهذه فيها أم العقيدة وأسها وأصلها وأساسها. كيف تستخرج أصول العقيدة من هذه الكلمة فقط؟

(من نوره)؛ الإضافة إلى الله جلَّ في علاه، والمضاف إلى الله نوعان: إضافة معنى وإضافة عين؛ إضافة المعنى تكون إضافة صفة، وإضافة عين تكون إضافة تشريف. (من نوره) هذه الإضافة إضافة معنى وإضافة عين:

- أمّا إضافة المعنى: فإن القرآن إضافة معنى، وقد سمّاه الله نوراً، والقرآن كلام الله، قال الله جلَّ في علاه في سورة المائدة: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) [المائدة:15]، وهذا النور هو ترجمة الكتاب، العطف هنا تفسير وممكن نقول عطف عموم وخصوص، فالكتاب والقرآن نور. فإذاً هذه إضافة معنى لأن الكلام ليس بعين، والكلام صفة لله جلَّ في علاه وهي صفة ذاتية ثبوتية. هو النور صراحةً هو كلام الله

جلَّ في علاه، سمّاه الله نوراً في أكثر من موضع، وقد بيّنا. فهنا النور كلام الله، وهو معنى، وإضافة المعنى لله إضافة صفة للموصوف.

- وأيضاً هي إضافة عين، لأن النور معناه الآيات الباهرات التي يستدل بها المرء على وجود الرحمن؛ فالقمر نور، والشمس نور، والنجوم التي تتلألأ في السماء نور، العالم العلوي بأسره نور والعالم * السفلي نفسه نور. وهذا النور مضاف إلى الله جلَّ في علاه، يكون النور هنا إضافة مخلوق إلى الخالق، إضافة عين لله جلَّ في علاه، والأصل فيها نسبت إلى الله تشريفاً.

فمعنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: (من نوره). تدخل في المعنى وتدخل أيضاً في العين؛ فهي تحمل المعنى وهو الصفة، وتحمل أيضاً إضافة التشريف.

٣- هذا الحديث في رد قوي على الجبرية؛ قال: (اهتدى) وقال: (ضل)، فنسب الهداية له ونسب الضلال له، والجبرية تقول: لا عمل للإنسان. نقول: لا، إذا أصابه النور اهتدى وسار على نهج أهل الهدى، وإذا أخطأ هذا النور فإنه يسير على درب أهل التردي والفسق والفجور والعياذ بالله.

٤- صفة الخلق لله وهذه الصفة صفة فعلية، يعني تتعلق بمشيئة الله وتتجدد، إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق. هي ذاتية فعلية، لكن نقول فعلية لأن الأصل أنها ذاتية، فبالنسبة لأي صفة فعلية نقول هي قديمة النوع حادثة الإفراد.

٥- الفرق بين هداية الإرشاد وهداية التوفيق والتسديد؛ هداية الإرشاد والبيان من قوله: (فألقى عليهم نوراً) هذه هداية إرشاد، و(أصابه) هداية توفيق والسداد. فالفرق بينهما أن هداية الإرشاد والبيان والدلالة يدخل فيها الملك والرسول ويدخل فيها العالم ويدخل فيها الداعي، أمّا هداية التوفيق والتسديد لا يملكها أحد إلّا الله لأن الله حكيم يضع الشيء في موضعه، (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36]، وربك يغار أن يضع اللؤلؤة الثمينة في قلبٍ لا يعرف معناها.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، جزاكم الله خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الأربعون: لو أن الله عذب أهل سماواته وأرضيه لعذبهم وهو غير ظالم لهم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عن ابن الديلمي قال: لقيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله -صلى عليه وسلم- يقول: (لو أن الله تعالى عذّب أهل سماواته وأرضيه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لرجلٍ أحدٌ مثل أحدٍ ذهباً ينفقه في سبيل الله لا يقبله الله عز وجلّ منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإنك إن مت على غير هذا أُدخلت النار)، وإسناده صحيح. وفي زيادة قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل قوله، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل قوله، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل ذلك.

وعن أبي الدرداء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)، وهو حديث صحيح.

وعن شبيب قال: سمعت أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)، وإسناده حسن.

وعنه -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله قبض قبضة فقال: للجنة برحمتي، وقبض قبضة قال: للنار ولا أبالي)، وهو حديث صحيح.

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن العبد يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً، وإن العبد ليعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقياً، وإن العبد ليعمل برهة من دهره بالشقاء ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيداً)، وإسناده ضعيف ولكن معنى الحديث صحيح بشواهده.

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يا عائشة، جعل الله للجنة أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وجعل للنار أهلاً وهم في أصلاب آبائهم)، وإسناده حسن. وعنها -رضي الله عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن العبد ليعمل الزمان الطويل من عمره بعمل أهل الجنة وإنه عند الله لمن أهل النار، وإن العبد ليعمل الزمان الطويل من عمره بعمل أهل النار وإنه مكتوب عند الله من أهل الجنة)، وهو حديث صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله تبارك وتعالى خلق خلقه، خلقهم في ظلمة قبل أن يستقروا نطفاً)، قال: (فأخذ الله إلى نوره فألقى عليهم، فمن شاء أن يصيبه من ذلك النور اهتدى ومن شاء أن لا يصيبه ضل)، وإسناده ضعيف جداً.

وعن يوسف بن أبي بردة عن أبيه -رضي الله عنه- قال: أتيت عائشة فقلت: يا أمتاه حدثيني شيئاً سمعتيه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قالت: (قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: الطير تجري بقدر، وكان يعجبه الفأل الحسن)، وهو حديث حسن.

هذه الأحاديث يدور فلكها في الكلام على هذا الباب العظيم، الركن الركين من الإيمان، ألا وهو باب القدر وأنه لا يستقيم إيمان عبد إلّا به، ومن لا يؤمن بالقدر يكون عند الله جلَّ في علاه غير مؤمن. دخل جبريل -عليه السلام- يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان، فأجابه بأعظم ما فيه، فأجابه بأركان الإيمان فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته .... إلى أن قال: وتؤمن بالقدر خيره وشره). وأيضاً عن ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- كما في صحيح مسلم أن رجلا اكتنفه هو وآخر فقال: أناس يتكلمون في القدر يقولون الأمر أنف، فقال ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه-: أبلغهم أني منهم

براء وهم مني براء، لو انفقوا مثل أحد ذهباً ما تقبّل من أحدهم حتى يؤمنوا بالقدر. والرواية هنا صريحة أنك إن لم تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك دخلت النار على ذلك، كما قال الرجل لابنه وأوصاه بالإيمان بالقدر.

فالإيمان بالقدر هو ركن ركين من هذا الدين، وهو الركن السادس الذي من لم يؤمن به لا يدخل الجنة ولا ينجو من عذاب ربه جلَّ في علاه. وصحت الآثار على أن القدرية هم مجوس هذه الأمة، هم الذين يقولون الأمر أنف. ولذلك حذّر الشرع قال: إذا مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تتبعوهم، لأنهم يدخلون في هذا الباب لا يسلمون لأمر الله جلَّ في علاه. والقدر هو قدرة الله جلَّ في علاه، وأيضاً الأحاديث الأخرى بيّنت أن الله قد فرغ من العباد، كتب لأهل الجنة ناسها وكتب لأهل النار ناسها، وكل ذلك تابع لحكمة الله جلَّ في علاه.

ثم الأبواب التي بعدها شرحناها تفصيلاً؛ أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وحتى يسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل النار فيختم له فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويكون منافقاً في الباطن، حتى يسبق عليه الكتاب فيكون من أهل النار والعياذ بالله. اليوم نتكلم عن حديث عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، هو آخر هذه الأبواب، الذي قالت فيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الطير تجري بقدر الله).

كل شيء قد خلقه الله جلَّ في علاه وقد كتبه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعنى أن تقول: (الطير تجري بقدر الله) أن الطير لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، وهذه طبعاً تنوه لنا وتومئ لنا بأمر مهم جلل، بعقيدة كانت خربة في الجاهلية، جاء الإسلام ليمحو هذه العقيدة ويصححها، هذه العقيدة هي عقيدة التشاؤم أو التطيّر. التطير: تطير طيرة أي تشاءم، يعني رده التشاؤم عن شيء أراد أن يفعله أو دفعه بشيء يريد أن يفعله كما سنبيّن في الفأل. فالدفع يكون في الفأل، الإحجام يكون بالتطير أو التشاؤم.

هذا كان في الجاهلية، بل كان أيضاً في الأمم قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-، في أمم موسى وصالح وشعيب، كانوا يتطيرون بكل شيء. أصل التطير كان من الطير، ينظرون إلى الطير؛ إذا ذهب يميناً تيمنوا وقالوا نذهب، إن كان سفراً، إن كان زواجاً، إن كان تجارة بيعاً أو شراءً فعلوا ذلك. وإن ذهب شمالاً تشاءموا فأوقفوا الزواج أو التجارة أو غير ذلك. فكانوا يتطايرون بالطير، ثم ارتقى هذا الأمر عندهم بالشجر والحجر والإنسان وكل شيء. وأراذل للناس كانوا يتطيرون بأفاضل الناس، بالنبيين وبالمرسلين، وهذا حدث في قوم موسى عندما أصابتهم البلايا، قالوا لموسى: إنا تطيرنا بك، وأيضاً قوم صالح لصالح قالوا نفس الأمر. وأيضاً ارتقوا إلى النبي -صلى الله عليه

وسلم-؛ (إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ) [النساء:78]، يتطيرون برسول الله. فأراذل الناس يتطايرون بأفاضل الناس، وما زلنا نرى ذلك، يعني في كثير من الناس إذا رأوا الرجل صاحب الهيئة السنية التي تتبع النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول أنا أتشاءم من رؤية مثل هؤلاء، لا أحبهم، يأتون بالفقر. يتشاءمون بالأفاضل ويشابهون أمثالهم في الجاهلية كانوا يتشاءمون برسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وكما قلت اتقى بعد ذلك إلى الحجر والشجر وغير ذلك من العجائز والغراب والبوم على ما سنفصل.

هذه العقيدة الخربة فيها ضلال في القدر، من آمن بالقدر لا يتشاءم، ومن ضل في باب القدر يدخل في قلبه هذا التشاؤم، وهو مذموم شرعاً وعقلاً وفطرةً؛ أمّا في الشرع فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عنه أو نفاه، والنفي يتضمن النهي، حيث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر)، والصراحة أن هذا النفي يتضمن النهي، يعني لا تتطيروا فإن حرام، وهذه تدل على أنها من الكبائر. وأيضاً صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك)، يؤكد أن هذا من أفعال الجاهلية، وهو شرك على ظاهره.

ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له أو تَكَهَّن أو تُكهِّن له) ... إلى آخر الحديث، ما يفيد هذا اللفظ من النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له)؟ ما معنى (تطيَّرَ أو تُطيِّر له)؟ ثم بيّنوا لي إفادة هذا اللفظ من النبي؟ كثير من الناس إذا رأى عجوزاً يقول: هذا عجوز النحس، لا أسير ولا آتي ولا أفعل شيئاً، أو الغراب أو البوم. نقول لهم بصريح قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تفعل، إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له).

(تطيَّر)؛ كما قلنا سمع البوم وكاد يسافر قال: هذا نذير شؤم لا أسافر. (تُطيِّر له)؛ قال رجل: أين تذهب؟ يقول: أذهب إلى التجارة الفلانية، فيقول: لا رأيت رؤيا أمس فيها كذا وكذا، مرت من أمامك هذه المرأة وما مرت أمام أحد إلّا وخسر، فيقول: أعوذ بالله لا أذهب؛ هذا الذي تُطيِّر له. ما يفيده حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له)؟ النفي هنا نفي كمال الإيمان وليس نفي أصل الإيمان، لكننا قعّدنا قاعدة مهمة جداً تضبط لنا ضابطاً معيناً بهذه اللفظة: إذا كان نفي الإيمان، نفي أن يكون منا أو على هدينا تدل على أن الفعل هذا كبيرة. (ليس منا)؛ إذاً هو أتى بكبيرة، من تشاءم من أحد، من انقبض قلبه من أحد أو انقبض قلبه رده على الفعل أو دفعه للفعل هذه دلالة على أنه وقع في كبيرة ولابد أن يتوب منها توبة نصوحة. فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له)، وقد قال النبي -صلى الله عليه

وسلم- تصريحاً: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك)، وقال: (أصدقها الفأل) كما سنبين.

إذاً الطيرة كبيرة من الكبائر، بل هي شرك كما سنبيّن، وهي من أفعال الجاهلية، ومن تطير لم يؤمن بحق الإيمان المطلوب منه أو الإيمان الواجب بقدر الله جلَّ في علاه لأنه سينجر إلى سوء الظن بالله.

ما حكم الطيرة؟ أقول الطيرة لها أحوال:

▪ الحالة الأول: خاطرة في القلب؛ يرى الرجل المرأة التي ما رآها إلّا وحدثت له مصيبة، فلمّا يراها يعتمل في نفسه هذه المرأة شؤم، ما أريد أن أفعل عندما أراها، فيعتمل في قلبه.

▪ الحالة الثانية: بعد ما يعتمل في قلبه وتكون خاطرة تصبح عزماً فلا يسافر، فلا يتاجر، فلا يتزوج يوقف العمل من أجلها. وفي هذه الحالة يقول هذه المرأة سبب في البلاء، ما يقول هي البلاء أو هي التي تجلب الخير وتدفع الضر، لا، يقول هذه سبب وهذه علامة على البلاء. أو إذا رأى الغراب قال: هذه دلالة على أن الشؤم سيأتيني أو البلاء سيأتيني، يجعله سبباً.

▪ الحالة الثالثة: بعدما جاءت الخاطرة وجاءت أن يتطير المرء، ولذلك وهذا الذي جر بعض الفقهاء أن يقول: الطيرة على الكراهة وليس على التحريم.

الحديث ظاهر جداً في السنن عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (الشؤم في ثلاث)، والشؤم معناه التطير، قال: (الشؤم في ثلاث: في المرأة والدابة والدار)، هذا قال فيه العلماء يجوز التطير في هذه الأحوال.

- المرأة بالاستقراء يعني المرأة العاصية، هذه شؤم، إذا دخلت عليها رأيتها ما تعينك على طاعة، إن رأتك على طاعة ما سددتك، وإن رأتك على اعوجاج ما قيّمتك، لا تعينك ولا تسددك بل هي تجرك دائماً إلى الشرور والآثام. أين الطعام؟ أين الشراب؟ أين الثياب؟ أين السيارة؟ أين تغيير البيت؟ امرأة ليل نهار لا تطلب إلّا ما يجحف المسألة على المرء، يجعله يقع في الحرام دون أن يدري.

- وفي الدار؛ الدار الضيقة لا تستطيع أن تستضيف أحداً، كلما استضفت أحداً وجدت في نفسك الحرج، فهذه أيضاً تؤدي بالمرء إلى التشاؤم.

- والثالثة الدابة؛ السيارة تأخذها لتقود السيارة إلّا وقفت، أخذت البرشام ووضعته لا تسير، الماء لا تسير، ما في إلّا أن يحملها أحد ويسير معك، فأنت ما تستطيع أن تسير

بهذه السيارة، فتتشاءم فتسب فتتطير فيحدث معك ما يحدث، تتعطل عن الطاعات، هذه أيضاً فيها شؤم.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الشؤم في ثلاث: في الدابة، في الدار، في المرأة)، وهذا يدل على الجواز، مع أننا قررنا آنفاً أن التطير حرام، فكيف نجمع بين الحديثين؟ وهذا قال به بعض الفقهاء؛ قال: التطير ليس بحرام، التشاؤم ليس بحرام، هو وسيلة للحرام فلذلك هو على الكراهة. واستدلوا بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الشؤم)، يعني التشاؤم، نعم من تشاءم في المرأة وفي الدار وفي الدابة يصح هذا التشاؤم ولا ينكر عليه ولا يدخل في محل قوله -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له). ما رأيكم في استدراك عائشة على أبي هريرة، هذا بيّن جداً في مسألة ولد الزنا، (شر الثلاثة ولد الزنا)؟

التوجيه ثلاث توجيهات:

- التوجيه الأول: هو استدراك عائشة لأنه الأقوى ونقدم فهم عائشة على فهمنا، أنها قالت: رحم الله أبا هريرة أنه قال: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال كذا وكذا، إن أهل الجاهلية كانوا يقولون: الشؤم في ثلاثة: الدابة والمرأة والدار. فدخل أبو هريرة على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الشؤم في ثلاثة). ويبقى الاستدراك أنها قالت: إن أهل الجاهلية كانوا يقولون ذلك؛ وأهل الجاهلية يقولون ذلك، فجاء النبي يصحح كلام أهل الجاهلية، جاء يصحح لهم هذا الكلام ويقول: لا شؤم لا في المرأة ولا في الدابة ولا في الدار، (لا عدوى ولا طيرة)، (الطيرة شرك)، وهذا أقوى الأوجه.

- التوجيه الثاني: أننا نقول الأصل العام "لا تشاؤم"، لكن هناك أشخاص خلق الله فيهم بعض الشرور، ما تراهم إلّا والشرور معهم، كالمرأة الطالحة والدابة المتعرجة وأيضاً الدار الضيقة. وهذا كلام صحيح، لكن الأصل أنه لا تشاؤم، لكن هؤلاء بذواتهم ذوات لا خير فيهم؛ كما يقولون هذا الرجل رزقه الله ولداً مباركاً، لا يدخل إلّا باليمن والبركة، ما يهل إلّا بالخيرات، الله جلَّ وعلا دائماً يجعله سببا لفتح الأبواب. الآخر ما يأتي إلّا بالشرور، ما يأتي إلّا بالقضايا، ما يأتي إلّا بالعربدة، ما يأتي إلّا بكذا وكذا.

- والثالث هو التوجيه الأخير: لو كان ثمة شؤم، فإن الشؤم لا يكون إلّا مصدره من امرأة لأنها تلح كثيراً على الرجل، وهي التي تغري الرجل عن الجادة وتحيد به عن طريق الله جلَّ في علاه، أو الدابة التي تضيق عليه عمله أو تضيع عليه طاعته، أو الدار التي تحرجه دائماً إذا استضاف أحداً.

فإذاً معنى الحديث لو كان هناك شؤم، والأصل أنه لا شؤم، لو كان لن يكون إلّا في امرأة طالحة ليست صالحة، أو في دابة، أو في دار. هذه المسألة الأولى تتعلق بمسألة الطيرة.

الأمر الثاني؛ قلنا الطير بأسرها حرام، كبيرة، شرك، إلّا شيئاً واحداً من الطيرة ألا وهو الفأل، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سئل عن الطيرة قال: (الطيرة شرك، وأصدقها الفأل [كأن الفأل منها]، فقالوا: يا رسول الله ما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة). هذه النفوس تقبلها، حتى أنت ترى كثير من العرب كانوا من التفاؤل يغيرون أسماء المرضى أو المفاوز، يعني إذا ذهبوا وسافروا في أرض قحلة قف يقولون: مفازة، يعني يستبشرون أنهم يعني سيتجاوزونها. أيضاً اللبيغ؛ عقرب أو نقول حية لدغت أحد، ماذا يسمونه؟ سليم. وأيضاً الأعمى ماذا يسمونه؟ بصير. فهم يستبشرون بذلك، فهذه فطر سليمة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحب الفأل جداً، ولذلك كما في المسند: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا سار بسرية يحب أن يسمع: يا ناجح، يا نجيح، يا راشد، يا رابح. فكان إذا جهّز سرية وأمّر عليهم أحداً سأل عن اسمه، فإذا وجده منصور، وجده رابح، وجده راشد، سر بذلك. وإذا كره اسمه رؤي ذلك في وجهه ونحّاه ولم يؤمّره. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كان قال: (أصدقها الفأل)، وسألوه: ما الفأل يا رسول الله؟ قال: (الكلمة الطيبة) لأنها تشعل فتيل حسن الظن بالله جلَّ في علاه، وهي من أجلّ العبادات.

العلاقة بين الطيرة وبين الفأل الحسن: هما في دائرة واحدة يتفقان ويفترقان:

الفأل والطيرة يتفقان في التأثير في النفس؛ المتشائم يعتمل في نفسه، المتطير إذا رأى الغراب أو البوم وضع في قلبه شيء وقال: انقبض قلبي لا أتاجر، لا أتزوج. الذي يسمع يا ناجح يا رابح، يقول لابد أن اقدم على هذه التجارة، النجاح معي والفوز معي وسأربح في هذه التجارة. فالاثنان يتفقان في أنها تحرك النفس وتجعله يعمل الهم حتى يأتي العزم على العمل، فيتفقان في ذلك.

ثم يفترقان بعد ذلك، هذا طريق وهذا طريق؛ أمّا الفأل فهو حسن ظن بالله، وهو من أجلّ العبادات، عندما يسمع يا رابح يا نجيح يا راشد، يحسن الظن بربه أن الله جلَّ وعلا سينجح له مسألته، فيفوز بهذه المسألة، فييسر عليه أمره، فيفتح عليه الأبواب المغلقة. وحسن الظن بالله مطلوب مأمور به، الله جلَّ في علاه مدح الذين يحسنون الظن به على لسان -صلى الله عليه وسلم-: (لا يموتن أحدكم إلّا وهو يحسن الظن بالله جلَّ في علاه)، وأيضاً في مسند أحمد: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء، فإن خيراً فخير) يعني خير له، فحسن الظن مطلوب.

أمّا الطيرة ففيها سوء ظن بالله جلَّ في علاه، أن الله جلَّ وعلا لا يربح تجارته، يوقف عليه زواجه، لن يسيّره في الطريق الذي يتمناه، سوء ظن بالله جلَّ في علاه. وسوء الظن بالله إن لم يكن من أكبر الكبائر فهو من الكبائر؛ قال الله تعالى بشدة الذم على الذين يسيئون الظن به: (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) [الفتح:6]. فكما أن حسن الظن بالله جلَّ في علاه مرغوب مرّغب فيه مطلوب، فإن سوء الظن والعياذ بالله منهي عنه محرّم، هذا فرق بينهما.

الأمر الثالث؛ أن الفأل مأمور به شرعاً، والطيرة منهي عنها شرعاً. ونحن خلقنا عبيد لله جلَّ في علاه، ما لنا إلّا أن نقول سمعنا وأطعنا، آمنا بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنا برسول الله وما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. إذا جاء رجل قال: هذه تحرك النفس وهذه تحرك النفس، لِمَ فرقتم أخذتم بهذه وتركتم هذه؟ قلنا نحن عند الله جلَّ في علاه آلة، ندور مع الشرع حيث دار، قال: آمنوا بالفأل وافعلوا به، قلنا سمعنا وأطعنا، قال: لا تفعلوا بالطيرة ولا تعتقدوا فيها، قلنا: سمعنا وأطعنا. وهذا من باب التسليم التام، العبادة المحضة لله جلَّ في علاه، كمال الذل مع كمال الانقياد مع كمال المحبة لله جلَّ في علاه.

فعندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أصدقها الفأل) إذاً نتفاءل لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتفاءل، وعندما قال: (الطيرة شرك) قلنا لا نتطير بحال من الأحوال لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الطيرة الشرك). فإذاً هذه مأمور بها وهذه منهي عنها، ونحن ندور مع الشرع حيث دار.

الأمر الرابع؛ الفأل وسيلة إلى أجلّ العبادات ألا وهي التوكل، أجلّ العبادات القلبية التوكل على الله جلَّ في علاه. فإن الذي يتفاءل بالخير يتوكل على الله تمام التوكل، ويثق في الله الثقة التامة، ويعتمد على الله كل الاعتماد أن أمره بيد الله وأن الذي ينجز له أمره وهو الله جلَّ في علاه. والعكس بالعكس في مسألة الطيرة، لأنه إذا أساء الظن بالله جلَّ في علاه فلن يتوكل على الله جلَّ في علاه. هذه العلاقة بين الفأل الحسن وبين الطيرة، وهذا آخر ما يتكلم في مسألة الطيرة من القدر، يعني الطيرة يملكها الله جلَّ في علاه هو الذي خلق الطير وهو الذي خلق الشر وهو الذي خلق الخير، وبيّن لك طريق الخير الذي تلتمسه عند ربك جلَّ في علاه وتتجنب طريق الشر الذي جنبك إيّاه.

مناقشة: نحن مع الشرع حيث دار، لو خفنا من هذه الوسيلة لقلنا قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وفعلها؛ قال: ما اسمك؟ قال: رابح أو ناجح، قال: أنت أمير. أمّا الثاني قال: خاسر أو نحّاس، قال: أنت لست بأمير. ليس من التشاؤم، دليلنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا قدم سهيل بن عمرو -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (هذا سهيل سهّل

الله أمركم)، اشتق منها التسهيل. هذه بشارات وهذا فقه التفاؤل، أن ترى رجلاً صالحاً تقول: سيصلح الله لكم أمركم.

النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا جاءه المسيب بن حزن، فقال له: أنت ابن كذا؟ غيّر اسمه من حزن إلى سرور، قال: أمي سمتني، فما غيّر اسمه إلى مسرور أو سرور، قال: فما زلنا في حزن إلى اليوم، فكان لابد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقبل أن يحيل اسمه من حزن إلى سرور. لكن المفروض إذا أراد أن يسمّي ابنه ويتفاءل باسمه يسميه: عبد الله، عبد الرحمن، الحارث، همام. لكن إذا سمّاه تسمية فيها تزكية فقد نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، قال: (هممت أن أنهى عن اسم نافع وخالد) ولم ينهَ هذا.

الفرق بين الفأل والطيرة؛ أنت أصلاً مخلوق لله، وأنت تعتقد في ربك أنه سيلقي بك في النار ويمنع عنك الطعام والشراب ويؤذيك شر الإيذاء!! لا، أعوذ بالله، ما أحد يعتقد في ربه ذلك. النبي -صلى الله عليه وسلم- نظر إلى امرأة حنون عطوف على طفل لها على ثديها، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ترون هذه المرأة تلقي بوليدها في النار؟ قالوا: لا، قال: الله أرحم على العبد منها). فأنت دائماً تعتقد اعتقاداً سديداً صحيحاً أن ربك أرحم عليك من أمك ومن نفسك التي بين جنبيك، هذا الاعتقاد يجعلك دائماً تتفاءل في ربك؛ كلما عصيت علمت أن الله سيستر ويغفر، كلما رجوت علمت أن الله سيعطيك المأمول، ما تؤمّله في ربك سيعطيك، (أنا عند ظن عبدي بي). فهذا هو الأصل، الفرق بين الاثنين؛ فأنت الأصل في ربك أنه يعطيك، الأصل في ربك أنه ما خلقك إلّا ليرحمك، ما منعك إلّا لك وما أعطاك إلّا بفضل منه ورحمة سبحانه جلَّ في علاه. فأنت مخلوق دائماً للنفع لك، وهذا الاعتقاد السديد ينميه أن تتفاءل خيراً لتحسن الظن بربك، لكن يقلله ويجعلك تقنط من رحمة الله إذا تطيرت والعياذ بالله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيراً، أحسن الله إليكم.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الحادي والأربعون: لا مضل لمن هديت ولا هادي لمن أضللت

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

بسم الله والحمد لله والصلاة السلام على صفيّه من خلقه وخليله، وبعد:

باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في خطبته: (لا مضل لمن هديت، ولا هادي لمن أضللت)، وقوله في الصلاة على الميت: (لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده):

عن عبد الله بن مسعود قال: (علّمنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطبة الصلاة وخطبة الحاجة، فأمّا خطبة الصلاة فالتشهد، وأمّا خطبة الحاجة: فإن الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له)، والحديث صحيح. وعن عبدالله عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بمثله، والحديث صحيح، وهو ابن عبد الله بن مسعود وقد سمع من أبي موسى وصرّح بسماعه في هذا الحديث.

عن عبد الله ابن مسعود أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول في خطبته: (الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له)، والحديث الصحيح.

عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في خطبته: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)، إسناده صحيح.

عن أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا صلى على الجنازة قال: (اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده)، والحديث إسناده حسن.

عن أبي سعيد الخدري قال: (اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده)، والحديث صحيح.

قالت أم حبيبة بنت أبي سفيان: اللهم متعني بزوجي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبأبي أبي سفيان وأخي معاوية، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لقد سألت الله لآجالٍ مضروبة وآثارٍ معدودة وأرزاقٍ مقسومة، لن يعجّل شيئاً قبل محله أو يؤخر شيئاً عن أجله، ولو سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو من عذاب في القبر كان خيراً وأفضل). قال: وذكر عنده القردة والخنازير هن مسخ، قال: (إن الله تعالى لم يمسخ شيئاً فجعل له نسلاً ولا عقباً، وكانت القردة والخنازير قبل ذلك)، إسناده صحيح.

عن أبي الدرداء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله)، والحديث حسن.

عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرأى تمرة عائرة فأعطاها سائلاً وقال: (لو لم تأتها لأتتك)، إسناده صحيح.

تكلمنا أن الأسانيد لو فيها شيء لابد من الإشارة إليه سنشير، وإلّا لو كفانا الشيخ رحمة الله عليه في الكلام على الأسانيد، لكن:

❖ في الإسناد الأول فيه المسعودي، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، هو صدوق لكنه اختلط آخر عمره، لذلك الشيخ قال: حديث صحيح رجاله ثقات إلّا المسعودي وأبا إسحاق.

وأيضاً أبو إسحاق، هو عمرو بن عبدالله الهمداني، أبو إسحاق السبيعي. اختلط هو أيضاً في آخر عمره.

الحديث صحيح كما قلنا للشواهد الكثيرة التي له، وأمّا المسعودي هو اختلط، وفقه المسألة في مسألة المختلط أن المختلط حديثه له أحوال ثلاثة:

- الحال الأول: أن يعرف أنه يروى عنه قبل الاختلاط.
- الحال الثاني: أن يعرف أنه يروى عنه بعد الاختلاط.
- الحال الثالث: لا نعرف روى قبل أم بعد.

أمّا من روى عنه بعد الاختلاط فالحديث ضعيف لا كلام فيه، ومن روى قبل الاختلاط وكان ثقة فالحديث صحيح، والذي نشك فيه نتوقف حتى نرى ضبط لنا هذا الحديث أم لم يضبط لنا هذا الحديث.

أمّا المسعودي فله ضابط كل من روى عنهم في بغداد فهو بعد الاختلاط، وهذا ضابط جلي يبيّن لنا معرفة من روى عنه بعد الاختلاط. فضابطه أن من روى عنه في بغداد فهو روى عنه بعد الاختلاط.

❖ في الإسناد الأخير الذي هو: (اللهم لا تحرمنا أجره) فيه: زيد العمي عن أبي الصديق عن أبي سعيد الخدري، هذا الحديث وإن كان صح فيمن قبله فالحديث فيه زيد، وزيد هو ضعيف؛ هو كان قاضياً وكان فقيهاً لكنه كان في الحديث ضعيفاً.

باقي الأسانيد قد أنهانا الشيخ عن البحث عنها وكفانا مؤونة ذلك.

ما زلنا في أبواب القدر، ويبيّن فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- أن كل شيء بيد الله جلَّ في علاه، يتصرف في ملكوت السماوات والأرض ما بين الكاف والنون كما سنبين في المسائل. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد علمنا أدباً نبوياً عظيماً جليلاً بين يدي أي شيء مهم؛ كخطبة، كحاجة، كبيع، كتجارة، كعقد، كغير ذلك من العقود، أدباً نبوياً لابد أن نتلمسه ونسير خلفه ونفعل به ونفعل ما فعله النبي -صلى الله عليه وسلم- ائتساءً برسول الله -صلى الله عليه وسلم-. كان من أدب النبي -صلى الله عليه وسلم- في بداية كل ما شيء يفعله أن يبدأ بحمد الله جلَّ في علاه، وهذا الحمد من أجلّ العبادات، فالحمد والثناء الجميل على الذات المقدسة. وقلنا هناك فارق بين الحمد والشكر، لكن نحن بصدد جمل مهمة جداً في هذه الأحاديث نمر عليها إيجازاً ولا نخل بها.

الحمد: هو الثناء الحسن على الذات المقدسة، والحمد محسوس عليه مرغب فيه مندوب إليه، أمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيّن ومدح من ينشغل بالحمد، لأن الحمد نصف الدين كما قال شيخ الإسلام: ديننا على أمرين: حمد وصبر؛ النصف الأول هو الحمد والشكر لله جلَّ في علاه. والنصف الثاني هو نصف الصبر على أقدار الله جلَّ في علاه.

الله جلَّ في علاه ما مدح نبياً إلّا بأرقى وأسمى الصفات التي اتسم بها واتصف بها، من أرقى هذه الصفات التي مدح الله بها وحمد الله لأنبيائه الأخيار بها هي صفة وسمة الشكر؛ إن الله جلَّ في علاه حمد نوحاً ومدح نوحاً في كتابه عندما قال: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) [الإسراء:3]، وشكور: فعول، وهذه الصيغة معناها صيغة مبالغة، أي يكرر الشكر، ما أحدث له نعمة إلّا وكرر واستدعى لها شكراً. وأيضاً أخبرنا الله جلَّ في علاه

عن خلق رفيع عند سليمان -عليه السلام- عندما رأى العرش أمامه ثابتاً قال: (هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) [النمل:40].

ثم مدح خليله إبراهيم -عليه السلام- بأنه قال: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) [النحل:120-121]؛ هذا عجب!! قال: (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) ولم يقل "شكوراً"، وقال في نوح: (شَكُورًا)، مع أن إبراهيم أفضل من نوح. وهنا لفة جيدة جداً ما الفرق بين شكوراً لنوح وعن إبراهيم يقول شاكراً؟ هذه لفتة لابد من طالب العلم أن يدقق النظر فيها، ومن رق قلبه وإحساسه ونظر إلى كلام الله جلَّ في علاه بطلب المعونة من الله ليدقق الفهم في كلماته سيعرف اللفتة في ذلك. قال عن نوح -عليه السلام-: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)، ومع أن إبراهيم هو الخليل، إبراهيم هو أفضل الرسل على الإطلاق دون محمد -صلى الله عليه وسلم-، فإبراهيم -عليه السلام- قال فيه: (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ). فهل نوح تقدم على إبراهيم في هذه الصفة الجليلة؟

لغةً تقدم لأني شكور: فعول، وشاكر: فاعل وهذه لا تدل على الكثرة. لكن هل تقدم نوح على إبراهيم؟ الصحيح الراجح؛ الله جلَّ وعلا ما قال عن إبراهيم شاكراً مطلقاً، قال: (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ)، وهذه فيها لفتتان:

- اللفتة الأولى: واقعاً وشرعاً أن نعائم الله لا تنقطع على العبد بحال من الأحوال، نعائم الله منذ كان جنيناً في بطن أمه ويأتيه الطعام من الحبل السري إلى أن يموت، فنعائم الله سابغة على العبد لا تنقطع أبداً. فما دامت أن النعائم لا تنقطع أبداً، وإبراهيم وصفه الله جلَّ في علاه أنه شاكراً لأنعمه، فالنعائم دائماً سابغة على إبراهيم، فدائماً إبراهيم يكون شاكراً. فقال: (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ)، وهذه دلالة على ديمومة شكر إبراهيم -عليه السلام-.

- فيها لفتة أخرى: وهي ديمومة نعائم الله على عبده إبراهيم -عليه السلام-، ولذلك كان دائماً كلما أحدث الله له نعمة كلما أحدث لهذه النعمة شكراً، وهذا فضل الله جلَّ في علاه على عباده.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- يستنهض الأمة لشكر الله جلَّ في علاه على نعائمه حتى تثبت هذه النعائم، إن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله يحب من العبد إذا أكل الأكلة أن يحمده عليها، وإذا شرب الشربة أن يحمده عليها)، لأن الله جلَّ في علاه يحب كل شاكر.

والحمد أو الشكر من أجلّ العبادات لأمور كثيرة منها:

- أولاً فيه نسبة النعمة للمنعم، لا يجحد النعائم، والجاحد مبعد عن ربه جلَّ في علاه. أرأيت أن الله جلَّ في علاه فرّق ووصف فريقين: وصف الفريق الأول بالإيمان،

ووصف الفريق الآخر بالكفر، بسبب نسبة النعمة لغير باريها. عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أتدرون ما قال ماذا قال ربكم اليوم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب، من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: الذي قال مطرنا بفضل الله) يعني نسب النعمة لله جلَّ في علاه، فوصفه بالإيمان. أمّا من قال: مطرنا بنوء كذا ونوء كذا نسب النعمة للنوء، فالله جلَّ وعلا وصفه بالكفران والجحود. إذاً نسبة النعمة لباريها هذه من أجلّ العبادات القلبية، وأيضاً من عبادات اللسان. إذاً الحمد من أجلّ العبادات وهو نصف الدين لهذا المغزى.

▪ وأيضاً المغزى الثاني الذي يبيّن لنا فضل الحمد، أن العبد لا ينقطع شكره ما دام حياً في هذه الحياة، أن الحمد لله جلَّ في علاه فيه إقراراً للربوبية وتحقيقاً للعبودية؛ أمّا إقراراً للربوبية لأنك بقلبك تحمد ربك جلَّ في علاه على النعائم التي يسديها إليك، وأيضاً تحمد ربك على جلاله وجماله، إن الله جميل يحب كل جميل. وقلنا المدح غير الشكر؛ الشكر يحمد على نعمة أتته، أمّا الحمد يحمد على النعمة ويحمد على جميل الصفات، فكلما تذكّر أن ربه قوي متين، أن ربه جبار وله الجبروت، وأن ربه جلَّ في علاه إذا أراد شيئاً قال له "كن" فيكون، فيحمد الله. دائماً كأن قلبه يلهج بذكر الله ويقول الحمد لله على قدرتك، الحمد لله على قوتك، الحمد لله على عزتك، الحمد لله على جبروتك. ففيه إقرار بالربوبية بالقلب، وفيه أيضاً تحقيق الإلهية أن لسانك يعبد ربه جلَّ في علاه فلا يصرف هذا الحمد لغير الله جلَّ في علاه.

وهنا ينجم لنا إشكال: قلنا تحقيق الإلهية أن تحمد بلسانك ربك جلَّ في علاه، ومع ذلك وجب عليك لزاماً أن تحمد العبد، حيث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من لم يشكر الناس لا يشكر الله)؟ فهذا ليس بإشكال، نقول: هو شكر العبد الذي أدى الله النعمة على يديه أو أجرى النعمة على يديه من تمام شكر الله جلَّ في علاه، وليس هذا صرفاً للعبادة لغير الله، بل هي لله جلَّ في علاه. مثال ذلك ونظير ذلك سجود الملائكة لآدم؛ السجود لا يكون إلّا لله جلَّ في علاه، فلمّا أمر الله جلَّ في علاه به كان سجود الملائكة لآدم سجوداً أصالةً لله لأنه ائتمار بأمر الله جلَّ في علاه.

النبي -صلى الله عليه وسلم- صدّر خطبته بالحمد لأن لها فوائد كثيرة جمة، من فوائد الحمد أو أعظم فوائد الحمد:

◆ أولاً تقييد النعائم؛ إذا انعم الله الله عليك بنعمة وخفت أن تضيع منك لا تحرص عليها، لا تضعها في الخزانة، لا تأتي بالجنود الذين يعصمون عليك عصابة أو يحمون لك هذه نعمة، قيّد هذه النعمة بحمدك لربك جلَّ في علاه على هذه النعمة وشكرك لها، قد قال بعض السلف: قيدوا نعائم الله بالشكر أو بالحمد. إذاً أول فوائد الحمد هي أن الله جلَّ

وعلا يثبت لك النعائم التي رزقك إياها، لا تضيع منك بحمدك لله جلَّ في علاه وإقرارك بقلبك أنها منة من الله وحده لا شريك له.

◆ الفائدة الثانية الزيادة؛ كلما شكرت ربك على نعمة دقيقة جاءتك النعمة الجليلة، الزيادة، لأن الله جلَّ في علاه قال: (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) [إبراهيم:7]، وهذه فيها أنك إن شكرت ستشكر عن نعمة موجودة، عن أصل، فإن شكرت فالأصل عندك فشكرت عليه. قال الله تعالى: (لَأَزِيدَنَّكُمْ)، والزيادة لا يمكن أن تكون إلّا بعد وجود الأصل، فمعنى ذلك أن الله جلَّ وعلا يقول: (لَأَزِيدَنَّكُمْ)، سأثبت لكم الأصل الذي عندكم ثم أزيدكم عليه، وهذه من الفوائد الجليلة في مسألة الحمد.

قال: (نستعينه ونستغفره)؛ بعدما حمد الله جلَّ في علاه تذكر ربوبية الله جلَّ في علاه وقال: (نستعينه)، والاستعانة: طلب العون من الله جلَّ في علاه لدفع الضر وجلب المنفعة، وقد أمر الله بها في غير ما آية، وأمر بها رسوله -صلى الله عليه وسلم- في غير ما حديث؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (استعن بالله ولا تعجز)، أمراً من النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأيضاً في مسند أحمد بسند صحيح عن ابن عباس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا غلام، أعلمك الكلمات).. من هذه الكلمات قال: (وإذا استعنت فاستعن بالله وحده لا شريك له).

فالاستعانة هو طلب العون من الله جلَّ في علاه، وهذه من تمام ربوبية الله جلَّ في علاه ومن تمام عبودية العبد لله بفعله وبفعل الله جلَّ في علاه. وكما قلت العبد أحوج ما يكون لربه جلَّ في علاه؛ حال يقظته، حال نومه، حال عمله، حال عبادته، حال نصرته لدينه، حال قربه وبلائه الذي ينزل عليه فهو أحوج ما يكون إلى أن يستعين بربه جلَّ علاه ولقدرة الله جلَّ في علاه، ليميل كلية القلب لله لا لعباد الله جلَّ في علاه، فيتم بذلك التوكل على الله، وهذا يأتي تفصيله إن شاء الله بعد ذلك.

قال: (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره)؛ بعدما حمد الله جلَّ في علاه، وصدّر الباب بالحمد لأن صدّر كتابه بالحمد أدباً مع الله، لأن لا أحد يحب الثناء مثل ربنا جلَّ في علاه، بعد ذلك أقر بالربوبية والإلهية، بعد ذلك ابتدأ يبيّن ما عنده من أخطاء ومن زلل، يخضع لربه ويتذلل ويقول: (نحمده ونستعينه ونستغفره). والاستغفار كما قلت هو من أجلّ العبادات التي يتقرب بها العبد إلى الله جلَّ في علاه لأن الله أمر بها أولاً، ولأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا استنهض الأمة بها قولاً وفعلاً. قال الله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا) هذا أمر وظاهر الأمر وجوب، (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) [نوح:10]. وأيضاً (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) [هود:3]، وهذا أمر الله جلَّ في علاه على لسان نبيه للأمة التي بعث فيهم.

وأمّا رسول الله كما في الصحيحين: أن أبا هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولك (استغفروا الله وتوبوا إليه) أمر من النبي -صلى الله عليه وسلم-، (فإني)؛ كأنه يقول خذوني أسوة وائتسوا بفعلي، وأنا رسول الله غفر الله لي الذنب ما تقدّم وما تأخّر ومع ذلك (فإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة). وحديث في الصحيح عن ابن عمر: كانوا يعدون للنبي -صلى الله عليه وسلم- "أستغفر الله وأتوب إليه" مائة مرة. وفي حديث الأغرّ المزني عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أشار لأمته وأمر أمته أن تستغفر أكثر من مئة مرة، وأنه كان يستغفر مائة مرة بأبي هو وأمي.

فالاستغفار كما قلت أمر به الله جلَّ في علاه وهو من أجلّ العبادات، والسؤال: لِمَ الاستغفار من أجلّ العبادات؟ بالنظير، الاستغفار من أجلّ العبادات، والعبد ما دام صباح مساء يستغفر ربه جلَّ في علاه فهو قريب من الله جلَّ في علاه، وقربه عالي كما سنبيّن. نحن أحوج للاستغفار من الماء والهواء، نحن ليل نهار نعصي ربنا إمّا بالجوارح وإمّا بالقلب وإمّا بالنية وإمّا بالصبر، نحن نعصي الله جلَّ في علاه في كل حين وآن، نحن أحوج ما نكون للاستغفار. هذا الاستغفار المأمور به من أجلّ العبادات، لِمَ؟

▪ أولها أنت مربوب لله، أنت عبد لله جلَّ في علاه، ما خلقت إلّا لتتعرف على ربك، وقد قال: من لم يعرف ربه لم يعرف نفسه، ومن عرف ربه وعرف نفسه وعرف كيف يعبد الله جلَّ في علاه، أنت مخلوق لتتعرف على ربك جلَّ في علاه. فيه أولاً الإقرار بالربوبية، وهذه دلالة واضحة جداً كما في مسند أحمد: (رجل جاء فقال: ربي أذنبت الذنب فاغفر لي، فقال الله جلَّ في علاه: عَلِم عبدي أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر، اشهدوا أني قد غفرت له. ثم جاء ففعل الذنب مرة ثانية، فقال الله: عبدي عَلِم أن له رباً يأخذ الذنب ويغفر، اشهدوا اني قد غفرت له. وفي الثالثة قال الله جلَّ في علاه: عبدي افعل ما شئت ثم استغفرني فسأغفر لك). فإذاً أول هذه الأمور التي تبيّن لنا أن الاستغفار من أجل العبادات "الإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه".

▪ تحقيق الإلهية؛ لأنك بعدما أقررت بالربوبية بقلبك وعلمت أن لك رباً يأخذ الذنب ويغفر تذللت وخضعت وقلت: استغفاري لا يكون إلّا لربي، وذلي وخضوعي يكون لله جلَّ في علاه.

▪ الإيمان بالغيب؛ الله جلَّ في علاه بيّن أن فلاح المؤمنين مرتب على اليقين والإيمان بعرصات يوم القيامة، العبد لا يستغفر إلّا إذا اعتقد اعتقاداً صحيحاً أنه سيقف أمام ربه جلَّ في علاه كما قال ابن عمر: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ما منكم من أحدٍ إلّا وسيكلمه الله كفاحاً)، ما في أحد يترجم، لا ترجمان بينكما، (يقول: عبدي أتذكر ذنب كذا؟ ذنب كذا؟ ينظر العبد أيمن منه لا يجد إلّا ما قدّم، أشأم منه ما يجد إلّا ما قدم،

أمامه ما يجد إلّا النار، يحسب أنه قد هلك، فيقول الله جلَّ في علاه: عبدي سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها اليوم لك). فإذاً الثالثة الاعتقاد الجازم بأنك ستقف أمام ربك جلَّ في علاه وهذا من الغيوب، وفلاح المرء أن يؤمن بعلم الغيب.

الاستغفار فوائده كثيرة جداً منها:

- أولاً محبة الله، أو قل فرح الاستغفار يستجلب فرح الله جلَّ في علاه. أو يفرح ربنا؟ نعم يفرح ربنا، كما (جاء الرجل للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: يا رسول الله أو يضحك ربنا؟ قال: يضحك ربنا، قال: ما يضحك الرب؟ قال: أن تخلع الدرع الذي على صدرك ثم تدخل مقبلاً غير مقبل في سبيل الله جلَّ في علاه فتقتل، فقال: أهذا يضحك الرب؟ قال: نعم يضحك الرب، قال: إذاً لن نعدم من رب يضحك خيراً)، فقه المسألة فدخل فقاتل فقتل في سبيل الله جلَّ في علاه.

ففرح الله جلَّ في علاه يستلزم لنا أن نقول: نستغفر كثيراً ليفرح ربنا، والدليل على ذلك حديث الصحيحين: (الله أفرح بتوبة العبد من أحدكم) ... إلى آخر الحديث. ففرح الله هذه أول الفوائد من الاستغفار، والله والذي نفسي بيده لو اعتقدت أنت فقط بكثرة استغفارك أنك تفرح ربك جلَّ في علاه بذلك لكفاك. في أحد منا ممكن يفكر في هذه المسألة؟ لا والله، من لوازم فرح الله جلَّ في علاه أنه يريد الخير لمن فرح له، لأن الله جل في علاه إذا ضحك العبد أراد له الخير، كما قال الرجل إقراراً: (إذاً لن نعدم من رب يضحك خيراً، سيؤتينا ما أردنا). ففرح الله جلَّ في علاه بتوبة العبد واستغفار العبد تستلزم رضا الله على العبد، تستلزم إثابة العبد بالجنان.

- ثاني الفوائد من الاستغفار: مغفرة الذنوب؛ ما منا من أحد إلّا ويخشى أن تظهر البقعة السوداء على ثوبه الأبيض تلطخ بما فعلنا من معاصينا، بما فعلنا من التجرأ على حرمات الله جلَّ في علاه. ما منا من أحد إلّا ويتشوق قلبه أن يقف أمام ربه نظيفاً، لا يُفضح ولا يُعقد له لواء غدر أمام الخلائق أجمعين. فإن فائدة كثرة الاستغفار أن يغفر الله جلَّ في علاه، والدلالة على ذلك قول الله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) [نوح:10]، ما معنى غفاراً؟ كثير المغفرة يعني صيغة مبالغة، يعني ما ذنب تستغفر عليه إلّا وسيغفر الله، لك ما دمت تستغفر فإن الله سيغفر لك.

والمغفرة والرحمة إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، وهنا افترقا، فإذا افترقا المعنى يكون تحته؛ المغفرة: ستر الذنب ثم عدم المؤاخذة عليه، وهذه هي الرحمة. فمعنى قول الله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) [نوح:10]، سيستر عليكم هذا الذنب، وفوق هذا الستر لا يؤاخذكم عليه يوم القيامة، ستر في الدنيا ثم ستر في الآخرة ثم عدم المؤاخذة.

- الفائدة الثالثة من الاستغفار: الرزق وسعة الرزق؛ إن كان امرؤ يسعى في الدنيا ليل نهار ذهاباً وإياباً يريد فقط الرزق والدرهم والدينار، قلنا له امكث في بيتك وكن على مكانك بعد الأخذ بالأسباب الصحيحة دون الهلكة فيها، أكثر من الاستغفار ترى أن الرزق سيسعك ويسع أهلك ويسع من فوقك وتحتك ومن بجانبك، فإن الله جلَّ في علاه يوسع رزقك بكثرة الاستغفار. ((فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) [نوح:10-12]. ليس مالاً فقط، بل وأيضاً مع هذا أن يرزقك الرزق الواسع بكثرة الاستغفار: مال وبنين مع إرسال المطر على الناس الذين يطلبون المطر من الله جلَّ في علاه.

إذاً هذه فوائد جمة من الاستغفار، لذلك نبه عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه بادئ ذي بدء يبدأ بالثناء على الله جلَّ في علاه متأدباً بين يدي ربه جلَّ في علاه، ثم بعد أن يحمد الله جلَّ في علاه يبدأ بالاستعانة به، ثم يستغفر ويتذلل لربه جلَّ في علاه، ويبيّن ما هو فيه من خطأ وما فيه من ذل لربه جلَّ في علاه. وإن الله يحب أن يرى ذلك من عبده، لأن العبد كلما تذلل، كلما خضع بلغ مبلغاً صعباً، ارتقى مرتقاً صعباً. كما قال بعض العلماء: يأتي في لحظة واحدة ينكسر القلب فيسجد خضوعاً لله فلا يقوم من هذه السجدة إلّا وهو في الفردوس الأعلى.

(إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا)؛ ما الفرق بين أعوذ وألوذ؟ يصح للإنسان أن يقول "أعوذ بالله"، ويصح أن يقول "ألوذ بالله"، لكن ما الفرق بينهما؟ ما الفرق بين العوذ واللوذ؟ ولِمَ النبي -صلى الله عليه وسلم- هنا ما قال "ألوذ بالله من شرور أنفسنا"، قال: (أعوذ بالله من شرور أنفسنا)؟

العوذ هو اللجوء، وهذا أمتع اللجوء وأقوى لجوء، لا لجوء سياسي ولجوء غيره، هذا لجوء لملك الملك سبحانه جلَّ في علاه، فاللجوء إلى الله جلَّ في علاه لدفع المضرة. أمّا اللوذ هو اللجوء لله جلَّ في علاه لجلب المنفعة. ولذلك ترى النبي -صلى الله عليه وسلم- كان دائماً يقول: (وأعوذ بك منك)؛ إن لله جلَّ وعلا له جبروت يستطيع أن يلقي كل البشر في النيران ولا يبالي سبحانه وتعالى، فكان يقول: (أعوذ بك منك)، يعني أعوذ برحمتك من سخطك، بعفوك من عقابك. (أعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك).

فهو يلجأ إلى ربه جلَّ في علاه لدفع المضرة، وأي ضرر وأي شر يقع على الإنسان من شرور النفس. إن النفس هي ألدّ أعداء الإنسان، وأضر شيء على الإنسان نفسه ثم بعد ذلك الشيطان، لأن الشيطان لو لم يجد نفساً سهلةً يستطيع أن يحركها لا يستطيع أن يؤثر على المرء. وهذه النفس التي استعاذ منها النبي -صلى الله عليه وسلم- هي النفس الأمّارة بالسوء، ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- دائماً ما يقول: (يا حي يا قيوم

برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). ولذلك قال بعض العلماء: إن استدراج الله للعبد أن يكله إلى نفسه، إذا وكله جلَّ في علاه لنفسه هلك لأنه وكله إلى من يظلمه، إلى من يتردى معه إلى المهالك.

قال: (لا مضل لمن هديت، ولا هادي لمن أضللت)، هذه المسائل التي سنتعرّض لها. فالحديث والبابان الآخران تكلما عن مسألة الرزق وأن الله جلَّ وعلا تكفّل للعبد أن يرزقه، من يكفيه رزقاً في هذه الحياة وأمره أن يعبده. كأن الله جلَّ في علاه خلق الخلق لمهمة عظيمة جسيمة هي العبادة، فتكفّل الله بالرزق حتى تعبد أنت ربك، خلق الله الكون كله لك ومن ضمن ذلك الرزق، وخلقك أنت له، فانشغل بما خلقت له وهي العبادة، ولا تنشغل بما خلق لك وهو الرزق، وليس هذا مسعاك لأن تعطل الأسباب، هذا باب آخر سنتكلم فيه. لكن قد تكفّل الله لكل نفس برزقها، كما قال الله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) [الذاريات:22]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح: (يأتي الملك عندما يؤمر بنفخ الروح يقول: أي رب الأجل؟ أي رب العمر؟ أي رب الرزق؟ [يعني ما هو الرزق؟]، فيقول الله جلَّ في علاه: الرزق كذا وكذا). فقد تكفّل الله بالرزق لعباده كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب).

ويتفاوت الناس في مسألة الأرزاق ما بين مستيقن في الله، وبين شاك مرتاب، وبين من لا ينظر إلى ربه جلَّ في علاه بحال بل ينظر إلى الأسباب. والسلف يخالفون الخلف في ذلك؛ السلف رموا أحمالهم لهم وأرزاقهم على ربهم، كما بيّنا في أكثر من موضع مثال حسن البصري، كان رجلاً واعظاً محدّثاً فقيهاً مفسراً ينشغل بربه ولا ينشغل بهذا الرزق لأنه يعلم أن الله قد تكفّل به، فكان يبيع التمر فإذا جاءه قوت يومه أخذه وذهب، فقالوا له: فتح الله عليك فأكثر من الرزق، قال: لا والله، علمت أن رزقي بيد ربي ولن يصل إلى غيري فاطمئن قلبي. وهذه لا أصفها لكم، لا توصف، لو قلت لكم ما طعم التفاح قلتم هذا لا يوصف، أنا لا اصف لكم ذلك، هذا يجري في العروق في القلوب، من استيقن في ربه سيشعر بذلك ويعلم أنه سيجلس على سريره ويأتيه الرزق. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث ابن عمر: (لو لم تأتها لأتتك)؛ السائل جاء يسأل عن التمرة قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو لم تأتها لأتتك). وهذا ليس تعطيلاً للأسباب، لكن عندما تأخذ بالأسباب لا تسارع، لا تكون حماراً بالنهار وجيفة بالليل.

قال الله تعالى عندما تكلم عن أمر الآخرة: (وَسَارِعُوا) [آل عمران:133]، لكن لمّا تكلم عن أمر الدنيا قال: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) [الملك:15]. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فاتقوا الله وأجملوا الطلب)، خذ السبب لكن لا تجهد نفسك على هذا السبب

فإن الله تكفّل لك بالرزق، وهذه من الفوائد الجمة والجمل البديعة التي تؤخذ من خطبة الحاجة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وما بعده من هذا الباب.

وندخل على المسائل العقدية التي نتكلم عنها في هذا الباب، هي مسألة مهمة جداً ألا وهي الهداية والإضلال بيد الله جلَّ في علاه، إذا هدى الله عبداً لا يضله أحد، وإذا أضل عبداً لا يهديه أحد). كلٌ منا يعتقد أن الله جلَّ في علاه فوق عرشه يتحكم في كونه، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وهذا من تمام ربوبية الله جلَّ في علاه؛ إحياء، إماتة، رزق، إعطاء، منع، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء، يؤتي ملكه من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، يغني من يشاء ويفقر من يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، كل يوم هو في شأن بيده الخير سبحانه جلَّ في علاه، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. وأيضاً من ذلك يهدي من يشاء ويضل من يشاء سبحانه جلَّ في علاه، إن هداه فبرحمته وكرمه وجوده وله الحمد على ذلك، وإن أضله ما أضله ظالماً له سبحانه جلَّ في علاه، أضله على علم عنده، قال الله تعالى: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية:23]؛ على أحد وجهي التفسير يعني على علم عند الله جلَّ في علاه أن هذا ليس محلاً للهداية ولا يستحق الهداية. (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36]، وقد قال الله تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) [السجدة:13].

إذاً الهدى بيد الله جلَّ في علاه، (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [السجدة:13]، وقال جلَّ في علاه: (أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) [الرعد:31]، (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]، وأيضاً يقول الله تعالى على لسان نوح -عليه السلام- عندما قال: (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) [هود:34]، الغواية هنا بيد الله جلَّ في علاه. وأيضاً قال الله تعالى: (مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الأنعام:39]، بل إبراهيم -عليه السلام- وهذا هو طبعاً ولنعم النبي الذي يعتقد ذلك في ربه جلَّ في علاه كان يقول: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ)، إذاً الإسلام والكفر لا يملكه إلّا الله جلَّ وعلا، فاحمد الله على أن جعلك مسلماً وأن يثبّت لك هذه النعمة، (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) [البقرة:128].. لك إلى آخر الآيات.

فالهداية والإضلال بيد الله جلَّ في علاه، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة. أمّا القدرية والجبرية وغيرها من هذه الطوائف لا تعتقد ذلك في ربنا جلَّ في علاه، وأكتفي وأختم اليوم بروايتين عجيبتين عن هؤلاء المبتدعة، وأبين لكم أن الفطر السليمة تأبى البدعة وأهلها.

عمرو بن هيثم روى رواية، قال: كنا في سفينة، فصاحبنا رجلان: رجل قدري ورجل مجوسي. المجوسي يعتقد أن للكون إله خير وإله شر، والقدري يعتقد أن للكون إله واحد، انظروا إلى الفرق وكيف الحجة مع المجوسية؟ قام القدري يقول للمجوسي: إن ربنا يريد والشيطان لا يريد، يقصد أن ربنا يريد الخير. فقام المجوسي وكانت الحجة معه وقال: إن ربنا يريد والشيطان يريد، فكان في الدنيا ما أراد الشيطان، يا له من شيطان قوي!!

يقول له: الله يريد الخير، أي هو ما يستطيع إلّا الخير. والشيطان ماذا يريد؟ الشر، والدنيا ملآنة بالشر، قال: إذاً إرادة الشيطان غلبت إرادة الرحمن. قال: يا له من شيطان قوي!! وقال في رواية أخرى: هو مع من هو أقوى. انظروا أهل البدعة لما لم يكونوا على العقيدة الصحيحة السديدة، كانوا فتنة لغيرهم من أهل الكفر.

وأيضاً في رواية أخرى أعجب من ذلك؛ عمرو بن عبيد هذا رأس من المعتزلة كان جالس في مجلس التحديث، وهو ينشر وينفث سمه على الناس كأنه يقربهم إلى الله جلَّ في علاه، فجاء أعرابي سيموت سرقت دابة وناقته، فدخل الأعرابي عليه فقال: يا شيخ، وجد الناس على خير يتكلمون بكلام الله وكلام رسول الله، لكن انظروا الأعرابي بجهله عقيدته أسلم من هذا الرجل. قال لعمرو بن عبيد: يا شيخ ادعُ الله لي أن يرد عليّ ناقتي، فقام الرجل أمام طلبة العلم ليدعو ويؤمّن طلبة العلم لعلّ الله جلَّ وعلا يرد عليه ناقته، فماذا قال؟ قال: اللهم إنا الناقة قد سرقت وأنت لم ترد ذلك، اللهم أرددها عليه إنك تريد ذلك. القدري ماذا يعتقد؟ يعتقد أن الخير يريده الله والشر من العبد، يعني يرى أن الله لم يخلق الشر ولم يخلق أفعال العباد، كالزنا والسرقة، كل هذا الله لا يتحكم فيه، من العباد فقط، وهذا ضلال مبين. الله جلَّ وعلا خالق كل شيء، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانع وصنعته).

فقام فقال: اللهم إنا الناقة قد سرقت وأنت لم ترد ذلك، اللهم أرددها عليه إنك تريد ذلك. فقام الأعرابي فقال له: لا حاجة لي في دعائك هذا، لا تؤمّنوا. فقال: وعلامَ؟ فقال له الأعرابي: أخاف وأخشى أنها سرقت وما كان يريد ذلك، فإذا أراد أن يردها لا ترد عليّ؛ يعني ما استطاع أن يحفظها ولا يريد سرقتها، فإذا أراد أن يردها أيضاً لا يستطيع أن يردها، يعني رب عاجز لا يستطيع أن يأتيك بشيء. فانظروا أعرابي ألقمه حجراً وسكته وبيّن له أن العقيدة السديدة أن الرب جلَّ في علاه إذا أراد شيئاً في كونه لا غالب له سبحانه جلَّ في علاه، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

وهذا الذي بالضبط حدث مع أعربي آخر هو الذي أخمد فتنة خلق القرآن، وأحمد ابن حنبل إمام أهل السنة والجماعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ هذا الأعرابي أخمدها أيضاً بفطرته السليمة عندما دخل على ابن أبي دؤاد وقال له: ماذا تقول في القرآن؟ قال: هو

كلام الله، فقال له الأعرابي: وأنت ما تقول في كلام الله؟ قال: هو مخلوق. فقال له: أسألك! قال: تفضل. فقال لهم: هذا الكلام (يعني القرآن مخلوق) علم علمه رسول الله؟ قال لا، قال: علم علمه أبو بكر؟ قال: لا، قال: علم علمه عمر؟ قال لا. قال: سبحان الله، علم تعلمه أنت ولا يعلمه رسول الله الذي يأتيه من الوحي من السماء. فالرجل دهش عقله، لأنه يتقدم أمام الله بين يدي الله وبين يدي رسوله. فقال: أقلني (يعني اعفيني)، فقال له الأعرابي: على ما كان الحال أقلتك. فقال: المسألة على ما هي؟ قال: المسألة على ما هي.

قال له ابن أبي دؤاد: ماذا تقول في القرآن؟ قال: أقول هو كلام الله. فقال له الأعرابي: ماذا تقول أنت في كلام الله؟ قال: أقول مخلوق، فقال له الأعرابي: هذا علم علمه رسول الله؟ ماذا يكون تتوقعون ماذا يقول؟ لو قال لا كفر، لابد أن يقول نعم، قال: نعم علم رسول الله، قال: الحمد لله، هذا علمه أبو بكر؟ قال: نعم. قال: علم علمه عمر؟ قال: نعم. قال: تكلموا به؟ قال: لا لم يتكلموا به. قال: ألا يسعك ما وسع رسول الله ووسع أبا بكر ووسع عمر؟ علم لم يتكلموا به تأتي أنت تتكلم به وتتقدم بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-!! فقام المأمون قال: علم علمه رسول الله لم يتكلم به ولم يسع ابن أبي دؤاد أن يتكلم به. فأخمد الفتنة وعزل ابن أبي دواد بسبب أعرابي فقط عقيدته سديدة سليمة.

كما ضربنا قبل ذلك مثلاً عظيماً بامرأة عجوز شمطاء تسير لا تعرف الألف من الباء، فلما سارت وجدت كوكبة كثيرة من طلبة العلم حول رجل شيخ واحد، فقالت: ما هذه الكوكبة؟ قالوا: هذا الرازي، قالت: وما الرازي؟ لِمَ تضيقوا عليّ الطريق؟ قالوا: هذا الرازي الذي أتى بألف دليل على وجود الله، فضحكت المرأة العجوز وقالت: وهل وجود الله يحتاج إلى دليل؟ هذه التي قال فيها الجويني عند مماته: ليتني مت على عقيدة عجائز نيسابور. فالأعرابي لأن عقيدته كانت سديدة سار سيراً سليماً وسار على درب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. نسأل الله جلَّ في علاه أن يصحح عقيدتنا وأن يجعلنا لا نزيغ ولا نضل.

الفوائد المستنبطة:

١- الرد على القدرية والرد على الجبرية. كيف ذلك؟

- الرد على القدرية لأنهم يقولون: أفعال العباد كليةً ليست بيد الله. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يهده الله)، إذاً الهداية يملكها الله جلَّ في علاه.

- والرد على الجبرية: (من شرور أنفسنا)، فنسب بالشر للنفس. والجبرية يقولون: لا شر، لا ينسب شيء للمخاطب أو للمكلف.

٢- الرد على المعتزلة في أنهم يعتقدون أن المقتول لو تركه القاتل لعاش. هذا الكلام باطل، هذا تستنبطه من هذه الأحاديث: (لو لم تأتها لأتتك)، (الآجال المضروبة)، وأجلى من ذلك (لن يعجّل شيئاً قبله محله أو يؤخّر شيئاً بعد محله)، فهذه دلالة على أنها مكتوبة تقع كما هي.

٣- إثبات عذاب القبر؛ قال: (ولو سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو من عذاب في القبر كان خيراً وأفضل). وعذاب القبر ثابت عند أهل السنة والجماعة، ثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة، وليس هذا مجال للتفصيل، نشير له إشارات.

أمّا في الكتاب فقد قال الله تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ) [السجدة:21]؛ والعذاب الأدنى قال المفسرون بالإجماع: هو عذاب القبر. وأيضاً قال الله تعالى عن آل فرعون: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) هذا عذاب القبر، (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) [غافر:46].

وأمّا من الأحاديث فكثير: منها الصريح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لولا ألّا تدافنوا [أي تتركوا الدفن ولا تدفنوا الموتى] لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر)، أيضاً مر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقبرين اثنين يعذبان قال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير)، ثم سرد الأسباب التي يعذب فيها المرء في قبره، فهذه فيها دلالة على ثبوت عذاب القبر.

٤- قدرة الله جلَّ في علاه على مسخ الإنسان أن يكون قردة أو خنازير، هذه دلالة على تمام قدرة الله جلَّ في علاه، وهذا حدث في بني إسرائيل. والصحيح أن القردة والخنازير بعدما مسخوا كما قال الله تعالى: (فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) [الأعراف:166]، لكن بيّن - صلى الله عليه وسلم - أنه لا نسل لهم. الغرض المقصود أن الله جلَّ وعلا أذلهم وجعلهم قردة وخنازير ولا نسل لهم، فيها إشارة على مسألة الضب لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما أدري الضب مسخ من قوم قد مسخوا أم لا؟) فيها دلالة أن الذي مسخ لا نسل له.

٥- العبرة من الذين يخالفون أمر الله، فإن الله قادر على أن ينزل المسخ بهم، وإن الله سيحدث ذلك في هذه الأمة، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد تنبأ لهذه الأمة وقال: (سيحدث في هذه الأمة مسخ وخسف). فنسأل الله جلَّ في علاه ألا نكون من هؤلاء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثاني والأربعون:

باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى)، وقوله: (من أعدى الأول)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، انتهينا إلى باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى ولا طيرة).

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين.

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى)، وقوله: (من أعدى الأول):

وعن سعد عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (لا عدوى)، حديث صحيح.

وعن جابر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (لا عدوى ولا صفر ولا غول)، حديث صحيح.

وعن أنس قال: قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى)، إسناده صحيح.

وعن السائب بن يزيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى ولا طيرة)، وعن السائب بن يزيد أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى ولا صفر ولا هامة).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى ولا صفر ولا هامة).

وعن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مثله.

(لا صفر) فيها تأويلات وتفسيرات، بعضهم يقول هو شهر صفر لأن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون به، أنه مرض أو داء يصيب الإنسان، ونفى النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك. (ولا هام)؛ قالوا داء يصيب البطن، وقالوا هي طائر كالبوم يتشاءمون به، وهو ليس في عصب ما نتكلم فيه.

اليوم إن شاء الله سنتكلم على مسألة مهمة جداً تختص أيضاً بمسألة القدر، وهي مسألة العدوى. سنبيّن المسألة حتى ننظر الشرع كيف عالج هذه المسألة؟ وهل هي حقيقة شرعية؟ يعني الواقع يصدقه أم لا، لأن كثير من العلماء قالوا الواقع يصدقه، وبعض العلماء الشرع أنكروا جداً على الأطباء.

أقول إن الله جلَّ في علاه هو الذي كوّن الكون وهو العلي القدير، هو الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، سبحانه جلَّ في علاه، بيده مقاليد كل شيء، هو الذي أضحك وأبكى، هو الذي أمات وأحيا، وبيده كل شيء سبحانه جلَّ في علاه. حتى العدل والكيف إن الله جلَّ في علاه خلقه؛ ما من إشارة، ما من يقظة، ما من نوم، ما من حركة، ما من سكون إلّا وخلقه الله جلَّ في علاه وهو الذي يتحكم فيه. والله جلَّ في علاه خلق الأسباب وربطها بمسبباتها، وإن الله جلَّ في علاه إن شاء عطّل هذه الأسباب عن التأثير. إن الله جلَّ في علا خلق النار وجعلها سبباً في الإحراق، ومع ذلك فإن الله جلَّ في علاه قادر أن يعطّل هذا السبب عن التأثير، وهذا حدث واقعاً نشاهده ونسمعه ونستيقن به؛ إبراهيم -عليه السلام- أضرموا له النار وألقوه في النار موثقاً بالحبال (بالسبب)، فالله جلَّ في علاه أمر النار أن تتعطل عن التأثير، هي سبب للإحراق وما أحرقت وما ذلك إلّا لأنها تأتمر بأمر الله جلَّ في علاه: (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) [الأنبياء:69]، حتى الحبال أمامهم تحترق وهو لا يمسه شيء. وأبو مسلم الخولاني من التابعين حدث معه ما حدث مع إبراهيم -عليه السلام-.

بل النبي -صلى الله عليه وسلم- عطّل الله له الأسباب؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعته امرأة يهودية على شاة مصلية وكان يحب الذراع فأهدت له ذراع مسمومة، ونهش منها نهشة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني أخذ وأكل جزءً منه النبي -صلى

الله عليه وسلم- وأخبرته بعد ذلك أنها مسمومة. انظروا إلى تعطيل الأسباب؛ الصاحب الجليل الذي كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أكل منها نقول مات بعد أيام، ولذلك اقتص النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذه المرأة وما كان يريد أن يقتص لنفسه، وأكل منها النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم تؤثر فيه في الحال، وإن قلنا أنها بعد حين أثرت لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أنه تأثر بالأكل من هذه الشاة المسمومة، فعطلها الله جلَّ في علاه في هذا الوقت.

يوشع بن نون؛ إن الله جلَّ في علاه أجرى الأسباب أن الليل والنهار يتعاقبان، الشمس تجري لمستقر لها حتى تغيب فتسجد عند العرش ولها وقت معين عند المغيب، فلمّا أشرفت على المغيب وكان يوشع بن نون قد أمِر أن يدخل الأرض المقدسة قبل أن تغيب الشمس، ماذا حدث؟ دعا الله جلَّ في علاه فأوقف له الشمس.

وأيضاً في حديث فيه الأربعة أقوال: موضوع، صحيح، ضعيف. حديث علي بن أبي طالب أنه نام النبي -صلى الله عليه وسلم- على حجره وهو لم يصلِّ العصر، فخشي أن يوقظ النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو نائم، فلم يصلِّ العصر لمكان النبي -صلى الله عليه وسلم- من حجره. ولسنا بصدد تفصيل الكلام حديثياً عليه، قلت فيه الأربعة أقوال. فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- الله جلَّ في علاه فرد الشمس لعلي بعدما غابت، فرد الشمس لعلي فصلى علي الصلاة في وقتها. الغرض المقصود؛ هذه الأسباب والله جلَّ في علاه عطّلها عن التأثير. تروى في السير قلنا كما قال أحمد: إذا جاء في السير فنكف، المسألة لا نعنت ولا نشدد في الأسانيد.

خالد بن الوليد لمّا دخل على الأمير من وراء الروم فهو يجادله في مسألة القتال أو الجزية، فقال له: أرأيت إن شربت أمامك هذا السم فلم يؤثر فيّ، أتؤمن؟ وهذا دلالة على قوة يقين وإيمان خالد، فشرب السم ولم يؤثر فيه. قال: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، فعطل الله تأثير السم على جسد خالد -رضي الله عنه وأرضاه-.

فالحاصل هناك أسباب خلقها الله جلَّ في علاه لها تأثير والله قادر أن يعطّل هذا التأثير، لأن كل شيء بيد الله جلَّ في علاه، وهذا هو من أهم الأبواب في القدر: أن تعتقد بأن مقاليد كل شيء بيد الله جلَّ في علاه، وأن الله جلَّ في علاه خلق كل شيء فقدّره تقديراً. هذا مجمل المعاني التي تحوم حول هذه الأحاديث التي تليت علينا.

تبقى مسألة وهي من أعظم المسائل، وهي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى)؛ هذا نفي، وهذا النفي يتضمن النهي، وأبلغ في النهي لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا عدوى)، كأنه يقول: لا تعتقدوا أن هناك عدوى، هنا النفي الذي يتضمن النهي.

هذه المسألة شائكة جداً لأن العلماء وقفوا وقفة طويلة أمام هذه الأحاديث، فقالوا هل هناك عدوى أم لا؟ هل هناك مرض معدي أم لا؟ والذي جعلهم يسألون هذا السؤال: لو ما عندنا إلّا هذا الحديث (لا عدوى ولا طيرة) ما عنّ السؤال وما نجم، لكن هناك أحاديث أخرى تخالف هذا الحديث، هذه الأحاديث التي جعلت العلماء يقفون معظمين ويقولون هل هناك عدوى؟ هل هناك أمراض معدية أم لا؟

الأحاديث التي جعلت العلماء يسألون هذا السؤال:

▪ أولاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح مسلم: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، لا تجتمع معه في مكان، لا تمسه لأن الجذام ينتقل على ما يقولون، يعني هذه إشارة أنه ينتقل سريعاً.

▪ وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يورد ممرض على مصح)؛ صاحب الإبل المريضة لا يأخذها إلى الإبل الصحيحة، أو صاحب الإبل الصحيحة لا يأتي على الإبل المريضة لأنه سيحدث العدوى، هذا الذي قاله العلماء. فهذه أحاديث تثبت العدوى، قالها النبي -صلى الله عليه وسلم-.

▪ وأوكد من ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من سمع بالطاعون في أرض فلا يدخلها ولا يخرج منها أحد)، وهذا طبياً اسمه الحجر الصحي، هذه من السنن أصالةً "الحجر الصحي". النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ألّا يدخل ولا يخرج من هذه البلدة أحد حتى لا يعدي على ما يقولون، وإذا دخل الثاني حتى لا يصل إليه المرض.

فهذه أحاديث طويلة وشديدة صحيحة صريحة أو نقول غالب الظن فيها أنها تصرّح من بعد أن هناك عدوى، فلذلك قال العلماء: هل هناك عدوى أم لا؟

لمّا اختلفت أنظار العلماء والفهوم كلها تختلف، ظهر لنا ما يقرب من سبعة أقوال للعلماء في هذه المسألة، حتى نستخلص ما هو الراجح فنبيّن هذه الأقوال ثم نبيّن الراجح ثم نرد على المخالف.

العلماء الذين قالوا بالعدوى قالوا:

١- أولاً العدوى موجودة، النفي الذي جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- نفي الاعتقاد الجاهلي، لأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن هذه الأمور تعدي وتمرض بذاتها، ليست سبباً، بل هي بذاتها تنتقل إلى الأجسام. وهذا اعتقاد شركي، أنهم يعتقدون أن هناك رب غير الله جلَّ في علاه. ما من متحكم في الدنيا بأسرها صغير ولا كبير، دقيق ولا جليل إلّا الله جلَّ في علاه. فإذا قالوا هناك مرض يعدي بذاته، بطبعه، فهذا شرك في الربوبية،

فنفى النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الاعتقاد الشركي وقال: (لا عدوى)، يعني لا عدوى تعدي بذاتها بطبعها، فنفى أن تعدي بذاتها أو بطبعها.

والأحاديث الثانية أثبتت أن هناك عدوى لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، هذا قولاً. وبالفعل: النبي -صلى الله عليه وسلم- جاءه رجل مجذوم يريد أن يبايعه، فكف النبي -صلى الله عليه وسلم- يده ما بايعه باليد، قال: (بايعتك)، ولم يرد أن يصافحه حجراً، حتى لا يصل المرض إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، على ما قاله العلماء. إذاً القول الأول: القول المنفي هنا الاعتقاد، أو المثبت هو أنها تعدي كسبب وليست بطبعها ولا بذاتها.

وهذا القول عليه عامة العلماء، وأصل القول للبيهقي ونصره ابن القيم وأيضاً ابن رجب الحنبلي، فقالوا بأن هذا القول هو أقوى الأقوال وعليه عامة العلماء.

٢- القول الثاني قول انتصر له ابن حجر وهو قول ابن جرير الطبري وهو قول الطحاوي كما في شرح معاني الآثار، قال: (لا عدوى)، لا بذاتها ولا سبب، صراحة كنت أدين الله بذلك: لا سبب ولا بذاته، يعني ما في شيء اسمه عدوى ولا المرض ينتقل بهذه العدوى. واستدلوا على ذلك بالنفي المحكم القاطع الصريح من النبي، قال: (لا عدوى)؛ لا عدوى بذاتها ولا عدوى بطبعها، ولا عدوى حتى أن تكون سبباً لأن النفي على العموم. فنفى النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تكون عدوى بذاتها أو تكون سبباً.

قالوا إذاً هذه الأحاديث التي نوردها عليكم تثبت العدوى؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (لا يورد ممرض على صحيح)، (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، فماذا تقولون؟ قالوا هذه من باب سد الذريعة وحسم المادة، لعل الرجل إذا زار أو عاد الرجل المجذوم أو سلم عليه أو أكل معه في الصحفة فأراد الله وقدر الله عليه أن يصاب بهذا المرض ماذا الذي سيحدث في قلبه؟ يقول: عداني فلان، ويبغضه ويحقد عليه وتحدث المشاحنة والشجار ويتفشى بين الناس الشر والحقد والحسد والمشاحنة التي لا يقبلها الشرع. فقالوا: حسم النبي -صلى الله عليه وسلم- المادة وسد الذريعة وحتى لا تتسرب هذه العقيدة الخربة الشركية إلى القلب، قال: لا يأتي المريض على هذا المصح، لا يسلم الرجل السليم الصحيح على المجذوم. فقالوا: إذاً هذه أحاديث ليست إلّا حسماً للمادة وسداً للذريعة.

قلنا هاتوا ما يقوي قولكم، ما زلنا على الاحتمال. قالوا: عندنا أن رجلاً أعرابياً جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: البعير صحيحة ما فيها شيء ويأتي الجمل الأجرب فيكون فيهم فينتشر الجرب في البعير، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن أعدى الأول؟)؛ كأنه يقول هذه العدوى انتشرت يا رسول الله، فيقول النبي -صلى الله عليه

وسلم- رداً عليه: (فمن أعدى الأول؟). هذه البعير قد مرضت بسبب هذا الجمل الأجرب، من الذي أمرض الأول؟ من الذي قدّر المرض على الأول؟ فسكت الأعرابي، وهذه فيها دلالة على أن المسألة كأن الإجابة "تأتي بقدر الله"؛ فإذاً الإجابة على البعير وأيضاً هم أجربوا بقدر الله، يعني ليست بالعدوى على أنها سبب.

وأيضاً هناك حديث صريح جداً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يعدي شيء شيئاً)، وهذا أيضاً على العموم، (لا يعدي شيء شيئاً) هذا عام في النفي. قالوا إذاً هذه فيها دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نفى نفياً عاماً عن العدوى، فإذا قدّر الله جلَّ في علاه نقول كلٌ بإذن الله جلَّ في علاه؛ (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) [التوبة:51]، (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا) [الحديد:22]، فالمسألة بيد الله جلَّ في علاه.

القول الأول والثاني من أقوى الأقوال.

٣- القول الثالث، وهذا القول الذي ارتقيت إليه وتبنيته بعد أمد من الدهر بأن أنا كنت أتبنى القول الثاني. هذا هو قول الخطابي: النفي على العموم؛ نفى النبي -صلى الله عليه وسلم- العدوى على العموم وخصص أمراض معينة هي التي تعدي.

قالوا: النفي على العموم، (لا عدوى) أي لا عدوى إلّا في أمراض معينة خاصة، ليس بكل مرض، ليس كل مرض معدي، المرض المعدي فقط: الجذام والبرص أو ما شابه. واستدلوا على ذلك وهذا وجه من الجمع على القوة بمكان، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى)، فنفى العدوى كليةً، لا بذاتها ولا سبب، ثم لمّا أثبت ما أثبت بكل الأمراض، أثبت العدوى في الجذام فقال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد). فقالوا: هذه تكون خاصة في هذا المرض فقط وما يشابه هذا المرض، سواء الكوليرا أو غيرها الذي يشابه الجذام هو الذي يكون فيه العدوى، وهذا قول الخطابي، وهو قول صراحةً متين. فالقول الثالث؛ قالوا: النفي عام لكن يخصص بهذه الأحاديث على مرض واحد وهو الجذام وما يشابه الجذام.

٤- القول الرابع: قالوا بالنسخ؛ قالوا: (لا عدوى) عامة محكمة وهي الناسخة لحديث أبي هريرة (لا يورد ممرض على مصح). قالوا أحاديث العدوى (فر من المجذوم) وغيرها منسوخة بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى). إذاً نفي تام: ما في عدوى، سداً للذريعة وحسماً للمادة لأنه ما في عدوى أصالةً، وهذا قول ضعيف جداً. قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، هذا من باب المواساة للمجذوم على أن الإنسان لو رأى المجذوم ففر منه واشمأز سيتحسر قلبه، ويمكن أن يتسخط على قدر الله، فلذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال بأن لا تواجهه لأنك لو واجهته ووقفت أمامه فنظرت ما هو فيه من مرض اشمأززت، فإن اشمأززت

فطال الأمر على قلبه فتسخط على قدر الله جلَّ في علاه وتحسر على نفسه وما فيه من مرض. فإذاً كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فر من المجذوم) رفقاً بقلب المجذوم، والصحيح أنه لا عدوى. يعني المسألة لا تخص العدوى، (فر من المجذوم) لا للعدوى ولكن حتى لا يتحسر هذا المريض ورفقاً بقلبه، فهذا عذر أيضاً قالوه في مثل هذا الحديث.

٥- القول الخامس: قالوا بالترجيح؛ بعضهم رجّح العدوى وقالوا الواقع يصدقها، (ولا عدوى) النسخ يكون منسوخ، يعني جعلوا الناس النسخ هو المنسوخ.

٦- القول السادس: قالوا الحديث (لا عدوى ولا طيرة) ثابت ومحكم، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم فرارك من الأسد) ليس من أجل العدوى، بل هي المسألة مخالطة الجسد بالجسد ممكن أن ينتقل المرض، ليس بسبب العدوى. وهذا صراحة من أضعف الأقوال.

فهذه أقوال للعلماء أقواها الثلاث الأولى أو الأربع الأولى:

❖ القول الأول: أن هناك عدوى كسبب وليست بذاتها ولا بطبعها.

❖ والقول الثاني: لا عدوى لا هي سبب ولا تعدي بذاتها، والنفي عام ومحكم، وأمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم) حسماً للمادة وسداً للذريعة.

فما الأقوى من هذه الأقوال السبعة؟ أنا صراحة كنت أقول بالقول الثاني وأن النفي محكم. وأمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم)، (لا يورد ممرض على مصح)، كل هذه الأحاديث محتملة ويرد عليها ما يرد؛ يرد عليها أنها حسماً للمادة، يرد عليها أنها سداً للذريعة، يرد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قالها في حال وفي حال.

٧- القول السابع: إن بعضهم قال: كل حديث يحمل على حاله، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى) هذا لقوي التوكل يأخذ بيد المجذوم ويأكل معه ويذهب إلى المريض، لو كان توكله على الله قوي يأخذ بهذا الحديث (لا عدوى). واستدلوا على ذلك بفعل عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، كان لها مولى مجذوم فكان يأكل في الصحفة وتأكل هي في الصحفة التي يأكل منها المجذوم. وأيضاً حديث مرفوع لكنه ضعيف؛ سلمان أخذ بيد المجذوم ووضعها في الصحفة وقال: كل بسم الله، يقيناً في الله توكلاً على الله. فقالوا من قوي توكله يأخذ بحديث (لا عدوى)، ومن ضعف توكله يأخذ بحديث (فر من المجذوم) حتى لا يحدث له المرض.

فهذه أقوال كثيرة جداً، وكنت أقول الأقوى من هذه الأقوال أنه لا عدوى بحال من الأحوال وهذه حسماً للمادة، ثم قلت بالقول الثالث أن العدوى يمكن أن تكون في أمراض

وبعض أمراض لا يكون فيها عدوى، وهذا التوسط بين القولين من هذه الأقوال الثلاثة أقوال قوية جداً.

كثير من الأطباء، أنا مشايخي السبعة أطباء، والسبعة يقولون بالعدوى لأنه طبياً عندهم أن الواقع يصدق أن هناك عدوى، وكنت دائماً أردد قول ابن حجر: لا عدوى عموماً ولا يؤبه لقول الأطباء -سامحوني على المقولة أنا أنقلها فقط ولا أوافقها- الجهلة بالشرع. سامحوني أنا آسف جداً ما أقصد هذا، لكن هذا نقل عنه. فأقول: الشرع لا يخالف الطب ولا يخالف الواقع. فصراحة تعبت جداً في البحث ووجدت أن الواقع يصدق هذا، والأمر الثاني أن الشرع يمكن أن يحتمل هذا القول الذي أن بعض الأمراض معدية وبعض الأمراض لا تعدي. وإن كان الأسلم أن نأخذ بالقول الثاني لكن أنا أرجح القول الثالث.

تبقى لنا مسألة في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى ولا طيرة)، شرحنا الطيرة وانتهينا منها، يبقى فيها مسألة واحدة ألا وهي: لو تطير الإنسان؛ ما منا من أحد إلّا ويأتي في قلبه يرى امرئً مثلاً فيحدث معه مصيبة أو يحدث عند كلامه مصيبة فماذا يفعل؟ لو جاء في قلبه بعض التشاؤم أو التطير كيف يعالج ذلك؟

معالجة التطير بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- في أمرين اثنين مهمين:

- الأمر الأول: قوة التوكل على الله، ولذلك الحديث عن ابن مسعود، والخلاف بين المحدثين هل هذا مدرج من كلام ابن مسعود أو من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- والأصل عدم الإدراج؛ قال ابن مسعود يرفعه عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما منا من أحد إلّا [يعني يقع في قلبه التشاؤم والتطير] ويذهبه الله بالتوكل)، فقمة أو قوة التوكل تذهب هذا التطير ولا يحاسب عليه المرء.

- الأمر الثاني: الدعاء؛ أن يدعو الله جلَّ في علاه ويقول هذا الذكر: (اللهم لا خير إلّا خيرك ولا طير إلّا طيرك ولا إله غيرك)، فهذا الدعاء يحفظ المرء من التطير حتى لو تشاءم من مسألة معينة، لو قال هذا الدعاء لا يكتب عند الله جلَّ في علاه أنه وقع في التطير.

الفوائد المستنبطة:

١- النكرة في سياق النفي تفيد العموم، من أين هذه؟ (لا عدوى)؛ "عدوى" نكرة في سياق النفي فإذاً تفيد العموم، والعموم معناه لا عدوى بطبعها ولا عدوى كسبب، نفي عام، ثم تأتي الأدلة تخصصها على ما قلناه (فر من المجذوم فرارك من الأسد).

٢- رد المختلف فيه إلى المتفق عليه، وهذه من وجاهة الفقيه المناظر؛ إبراهيم -عليه السلام- لما ناظر النمرود قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) [البقرة:258]، ماذا قال؟ قال

سفسطة: الرجل هذا أقتله فقد أمته، وهذا أتركه فقد أحييته. فماذا قال إبراهيم؟ ما جادله لأنها سفسطة، رد المختلف فيه إلى المتفق عليه. قال له: (فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) [البقرة:258]، من أين استنبطنا هذا؟ قال له: البعير أجربت، نأتي إلى المتفق عليه فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أعدى الأول؟) فكأن الأعرابي سيسكت ويقول: الله هو الذي قدّر ذلك.

نستخلص من هذه الأحاديث أن قمة التوكل تجعل الإنسان يقول لا عدوى كلية، وإن خف توكله فيقول العدوى في أمراض معينة لا في عموم الأمراض.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك وجزاكم الله خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثالث والأربعون: مراجعة على ما سبق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

الحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله على نعمة الطلب، إذ أن الإنسان بغير طلب العلم يتزعزع ولا يستطيع أن يقف أمام الأمواج المتلاطمة من الشبهات، قبل أن آتي إلى هذا الدرس جلست مع رجل هي عشرة أيام فقط ومعنا الشيخ يحيى شاهد علينا بذلك والأخ شوقي، عشرة أيام فقط ترك أهل الخير والفضل وجلس وسافر إلى بلده، جلس فقط مع بعض العلمانيين فأطاح برأسه وأطاح بإيمانه، إيمانه طار في الهواء، ما أصبح كالظلة بحيث أنك لو ناقشته استطعت أن تثبته في قلبه، لا والله أطاح بإيمانه وأطاح برأسه. وتأويل ذلك أن الرجل وإن كان عظيماً أمامك لكن إن كان من الداخل خاوياً لا علم له يسهل التأثير عليه، يسهل أن تشبه عليه الأمور وأن تلبس عليه الأمور، جاءته الشبهات في الكتاب في أكثر من آية يقول: هذا الكتاب متناقض، كلام الله متناقض، وأتى بأكثر من آية المشتبهات التي يصح ويسهل عليك أن ترد عليه، وأيضاً في بعض الأمور يشكك في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويشكك في القرآن ويشكك في الدين الإسلامي ومع ذلك سيشكك في الله جلَّ في علاه.

فالحاصل من الذي يمكن أن يستطيع أن يثبت أمام هذه الهجمة الشرسة على هذا الدين؟ الذي كتب الله له الانتشار بفضل من ربنا ونعمة ورحمة وكرم منه، الذين يتعلمون هذا

العلم، الذين يعملون بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بلغوا عني ولو آية)، والذين يعملون بقول الله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ) ما ترك، قيّد (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:108]. فنسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن يحرص على الطلب ويعض على ذلك بالنواجذ كما فعلنا في الأسبوع الماضي، ما من درس دخلنا فيه إلّا ووجدنا خمولاً قاتلاً من الإخوة فأردنا تهييج مشاعر الطلب عند الإخوة، وأيضاً الركائز التي درسنا عليها الدروس التي مضت لابد أن نراجعها مع الإخوة. المراجعة ستكون صعبة وشاقة لأن الباب الذي وقفنا عنده هو باب القدر، وهو أعظم الأبواب في مسألة العقيدة، ومن أتقن باب القدر فقد أتقن نصف العقيدة، إن لم يكن أن نقول قد أتقن العقيدة. فهذا الباب باب وعر جداً باب ليس بالهين، وقد تكلمنا فيه في أكثر من مسألة. واليوم إن شاء الله سنمر على الركائز التي تجعل الأخوة تتذكر ما قيل في باب القدر، ثم ندخل في حديث أو حديثين حتى أيضاً ننجز ما علينا.

القدر هو قدرة الله جلَّ في علاه، القدر هو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، هو صفة من صفات الله كما تقول لله يد، لله وجه، لله عين، لله سمع، لله بصر، فالقدر صفة من صفات الله جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) [البروج:15-16]، وقول الله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، وقول الله تعالى: (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأَرْضِ ولَمْ يَتَّخِذْ ولَدًا ولَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْكِ وخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) [الفرقان:2]. وحديث في الصحيحين عن عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- أن رجلاً دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، فسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإسلام والإيمان، النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما أجابه عن الإسلام أجابه عن الإيمان قال: (والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته) إلى أن قال: (والقدر خيره وشره)، وفي رواية عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- في الصحيح صحت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره).

ما هو خير القدر وشر القدر؟ وما هو حلو القدر ومر القدر؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (آمنت بالقدر خيره وشره حلوه ومره)، الحلاوة والمرارة تظهر وقت وقوع البلية والمصيبة أو وقوع ما يستبشر به المرء، هذه تكون فيها الحلاوة وتكون فيها المرارة، هذا معنى (حلوه ومره). والعاقبة إذا كان رضي وشكر فله في العاقبة الثواب وإن لم يصبر وتسخط فله بعد ذلك في العاقبة العقاب، هذا معنى (خيره وشره). فقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (آمنت بالقدر)، بكل القدر، بما قدره الله، بما كتبه الله جلَّ في علاه. (آمنت بالقدر خيره وشره) في العاقبة، قبلها يكون حلوه ومره عند وقوع البلية والمصيبة، ولذلك لمّا مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على المرأة وهي تبكي من فقدته من أبنائها فقال لها: (اتقي الله واصبري)، هنا يظهر خيره وشره قالت:

إليك عني إنك لم تصب بمصيبتي، فلمّا ذهبت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تستعتب، قال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى). فالغرض المقصود هنا أيضاً الإيمان بالقدر كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره).

والقدر قدرة الله جلَّ في علاه، أخفاه الله عن الخلق أجمعين، سر من أسرار الغيب لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومن عمّق النظر في القدر ضل وتاه ولم يستطع أن يقف على أرض صلبة، ومن لم يسلّم لله تمام التسليم ما آمن بالقدر. والقدر ركن من أركان الإيمان، لا يستقيم إيمان عبد بحال من الأحوال إلّا أن يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن الإيمان فذكر أركان الإيمان وذكر من أركان الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشره، وفي الحديث أيضاً (إن مت على غير ذلك دخلت النار) يعني إن مت على غير الإيمان لأن ما أصابك لم يكن يخطئك، وهو مكتوب عند ربنا جلَّ في علاه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، مت ودخلت النار. وفي الحديث الذي في الصحيحين في احتجاج آدم وموسى، أن موسى -عليه السلام- قال: أنت آدم؟ أنت أبو البشر؟ أنت الذي أخرجتنا وأخرجت نفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وبرسالته؟ تراجعني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- حينئذ: (فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى) الحجة كانت مع آدم على موسى.

فقد قال الله تعالى مبيناً أن ما أراده الله جل في علاه قد كتبه وسيكون وسيقع، ولو اجتمع من في أقطارها على أن يدفعوا هذا الأمر لن يدفعوه، قال الله تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]. وفي المسند بسند صحيح عن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا غلام احفظ الله يحفظك) في الحديث قال [الشاهد بالقدر]: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك) هم أسباب لكن لن ينفعوك إلّا بما كتب في السماء، (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف). وحديث عبدالله بن عمر بن الخطاب حديث صريح مثل ذلك؛ خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه بكتابين، كتاب في اليمين وكتاب في الشمال، الشمال في يد النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن إذا تكلمنا عن الله جلَّ في علاه نقول (وفي اليد الأخرى) على ما رجحنا سابقاً، فقال في الكتاب الذي في اليمين: (هذا فيه أسماء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك) لا يزاد عليه ولا ينقص، (ثم أخذ الكتاب الذي في اليد الأخرى فقال: هذا كتاب أهل النار فيه أسماؤهم

وأسماء آبائهم) ولا يزاد على ذلك ولا ينقص، ثم قال: (فرغ ربكم من العباد)، إن الله جلَّ في علاه كتب أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

إذاً هذا هو القدر، وهذا هو الركن الركين من الدين، وهو الركن السادس من الإيمان، لا يستقيم إيمان عبد حتى يؤمن بالقدر، بل ويؤمن ويعتقد اعتقاداً جازماً أنه إذا وضع يده على خده هذه بقدر وإن ابتسم فبقدر وإن بكى فبقدر، قال الله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ) [النجم:43]، وفي السند الصحيح عن ابن عمر قال: (إن الله خلق كل شيء)، حتى إن وضعت يدك على خدك فهذا قد كتبه الله جلَّ في علاه قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة. ولن يؤمن عبد بحال من الأحوال ولن يستقيم إيمانه بالقدر إلّا أن للقدر أربع مراتب:

الأصح أن نقول: علم فكتابه فمشيئة فخلق.

١- المرتبة الأولى العلم: لابد أن تتقن بأن الله علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، لو أتقنت واعتقدت اعتقاداً جازماً بأن الله جلَّ في علاه يعلم كل ما مضى ويعلم ما سيأتي، يبقى إذاً لك ويسهل عليك أن تعتقد أنه بعلمه على ما سيأتي كتبه وأيضاً خلقه لأنه يعلم ما سيحدث. فأول المراتب هو أن تؤمن بعلم الله جلَّ في علاه الذي أحاط بكل شيء، إن الله جل وعلا أحاط بكل شيء علماً، علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، الله يعلم كل شيء. (إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [البقرة:110]، (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [البقرة:271]، (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) [الأنعام:59].

فإن الله جلَّ في علاه يعلم كل شيء، "علم ما كان"؛ وقد قص علينا ما كان من وقعة إبليس وأنه أمره بالسجود لآدم، علّم آدم الأسماء. "وما يكون"؛ علم الله جلَّ في علاه ما يكون، قال الله تعالى عن المنافقين للنبي -صلى الله عليه وسلم- يبين له ما أخرجنا المنافقين معك لأنهم لو خرجوا سيحدث كذا وكذا، (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة:47]. وأيضاً مما يكون في حاضر وفي واقعنا الآن (بين يدي الساعة سنون خداعة)، وعلامات الساعة كلها التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- كلها بعلم ما يكون.

"وعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون" فيها أدلة كثيرة، وطبعاً هي على قسمين: قسم ممكن وقسم مستحيل.

- ما لم يكن لو كان كيف سيكون من الممكنات؛ (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ) المنافقون ما خرجوا، لكن لو خرجوا، هو لم يحدث، من الممكنات، (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا

وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة:47]. وفي الأنفال (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ) [الأنفال:43]، الله يبين أن أهل الكفر أن الله جلَّ في علاه لو رأى فيهم خيرًا لأسمعهم، ولو أسمعهم ماذا سيحدث؟ هذا لم يكن لو كان كيف سيكون؟ قال الله عنهم أنهم سيتولون وهم معرضين. (لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) [الحشر:12].

(جواب) استدل بأن غلام الخضر الذي قتله طبع كافراً، لو عاش لصار كافراً ولكفّر أباه ولكفّر أمه لذلك قتله الخضر، هذه بالممكنات.

▪ في المستحيلات؛ (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ)، هذه من المستحيلات لو كان في أكثر من إله لذهب كل إله بما خلق، ولعلى رب الشمس يقول أنا مالك الشمس فيذهب بالشمس، ورب القمر يقول ما في قمر الليلة أنا رب القمر لابد تعبدوني وحدي. لو حدث هذا لفسدت السماوات والأرض، الله جل وعلا يبين (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء:22]، هذا من المستحيلات. كأن الله يبين لنا لو كان هناك أكثر من إله لفسدت السماوات والأرض.

أمر آخر (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا) [الأنعام:27-28]، هنا الشاهد (وَلَوْ رُدُّوا) وهذا ممكن ومستحيل، كيف ذلك؟ ممكن في قدرة الله جلَّ في علاه، لكن مستحيل لأن الله كتب على أن من مات لا يرجع إلى الدنيا مرة ثانية. (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) يعني لو ردوا إلى الدنيا وجاءهم الرسول مرة ثانية لعاتبوه وقاتلوه وردوا دعوته، (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [الأنعام:28]، وبين الله أن في هذا الكذب ولذلك استحقوا العذاب الأليم.

أول مرتبة من أهم المراتب في القدر التي يمكن أن تستيقن بأن الله جلَّ وعلا قدّر كل شيء عنده علم كل شيء، وقد أخطأ المعتزلة في هذا الباب خطئاً فاحشاً، لأن المعتزلة على قسمين: قسم فيهم الغلو وقسم فيهم أقل من الغلو.

◆ القسم الذي فيهم غلو نفوا العلم كلية، وهؤلاء الذين قال فيهم الشافعي: خاصموهم بالعلم فإن أقروا فقد خصموا؛ انتهى الموضوع، التناقض وقعوا فيه لأن الله يعلم كل شيء، يعلم من العبد، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. وإن ردوا العلم فقد كفروا؛ لأنهم نفوا صفة ثابتة لله جلَّ في علاه وبالإجماع هي صفة العلم.

◆ وأما الأخف منهم هم الذين يثبتون العلم لكن لا يثبتون أن الله قد خلق أفعال العباد. وهذا المثل المشهور جداً الذي يمثله الشيخ رحمة الله عليه أنه أراد أن يمثل للناس لِمَ لا تؤمنون بأن الله كتب كل شيء؟ كالمدرس عنده التلاميذ وهو مجرب هؤلاء التلاميذ،

اختبر التلاميذ، فهو يقول هذا التلميذ بارع متقن سيأتي في الاختبار مئة بالمئة، والآخر هذا بارع سيأخذ تسعة وتسعين، والثالث يأخذ تسعين، ومثل التلاميذ وكتب أرقامهم، بعدما انتهى الاختبار واختبروا وجاء الذين يعلمون الورق، بعدما علموا الورق نظر في الورق فوجد الذي كتبه هو نفس الدرجة التي أخذها الطالب فأصبحت مسابقة على أنه كان خبيرا بهؤلاء فكتب لهم درجاتهم، الناس كثيراً انبهروا بهذا المثل وهذا المثل فيه ما فيه لأن هذا المثل فقط يثبت أن الله يعلم ما يكون فقط. لكن هل أثبت أن الله هو الذي خلق فعل العبد؟ تقول كأن المدرس هو الذي نجح أو وفق التلميذ إلى أن يصل إلى تسعة وتسعين درجة أو المئة درجة، نفاها. أقول لك فهذا أيضاً نوع من الاعتزال، وهو أنهم ينفون أن الله يتحكم في أفعال العباد، وهذه التي سنأتي إليها إن شاء الله من مراتب القدر.

٢- المرتبة الثانية الكتابة؛ علم كل شيء علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، كتب كل شيء، كتب أن الله جلَّ في علاه سيأمر إبليس ليسجد لآدم فيرفض ويتكبر ويتجبر ويطرد من الجنة، كتب هذا في اللوح المحفوظ. كتب الله جلَّ في علاه ان أهل الإسلام سيكونون في ذلة وتتكالب عليهم الأمم، وهذا كله بعد ما علمه جلَّ في علاه، وهذا طبعاً يخضع وينأى إلى رحمة وحكمة وعدل من الله جلَّ في علاه. فإن الله كتب كل شيء كما قال الله تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) [القمر:49]، (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) [القمر:52-53]، مسطر ومكتوب في اللوح المحفوظ، فإن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

وهذه الكتابة أيضاً تجعلك تتقن الإيمان بالقدر بأن الله جلَّ في علاه، قدّر كل شيء وكتب كل شيء، بعد ما قدّره علماً قدّره كتابة، وكتب في اللوح المحفوظ كل ما حدث وكل ما يحدث في هذه الدنيا إلى يوم القيامة، حتى أهل الجنة وحتى أهل النار كتب الله كل شيء. ولإتقان هذه الكتابة التي تؤمن بها بأنها مرتبة من مراتب القدر حتى ترتاح قلباً وتعلم أن ربك يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء وكتب كل شيء، إن الكتابة لها أنواع أربعة:

▪ كتابة الكلية: هي الكتابة في اللوح المحفوظ، أن الله جل في علاه كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، الآية التي تدل على ذلك (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكتاب) [الرعد:39]، يعني مكتوب في أم الكتاب. (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) [الأنبياء:105]، أين وجه الدلالة؟ (الزَّبُورِ) هذا الذي أوتيه داوود -عليه السلام- ونزل عليه، فقال: (كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ) يعني من بعد ما كتبنا في الذكر، والذكر هنا هو اللوح المحفوظ. (إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ) [الحج:70] يقصد به اللوح المحفوظ، يعني القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ. هذه كتابة الكلية وهي كتابة اللوح المحفوظ، طبعاً دلالة

على ذلك بعد الآيات التي ذكرت حديث الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة). فهذه كتابة كلية كتابة اللوح المحفوظ، وغاية هذه الكتابة أو قل اتقان هذه الكتابة التي تنفعك أنها لا تتغير ولا تتبدل، لا شيء كتب في هذا يُغير بحال من الأحوال، ما كتب في اللوح المحفوظ لا يعتريه التغيير فهو ثابت إلى يوم القيامة، إلى ما يحدث نهاية العالم هذا ونهاية الدنيا ويدخل أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار، هذه ميزت هذا الكتاب، فالكتاب الأول الكتاب الكلي لا يتبدل ولا يتغير.

▪ الثاني الكتابة العمرية: وهي كتابة الملك عندما يأمره الله جلَّ في علاه (بعد مرور مئة وعشرين يوماً يأتي الملك فيقول: أي رب الرزق؟ أي رب شقي أم سعيد؟ أي رب ذكر أو أنثى؟ ثم يقول: أي رب الأجل؟) فيكتب الأجل. وهذه الكتابة في صحائف الملائكة، وهذه الكتابة يمكن أن تتغير، يعني يمكن أن تقول يكتب في الأجل هنا (أي رب الأجل؟) فيقال قل الأجل ستون عاماً، يمكن أن يتغير ويتبدل إلى ثمانين، وهذه الدلالة فيها من وجهين:

- الوجه المشهور عندكم هو أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- طاف بالكعبة فبكى فقال: اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً [يعني في بطن أمي] فامحها واكتبني عندك سعيداً. "فامحها" دلالة على أنها تتبدل وتتغير، "واكتبني عندك سعيداً" يعني أقرها عندك في اللوح المحفوظ أنني من السعداء. يدلل على ما دعا به، يدلل أنه فاهم معتقد اعتقاداً جازماً في الله في القدر أنه قال: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ) يمحو الله ما يشاء في صحف الملائكة، (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) يعني في صحف الملائكة، وعنده كتاب لا يتبدل (وَعِنْدَهُ أُمُّ الكتاب) الذي هو اللوح المحفوظ.

- الأمر الثاني الذي هو أوجه من هذا، (داوود -عليه السلام- لمّا رآه آدم واستبشر بالنور الذي بين عينيه قال: عمره ستون، خذ من عمري أربعين وأعطيه إياه). فكل هذا وكل ما كتب في كتب الأجل، في صحف الملائكة. لا يمكن أن تقول أنه في اللوح المحفوظ قد تبدل او تغير. نعم. (من أحب أن يزاد له في عمره)، إن قلنا الزيادة حقيقية وليست البركة، والصحيح أنها زيادة حقيقية مع وجود البركة، وهذه تدل على أن هذه الزيادة تكون في صحف الملائكة.

▪ الكتابة الثالثة كتابة عامية: يعني في العام، وهذه الكتابة في ليلة القدر، الذي يقدر فيها الإحياء والإماتة والرزق، كل ما يحدث في هذا العام يكتب في هذه الليلة. فهذه كتابة عامية كما قال ابن عباس في تفسير (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) [الدخان:4]، بيّن هذا الأمر.

▪ الرابعة الكتابة اليومية: التي في صحائف الملائكة

وقلنا أيضاً كل هذه الكتابات يمكن أن يتغير فيها أشياء؟ نعم، يمكن ان يتبدل فيها أشياء؟ نعم، يمكن أن يتبدل فيها أشياء لكن اللوح المحفوظ ثابت. فهذه المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر.

٣- المرتبة الثالثة المشيئة: يعني ما من شيء في الكون ساكن أو متحرك، قائم أو نائم، ميت أو حي إلّا بمشيئة الله جلَّ في علاه. ما يمكن لك أن تقول أن هناك شيء يحدث في هذه الدنيا بأسرها إلّا والله قد أراده، إلّا والله قد خلقه، إلّا والله قد شاءه، سبحانه وتعالى ما شاء كان وما لم يشأ لا يمكن أن يكون. فمشيئة الله عامة، والإرادة إرادتان: إرادة كونية، وإرادة شرعية؛ الإرادة الكونية هي المشيئة، والإرادة الشرعية هي محبة الله جلَّ في علاه.

❖ للإرادة الكونية ضابطان:

- الأول أنها تقع في كل ما يحب الله وما لا يحب الله، شيء يحبه أو لا يحبه سيقع، تكون كونية فيما يحب وما لا يحب.

- الثاني أنها تقع لا محالة، لا يمكن أن ترد.

مرض المؤمن كوني كيف ذلك؟ اضبط بالضابطين تسهل عليك، مرض المؤمن أنتم قلتم بإرادة الله أم بإرادة نفسه؟ بإرادة الله، هل هي إرادة كونية أم إرادة شرعية؟ البلية التي تقع على المؤمن كونية. اضبطوا لي الضابطين؟ هي تقع لا محالة، ما أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه المرض، إذاً سيقع لا محالة هذه أول شيء. الثاني أن الله لا يحب أن يقع المكروه على المؤمن، أما رأيت أن الله جلَّ في علاه من حبه للمؤمن يقول: (ما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن، يكره الموت وأكه إساءته)، فهو يكره ذلك يبغضه، فهو غير محبوب.

❖ والإرادة الثانية إرادة شرعية وهي المحبة، ولها ضابطان أيضاً:

- الضابط الأول قد تقع وقد لا تقع.

- والضابط الثاني خاصة فيما يحبه الله فقط.

إيمان أبي بكر ضعها في الإرادة الكونية أم الشرعية؟ إيمان أبي بكر وقع وهذا من ضابط الكونية، وفيما يحب الله جلَّ في علا فهي في الشرعية، قد قدّر الله كوناً أن يؤمن أبو بكر وأحب الله لأبي بكر الإيمان فآمن ابو بكر، فهذه توافق الكونية والشرعية.

كفر أبي لهب إرادة توافق الكونية أم توافق الشرعية؟ الكونية ليست شرعية، الله جلَّ وعلا يحب أن يسلم أبو لهب، والدليل على ذلك (وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [الزمر:7]، والواقع أنه بعث إليه محمد -صلى الله عليه وسلم- بالرسالة.

وقد قال الله عن محمد -صلى الله عليه وسلم- يصفه وصفاً دقيقاً: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [الشعراء:3]، لعلك قاتل نفسل وهو يقول لعمه إني لا أغني عنك من الله شيئاً ويدعوه إلى الإسلام، هذه دلالة أنه يحب إيمان أبي لهب.

إيمان أبي لهب؟ شرعية، يحب الله ذلك لكنها لم تقع فأصبحت كفر وكونية.

كفر المؤمن؟ هي لا كونية ولا شرعية، المؤمن لم يكفر فليست كونية، ولا شرعية لأن الله لا يحب الكفر للمؤمن بحال من الأحوال، لا يحب الكفر للكافر فكيف يحب الكفر للمؤمن؟ يعني أنا أقول مثلاً كفر أبي بكر؟ نقول لا كونية ولا شرعية؛ لا كونية لأن أبا بكر بالإجماع مات مسلماً وهو أفضل الأمة، لا كونية لأنها لم تقع، ولا شرعية لأن الله لا يحب ذلك لأي عبد من عباده سبحانه جلَّ في علاه

فالمرتبة الثالثة في مراتب الإيمان هو أن تؤمن بالمشيئة، بمشيئة الله العامة، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وإن للعبد مشيئة وهذه، لكن مشيئة العبد خاضعة لمشيئة الرب. فإن العبد له مشيئة خاصة به، ولكن هذه المشيئة مخلوقة لرب هذا العبد. قال الله تعالى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:29]، (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) [الكهف:23-24]، فمشيئة العبد مستقلة موجودة؟ نعم مستقلة موجودة رداً على المعتزلة، لكن هذه المشيئة منوطة مستلزمة أو نقول هي تابعة لمشيئة الرب جلَّ في علاه.

٤- المرتبة الرابعة وهي الخلق: علم فكتب فشاء فخلق،

لأنت تفري ما خلقت *** وغيرك يخلق ولا يفري

أي ما قدّرته تخرجه في الوجود، أمّا الذي من البشر يقدر ويخطط كيفما شاء ولا يستطيع أن يطبقه واقعاً لأنه عاجز، لأن العجز وصف ذاتي للإنسان.

فالله جل في علاه علم فكتب فشاء فخلق فأوجد وأخرج، وهذا الذي يفسر لنا (الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) [الحشر:24]، قلنا إذا اجتمعت الثلاثة أسماء: الخالق هو المقدر قدّر الأشياء، البارئ هو أخرجه خلقه، والمصور هو الذي كمّل بنائه وصورته وهيئته في أحسن تقويم سبحانه جل في علاه. (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) بالزمر:62]، فإذا قلت الله جلَّ وعلا خلق كل شيء سيفيدنا في باب عظيم في القدر، وهو إذا اعتقدت اعتقاداً جازماً بأن الله خلق كل شيء، فمن الشيء أفعال العباد، وهو المهم هنا الآن أن الله خلق فعل العبد. قال الله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) [الصافات:96]؛ خلقكم وعملكم أو خلقكم والذي تعملون، الصنعة التي صنعتوها هذه مخلوقة لله، فإذا صنعتكم التي صنعت هذه الصنعة مخلوقة. قل السيارة، رجل صانع سيارة، الله خلق هذه السيارة أم لا؟ بالآية (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)؛ "ما" إذا قلنا مصدرية أو غير مصدرية، مصدرية: خلقكم

وعملكم، هذه الصريحة. أمّا إذا قلنا وما تعملون، يعني الذي أخرج للدنيا هذه السيارة خلقها الله، إذاً خلق الله السيارة فقد خلق اليد التي صنعت السيارة والعقل الذي فكر ودبر كيف يخلق هذه السيارة. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانع وصنعته)، فأفعال العباد مخلوقة لله جلَّ في علاه.

فهذه المراتب الأربع التي يستقيم الإيمان بالقدر بأن تؤمن بهذه المراتب الأربعة، يبقى لنا أن نقول هناك طائفتان لم يقبلوا القدر فخابوا وخسروا وضاعوا وضيعوا، والغلاة منهم كفروا وخرجوا من الملة.

الطائفتان: الطائفة الأولى منهم القدرية، والطائفة الثانية هي الجبرية.

♦ أما الطائفة الأولى طائفة القدرية والمعتزلة وولاة المعتزلة، هم الذين يقولون لا قدر الأمر أنف، يعني ما يعلمه الله جلَّ في علاه حتى يحدث وما كتبه حتى يحدث، وبالتالي ما خلقه حتى يحدث، فيقولون الأمر أنف. هؤلاء ردوا القدر ولم يؤمنوا بالقدر، وهذه فئة ضالة باطل ما يتبنوه، والدلالة على ذلك أن الله جلَّ في علاه خلق الخلق وخلق ما يعمل الخلق كما استدللنا بهذه الأدلة، وهؤلاء لازم قولهم أنهم جعلوا رباً مع الله جلَّ في علاه، جعلوا كل إنسان خالق لفعله دون الله جلَّ في علاه.

♦ والطائفة الثانية هي الجبرية الذين يقولون لا فعل للعبد ولا مشيئة ولا إرادة، ويقولون ألقاه في اليم مكتوف اليدين فقال إياك إياك أن تبتل بالماء. وقال قائلهم الجهول المفتون المأفون عندما قرأ قول الله تعالى: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) [ص:75]، قال: لو كنت مكانه (يقصد إبليس) لقلت أنت منعتني من السجود. يعني يرد على من؟ على الله جلَّ في علاه، كأنه يقول هو فاعل لإرادة الله ليس له إرادة.

وهذا رد عليه سهل جداً لأن الله رتب الجنة ورتب النار على أفعال العباد، قال: (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة:17]، فنسب العمل لهم ونسب الكسب لهم ونسب المشيئة لهم ونسب الإرادة لهم. (وَمَا تَشَاءُونَ) يعني لهم مشيئة (وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [التكوير:29].

والطائفة الوسطية هي أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بالقدر ويؤمنون أن للعبد مشيئة وأن للعبد إرادة، ولكن مشيئة العبد وإرادة العبد تحت مشيئة الرب جلَّ في علاه.

هذا يعني بإيجاز لملمنا شمل الكلام على القدر وأبواب القدر، ثم بعد ذلك بفضل الله شرحنا لكم حديث احتجاج آدم وموسى وبينا لا عدوى ولا طيرة، حتى إذا آمن العبد بالقدر بحق لأن الله هو الذي يمرض وأن الله جلَّ في علاه هو الذي أنزل الداء وأن الله جلَّ في علاه هو الذي أنزل الشفاء وأنزل الدواء، يعتقد في ربه اعتقاداً جازماً، ولا أشك في أحد يستطيع أن يفعل شيئا في الكون إلّا بعد اذن الرب جلَّ في علاه. ثم بعد

ذلك ختمنا الكلام على الحديث (لا عدوى ولا طيرة). وصلنا إلى حديث قوله -صلى الله عليه وسلم-: (سألت ربي ثلاثاً)، وحديث (إن الله جلَّ وعلا عنده خزائن الخير والشر، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر)، يعني ثلاثة أبواب سنتكلم فيها عن رحمة الله جلَّ في علاه بالعباد ورحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة، وأن هذه الأمة مرحومة حتماً وأن هذه الأمة لابد أن ترتقي فوق الأمم حتماً، وأن هذه التي تقع المصائب والباليات التي تقع حتماً لابد أن تقع، والحمد لله أنها وقعت ولم تكن أعظم مما كانت، ثم المستقبل المشرق لهذه الأمة هذا الذي تتبناه الأحاديث القادمة.

ومنها أيضاً فائدة أن عبداً خلقه الله جلَّ في علاه فسأل نفسه: كيف أنا عند ربي؟ أين مقامي عند ربي؟ هل رضي عني أم لا؟ فينظر في نفسه هل الله يجري الخير على يديه؟ هل كلما حل أو ارتحل وجد الخير وذكر الله حين يوجد أم لا؟ هذه دلالة على أنه جعله الله مفتاحاً للخير يعني رضي الله عنه وجعل الرضا معه وفيه وبه، وهناك أناس إذا رأيتهم ذكرت الله، إذا رأيتهم قضيت الحوائج، هؤلاء جعل الله الخير فيهم وبهم ومعهم، وأناس إذا رأيتهم استعذت من الشيطان الرجيم واستعذت من النار، ما رأيتهم إلّا رأيت الشر بهم الشر وفيهم الشر ومعهم الشر، هؤلاء الصنف من الناس. أقدم مقدمة لهذا الباب؛ الخلق على أقسام ثلاثة:

- القسم الأول: خير محض.

- القسم الثاني: شر محض.

- القسم الثالث قسم فيه خير وفيه شر، وهم أقسام أيضاً، أنواع لا يعلم بها إلّا الله جلَّ في علاه، يعني لا يعلم بعددها إلّا الله جل في علاه. خير يقرب جداً هو قريب من الخير المحض، عالي راقي سامي، وأناس أنزل هم أقرب فيهم خير وفيهم شر لكن شرهم أقرب ما يكون لأصحاب الشر المحض.

❖ أما أصحاب القسم الأول فهم الملائكة، خير محض، خلقهم الله جلَّ في علاه للتسبيح والذكر والاستغفار والدعاء للمؤمنين، منهم الراكع والساجد والقارئ والمسبح والخاضع الذليل لله جلَّ في علاه، والملائكة الذين يسيحون في الأرض ينظرون إلى مجالس العلم فيكتبون أسمائهم ويستغفرون لهم ويصعدون بهم إلى الله جلَّ في علاه فيثني عليهم في الملأ الأعلى.

❖ القسم الثاني شر محض، هؤلاء الأبالسة والشياطين ليس فيهم ثمة خير قط، لكن في خير يأتي من عندهم؟ نعم في خير، مع أنهم شر محض لكن الله خلقهم لخير، لِمَ؟ للقاعدة التي قعدناها في القدر مهمة جداً: إن الله لم يخلق شراً محضاً ولكن خلق شراً نسبي (إضافي)؛ هو شر بالنسبة للشيطان، لكن بالنسبة لتمحيص البشر حتى لا يساوي

بين المسلم والمؤمن والفاجر وبين البر والصالح والطالح فهذا فيه الخير، يعني فيه خير يأتي لازم له، لكن هو شر محض الأبالسة والشياطين.

❖ الثالث البشر؛ ليس في الوسط فيهم تخليط، فيهم خير وفيهم شر، ما منا من أحد حتى في هذا المجلس إلّا وفيه خير وفيه شر، ما منا إلّا ومن تجرأ على حرمات الله، وما أحد يبرئ نفسه. نسأل الله جلَّ وعلا أن يستر علينا ويغفر لنا زلاتنا. وأيضاً منا من يسيء، منا من يتعدى، منا من يفرط، منا من لم يعمل لله جلَّ في علاه في آونة من الآونات، منا من فيه شر وفيه الخير. ونسأل الله أن يجعل خيرنا غالباً على شرنا. فهؤلاء فيهم خير وفيهم شر، لكنهم يتفاوتون منازل، منهم من قرب من الملائكة مثل الأنبياء والمرسلين والصديقين والصالحين والشهداء، بل هؤلاء أفضل من الملائكة كما سنبين. ومنهم من ينزل إلى الشياطين والعياذ بالله، يعلّمون الأبالسة كيف تكون الشيطنة، يعني هم أشد من الجن، يعني جنون الإنس أشد من جنون الجن، والله جلَّ وعلا قد سمّى شياطين الإنس قال: (يُوحِي بَعْضُهم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا) [الأنعام:112]، فهم أشد من شياطين الجن. ومنهم الطائفة الوسط التي تعادلت الحسنات مع السيئات.

المسألة ترجع إلى القلب، إن كان قلباً نقيا فهو أقرب إلى أهل الخير، فالله يختم عليه بأهل الخير. وإن كان والعياذ بالله في قلبه الدغل والحقد والحسد على أهل الإسلام، فإنه أقرب لأهل الشر فيختم عليه بأعمال أهل الشر. وهذا الذي سنفصله ونبينه بإذن الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الرابع والأربعون: باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سألت ربي ثلاثاً)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سألت ربي ثلاثاً):

عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة لعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي عز وجلّ قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً وبعضهم يسبي بعضاً)، وإسناده صحيح.

وعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن لله تبارك وتعالى خزائن للخير والشر، مفاتيحها الرجال، فطوبى لمن كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويلاً لمن جعله مغلاقاً للخير مفتاحاً للشر).

أولاً هذا باب في القدر، وأتى بحديثين أريد العلاقة بينهما، ما العلاقة؟ الحديث الأول (سألت ربي ثلاثاً)، ويسأل الله جلَّ في علاه في الثلاث، وهذه تدلك كما سنبين في الفوائد

المستنبطة على أن الله جلَّ وعلا يرد دعاء الأنبياء، حتى الأنبياء الذين لهم المكانة العلية عند الله جلَّ في علاه يرد دعائهم، حتى يغلق الباب على كل من يصرف عبادة لنبي أو لولي ويقول: هذا لوجاهته عند ربه فأتوسل به عند ربي، هذا سد الباب، يعني حتى النبي الذي هو أعظم المخلوقات وأكرم الخلق على الخالق رد الله عليه بعض دعائه كما سنبين. الغرض المقصود هذا الحديث في القدر، والحديث الثاني في القدر فما وجه الربط بينهما؟ وقد ضمّنهما تحت باب واحد.

الحديث الأول يتكلم على الأمة وأن قدر الله الذي لا يمكن أن يرد، أن هذه الأمة ستنقسم ستنقسم وستتكالب بعضها على بعض، لكن بفضل الله ورحمة الله وكرم الله وعناية الله بهذه الأمة أنها لن تستباح البيضة بحال من الأحوال، ولا فناء لهذه الأمة حتى تقوم الساعة على أشرار الخلق، (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا خذلهم إلى أن تقوم الساعة). هذا يبين أيضاً بأن للعبد مشيئة وللعبد إرادة وهي مرتب عليها النتائج، والأولى يبين أن هذه المشيئة تابعة، لكن أنا أريد الوضوح الجلي الآن بينهم؟

أصل المسألة أن الله جلَّ في علاه ربط المسببات بالأسباب والنتائج بالأسباب، وهذه فيها دلالة واضحة جداً على عمدة من يأخذ بالقدر، أنه يقول أن الله كتب كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن الله جلَّ وعلا كتب أهل الجنة وأهل النار، وأن الله جلَّ وعلا قدر الأقوات والأرزاق والآجال وكل شيء حتى أصحاب الجنة وأصحاب النار، ومع ذلك لا يدعو ذلك إلى التقاعس، بل ربط كل هذه النتائج بأسباب. كيف وجهة الربط بين الحديثين؟

انظر وجهة الربط: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً)، هذا سبب من أسباب القدر الذي قدّره الله قبل ذلك، فالتوجيه أنه لن تستباح بيضة هذه الأمة من عدو من غيرهم بحال من الأحوال، حتى إذا قمنا بالتوجيه الأول أو التفسير الأول حتى يحدث السبب. ما هو السبب؟ السبب أن يتكالب البعض على البعض، وأن تتألب هذه الأمة بعضها على بعض، وألّا يلتفوا حول راية واحدة ولا يجتمعوا، فحين التفرق وحين التمزق تتكالب الأمم عليهم فتستبيح البيضة فهذه كانت سبباً. إذاً القدر الذي قدّره الله قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة جعل له سبباً، ما هو السبب الذي ربط به؟ هو أن تتفرق الأمة وأن تتمزع وأن تتمزق الأمة أشتاتاً.

الراوي جاء في الحديث الثاني أنه جعل مفاتيح للخير ومفاتيح للشر، فإن الله قدر كل شيء: الخير والشر وخزائن كل شيء، الخير والشر بيد الله جلَّ في علاه، ومع ذلك لا ينام أحد على سريره ويقول خزائن الخير والشر فوق ليست تحت، إن الله سيمطر علي الذهب والفضة؟ نقول لا، هذا ضلال في العقل، هذا جنون. أرأيت رجلاً ذهب إلى

صحراء خالية وقال: قد علمت نصرة الأمة بالسواد الأعظم بالرجال بأسد الغاب، وأنا سأنجب ثلاثين رجلاً يجاهدون في سبيل الله وهو في الصحراء. ماذا تقولون عنه؟ سيأتي بالأولاد من الرمال؟ سيتزوج الصحراء؟ ما أخذ بالأسباب، فهذا مجنون لأنه لم يأخذ بالسبب.

قدّر الله المقادير وربط كل نتيجة بسببها، وهذه تجعل الهمة عالية، وهذا الذي يجعلنا نعلم أن هؤلاء لمّا سبقوا ما سبقوا من فراغ، سبقوا لأنهم قد فقهوا عن الله جلَّ في علاه وعقلوا عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-. ولذلك كان يقول أبو بكر وعمر وغير هؤلاء (والله ما اشتدت همتنا إلّا بعد ما تعلمنا القدر)، علمنا أن الله جلَّ وعلا ربط النتائج بالأسباب، وأن العبد إذا يسر الله عليه الخير فوجد نفسه يسير في درب الخير فلابد أن يسارع لعل الله أتى له ببشارة الخير، وقد قدر قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة أنه من أهل الخير. هذا الرابط بين الحديثين.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بسنة لعامة)؛ السنة هو أن تمطر ولا تنبت الأرض، وهذا عجب، ينتظرون المطر لإنبات الأرض فيأتي المطر وهنا تعطيل الأسباب بيد الله جلَّ في علاه، لأن الله هو الذي خلقها، إذا أراد أن يعطلها عطلها، وهذه من مظاهر قدرة الله التي تبين لك حتى وأن الله قد ربط النتائج بالأسباب فإن الله قادر أن يجعل النتائج تتخلف عن الأسباب ويلغي هذه الأسباب. أرأيت النار؟ خلقها الله، والنار تحرق بذاتها، بطبعها سبباً في الإحراق إن صح التعبير، لكن نقول هي تحرق بذاتها وعطلها الله جلَّ في علاه عندما ألقي إبراهيم -عليه السلام- في النار، فقال الله تعالى تعطيلاً لصفة النار: (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) [الأنبياء:69]. وهذه حدثت مع أبو مسلم الخولاني -رضي الله عنه وأرضاه-، من التابعين في زمن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-. الغرض المقصود هنا يبين قدرة الله جلَّ في علاه أن السنة هي المطر ينزل ولا تنبت الأرض. فهذه الأمور المشكلة وندخل على الأحاديث.

أقول إخوتي الكرام إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أرحم الناس بالناس، بل أرحم الخلق بالخلق، وإن الله جلَّ وعلا ما خلقه إلّا رحمة للعالمين وما بعثه إلّا رحمة للعالمين، فهو رحمة مهداة. ورحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكافرين مشتهرة معلومة مذاعة بين الناس فضلاً عن رحمته بالمؤمنين، رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكافرين ترى أروعها عندما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ملك الأخشبين فقال: أطبق عليهم الأخشبين من قريش؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله جلَّ في علاه). وانظر إلى رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهؤلاء الأمم عندما تملكهم وكانت القبضة عليهم وهو يقول: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) إن صح التعبير. أيضاً قال الله تعالى واصفاً رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم-

بالكافرين: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [الشعراء:3]؛ يعني فلعلك مهلك نفسك فلعلك قاتل نفسك أنهم لم يؤمنوا ويكون عقابهم ناراً تلظى. وأيضا قال الله تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) [الكهف:6]، هذا وصف للنبي -صلى الله عليه وسلم- كيف يقتل نفسه على هؤلاء الذين لم يؤمنوا به ولن ينجوا من نار جهنم.

أمّا رحمته بالمؤمنين فحدث ولا حرج، وأمثلة كثيرة تثبت لك رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة المرحومة؛ فإن رسول الله لمّا فاز وحظي في هذه المكانة العلية عند ربه جلَّ في علاه، عندما أمّ بالأنبياء ثم عُرِج به إلى السماء قام ينظر إلى أمته ما ينظر إلى نفسه، ينظر إلى أمته رحمةً بأمته وهو يسأل ربه التخفيف في الصلوات حتى خفف الله له الصلاة من خمسين إلى خمس ولها أجر الخمسين، رحمة من الله على هذه الأمة، وهذه رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة.

أيضاً بكى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكاءً طويلاً شديداً حتى جاءه جبريل يستفسر عن بكائه، فبين له أن خشيته على أمته كبيرة، فبعث الله إليه جبريل مبشراً إياه قال: (يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويبشرك بأنه قال: سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك). لا غرو ولا عجب من رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذه الأمة، عندما يأتي كل البشر وهم يقولون لكل نبي اشفع لنا وهو يقول: لا لست لها لست لها اذهبوا إلى فلان، حتى يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقول: (أمتي أمتي أنا لها أنا لها). وأيضاً في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لكل نبي دعوة مستجابة، وخبأت دعوتي) كل نبي له دعوة جزماً مستجابة، كل نبي دعا؛ نوح دعا على قومه، إبراهيم دعا بالدعوة، ما من نبي إلّا ودعا بدعوته المستجابة، أمّا النبي -صلى الله عليه وسلم- رحمته بالأمة تفوق أن يدعو بهذا الدعاء فيقول: (وأما أنا فخبأت دعوتي شفاعة لأمتي) رحمة بهذه الأمة، فبأبي هو وأمي -صلى الله عليه وسلم-.

فهنا أيضاً هذا الحديث يثبت لنا كيف رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة المرحومة، والحمد لله الذي أرسل لنا أفضل الخلق وأرحم الخلق عليه وهو يدعو الله جلَّ في علاه ألّا يهلك هذه الأمة بالقحط الدائم العام على هذه الأمة، ولا يسلط عليها عدواً حتى لا تتغيظ القلوب ونموت كمداً، ولا يسلط على هذه الأمة عدواً من غيرها فيستبيح البيضة هذا قيد، يعني القيد هو ألّا يسلط عدواً من غيرها فيستبيح البيضة ويفنيها عن بكرة أبيها، لا لن يحدث هذا بفضل الله علينا، فدعا الله على ذلك والله أجاب له.

لكن الثالثة لم يجب الله للنبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى أنه بيّن الله له في كثير من الآيات، (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) [الأنعام:65]، فرأى النبي -صلى

الله عليه وسلم- أن هذه أيسر يعني رضي بذلك أن يحدث التقاتل بينهم فلا تستباح البيضة من الغير. وهذه كما قلت من رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة فدعا ربه، فانظر كيف يعلمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- الرحمة والشفقة على الآخرين.

ثم يعلمنا أدباً جماً: كيف نتعامل مع ربنا جلَّ في علاه عندما نحتاج إليه؟ وهل في لحظة أو ثانية أو طرفة عين لا نحتاج إلى الله جل في علاه؟ الفقر وصف لنا ذاتي والغنى وصف له ذاتي، أقسم بربي بعدد أنفاسنا نحن أحوج ما نكون لربنا جلَّ في علاه، أقسم بربي لحظة واحدة يكفر بها المرء فيختم عليه فيدخل نار جهنم والعياذ بالله، أو لحظة واحدة تنقلب أحواله فيتوب فيؤوب إلى ربه فيقبل منه، وقلبنا متقلب، ونحن ليل نهار في ثانية نعصي والثانية الثانية يمكن أن نطيع. فالمسألة تدلك دلالة واضحة على أنك أحوج ما تكون وأفقر ما تكون إلى الله جلَّ في علاه، فعليك بأن تلح على ربك جلَّ في علاه وتكثر من السؤال والدعاء، وهذا الأدب الجم الذي استخدمه النبي الكريم الذي هو أقرب الخلق وأكرم الخلق على الله، فاستأذن ربه في السؤال وتذلل وخضع لربه جلَّ في علاه يسأل ربه. وهذا السؤال دلالة وإشارة على أفضل عبادة يمكن أن يتقرب بها العبد إلى الله ألا وهي عبادة الدعاء، سواء دعاء المسألة أو دعاء الثناء. ما الفرق بين دعاء الثناء ودعاء المسألة؟

أفضل العبادات على الإطلاق الدعاء، أفضل العبادات التي يمكن أن يتقرب بها العبد إلى ربه جلَّ في علاه الدعاء. لكن إخوتي الكرام أقسم بالله هذه المسألة مسألة توفيق، كنت أعرف من يدعو الله جلَّ في علاه فيرفع يديه بالساعات لا بالساعة، بالساعات ثم قبض عنه ذلك، وكان يتلذذ تلذذاً يقول ما أدعو ليستجاب وأرى السؤال، أدعو لأتلذذ بمناجاة الله جلَّ في علاه. هذه مسألة ليست بعدها مسألة، ولا يعرف أحد أن يصف هذه المسألة ولا يستروح بها ولا يتلذذ بها إلّا من ذاقها قبل ذلك، إن يجنده الله جلَّ في علاه فيخلو بربه وهو يناديه ويتذلل ويظهر فقره ويستحضر قوة الله وقدرة الله وجبروت الله وعزة الله وهو فوق عرشه يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعز ويذل ويعطي ويمنع، هذه قدرة الله جلَّ في علاه، وهذه مناجاة ليست بعدها مناجاة. ولذلك قال الله تعالى يبين هذه من أجل العبادات: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [غافر:60].

أيضاً إبراهيم -عليه السلام- (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) [مريم:49]، يعني وما يدعون من دون الله، فهذه فيها دلالة على أن الدعاء أيضاً عبادة، يدل على أنها عبادة من أجلّ العبادات لأنك تظهر فيها الفقر والمسكنة والذل، والعبادة هي غاية الذل مع غاية المحبة لله جلَّ في علاه، ويظهر قلبك التوكل واليقين في الله والإنابة والرجاء والخوف والرغبة من ربك جلَّ في علاه (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) [الأنبياء:90]. وفي

السنن بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أفضل العبادة الدعاء)، وهذا كلام واضح جداً جلي.

أسألكم بالله من منا في كل أربعاء يستن بهذه السنة بين الظهر والعصر فيأتي يدعو ربه متضرعاً، فقط ما أقول لكم في كل الأوقات، أو يكون في السحر فيدعو أو له في كل يوم نصف ساعة بينه وبين ربه يدعو الله جلَّ في علاه. في أحد يفعل ذلك؟ في أحد يفعل ذلك يوم الجمعة بعد العصر؟ في أحد يقوم في الليل فيدعو ربه جلَّ في علاه ولو عشر دقائق؟ هذه لذة ليست بعدها لذة، لا تتركوا ذلك. كما قلت لكم ما منكم من أحد إلّا ويحتاج إلى ربه؛ للزواج أو للرزق، سواء الرزق المعنوي أو الرزق الحسي، أو بلية لترتفع أو قرب يريد مكانة عند ربه جلَّ في علاه لا يستطيع أن يصل إليها بعمله. ما منا من أحد سيصل بعمله في شيء إلّا أن يرحمه الله ويتغمدنا الله برحمته، ولذلك الإنسان همته العالية تصل به إلى المعالي ويريد الفردوس الأعلى فلا يستطيع أن يصل ولن يصل، كيف يصل إلى فعل السابقين. لكن عنده وعزاءه انه له مخبأ، زاد عظيم جداً مخبأ له ألا وهو باب التضرع والدعاء لله جلَّ في علاه. ولذلك قال ابن عباس: (أفضل العبادة الدعاء)، وفي رواية أخرى قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدعاء هو العبادة)، وهذا الأسلوب يسمى أسلوب حصر؛ يعني كأنه يقول كل العبادة وجلّ العبادة وعظمة العبادة تتجلى في الدعاء، لأن قمة التوحيد في الدعاء، كما قلت أنت تعتقد في ربك الاعتقاد الجازم أنه المعطي المانع النافع الضار المحيي المميت المبدئ المعيد سبحانه جلَّ في علاه، وتعتقد في نفسك الذلة والمسكنة والخضوع والعبودية وأنك أفقر ما تكون إلى ربك جلَّ في علاه، وتعلم أن الله إن أعطاك أعطاك من جوده وكرمه ورحمته، وإن منعك منعك عدلاً منه وحكمةً.

*والدعاء دعاءان: دعاء مسألة ودعاء عبادة، فما الفرق بينهما؟

♦ دعاء المسألة هو قضاء الحاجات، من دفع بلية أو جلب منفعة، بأن تثني على الله بما هو أهل له، وتصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم تسأل: اللهم ارزقني، اللهم علمني، اللهم نجني، فتسأل دفع ضر أو جلب منفعة.

♦ دعاء الثناء فهو الثناء على الله بما هو أهل له.

وأنت لو تدبرت في الفاتحة كما في درس التفسير ترى أن الفاتحة بأسرها هي إمّا دعاء مسألة وإمّا دعاء ثناء؛ أنت تحمد الله (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) كل هذا دعاء ثناء، ثم بعد ذلك (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) هذا دعاء مسألة، فقد جمعت الفاتحة جوامع مكانة الدعاء.

هنا أدب جم من النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يسأل ربه ويتضرع إلى الله جلَّ في علاه، معلماً الأمة أنه ما من حاجات وما من كربات تفرج إلّا أن يتضرع العبد لربه جلَّ في علاه، يظهر فقره أمام الله ويثبت بذلك يقيناً غنى الله عنه وأن الله جلَّ في علاه يتفضل على عباده ويقضي لهم حاجاتهم.

وأيضاً في الحديث مسألة مهمة جداً هو أن الله جل في علاه إذا قدر شيء لو اجتمع من بأقطارها لدفع هذا القدر لن يكون بحال من الأحوال، وأن القدر واقع واقع، وأن هذه الأمة سيستبيح بعضها بعضاً ويقع بينهم القتال والفرقة ويتمزعون ويتفرقون أشتاتاً، ثم تتكالب عليهم بعد ذلك الأمم، وهذا قدر من الله جلَّ في علاه لحكمة من الله علمها من علمها وجهلها من جهلها. لكن ليبقى لنا البصيص من الأمل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا دعا ربه جل في علاه ألّا تهلك هذه الأمة، وقد أجاب الله تعالى له وبينها النبي -صلى الله عليه وسلم- نبوءة بشارة لنا (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)، فلن تستباح هذه الأمة وستبقى هامتها مرفوعة بإذن الله، وإن الله جلَّ في علاه سيعيد لها مجدها وسيادتها وقيادتها وريادتها مرة أخرى.

أمّا الحديث الثاني الرابط بينه وبين هذا الحديث هي الأسباب، الحديث الثاني (إن لله تبارك وتعالى خزائن الخير والشر)؛ كلكم يعلم وكلكم على يقين أن الله جلَّ في علاه بيده بمقاليد السماوات والأرض، وأن الله جل في علاه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وأن الله يمسك السماء أن تقع على الأرض، فخزائن الخير بيد الله، وخزائن الشر بيد الله، وقد خلق الله كل شيء. ولِمَ قلت أنا كل شيء؟ أدباً مع ربي حتى لا أصرح وأقول خلق الشر، فقد خلق كل شيء وبيده مقاليد كل شيء، قد قال الله تعالى: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ) [الحجر:21]، خزائن الخير وخزائن الشر.

وهنا يبين الله لنا بعدما كتب الخير وخلقه وكتب الشر وخلقه، جعل لهذا أسباباً وجعل لهذا أسباباً، فجعل للخير مفاتيح وجعل للشر مفاتيح، ليثبت أن الإنسان لابد أن يأخذ بالسبب؛ إن أراد الخير فعليه أن يسعى ويأخذ بالسبب حتى يصل للخير، لأن النتيجة التي يرجوها ويصبو إليها ويتمناها هو الوصول إلى الخير لها رابط ولها سبب ولها سلم ولها طريق لابد أن يسير في هذا الطريق. والشر الذي يخشى منه ويريد أن يتجنبه ولا يقع فيه له أسباب، فلابد أن يتجنب هذه الأسباب حتى لا يصل إلى هذه النتيجة المؤلمة المزعجة بأن يصل إلى الشر.

مفاتيح للخير ومفاتيح للشر؛ الخير كل الخير فيمن جعله الله مفتاحاً للخير، وأول هذه المفاتيح وأول هذه الخيرات العلم، إذا نظرت في هذا الحديث ودققت في النظر وجدت أن الله جل في علاه بعدما خلق مفاتيح الخير جعل أناساً لمفاتيح الخير، رابطة وسبب لهذا الخير. أول الأسباب هو العلم؛ إن الله ما خلق الخلق إلّا لمهمة جسيمة عظيمة هي

أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولن يحدث ذلك إلّا بالعلم، ولذلك أمر الله نبيه أن يقول: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ) علم (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:108]. فالخير كل الخير في أناس إذا رأيتهم ذكرت الله، إذا مشيت معهم رأيت الخير معهم، أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، تصدقت، أرشدت، علمت، تعلمت. إذا كنت معهم صامتاً حفتك الملائكة لأنه سيذكرك بربك، سيصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، سينشر لك علماً، سيرفع عنك جهلاً.

فالخير جعله الله في أناس الخير فيهم وبهم ومعهم، فهم بركة كما قال السخاوي ورحمة الله على السخاوي، وهو يترجم للنووي فقال: النووي بركة؛ بركة بكل المعاني، ترى الخير معه، في تصنيفه، في عبادته، في زهادته، انظر إلى رياض الصالحين ينتشر في جميع المساجد وفي جميع بيوت المسلمين، فالخير معه وفي تصنيفه وفي زهادته وفي طلبه للعلم، كلما تقرأ لترجمة هذا الرجل تعلم أن هذا مفتاحاً للخير، خلقه الله للخير. كما شيخ الإسلام ابن تيمية تقول في ذلك "عبد خلقه الله له"، مفاتيح للخير هؤلاء وسائط بين رب الناس وبين الناس. فمن وجد نفسه قد جعله الله مفتاحاً للخير واسطةً بين رب الناس والناس، فليعلم أنه من مفاتيح الخير، فليحمد الله على ذلك، (فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه).

إذاً أول مفاتيح الخير هو تعليم الناس الخير، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من دل على خير فله أجره وأجر من عمل به من غير أن ينقص من أجورهم من شيء)، وهذه دلالة واضحة جداً على أن الخير فيه، فينتشر الخير في الناس وله نصيب من هذا الخير. وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن أبي طالب عندما أعطاه الراية وأقسم بالله: (والذي نفسي بيده لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه)، وقال لعلي بن أبي طالب عندما أوتي به للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (ولئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم). أما رأيت الخير في العلماء؟ أما علمت الخير للعلماء؟ قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- فيهم: (إن العالم ليستغفر له كل من في الأرض حتى الحيتان في البحر)، أي خير يداني هذا الخير؟ تستغفر له النملة في الجحر، يستغفر له الحيتان في البحر، يستغفر له الناس، يستغفر له البشر، وإن الله جلَّ في علاه يكتب له أجور البشر في ساعة واحدة، ولو مكث ألف سنة يتعبد لنفسه لذاتية نفسه لن يصل إلى هذا الخير.

فهؤلاء القوم الذين جعل الله فيهم الخير، سيدهم وأعظمهم وكبيرهم وإمامهم وقدوتهم واسوتهم هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أي خير على يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فتح القلوب الغلف والآذان الصم والأعين العمي بالخيرية التي ابتعثه الله بها. وكذلك أصحابه الكرام الذين جابوا مشارق الأرض ومغاربها يدعون لله جلَّ في

علاه، يعبّدون الناس لرب الناس سبحانه جلَّ في علاه. إذاً مفاتيح للخير، الخير فيهم كما قلت وبهم ومعهم، إذا ذكرته تذكر ربك جلَّ في علاه، وإذا رأيته تذكر ربك جلَّ في علاه، إذا جالسته ذكرت ربك جلَّ في علاه، إذا افتقدته تقول والله هذا الرجل ما جلست معه إلّا وذكرنا الله فذكرت ربك جلَّ في علاه، فهذا أول مفتاح الخير.

فمن رأى في نفسه ذلك فليحمد الله، وهذه إشارة على ان الإنسان لا يخالل ولا يصادق إلّا مفاتيح الخير، لأن من جاور السعيد يسعد، والمجاور يأخذ حكم المجاور: "لا تسأل عن المرء ولكن سل عن خليله"، كلما رأيته إذا صادق وإذا خالل خالل أهل الخير ومفاتيح الخير فهو أيضاً من مفاتيح الخير. وضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا مثلاً رائعاً في ذلك؛ صاحب المسك وصاحب الكير، فأنت تنظر من تخالل مفتاح الخير أم مفتاح الشر.

أيضاً من مفاتيح الخير أناس خلقهم الله ورزقهم مفاتيح الدنيا من الكنوز، الذهب والفضة والأموال، ثم استعملهم الله جلَّ في علاه في قضاء حوائج الناس، وهذه أجلّ العبادات بعد تعليم الناس الخير. أجلّ العبادات وأجلّ الناس وأعظم الناس مكانة بعد العلماء هم الذين صدّرهم الله جلَّ في علاه لقضاء حوائج الناس، (من نفّس عن مسلم كربة نفّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة)، فأفضل الناس من جعله الله وفضله بين الناس يبذل وجهه وماله وجسده وكل ما يملك لقضاء حوائج الناس، وقد ورد عن الحسن وعن غير الحسن قال: لأن أمشي في حاجة أخي خير لي من أن أعتكف شهراً في المسجد النبوي؛ وهذا قد جاء مرفوعاً وصححه بعض العلماء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لعظم هذه العبادة. فمفتاح للخير، وأخير الناس وأعظم الناس مفتاحاً للخير هو الذي يقضي الله على يده حوائج الناس، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء). وقال الله تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) [المائدة:2].

وضرب لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أروع الأمثلة في أنه كان يسعى في قضاء حوائج الناس، يبذل وجهه وكرامته ومكانته وهو سيد الخلق أجمعين من أجل قضاء حوائج الناس، ليبين لنا ويشحذ هممنا على هذه العبادة الجليلة. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا جاءت بريرة وطلبت من عائشة أن تساعدها وكانت مكاتبة المكاتب هو العبد الذي صالح سيده على أموال (مال معين، خمسة آلاف، عشرة آلاف)، قال: كل نجم [يعني كل شهر] أعطيك منه ألف، فهذه كتابة بينه وبين سيده أن كل شهر يعطيه ألفاً منجماً حتى يتحرر بعد ذلك هذا المكاتب. فبريرة كانت كذلك، فراحت لعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- حتى تساعدها وتعطيها المال فتحرر نفسها ففعلت، وأيضاً لها قصة في البيوع لا نتكلم عنها الآن، وأصبح ولاؤها لعائشة.

الغرض المقصود نحن في مسألة أن قضاء الحاجات من أفضل العبادات، وأفضل الناس من جعله الله مفتاحاً للخير لقضاء حوائج الناس. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- في غير ما حديث يبين أن أفضل العبادات إدخال السرور على المسلم، وأفضل ما تدخل به السرور على أخيك أن تنفّس عنه كربة أو تقضي له حاجة. ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء). الغرض المقصود؛ بريرة بعد ما أعتقتها عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، لها فقهيات، إن كانت متزوجة فأصبحت ملك لنفسها، بمعنى هي مخيرة تبقي على زواجها وزوجها أو تفسخ العقد، لها ذلك على خلاف بين الفقهاء إن كان هو عبد أو حر، لا ندخل في هذا خلاف لسنا بصدده الآن.

لكن الغرض المقصود هي الآن بريرة زوجة لمغيث، وبريرة قد أعتقتها عائشة. الفقه هنا يقول إن عقد نكاحها في يدها، هي مخيرة، تقبله زوجاً أو لا تقبله. فنظرت إليه هي حرة، هو أسود عبد فقالت: لست بزوج لي. ما رضيت به، فبكى بكاءً شديداً، وكان يحبها حباً جماً، فكان يدور حولها ويبكي عند قدميها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يرى فيرق قلبه له ويقول: (يا عباس، أما تعجب من حب مغيث لبريرة وبغض بريرة لمغيث). فانتفض النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو الذي علم البشرية كيف أن مفتاح الخير هو الذي يقضي حاجات الناس، فأراد أن يقضي حاجة مغيث وينفس كربته، فذهب وهو أكرم الخلق على الخالق شافعاً، فذهب إلى بريرة فشفع لمغيث عند بريرة أن ترضى به زوجاً. انظروا كيف يبذل النبي -صلى الله عليه وسلم- وجهه ليعلمنا نحن أن الوجيه الغفير أو الوزير أو الأمير أو الذي يملك وجاهة لابد أن يحمد الله على هذه النعمة فيبذل هذه الوجاهة من أجل قضاء حاجات الناس. فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو سيد الخلق أجمعين يشفع لمغيث عند بريرة حتى يعني ترجع له. فقالت له: يا رسول الله، تأمرني؟ فقال: لا، لأنه لو أمر لابد على الأمة من السمع والطاعة، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]. قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: لا، إنما أنا شافع، قالت: لا حاجة لي فيه. ورفضت شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو متوقع أن تقبل شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن فعل ذلك لأن خير الناس من كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر. فأصبح شفيعاً لمغيث ليقضي حاجته ولينفس عنه كربته.

أيضاً من أروع الأمثلة التي ضربها لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- عملياً ليبذل وجهه من أجل قضاء حاجات الناس، أن جابر -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا مات أبوه ترك له ديوناً كثيرة قد أثقلت كاهله، وهذه الديون عند أقبح الخلق الأمة المغضوب عليهم، فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- يشفع لجابر مع أنه يعلم أنهم يحقدون عليه ويحسدونه ويريدون قتله ويبغضونه ويردونه، ومع ذلك بذل وجهه وواجهته من أجل أن يبين لنا

ويعلم لنا أفضل العبادات على الإطلاق بأن تقضي لأخيك حاجته وأن تنفّس عنه كربته. فذهب لليهود يشفع لجابر أن يسقطوا عنه الدين، فلم يقبلوا شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقضى عنه وفرج عنه هذه الكربة بأمر آخر، ذهب إلى النخل وبصق فيه بأبي هو وأمي ودعا حتى بفضل الله سبحانه وتعالى أثمرت الثمرة وأينعت وقضى دينه وفاض له، بقي له ما يأكل به هو وأهله، وهذا من فضل فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتفقد أصحابه، معاذ كان رجلاً عالماً نحريراً، مات قبل الثلاثين والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (معاذ يبعث يوم القيامة قبل العلماء) أو (يتقدم العلماء برمية حجر). كان معاذ -رضي الله عنه وأرضاه- لفضائله وشمائله الحسنة، أنه كان مضيافاً، كان كثيراً ما يكرم ذوي الحاجات ويكرم الضيفان. فمن شدة كرمه وسخائه وجوده أثقلته الديون، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحمل عنه هذه الديون، وأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينفّس كربته وأن يفرج ما هو فيه، فبعثه إلى اليمن ليعلم الناس فيفوز بالآخرة ويستفيد من جباية الصدقة والأموال التي تأتيه، فجعله يفوز بالآخرة بتعليم الناس ويفوز في الدنيا بأن يسد دينه، هذا فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-. وائتسى بالنبي -صلى الله عليه وسلم- صحابته الكرام؛ أبو بكر وعمر وعثمان، كما في الآثار بالأحاديث الصحيحة أن عثمان بن عفان اشترى بئر رومة وجعلها لوجه الله جلَّ في علاه تنفيساً للكرب التي كانت تنزل على الأمة. أبو بكر وعمر كانوا يفعلون ذلك مع المرأة العجوز، يحملون على ظهورهم الطعام والشراب ويذهبون يجهزون ذلك للمرأة تنفيساً لكربة المرأة. فإن خير الناس بعد العلماء وأعظم الناس بعد من علم الناس الخير والتوحيد والعبادة لله جلَّ في علاه هو من بذل وجهه وماله وجاهه وقوته من أجل أن يفرج على الناس كرباتهم.

ثم بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله جلَّ في علاه كما أنه ربط الخير كل الخير بأسباب وبالأناس الذي جعلهم مفاتيح للخير فطوبى لهم، وقيل شجرة في الجنة أو الجنة لهم. أيضاً وبضدها تتبين الأشياء؛ أن الله نصب أسباباً وأيضاً أناساً يفتحون أبواب الشر لا يفتحون أبواب الخير، هؤلاء فيهم الشر ومعهم الشر.

أفضل من نضرب لهم أمثلة لذلك الذين ينشرون الشرك بين الناس، إن الذين يصدرون أنفسهم ليضربون كبد الدين في التوحيد ثم ينشرون الشرك هؤلاء هم الذين يقال فيهم مفتاحاً للشر لا مفتاحاً للخير. من نشر الشرك وأغمد سيف التوحيد، ومن نشر الباطل والفسق والفجور هذا مفتاحاً للشر. الرجل الذي إذا جلست معه لا تجد عنده إلّا الغيبة، يغتاب الناس، والغيبة من الكبائر تسقط عدالة المرء، ما تراه تجلس معه إلّا أن يصرح بالغيبة أو يلمح بها، يقول كفانا حتى لا نأخذ سيئات من الكلام على هذا الرجل، هو

رجل مليء بالسيئات، إمّا بالتعريض وإمّا بالتصريح ما جلست معه إلّا ويأكل في لحم أخيه غيباً. وإمّا أن تراه يوقع بين الناس، يمشي بين الناس بالنميمة "أما سمعت الرجل يتكلم فيك أمس"، ويأتي للمرأة مع زوجها فيوقع بين المرأة وزوجها والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يدخل الجنة قتات)، وفي رواية قال: (لا يدخل الجنة نمام). فهذا الشر فيه ومعه وبه، ما جلست معه إلّا أتاك بشر، ما مشيت معه إلّا أتاك بشر، ما تذكرته إلّا تذكرت الشر، نعوذ بالله من الخذلان.

فإذاً ربط الله جلَّ في علاه أناساً بالشر ويعرفون بالشر ينأى المرء عنهم، وربط الخير بأناس جعل الخير معهم وفيهم وبهم فعلى الإنسان أن يسارع في القرب من هؤلاء، نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر.

الفوائد المستنبطة:

١- إن بعض الأنبياء يمكن أن يرد دعاءهم، كل نبي قريب من الله لكن يرد الله دعاءه، قد قال الله تعالى: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) [البقرة:255]، وقال الله تعالى: (إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) [الأنبياء:28]، يعني الله جلَّ وعلا حتى الملائكة لا يقبل شفاعتهم إلّا إذا ارتضى الله جلَّ في علاه، يأذن ويرتضي سبحانه جلَّ في علاه. وهذا يسد الباب على الذين يذهبون إلى محمد فيقولون: يا محمد اشفِ مريضي، يا محمد ارزقني. فيقولون نفعل ذلك لوجاهة محمد عند رب محمد أو يتوسلون به ويجعلون واسطة بينهم وبين الله جلَّ في علاه. نقول حتى النبي -صلى الله عليه وسلم- يمكن أن الله جلَّ وعلا لا يقبل دعاءه، وقد رد دعاءه الله جلَّ في علاه لحكمة عند الله، لا لأنه لا كرامة له، بل هو أكرم الخلق عند الخالق. وهذه من أهم الحكم التي تظهر، أن الله جل في علاه لا غالب على أمره، لا أحد يجبر الله على شيء سبحانه، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [يوسف:21].

٢- رحمة الله بهذه الأمة، وأن هذه الأمة لا تفنى إلّا يوم القيامة، لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم).

٣- عندما أنزل الله هذه الآية (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) [الأنعام:65]؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بوجهك، أعوذ بوجهك، أعوذ بوجهك)، يستعيذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بصفة من صفات الله وهي صفة الوجه. هنا هذا الحديث يلمح لنا بإثبات صفة من صفات الله جلَّ في علاه وهي صفة خبرية، صفة الوجه خبرية.

صفات الله قسمان: ثبوتية وسلبية.

❖ الثبوتية: هي التي ثبتت لله في الكتاب أو في السنة، كأن يقول الله: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10]، هذه صفة ثبوتية أثبتها الله في كتابه، وأيضاً أثبتها أهل السنة والجماعة أجمعوا على أن لله صفة وهي صفة اليد، وأثبتها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سنته، هذا معنى الثبوتية.

❖ السلبية: يعني منفية، نفاها الله عن نفسه في كتابه، ونفاها عنه رسوله في سنته. كأن يقول الله جلَّ في علاه: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [فصلت:46]، نفى عن نفسه الظلم، هذه صفة سلبية نفاها عن الله جلَّ في علاه. أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي الصحيح في الصحيحين أنه قال: (قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً)، إذاً سلبية يعني نفاها الله عن نفسه في كتابه ونفاها عنه نبيه -صلى الله عليه وسلم- في سنته.

القسم الأول في الصفات الثبوتية هي التي ثبتت لله في الكتاب والسنة، لها أنواع ثلاثة يعني كأن هذا جنس والأنواع الثلاثة: النوع الأول صفات خبرية، النوع الثاني صفات ثبوتية ذاتية، النوع الثالث صفات فعلية.

♦ثبوتية خبرية: خبرية ضابطها أنها عندي مسماها أجزاء وأبعاض، مسماها عندي أنا كبشر كمخلوق أجزاء وأبعاض، لكن مسماها للخالق صفات. مثال: اليد جزء مني، إذاً فهي صفة ثبوتية لله، لو قلت يد الله يبقى هذه صفة ثبوتية خبرية. فضابط الخبرية أنها عندي أنا كمخلوق جزء وبعض، لكن عند الخالق لا يقال جزء من الله، لكن تقول صفة من صفات الله، صفات الكمال والجلال. العين جزء مني، لكن إذا قلت عين الله فالعين هنا ليست جزءً من الله لكن هي صفة من صفات الله الخبرية. سميناها خبرية لأننا لا يمكن أن نستطيع أن نصف الله بها إلّا عن طريق الخبر، لأنني لم أرَ الله ولم أرَ من رأى الله ليصف لي الله جلَّ في علاه، فالمسألة كلها محض خبر. الله ذاته هو الذي أخبرنا قال اسمعوا يا عبادي لي عين ولي يد ولي ساق ولي أصابع ولي أنامل، كما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يصف ربه جلَّ في علاه بهذا الوحي المنزل من فوق سبع سماوات.

فهي خبرية لأنها بمحض الخبر، القياس ما يدخل به. الكلام؛ الرجل الذي لا يستطيع أن يتكلم. إذا مشى بجانب رجل وتكلم معه وما استطاع أن يرد عليه ماذا يقول المتكلم عن الذي لا يتكلم؟ يقول هذا عاجز فيه نقص، فالمتكلم أكمل. بالعقل ممكن أقول بأن الله يتصف بالكلام لأن صفة الكلام كمال، فالعقل ممكن يقر بذلك لكن العقل ما يقر بأن العين كمال أو يد كمال أو الساق كمال، لا مدخل للعقل في ذلك، هي خبرية لأن الأصل فيها الخبر فقط.

♦ الصفات الفعلية: التي هي في أفعال الله، أن الله جلَّ وعلا يستوي، أن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا، أن الله جلَّ وعلا يقبض ويبسط، أن الله جلَّ في علاه يعطي ويمنع. ضابطها: تستطيع أن تجعل "إن شاء" قبلها، يعني إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، يعني ضوابطها تتعلق بالمشيئة. كالكلام؛ نقول إن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم. هل الله من الأزل يقول لموسى: (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) [طه:12]؟ ما تكلم الله بهذه الكلمات إلّا لمّا جاء موسى عند الشجرة وتكلم الله معه. فالصفات الفعلية هي التي تتعلق بمشيئة الله جلَّ في علاه، إن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم.

♦ ثبوتية ذاتية: ثبتت بالكتاب والسنة؛ كالعزة والقدرة، وهذه لابد تكون صفات ثبوتية أزلية أبدية، يعني هي صفات يتصف الله بها من الأزل إلى الأبد؛ كأن تقول: العزة، ما تأتي تقول إن شاء كان عزيزاً وإن شاء لم يكن عزيزاً -حاشا لله-، الله عزيز قبل أن يخلق الخلق. الله رحيم قبل أن يخلق الخلق ويرحمه سبحانه جلَّ في علاه. أزلية أبدية هذه الصفات الثبوتية.

فالوجه من الصفات الخبرية، هذه الصفة صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، صفة ثبتت لله بالكتاب وفي السنة وإجماع أهل السنة.

أمّا الكتاب فقد قال الله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص: 88]، ووجه الدلالة من الآية أنه أضاف الوجه، الضمير هذا عائد على الله جلَّ في علاه، فأضاف الوجه لله فهي إضافة صفة لموصوف. وأيضاً قال الله تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) [الكهف:28]، (وَما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ) البقرة:272] فهذه تصريح بصفة الوجه لله جلَّ في علاه لأنه اضاف الوجه لله جلَّ في علاه.

أمّا في السنة فكثير؛ في الحديث في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام) هنا صفة سلبية (ولا ينبغي له أن ينام يرفع القسط ويخفضه)، إلى أن قال: (حجابه النور) الحجاب على وجه من؟ على وجه الله جلَّ في علاه، (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه) يعني أنوار وجه الله جلَّ في علاه، (لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) وبصر الله ينتهي إلى كل الخلق. وأيضاً في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (جنتان من ذهب هما وما فيهما وآنيتهما من الذهب)، قال في آخر الحديث: (وما بين القوم وبين أن يروا ربهم رداء الكبرياء على وجهه)، فهذا اصطلاح أيضاً لوجه الله جلَّ في علاه. وأيضاً الحديث الذي التمسنا منه هذه الفائدة أنه بعد ما أنزل الله عليه الآيات قال: (أعوذ بوجهك)، فاستعاذ بصفة من صفات الله جلَّ في علاه وتوسل بصفة من صفات الله جلَّ في علاه.

إذا ثبتت بالكتاب وثبتت بالسنة وإجماع أهل السنة؛ أجمع أهل السنة والجماعة أن لله وجه يليق بجلاله وكماله، وأمّا كيفيته: الوجه في اللغة معلوم [يعني المعنى معلوم] والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. في كيفية لوجه الله لكن لا نعلمها، الله أعلم بها. فإذاً أثبتنا لله وجه يليق بجلال الله، يليق بكمال الله جلَّ في علاه، والكيفية لا نعلمها، لا نسأل عنها ونؤمن بها يقيناً، ونسأل الله جلَّ في علاه، أن يرزقنا الخير والإخلاص في هذا وأن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا.

ما فائدة أن يؤمن العبد ويعتقد العبد بأن لله وجه؟ أقول إذا علمت أن لربك وجهاً علمت أن الله جل في علاه يسأل بهذا الوجه، يسأل بهذه الصفة، هي صفة من صفات الله تتوسل بها، ولذلك جاء في الحديث (لا تسألوا بوجه الله إلّا الجنة). فإذا اعتقدت أن لربك وجهاً وعلمت أن وجه الله جلَّ في علاه عظيم، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: (أعوذ بوجهك) وكان يعلم أن الدنيا بأسرها السماوات والأرض أشرقت بنور وجه الله جلَّ في علاه، فإنه يعظم ويوقر ويكرم وجه الله بأن لا يسأل به إلّا الجنة (لا تسألوا بوجه الله إلّا الجنة)، ولك أيضاً أن تستعيذ بوجه الله من النار. هذه الفائدة إذا اعتقدت وآمنت بأن ربك له الوجه الكريم، وأن وجه الله جلذَ في علاه صفة تليق بجلال الله وكمال الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، جزاكم الله عنا خيراً. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس:الخامس والأربعون: (كل يوم هو في شأن)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وأبواب الكلام على صفات الله جلَّ في علاه لا سيما صفات الربوبية والقدر.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله في قوله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) [الرحمن:29]، قال: (في شأنه أن يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً ويرفع قوماً ويضع الآخرين)، حديث صحيح.

وعن عامر بن سعد عن أبيه -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لعلك أن تخلّف حتى ينتفع بك أقوام ويغرّ بك أخرون).

ما زال يتكلم عن صفات الله جلَّ في علاه لا سيما صفات الربوبية، ويبين لنا ارتباط القدر بصفات الربوبية لأنه من لوازم الربوبية. قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: ما بين الأرض والسماء خمسون ألف سنة، وما بين كل سماء وأخرى خمسون ألف سنة... إلى أن وصل إلى السماء السابعة قال: ثم الماء، وما بينه وبين الماء خمسون ألف سنة، والعرش فوق ذلك والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه. من

باب قدرة الله وعزة الله سبحانه جلَّ في علاه أنه لا تخفى عنه خافية، قد قال الله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) [المؤمنون:17]. أعظم الخلق إيماناً الملائكة، يرون ربهم جلَّ في علاه.

يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعطي هذا ويمنع هذا، يحيي ويميت، يبدئ ويعيد، سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، له كمال القدرة وكمال العزة وكمال الجبروت سبحانه جلَّ في علاه. وهنا يبين لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله جلَّ في علاه من شأنه أن يغفر وأن يرفع وأن يخفض وأن يعطي وأن يمنع، وهذه كما قلت من كمال عزة الله وكمال جبروت الله وكمال غنى الله جلَّ في علاه. في الصحيح عن أبي موسى الأشعري أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار ويُرفع إليه عمل النهار قبل الليل، حجابه النور [وفي رواية قال: حجابه النار]، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، وبصر الله ينتهي إلى جميع خلقه جلَّ شأنه سبحانه جلَّ في علاه.

وهذه دلالات واضحة كما قلت على صفات الله العلية سبحانه جلَّ في علاه، وما آمن إلّا من تعرّف على ربه حق المعرفة، من عرف ربه وعرف نفسه هذا الذي تعبد حق العبودية لله جلَّ في علاه. وما زلنا يعلمنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من صفات الله جلَّ في علاه، وكما قلت يبين لنا كمال غنى الله جلَّ في علاه، كما قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر:15]، وكان كثيراً النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدعو ويقول: (لا ينفع ذا الجد منك الجد)؛ لا ينفع ذا الغنى منك الغنى. فالعبد أفقر ما يكون إلى ربه الغني الذي الغنى وصف له ذاتي والفقر وصف ذاتي للعبد، كما كان يقول شيخ الإسلام ابن تيمية يبين وصف الفقر له ذاتي ووصف الغنى لله ذاتي.

الغرض المقصود هذا من كمال غنى الله جلَّ في علاه، ومن تمام هذا أن نقول إنه من غنى الله جلَّ في علاه أنه لا ينفعه عبادة المتعبدين، ولا ذل المتذللين، ولا خضوع الخاضعين، ولا المتمكنين بين يديه سبحانه جلَّ في علاه، ولا يضره عصيان الفجرة الكفرة بحال من الأحوال كما في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً)، فهذا لكمال غنى الله جلَّ في علاه.

وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث يفسر لنا الآية (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) [الرحمن:29] ويبين لنا صفات الكمال والجلال والعظمة لله جلَّ في علاه، أن من صفات الله جلَّ في علاه أن يغفر ذنباً وأن يكشف كرباً وأن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً وأن يرفع أقواماً ويخفض آخرين. المسائل التي تتعلق بهذا الباب وهو كما قلت في عمدة الكلام على العقيدة، يتكلم النبي -صلى الله عليه وسلم- على صفات الله جلَّ في علاه، وهنا يذكر صفات من صفات الأفعال. والصفات الفعلية هي ناتجة عن فعل الله جلَّ في علاه، تتعلق بالمشيئة، وهي متجددة. يعني لك أن تقول أصلها هي ذاتية الأصل لكنها متجددة فعلية، ضابطها أن تتعلق بالمشيئة، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

انظر يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (في شأنه)؛ من شأن الله جلَّ في علاه، وهذا من كمال غناه كما سنبين أن (يغفر ذنباً) قل إن شاء غفر وإن شاء لم يغفر، الآيات ظاهرة؛ قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) [الفتح:14]، فهذه دلالة على أنها تتعلق بالمشيئة إن شاء غفر وإن شاء لم يغفر. ولذلك العلماء يقولون في فاعل الكبيرة أو الذي عصى ربه جلَّ في علاه أو غلبت سيئاته على حسناته فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه بهذه السيئات ثم بعد ذلك يلقى في نهر الحياة ويدخل الجنة، وإن شاء غفر له من أول وهلة، فإن هذه صفة من صفات الأفعال تتعلق بالمشيئة. قال: (ويكشف كرباً)؛ إن شاء كشفت وإن شاء ثبت هذا الكرب. فإذاً صفات الفعل هي الصفات التي تتعلق بمشيئة الله جلَّ في علاه، وهي تتجدد، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أكثر من صفة، منها صفة المغفرة، وهذه صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، يتضمنها اسم من أسماء الله الحسنى وهو اسم الغفور. إن الله جلَّ في علاه من أسمائه الغفور، وهذا الاسم من الأسماء الحسنى لأنه يطابق ذات الله، دلالة على الذات المقدسة، ولأنه يتضمن صفة كمال. هذه الصفة هي صفة المغفرة، بل وتستلزم صفات أخرى كصفة الرحمة والجود وغير ذلك. فهذه الصفة صفة المغفرة صفة كمال لله جلَّ في علاه، ثبتت بالكتاب وثبتت بالسنة وإجماع أهل السنة.

أمّا في الكتاب فقد قال الله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) [النساء:110]، وأيضاً يقول الله جلَّ في علاه: (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ) [الأنفال:38]، وقد قال الله تعالى: (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) [المدثر:56]، هذه فيها دلالات من الكتاب على هذه الصفة العظيمة وهي صفة المغفرة لله جلَّ في علاه.

أمّا في السنة فقد أثبتها النبي -صلى الله عليه وسلم- لربه جلَّ في علاه، كما في السنن بسند صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم)، فأثبت لربه أنه يغفر الذنب فيغفر لهم. وفي مسند أحمد أيضاً بسند صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أذنب عبد ذنباً فقال: ربي إني أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال الله: عبدي علم أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر، اشهدوا أني قد غفرت له)، فهذه فيها دلالة واضحة جداً على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أثبت لربه هذه الصفة العظيمة.

وأيضاً في بعض الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- التي في الصحيح أنه قال: (ينزل ربنا ثلث الليل الآخر)، وهذا حديث فيه أكثر من رواية فيه: (ثلث الليل الأول) و (ثلث الليل الآخر)، وما دمنا مع الإخوة طلبة العلم ونذكرهم بهذه المسائل الطيبة، كيف نجمع بين الروايات المختلفة التي أثبتت أن الله ينزل؟ وهذا النزول طبعاً له كيفية لكن لا نعلمها. فينزل ربنا في رواية قال: (ثلث الليل الآخر)، وفي رواية قال: (ثلث الليل الأول) كيف نجمع بين هذه الروايات؟ إذا قلنا ينزل ثلث الأول فنزوله في ثلث الليل الآخر صحيح، أنه يبقى إلى ثلث الليل الآخر، ومن قال في تفسير (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) [الإسراء:78] عن الله هو الذي يشهده فإذاً ينزل الله ثلث الليل الأول ويبقى نزوله إلى طلوع الفجر. الغرض المقصود يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يثبت صفة المغفرة، هذه الصفة العظيمة الجليلة التي أعوز ما نكون لها وأحوج ما نكون لها، قال: (ينزل ربنا ثلث الليل الآخر) أو قال: (في ثلث الليل الأول، فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟) وفي رواية في الطبراني بسند صحيح أنه قال: (هل من مستشفي فأشفيه)، فهذا نزول يليق بجلال الله جلَّ في علاه يثبت لنا صفات المغفرة لله جلَّ في علاه.

أيضاً في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن الله يبسط يده بالليل) وهي يد حقيقية تليق بجلال الله وكمال الله، (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)، فهذه كلها أدلة تثبت لنا هذه الصفة الجليلة العظيمة لله جلَّ في علاه. وأجمع أهل السنة والجماعة على أن الله جلَّ وعلا يتصف بالمغفرة ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وهناك أمثلة رائعة يتعرض فيها الصحابة الكرام إلى مغفرة ربهم جلَّ في علاه، ما من أحد إلّا وقد أذنب، ما من أحد إلّا وقد زل، ما من أحد إلّا وله السقطات والهنات، ولذلك يتمنى الإنسان أن يتطلع ويتعرف على ربه بمغفرة الله جلَّ في علاه. ما من ذنب يذنبه العبد إلّا ويجد الظلمة في قلبه، إلّا ويجد الظلمة في وجهه، إلّا ويجد نفسه في هم وغم، فعليه أن يتطلع إلى مغفرة الله جلَّ في علاه.

عمرو بن العاص كان من أذكياء العرب كما سموه داهية العرب، لما أراد أن يدخل الإسلام ومست بشاشة الإيمان قلبه ذهب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبسط النبي -صلى الله عليه وسلم- يده ليبايعه على الإسلام فقبض يده، فقال: (علام يا عمرو؟ فقال: أشترط، قال وعلام تشترط؟ قال: أشترط المغفرة [أي مغفرة الذنوب التي سبقت]، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: أما تعلم أن الإسلام يجب من قبله؟)، وهذه فيها دلالة على كأنه وهو في الجاهلية يعلم بهذه الصفة الجليلة لله جلَّ في علاه، فيتعرض لمغفرة الله جلَّ في علاه.

وأيضاً عن ابن عباس أن أناساً كانوا قد قتلوا في الجاهلية وزنوا وسرقوا، فذهبوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: الذي تأمر به إنه لجميل لكن نشترط، تكلموا على الزنا والسرقة والقتل. ما مآلنا بذلك؟ ما حالنا؟ ما حسابنا على هذا؟ فأنزل الله جلَّ في علاه (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) [الفرقان:70]. فأهل الجاهلية كانوا أفقه منا يتعرضون لمغفرة الله جلَّ في علاه، كانوا يعتقدون أن الله يتصف بهذه الصفة العظيمة، ألا تباً لأهل البدعة الذين ينفون عن الله أسمائه وينفون عن الله صفاته وهي صفات الكمال والجلال.

أقول هذا الباب باب القدر، فإذا كان باب القدر فلابد أن نبين أين الوجهة في القدر في هذه الأحاديث؟ الوجهة هنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا أن النتائج مرتبطة بالأسباب وأن الله جلَّ في علاه جعل المسببات بالأسباب ترتبط ارتباطاً وثيقاً، فإذا كانت المغفرة من الله جلَّ في علاه فجعل الله أسباباً للمغفرة، فإن المرء الذي يتطلع إلى أن يتعرف على ربه بمغفرته سبحانه جلَّ في علاه، فإن العبد الذي يتطلع إلى أن تغفر ذنوبه فلابد أن يتعلم شرعاً، وهذه فضيلة علم الشرع. ما هي الأسباب التي تكون موجبة لمغفرة الذنوب؟ من هذه الأسباب التي توجب المغفرة:

◆ كثرة الاستغفار: ما بيض أحد صحيفته يوم القيامة وما سعد بها إلّا إذا أكثر فيها الاستغفار، عن ابن عمر كما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (أنهم كانوا يعدون للنبي -صلى الله عليه وسلم- في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يستغفر الله جلَّ في علاه)، بل أكثر بلغ المئة يستغفر الله جلَّ في علاه، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عباد الله أن يستغفروا الله جلَّ في علاه في اليوم أكثر من مائة مرة.

◆ وأيضا من الأسباب التي تكون موجبة للاستغفار صدق التوبة مع الله جلَّ في علاه؛ فإن العبد إذا صدق ربه جلَّ في علاه بالاستغفار غفر الله له، ولو كانت الذنوب بلغت عنان السماء، ولو بلغت زبد البحر، فإن الله جلَّ في علاه إذا علم من قلب العبد صدق التوبة والإنابة والأوبة والاستغفار فإن الله يغفر له. أما رأيت كيف صدقت الغامدية ربها جلَّ في علاه في التوبة؟ أما رأيت كيف صدق ماعز ربه جلَّ في علاه في التوبة؟

ولذلك شهد الله بعد موتهم بأن الله قد تاب عليهم وقبل هذا الاستغفار وقبل التوبة منهم. إن هذه المرأة جاءت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- صادقة الاستغفار صادقة التوبة من قلبها لربها جلَّ في علاه فقالت: يا رسول الله إني حبلى من الزنا، صادقة أرادت أن تتطهر، فعلمت أن إقامة الحد فيه التطهير، فكانت صادقة التوبة والاستغفار والأوبة لربها جلَّ في علاه. فقال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اذهبي حتى تضعي)، فكان لها أن تفر وتستر على نفسها وتدعو الله جلَّ في علاه بالاستغفار، لكنها صادقة بالتطهير المادي لإقامة الحد عليها فرجعت بعد ما ولدت فقالت: يا رسول الله طهرني فإني ولدت من الزنا، فقال: (اذهبي حتى ترضعيه)، فأرضعته حتى جاءت فأقام النبي -صلى الله عليه وسلم- عليها الحد حتى رماها خالد بن الوليد -رضي الله عنه وأرضاه- بحجر، فالدماء تناثرت على ثوب خالد بن الوليد، فقال خالد بن الوليد: لعنة الله عليك، هنا شهادة من رب السماوات والأرض على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- بصدق توبة هذه المرأة الغامدية، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تلعنها، والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم)، وفي رواية قال: (قد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ [يعني جابي الضرائب] لقبل منه).

وأيضاً ماعز لما جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- يتوب والنبي يرده حتى أقام عليه الحد، وبعدما قتلوه بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه تاب توبة قد قبلها الله منه. فصدق التوبة من الأسباب الداعية أن الله جلَّ وعلا ينظر إلى العبد بعين المغفرة.

◆ من أهم الأسباب الموجبة لأن ينظر الله إلينا بعين المغفرة كثرة الحسنات الماحية للسيئات؛ كما صرح النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه قال: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها)، كلما أسأت فأحسن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- تصريحاً: (فإذا أسأت فأحسن). هذه المرأة من بغايا بني إسرائيل، كانت تضاجع كل ليلة رجلاً، إنها ما فعلت إلّا حسنة تمحو لها كل هذه السيئات، فالحسنة تمحو السيئات وإن كانت قليلة بصدق القلب مع الله جلَّ في علاه تصبح جسيمة وعظيمة، المرأة سقت كلباً شربة ماء فغفر الله لها كل هذه السيئات.

فهذه الصفة الأولى التي قالها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يغفر ذنباً)، و"يغفر ذنباً" هنا إمّا أن نقول عام مخصوص وإمّا أن نقول هو عام، والصحيح الراجح أنه "يغفر ذنباً" هو ما قال بالتوبة يغفر ذنباً، هذه كلها فيما دون الشرك، لأن الله جلَّ وعلا لا يغفر الشرك بحال من الأحوال، قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) [النساء:48]، فهذه عموم يراد به الخصوص. هي عامة فيما دون الشرك، وأقول فيما دون الشرك أقصد به الشرك الأكبر والشرك الأصغر كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ أن الشرك الأصغر أيضاً لا يغفر. وهل صاحبه يخلد في النار؟

لا، لكن يوضع في ميزان سيئاته فإن رجحت كفة الحسنات دخل الجنة وإن رجحت كفة السيئات فهو بمشيئة الله جلَّ في علاه.

ثم ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- صفة أخرى من صفات الأفعال لربنا جلَّ في علاه وهو فوق العرش، يرفع ويخفض كيفما شاء، يعطي ويمنع، يحيي ويميت سبحانه جلَّ في علاه لكمال قوته وجبروته وغناه وعزته، قال: (يكشف كرباً). وهذا من جميل فعال الله جلَّ في علاه، أنه ما ابتلي العبد بالبلايا إلّا والتجأ إلى ربه جلَّ في علاه فرفع عنه هذه البلايا، قال الله تعالى: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) [النمل:62]، ولذلك قال الله تعالى: (لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) [الزمر:53]، وقال على لسان إبراهيم -عليه السلام-: (وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) [الحجر:56] فأناط الضلال بمن يقنط من رحمة الله جلَّ في علاه.

ما من كرب يلم بالأمة أفرادا او جماعات إلا والله جلَّ في علاه سيفرج هذا الكرب وهذا الهم؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يعجب ربكم)، وفي رواية بإسنادها بعض الضعف لكن يستأنس بها (يضحك ربكم)، فالرواية الأولى وهي الصحيحة: (يعجب ربكم من عباده يقنطون)، الكرب أحاط بهم، البلايا أحاطت بهم (يقنطون وقرب غيره) أو والفرج قريب. يعجب الله جلَّ في علاه من عباده أنهم لو تطلعوا، لو تعرفوا على ربهم حق المعرفة، لو تمرسوا في عبادة الله جلَّ في علاه بصفات الجلال والكمال لله جلَّ في علاه، ما نزل بهم الكرب إلّا وعلموا أن الله سيرفع الكرب، لكن الله جلَّ في علاه يطلع على القلوب المريضة التي لا تثق في ربها جلَّ في علاه، فيبقى المرء في هذا الكرب وهذا البلاء لأن قلبه ليس نظيفاً وليس مستيقناً في ربه جلَّ في علاه. فإن العبد إذا تجلَّت له هذه الصفات يعلم أن فرج الله قريب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يعجب ربكم من عباده يقنطون مع قرب غيره).

وقد استنهض الله جلَّ في علاه عباده إلى السعي في تنفيس الكرب، وهذه فيها دلالة على أن الذي استنهض خلقه بذلك هذه صفة فيه سبحانه جلَّ في علاه، إن الله جلَّ وعلا قد استنهض الأمة على تنفيس الكرب وأثاب على ذلك كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من نفّس كربة عن مسلم نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة). إذا كان الله جلَّ في علاه يستنهض الأمة أو يستنهض الخلق بأسرهم ويأمرهم بهذه الصفة الجليلة، فإذاً نقول هذه الصفة يتصف بها الله جلَّ في علاه لأنه مدحها ويثيب من تعبد لله بذلك، فهي صفة من صفات الله جلَّ في علاه.

وقد وصف الله جلَّ في علاه نبيه على لسان خديجة ووفّقها لأن تقول ذلك، تصف نبيه بهذه الصف الجليلة؛ عندما جاء مفزوعاً لمّا رأى جبريل -عليه السلام-، فذهب إليها فقالت: له لا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك تصل الرحم. ثم بينت أنه ينفس الكربات،

قالت: إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم وتعين ذا الحاجة. وهذه الصفة ذاتها كانت لأبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، وعندنا أمثلة رائعة في الصحابة وغير الصحابة تبين لنا كيف تجلَّى الله جلَّ في علاه لعباده بتنفيس الكربات، وفائدة ذلك أن العبد يستيقن أكثر في ربه جلَّ في علاه، يتقرب أكثر لربه جلَّ في علاه، يمتلئ قلبه حباً لله.

أنت كبشر إن كنت في ضائقة فجاءك من البشر من فرّج لك هذه الضائقة، من تعاون معك على أمر يدخل السرور عليك، أحببته من قلبك حباً جماً. فما بالك من ربك جلَّ في علاه الذي يكشف عنك في كل لحظة وفي كل آن وفي كل ثانية، كربات لا يعلمها إلّا الله جلَّ في علاه. الكربة الظاهرة والضائقة الظاهرة عندك يكشفها الله، والتي خفيت أكثر بكثير، والله جلَّ في علا يتجلَّى لك بهذه الصفة العظيمة الجليلة بأن يكشف عنك هذه الكربات.

النبي -صلى الله عليه وسلم- أكرم الخلق على الخالق نزلت به البلايا تتراً، وأعظم ما نزل بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصابه بالهم العظيم والغم الجسيم حادثة الإفك، فراشه، يتكلم في عرض النبي -صلى الله عليه وسلم-. عندما تكلموا في عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- فقد أصاب الكرب والهم العظيم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأصاب الكرب أعظم منه عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، وأصاب الكرب والهم أبا بكر -رضي الله عنه وأرضاه-. فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهم والغم ما استطاع أن يقف صامداً إلى هذه الفتنة العظيمة، يسأل علي بن أبي طالب، يسأل أسامة ابن زيد، يسأل الجارية، يذهب إلى عائشة يقول: (إن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري فإن الله غفور رحيم)، ويقول: (وإن كنت بريئة فسيبرئك الله)، وما كان يخاطبها غير أنه إذا دخل يقول: (كيف تيكم؟). وأمّا بالنسبة لعائشة لله لها، فإنها كاد يتفطر قلبها وكبدها ورقّ دمعها من عينها لمّا أصيبت وعلمت بهذه الفرية العظيمة، فكانت دائماً تبكي وتقول: ليس لي مثل بيني وبينكم إلّا مثل يعقوب وأولاده، قالت: (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) [يوسف:18]، حتى برأها الله جلَّ في علاه ليتجلَّى الله لعباده بهذه الصفة العظيمة الجليلة بأن كشف هذا الكرب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-.

ولذلك أم الرومان لمّا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- يهش ويبش ويبين لها كيف تجلَّى الله لها بهذه الصفة العظيمة، يقول لها: (أبشري يا عائش فإن الله قد برأك)، فتقول أم رمان: اذهبي فاشكري رسول الله، فتقول: لا والله. انظر إلى الفقه العظيم تجلَّى الله لها بالصفة فقالت الابتداء في الشكر والتعبد والتذلل، قد تعلمت هذا من صفات الله جلَّ في علاه، قالت: لا والله لا أشكر إلّا الله جلَّ في علاه. وهي تشكر النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن أصالة تشكر صاحب الصفة الله جلَّ في علاه. وكذلك أبو بكر -رضي الله

عنه وأرضاه- الكرب العظيم الذي نزل به جعله يقول: لا أنفق على مسطح لأنه خاض مثل ما خاض الناس في عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، فكشف الله عنه الكرب وبين أن هذه من بركات آل أبي بكر. فإن الله أنزل قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، كشف عنها الكربة ثم بعد ذلك رفع قدرها يتلى فيها القرآن إلى يوم القيامة، هذا فضل الله جلَّ في علاه يتجلَّى لعباده بهذه الصفة الجليلة.

ليتنا نعرف كيف نتعرف على ربنا جلَّ في علاه، والله إذا أتقن المرء هذا الباب "باب الصفات" ما قنط من رحمة الله قط، ما أساء الظن بربه قط، ما تسخط على قدر الله قط.

هذا كعب بن مالك تخلف وكان قاصداً، تخلف عن غزوة تبوك، ولمّا تخلف هجره النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان يستطيع أن يلحن بالقول فيعذره النبي -صلى الله عليه وسلم- مع هؤلاء المنافقين لكنه صدق وعلم أن الصدق منجاة، فتكلم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصدق هجره النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمر أصحابه أن يهجروه، فما أحد كان يراه ويكلمه. يذهب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: أدخل المسجد، كاد يتفطر قلبه، أدخل المسجد فأنظر إلى رسول الله فأسلم عليه فيتمتم يحرك شفتيه، ما أعرف يرد علي السلام أو لا يرد علي السلام. يذهب إلى ابن عمه ويتسور السور ويسلم عليه ويقول السلام عليكم ورحمة الله، ويدير وجهه عنه ويبكي ويرجع إلى بيته. وهذه الكربة قد أحاطت به كما وصف جلَّ وعلا وصف بديعاً في كتابه (حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) [التوبة:118]، حتى انه كاد يفتن في دينه. فأنزل الله جلَّ في علاه تفريج الكربة ونفّس الله عنه هذه الكربة، فقد تجلَّى له بهذه الصفة العظيمة، حتى نزلت الآيات تبين توبته فيذهب متهللاً مستبشراً بهذه الآيات، فيقوم طلحة فيسلم عليه ويهنئه بهذه التوبة التي نزلت من فوق سبع سماوات.

تجلَّى الله جلَّ في علاه لعباده بهذه الصفة، فمن تعرف على هذه الصفة يصمد أمام البلايا ولا يفتن في دينه بحال من الأحوال، لأنه أحسن الظن بربه جلَّ في علاه، وقد تعرف على ربه بصفاته.

أيضاً من الأمثلة الرائعة التي تبين لك كيف ثبت الله من تعرف عليه حق المعرفة بأنه تجلَّى له بهذه الصفة العظيمة، يكشف له الكربة؛ الأحزاب تألب العرب جميعاً بسبب اليهود على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأرادوا الفتك بهذه الدعوة، وأرادوا تقويض أركان الدولة الإسلامية وقتل رسول الله وقتل كل من حول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فالأمر كان أشد ما يكون على أصحاب رسول الله. قد وصفهم الله وصفاً بديعاً، أنهم جاؤوا من فوقهم ومن أسفل منهم حتى زاغت القلوب والأبصار، كادت القلوب تبلغ الحناجر، كان أحدهم يقول إن رسول الله يبشرنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع يقضي حاجته، من شدة الكرب الذي ألم بهم. فتجلَّى الله لهم

بهذه الصفة العظيمة، وكانوا قبل يثقون في الله جلَّ في علاه جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً، فتجلَّى الله لهم بهذه الصفة العظيمة فكشف عنهم الكرب. (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) [الأحزاب:25]، لم ينالوا شيئاً بحال من الأحوال من المؤمنين، هذا من فضل الله على العباد ومن كشف الكربات عن المسلمين، يتجلَّى الله لنا بذلك.

صلح الحديبية كان أشد ما يكون على الصحابة، صلح الحديبية كانوا يرون أنهم في قوة وقريش تمنعهم من الطواف بالبيت، وما جاءوا مقاتلين، جاءوا من أجل الحج ومن أجل أن يتمسكوا بالله جلَّ في علاه، ومع ذلك فإن قريشا قد منعتهم من دخول المسجد الحرام. ثم بعد ذلك أرادوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجعلوا هذا الصلح، وهذا الصلح كانت فيه الشروط المجحفة على رسول الله وعلى أصحاب رسول الله. ما هي الشروط المجحفة على رسول الله وأصحاب رسول الله في صلح الحديبية؟ لو ارتد أحد من المسلمين إلى الكفار لا يرده إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذا أسلم أحد منهم وذهب إلى رسول الله لا بد أن يرده، وأن يرجعوا دون أن يطوفوا بالبيت. لكن كان أشد الشروط إجحافا عليهم هو هذا الشرط، لا سيما الكرب نزل بالمسلمين وأحاط بهم من جميع الجهات وجاء أبو جندل يقف أمام النبي -صلى الله عليه وسلم- مسلسلاً ويأخذه ويأخذ بعنقه أبوه سهيل بن عمرو، فيقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أتردوني لهم وقد أسلمت؟ وتعرفون أنهم يفتنونني في ديني؟ والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (سيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً).

لكن اشتد الأمر على عمر ما استطاع أن يتصور هذه المسألة وهو يذهب إليه ويعرض له بالسيف، وهو يقول يعني كلب وقتل، يعرض على سهيل -رضي الله عنه وأرضاه- والحمد لله أنه قد أسلم. فعمر بن الخطاب يذهب للنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ يقول: بلى، أليسوا على الباطل؟ يقول: بلى، يقول: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ الكرب اشتد على الصحابة، لكن الثبات والرسوخ ومعرفة الله حق المعرفة تجلَّت في رسوخ وثبات الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأيضاَ أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، فتجلَّى الله لهم بهذه الصفة العظيمة، فنفّس كربهم بعدما انصاعوا وأطاعوا رسول الله وحلقوا ورجعوا سمّاه الله فتحاَ، ودخلوا إلى مكة فاتحين مكافأة من الله لهم. فهذه دلالات واضحة على أن الله جلَّ في علاه فوق عرشه يدبر أمر السماوات والأرض، (يكشف كرباً).

العصور المتأخرة ورد فيها ما ورد من الملمات والبليات أشد ما ترون، الآن نزلت على الأمة الإسلامية؛ التتار قتلوا ملايين من بغداد وأسقطوا الخلافة وقتلوا الخليفة وعاثوا في الأرض فساداً، بل يقال إن نهر دجلة أو الفرات امتلأ بالمحابر والكتب التي أحرقت، وقتل العلماء من التتار. هذه بلية ليست بعدها بلية، كرب ليس بعده كرب على

المسلمين، لكن لمّا كان في الأمة طائفة تعبد الله حق العبادة، تتعرف على الله حق المعرفة، تثق بالله حق الثقة، تستيقن في ربها حق اليقين أن الله جلَّ في علاه نفّس هذا الكرب على يد قطز في عين جالوت بأن هزم الله لهم التتار، فهذه أيضاً من دلالات كشف الكرب من فعل الله جلَّ في علاه.

ثم قال: (ويجيب داعياً)؛ هذه الصفة تكلمنا عنها الأسبوع الماضي وبينا آداب الدعاء، وكيف أن الله جلَّ وعلا لا يرد سائلاً بحال من الأحوال.

الصفة الأخيرة قال: (ويرفع قوماً ويضع آخرين)، هي يعز أقواماً ويذل آخرين كما قال الله تعالى: (أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [النساء:139]، وكما بعث علي ابن أبي طالب أو غير علي بن أبي طالب يقول وينصح بعض التابعين: من كان الله معه فمن عليه؟. فمن رفعه الله فلن تجد أحداً ينزله بحال من الأحوال ولو اجتمع من بأقطارها، ولو أنزل الله قوماً أو وضع قوما لن تجد أحد يرفعه من هذه المكانة، قال الله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران:26]. انظر إلى فعل الله جلَّ في علاه بالروم وفعل الله بالفرس، إن الله جلَّ في علاه رفع الروم في آخر الأمرين ووضع الفرس، ثم بعد ذلك رفع أهل الإسلام.

إذاً العزة بيد الله والرفعة بيد الله جلَّ في علاه، وقد جعل الله لها أسباباً وهذا أيضاً من باب الإيمان بالقضاء والقدر، لا تكن نائماً على سريرك وتقول سيرفعنا الله لأننا مسلمون، لا تحسبن باسمك أنك محمد أو أحمد او أبو بكر أو عمر بأن الله جلَّ في علاه سيرفعك أو يعزك بذلك، لا والله، لا تنام على سريرك وتحسب أنك سترتفع، لا والله. لابد من الأخذ بالأسباب، فإن كانت العزة بأسرها بيد الله جلَّ في علاه والرفعة بأسرها بيد الله، فإن الله جلَّ في علاه تعبدنا بأن نأخذ بالأسباب وهذا من باب الإيمان بالقدر حتى نرتقي إلى هذه المنزلة.

الأسباب التي ترفع المرء وتعزه هو التمسك بهذا الدين، إن الله جلَّ في علاه قد أناط العزة في التمسك بهذا الدين، فإن ابتغينا العزة في غير هذا الدين لابد أن تأتينا الذلة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا الدين: (لا يترك بيت مدر ولا وبر إلّا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل)، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ضرب الكدية ثم قال: (الله أكبر أعطيت الكنزين الأحمر والأصفر). فمن تمسك بهذا الدين ارتقى وقاد وساد، وهذه الأمة قد قادت وسادت وكان لها مطلق الريادة في مدة وجيزة من عمر الزمن لأنهم تمسكوا بهذا الدين.

عمر بن الخطاب اللهم فرج بيت المقدس على يد لا يمكن أن نتسلم مفاتيح بيت المقدس إلّا بيد عمر بن الخطاب أو من سار على درب عمر بن الخطاب. هيهات هيهات لمن

يحلم أن يتسلم هذه المفاتيح إلّا أن يسير على درب هذا الرجل. عمر بن الخطاب عندما بعثوا إليه ليفتح الله عليه بيت المقدس، ردها الله للمسلمين سالماً وجعلنا نصلي في هذا المسجد العظيم المبارك، فإن عمر بن الخطاب ركب مع خادمه يركب تارة ويمشي تارة، يتناوب مع خادمه. انظروا هذا هو أمير المؤمنين، يركب تارة ويمشي تارة، وفي المرة أو النوبة التي جاءت أنه الذي يمشي والخادم يركب، وأبو عبيدة بن الجراح ينظر مندهشاً من هذا؟ عمر بن الخطاب؟ ثم بعد ذلك صادف مخاضة [بركة من الماء] فتأبط نعله [يعني أخذ النعل ووضعه تحت إبطيه] ومشى حافياً. فنظر أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا أمير المؤمنين ما يسرني أن يراك القوم وأنت على هذه الهيئة، وهو من؟ أمير المؤمنين، يقول عمر بن الخطاب: إيهٍ يا أبا عبيدة! انظروا إلى التأديب من عمر، ومع التأديب يعرف فضله هو يريد أن يؤنبه ويؤسس له أمراً قد زل فيه، ومع ذلك يعرف فضله ويعرف مكانته، عمر بن الخطاب في مرض موته قال: والله والذي نفسي بيده لو كان أبو عبيدة حياً لسلمته الخلافة، لفضله ولمكانته. فقال: إيهٍ يا أبا عبيدة! لو قالها غيرك لصفعته؛ لكن أنت ما استطيع أن أفعل معك شيئاً لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد وصف أن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح.

فقال: إيهٍ يا أبا عبيدة! لو قالها غيرك لصفعته، -هنا الشاهد-: (كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين، فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله). تكتب بماء العين، بل تحفر على الصدر بماء الذهب، يقول: (كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين، فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله)؛ فمن أراد العزة ورام الرفعة والقيادة والسيادة وأن ترتقي الأمة على عرشها المسلوب منها لابد من التمسك والعض بالنواجذ على هذا الدين، (أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) [النساء:139]، فمن أراد العزة فعليه بالتمسك بهذا الدين العظيم الجليل.

أيضاً من الأسباب التي تكون فيها الرفعة والعزة لهذه الأمة العلم بنوعيه، لكن أصله علوم الشرع. فالأمة التي تهتم الاهتمام البالغ بالعلم ترتقي المنازل العلا في الدنيا وفي الدين، والكلام الذي بصدده نحن الآن هو الكلام على أن العزة بحق هي عزة العلماء، قال الله تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلة:11]. وإن عمر بن الخطاب سأل عن الوالي في مكة فقالوا فلان، قال: مولى من الموالي أم من الأحرار؟ قالوا: مولى من الموالي، قال: تركت عليها مولى من الموالي؟ قال: إنه يحفظ القرآن ويتعلم المواريث، وذكر أشياء مما تعلمها هذا المولى، فقال: صدق الله، إن الله يرفع بالقرآن أقواماً ويضع آخرين. عبد أسود بعدما حرر ما وجد عملاً يشتغل به ليكسب ليترزق، فقال العلم، مالي إلّا العلم، فجلس في مجالس العلم فتعلم وأتقن، فبعدما أتقن وسعت له المجالس، جلس يحدث الناس فيبعث إليه أمير المؤمنين أن ائتنا نتعلم منك، قال: مجالسنا معروفة ومن أرادنا فليأتنا. هذا يرد على من؟ على أمير

المؤمنين العبد الأسود، ما الذي أعزه؟ ما الذي جعله في هذه الرفعة والمكان العالية؟ هو أنه أخذ بأسباب العزة التي أناط الله بها العزة.

إن الله جلَّ في علاه جعل أسباباً، العزة بيده لكن جعل لها أسباباً، من هذه الأسباب كما قلت بعد التمسك بدين الله جلَّ في علاه أن يرتقي المرء في درجات العلم. ألم ترَ كيف رفع الله بلالاً الحبشي وقد وضع أبا لهب النسيب قرشي، وأيضاً قد رفع الله سلمان وصهيب ووضع الله جلَّ في علاه أبا جهل الحسيب النسيب هذا.

آخر ما يمكن أن يقال في هذه الصفات التي كررها النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أراد أن يعلمنا كيف أن الله يتجلَّى لنا بهذه الصفات الجليلة العظيمة: صفات المغفرة وكشف الكرب، صفات إجابة الداعي، وأيضاً أن العزة بأسرها بيد الله جلَّ في علاه.

الفوائد المستنبطة:

١- السنة علاقتها بالقرآن أنها مفسرة، وأولى التفسير كما قال العلماء تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسير القرآن بالسنة. قال الله جلَّ في علاه: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) [الرحمن:29]، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يفسر لنا: ومن شأن الله أن يغفر الذنب وأن يرفع قوماً ويضع آخرين ويكشف كرباً ويجيب داعياً.

٢- إن هذا الحديث العظيم يدل لنا على كمال رحمة الله جلَّ في علاه وكمال جوده وكمال عطائه وكمال قوته وقدرته، كل واحدة من هذه ركبها على الحديث وقل لي أين الشاهد من هذا؟ هذا الحديث يدل على كمال رحمته وجوده وعطائه وكمال قدرته سبحانه وتعالى؛ وكمال رأفته بعباده أنه (يغفر ذنباً)، من تمام رحمة الله جلَّ في علاه ألّا يؤاخذ بالذنب بل يغفر الذنب، وهذا من جميل فعال الله جلَّ في علاه يستر ويغفر ويرحم. (ويكشف كرباً) هذا من كمال رحمته وقدرته وقوته وجبروته، لأنه لا غالب لله جلَّ في علاه، ولو كانت الكربات بلغت إلى عنان السماء فإن قدرة الله جلَّ في علاه إنما إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون.

٣- وجوب المسارعة إلى مرضاة الله جلَّ في علاه بالإيمان بالقدر، يعني بسبب الإيمان بالقدر تتمثل في ذلك بما قاله أبو بكر وغير أبو بكر، قالوا: (ما اجتهدنا حتى تعلمنا القدر)، يعني اشتد اجتهادنا في القرب من الله بعد ما تعلمنا القدر. من أين هذه الفائدة؟ قدر الله رفع أقواماً وخفض آخرين، قدر الله مغفرة الذنوب، قدر الله إجابة الدعاء. فلا يمكن أن رجلاً ينام على سريره ولا يرفع يديه يدعو الله متذللاً خاضعاً متمسكاً ونقول سيجيب الله دعاءه، أين الدعاء حتى يجيب الله دعاؤه؟ هذه دلالة على أن الله ربط النتائج بالأسباب، فإنه إذا أجاب داعياً لابد أن يتواجد هذا الداعي حتى يجيب ولابد أن يتواجد هذا السائل حتى يعطى.

سؤال: يقول علمه بحالي يغنيه عن سؤالي؟

جواب: هذا خطأ فاحش لأن الله جلَّ في علاه قد شرف عباده، وبيّن أن أكرم الخلق عليهم وبيّن أن أفضل العباد منزلة هم الأنبياء، أفضل ما هم فيه أنهم يتذللون لله جلَّ في علاه (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) [الأنبياء:90]. يقول علمه بحالي يغنيه عن سؤالي، هذا كلام خطأ فاحش، كأنه يزهد ويزدري أن يتذلل لله جلَّ في علاه، ما له في حلو المناجاة عبادة فوق العبادة عندما يتذلل ويعلم الفقر وصف ذاتي له وأن غنى الله جلَّ وعلا وصف ذاتي له، فإنه يتقرب إلى الله جلَّ وعلا قرباً لا يجده في الذي لا يدعو، بل يتذلل إلى الله جلَّ في علاه ويشتاق قلبه إلى رؤية ربه جلَّ في علاه الذي نفّس عنه هذه الكربة.

٤- (يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً، يرفع أقواماً ويضع آخرين) فيها عموم وخصوص؛ (يغفر ذنباً) كما قلنا إلّا الشرك، (يكشف كربا) صراحة هذا على العموم هذا للمؤمن والكافر، يعني يكشف كرب الكافر؟ نعم يكشف كربات الكفرة، فإن صدقوا في الدعاء فإن الله يكشف عنهم الكربات، فقد قال الله تعالى عموماً: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) [النمل:62]، فهذا على الجميع. والله جلَّ وعلا وصف لنا (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) [يونس:22]، فهنا عندما دعوا الله جلَّ في علاه مخلصين له الدين، الله جلَّ وعلا يستجيب لهم هذا الدعاء فيكشف الكربة وإن كانوا على الكفر، (ويجيب داعياً) نفس الأمر كما قلنا. (ويرفع أقواماً ويضع آخرين) هذا عام مخصوص، لأنه لا يرفع إلّا الخاصة الذين هم أقرب إلى ربهم جلَّ في علاه.

الباب القادم إن شاء الله سنتكلم عنه مع الباب الذي بعده ودعوة المظلوم ولو كان كافراً، للتصريح عن حديث ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أنه بيّن أن الله جلَّ في علاه يستجيب للمظلوم ولو كان فاسقاً ولو كان كافراً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس السادس والأربعون:

باب (لعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

فالحمد لله ثم الحمد لله على هذا العود الحميد، ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجمعنا دائماً على خير وفي خير. ولو تعلم الدنيا ما حاجتها إلى العلم لجثت على الركب من أجل هذا العلم، ولو رأيتم ما رأينا ولو سمعتم ما سمعنا لعلمتم حاجة الناس إلى العلم، أقسم بالله هذه الدنيا لا تستقيم إلّا بالعلم، بل كثير من الدعاة بل كبار الدعاة رأينا منهم أموراً على خير لكنها أبعد ما تكون عن العلم، تبيّن لنا أن الإنسان أحوج ما يكون وأعوز ما يكون إلى العلم.

إن المرء لن يقترب من ربه جلَّ في علاه، ولن يرتقي إلّا بالعلم؛ قد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، فقد بيّنه الله جلَّ في علاه في كتابه عندما قال: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) [محمد:19]، ما قال تعبد، قال: (فَاعْلَمْ)، تعلم أولاً ثم تعبد (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) [محمد:19]، اعلم ثم تعبد ثم استغفر. وقال الله تعالى: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:108]. وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وقد فقهت ما قاله الشافعي وحفرته في صدري عندما كان يقول: على المرء أن يتفقه قبل أن ينكح؛ وما كنت أدري ما هذا الكلام الذي يحفر أو يكتب

على الصدر بماء الذهب حتى رأيت ما رأيت. وقد قال الإمام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: تفقهوا قبل أن تسودوا؛ لأن المرء إذا ساد وعلا صيته لا يستطيع أن يتراجع ويجلس بين يدي الطلبة أو العلماء ليتعلم، لكنه سيتصدر قبل أن يتأهل ثم يحدث ما يحدث بعد ذلك.

فنحمد الله على هذه المجالس، ونشكر الله جلَّ في علاه على هذه الجلسات التي نجلس فيها نتباحث في كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم-، ثم ندعوا كثيراً لمن جعله الله سبباً لتيسير هذه المجالس وعاونا فيها على البر والتقوى، نسأل الله يجعلها في ميزان حسناته وأن يكثر من خيره وأن ييسر عليه كما يسر على طلبة العلم أن يطلبوا هذا العلم. عود إلى هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وما زلنا في الكلام على أهم وأجل وأدق الأبواب في العقيدة ألا وهو باب القضاء والقدر.

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصفيه وخيرته من خلقه، وبعد:

الباب السادس والخمسون:

عن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لعلك أن تخلّف حتى ينتفع بك أقوام ويضر بك آخرون)، قلت إسناده صحيح. إذاً كفانا الشيخ فلا نتكلم في الأسانيد حتى ننظر فيها، إن كان فيها بحث نبحث فيها.

الباب السابع والخمسون:

عن أبي عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه- عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مجتمعين وأنا أعرف الحزن في وجهه فقال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال رجل: يا رسول الله ماذا قال ربنا؟ قال: أتاني جبريل -عليه السلام- فقال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قال: قلت ومن أين يأتيهم ذلك وأنا تارك فيهم كتاب الله عز وجل؟ قال: بكتاب الله يضلون وأول ذلك من قِبَل قرائهم وأمرائهم).

الباب الثامن والخمسون:

عن أبي الدرداء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله تعالى فرغ إلى كل عبدٍ من خلقه من خمس: من أجله ومن عمله ومن رزقه ومن أثره ومن مضجعه).

أمّا الحديث الأول حديث سعد بن أبي وقاص هذا حديث أولاً لفتته أو علاقته بالقضاء والقدر؛ ما هو إلّا زيارة مريض (عيادة مريض)، والرجل كان يخشى من الموت ولذلك سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- الوصية، فبيّن له النبي -صلى الله عليه وسلم- كما سنبين، فما علاقته بالقدر؟ الصحيح والراجح في ذلك العلاقة أن الآجال مضروبة يعني مكتوبة، لا المرض يعجّل بالموت ولا يؤخّره الصحة ولا العافية. فبيّن النبي -صلى الله

عليه وسلم- بوحي من الله جلَّ في علاه أن الآجال مضروبة، يعني هذا المرض الذي تخشى منه الموت أنت لن تموت في هذا المرض، وهذه من دلائل نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أولاً النبي -صلى الله عليه وسلم- هو أحسن الناس خلقاً، وقد وصفه الله جلَّ في علاه بذلك، قال الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]، وسئلت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- عن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: (كان خلقه القرآن)، وكان يصف أنس كما في الصحيح عن أخلاقيات النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول: (لا والله ما قال لي لشيء أنا فعلته لِمَ فعلت، ولا لشيء أنا تركته لِمَ تركت)، كان يحيل ذلك إلى القدر من بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس أخلاقاً. وقد استنهض النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة باسرها على علو الأخلاقيات ومكارم الأخلاق، ما بعث إلّا ليتمم مكارم الأخلاق. كما في السنن بسند صحيح أنه قال: (أحبكم إليّ)، وهذه دلالة واضحة جداً على أن صاحب حسن الخلق هو أرقى الناس منزلة عند النبي وعند الله، (أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلة يوم القيامة مساويكم أخلاقاً).

ومن حسن أخلاقيات النبي -صلى الله عليه وسلم- التي لابد أن نأتسي بها ونقتدي بها ونقتفي أثر النبي -صلى الله عليه وسلم- فيها عيادة المريض، ما سمع النبي -صلى الله عليه وسلم -وهو الصادق بل هو سيد الخلق أجمعين ما سمع بمريض أقل منه أو كان من أكابر الصحابة إلّا وذهب يعود هذا المريض مواساة للمريض، وهذا من حسن أخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم-. فهنا سعد بن أبي وقاص مرض بمكة وخشي على نفسه أن يموت، وما أدري لِمَ خشي على نفسه الموت في مكة ومكة أحب بلاد الله إلى الله جلَّ في علاه؟! فلما ارتجف قلب سعد خوفاً وهلعاً أن يموت بمكة، مع أن مكة أحب البلاد إلى الله جلَّ في علاه، يا ترى ما اللغز في ذلك؟!! ما الذي خوفه؟!! ما الذي جعل قلبه يرتجف وهو يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "أموت في مكة" ومكة أحب بلاد الله إلى الله؟ فكيف يخاف سعد من الموت في مكة؟

هو خشي على نفسه من الهجرة، هو هاجر من مكة أصبحت مكة ليست ببلد له، فخاف أن يموت في مكة، ولذلك قال: البائس سعد بن خولة مات بمكة ودفن بمكة فهل تحبط هذه الهجرة أم لا؟ فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يثبت الله لأمته الهجرة، ثم بيّن له وبشره أنت لن تموت في هذا المرض. دخل عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- يعوده وهو يخشى على نفسه الموت، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم الوصية، فبين له تشريعاً الوصية جائزة، لكن الثلث والثلث كثير، كما صح عن ابن عباس قال: لو غض الناس إلى الربع؛ لو غض الناس عن الثلث، يعني يكون هذا هو الأفضل في مسألة الوصية لمن أراد أن يوصي ببعض الأموال التي تركها صدقة جارية له لبعد الموت.

فزاره النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعاده من حسن أخلاقه. والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد عاد جابر؛ لمّا كان جابر -رضي الله عنه وأرضاه- في مرضه دخل عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وصب عليه من وضوؤه. وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما أصيب سعد بن معاذ سيد الأنصار في كاحله، النبي -صلى الله عليه سلم- أمر بأن يضرب له الخبأ بجانبه قريب منه حتى يعوده بتكرار وينظر في مرضه وينظر في حاله يواسي هذا المريض، وهذا من حسن أخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم-. ولذلك قد صح عن نبينا أنه قال: (من عاد مريضاً) إخلاصاً لله وابتغاء وجه الله جلَّ في علاه (من عاد مريضاً ما زال في مخرفة الجنة). وأيضاً في حديث آخر صح عن نبينا (إن الله يوكّل سبعين ألف ملك يستغفرون له إن كان في المساء حتى يصبح، وإن كان في الصباح حتى يمسي)، وهذه من حسن أخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وهذا الباب يتعلق بأبواب القدر أنه فيه دلالة من دلائل النبوة، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن له أن الآجال مضروبة وهذا المرض لا تموت فيه، ثم قال: (لعل الله ينفع بك أقواماً ويضر بك آخرين)، وهذه اللفظة أيضاً تتعلق بالقضاء والقدر على أن الله جلَّ وعلا كتب النفع في سعد، وأيضاً الضر في سعد؛ جمع بين النقيضين ،وهذان النقيضان يكونان بحسب من ينتفع ومن يضر، كما بيّن الله جلَّ في علاه أن الكتاب فيه النفع وفيه الضر، (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) [الإسراء:82]، ففيه النفع والضر على حسب من ينتفع ومن يضر. فسعد -رضي الله عنه وأرضاه- نفع الله به كما فتح بلاد فارس، وضر به هؤلاء عندما هزمهم شر هزيمة بفضل الله جلَّ في علاه.

أمّا الحديث الثاني فويلنا من هذا الحديث، هذا الحديث يواكب قول ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: نحن في زمان كثر فيه فقهاؤنا؛ فيه دلالة أيضاً على أن كثرة العلم فيه النجاة. ولذلك الرعيل الذهبي الوقت الذي فيه النجاة بحق والذي فيه الفلاح بحق والذي فيه الرفعة بحق والذي فيه القيادة والسيادة والريادة بحق، هو هذا الوقت الذهبي وقت النبي -صلى الله عليه وسلم-، (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)؛ انتشر فيه العلم، وكانت المجالس تكتظ في مجالس العلماء، الناس بكثرة كانت تملأ المساجد في مجالس المحدثين والفقهاء والعلماء، وكانت تقل عند القصاصين. والعكس بالعكس في زمننا هذا، دار الزمان فجاء العكس بالعكس. وقال ابن مسعود نبوءة وهذه كرامة من كرامات الأولياء، قال: نحن في زمان كثر فيه فقهاؤنا، وسيأتي عليكم زمان يقل فيه الفقهاء ويكثر فيه القراء؛ الوعاظ القصاصون، وهذا حدث في عصرنا هذا كثير من الوعاظ أو القصاصين يحسبهم الناس أنهم على علم وليسوا كذلك، يحسبهم أنهم من العلماء وليسوا كذلك. لذلك الأمة تتخبط في عضل المسائل لأن الذي يتصدر لها ليس متأهلاً، لأن يتصدر لمثل هذه المسائل عاري عن العلم.

فهنا يبين النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بكتاب الله يضلون)، كيف ذلك؟ نعم يضلون بكتاب الله، يفهمونه على غير مراد الله، على غير مراد رسول الله -صلى الله عليه

وسلم-، يقلبون ما فيه، ما يأخذونه بعلم بل يبيعون ويشترون بهذا الكتاب كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اقرأوا القرآن وتأجلونه ولا تتعجلونه، سيأتي زمان على اناس يتعجلونه ولا يتأجلونه)؛ يتعجلون ثوابه وأجرته، يقرأون بالأجرة. كما بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الناس الذين يقرأون القرآن أصناف ثلاثة: منه الذي يغلو فيه، والذي يجفو فيه، والذي يأكل به، وأشر الثلاثة الذي يأكل بالقرآن. فقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بكتاب الله يضلون)، يعني يفقهونه على غير مراده، وهذه فيها دلالة واضحة جداً من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- لحاجة الناس إلى العلم الذي يفهم عن الله مراده ويفهم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مراده.

أمّا الباب الثالث هو باب مهم جداً فيه، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تعالى فرغ إلى كل عبد من خلقه خمس)؛ "إلى" بمعنى اللام "لكل عبد"، (إن الله فرغ إلى كل عبد من خلقه من خمس: من أجله ومن عمله ومن رزقه ومن أثره ومن مضجعه). (فرغ الله) أي انتهى الله علماً وكتابةً، وإلَّا فالإرادة والخلق يكون بعد ذلك في هذه الدنيا، فإن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات الأرض بخمسين ألف سنة كما ورد في أحاديث في ذلك، وأيضاً كما في المسند عن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ابن عباس رديفاً له وقال: (يا غلام أعلمك كلمات) ثم ذكر (رفعت الاقلام وجفت الصحف) هذا هو معنى الانتهاء.

فقد انتهى الله، انتهى لكل عبد من خمس ثم ذكر الخمس وقال توضيحاً: (من أجله ومن عمله ومن رزقه ومن أثره ومن مضجعه)؛ يعني كتب ذلك علماً وكتابةً، ليس الإرادة والخلق في الواقع، ما زال حتى يظهر في الواقع الذي يعيشه كل إنسان. قال: (فرغ الله إلى كل عبد من خمس: من أجله)؛ أي الآجال المضروبة مكتوبة عند ربنا جلَّ في علاه، وقد بيّن الله في غير ما آية، وغير ما حديث بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم أن لكل إنسان أجل لا يتقدم ولا يتأخر. قال الله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) [سبإ:29-30]، وأيضاً قال الله تعالى: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) [الأعراف:34]، فكل إنسان قد كتب الله أجله. وأيضاً في الصحيح صح عن نبينا أنه قال: (فيأتي الملك فينفخ فيه الروح ثم يقول: أي رب ما الأجل؟ أي رب ما الرزق؟)، فيكتب الأجل. فكل أجل للإنسان مكتوب، والله جل في علاه قدّره؛ يعيش ستين عاماً، ثمانين عاماً، مئة عام. الله جل وعلا كتب ذلك وقد قدره في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة.

وهذا أمر لابد أن نعتقده اعتقاداً جازماً، ونؤمن به إيماناً كاملاً، بأن الله جلذَ في علاه ضرب لكل إنسان أجل لا يمكن أن يتأخر عنه ساعة ولا أن يتقدم ساعة. وهذه تجعل الإنسان بقلبه يذهب إلى ربه جلَّ في علاه، إن كان في شدة المرض لا يقول مرضي سيعجل في أجلي، وإن كان في أتم صحة وأتم سعادة لا يقول إن هذا سيؤخر موتي. لا والله، لا المرض يعجل الموت ولا السعادة ولا التمكين ولا القوة البدنية تؤخر الأجل

الذي كتبه الله جلَّ في علاه. إذاً قال: (من أجله) يعني كتب هذا الأجل، وهذا نؤمن به ونعتقده اعتقاداً جازماً، إلّا أن هناك بعض الروايات أشكلت علينا وهذا الاعتقاد، هناك بعض الإشكالات لابد من حلها منها:

▪ الإشكال الأول: المطلق من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أراد أن ينسأ له في عمره [يعني يؤخر، يزاد] ويبارك له في رزقه فليصل رحمه)؛ محمد كان له من العمر قل الستين، ثم لمّا كان واصلاً لرحمه غير مكافئ زاده من الستين إلى الثمانين، فزاد الأجل. فهذا يخالف نص الحديث الذي ندرسه الآن.

▪ الإشكال الثاني: النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما جاءه ملك الموت ما الذي حدث؟ خيره بين أن يبقى وبين أن يموت، وهذا ظاهره مخالف لأن الآجال تكون مضروبة، فاختار النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى).

▪ الإشكال الثالث: إن موسى -عليه السلام- جاءه ملك الموت ليقبض روحه فلطمه ففقأ عينه فلم يقبض روحه، ولو كان الأجل مضروباً لقبضه وما حدث ذلك، حتى جاءه مرة ثانية ثم بين له أن الله قال له: (ضع يدك على متن ثور) إلى آخر الحديث المشهور بيننا.

▪ الإشكال الرابع: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قص لنا قصة عجيبة، أن آدم عندما رأى ذريته أمام عينه وجد رجلاً بين عينيه وميضاً (ضوءً، نوراً) فسأل عنه، قالوا: داوود، داوود له كم من العمر؟ قالوا: عمره ستون، فقال: يأخذ من عمري أربعين. أين الآجال المضروبة الآن؟ أصبح من ستين إلى مئة فتغيرت، ونحن اعتقدنا اعتقاداً جازماً أن الآجال مضروبة وأنها لا تغير ولا تبدل بحال من الأحوال.

والإشكالات الأربع الآن تبين لنا أن العمر يتغير ويتبدل؛ رجل كان قاطعا لرحمه عمره ستون فلما أصبح واصلاً لرحمه وكان يصل كثيراً رحمه بارك الله في عمره وزاد في عمره فأصبح مئة، فهنا الآجال غير مضروبة الآن. والأمر الثاني كما قلنا حادثة موسى وحادثة محمد -صلى الله عليه وسلم-، أيضاً حادثة داوود -عليه السلام-. فكيف من حل لهذه الإشكالات؟ لطالما أنتم اعتقدتم الحمد لله اعتقاداً جازماً بأن الآجال مضروبة، وهذا الحديث من فوائده المستنبطة أن فيه رد قوي على المعتزلة؛ أين المعتزلة؟ ما لها وللآجال؟ ففيه رد قوي على المعتزلة في هذا الحديث تأصيلان:

◆ التأصيل الأول: أن بعض العلماء يشكل على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ينسأ)، فقالوا ينسأ ما معناها يزاد، المعنى أن يبارك في عمره، فتكون البركة الستين كأنه يعيش ثمانين، يعمل عمل الثمانين والمئة. فيقول: لا زيادة حسية لكن هي البركة، فالزيادة هنا زيادة معنوية وليست حسية عند بعض العلماء الذين قالوا لا ندخل في هذه الإشكالات. وبعضهم قالوا: لا، الزيادة حقيقية.

نقول الكتابة كتابات ثلاثة: كتابة اللوح المحفوظ كتابتان: كتابة مطلقة وكتابة معلقة، والثالثة كتابة الملك؛ الكتابة المطلقة في اللوح المحفوظ كما هي، والمعلقة لا تكون إلّا

بالتعليق يعني يقال مثلاً عمره ستون وسيزيد لثمانين عندما يصل رحمه، فإن وصل رحمه حدث ذلك، وهذا الذي يتبدل ويتغير في صحف الملائكة. هذا الذي أصل أصيل يمكن أن تجيب عن كل هذه الإشكالات.

أمّا بالنسبة لكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الملك ما جاء إلّا ليقبضه إلّا بعد ما يختار الرفيق الأعلى، هو مكتوب في المحفوظ لن يقبض النبي -صلى الله عليه وسلم- إلّا أن يقول "اللهم الرفيق الأعلى" فيقبضه، ليس حينما يأتي يخيّره، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مكتوب عمره ومكتوب قضاء موته بعدما يقول "اللهم الرفيق الأعلى"، وموسى نفس الأمر في إجابة الملك الذي جاء لموسى. وأمّا بالنسبة لداوود -عليه السلام- نقول هذا الكلام في اللوح المحفوظ كتابة معلقة، وإن آدم -عليه السلام- سيعطي من عمره لابنه الأربعين، فيأخذها داوود -عليه السلام-. هذا الرد على هذه الإشكالات، وبذلك أول أمر أن الله قد انتهى إلى خلقه من خمس: من أجله، فهي آجال مضروبة.

ثم قال: (ومن عمله)؛ يعني إمّا أن يعمل بعمل أهل الجنة وإمّا أن يعمل بعمل أهل النار، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا كتب الله العبد أنه من أهل الجنان فبعمل أهل الجنان يعمل)، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم -:(إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب) يعني كتب أنه من أهل الجنان، (فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة ثم يختم له بهذا العمل، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيختم له بهذا العمل). فكل إنسان من عمله قد خلقه الله جلَّ في علاه ووفقه لهذا العمل، ولذلك لما جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا رسول الله هذه الأمور قد كتبت قد انتهت رفعت الأقلام وجفت الصحف ففيمَ العمل يا رسول الله؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له). ومن الفائدة في هذا الحديث أو في هذه الجزئية أن الله خلق كل عبد وخلق عمله، وفيه رد أيضاً على أهل البدع والضلالة المعتزلة الذين يقولون بأن الله لم يخلق عمل الإنسان.

قال: (ومن رزقه)؛ الأرزاق مقسومة يا أهل الدنيا، يا من تطلبون الدينار والدرهم وتطلقون الآخرة من أجل الدنيا، اسمعوا لهذا الحديث فإن هذا الحديث من أمتع ما يكون ومن أقوى ما يكون توكلاً على الله جلَّ في علاه. فإن الأرزاق مقسومة، لو باع المرء دينه بثمن بخس فإن هذا الثمن البخس والدراهم المعدودة ستأتيه من غير أن يبيع دينه. فإن المرء لو عاش دهره، لو عاش نهاره يعمل كالحمار ويغفر الله لنا بهذه اللفظة، والله لن يؤتى ولن يأخذ من الدنيا إلّا ما قسم له. قد قال الله تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) [الذاريات:22]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-:(نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفساً حتى تستوفي أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب). ولمّا تكلم على أرزاق الدنيا البدنية قال الله تعالى: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا) [الملك:15]، وقد قال الله تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) [طه:132]، فأرزاق الله مقسومة. ولذلك ورد في بعض

الإسرائيليات أنه قيل: يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب، وقسمت لك الرزق فلا تتعب، فإن أنت رضيت بما قسمته لك ارحت نفسك أو قلبك وبدنك وكنت عندي محموداً، وإن لم ترضَ بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البرية ولن تأخذ إلاّ ما قسم لك وكنت عندي مذموماً).

فالأرزاق مقسومة، فتعس ثم تعس ثم تعس عبد الدرهم وعبد الدينار- ثم تعس بعد ذلك في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يكن أحدكم حماراً بالنهار جيفةً بالليل)، لا في الليل له جزء لله جلَّ في علاه، ولا في النهار ذكر الله، هو كالطاحونة والساقية في هذه الدنيا ليحصل الدرهم والدينار، وفي ساعة واحدة لو ارتاح في سريره سيأتيه نفس الكم الذي يريده لكن لا بد أن يأخذه بسببه ويعمل بقول الله تعالى: (فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا). (وفي رزقه)؛ يعني الرزق مقسوم عند الله جلَّ في علاه، ومن أمتع ما يقال في هذا الباب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الرزق يسعى خلف المرء كما يسعى خلفه الموت). انظر أجلك يسعى خلفك ولن يتركك بحال من الأحوال، الرزق كذلك، فالرزق يأتي لك ويسعى خلفك كما أن الموت يسعى خلفك. وأفضل ما قال ابن عطاء في بعض مواعظه أنه قال: سوابق الهمم لا تخترق أسوار الأقدار؛ يعني لو كنت صاحب همة عالية ورجل تعمل بجد وكد واجتهاد لن تصل إلى ما تريد وتصبو إليه إلّا بما كتب الله جلَّ في علاه، حتى أنه قال: والرزق الذي جاءك عن طريق فلان لو فعلت ما فعلت ليصل عن طريقك أنت لن يصل إلّا عن طريق فلان؛ لأنك لن تسبق أقدار الله جلَّ في علاه.

(إن الله تعالى قد فرغ إلى كل عبد من خلقه من خمس: من أجله ومن عمله ومن رزقه ومن أثره)؛ الأثر هو الخطوات، يعني كل خطوة ستخطوها قبل أن تخطوها قد كتبت في السماء. قد قال الله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) [النجم:43]، خلق الله حتى العجز والكيس والعقل، خلق الله كل خطوة تخطوها قد كتبها الله لك، كما قال الله تعالى: (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ) [يس:12]. ولذلك في الحديث من توضأ في بيته ثم ذهب إلى الصلاة ماشياً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فكل خطوة ترفع درجة وتحط عنه خطيئة)، وفي رواية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في صلاة الجمعة: (من بكر وابتكر وغسل واغتسل وذهب إلى الجمعة ماشياً كتب الله له بكل خطوة) هذه دلالة على كل خطوة تكتب هذه الآثار (كتب له الله بكل خطوة سنة بأجر صيامها وقيامها)، فكل خطوة من الخطوات يكتبها الله جلَّ في علاه، ولا خطوة تضيع لأن الأرض تشهد لك فيما فعلت من خير أو من شر.

ثم قال: (ومن مضجعه)؛ مضجعه هنا يعني مدفنه، مثواه كما يقولون في الصحف انتقل إلى مثواه الأخير وهذا كلام باطل ليس بصحيح لأن المثوى الأخير إمّا جنة وإمّا نار، هم يقصدون البرزخ. فهنا من مضجعه يعني أين يموت وأين يدفن، لو احتوشته السباع قد كتب الله ذلك، لو كان في البحار في قلب الحيتان قد كتب الله ذلك، لو في مقبرة كذا كتب الله ذلك.

وهناك قصة يمكن أن تروى في هذا الباب؛ إن سليمان كان بجانبه الوزير وجاء رجل ينظر إلى هذا الوزير ويتملقه وينظر فيه ويطيل النظر فيه، فقال الوزير لسليمان: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: ملك الموت، فخاف على نفسه وارتاع فرحل من بلده إلى بلاد كذا وكذا ضرب أكباد الإبل، فلما ضرب أكباد الإبل سليمان أيضاً اندهش وسأله لِمَ تنظر إليه هكذا؟ فقال: أمرني ربي أن أقبض هذا الرجل لكن أقبضه في بلد كذا البلد الذي سافر إليه. فهذه فيها دلالة أن الله جلَّ وعلا إذا كتب لعبد أن يموت في بلد كذا، لو اجتمعت الأمة باسرها أن تنقله من هذا المكان لا يمكن أن ينتقل، ونحن كثير ما نرى ان بعض الأموات مثلاً يموت في البلد التي هاجر إليها أو هو كان مغترباً فيموت في البلد التي يعمل فيها فيسعى أهله كثيراً حتى ينقل إلى بلده ولا يقدّر الله ذلك فيدفن في نفس المكان، لأن الله قد كتب ذلك له. قال: (في مضجعه)، يعني حتى المكان الذي سيدفن فيه هو مكتوب عند الله جلَّ في علاه.

هذا الحديث العظيم يبين لنا أن الله جلَّ في علاه قد فرغ من عباده، وتمام هذا أن تقول وتروي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: (إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج بكتابين فقال: قد فرغ الله من العباد، هذا كتاب فيه أسماء أهل الجنة [يعني العمل والأثر وغير ذلك] بأسمائهم وأسماء آبائهم وقد ختم على ذلك لا زيادة ولا نقصان)، ثم بين الكتاب الذي بشماله: (هذا أسماء أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقد ختم على ذلك). كتب الله كل شيء وهذا يجعل الإنسان يزداد طاعة ولا يتقاعس، كما قال بعض السلف: والله ما ازددت تقى، ما ازددت طاعة، ما ازددت سعياً في العبادة إلّا بعدما تعلمت القدر. لأن الله جلَّ في علاه قد ضرب في كتابه (كل ميسر لما خلق له)، فمن وجد أن الله قد يسر له الطاعة فهو من أهل الطاعة، ونسأل الله أن يختم له بالطاعة، ومن وجد أن الله يسر له المعصية وأغلق عليه كل باب الطاعة فهو من أهل المعصية، ولو فعل ما فعل ولو سعى ما سعى وسيختم له بمعصية إلّا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً.

الفوائد المستنبطة:

١- دلائل النبوة: وهذه تعرفها بإخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- لسعد بأنه سيعيش وأن هذا المرض لا يموت فيه، بل وسينفع الله به أقواماً ويضر به آخرين، نفع الله به أهل الإسلام بفتح بلاد فارس وضر به أهل فارس.

٢- فائدة العلم: عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، الصحابة يقولون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: كيف يضلون وفيهم كتاب الله؟ قال: (بكتاب الله يضلون)، لِمَ؟ لجهلهم بكتاب الله جلَّ في علاه، لجهلهم بمراد الله جلَّ في علاه، لتحريفهم لكتاب الله جلَّ في علاه.

٣- من السنة أن تدعو بطول العمر وحسن العمل، من أين هذا؟ قال: (فينتفع بك أقوام)، فهذه فيها دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يرجو له إمّا دعاءً وإمّا إخباراً،

وفي الحالتين قد حدث ذلك. وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما كان يتسابق إخوان في الطاعة فمات أحدهما قبل الآخر فقالوا: مات شهيداً سبق أخاه، فقال: (لا والله)، النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن: (لا والله)، الثاني الذي قد مات بعده أليس قد صلى صلاة لم يصليها هذا؟ أليس قد صام؟ أليس قد تصدق؟ يعني فعل أفعالاً من الطاعة لم يفعلها هذا فسبقه بهذه الأفعال. ولذلك من السنة ان تدعو الله جلَّ في علاه بطول العمر وأيضاً حسن العمل.

٤- فضل عيادة المريض: وهذه تكون من الفاضل للمفضول لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان فاضلاً وكان يعود المرضى، وأيضاً قد ارتقى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد عيادة المسلمين عاد يهودياً، وقد أنقذه الله من النار به عندما جاء لليهودي وقال له: (أسلم، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله)، فمات فيها. فانظر إلى فائدة عيادة المريض، هذه الفائدة لك أنت في مخرفة من الجنة، سبعون ألف ملك يدعون لك، لكن يمكن أن الله جلَّ في علاه ينقذ أحداً من النار بك، أنت يمكن أن تكون سبباً في أن يختم الله لمريض بأن يقول "لا إله إلّا الله" ويموت عليها، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من كان آخر كلامه "لا إله إلّا الله" دخل الجنة)، لعل الله يجعلك مفتاحاً للخير وتكون أنت الذي تلقنه "لا إله إلّا الله" فتفوز بذلك خير لك من حمر النعم.

٥- على المرء أن ينشغل بما خلق له، لا أن ينشغل بما خلق له. جمع بين النقيضين هذا:

❖ الأولى أن ينشغل بما خلق هو له، قد خلقه الله للعبادة، قال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56].

❖ والثانية لا ينشغل بما خلق له، ما الذي خلق له؟ الرزق؛ خلقه الله لك فسيأتيك سيأتيك فلا تنشغل به، لا تتعنى خذ بالسبب ولمّا تأخذ بالسبب كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فاتقوا الله وأجملوا الطلب). لكن في الآخرة سارع؛ (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [المطففين:26]، (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) [آل عمران:133].

فعلى المرء اللبيب الأريب الفقيه أن ينشغل بما خلقه الله له وهو عبادة الله جلَّ في علاه؛ (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ). (قال: يا رسول الله أعمل وأكد وأخي يأتيك في مجالسك، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: دعه يأتي المجالس وأنت كد واتعب لعلك ترزق به)، لعل الله ما يفتح لك الرزق إلّا بسببه وبسبب طاعته وبسبب قربه من ربه جلَّ في علاه وطلبه للعلم.

٦- الرد على المعتزلة في أكثر من حالة: أهمها فرغ الله من خلقه في خمس منها من أجله، فيها الرد على المعتزلة؛ هم يقولون المقتول لو لم يقتله القاتل لعاش، يقولون زيد قتل عمراً، قالوا قتله بالسكين، قالوا لو لم يقتله لعاش. المعتزلة يقولون القاتل لو لم يقتل

المقتول لعاش، وهذا فيه رد بعموم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فرغ الله .... من أجله)، أي فرغ من أجله قاتلاً أو مقتولاً، بعلة أو بغير علة فقد كتب موته، فإنه سيموت في الوقت الذي حدده الله جلَّ في علاه.

٧- في اللوح المحفوظ الكتابة كتابتان: كتابة مطلقة وكتابة معلقة؛ والكتابة المطلقة تبقى على ما هي، والمعلقة تكون بالتعليق، يعني كأن يكتب في اللوح المحفوظ أن محمداً سيصل رحمه فيزيد عمره من الستين إلى الثمانين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس السابع والأربعون: (وآخرون منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا مع عصب العلم وقوته وعزته وهو علم العقيدة، وعلم العقيدة فيه ما هو فرض عين وفيه ما هو فرض كفاية، وإن كان بعضهم يرى بأن علم التوحيد فرض عين على الأمة بأسرها، الصحيح كما فصلنا. وهذا العلم هو أشرف العلوم لأنه يتعلق بالله جلَّ في علاه، وليس أحد أشرف من الله جلَّ في علاه، وقلب علم العقيدة في القدر، وقد تكلمنا عن القدر وبيّنا أنه من أهم أبواب الإيمان وأهم أبواب العقيدة، وكما قال ابن عبد البر: علم القدر سر من أسرار الله جلَّ في علاه، أخفاه عن البشر، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، يعرفه الناس حين دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. فعلم القدر أو العلم في أبواب القدر من أدخل عقله فيها زل وتخبط واحتار وضاع وضيع نفسه وأفسد ولن يصل إلى شيء؛ علم القدر: أن تؤمن بالله جلَّ في علاه بأنه الرب المدبر الذي كوّن هذا الكون وجعل للجنة أهلاً وجعل للنار أهلاً كما سبق وفصلنا في ذلك.

نحن ما زلنا مع أبواب القدر وأهمية هذا الباب، ولذلك أطال المصنف النفس في الكلام على أبواب القدر حتى يتقن الناس هذا الباب، لأنه كما قلت هذا الباب فيه قمة العقيدة وفيه قمة الإيمانيات، قوة الإيمان لا تأتي إلّا من باب القدر، قوة التوكل لا تكون إلّا من

باب القدر، قوة اليقين في الله جلَّ في علاه لا يأتي إلّا من باب القدر، وبالتالي الخضوع والذل والخشوع والتعبد لله جلَّ في علاه لا يكون إلّا بالإيمان بالقدر. كما قال بعض الفقهاء من فقهاء الصحابة: ما ازددت طاعةً واجتهاداً في الطاعة إلّا بعد ما تعلمت أبواب القدر. (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)، هذا من الفقه العظيم في أبواب القدر أنه إذا وفق لعمل خير، كأن الله قد كتبه في الأزل أنه من أهل الخير فاجتهد اجتهاداً عظيماً حتى يثبت عند ربه جلَّ في علاه أو عند الملائكة بأنه من أهل الخير.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب في قوله تعالى: (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الجمعة:3]:

عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحاب الرسول رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب)، ثم قرأ: (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الجمعة:3]، وإسناده صحيح. هو طبعاً في هذا الباب يشوق السامع كأنه يقول سأذكر لك جملاً أيضاً من أبواب القدر، ثم شوق السامع بذكر قطعة من الآية قد ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكأن السامع يقول وما علاقة هذه الآية بأبواب القدر؟ ولِمَ يذكر هذه الآية؟ هل ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ ثم أتبع بعد ذلك بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- استدل بها على ما قرره في أن الأمر من أصلاب أصلاب رجال من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكونون في الجنان، وسيأتي شرحه إن شاء الله.

باب في ذكر قوله -عليه السلام-: (لو قلت إن شيئاً سابق القدر لقلت العين تسبق القدر):

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لو قلت لشيء يسبق القدر لقلت العين تسبق القدر)، حديث صحيح.

وعن عبد الرحمن بن جابر بن عبدالله عن أبيه -رضي الله عنه وأرضاه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله عز وجلَّ وقضائه وقدره بالأنفس يعني العين)، يعني الحسد كما سنبين.

في الباب الأول يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحاب الرسول رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب)؛ يشير على أن الله جلَّ في علاه قد فرغ من العباد، وإن الله جلَّ في علاه قد كتب أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار لا يزاد على ذلك ولا ينقص، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه وأرضاه-: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخرج كتاباً فقال: هؤلاء هم أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على

ذلك، وهؤلاء [في كتاب الذي في شماله] من أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك فقد فرغ ربكم من العباد)، كتب أهل الجنة في الجنة وكتب أهل النار في النار. ولذلك كثيراً ما تسمع أنهم يقولون الشقي من كان قد شقي في بطن أمه، إن الملك يكتب (رب أي الأجل؟ رب أي الرزق؟ شقي أم سعيد؟)، فهذه فيها دلالة واضحة جداً إن الله جلَّ وعلا قد فرغ من العباد، قد فرغ من أهل الجنة ومن أهل النار.

وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لهم نبوءة؛ أنتم وإن كنتم من أهل الجنة، في أصلاب أصلاب أصلاب أمثالكم سيكونون معكم في الجنة، يعني أحفاد أحفاد أحفادكم سيكونون معكم في الجنة، قد فرغ الله جلَّ في علاه من العباد. والإشارة هنا تبين أنهم لم يخلقوا حتى الآن، لم يعملوا خيراً قط، لم يخرجوا إلى دنيا الواقع حتى نقول أحسنوا أو أساءوا، الحسنات قد غلبت على السيئات، لا، وهم في الأصلاب قد كتب الله أنهم من أهل الجنان. وهذه هي الإشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أفقه منا وأحرص منا على الخير وأسرع منا إلى الطاعة، لمّا يستمعون هذه الكلمات وهذه البشارات لا يسكتون، ترى الهمم تعلو وترى القلوب تشتاق إلى هذه المنزلة العظيمة، وكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يستنهض الهمم كأنهم يقولون: يا رسول الله من يدخلون الجنة بغير حساب؟ من أول وهلة يدخلون الجنة؟ ما صفات هؤلاء؟ ما سمات هؤلاء؟ يدخلون الجنة ولِمَ لا نكون منهم؟ ولِمَ لا يكون أحفادنا وأحفاد أحفادنا منهم؟

فكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً بهذه النبوءة يستنهض الأمة أن يترسموا خطى هؤلاء، لعلهم يفوزوا كما فازوا، لعلهم إذا ساروا على دربهم يكونون من أهل الجنان من غير حساب. ولذلك في بعض الأحاديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن من أمته من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب فباتوا يدكون، هذا وصف دقيق جداً يبين لك كيف همة الصحابة، ليسوا كأمثالنا، ليسوا على سبات عميق ولا أنهم يزهدون في نعم الله جلَّ في علاه. لا والله، لمّا سمعوا ذلك باتوا يخوضون ويدكون من هؤلاء؟ ما صفات هؤلاء؟ نحن ام أولادنا أم غير هؤلاء؟ سيخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ليبين لهم الصفات والسمات التي بها يحوز المرء ويفوز ويحظى بهذه الفضيلة العظيمة، علكم إذا نفذتم ما قيل لكم، إذا اتسمتم، إذا وصفتم بهذه الصفات تدخلون أو تفوزون كما سيفوزون.

أولاً لتشرئب الأعناق ولتهتم القلوب ولتشتاق الأنفس النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يدخلون الجنة على صورة القمر) كل واحد منهم أجمل من القمر، كما قال جابر بن سمرة يصف جمال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نظرت إلى وجه رسول الله ونظرت إلى القمر، فإذا برسول الله أجمل من القمر). يوم القيامة هؤلاء السبعون يدخلون الجنة،

كل واحد منهم كالآخر كالقمر، صورته على صورة القمر. والأعجب من ذلك أيضاً يشوق النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس ليرتقوا إلى هذا المرتقى الصعب، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل أولهم إلّا حتى يدخل آخرهم)، يشبك بعضهم بيد بعض، يأخذ الأول بيد الآخر، هم صف. يعني تخيل معي هؤلاء لا يحاسبون، الله جلَّ وعلا يأمر أنهم يدخلون الجنان فيكونون صفاً صفاً، كل منهم آخذ بيد أخيه، كلهم على قلب رجل واحد، لمّا اتفقوا في أفعال القلوب اصبحوا على قلب رجل واحد في الظاهر وفي الباطن، فهم المتوكلون بحق كما سنبين، كل منهم عندما اتفق مع أخيه في الباطن فاتفق معه في الظاهر، كل يأخذ بيد أخيه فيدخلون جميعاً صفاً إلى الجنان على صورة القمر.

ولِمَ اشرأبت النفوس من هؤلاء؟ ما صفات هؤلاء؟ هل نحن منهم؟ هل نكون كأمثالهم؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون) هذا نفي سلب، ثم إثبات: (وعلى ربهم يتوكلون)، هذه الصفات كلها تنصب في الصفة الرابعة. فذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم صفات أربع، هذه الصفات الأربع هي السبب في أنهم لا يحاسبون يوم القيامة. لك أن تتخيل يوم القيامة الناس غرقى في عرقهم كما يصف النبي -صلى الله عليه وسلم- يهرولون إلى الله جلَّ في علاه إلى أرض المحشر؛ العرق إلى قصبة الرجل، العرق إلى الكعبين، العرق إلى الركبة، العرق إلى الحقوين، إلى الوسط، العرق إلى الصدر، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وكل يريد النجاة. وهؤلاء لا يحاسبون يدخلون وإشعاع النور من وجوههم تنبثق، ويدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، لِمَ؟

❖ لأنهم لا يسترقون: هذه الصفة الأولى المهمة جداً، (لا يسترقون) بحثها كثير من العلماء، أي أن التداوي خلاف الأولى، وهذا البحث صراحة غير دقيق، نحن لا ندخل في مسألة فقهية. العلماء يقولون هل الأولى التداوي أم لا؟ هل التداوي هو الأفضل أم ترك التداوي وتمام التوكل في ترك التداوي؟ هذه المسألة لا ندخل فيها لكن نعبر عليها. كثير من العلماء يرون أن ترك التداوي أفضل لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يسترقون)، والرقية من التداوي. النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا نظر إلى امرأة بها نظرة الجن قال: (استرقوا لها) وأمر بالرقية، ورقاه جبريل، وهو رقى بأبي هو وأمي. فيرون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رقى، لكنه أمر بعدم الأخذ بالرقية لأن هذا يعتبر قدح في تمام التوكل.

قال: (لا يسترقون)، فقالوا إذاً عدم التداوي هو الأفضل والتوكل على الله يمنع من التداوي، ولذلك أبو بكر في مرض موته قالوا له: يا أبا بكر ألا نستدعي لك الطبيب؟ قال: لا، الطبيب قد رآني. قالوا: وماذا قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد، ولم

يرضَ بالتداوي. وقد أجمعت الأمة على فعل أبي بكر، ولم نجد مناهضاً لأمر أبي بكر ولا لفعل أبي بكر ولا مخالف له، دلالة على أن هذا هو الأفضل، وهذا الذي ركن إليه الأحناف.

أمّا كثير من المحققين يرون أن التداوي أفضل لأن هذا من فعل النبي ومن قول النبي تأكيداً، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام)، وهذا الأرجح التداوي هو الأفضل، قال: (تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام، فإن الله ما أنزل داء إلّا أنزل له دواء)، واحتج الآخرون بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تداوى وطلب دواء واستشفى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا هو الأفضل، لكن هذا ليس مبحثنا.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يسترقون) لا يتعرض إلى طريق التداوي أو لا، هو يتعرض لأمر آخر لعمل قلبي، لو احد رقاهم رضوا بالرقية، يعني لو أحد جاء يرقيهم رضوا بالرقية لكنهم من تمام توكلهم على الله جلَّ في علاه وعندهم السبب، لأن من تمام التوكل الأخذ بالسبب، لكنهم يخشون على أنفسهم أنهم إذا أخذوا بالسبب مال القلب للسبب بعض الشيء، والمرء لا يكتمل توحيده ولا تكتمل عقيدته السديدة إلّا بتمام التوكل على الله جلَّ في علاه. فوصفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم لا يسترقون، ملئ قلوبهم تمام التوكل على الله جلَّ في علاه، لذلك لا يطلبون الرقية، ولو جاءهم أحد يرقي لفعلوا ذلك. وهذا هو فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-. النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يطلب الرقية، جاءه جبريل يرقيه من غير أن يسترقي من جبريل -عليه السلام-. فلذلك وصفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- هؤلاء صورتهم كصورة القمر يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

السائل يسأل ما الذي فعلوه جعلهم يحظون بهذه المكانة الشريفة العظيمة؟ تمام التوكل على الله جلَّ في علاه، امتلأت قلوبهم بالعقيدة السديدة أن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه. لمّا ابتلوا علموا أن البلاء من الله، ولمّا أرادوا رفع البلاء علموا أن الرفع لا يكون إلّا من الله جلَّ في علاه، وهم لم يغفلوا الأسباب لكنهم لما خشوا على قلوبهم الميل إلى السبب امتنعوا من هذا السبب. هذه اللفتة الدقيقة في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يسترقون)، يعني امتلأت قلوبهم بالتوكل على الله جلَّ في علاه، فلا ينظرون للسبب بحال من الأحوال، قال: (لا يسترقون) لا يطلبون الرقية.

❖ (ولا يتطيرون)؛ وهذا أيضاً رفعة فوق الرفعة لأن التطير أنك تتشاءم من شيء تخشى نفعه أو ضره، هؤلاء قلوبهم امتلأت بأن الله جلَّ في علاه هو الذي يملك الكون وهو الذي دبره وهو الذي يعطي وهو الذي يمنع وهو الذي ينفع وهو الذي يضر، فقلوبهم امتلأت بأن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه. لمّا اعتقدوا الاعتقاد السديد صحيح بأن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه لم يتطيروا بشيء، لم يخشوا من شيء

ولم يتشاءموا بشيء، ولا حتى استبشروا بشيء إلّا من الله جلَّ في علاه. لمّا أباح لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- الفأل كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أصدقها الفأل)، هنا أيضاً تمام التوكل على الله جلَّ في علاه، أنهم امتلأت قلوبهم بأن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه.

كثير من الناس يحفظون هذه الأسماء، ويعلمون أن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه، لكن لم تمتلئ قلوبهم باليقين بأن النفع والضر في يد الله جلَّ في علاه، تميل قلوبهم لمدراءهم، تميل قلوبهم لأحبابهم، لأصحابهم، وهذا كما قلت قدح تام في كمال توحيد العبد لله جلَّ في علاه. فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يصف الوصف الدقيق لهؤلاء قال: (لا يتطيرون)، أي قلوبهم امتلأت بالعقيدة الجازمة بأن النفع والضر في يد الله جلَّ في علاه.

❖ (ولا يكتوون)، مع ذلك أنهم بعدما فعلوا الفرائض وأتوا بالنوافل، ولمّا امتنعوا عن المحرمات امتنعوا حتى عن المكروهات ولو كان فيه بعض النفع، لأن الكي نوع من الشفاء قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأنا أكره الكي)، فلمّا كرهه النبي -صلى الله عليه وسلم- امتنعوا عنه، وهذا أيضاً من تمام امتثالهم في الظاهر وفي الباطن. أمّا في الباطن فامتثلوا بعقيدة سديدة في الله جلَّ في علاه؛ النفع والضر لله جلَّ في علاه وبيد الله جلَّ في علاه. وفي الظاهر تركوا المكروهات بعد المحرمات، إرغام النفس لله جلَّ في علاه. إذاً الوصف الثالث لا يكتوون أنهم امتثلوا في الظاهر، بعدما صدّر الباب انهم امتثلوا بالباطن في قلوبهم لله جلَّ في علاه، وهذه دلالة واضحة على ارتباط الظاهر بالباطن.

ثم جمع هذه الصفات جميعاً، وكأن الله جلَّ في علاه على لسان نبيه يبين لنا أن الإيمان إن لم يكن نصفه التوكل فكل الإيمان هو التوكل على الله جلَّ في علاه، وربك يكشف عمّا في القلوب. وكأن سائلاً يسأل: يا رسول الله كيف نبلغ تمام التوكل؟ فقال: الأسباب التي توصل تمام التوكل: عدم الاسترقاء، عدم التطير، عدم الاكتواء، يصل بها المرء للنتيجة العظمى هو التوكل وتمام التوكل على الله جلَّ في علاه لأنه امتثل باطناً، قال النفع والضر بيد الله جلَّ في علاه، وإن الله إذا أراد شيئاً كان، وإن الله إن أصابني ببلاء أو بشر لا يدفعه عني أحد وإن أرادني بخير لو اجتمع من بأقطارها لن يدفع عني هذا. كما قال الله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) [الزمر:38]، فهذه دلالة واضحة جداً أن الله جلَّ في علاه إذا أراد النفع لا يمكن أن يرد، وإذا أراد الضر لا يمكن أن يرد.

فكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال إن أردتم أن تدخلوا الجنة بغير حساب، إن أردتم أن تكونوا على صورة القمر، إن أردتم أن تكونوا صفاً واحداً على قلب رجلٍ واحد تدخلون بغير حساب ولا عذاب ولا فزع فعليكم بهذه الصفات: لا يسترقون، لا يتطيرون، لا يكتوون؛ وجماع ذلك (وعلى ربهم يتوكلون) أي حق التوكل على الله جلَّ في علاه.

والتوكل أفضل وأوجز ما يقال فيه أن تثق بما في يد الله عما في يدك، أنت تمسك هذا بيدك وتعلم أنك يقيناً هي ملك لك، تثق في أن هذه بيد الله تكون أعظم لك وأنفع لك من أن تكون بيدك، أن تثق بما في يد الله عمّا في يدك. وهذا الفارق بين أهل السنة والجماعة، الفارق بين أهل التوحيد الكامل لله جلَّ في علاه وبين أهل الكتاب؛ أهل الكتاب ماذا كان الله جلَّ وعلا يغدق عليهم من الخير؟ المن والسلوى، يأتيهم من السماء، هذا بيد من؟ بيد الله ليس في أيديهم، لكنهم لمّا انخرق تمام التوكل على الله جلَّ في علاه وما تم يقينهم في الله جلَّ في علاه وانخرمت الثقة في الله منهم لله جلَّ في علاه ما أرادوا ذلك، قالوا: (لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ) [البقرة:61]، المغزى في ذلك أنهم إذا مسكوه بأيديهم وثقوا فيه، هم لا يثقون بما في يد الله جلَّ في علاه، ولذلك أصبحت هذه الأمة ألعن أمة في الأرض على وجه البسيطة بأسرها. أمّا هذه الأمة لمّا تعلقت قلوبها بحق لله جلَّ في علاه استحقوا الجنة بغير حساب، ولذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- بشارة لأمثال هؤلاء: (يدخل الجنة أناس أفئدتهم كأفئدة الطير)، أوّلها كثير من العلماء: أي أفئدتهم امتلأت توكلاً على الله جلَّ في علاه ويقيناً في الله وثباتاً وثقةً بما في يد الله عمّا في أيديهم، هذا أول الحديث والفوائد المستنبطة تأتي بإذن الله.

أمّا الحديث الثاني والحديث الثالث يبيّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن القدر قد سبق، وأن الله جلَّ وعلا قد فرغ من العباد وانتهى الأمر كما قلت، أصحاب الجنة في الجنة وأصحاب النار في النار، أصحاب الشقاء أصحاب السعادة، انتهى الأمر. لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا أمراً إشارةً إلى قوة تأثير؛ العين، يقول: (لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين)، هذه فيها دلالة واضحة جداً على قوة الحاسد وقوة العين، وفي الرواية الأخرى أعجب من ذلك: (أكثر موت أمتي بالعين)، وهذه مصداقاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تدخل الجمل القدر، وتدخل الرجل القبر). حديث سهل بن حنيف وعامر بن ربيعة؛ سهل بن حنيف لمّا خلع ثيابه وراح يغتسل نظر إليه عامر بن ربيعة فوجد جلداً أعجبه أبيض، فقال: هذا الجلد ما رأيناه ولا على جلد مخبأة، فتلبط خر صريعاً صهيب بن حنيف، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (علام يقتل أحدكم أخاه؟). فهذه فيها دلالة واضحة على أن الحاسد يمكن أن يقتل المرء

بالحسد، وهذه دلالة أيضاً واضحة جداً قطعية على خطر الحاسد وخطر العين، نعوذ بالله من الخذلان.

نحن فصلنا القول في مسألة الحسد في سورة الفلق عندما شرحناها، وبينا الفرق بين العائن وبين الحاسد، والسؤال هنا ما الفرق بين العائن وبين الحاسد؟ هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا القدر قد سبق، نعم قد سبق، وإن سبقه شيء يكون العين. الإجابة في ذلك العين نفسها من القدر، لأنها لن تضر إلّا بإذن الله كما قال تعالى: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) [البقرة:102]، إذن الله الكوني، فنقول إذا كان بإذن الله كوني يعني بالقدر، فالعين من القدر.

فإذاً العين إن أصابت، أصابت بالقدر فهي من القدر، ولقوتها في القدر بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- كأنه يمثل لنا (العين تسبق القدر) لقوتها وقوة تأثيرها، ولذلك بيّنا أن الخطر العظيم الذي يداهم البشرية هو الحسد، الخطر الذي علينا مثلاً من أهل الكتاب الحسد، أشد من الخطر الفتاك بأيديهم، كما قال الله جلَّ في علاه: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم) [البقرة:109]. فالحسد مرض داء عظيم فتاك قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (علام يقتل أحدكم أخاه؟)، وقد بيّن خبراً بأن أكثر موت هذه الأمة بالحسد بالعين، ولنا كما قلت أمثلة كثيرة مثال ذلك صهيب بن حنيف، وأيضاً كان أهل مكة في الجاهلية يسير مع عبده فيقول: ائتني بلحم هذا الجمل غداً، ينظر إليه ويعلم أنه عائن إذا نظر إليه نزل الجمل، فكان ينظر إلى الجمل ويقول: خذ بضاعتك واذهب وائتنا بشيء من هذا الجمل، لأنه تأكد أنه سيذبح سيذبح وينحر على ما قال.

وقد بينت أكثر من مرة في المثل العظيم، الرجل الذي أتى برجل يستأجره أن يحسد رجلاً عنده أبقاراً كثيراً وأموالاً، لمّا أتى به والرجل ماشي في مكان نائي بأبقاره فقال هذا الرجل: أين هو؟ قال: هناك، فالرجل الحاسد المستأجر قال: وعينك أتت به من هناك، ابتلاه الله بالعمى. يعني هي المسألة أن العين من شدتها أنها تقع على الإنسان ليست بالهينة، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تدخل الرجل القبر)، يخر صريعاً، (وتدخل الجمل القدر)، فلذلك نقول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن العين من قوتها لها أن تسبق القدر.

لكن قبل أن ننتقل نقول: قد بيّنا في سورة الفلق أن الحسد والعين يجتمعان ويفترقان؟ فما الفرق بين العائن وبين الحاسد؟ في قصة أخرى طريفة أن عروة بن الزبير دخل بابنه لعبد الملك بن مروان، فلمّا دخل عليه فرأى فيه، طبعاً هو رجل كان محدثاً تقياً ورعاً، ونظر إلى ابنه فنظر إلى الاثنين فمدحهما، فكانت العين تسبق، ما أقول الحسد، العين تسبق، ما دخل المدينة إلّا والخيل قد قتلت ابنه وضربت الأكلة في رجل عروة

ابن الزبير حتى قطعوها وبتروها، فلمّا سئل عن ذلك قال: أصبنا بغير داء، يقصد بالعين. إن الحسد فتاك وقتال.

ما الفرق بين العين وبين الحسد؟ القصة التي ذكرناها في العين والحسد، ما الفرق بين العين والحسد؟ العائن والحاسد يتفقان ويفترقان.

◆ يتفقان في الحاق الضرر بالمعيون أو المحسود، الحاسد نظر إليه حسده فقتله، والعائن نفس الأمر، فيتفقان في الحاق الضرر بالمحسود او المعيون.

◆ ويفترقان: في النية؛ صحيح أن نقول الحاسد أعم، طبعاً هذا أعم من وجه وهذا أعم من وجه، لكن كلية يقال الحاسد أعم لأن الحاسد يحسد المحسود وجد أمامه أم لم يوجد، يعني إن نظر إليه أو لم ينظر إليه قد حسده، ويصل الحسد بخبث النفس إلى أن يؤثر في المحسود. أمّا العين لا يؤثر إلّا بالرؤية، لابد أن يراه أمامه حتى يصل إليه ما يشتهيه من إلحاق الضرر به، فهذا الفارق بينهم.

فهما يتفقان بالحاق الضرر، ويختلفان ويفترقان بأن الحاسد لو على سريره يحسد المحسود وممكن يميته وهو بعيد عنه، أمّا العائن لابد أن يراه حتى يؤثر فيه، هذا الفرق بين العائن وبين الحاسد. إذاً الحاسد أعم من جهة التأثير، وأمّا بالنسبة للعائن أعم من جهة النية. الحاسد خبث نفسه الذي جره إلى ذلك، لكن العائن ممكن ما يريد أن يؤثر في المعيون، لكن لمّا رآه أثر فيه، حتى أن العلماء يقولون أن العائن ممكن أن يؤثر في نفسه، في ابنه، في ماله، ولذلك أمر أنه إذا دخل جنته أن يقول ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، حتى لا يؤثر في نفسه. فالعائن نيته ليست خبيثة، أو نقول ممكن تتفق بذلك لكنها أعم من ناحية النية. إذاً العائن والحاسد يدخلون في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أكثر موت أمتي من العين)، نعوذ بالله من الخذلان. وهذا علاقته كما قلت بالقدر، أن العين من أبواب القدر، فهي من قدر الله جلَّ في علاه ولا تضر إلّا بإذن الله.

الفوائد المستنبطة:

١- السنة مفسرة للقرآن لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (إن من أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحاب الرسول [يعني من أمتي] رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب)، ثم قال يفسر: (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) يعني سيدخلون معهم بعد ذلك يلحقهم الله في درجتهم وهم في أصلاب آبائهم.

٢- قليل من النساء لهن الفضل على الرغم من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن أكثر أهل النار من النساء، فهناك من النساء حفنة قليلة يمكن أن تدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (رجالاً ونساءً من أمتي)، فهذا تخصيص لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار)،

وأيضاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أكثر أتباع المسيح الدجال من النساء)، فهذا يبين أن هناك من النساء من لهن الفضل وقليل ما هن. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربع)، فهذا حديث في بيان فضل بعض النسوة اللاتي يدخلن الجنة بغير حساب، وسيد هؤلاء هو عكاشة ابن محصن عندما قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (ادعُ الله أن أكون منهم، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنت منهم).

٣- ذكر اسمين من أسماء الله الحسنى يتضمنان أهم الصفات العزة والحكمة؛ (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، ختم الله جلَّ في علاه هذه الآية العظيمة بهاذين الاسمين العظيمين؛ العزيز: كأنه يبين للناس ويبين للخلق أجمعين أنا القادر، وأنا الذي أدخل هؤلاء في الجنة ولا أبالي وأدخل هؤلاء في النار ولا أبالي، عزة وقدرة ومنعة وقوة، إذا أمر أمراً وإذا قضى قضاءً لا مرد لقضاء الله جلَّ في علاه. كأن الله يبين الآن بأن الله قضى أن أهل الجنة يكونون في الجنة ولا مرد لهذا القضاء، فمن اختاره الله لأهل الجنة فإنه من أهل الجنة، ومن اختاره الله لأهل النار أدخله النار ولا يبالي.

يختلج في النفس، لا يستطيعون البوح بذلك فيقولون: أليس في هذه المظلمة؟ أدخل هؤلاء الجنة الجنة وأدخل هؤلاء النار النار بالعزة والقوة اليست مظلمة؟ فيأتيه الاسم الثاني ينفي عنه هذا الذي يختلج في صدره، لا الله عزيز قوي قدير وهو حكيم. وهذا بيان واضح جداً جلي أن الله قرن بين اسمين جليلين لبلوغ الكمال فوق الكمال، لأن هذا الكمال مركب، لأن الله العزيز قدّر أن هؤلاء من أهل الجنة وهؤلاء من أهل النار، فلا يقوم قائم ويقول هذه مظلمة ولِمَ وضع هؤلاء في الجنة ووضع هؤلاء في النار؟ فكأن الله جلَّ وعلا يبين لهم أنا الحكيم، ومعنى الحكيم أنه يضع الشيء في موضعه، فإنه يجعل أهل الصلاح أهل الطاعة أهل البر في الجنة وأهل الفجور والفسق في النار. ولذلك قال الله جلَّ وعلا من حكمته: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) [القلم:35-36]، وبيّن الله جلَّ في علاه أنه لا يسوي بين الفجار وبين الأبرار، لا يسوي بين الظلمات ولا بين النور. لذلك وهذه الحكمة العظيمة التي ختم بها الآية؛ العزيز لأنه يقدر ويستطيع إذا أمر هؤلاء من أهل الجنة لا مرد لقضائه، ومع ذلك هذه العزة لابد أن تتضمنها وتترافق معها الحكمة، لأن من حكمة الله أن يجعل الصالح في موضعه وأن ينزل الطالح إلى موضعه.

٤- الخبر المحض لا يدل على جواز ولا على حرمة، من أين نستنبط هذه الفائدة؟ إذا أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شيء هذا الخبر لا يستنبط منه يجوز أو لا يجوز، حرام أو حلال، هذا خبر محض. فالخبر المحض لا يدل على جواز ولا على حرمة إلّا

بالقرائن المحتفة؟ أخبر بأن أكثر موت الأمة بسبب العين، بسبب الحسد. هل الحسد مذموم؟ هل حسد محمود؟ لا دلالة في ذلك، وإن كان السياق يقول الموت فيه ما فيه، لكن الصراحة أن الخبر المحض لا يجوز أن تقول فيه حرمة أو فيه حل إلّا بالقرائن المحتفة، والقرائن المحتفة قد جاءت بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن الداء العضال هو الحسد والحسد مذموم عند الله جلَّ في علا كما في الحديث الضعيف (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) فيه ضعف لكن المعاني كثيرة تبين ذم الحسد، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تدابروا، لا تباغضوا، لا تحاسدوا)، وأيضاً ورد في بعض الإسرائيليات وهي لا تصدق ولا تكذب: أن الحاسد عدو نعمتي يتسخط على قضائه ولم يرضَ بقسمتي، الحاسد عدو نعمتي.

كأن الذي ينظر إلى رجل أعطاه الله مكانة مرموقة ويحسده على ذلك أنه يعترض على الله جلَّ في علاه، يقول أنت لست بحكيم -نعوذ بالله من غضب الله-، كيف تعطي هذا الفضل لهذا الرجل؟ كما قال أهل الجاهلية أنهم تمنوا أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم، قالوا (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا) فرد الله عليهم بحكمته: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام:53]. فلذلك يقول الله جلَّ في علاه الحاسد المحترق الحاسد عدو نعمتي يتسخط على قضائي لم يرضَ بقضاء الله جلَّ في علاه، فهنا يبين الله جلَّ في علاه بهذا الأثر الحاسد عدو نعمتي يتسخط على قضائي ولم يرضَ بقسمتي، فيها الذم على الحسد.

فالخبر المحض، وإن كان لا يدل على جواز أو على حرمة فالقرائن المحتفة هي التي تدل على ذلك، وهذا يفيدنا كثيرا في مسألة الحج، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لتمرن الظعينة الهودج، لتمرن الظعينة من حضرموت إلى البيت)، أو قال: (تطوف بالبيت إلى مكة، تطوف بالبيت لا تخشى إلّا الله والذئب على الغنم)، هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قاله في سياق الخبر. يقول سيأتي زمان على الناس المرأة تسافر وحدها من اليمن إلى الكعبة تطوف ولا تخشى إلّا الله، يعني ينتشر الأمان في كل البلاد والعباد فلا تخشى إلّا الله والذئب على الغنم. بعض العلماء استنبط لنا الحديث أنه يجوز للمرأة تسافر وحدها وتذهب إلى الحج، نقول لهم هذا خبر محض من النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يدل على جواز ولا يدل على حرمة إلّا أن تأتي الأدلة الأخرى التي تثبت الجواز أو الحرمة. والدليل الناصع هو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة).

هل من هذا الباب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بين يدي الساعة سنون خداعة يُصدّق فيها الكاذب ويُكذّب فيها الصادق ويؤتمن الخائن ويخون الأمين)؟ هل يدخل في هذا الباب أم لا؟ سياق والسباق واللحاق من المفسرات، سياق الحديث يدل على الذم

لأنه قال: (سنون خداعة)، ثم قال: (يُصدّق الكاذب ويُكذّب الصادق)، وهذا ظاهر جداً على أنه على سياق الذم وليس سياق المدح.

٥- جواز كلمة "لو" لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو كان شيئاً يسبق القدر لكانت العين)؛ طالما تكلمنا على باب القدر فلابد أن ندخل فيها، جاء في "لو" حديث ظاهر جداً، يمنع النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تقول "لو"، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) إلى أن قال: (فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل) أو (قل قدر الله وما شاء فعل)، وثم ختم الحديث بأنه قال: (فإن لو تفتح عمل الشيطان)، فنهى عن أن نقول "لو". فهنا قالها النبي -صلى الله عليه وسلم- فتجوز، فمتى تجوز ومتى تحرم؟

"لو" لها أقسام أربعة وأوجه أربعة أو خمسة أو أقل من ذلك أو أكثر نبينها لأنها تتعلق بباب القدر:

▪ أولاً إذا قالها معترضاً متسخطاً على القدر فهذا الذي لا يجوز، كقول أهل الكفر، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا) [آل عمران:156]، فاعترضوا على قضاء الله وقدر الله وقالوا لو كنا أخذناهم وجعلناهم معنا ما ماتوا. الله بيّن لهم أنهم سيقتلون ولو على أسرتهم، ولو على فراشهم فإن الموت سيأتيهم. فهذا ال"لو" هنا تسخط على قدر الله جلَّ في علاه فلا يجوز، وهذا الذي يدخل فيه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فإن لو تفتح عمل الشيطان)

▪ الثاني أن يتمنى، أن تكون لو للتمني؛ لو عندي مئة دينار لأنفقتها في سبيل الله، لو عندي مثل علم فلان لتصدقت به على الناس. هذا ال"لو" ممدوح وليس مذموم. وآخر يقول لو كنت أمتلك مثل ما يمتلك فلان لأتيت بالجواري والحور وفعلت كذا وكذا من السوء والفسق والفجور، هذا تمنى لكنه مذموم شرعاً. "لو" إن كانت للتمني فهي على قسمين:

- إن أراد وتمنى الخير فله الخير،

- وإن أراد الفسق فله الفسق وإن أراد الشر فله الشر.

لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدنيا لأربعة نفر: رجل أتاه الله المال والحكمة، فيسلط الحكمة على مال فينفقها في سبيل الله جلَّ في علاه. ورجل آخر أتاه الحكمة ولم يؤتيه المال، فقال: لو) ولو هنا للتمني، فتمنى خيراً فقال: (لو أعطاني الله مثل ما أعطى فلاناً لفعلت مثل ما فعل فلان)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فهما في الأجر

سواء). (وأما الآخر لم يؤتيه حكمة وأتاه المال فهو يعيث فيه فساداً، والآخر لم يؤتيه لا حكمة ولا مالاً قال: لو اتاني الله مالاً مثل فلان لفعلت فيه مثلما فعل فلان)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فهما في الوزر سواء). إذاً "لو" إن كانت للتمني فهي على القسمين: إن تمنى خيراً فالخير له ويجوز، وإن تمنى شراً فالشر له ولا يجوز أن يتكلم بال"لو" هنا.

▪ الثالثة أيضاً فيها الاستعتاب؛ أن يقول لو كنت فعلت كذا لكان كذا، يستعتب رجل صاحب تجارة فقال: شريكي فلان هذا رجل صاحب تجارة رائجة وذكي جداً في أعماله أتاجر معه، فاشترك معه في المال، فقدر الله الخسارة فقال: لو ما شاركت هذا الرجل ما خسرت المال، هذا استعتاب. "لو" هنا الصحيح الراجح أنها لا تجوز لأمرين اثنين:

- لصريح قول -صلى الله عليه وسلم-: (فإن له تفتح عمل الشيطان)

- والأمر الثاني أنها تدخل على المرء الحسرة والندم والحزن أنه بعد ما خسر قال: لو ما أعطيت فلان هذا المال ما خسرته، أولادي أحق بهذا المال، كنت أعيش مرتاحاً بهذا المال. فيصيبه الهم والغم، ماذا يحدث بعد ذلك؟ التقاعس في عبادة الله جلَّ في علاه، التسخط بعد ذلك على قدر الله جلَّ في علاه. فهي وسيلة إلى الكفران بقضاء الله جلَّ في علاه، والتسخط على قدر الله جلَّ في علاه، ففي هذا المحل أيضاً لا يجوز في حال من الأحوال ويكون حرام عليه أن يقول هذه الكلمة.

▪ الرابعة "لو" يقصد بها الخبر المحض، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كان شيء يسبق القدر لكانت العين)، وأيضاً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت فجعلتها عمرة) في مسألة التمتع الحديث المشهور، هذا من باب الخبر المحض أيضاً. لكن اعترض علينا بعض الناس وقال لا هذا الحديث لا يصح أن يقال إنه من الخبر المحض بل هو من التمني، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تمنى وقال: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت أمراً أخير من ذلك) هو أنني اتمتع بالعمرة إلى الحج. إن تنزلنا مع هؤلاء وقلنا أنه للتمني فنقول هذا جائز، يعني إن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- منع أن يقول المرء لو ولا يستعتب حتى لا يحزن فنقول هذا مخصوص منه، لأن "لو" التي فيها الاستعتاب تدخل على المرء الهم والغم والحزن، و "لو" هذه لا تدخل عليه الهم والحزن، هو يريد أن يفعل طاعة فوق الطاعة التي فعلها، فهذه تدخل عليه هماً ولا حزناً. والأمر الثاني أنه يريد أمراً مستقبلاً، لا أمراً قد مضى، والحديث الذي فيه لو أني فعلت كذا في الماضي، لكن هنا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو استقبلت) يعني في العام القادم لو حججت لتمتعت، فهذا استقبال وهذا ماضي وهذا فارق يجعل الأمر في القياس لا يصح بحال من الأحوال.

إذاً (لو استقبلت من أمري ما استدبرت) هذا خبر محض، والخبر المحض يجوز للمرء أن يستخدم كلمة "لو".

"لو" تمنع في حالتين: في التسخط على أقدار الله جلَّ في علاه، أو معارضة شرع الله جلَّ في علاه، أو في أن تكون سبب في دخول الهم والحزن على الإنسان. هذه آخر الفوائد المستنبطة من هذا الحديث، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الثامن والأربعون: إن النذر لا يقرّب شيئاً لابن آدم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

ما زلنا بفضل الله علينا ومنه وكرمه وحوله وقوته مع هذا الكتاب العظيم الجليل "كتاب السنة لابن أبي عاصم"، وما زلنا في الكلام على أبواب القدر الذي هو قدرة الله جلَّ في علاه وهو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، بل هو قلب العقيدة. اليوم إن شاء الله نبدأ بالكلام على النذر وعلاقة النذر بالقدر، وهذا الباب باب دقيق لا يحتاج إلى التصويب لكن يحتاج إلى التدقيق، علّنا نستطيع أن نقرّب المسافة حتى ننظر ما علاقة النذر بالقدر ونتقن هذه المسألة لأنها تحتاج إلى ذلك، نسأل الله التوفيق والتسديد.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب في قوله -عليه السلام-: (إن النذر لا يقرّب شيئاً لابن آدم):

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن النذر لا يقرّب شيء لابن آدم لم يكن أتيح قدره له، ولكن النذر يوافق القدر فيُستخرج به من البخيل ما لم يكن يريد أن يخرجه)، حديث صحيح.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا فإن النذر لا يرد عن القدر شيئاً، وإنما يُستخرج به من البخيل)، حديث صحيح.

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن النذر لا يقرّب شيئاً ولا يؤخره، وإنما يُستخرج بالنذر من البخيل)، حديث صحيح.

كما قلت المسألة دقيقة والكلام عن شيء صار عن تصوّره، لذلك وجب أن نبيّن النذر وأقسام النذر، ثم نبيّن ما علاقة النذر بالقدر.

🡸 النذر لغةً: هو الإلزام والتعهد، ألتزم بشيء أو نذرت على نفسي شيء، نذرت لشيء ألتزم به، ألزمت نفسي به، عاهدت الله عليه أو تعهدت به على نفسي.

🡸 اصطلاحاً أو شرعاً: هو إلزام العبد نفسه بعبادة أو بجنس العبادة لم يوجبها الله عليه، أو قل لم يكلّفه الله بها؛ كأن يقول نذرت صوماً، نذرت صلاةً، نذرت صدقةً، نذرت ذبحاً، بالتمثيل: يقول الرجل: نذرت، سواء مطلقاً أو معلقاً.

مطلقاً؛ تقول: نذرت أن أصوم لله ثلاثة أيام من كل شهر، نذرت أن أصلي عشر ركعات في كل يوم وليلة. نذرت أن أذبح ولدي: رجل نذر أن يذبح ولده بالتمثيل، عبد المطلب تقرّب بذبح ولده، نحن ما نتكلم عن حكم النذر بل نتكلم عن تمثيل النذر. هل هذه عبادة أم لا؟ نقول كانت له عبادة وفي الإمكان؛ أما أمر الله إبراهيم -عليه السلام- أن يذبح ولده، وائتمر بأمره. عامةً هي على التمثيل، أمّا الحكم فهو حرام. الغرض المقصود؛ نذر أن يصلي، نذر أن يتصدق، نذر أن يقرّب الذبح لله جلَّ في علاه، هذا النذر اصطلاحاً ولغةً.

النذر أقسام، وقبل أن نبيّن أقسام النذر وجب علينا أن نبيّن الحكم التكليفي (حكم النذر)؛ اختلف العلماء اختلافاً شديداً، ونوجز كلام العلماء في قولين:

♦ قول الجماهير: النذر على الكراهة، وإذا قلت على الكراهة يقصد بها الكراهة التنزيهية لا التحريمية، والذي جعل وحمل الجمهور أن جعلوا النذر في باب المكروهات لا المستحبات ولا المباحات أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنما يُستخرج به من البخيل)، وهذا السياق سياق ذم أو على الأقل إشعار باللوم، فهذا السياق يدل على الكراهة أقل ما فيه.

والأمر الثاني هم جاءوا بها من ناحية النظر؛ قالوا: إنه لو نذر عبادةً، صوماً، صلاةً، صدقةً، ويحتمل ألّا يفي بهذا النذر، فعند عدم وجود الاحتمال بالإيفاء بالنذر فإنه سيقع في الحرج، سيقع في مسألة شبه النفاق، فمنهم من عاهد الله كما سنبيّن. قالوا: وإن كان الاحتمال موجود فهذا الاحتمال يُشعر بالكراهة، لأنه لو كان جزماً لأصبح محرماً، لكن هم قالوا في احتمال أن يفي بهذا النذر فعلى الأقل لا يضع نفسه بمثل هذا الحرج، هذا قول الجمهور.

♦ أمّا ابن تيمية فانفرد عن الجمهور وقال بتحريم النذر سواء معلقاً أو مطلقاً، واستدل على ذلك بالأثر وبالنظر.

- أمّا بالأثر فإنه قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا)، وهذا نهي، والأصل بالنهي التحريم. فإذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- فالأصل عند جماهير الأصوليين وهذا الراجح الصحيح: أنه إذا نهى فأصل النهي التحريم، ما تدل قرينة تصرف النهي من التحريم إلى الكراهة. قال أيضاً من الآثار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنما يُستخرج به من البخيل)، وهذا السياق ذم، والمذموم شرعاً أصله التحريم إلّا أن يدل الدليل أيضاً على الكراهة.

- ومن النظر هو وسيلة لمحرم، إذ القاعدة عند العلماء: الوسائل لها أحكام المقاصد، وقد قال الله تعالى مبيّناً حرمة عدم الوفاء بالنذر: (وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) [التوبة:75-77]، فوسمهم بالكذب وأعقبهم نفاقاً في قلوبهم. فهذا النذر الذي لا يستطيع المرء أن يفي به، وكثير من الناس امرأة تقول يعني إذا نجح ابني أو إذا من الله علي بالولد سأصوم دهري بأسره، إلى يوم مماتي سأصوم ثلاث أيام من كل شهر، ولا تستطيع ولا تفي بهذا النذر، ماذا سيحدث؟ العقاب وخيم في هذه الآية: (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ). فقال: هو وسيلة إلى المحرم، فإن كان وسيلة للمحرم يأخذ حكمه لأن القاعدة: الوسائل تأخذ أحكام المقاصد.

وعامةً الخلاف في هذا خلاف معتبر، وإن كان قول الجمهور أقوى وقول ابن تيمية أحوط وأورع، والقاعدة عند العلماء: الخروج من الخلاف مستحب، فنقول أولى لكل واحد من المكلفين ألّا ينذر نذراً ولا يكلف نفسه تكليفاً يمكن أن يشق عليه في المستقبل. فهذا هو الحكم التكليفي للنذر بعد تعريفه اصطلاحاً ولغةً.

كل ذلك تصوّر للنذر حتى نبين ما علاقة النذر بالقضاء والقدر، القضاء والقدر شيء مكتوب في اللوح المحفوظ ما له ومال النذر؟ هذا الذي سنصوره بعد تصور هذا النذر. النذر أقسام كثيرة منها أقسام خمسة:

▪ القسم الأول نذر يجب الوفاء به؛ وهذا النذر هو نذر الطاعة سواء كانت مطلقة أو معلقة؛ مطلق: يقول نذرت أن أصوم لله كل يوم خميس أو كل يوم اثنين إلى الممات. معلق: يقول إن نجح ابني سأصوم ثلاثة أيام من الشهر. ففي الحالتين يجب الوفاء، والدليل على ذلك ما صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه)، وهذا أمر وظاهر الأمر الوجوب. فإذاً النذر يجب الوفاء به، وهذا بعيد عن مسألة هل هو محرم أم مكروه، لكن يجب عليه إن نذر أن يفي بنذره.

▪ القسم الثاني نذر لا يجب الوفاء به، بل يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية؛ نذر أن يشرب خمراً، نذر أن يزني، نذر مطلق أو حتى معلق: لو قال إن نجح ابني سأفعل كذا بسبب أن ابنه نجح سيجمع كل الراقصين والراقصات مثلاً. فيقول: هذا نذر محرم معصية، فلا يجب الوفاء به لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)، وهذا أيضاً نهي وأصل النهي التحريم.

▪ القسم الثالث نذر يسمى نذر اللجاج أو الغضب؛ يعني رجل يجادل رجل في شيء فيريد أن يعضد كلامه ويبين أن كلامه صحيح، فيقول له: نذر علي أن هذا الكلام وإن لم يكن صحيحاً سأصوم ثلاث أيام. هذا النذر ينزل منزلة اليمين، هو ليس صيغته صيغة النذر الصحيحة. نذر اللجاج أو الغضب هو يريد التحضيض أو الحث أو يبين صدقه أو يبين كذب من أمامه، هذا منزلته منزلة اليمين، يعني هذا النذر الصحيح فيه أنه يمين، فإن كان يميناً فهو يأخذ حكم اليمين، إمّا يفي وإمّا أن يكفّر عن يمينه بأن يصوم ثلاثة أيام إن لم يكن من أهل المال وإن كان من أهل المال عليه يطعم أولاً.

▪ القسم الرابع نذر مكروه الوفاء به، ليس محرماً بل مكروه الوفاء به، أن ينذر المرء أن يفعل شيئاً مكروهاً؛ قل مثلاً نذر أن يصلي بعد العصر ويثبت على هذه الصلاة بعد العصر، عند من يقول بكراهة الصلاة بعد العصر. طبعاً من قال بأن هناك سنة بعد العصر، هذا كلام بعيد عن السلف لا يصح، ليست هناك ثمة سنة بعد صلاة العصر. فمن نذر أن يصلي بعد العصر فهذا مكروه ويكره الوفاء به لأنه سيخالف الشرع، لأن ابن عباس كما في الصحيحين بين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس ونهى عن صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، أو نهى أن يأكل ثوماً وبصلاً. أيضاً نذر أن يأكل ثوماً أو بصلاً، نقول يكره أن تفي بهذا النذر، كفّر عن يمينك عند من قال بوجوبه أو بالاستحباب عند قول الجماهير.

▪ القسم الأخير هو النذر المباح؛ هو أن ينذر المرء ان يلبس الثياب البيض إلى مماته، وهذا مباح، وفي النذر المباح له أن يفي وله ألّا يفي، يعني لا نقول له يلزمك الوفاء. وعند الجماهير يستحب التكفير، عند بعض العلماء قالوا يجب أن يكفّر لأنه سينزل منزلة اليمين هنا فيكفّر.

النذر ليس عبادة؛ أما قلنا هو يتأرجح بين الكراهة وبين التحريم، هو ليس بعبادة لكن الوفاء بالنذر هو العبادة، لأن الله جلَّ وعلا قال في سياق المدح والمنة: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) [الإنسان:7]. فالوفاء بالنذر عبادة، لكن أصل النذر بأن يقول نذرت أن أفعل هكذا وكذا هذا ليس بعبادة، بل هو يدور بين الكراهة ويدور بين التحريم، فهو مذموم في الحالتين. أمّا الوفاء بالنذر إذا نذر فالوفاء بالنذر عبادة،

لأن الله جلَّ وعلا قال: (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) [الحج:29]، فأمر بالوفاء بالنذر والأمر هنا يدل على أنه عبادة.

هذا هو التصور للنذر، فإن كنا قد تصورنا النذر فلابد أن نقول وما علاقة النذر بالقدر؟ هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا أن علاقة النذر بالقدر أن الإنسان إذا كتب له أن له مئة ألف سيربحها آخر العام، وهو يجد ويسارع من أجل ان يربح هذه المئة ألف، فقال: اللهم إني نذرت نذراً أنت تعلمه أني لو ربحت المائة ألف هذه سأصوم شهراً متتابعاً. هذا النذر لا يستجلب له المائة ألف، نذر أو لم ينذر فإن الله جلَّ وعلا لا يؤتيه المئة ألف بهذا النذر. هذه العلاقة النبي -صلى الله عليه وسلم- يبينها، بأن هذا النذر لا يعجل بالقدر ولا يؤخره، لا يمنعه ولا يأتي به، فإن كان القدر مكتوب أن المئة ألف لك آخر العام فالنذر لا يؤثر في ذلك، لا يستجلبها ولا يسارع بها، وإن لم يكتب لك المئة ألف، لو نذرت ألف نذر فإن المئة ألف لن تأتيك. هذا الذي يبينه النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن النذر لا يؤثر في القدر، فإنه لا يؤثر به سلباً ولا إيجاباً.

هنا لابد أن ننظر إلى مسألة مهمة، إلى أن هناك أسباب شرعية تؤثر في القدر سلباً وإيجاباً. قلنا أن النذر لا يؤثر سلباً ولا إيجاباً، لا يقدم ولا يؤخر، لكن الدعاء يقدم ويؤخر، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن الدعاء والقدر يتدافعان، فإن تدافعا أيهما أقوى يدفع الآخر. والنبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً بيّن أن الإنسان بصلته لرحمه، اتصاله بأمه، بابنه، بأخيه، بخاله، بعمه، بإعطائه الهدية هذا يزيد المال والعمر. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أراد أن ينسأ له في عمره) أو قال: (يؤخر له في عمره ويبارك له في رزقه فليصل رحمه). فحتى لو كتب له العمر ستين سنة سيعيش ستين سنة، بصلته للأرحام تصل إلى المئة؟ نعم تصل إلى المئة، هذا ظاهر الحديث.

فعندنا أسباب تؤثر سلباً وإيجاباً، وأسباب لا تؤثر لا سلباً ولا إيجاباً. وهذا محل النظر في هذا الباب. فدققوا معي النظر، قلت لا تطويل لكن تدقيق لأن المسألة هذه مهمة، فصل الخطاب في هذا الباب لنفرّق بين صلة الأرحام وبين الدعاء وبين النذر. لأن الدعاء أنا ادعو اللهم آتني بالمئة ألف، ستأتيك المئة ألف. نذرت أن تأتيني مائة ألف؟ لا تأتيني المائة ألف. فلابد أن نبين الفرق بين الاثنين، وعلاقة هذا بالقدر وعلاقة ذاك بالقدر.

أقول هذه المسألة فرع عن أصل، ما هو الأصل؟ الأصل أن هناك فارق بين الكون والشرع، ما معنى ذلك؟

- الكون يساوي الخلق، وإذا كان الخلق فإننا نقول جزماً سيحدث. الكون ما كوّنه الله جلَّ في علاه، ما خلقه الله جلَّ في علاه، ما كتبه الله جلَّ في علاه، ما قدره الله جلَّ في

علاه. لا تغيير سواء أحبه الله أو لم يحبه الله. هذا الكون كما قلنا في إرادة كونية، قضاء كوني، إذن كوني. قال الله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) [فصلت:12]، هذا قضاء كوني، إرادة كونية. (وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]، إذا أراد الله اضلال العبد لا أحد يستطيع هدايته.

- الشرع هو الأمر والنهي، ومعنى الأمر والنهي هو خاص بما يحبه الله جلَّ في علاه، إذا أمر ونهى: افعل ولا تفعل، هذا الذي يحبه الله، كأنه يقول افعل ما أحبه ولا تفعل ما لا أحبه. أيضاً فيه أمر آخر هو أنه ممكن أن يقع وممكن ألّا يقع، كما بينا في الإرادة الشرعية لأن الله جلَّ وعلا قال: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) [الإسراء:23]؛ فيما يحبه الله أمر أن تعبد الله وحده لا شريك له، هذا يحدث ولا يحدث. فهذا الفرق بين الكون والشرع. ولك أن تتخيل هنا النذر والدعاء وصلة الأرحام كوناً وشرعاً:

♦ أمّا كونا فقد كتب الله في اللوح المحفوظ أن الرجل الفلاني سيأتيه كذا وكذا من الأموال أو من الأولاد أو من الأرزاق، نذر أو لم ينذر، وهذا كما قلت كوناً لا يمكن تغييره. وقضى الله جلَّ في علاه أن عمر هذا الإنسان يكون ستين عاماً، ويصل رحمه فيصير مئة عام. أو نقول كوناً؛ الله جلَّ في علاه كوّن في صحف الملائكة يكتب الملائكة له أربعين عاماً يعيش فيها أربعين عاماً، وفي اللوح المحفوظ أنه سيصل رحمه فيزداد ويتبدل ويتغير هذا القدر الذي في صحف الملائكة من الأربعين إلى المئة كوناً، هذا الكون ولا تغيير في ذلك.

♦ أمّا الشرع فإن الله جلَّ في علاه أحب من الإنسان أن يدعو وأن يصل رحمه حتى يزيد في رزقه ويزيد في عمره، ولم يحب من الإنسان أن ينذر نذراً لأنه لن يزيد ولا ينقص.

فحتى نفرّق بين النذر وبين صلة الارحام والدعاء، الكون والشرع؛ ما كوّنه الله سيكون، قد كتب الله في اللوح المحفوظ أن فلان ينذر أو ما ينذر ليس له إلّا ما كُتِب له. وكتب في اللوح المحفوظ أيضاً أن فلان سيزداد عمره بما فعل من صلة الأرحام، وبما دعا الله جلَّ وعلا سيدفع عنه البلاء.

فإذا قلنا بالكون والشرع نفرّع ونقول: ما الفرق بين النذر وبين صلة الأرحام وبين الدعاء؟ النذر لا يؤثر في القدر، وعندنا صلة الارحام هذا سبب شرعي؛ الرجل سيقوم بعبادة وهذه العبادة هي الصلاة أو الصوم أو الصدقة ولا تؤثر في القدر. وعندنا صلة الأرحام عبادة كما أن الوفاء بالنذر عبادة، وأيضاً الدعاء عبادة وهذا يؤثر في القدر. فما الفرق بينهما؟ نقول الفرق بينهما بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم -:

◆ بأن صلة الأرحام والدعاء مأمور بها شرعاً، والنذر مكروه شرعاً على أقل الأحوال يعني منهي عنه شرعاً لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا). وأمّا صلة الأرحام فقد أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بوحيٍ من ربه بصلة الأرحام، وهذه الرحم لما تعلقت بحق الرحمن وقال: (ألا ترضين أن أصل من وصلك)، فهذا مأمور به شرعاً. وذاك منهي عنه شرعاً.

◆ الدعاء وصلة الأرحام قد ثبت بالشرع أنها تزيد في الأعمار وتزيد في الأرزاق، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحب أن ينسأ له في عمره ويبارك له في رزقه فليصل رحمه). وأمّا النذر فلم يثبت شرعاً أنها تزيد أو تنقص، بل ثبت شرعاً أنها لا تؤثر فيها.

◆ الدعاء وصلة الأرحام من باب حسن الظن بالله، لذلك استجلبت الخير، الداعي بعدما نزلت عليه البلية يرفع أكف الضراعة لله جلَّ في علاه ويبكي وقلبه معلق بالله أن يرفع عنه البلية، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن الدعاء والقضاء البلية نزلت، هي من السماء نزلت قضيت أن البلية ستنزل على هذا العبد، وهو يتوقع بلاء سينزل عليه، فإذا رفع أكف الضراعة بإخلاص قوي وبدمعة صادقة وتذلل وخضوع ومسكنة لله جلَّ في علاه تكون بقوة هذا الدعاء يدفع هذا البلاء. فهو يحسن الظن بربه جلَّ في علاه، أنه لو تضرع سيرفع الله عنه البلاء. فإحسان الظن بالله بالدعاء، وهذا من قمة ما يكون في القرب من الله جلَّ في علاه والتذلل لله جلَّ في علاه. أيضاً صلة الأرحام فيها حسن ظن بالله جلَّ في علاه. أمّا النذر ففيه سوء ظن بالله جلَّ في علاه، كأنه يظن بربه جلَّ في علاه أنه لن يؤتيه بهذا الخير حتى يقدم له الطاعة. نعوذ بالله. إن الله جواد كريم، إن الله جلَّ في علاه يعطي ليل نهار كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يد الله ملأى سحاء الليل والنهار)، وإن الله جل وعلا لا مغالب له. فإن النذر فيه سوء الظن بالله جلَّ في علاه.

◆ الفرق بين النذر وبين الدعاء وصلة الأرحام هي مسألة مدافعة الأقدار؛ أمّا الدعاء فهو من باب مدافعة الأقدار، وأمّا النذر فليس من هذا الباب، فلذلك لابد الكف عن النذر.

تفصيل ذلك أقدار الله أقسام كثيرة لكن نحصرها في قسمين: أقدار تدفع، وأقدر لا تدفع.

▪ هذه الأقدار التي لا يمكن دفعها وهذا الذي نقوم به العلاقة بين الشرع والكون، ولا تضرب الكون بالشرع. أقدار لا يمكن أن تدفع كقدر الموت أو قدر البلية التي لا حيلة فيها، هذا قدر لا تستطيع أن تدفعه بحال من الأحوال. ولك فيه عبادة هو الصبر على هذا القضاء والرضا به، إمّا أن تصبر وإمّا أن ترضى، المرتبة الأعلى هو أن ترضى. تصبر على هذا القضاء، فإن وقعت عليك بلية لا حيلة لك فيها وجب عليك الصبر على

هذه البلية، وتعتقد اعتقاداً جازماً أن الله ما أراد إهلاكك بهذه البلية، لا، أراد رفعتك وتكفير السيئات عنك.

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) [التغابن:11]، فإن الله جلَّ وعلا ما أصاب عبداً من مصيبة إلّا ليرفعه كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابه خير شكر فهذا له خير، وإن أصابته ضراء صبر وهذا له خير)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في السنن بسند صحيح: (ما أصاب العبد من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلّا كانت كفارة له) رفعة في الدرجات، إذاً هذا البلاء الذي ينزل على المرء لا يستطيع أن يدفعه، وهذا القدر الأول.

▪ الثاني قدر وجب على المرء شرعاً أن يدفعه ولا يقبله ولا يرضى به، هذا القدر الذي فتح الله لك به المجال أن تدافعه؛ مثلاً الجوع، هذا قدر الله جلَّ في علاه، فهذا القدر وجب عليك أن تدفعه، إذا شارف على مرحلة الهلاك وجب دفع هذا القدر. إذاً قدر الجوع يدفع بالطعام، قدر العطش يدفع بالشراب قدر المرض يدفع بالتداوي، (تداووا عباد الله ولا تداووا بحرام، إن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواء). فهذه أقدار وجب عليك أن تدافعها، أنت هنا تعمل بالشرع وتعمل بالقدر، تؤمن بأن البلية التي نزلت هذه أو المرض الذي نزل عليك بقدر الله جلَّ في علاه، وأنت مع إيمانك بأن الله فعل ذلك لك، فاعمل بشرع الله أن تتداوى كما أمرك الله جلَّ في علاه، فأنت بين عين القدر وبين عين الشرع.

إذاً الفرق الرابع هو تدافع الأقدار، بأن الدعاء يدفع قدر البلاء، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (ما من بلية تنزل إلّا والدعاء مع البلاء يتدافعان، أيهما أقوى دفع الآخر)، وكل ذلك مكتوب، والمدافعة لا تكون إلّا في صحف الملائكة كما قال عمر وهو يطوف: (اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً) يعني في صحف الملائكة، هو يدفع البلاء الشقاء بالدعاء فهو يطوف ويدعو (اللهم إن كنت كتبتني شقياً)، يعني في بطن أمي، يعني في صحف الملائكة لا باللوح المحفوظ، (فامحها) فيدفع هذا البلاء بالدعاء، (فامحها واكتبني عندك سعيداً)، ثم قرأ قول الله تعالى: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد:39]. هذه الفوارق الأربعة بين صلة الأرحام والدعاء وبين النذر وعلاقتهما بالقدر.

أمّا صلة الأرحام والدعاء والنذر يتفقان كوناً بأنها من أقدار الله جلَّ في علاه، لأن كل شيء من أقدار الله جلَّ في علاه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يوافق القدر)، النذر ما يقدم ولا يؤخر ولا يزيد ولا ينقص ولكنه يوافق القدر، فهو من قدر الله كوناً. أمّا شرعاً فيفترقان؛ فإن الدعاء وصلة الأرحام تدفع الأقدار من باب القدر الذي يدفع

به القدر، أمّا النذر فليس كذلك. هذه هي العلاقة أو الفرق بين النذر وصلة الأرحام والدعاء وبين النذر والقدر. قلنا المسألة تحتاج لتصويب تحتاج لتدقيق.

الفوائد المستنبطة:

١- ذم البخل: البخل خلق ذميم يبغضه الله ويبغضه رسوله وكان يفر عنه الصالحون، بل والفطر السليمة تأباه، وهذا يستنبط من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فإنما يستخرج به من البخيل). النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح كان دائماً ما يدعو الله جلَّ وعلا: (اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل)، والأنبياء قد رزقهم الله أرقى الصفات وأعلى السمات، ومن أهم صفات الأنبياء أنهم كانوا أهل كرم وكانوا أهل ضيافة؛ إبراهيم -عليه السلام- كان يسمى أبو الضيفان، كان ينتظر أي ضيف حتى يكرم ضيفه. فالبخل خلق ذميم، قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينأى عنه قال: (اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل)، وفي الحديث الذي فيه بعض الضعف لكن يستأنس فيه: (صفتان أو خلتان لا يمكن ان تكون في مؤمن: سوء الخلق مع البخل)، مع أن البخل أيضاً من سوء الخلق. والفرق بين البخل وبين الشح؟ البخل أن يبخل بماله عن الناس، والشح ان يبخل بمال غيره على الناس، هذا الذي لا يرضى بنعائم الله أن تنزل على العباد. فالبخل مذموم، وقد ذمه الله جلَّ في علاه وذمه رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

٢- كلمة النذر (إن النذر لا يقرّب شيئاً لابن آدم)، وأيضاً (لا تنذروا فإن النذر لا يرد عن القدر شيئاً)؛ فالنذر معرّف بالألف واللام الجنسية، تدل على العموم سواء كان نذراً مطلقاً أو نذراً مقيداً معلقاً؛ يعني إن قال: إن شفى الله ابني سأصوم يوم الاثنين، فهذا النذر معلق. وإن قال: نذراً عليّ أن أصوم لله جلَّ في علاه ثلاثة أيام، هذا النذر مطلق. وفي النهاية الكل مذموم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا)، سواء كان نذراً معلقاً أو نذراً مطلقاً.

الباب الذي بعده باب فيه صراحةً جملاً عظيمةً من أبواب العقيدة وهي حفظ الله، وأنت كيفما فعلت مع ربك سيفعل معك، كما قالوا إن أردت أن تعرف مقامك فانظر أين أقامك. ثم قال بعضهم كيف أعرف حالي عند ربي؟ كيف أعرف مقامي عند ربي؟ قال بعض العارفين: إن أردت أن تعرف مقامك أو حالك عند ربك فانظر إلى ربك أو مكانة ربك أو قدر ربك عندك، فأنت بهذا المقياس تعرف قدرك عند ربك. وهذا ننطلق منه إلى تفسير حديث النبي- صلى الله عليه وسلم-: (احفظ الله) الجزاء من جنس العمل، (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)، وهذا فيه جمل عظيمة جدا من أبواب العقيدة وأبواب القدر. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، جزاكم الله خيراً.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس التاسع والأربعون: باب قول النبي: (يا فتى ألا أهب لك ألا أعلمك) (1)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عن عبد الله بن جعفر -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أردفه خلفه فقال: (يا فتى ألا أهب لك؟ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن، واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا).

قد بينا الأسبوع الماضي معنى (احفظ الله يحفظك)، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- دأبه أنه يحفظ الله ويحث الأمة على حفظ الله، وكان يفعل ذلك ليأتسي القوم به وتأتسي الأمة بأسرها بفعله وقوله وإشارته وتعليمه وتصريحه وتلميحه بأبي هو وأمي. كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلّم أصحابه أن يستجلبوا حفظ الله جلَّ في علاه، إذ العبد إن لم يحفظ من ربه جلَّ في علاه لا حفظ له ولا حفيظ له ولا حافظ له، فإن العبد معرّض للهلاك في كل حين وآن إلّا أن يحفظه الله من المهالك ومن البليات ومن الرديات. كان النبي -صلى الله عليه وسلم- دائماً ما يدعو ويعلم أصحابه هذا الدعاء العظيم: (اللهم احفظني بالإسلام قائماً واحفظني بالإسلام قاعداً واحفظني بالإسلام

نائماً)، وأيضاً كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (اللهم آمن روعاتي) إلى آخر الحديث وفيه: (اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي ومن تحتي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي)، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يتوانى في أن يدعو الله جلَّ وعلا ليستجلب حفظ الله له، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وقلما كان يترك هذا الدعاء: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين).

وقد بينا معنى حفظ الله جلَّ في علاه، وأن العبد ليستجلب حفظ الله له إذا حفظ حدود الله جلَّ في علاه، فيحفظه الله وبينا إن أتم الحفظ يكون حفظ الدين وحفظ الإسلام، حفظ الخاتمة، حفظ المال والأهل والولد، وهذا فصلنا القول فيه الأسبوع الماضي.

وأقول الميزان ميزان حق وميزان عدل وميزان رحمة وفضل من الله جلَّ في علاه، من أتم حفظ حدود الله جلَّ في علاه كان له التمام، ففي حفظ الله له في دينه وماله وأهله وولده وخلانه. ومن أكمل حفظ حدود الله جلَّ في علاه، -وقلما نجد أحداً يفعل ذلك إلّا الندرة من عباد الله جلَّ في علاه، ويغفر الله لنا الزلات والسقطات والهنات- أكمل الله حفظه له، وكان الكمال المطلق له إذا أتم حفظ الله جلَّ في علاه في الحدود.

أقول المكافأة والجزاء من جنس العمل، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الكلمات التي من نور تحفر على الصدور بماء الذهب إن صح ذلك، هذه الكلمات التي وهبها النبي -صلى الله عليه وسلم- لعبد الله بن جعفر علّ الأمة تعمل بهذه الكلمات وتعتقد هذا الاعتقاد الجازم في الله جلَّ في علاه وتحفظ هذه الجمل في أصول العقيدة، تعتقدها وتعمل بها لله جلَّ في علاه؛ (أعلمك كلمات)، ثم قال: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)، وفي رواية أخرى قال: (احفظ الله تجده أمامك)، هذا الإشعار من النبي -صلى الله عليه وسلم- إشعار عظيم جلي، يبين النبي -صلى الله عليه وسلم- أنك ستجد الله معك. وقد قال بعض السلف وهو يناصح أخاً له يقول له: من كان الله معه فمن عليه؟ الإجابة: لا أحد، من كان الله عليه فمن له؟ لا أحد. من يستطيع أن يجابه الله جلَّ في علاه فليرينا نفسه، من يستطيع أن يحارب الله جلَّ في علاه فليرينا نفسه.

احفظ الله تجده معك، احفظ الله تجده مسدداً مؤيداً ناصراً معيناً موفقاً سبحانه جلَّ في علاه، (احفظ الله تجده اتجاهك)، وهذه كما قلت إشارة وإشعار من النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعية الله جلَّ في علاه. أخي الكريم إن أتممت وأكملت حفظ حدود الله جلَّ في علاه فالله معك، وإن كان الله معك فالدنيا بأسرها معك بالسهول والبحار والأنهار والجبال والأشجار والثمار والسماء والأرض، كل هذا الخلق يكون معك لأن هذا الخلق ما خلقه الله جلَّ في علاه إلّا لتعبيده له، وما خلق الله الكون إلّا لخدمتك أنت حتى تكون عابدًا صالحاً صادقاً مخلصاً لربك جلَّ في علاه، فإن كان الله معك فالدنيا بأسرها معك.

وأقول ولعل الدهشة تعلو الإخوة، إن كان الله معك فالمؤمن والفاجر والفاسق يكون معك، إن كنت أنت ممن ينصر الله جلَّ في علاه فإن الله سينصر بك الدين ويعينك بالفاجر والفاسق، كما بيّن في أكثر علمائنا في أكثر من أثر بالتعليل وبالتنقيح وبالشرح وبالتصحيح، أن الله جلَّ وعلا ينصر هذا الدين بالبر وبالفاجر وبالفاسق. والله جلَّ وعلا قد أيد هذا الدين بالحجاج بن يوسف الثقفي الذي قال فيه الذهبي: ونحن نتقرب إلى الله ببغض هذا الرجل، وأعجب وألطف ما قال، قال له: حسنات تغمر في بحر سيئاته. دائماً إذا تكلمنا عن الرعيل الأول نقول لهم سيئات، ما من أحد من ملك ولا أحد قد عصمه الله جلَّ في علاه، ما من أحد إلّا وله السيئات تغمر في بحر الحسنات. لكن الذهبي قال في الحجاج قلب الآية قال: له حسنات تغمر في بحر السيئات، لا نقول بها، نتقرب إلى الله ببغض هذا الرجل. فتح الله على يديه الميادين، فإن الله ينصر هذا الدين بالبر وبالفاجر. فإن الله جلَّ وعلا يؤيدك وينصرك بالفاجر والفاسق، بل والله في الواقع المشاهد كثير ممن كانوا في أزمات ما حلت هذه الأزمات وما فرجت هذه الكربات إلّا على يد الفجار الفساق، الله جلَّ وعلا يأمرهم بل يجبلهم بل يجبرهم على أن يخدموك لأنك خدمت ربك جلَّ في علاه إن صح التعبير.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (احفظ الله تجده اتجاهك)، يعني تجده معك، الله معي؟ نعم معك. هل هنا إشكال لابد أن يعن لنا نحله، الله معي ومع سين ومع صاد ومع الذي في أمريكا ومع الذي في قطر ومع الذي في السعودية؟ نعم، معك في كل مكان. يعني الله في كل مكان؟ لا، هذا الموهم لنص الحديث، الله فوق العرش سبحانه قد استوى. قد قال الله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]، وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه [لمّا جاءه الرجل يشتكي جاريته وأنه صفعها على وجهها أراد أن يكفر عن سيئاته وأن يعتقها تكفيراً، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ائتني بها، فجاءت فقال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، فقال النبي: أين الله؟ قالت: في السماء]، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- حينئذٍ يبين أن هذا هو عمق الإيمان وأصل العقيدة السديدة الصحيحة، موفق مسدد مؤيد من قبل ربه من قال ذلك، (قالت: في السماء، فقال: اعتقها فإنها مؤمنة)؛ إنها مؤمنة لعلتين:

- العلة الأولى: اعتقدت اعتقاداً صحيحاً سديداً في الله أن الله فوق العرش بائن من الخلق ويعلم ما هم عليه.
- العلة الثانية: اعتقدت اعتقاداً سديداً جازماً وقد أقرت به بأن الرسالة نزلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فاكتمل بناء الإيمان عندها، حينئذٍ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعتقها فإنها مؤمنة)، لأنها مؤمنة.

فنحن نعتقد اعتقاداً جازماً بأن ربنا فوق العرش بائن من الخلق يعلم ما هم عليه، وقد قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: ربنا فوق العرش؛ الله فوق العرش، قال: ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمئة عام، وما بين كل السماء وأخرى مسيرة خمسمئة عام... إلى أن قال: وما بين العرش والسماء السابعة مسيرة خمسمئة عام، ثم قال: والله فوق العرش، الكرسي موضع القدمين، قال: والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه. هو بائن من خلقه ويعلم ما أنتم عليه، إذاً معنى أن أقول (احفظ الله تجده معك) يعني معك بعلمه، معك بإحاطته سبحانه وتعالى.

وهذا يدل عليه كثير من الآيات؛ قد قال الله تعالى: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) سياق الآية تتكلم عن العلم، (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ) [الحديد:4]، وهو معكم بعلمه لأن سياق الآية كلها تذكر العلم: يعلم ويعلم، ثم قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ). أيضاً (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ) [المجادلة:7]، معهم بعلمه، من أين أتينا بهذا؟ من السياق والسباق واللحاق لأنه ذكر العلم أولاً وختم أيضاً الآية (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [المجادلة:7]؛ ذكر العلم فابتدأ الآية بالعلم وختم الآية بالعلم فالسباق واللحاق ما وسطهما يبين لك، ابتدأ الآية بالعلم وختم الآية بالعلم، كأنه يقول وهو معكم بعلمه وأحاطكم علماً. وهذا الراجح الصحيح أن الله جلَّ وعلا أحاط بكل شيء علماً، (وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ) [البقرة:255] سبحانه جلَّ في علاه.

فالله معنا بعلمه، وعلم الله جلَّ في علاه أوسع ما يكون وأدق ما يكون وألطف ما يكون، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. فإن الله يعلم ما أنت عليه وما تفعله وما فعلته وما يؤول إليه فعلك ونتيجته، كل ذلك يعلمه الله جلَّ في علاه. وليس هذا مقصوداً بالأصالة بهذا الحديث (احفظ الله تجده اتجاهك)، تجده معك: ليس المقصود تجده معك بعلمه إذ العلم لا بد مقرر يدخل فيه المؤمن والكافر، فإن الله يعلم ما عليه المؤمن وما عليه الكافر. لكن المقصود الأسمى من الحديث هو المعية الخاصة، يعني إذا كانت المعية العامة موجودة للمؤمن وللكافر، يعلم الله جلَّ وعلا أحاط بعلمه ما عليه المؤمن ومع عليه الكافر وما عليه البر وما عليه المنافق ومع عليه الفاجر، إذا كان الله أحاط بكل شيء علماً فقد خص المؤمنين بمعية غير هذه المعية، هي معية التسديد والتوفيق والنصر والتأييد وهذا المقصود بهذا الحديث. لأنه قال إن حفظت الله جلَّ في علاه في حدوده حفظك الله، كان الله معك مؤيداً وناصراً ومعيناً وموفقاً ومسدداً. فمن أراد أن يكون الله معه وكل الدنيا من مخلوقات بأسرها تكون معه فليحفظ الله جلَّ في علاه، فهذه المعية معية التوفيق والتسديد.

وأنا أقول لإخوتي أنت لك أن تتخيل مؤمناً تقياً عندما تتصفح في سيرته يقولون مثلاً هذا الرجل ما تقصد المعصية إلّا وأغلق الله باب المعصية عليه، وما لم يتقصد الطاعة إلّا أوزع الله في قلبه همة الطاعة. هذا العبد دائماً تقول هذا عبد يساوي عبد موفق مؤيد مسدد من قبل الله جلَّ في علاه؛ يلهم الذكر والتسبيح، يلهم الجلوس في مجالس الذكر، يلهم الطاعة، يلهم الطلب، يلهم التوفيق ونصرة الدين. فهذا العبد يكون من الله من جلَّ في علاه مؤيداً مسدداً موفقاً، قد انتصر بالله جلَّ في علاه فنصره الله جلَّ في علاه.

فهذه المعية الخاصة تجدها جلية مع المؤمنين المحسنين؛ قد قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [النحل:128]، هذه الآية تفسر لك إن حفظت حدود الله جلَّ في علاه كان الله معك مؤيداً وناصراً ومعيناً سبحانه جلَّ في علاه. في الحديث القدسي قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي)، وهذا أيضاً حفظ لله، حفظ القلب لربه جلَّ في علاه لأنك إذا اعتقدت بربك اعتقاداً صحيحاً، إن أحسنت الظن بالله جلَّ في علاه ما كنت منافقاً في تعاملك مع الله جلَّ في علاه، ما كنت مرتاباً في وعد الله جلَّ في علاه ولا وعيد الله جلَّ في علاه، قد حفظت ربك في اعتقادك الصحيح السديد. أرأيت كيف أنكر الله على الذين يظنون ظناً غير ظن الحق بالله جلَّ في علاه، قال تعالى: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) [آل عمران:154]، وأنكر عليهم ثم وبخهم وقال: (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) [الفتح:6]. فأنت كلما أحسنت الظن بالله جلَّ في علاه قد حفظت عقيدتك في ربك جلَّ في علاه، فتحفظ من قبل الله جلَّ في علاه.

(أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه ما ذكرني)؛ كأن سائلاً يسأل: وكيف أستجلب معية الله جلَّ في علاه؟ كيف يكون الله معي؟ وكيف تكون الدنيا بأسرها إن كان الله معي تكون معي؟ نقول أكثر من ذكر الله جلَّ وعلا، أوثق ما يكون وأيسر ما يكون لاستجلاب معية الله جلَّ في علاه أكثر من ذكر الله، (وأنا معه إن ذكرني). وانظر إلى هذه المعية، معية الثناء ومعية الرفعة والرقي؛ الله معك ما ذكرته في نفسك ذكرك الله في نفسه، وكفاك فخراً الله يذكرك أنت في نفسه، كفاك علواً وارتقاءً أن الله يذكرك أنت في نفسه. انظر إلى الفقيه اللبيب الأريب أبي بن كعب ما أهمه علمه وما أهمه مكانته في العلم وما أهمه إتقانه، وما أهمه حتى ثناء النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كان قد أهمه، لكن أقول الذي أهمه والذي جعله يشتاق شوقاً عظيماً أن يعلم أن الله قد ذكر اسمه. انظر فقيه لبيب أريب، علم أن مكانته عند الله جلَّ في علاه إذ ذكر الله باسمه فهذه رفعة ليست بعدها رفعة. إن أحدنا إذا ذكره الأمير أو الوزير أو الغفير أو قل الملك او قل الخليفة خليفة المسلمين، إن ذكرك باسمك تسعد بذلك شهراً كاملاً بل دهراً كاملاً، تقول قد ذكرني باسمي، قد أثنى علي في هذا الملأ الذي يجلسون معه.

الله جلَّ وعلا يذكرك باسمك ويكون معك إذا حفظت الله جلَّ في علاه؛ (وأنا معه إن ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هو خير من هذا الملأ)، يعني ملأ الملائكة. انظر احفظ الله باعتقاد سديد بربك جلَّ في علاه يحفظك، يكون اتجاهك، يكون أمامك، يكون معك. هذه المعية معية الثناء والرفعة والرقي، تعيش في الأرض والملائكة تتكلم بذكرك وباسمك في السماء، فأنت مجهول في أهل الأرض لكنك تكون معروفاً في أهل السماء ويا لها من شهرة! شهرة الدنيا لا تساوي شيء، لأن شهرة الدنيا ستستجلب عليك العداوة والحسد والحقد ثم الانتقادات، ثم بعد ذلك يرضى عنك هذا ولا يرضى عنك هذا، والثاني يقول هذا فعل ذلك من أجل المال، والثالث يتكلم في عرضك، وكل ذلك بلاء من الله جلَّ في علاه. لكن شهرة في السماء شهرة نقية لا شيء فيها، أنت تمشي على الأرض والسماء الملائكة تذكرك أنت بحفظك لربك جلَّ في علاه. (احفظ الله تجده تجاهك)، هذا رقي ليس بعده رقي، هذه معية الثناء والرقي من الله جلَّ في علاه.

ثم المعية الثانية في الدنيا وفي الآخرة معية التوفيق والتسديد، لأن في الآخرة معية النجاة كما سنبين. معية التوفيق والتسديد والنصرة أن الله جلَّ وعلا لا يترك عبادة هكذا سدى، لا يأمر هذا ويبتلي، والبلاء نازل على كل أحد، فإن الله جلَّ وعلا قد قدر كوناً أن البلاء سينزل على الناس سينزل على الناس سواء بلاء الخير أو بلاء الشر، (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) [الأنبياء:35]. فالبلاء نازل نازل على العبد، فأنت تحتاج في هذا البلاء إلى مؤيد إلى ناصر إلى معين إلى مسدد حتى تثبت أقدامك ولا تفتن ولا ترتد على عقبيك فتخسر الدنيا والآخرة، وهذه لا تكون إلّا بحفظ الله جلَّ في علاه، إن حفظت الله كان الله معك مسدداً وموفقاً ومؤيداً ونصيراً.

ألم يأتكم نبأ موسى -عليه السلام- عندما أمره الله أن يذهب إلى فرعون؟ أتعرفون فرعون؟ فرعون طاغية الزمان، فرعون طاغية أرعن، فرعون قال قولة ما قالها أحد ولا تجرأ عليها أحد. جبريل الذي وكل أن يستغفر للبشر وأن يتمنى ويدعو الله لإيمان البشر، جر فعل فرعون أن جبريل كان يحثو التراب في فم فرعون حتى لا يتلفظ بلفظ الإسلام ولا أن تدركه رحمة الله جلَّ في علاه. فرعون أمر الله موسى أن يقف أمامه وأن يدعوه إلى الله، ارتجف قلب موسى، فرعون طاغية، فرعون وصفه الله في الكتاب انه من المفسدين، عاث في الأرض فساداً والزبانية معه، ومع ذلك موسى يرتجف قلبه ويعاود ربه عندما قال: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) [النازعات:17-19]، وفي الآية الأخرى في سورة طه عندما قال: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي) [طه:24-29]، يأتيك أن كل هذه المقدمات من موسى يخشى الوقوف أمام فرعون.

والله ما طمأن قلبه إلّا بحفظ موسى لربه فإن الله سيحفظه عندما قال: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) [طه:46]، لأنه في الآية قال: (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى) [طه:45]، فبيّن الله جلَّ في علاه أنا معكم مؤيداً ونصيراً وموفقاً ومسدداً، أنت تعلم أن موسى بجرة قلم كما يقولون يرفع السيف فرعون يقتل موسى ويقتل هارون، هما أمام فرعون الطاغية بين الجنود وبين السلاح وبين القوة الطاغية، ومع ذلك الله جلَّ وعلا قال إن كنت معك فلا فرعون ولا الدنيا بأسرها عليك. إن كنت معك فمن عليك؟ ولذلك اطمئن قلب موسى (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)، ولذلك كانت الحجة القوية لموسى -عليه السلام- يقول: (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) [الشعراء:26] ويبين له الحجج والبراهين. حتى أن فرعون قد تجبر وطغى عندما ما استطاع المحاورة، وهذا دأب كل رجل لا يريد الحجة، قال له: (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) [الشعراء:29]، ومع ذلك قد اطمئن قلب موسى أن الله معه، فلا سجن ولا قتل ولا إبعاد ولا شيء، لأنه اعتقد اعتقاداً جازماً بأن الله معه. وإذا كان الله معك فمن عليك؟ لا أحد يستطيع لك شيئاً، لأن الله جلَّ وعلا هو الذي يملك القلوب، هو الذي يملك الأقلام، هو الذي يملك الألسنة، لكننا ضعاف العقيدة في الله جلَّ في علاه. فوقف راسخاً أمامه يبين الحجج والبراهين مستحضراً قول الله تعالى: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى).

وأروع من ذلك وأعظم من ذلك وأجود من ذلك عندما استيقن القوم الهلاك، إن فرعون طغى وبغى، ثم نظر موسى فقال لبني إسرائيل: لا عيش لكم معهم، سار بهم ليلاً خشية أن يدركهم فرعون، فقال فرعون -والله جلَّ وعلا يصور لنا هذا التصوير البديع في القران-: (إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ) [الشعراء:54-56]، ثم بعد ذلك ذهب خلفهم بجيشه العرمرم ووقف موسى ومن معه أمامهم البحر وخلفهم فرعون، انظروا إلى معية التأييد، استحضروا معية التوفيق والنصرة من الله جلَّ في علاه (احفظ الله تجده اتجاهك)، في أحلك اللحظات وفي أشد الكربات في أعظم البليات أن الله معك إذا كنت أنت مع الله، الجزاء من جنس العمل. قال داوود: رب كن لسليمان كما كنت لي في الحفظ والتأييد والتوفيق والتسديد، أوحى الله إلى داوود، اجعل سليمان لي كما كنت لي أكون له كما كنت لي؛ فإن كان حافظاً لربه جلَّ في علاه فإن الله سيسدد ويوفق وينصر ويرفع هذه البليات والكربات.

فقوم فرعون لأنهم عندهم خسة، انظروا عبدوا العجل من دون الله جلَّ في علاه، عندهم خسة قالوا: (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) [الشعراء:61]، الهلاك الهلاك إمّا بسيوف فرعون وإمّا بالغرق في البحر. فقال موسى: (قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) [الشعراء:62]، المعية هنا تأتي المعية، معية الله جلَّ في علاه، معية الحفظ والتسديد والتوفيق والنصرة ورفع البليات، (قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)، ولذلك كان راسخاً علم أنه لمّا حفظ ربه وحفظه الله جلَّ في علاه، وجاء يوشع من نون وهو من أنبياء بني إسرائيل وكان هو

الغلام الذي كان مع موسى، فقال له: يا موسى أين أمرك ربك؟ قال: هنا أو ها هنا؟ وأشار إلى البحر فأخذ بفرسه يدخل في خضم البحر فتغوص أرجل الفرس فيرجع ويقول: والله إني لأعلم أنك صادق لكن قل لي أين أمرك ربك؟ يعني الهلاك الهلاك، الغرق الغرق. لمّا قال القوم (إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)، فأظهر حفظه لله فأظهر الله حفظه له بالاعتقاد السديد لله جلَّ في علاه، لأن العملة الزائفة لا تروج على الله.

العبد يمكن أن يقول أنا أثق في ربي، أنا استيقن أن المسألة كلها بيد الله جلَّ في علاه، والرزق كله بيد الله جلَّ في علاه، وقلبه مرتاب. الحق كل الحق أن تكشف عن قلبك عند الملمات، هل حقاً قد اعتقدت الاعتقاد الجازم الصحيح بالله جلَّ في علاه؟ أكثر الطامات التي تنزل علينا أننا نشك في الله حقاً، والله اجعلنا جميعاً نصرح لأنفسنا هذا، نحن لا نتعامل مع الله باليقين، لو تعاملنا مع الله باليقين أقسم بالله لانتصر المسلمون في كل هذا العالم، لو تعاملنا مع الله باليقين وبالثقة في الله جلَّ في علاه لارتفعنا إلى السماء، لكننا لا نتعامل مع الله باليقين، لا يصدقنا الله جلَّ في علاه. ما منا من أحد قد استوثق من قلبه أنه استيقن اليقين الصحيح السديد في الله. ومحدثكم أول الناس في ذلك أنا أزعم أشياء والله الذي لا إله إلا هو فيختبرني الله فيها فأجد نفسي قد رسبت في الاختبار، ما في نجاح، لأن الله رب قلوب، إن العملة الزائفة لا تروج على الله.

الشيء بالشيء يذكر حتى أبين لكم كيف أن المسألة كشف قلوب هي مسألة فقهية لا ندخل فيها، لكن أنا أريد الشاهد منها. ابن عباس جاءه رجل فقال: يا ابن عباس عمي طلق امرأته وهو يحبها جداً وقد طلقها وبت طلاقها، يعني طلقها ثلاث. قال: فقد طلقها وبت طلاقها وهو يحبها جداً. هو يريدها، يعني هو يتمنى قربها، هل يستطيع أن يقاربها منه؟ لا، حرام عليه حتى تنكح زوجاً غيره. فجاء هذا الرجل متطوعاً محللاً فقال: يا ابن عباس وأرى عمي يشتاق إليها يحبها فسأتزوجها له، سأتزوجها ونفس الأمر أن تذوق العسيل فأتزوجها وأطلقها له. هنا ما في اشتراط، والعم لا يعلم والمرأة لا تعلم، لكن هو أضمر في نفسه أن يحسن إلى عمه فيتزوجها ويطلقها من أجله. انظر إلى الشاهد، ماذا قال بعض الفقهاء؟ قالوا بجوازه، وهذا كلام ليس بصحيح. لكن ابن عباس رد برد لطيف جميل جداً فقال: يا بني إن الله لا يُخادع؛ فإن الله جلَّ في علاه ينظر إلى ضمائر القلوب، فمن كان صادقاً مع الله جلَّ في علاه مستيقناً في ربه جلَّ في علاه إذا حفظ الله بحق حفظه الله جلَّ في علاه.

فكان ثابتاً راسخاً موسى -عليه السلام-، قال كلا بصدق واعتقاد جازم أن الله لن يضيعه ولو المهالك كلها دارت عليه. (قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ). انظر إلى الفاء التعقيبية: (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى) فالفاء هنا للتعقيب، يعني في أسرع ما يكون. كان صادقاً وصدق

فالله جلَّ وعلا أتاه بما يريد وبما يحب وبما يتمنى، قال: (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ) [الشعراء:63]. ليس العجب أنه أنجى موسى ومن معه وأهلك فرعون، العجب كل العجب أنه أنعم عليهم بالنجاة ثم أنعم عليهم بنعمة أخرى بالسلامة وهم يسيرون في هذه العجائب ما بين البحار كأنهم على اليمين وعلى الشمال ينظرون إلى الأسماك تسير بجانبهم والبحر كما هو، لكن الأرض بالنسبة لهم بالوسط هم يسيرون عليها، ثم ألطف وأعجب من ذلك أنهم يرون هلاك عدوهم بأم أعينهم ليشفي الله صدورهم. فأنجاهم رحمة منه، ثم بعد ذلك جعل العجائب بين أيديهم، ثم الثالثة شفى صدورهم بأن أهلك عدوهم أمام أعينهم. كل هذا لسؤال دقيق حتى نرى الإجابة الأولى، لأنهم حفظوا الله فحفظهم الله جلَّ في علاه، لأن قائدهم قد حفظ الله بحق بحفظه الله بحق، وكلما أتم العبد حفظ الله جلَّ في علاه كلما أتم الله له الحفظ.

انظر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قد تكالبت عليه الأمة بأسرها وجاء أهل قريش يريدون هلاك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فرحل النبي -صلى الله عليه وسلم- مع أبي بكر، ثم بعد ذلك نزل الغار، فلمّا نزل الغار قام أحدهم يبول عند فوهة الغار، وقال أبو بكر: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا، وارتجف قلب أبي بكر وقد علم أن الهلاك سيدمرهم سيدمرهم، فهم على مشارف هلكة هم على مشارف الهلكة، لو ظفروا بهم انتهى الأمر، ويقول: يا رسول الله لو نظر أحدهما إلى موضع قدمه لرآنا. انظر إلى القلب المطمئن الذي يعلم أنه إذا ذكر الله فإن الله معه، يعلم أنه إذا حفظ الله فإن الله معه. من منا فيه هذا القلب؟ والله ما منا إلّا ويرتجف قلبه عند أول بلية، والله ما منا من واحد إلّا والله جلَّ وعلا يمر عليه البلاء من فوق رأسه ما ينزل عليه لا يمرره من فوق رأسه إلّا طالما يتسخط، من الداخل لأنه لو تكلم بها ضاع وضيع إيمانه من الداخل: لِمَ أنا وهل أنا عصيت حتى ينزل عليّ البلاء؟ ويتسخط على الله جلَّ في علاه ولا يثق في ربه أنه ما فعل ذلك إلّا ليرحمه، ما فعل ذلك إلّا ليرفعه، ما فعل ذلك إلّا ليعلي ذكره.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان قلبه راسخاً صادقاً مخلصاً مؤمناً مستيقناً في ربه جلَّ في علاه، وانظر إلى السؤال الذي فيه الإقرار وفيه طمأنينة القلب، قال: (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟). هنا معية الله جلَّ في علاه، هذه المعية معية التوفيق والتسديد والنصرة والتأييد. (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟)؛ ما الظن؟ النصرة والتأييد والتوفيق، وما أحد سيقدر عليه بحال من الأحوال. هم يمرون أمام النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يرونه، وهو يمر أمامهم لا يرونه، لأن الله هو الذي يملك القلوب والألسن والأيدي والأبصار، فلذلك لم يرَ أحد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. فقد صور الله لنا في قرآنه الكريم تصويراً بديعاً لهذه القصة: (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ

مَعَنَا)، هذا هو محل الشاهد: (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) [التوبة:40]، السكينة في القلب لأبي بكر وللنبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم بعد ذلك ماذا حدث؟ أنزل الله الجنود، فنصره وحفظ رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فانظر كيف اعتقد اعتقاداً جازماً في ربه جلَّ في علاه، صدق الله وحفظ الله بحق فحفظه الله جلَّ في علاه (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)، فكانت معية الله جلَّ في علاه بالنجاة للنبي -صلى الله عليه وسلم- والنجاة لأبي بكر. ثم أسست الدولة الإسلامية وانتشر الإسلام، وما ترك بيت مدر ولا وبر إلّا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل.

(احفظ الله تجده تجاهك)، وهذا آخر ما يمكن أن يقال في هذه المسألة، ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن يتم حفظ الله جلَّ في علاه أو أتم وأكمل حفظ الله وحفظ الحدود لله جلَّ في علاه، حتى يكون لنا التمام والكمال في حفظ الله لنا. قال: (وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)، نبدأ في جمل التوحيد المهمة جداً في مسألة (وإذا سألت فاسأل الله) هل هذا إلغاء لأن تسأل أحداً؟ وهل سؤال العلم يدخل في هذا الباب أم لا؟ وهل سؤال الشفاعة أن تشفع لأخيك لأن تسد حاجته وخلته وأن يجري النفع على يديك من باب السؤال المذموم؟ هذا الذي سنبينه لا سيما وأن أبا بكر كان يقع السوط من يده فلا يسأل أحد أن يناله هذا السوط. (وإذا استعنت فاستعن بالله)، هذا محض التعبد بربوبية الله جلَّ في علاه.

كتاب السنة لابن أبي عاصم

الدرس الخمسون: باب قول النبي: (يا فتى ألا أهب لك ألا أعلمك) (2)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

حديثا ابن جعفر رضي الله عنه وأرضاه، وابن عباس رضي الله عليهم أجمعين، فقد بينا جملاً فيه وقد بينا فيها آداب، وآداب أدبنا بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبينا نصايح وكلمات وجيزة تكتب في مجلدات تكتب بماء العين من النبي -صلى الله عليه وسلم- تعليماً لابن عباس، الوعاء الذي استطاع أن يحمل عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذا العلم ويبثه في الناس فيأتسون بكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وينتصحون بنصائحهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

عن عبد الله بن جعفر -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أردفه خلفه فقال: (يا فتى ألا أهب لك؟ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن، واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا).

قد بينا جملاً من الآداب في هذا الحديث، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- من تواضعه ومن حسن خلقه مع عظم مكانته وقدره الجليل عند ربنا جلَّ في علاه أنه كان قد أردف أكثر من صاحب من صحابة رسول الله؛ ابن عباس كان صغير السن والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان كبير السن، ابن عباس معروف قدره، لكن قدر النبي -صلى الله عليه وسلم- معروف عند الله جلَّ في علاه فهو أكرم الخلق على الخالق، ومع ذلك يتواضع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويردف خلفه ابن عباس ويردف خلفه عبدالله ابن جعفر، حتى يبين للناس أن النفوس المتكبرة أبعد ما تكون عن الله جل في علا وأن النفوس المتواضعة مهما علت فهي أقرب ما تكون لله جلَّ في علاه.

يحضرني حديث من أعظم الاحاديث يحفر بماء الذهب على الصدور أو يكتب بماء العين؛ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يشير لأصحابه قولاً وفعلاً ليؤثر في القلوب، قال: (قد أوحى الله إليّ أن تواضعوا هكذا، يرفعكم الله هكذا)، هذا فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحري بكل من يأتسي رسول الله أو يروي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يفعل مثل ما فعل رسول الله. فكان يشير يقول: (أوحى الله إليّ أن تواضعوا هكذا)، من تواضع هكذا رفعه الله هكذا. فهذا تواضع النبي -صلى الله عليه وسلم- جعله أرفع الناس على الإطلاق، فأردف خلفه عبدالله بن جعفر وأردف خلفه عبدالله بن عباس وأردف خلفه الفضل بن عباس وأردف خلفه أسامة بن زيد كما بينا في الأسبوع الماضي.

أيضاً من هذه الجمل التي لابد أن نبتدئها قبل أن نبدأ في هذه الجمل العظيمة من جمل العقيدة: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا غلام)، في هذا الحديث قال: (ألا أهب لك؟) أو قال: (ألا أعلمك)، فجعل الهبة والعلم يستويان، كأن العلم بدل عن الهبة. وهذا حري بنا أن نعرف أن أفضل الهبات وأفضل الصدقات هي صدقة العلم، فإن الإنسان لا يستطيع أن يسع الناس بماله لكن يستطيع أن يسع الناس بهشاشة وبشاشة وبحسن الخلق، وأفضل من ذلك وأجود من ذلك وأعظم من ذلك وأرفع من ذلك أن يسع الناس بصدقة العلم. والدلالة على ذلك حديث في الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يدارسه جبريل القرآن، فلرسول الله أجود من الريح المرسلة)، فبين الجود وعظم الجود هو بتعليم القرآن للناس. العلم أفضل صدقة وأفضل هبة يستوجبها المرء، قد قال الله تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا) [البقرة:269].

ثم ابتدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم بهذه الكلمات العظيمات الجليلات، التي لو اعتقدناها اعتقاداً جازماً لارتاحت قلوبنا وأجسادنا، ولنشرنا بين الناس الطمأنينة وما

فزع أحد بالنسبة للدنيا هذه طرفة عين. الكلمات قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (احفظ الله)؛ بينا أن الله لا يحتاج لحفظ، بل العباد هم الذين يحتاجون للحفظ، قال الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ) [فاطر:15]، (أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ) [الرعد:33] هو القائم سبحانه جلَّ في علاه على الدقيق والجليل لكل نفس. فالله جلَّ في علاه هو الحفيظ، (فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ) [يوسف:64].

معنى (احفظ الله) يعني احفظ حدود الله جلَّ في علاه، احفظ أوامر الله جلَّ في علاه، احفظ نواهي الله جلَّ في علاه، احفظ كل ما يأتيك من قول الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ارعها سمعك كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: إذا سمعت النداء فارعها سمعك فإنه أمر تأتمر به وتعمل به أو نهي تنتهي عنه عند ربك جلَّ في علاه. (احفظ الله)، فقد قال الله تعالى واصفاً أعلى الدرجات في الجنة وأن الذين يدخلون الجنة: (هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ) [ق:32-33]؛ يحفظ الله جلَّ في علاه في أوامره، يحفظ الله جلَّ في علاه في نواهيه.

(احفظ الله يحفظك)، أهم ما يحفظ الإنسان ربه فيه الإيمان والإسلام، أجلّ نعمة وأعظم نعمة ليل نهار لابد أن تسجد شكرا لله جلَّ في علاه عليها هو الإسلام والإيمان، إذ أنك إن لم تكن مسلماً أو مؤمناً لخلدت في نار جهنم، فهي أعظم نعمة وأجلّ نعمة. فأعظم ما يحفظ المرء الله فيه هو إيمانه، توحيده ألّا يشوبه أدنى شرك، فإن الله جلَّ في علاه توعد وعيداً أكيداً شديداً على من أشرك به شيئاً ولو كان الشرك شركاً أصغر، فقد قال الله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) [النساء:48]. فكأن سائلاً يسأل: أحفظ الله في توحيدي كيف؟ أقول احفظ الله في أسمائه الحسنى وصفاته العلا، لا يمكن لك أن تسمع قول الله تعالى: (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) [الفتح:10] وأنت تتفكر في كيفية يد الله وكيفية أصابع الله وكيف تكون يد الله فوق أيديهم وتتفكر في صفات الله جلَّ في علاه، هذا يشوب توحيدك، هذا ينقصك عند ربك جلَّ في علاه. أنت ما حفظت الله في إيمانك وتوحيدك هنا، فلابد أن تنزه الله جلَّ في علاه مع إثباتك للصفة، فإن الآثار قد جاءت: (لا تتفكروا في صفات الله، فإن الله لا تصل إليه فكرة)؛ تفكروا في آلاء الله، تفكروا في نعائم الله جلَّ في علاه، تفكروا في خلق الله. العبد المؤمن إذا نظر ودقق النظر يتفكر في ملك من الملائكة، خلقه الله له ستمائة جناح، لو فكرت في جناح واحد لم تعرف كيف تصف هذا الجناح، ولم تصل إلى كيفية هذا الجناح. فكيف بربك جل في علاه؟

احفظ الله في أسماء الله الحسنى، احفظ الله في صفات الله جلَّ في علاه؛ احفظ الله فلا تعطل، لا تقول سمع بلا سمع، عليم بلا علم، بصير بلا بصر. هذا والله ينقصك عند

ربك جلَّ في علاه، لم تحفظ الله جلَّ في علاه، احفظ الله في توحيدك لله جلَّ في علاه. أو تقول لا سميع ولا سمع، لا بصير ولا بصر، لا عليم ولا علم، لم تحفظ الله جلَّ وعلا في توحيدك.

احفظ الله في أسمائه الحسنى، احفظ الله في ربوبية الله جلَّ في علاه، لا تعتقد في الأولياء أنهم ينفعون أو يضرون، كما يقول أحدهم أن الولي يحيي الجنين في بطن أمه أو الآخر يذهب إلى الولي ويقول انفعني أو ارفع الضر عني أو ائتني أو ارزقني، هذا لا يجوز بحال من الأحوال. إن الولي لا يملك أن ينفع نفسه فكيف ينفع الآخرين؟ أنت بهذا لم تحفظ الله في ربوبية الله جلَّ في علاه.

احفظ الله في توحيدك لربك جلَّ في علاه؛ لا تعتقد في نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي من أولياء الله ما لا يعتقد إلّا في الله جلَّ في علاه. احفظ الله في توحيد إلهيته، احفظ الله بأن لا تصرف عبادة لغير الله جلَّ في علاه، إن صرفت عبادة لغير الله فأنت لم تحفظ الله جلَّ في علاه. فإذاً النقيض: احفظ الله يحفظك فإن لم تحفظ الله لن يحفظك بحال من الأحوال. احفظ الله فلا تذبح إلّا لله، فلا نذر إلّا لله، فلا سجود إلّا لله، فلا طواف إلّا ببيت الله جلَّ في علاه لأنه أمر من أوامر الله جلَّ في علاه.

(احفظ الله يحفظك) احفظ الله في إيمانك كما قلت، احفظ الله في إسلامك، احفظ الله في توحيدك لا ترتد على عقبيك، ولن يكون ذلك إلّا بأن تتعرف على ربك حق المعرفة. (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) [النساء:48]، قال الله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ) الذين حفظوا الله بحق (أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ) [البقرة:166]. وفي الصحيح عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك)، لا يمكن أن تفعل ذلك ولا يحق لك أن تفعل ذلك، هذا من أظلم الظلم، لم تحفظ ربك في توحيده لم يحفظك في بدنك ولا في إيمانك ولا في إسلامك كما سنبين.

احفظ الله في إيمانك، احفظ الله في توحيدك، احفظ الله في تفكيرك في صفاته الله جلَّ في علاه، احفظ الله في مقامك أمام الله جلَّ في علاه. فأنت تتفكر بأن الله جلَّ في علاه جامعك ولابد أن تقوم أمامه ولابد أن يكلمك الله ليس بينك وبينه ترجمان ينبئك بما فعلت، (وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ) [الرحمن:46]، فمن حفظ الله جلَّ في علاه فله الجنتان.

(احفظ الله يحفظك)؛ احفظ الله في إيمانك وأعظم ما تحفظ الله فيه، واحفظ الله بعد ذلك في أركان الدين، إذا كنت تحفظ الله في توحيدك وإيمانك وإحسانك لابد أن تحفظ الله في قواعد الدين وفي أركان الدين، في أهم أركان الدين وفي أعظم أركان الدين: في

الصلاة؛ الله جلَّ وعلا أمر بالمحافظة على الصلوات، قال الله تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ) [البقرة:238]، (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) [المؤمنون:9]، وفي المسند عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يتكلم عن الصلاة قال: (فمن حافظ عليها [يعني الخمس صلوات] كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة)، فانظر بالمحافظة على الصلوات له عهد أن يدخل الجنة من أول وهلة أو يحاسب الحسنات والسيئات، لأن الصلاة خير موضوع. فالناس بالنسبة للصلاة مستكثر ومقل، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن أعظم ما يقترب به المرء لربه جلَّ في علاه الصلاة، حين (قال له مولاه: أريد مرافقتك في الجنة، فقال له: أو غير ذلك؟ قال: بل هو ذلك)، همة عارية يريد مرافقة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجنة، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعني على نفسك بكثرة السجود).

فأهم ما يحافظ عليه المرء الصلاة، وأهم المحافظة أن تحافظ على الصلاة في أول الوقت، فالتكاسل عن المحافظة عن الصلوات هذا قدح في إيمانك، ومع ذلك يكون بالنتيجة قدح في أن تكون قد حفظت الله جلَّ في علاه، وبعد ذلك المردود أنك لا يحفظك الله حفظاً كاملاً. كما في الصحيح عن ابن مسعود قال: (سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها) أو قال: (الصلاة في أول وقتها) يعني تحافظ على الصلاة في أول الأوقات. فمن توانى عن ذلك فهذا نقص في الإيمان، وإذا كان نقصاً في الإيمان لم يتم الحفظ التام الكامل لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (احفظ الله) بتمام الحفظ يحفظك بتمام الحفظ، الجزاء من جنس العمل؛ كلما نقص من المقدمة ينقص من النتيجة، كلما أنقصت من حفظك لله في إيمانك، في إسلامك، في أعمالك ينقص بمقدار ذلك حفظ الله لك ورعاية الله لك كما سنبين.

(احفظ الله يحفظك)؛ في أركان الدين في الصلاة كما بينا، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أتم ركوعهن وخشوعهن كن له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة). فإن كنت علمت أن أعظم ما تحفظ الله فيه من أركان الدين الصلاة، فالصلاة لها لازم، لا يمكن أن تدخل مقامك بين يدي الله جلَّ في علاه إلّا بالشرط الأكيد الذي اشترطه الله جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا) [المائدة:6]، فتحافظ على الوضوء. وقد جاء التصريح من النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الذي يحفظ الله يحفظ الله في وضوءه، وكثير من إخواننا يتكاسلون عن هذا الأمر، النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أناط كمال الإيمان، ما أقول أصل الإيمان، أناط كمال الإيمان بحفظ الوضوء؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن)، لا تترك عين إلّا وأنت على طهارة، تحتاج إلى قراءة القرآن، تحتاج إلى مس المصحف، تحتاج إلى صلاة جنازة، تذهب في مكان لا تجد ماء فيه ولا تجد فيه شيئاً ولا تراب ولا شيء من ذلك وتريد الصلاة وحضرت الصلاة، إن لم تكن على وضوء تضرب أخماساً في

بأسداس لأنك لم تتهيأ تهيئة صحيحة ولم تعمل بنصيحة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحفظ الكامل لله بحفظك للوضوء. بحفظ للوضوء قد حفظت الله؟ نعم، حفظت الله جلَّ في علاه في مثل هذا، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يريد كمال الإيمان به: (لا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن).

وأيضاً من الأوامر والحدود التي أمر الله بالمحافظة عليها وفيها كمال الحفظ لله جلَّ في علاه "الأيمان"، والأيمان من الإيمان؛ الفرق بينها بالكسر والفتح هذا يدلك على الارتباط الوثيق بينهم. الإيمان والإيمان واحد، الأيمان من الإيمان وهي من تعظيم قدر الله جلَّ في علاه وتعظيم شأن الله جلَّ في علاه، (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ) ومن شعائر الله الأيمان (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) [الحج:32]. وقد قال الله تعالى: (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) [المائدة:89]، وقال الله جلَّ في علاه مشدداً على الذي يكثر من الحلف وهذه علامة وإشارة على كذبه، فقال الله تعالى: (وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ) [القلم:10]، ولذلك كان علماؤنا من السلف الصالح كأبي حنيفة وغير أبي حنيفة يقول: كنت أشدد على نفسي حتى لا أكثر من الحلف، فضيقت على نفسي قلت كل قسم أصوم له يوماً، فأكثرت من الصوم فأتعبني وأجهدني الصوم، فقلت كل قسم أتصدق بدرهم حتى لا أخطئ، فقال: فلمّا تصدقت وكثر عليّ المال في التصدق كففت عن القسم أو الحلف بالله. لِمَ؟ حفظاً لأيمان جلَّ في علاه، لأن الذي تجده كثيراً ما يقسم هذا كأنه مستهين بعظمة جلال الله جلَّ في علاه، لكن الذي يضيق على نفسه ولا يقسم إلّا في المهمات والملمات فهذا هو الحق، (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) [المائدة:89].

أيضاً من باب حفظ حدود الله جلَّ في علاه من باب: احفظ الله الرأس وما حوى والبطن وما وعى، وهذه جاءت صريحة من النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال لهم: (استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا لنستحيي من الله حق الحياء، فقال: ليس ذاك)، ثم بين مثلاً أن تستحوا من الله حق الحياء أن (تحفظ الرأس وما حوت وتحفظ البطن وما وعت). تحفظ الرأس ثم حوت سواء كان العقل في القلب أو القلب في الدماغ فنحن نقول أهم ما يكون حفظ ما يكون للرأس هو حفظ العقل، وهذه من الضرورات الخمس بعدم شرب المسكرات، فشرب الخمر يضيع العقل. فالذي يتجرأ ويتجاسر علم أن يضيع عقله بشرب الخمر، لم يحفظ الله جلَّ في علاه، إذاً لم يُحفظ، هذه مقدمة ونتيجة. فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعن في الخمر عشر)، والملعون مطرود من رحمة الله جلَّ في علاه، وقد قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) [المائدة:90]، في الآية التي بعدها قال: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة:91]، قالوا انتهينا ربنا كما في حديث أنس وغير أنس -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

فحفظ الله جلَّ في علاه في الرأس وما حوت حفظ العقل، فلا تضيع العقل بالمسكر ولا بالمخدر، يعني إن كان المسكر حرام فالمخدر حرام والمفتر حرام، المفتر كالدخان، وما أقصد بالمفتر كالأشياء الحلال كجوزة الطيب مثلاً، يعني جوزة الطيب عنّ ونجم الخلاف البعيد بين العلماء الآن "هل يجوز للإنسان أن يأكلها أو لا يجوز أن يأكلها؟"، بعض العلماء يقولون لا يجوز ويستندون إلى حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه نهى عن كل مسكر ومفتر؛ الجمبري حرام؟! السمك حرام؟! ما في أحد يأكل سمك إلّا ويحدث معه استرخاء بعد هذا الطعام فإذاً يكون حرام؟! الصحيح الراجح أن نقول إن الحديث أولاً ضعيف، والكلام كله يدور على المشكل لأنه يزول معه العقل، أمّا إذا حدث منه يكون مفتراً لكن العقل موجود فلا حرمة في ذلك.

احفظ الله في رأسك وما حوت، احفظ العقل هذا الأهم، واحفظ آلات الرأس وأهم آلات الرأس "البصر"، حفظ البصر. والله والذي نفسي بيده أنا أحكي عن الصالحين، ولا أحكي عن نفسي وما أستطيع أن أفعل شيئاً غير أن أقول اللهم اغفر لي زلاتي واحفظني من كل سوء ومن كل بصر لا يرضيك. فهذه المسألة يعاني منها الإنسان عناء ما يعلم به إلّا الله جلَّ في علاه، والصالحون صوتهم بدأ يصل إلى السماء، هم على درب والحين ساروا وقد سبقونا ونحن في غفلة ما نعلم مداها وكيف سنفوت منها إلّا برحمة الله جلَّ في علاه. فحفظ البصر أنا أتكلم فيه فقط للتعليم، وأسأل ربي جلَّ في علاه أن يجعلني ممن يحفظ بصره.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (احفظ الرأس وما حوت)، منها آلة البصر وهو أهم ما لابد أن تحفظ الله في نفسك، في بصرك، قال الله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) [النور:30]، وفي الآية الأخرى: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) [النور:31]. ففي الصحيح أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (العين تزني وزناها النظر)، نعوذ بالله من الخذلان، نعوذ بالله من غضب الله جلَّ في علاه. فالنظر سهم من أسهم الشيطان المسمومة، وليست العاقبة أو التعب أو العناء أو المعصية التي سيهلك بها الإنسان من النظر فقط، لا، المسألة كل المسألة أن النظر ممكن للإنسان بعد أن يبصر ما أبصره وينظر إلى ما نظر إليه يستغفر، لكن الإشكال أنها تطبع في القلوب لأن هذه صورة تنزل إلى هذا القلب. القلب كأنه كعبة، الكعبة لا يمكن أن ترضى بالأصنام حولها، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- أول ما فتح مكة ودخل طهر الكعبة بأسرها من الأصنام. وكلّما ينظر المرء إلى الصورة المحرمة تزرع صنماً في كعبته، تزرع صنماً في قلبه، وهذا لا يرضي الله جلَّ في علاه.

والإشكال كل الإشكال كيف ينزعها من القلب؟ يستطيع أن ينزعها من العين لأنه إذا فات المكان الذي رآها فيه انتهى الموضوع، نزعها من عينه، لكنها لا تنزع من القلب

إلّا أن ينزعها الله جلَّ في علاه، وإذا كثرت -وهذا الذي يؤلمني ويقتلني- فإنها تغطي القلب، تغطي القلب بطبقة لا يستطيع أن يفرق بين حق ولا باطل، ولا يستطيع أن يوفق ولا يسدد، ولا أن ينظر الله إليه بعين الرحمة الكاملة، لأن الله يحب القلوب الطاهرة الصافية النقية التي قد تنظفت وتطهرت من الأصنام. (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) [النور:30]، (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) [النور:31]، وفي الصحيح قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تزني وزناها النظر). فاحفظ الله في بصرك، احفظ الله فلا تنظر إلى حرام بحال من الأحوال. اللهم احفظنا من كل سوء، اللهم نقنا يا رب العالمين من كل سوء.

أيضاً من آلات الرأس التي لابد أن تحفظ "الأذن"، ألّا تسمع إلّا بما يرضي الله جلَّ في علاه؛ السماع إلى الغناء، والركون إلى الفاحش من القول والبذيء، الركون إلى الغيبة والنميمة، هذا ليس حفظ لله جلَّ في علاه في هذه الآلات، فإذاً لا تُحفظ إن فرطت في مثل هذه الآلات.

أن تحفظ الرأس وما حوت، وأن تحفظ الفم، وحفظ الفم أهم ما يُحفظ فيه هو اللسان، اللسان الذي أخذ به أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- وقال: هذا الذي أوردني المهالك. اللسان كان كالثعبان إن تركته لدغك ويمكن أن يقتلك وبل يميتك، كلمة واحدة ينزل الإنسان فيها إلى الدرك الأسفل من النار، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال له معاذ: أو مؤاخذون نحن بما نتكلم؟ قال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم إلّا حصائد ألسنتهم). واللسان حفظه حفظ من القول البذيء، من القول الفاحش، إن الله جلَّ وعلا قال: (لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ) [النساء:148]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيّن أكثر من قوله وفعله والأمر به والإرشاد: (إن الله لا يحب الفاحش البذيء)، وفي وصفه -صلى الله عليه وسلم-: ما كان صخاباً ولا كان فاحشاً ولا كان بذيئاً، بأبي هو وأمي. فالإنسان لابد أن يبعد نفسه عن البذاءة وعن الفحش في القول، وعن السوء في القول قدر ما أمكنه.

ولا إشكال فيما حدث من أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، أبو بكر هذا سيدنا وسيد آباءنا وهو خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لكن نقول تكلم بكلمة في اللغة وعند العرب فيها نوع من السوء، لأنه لمّا قال عروة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما أرى حولك إلّا أوباشاً من الناس -يقلل من شأنهم- أو أشواباً أخلاصاً -يعني سيفرون لا يترابطون- من الناس فيفرون عنك عما قريب. فقال له الأسد الذي يدافع عن نفسه وعن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال له: امصص بظر اللات، هذه مسبة عظيمة، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بجانبه ولم يقل يا أبا بكر قد تكلمت بقول فيه ما فيه من الفحش. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقبل الإشارة من عائشة عندما

قالت: تكفيك من صفية أنها كذا، قال: (لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته)، وهذا إنكار النبي -صلى الله عليه وسلم- على عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-. وأبو بكر هنا في هذا المحل يقول: امصص بظر اللات، ومع ذلك لا يشتد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-. لِمَ؟ لأن هذا من باب الاستثناء.

في أمور وفي أوقات الله جلَّ وعلا وإن كان لا يحب الفحش من القول والبذيء من القول، لكن عندما يكون انتصاراً فإن الله جلَّ في علاه لا ينكر على من فعل ذلك، والدلالة على ذلك في سورة الشعراء: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) [الشعراء:227] من بعد الظلم ما فيها شيء، وأيضاً في سورة الحج: (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ) [الحج:60]. الآية الصريحة قال الله تعالى: (لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ) [النساء:148]، وهذا الذي يحتج به لأبي بكر. وفي حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، حديث السند صحيح، صراحةً من القوة بمكان، وقد طبقه أبي؛ أبي جاءه رجل تكلم بكلام الجاهلية، فلمّا تكلم بكلام الجاهلية فقال له أبي: اعضض هنّ أبيك، فأبي طبق الحديث دون أن يكني، فحتى لا يستغرب الذين يجلسون بجانبه قال: سمعت الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من تعزّى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهنّ أبيه ولا تكنوا)، أمر ونهي؛ يعني أمر (أعضوه بهنّ أبيه)، (ولا تكنوا) نهى. الآن ما تقول أدب، هنا أدب لا يفل صاحبه، أدب تنطع هذا، كالحياء المستعار، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرح بهذا التصريح في هذا المجال. فإذاً الفاحش البذيء بعيد من الله جلَّ في علاه إلّا في مواطن قد أباح الله فيها رداً للعدوان أو رداً على من ظلم، فإن الله جلّ وعلا رضي بذلك أو أقر ذلك وأقر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أيضاً من حفظك باللسان حفظ الله في لسانك أن تمتنع عن الغيبة، الغيبة مسقطة للعدالة، وهذا باتفاق العلماء أن الغيبة من الكبائر. فمن اغتاب أحداً في مجلس فقد سقطت عدالته إلّا أن يتوب ويؤوب إلى ربه جلَّ في علاه، (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) [الحجرات:12]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- واصفاً الغيبة: (ذكرك أخاك بما يكره). كما قلنا الغيبة مسقطة للعدالة، فعلى المرء أن يتحرى لسانه في هذا الباب بالذات في عوام الناس، وأحرى ثم أحرى ثم أحرى في لحوم العلماء، فإن لحوم العلماء مسمومة وآيات الله في منتقصيهم معلومة، وكذلك طلبة العلم لأن طالب العلم هو الوزن بين العوام وبين العلماء.

لا أحد يأتي ويقول نحن نأتي ذلك ديانة، ائتي بدليل على ديانة!! أثبت أن هذا الرجل الذي تكلمت فيه يستحق أن تتكلم فيه، وأثبت أيضاً أنه قد تعدى شرع الله ثم روجع فلم يرجع، وأثبت أيضاً أنه فعل ذلك تعنتاً حتى تستطيع أن تهتك عرضه، العرض هذا عند

الله ليس بالهين. إن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- وهو يطوف بالكعبة كان يقول: إن الكعبة عظيمة شريفة، إن الله عظّمك وشرّفك، وإن حرمة دم المسلم أعظم وأشرف منكِ عند الله جلَّ وعلا. جاء حديث أقوى ما يكون: (درهم واحد ربا أشد من ست وثلاثين زنية، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم)، فما بالكم بطلبة العلم؟! فإن هذه معضلة ليست بعدها معضلة.

وعلى المرء أن يحفظ الله، فإن لم يحفظ الله في عوام الناس وقد أكل لحوم الناس في غيبتهم، فإن الله جلَّ في علاه لا يحفظه وسيتتبع عورته وسيهتك في ستره ويجعل الناس تلغ في عرضه كما كان يفعل مع الناس. وإذا ارتقى فوق ذلك ووقع في العلماء، أخشى على فتنته في الدين، وعاقبة الأمر الفتنة في الدين. بعض المحدثين لا كان يحدث ودخل ثلاثة أرادوا فقط الشين بهذا المحدث، فواحد منهم قال: أكتب عنه لقنه، فكلما يأتي بحديث يكتب له الحديث يعني يغير من الأسانيد الموجودة في الأحاديث حتى يخرج ويقول: هذا نلقنه فيتلقن، هذا رجل متروك، هذا الرجل فيه كذا، ليتكلم فيه. فالمحدث بعدما مر على نصف الأحاديث فطن، ثم قال: ردوا علي الأحاديث، فردوا عليه الأحاديث فكان يخطّئ الخطأ ويصوّب الصواب، ثم نظر للثلاثة فقال للأول: أمّا أنت فأسأل الله ألّا تموت حتى يفتنك الله في دينك، فما مات حتى فتنه الله. وأمّا الثاني كان رجلاً عالماً محدثاً حافظاً، قال له: اللهم لا تنفع بعلمه، فدعا عليه قال لا ينتفع الناس بالعلم، قال: مات وما أحد من الدنيا انتفع بعلمه بحال من الأحوال. والثالث دعا عليه بالبلاء في البدن، وقد ابتلاه في بدنه.

فإن لحوم العلماء عند الله جلَّ في علاه لها ما لها من القدر، هذا العالم يحمل الشرع ويحمل ورث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالذي يتجرأ على العالم كأن العالم بوابة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. كما قلنا معاوية بوابة الصحابة، فمن تجرأ على معاوية دخل في الصحابة كالسهم، وأيضاً العلماء بوابة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبوابة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يجعل خلفه أحد إلّا العلماء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر). فمن وقع في العلماء صغيراً كان أو كبيراً داعياً إلى الله جلَّ في علاه، فالحذر الحذر من الفتنة في الدين.

واحفظ الله جلَّ في علاه في لسانك في النميمة، أن تمشي بين الناس بالوقيعة، هذا يفسد المجتمعات ويأتي بقوائم الأمة على أصلها. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذا الفساد العظيم: (لا يدخل الجنة قتات)، ولذلك قال العلماء هذه من أكبر الكبائر، من الكبائر العظيمة عند الله هو المشي بين الناس بالوقيعة، نقل الكلام من أجل الإفساد بين

المجموعات. (لا يدخل الجنة قتات)، وفي رواية: (لا يدخل الجنة نمام). كأن سائلاً يسأل: ولِمَ؟ ما عظم هذه الكبيرة؟ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فساد ذات البين) هذا أثر النميمة أنه يوقع بين الاثنين، (فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين)، تهدم الدين من قوائمه. ما دمت قد حفظت الله جلَّ وعلا في لسانك، حفظ الله عرضك ولم يهتك هذا الستر.

احفظ الله في بطنك وما وعت؛ حفظ الله في البطن ألّا تأكل حراماً، فالجسد الذي ينبت من السحت فالنار أولى به. وقد قال الله تعالى: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) [البقرة:276]، الناس يغضون الطرف عن الربا، يحتاجون إلى فتوى صغيرة يقول هذه ممكن فيها شبهة أدخل فيها، هذا الرجل إذا تجرأ على مثل هذه المسائل التي قد أشتبه فيها أو اختلف العلماء فيها سيلج إلى الحرام سيلج إلى الحرام. علماؤنا ونحن نتعلم على أيديهم وتحت أرجلهم كانوا يعملون لنا دوائر، يقولون: هذه الدائرة العظيمة دائرة المباح، داخلها دائرة أضيق دائرة المكروه، داخلها دائرة أضيق وأقل دائرة المحرم. فمن ارتاح أخذ يرتع في دائرة المباح ويدور ويكثر من المباحات يقع في المكروه لا محالة، فإذا دار بهذه السرعة وأباح لنفسه أن يدور في دائرة المكروه وقع في المحرم لا محالة، وهذا وقعنا فيه ووقع فيه كثير من إخواننا طلبة العلم الذين يأخذون بالوسائل. فإذا أخذ المشتبهات وقع في الحرام، فمن أكل درهماً واحداً رباً فله الوعيد الشديد الذي قال به النبي -صلى الله عليه وسلم-: (درهم واحد ربا أشد من ست وثلاثين زنية)، وقد قال الله تعالى: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) [البقرة:276]، وقال الله تعالى: (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) [البقرة:279]. فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن الجسد الذي يأكل الحرام إذا رفع يديه الإنسان، كما جاءت في بعض الآثار وإن تكلم فيها بعض العلماء، أن الله جلَّ في علاه لا يقبل من داعي دعوة إلّا أن يطيب مطعمه. وشواهد كثيرة تؤكد هذا، وإن كان الحديث الذي جاء فيه ما فيه، فحفظ البطن ألّا يأكل حراماً.

وأيضاً من حفظ البطن حفظ الفرج؛ قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وتكفل الجنة لمن حفظ الله في لسانه وفي فرجه ألّا يزني، والفرج يصدق ذلك ويكذبه: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه [يعني الفرج] أضمن له الجنة)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت فيه النساء)، وقد قال الله تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ) [آل عمران:14] ... إلى آخر الآية. فحفظ الله جلَّ في علاه في البطن وما وعى بأن يحفظ الفرج، ومن حفظ فرجه وحفظ لسانه ضمن له النبي -صلى الله عليه وسلم- الجنة، وهذا من باب يحفظك الله جلَّ في علاه.

(احفظ الله يحفظك)؛ هذه الجملة الثانية جملة عظيمة جداً جليلة القدر، (احفظ الله يحفظك) هذه من باب المقابلة، كقول الله تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) [البقرة:152]، (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) [محمد:7]، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، (إن الله رفيق يحب كل رفيق ويعطي الرزق ما لا يعطي على غيره)، فهذه من باب المقابلة. ولابد أن ننظر نظرة دقيقة في مسألة المقابلة هذه؛ هل هي مقابلة استحقاق أم مقابلة منة وفضل وكرم من الله جلَّ في علاه؟

المعتزلة يقولون هذه مقابلة استحقاق، قد حفظنا الله في أسماعنا، حفظنا الله في أبصارنا، حفظنا الله في قلوبنا، حفظنا الله من الشهوات والشبهات، حفظنا الله في الحلال والحرام، فنستحق حفظ الله جلَّ في علاه لأن الله جلَّ وعلا جعلها مقدمة ونتيجة؛ (احفظ الله)، قد حفظنا الله فلابد أن يحفظك الله جلَّ في علاه. المعتزلة يقولون هذا استحقاق، والصحيح الراجح أن هذا سوء أدب مع الله جلَّ في علاه، الملك ملكه والكون كونه والخلق خلقه، يعذب العابد الصالح ولم يكن ظالماً له سبحانه وتعالى، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو أكب أهل السماوات والأرض في النار لم يكن ظالماً لهم)، سبحانه جلَّ في علاه. دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه ليبين لهم أنهم لن يدخلوا الجنة إلّا برحمة الله جلَّ في علاه، فقالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: (ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته). فهذه المقابلة ليست مقابلة استحقاق بحال من الأحوال، هذا واجب أوجبه الله على نفسه، هذا فضل ونعمة ومنة من الله جلَّ في علاه.

(احفظ الله يحفظك)؛ وحفظ الله للعبد هو الذي ينقصنا في هذه الدنيا، حفظ الله للعبد هو الذي ينجيك من هذه المهالك من هذه البليات في هذه الملمات، حفظ الله للعبد هو الذي يصل به إلى مرافقة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فالمرء في كل آن وحين وفي كل لحظة وفي كل نفس يحتاج لحفظ الله جلَّ في علاه، وأروع ما نقوله في هذا وأعظم ما يكون حفظاً من الله لعباده أن يحفظ عليك دينك، لا يفتح المجال لك أن ترتد عن دينك. إن الإنسان في ظلمة وفي جهل، لو تركه الله لنفسه لكفر في لحظة واحدة. كما في الحديث الذي في الصحيح القدسي (قال الله تعالى: يا عبادي كلكم ضال)، أنتم في ظلم وجهل، كل الناس يميل إلى الكفر والردة، ولكن الله جلَّ وعلا يحفظ من يشاء، (كلكم ضال إلّا من هديته).

فإن الحفظ أعظم الحفظ للإنسان أن يحفظ الله عليك دينك، وأن يحفظ الله عليك إيمانك، وأن يختم لك بالأعمال الصالحات، فإن الأعمال بالخواتيم. إن الله جلَّ في علاه قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]، وهذه ليست بيد الإنسان، لا يستطيع الإنسان أن يموت مسلماً بيده. إنه على فراش الموت

-كما حدث لأحمد وغيره إن صحت القصة- يأتيه الشيطان ويقول ما اتركه في هذه اللحظات يمكن أن يفتن في دينه، فيأتي يفتنه في دينه، ولا يثبت إلّا من ثبته الله جلَّ في علاه، ولا يختم بالصالحات إلّا من ختم الله له بالصالحات. ولذلك كان يبكي الثوري ويبكي إبراهيم بن أدهم، يبكي الفقهاء من السلف ليس على المعاصي، قالوا: المعاصي لا تبكينا، يبكينا ما ننتظر في الخواتيم، أخشى ألا يختم الله عليّ بالصالحات. فالمصيبة كل المصيبة في مسألة عندما يحال بينك وبين عقلك، يحال بينك وبين قلبك بما يختم لك، فالأعمال بالخواتيم.

أفضل الحفظ أن يحفظ الله عليك إسلامك، أن يحفظ الله لك إيمانك، أن يحفظ الله لك توحيدك، هذا افضل الحفظ. وقد بينه النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لا يمكن بطرفة عين أن يحفظ إلّا من قبل الله جلَّ في علاه، (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). ولك أروع الأمثلة في الكتاب لأنبياء الله جلَّ في علاه لولا حفظ الله لهم لضعفوا وهلكوا؛ هذا نوح -عليه السلام- لولا حفظ الله له وحفظه لإيمانه لهلك، إن نوح قد طلب من الله طلب الجاهلين، هذا الطلب وصفه الله أن هذا طلب الجاهلين وأنت يا نوح لست منهم، أنت أرفع من هؤلاء وأنت أعظم عندي من هؤلاء، فلا تطلب وتشاكل ما قاله الجاهلين. كأن الله يهذبه ويقول لا تقول مثل ما قال الجاهلون، لمّا قال نوح -عليه السلام-: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) [هود:45]، (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) [هود:46]، في القراءة الأخرى (عَمِلَ غَيْرَ صالح)، فبعدها قال: (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [هود:46]. أنت لست منهم، ولا بد أن نقول أنت لست منهم، أنت من أولي العزم من الرسل، أنت أعظم الخلق عند ربك جلَّ في علاه لكن لا تشاكل للجاهلين في قولهم، (إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) [هود:46-47]. فهنا نوح -عليه السلام- وفقه الله وسدده وحفظه من كل سوء، حفظه أن يقول قول الجاهلين، حفظه أن يشاكل الجاهلين في قولين، حفظه الله جل في علاه لأنه حفظ الله. حفظ الله فحفظه الله، حفظ عليه إيمانه، حفظ عليه إسلامه، حفظ عليه توحيده، حفظ عليه أدبه معه سبحانه جلَّ في علاه.

أروع من ذلك ما بين المثلين، أخذنا الأول والآخر؛ خاتم الأنبياء والمرسلين هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، سيد الخلق أجمع هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو يقول: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر). قد قال الله له جلَّ في علاه: (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) [الإسراء:74-75]. هنا الله جلَّ وعلا يقول: (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ)؛ أنت يا محمد أعظم

الخلق أجمعين، لولا حفظ الله لإيمان العبد وإسلام العبد ما حفظ بحال من الأحوال. (كلكم ضال إلّا من هديته)، التوفيق من الله جلَّ في علاه.

يوسف -عليه السلام- لِمَ لم يكد يزل؟ لأن الله قد حفظه، حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه. (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا)، القراءة التقديرية التفسيرية التي لابد أن نقول فيها (لَوْلَا) حرف امتناع الوجود، فكأن القراءة تفسيرية تقول: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، هذا الراجح الصحيح الذي لابد أن تفهم الآية به، يعني امتنع هم يوسف. لكن قول بعض يقول قد هم بها هم الحب أو هم العاطفة أو هم الدفع أو هم الإرشاد، كل هذا تفسيرات لا دليل عليها. الصحيح الراجح أن نقول من اللغة (لولا) حرف امتناع للوجود، امتنع الهم بها لوجود برهان الله جلَّ في علاه، قال: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِ)، قال الله تعالى ليبين لك حفظه ليوسف نبي من أنبياء الله جلَّ في علاه: (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) [يوسف:24]، حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه، الجزاء من جنس العمل.

إبراهيم -عليه السلام- خشي على نفسه الكفر، وخشي على أولاده الكفر، وخشي على نفسه عبادة الأصنام وهو أبو الأنبياء، لكنه لمّا حفظ الله حفظه الله. (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) [إبراهيم:35-36]، وفي الآية الأخرى قال: (قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) [البقرة:124]، حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه.

يحفظ عليك إيمانك، يحفظ عليك إسلامك، يحفظ عليك توحيدك، يختم لك بالصالحات وهذا أهم ما يصبو إليه المرء، أهم ما يروم إليه المرء هو أن يختم الله له بالصالحات، أن يحفظ عليه هذا الإسلام، لأن الخلود في النار منوط بالكفر والابتعاد عن الإسلام، والخلود في الجنة منوط بالتمسك بالإسلام. (احفظ الله يحفظك)؛ فإن حفظت الله جلَّ في علا في توحيده حفظك وختم لك بالصالحات. احفظ الله بأوامره وحدوده، في النواهي يحفظك الله جلَّ وعلا من كل سوء في بدنك وفي مالك وفي أهلك وفي رزقك وفي ولدك وفي زوجك وفي كل من تحب، إن حفظت ربك جلَّ في علاه يحفظك الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى مبيناً حفظه لعباده في الأرزاق والأقوات وكل شيء: (لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ) [الرعد:11].

يمكن أن يحفظ الله دين العبد بحجب الدنيا عنه، لأن القاعدة عند العلماء: إعطاء الدنيا أو حجب الدنيا ليست علامة على الكرامة ولا علامة على الغضب ولا السخط، لكن الأفضل والأخير ما اختاره الله لنبيه. ترى أثرى الأثرياء وأغنى الأغنياء لا تقول إن هذه كرامة من الله على العبد، أو ترى أفقر الناس الذي لا يجد طعاماً ولا شراباً لا تقول إن هذا سخط من الله أو غضب من الله. الدنيا ليست علامة، وأيضاً سحب الدنيا ليست

علامة على السخط، والعكس بالعكس، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات:13]. فهنا الله جلَّ وعلا يمكن أن يحجب عن الإنسان الدنيا من أجل دينه، وهذه جاءت جلية في بعض الآثار في الطبراني بسند ضعيف لكن الشواهد تقوي هذا المعنى: (إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر ولو أغنيته لفسد حاله)، يعني فسد إيمانه وضاع، وأنا أريده للآخرة ما أريد له الدنيا. (إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر وإن أغنيته فسد حاله، وإن من عبادي من لا يصلحه إلّا الغنى ولو أفقرته لفسد حاله)، انظر إلى لطف الله ورحمة الله بالعبد، (وإن من عبادي من لا يصلحه إلّا السقم ولو أعطيته الصحة لفسد حاله، وإن من عبادي من ينفعه إلّا الصحة ولو أمرضته لفسد حاله)، فهذه فيها دلالة واضحة على أن الله جلَّ وعلا يحجب الدنيا ويحجب الصحة عن الإنسان حتى يحفظ عليه دينه.

قال ابن مسعود: إن الرجل ليعقد الصفقة [يعني من المال]، فينظر الله إليه فيأمر ملائكته أن يحجبوا ذلك عنه. هو يحسب أن هذا هلاك وبلية من الله، وهذه نجاة من الله جلَّ في علاه، فيقول الله للملائكة: لو يسرتها عليه لفسد دينه، ولو فسد دينه لذهب إلى النار والعياذ بالله، والله يريده للجنة، فهذا من فضل الله على العبد. ولذلك ابن جرير الطبري بسنده إلى ابن عباس روى في تفسير قول الله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) [الأنفال:24]؛ قال: يحول بين المرء وبين معصيته، أراد المرء بشدة وذهب مسرعاً يهرول إلى المعصية فيصد الله عليه الباب ويقطع عنه وسائل الشر ووسائل المعصية، لأنه يريد حفظ دينه. أمّا العبد المبغوض عند الله جلَّ في علاه، المطرود من رحمة الله، كل أبواب المعصية تفتح له على مصرعيها، لكن أبواب الطاعة حتى لو باجتهاد وجد يذهب إليها يصد عنها ولا يمكن أن يذهب إليها، وكل أبواب المعصية مفتوحة من مال وجاه ونساء وغير نساء، تفتح له لأن الله قد أبعده عنه. قال الحسن البصري عندما قيل له في أهل المعاصي، قال: هانوا على الله فعصوه، لأنه هين على ربه لا يساوي شيئاً فالله جلَّ وعلا فتح له الباب ليعصيه حتى يأتي يوم القيامة إلى نار تلظى، قال: هانوا على الله فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم. فقد يحجب الله الدنيا والصحة والمال والجاه والسلطان عن العبد حفظاً لدينه.

قال: (احفظ الله يحفظك)، فإن حفظت الله في توحيدك وفي إسلامك وفي إيمانك، حفظ الله عليك أعمالك وختم لك بالصالحات، أيضاً يحفظك الله جلَّ وعلا في المال والأهل والولد والزوجة. فإن الله جلَّ وعلا قال: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [الرعد:11]؛ قال ابن عباس: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) له ملائكة (يَحْفَظُونَهُ) من كل الشرور ومن كل سوء، من كل المهالك، يحفظونه بأمر الله. الله أمر الملائكة أن يكونوا حفظاً لك، يحوطونك بكل حفظ ورعاية إلّا إذا قدّر الله شيء، خلوا بينها وبين القدر. وهذا جاء عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- بتفصيل أكثر من هذا

الإجمال قال: إن لكل مكلف ملكين يحفظانه من كل سوء إلّا مما قدره الله جلَّ في علاه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين القدر. وقال مجاهد: لكل عبد ملك يحفظه ويحوطه من كل الهوام والجن والإنس، كلما يأتي شيء يدفع نفسه عليك ليهلكك الله يحفظك، وأنت تنام على سريرك وترى ذلك، الهوام ممكن أن تقتلك، من الذي يحفظك؟ هو الله جلَّ في علاه. فالملك إلّا أن يعلم أن هذا قدر فيخلي بينك وبين القدر، وهذا مصداق لبعض الآثار والإسرائيليات؛ إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، أرزق ويُشكر سواي، خيري للعباد نازل وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعائم ويتبغضون إليّ بالمعاصي وأنا أكلأهم على فروشهم.

إن الله جلَّ وعلا هو الذي يكلأ المرء على فرشه، وقد جاء بها صريحاً في كتابه: (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ) [الأنبياء:42]، استنكاري: أنتم تقرون أن الذي يحفظكم على فرشكم هو الله جلَّ في علاه فكيف تعبدون غير الله جلَّ في علاه؟! إذا حفظ العبد ربه جلَّ في علاه حفظه الله جلَّ في علاه، وحفظه في ماله كما قلت، وحفظه في ولده، بل وحفظه في جسده. كما سنضرب أروع الأمثلة التي ضربها الله لنا في كتابه وضربها لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته، والسلف الصالح يبينون لنا أن العبد يعامل بما عمل به ربه. إن أردت أن تعرف أين مقامك فانظر أين أقامك، إن أردت أن تعلم مقامك عند ربك فانظر مقام ربك من قلبك، هذا الذي لابد أن تنظر إليه. الجزاء من جنس العمل، المقابلة؛ كان رجلاً كبيراً عجوزاً شاخ سنه وضعف عظمه، وكان يمشي مع بعض الشباب، الشباب فيهم الخفة والقوة، فمروا على مخاضة [مخاضة بركة]، فلابد هذه المخاضة يخوضونها، فالشباب ما استطاعوا أن يثب منهم وثبة يصل إلى الضفة الثانية، قام هذا العجوز فوثب وثبة شديدة حتى بلغ المنتهى، فنظروا له باندهاش وعجب، فسألوه عن ذلك فقال: هذه جوارح حفظنا الله فيها في الصغر فحفظها الله لنا في الكبر.

الله جلَّ في علاه يبين لنا أن حفظ الله وحده يحفظ الله به الذرية ويحفظ به الرزق والمال، الله تعالى بعد ما بين لنا أن المدينة بأسرها أرادوا هدم الجدار وأراد الله إقامة الجدار وهذه لوامع القدر أيضاً، اجتمعت الأمة بأسرها على هدم الجدار وأرادوا استئجار موسى والخضر. القدر يأتي هنا؛ أبى الله وأمر الخضر أن يقيم هذا الجدار لأن تحت الجدار كنزاً ليتيمين. لماذا يحفظ اليتيمين مع أن المدينة اجتمعت كلمتهم على هذا الجدار؟ لأن الصلاح قد وقف حائلاً بينهم وبين هذا الكنز، قال الله تعالى: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) [الكهف:82]، قال الله جلَّ وعلا في العلة قبلها: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا). فمن أراد حفظ أولاده فعليه بالصلاح، فمن أراد حفظ رزق أولاده فعليه بالصلاح، لا بالمال ولا بالجاه ولا بالسلطان، بالصلاح. قال الله

تعالى: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)؛ هي علة متقدمة، (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ). (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) [النساء:9].

فمن حفظ الله جلَّ في علاه حفظ الله ولده، ولذلك كان سعيد بن المسيب بعد قراءة هذه الآية يقول لابنه: والله إني لأزيد في صلاتي من أجلك؛ أزيد في تقواي أزيد في عملي الصالح لأن الله يحفظك بعملي هذا. ولذلك قال ابن المنكدر وغير ابن المنكدر: إن الله يحفظ الولد بصلاح الأب؛ بل يحفظ الولد وولد الولد وولد الولد إلى أربعين دويرة حتى الجيران يحفظهم الله بالصلاح. ولذلك كان علماؤنا يقول: تخير الجار قبل أن تتخير الدار، إن تخيرت صالحاً من الصلحاء الفضلاء يكون جاراً لك فهذه بركة ليست بعدها بركة، لعل الله جلَّ وعلا يشفّعه فيك، لعل الله جلَّ في علاه يصلح أو يحفظ عليك رزقك وولدك بصلاح الجار الذي بين يديك. ولذلك كان ابن المسيب يقول: إني لأزيد في صلاتي من أجلك؛ من أجل ولده، فهذه الزيادة زيادة الصلاح وزيادة التقوى تحفظ الأولاد.

(احفظ الله يحفظك)؛ أعجب من ذلك وأفضل من ذلك وأروع من ذلك أن نضربه مثلاً بأن الله جلَّ وعلا جنّد حتى الجمادات لحفظ الإنسان، إذا حفظ الله صنع الله للذي يحفظه ما لم يصنع لغيره، كرامات من الله جلَّ في علاه. أقول إن الله جلَّ في علاه يجنّد السماء والأرض للذي يحفظه وللذي يتقيه وللذي يكون ولياً لله جلَّ في علاه؛ هذا سفينة مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان في صحبة ثم تاه وضاع منهم فلم يعرف مكانهم، انظر حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه، جند الله له أسداً هو الذي يدل على مكان هؤلاء. ناداه باسمه أو قال: أيها الليث إني سفينة مولى رسول الله، ما إن سمع الأسد هذا القول وهو مولى رسول الله. جند الله له أسداً لا يعقل من العجماوات، ومع ذلك عقل عنه، قال: إني سفينة ألا تعرفني؟ إني سفينة مولى رسول الله، قد غبت عن صحبتي، فأخذه فأوصله إلى هذه الصحبة.

أعجب من ذلك؛ قد حفظ الله الهدهد من القتل لأنه حفظ الله، وهذا هو العجب اللطيف التي تخرج بها من كل هذا، الهدهد ليس مكلفاً لكنه لمّا حفظ توحيد الله جلَّ في علاه حفظه الله من العقاب الأليم "القتل"، تعرفون كيف؟ أما قال سليمان كما وصف الله لنا: (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ) [سبإ:20-24]. انظر الهدهد يحفظ توحيد الله جلَّ في علاه، الهدهد يحفظ قدر الله جلَّ في علاه، الهدهد يغار على دين الله، فما بالنا العجماوات

يغارون على دين الله جلَّ في علاه ولا نغار على ديننا؟ العجماوات يحفظون حدود الله جلَّ في علاه، ولا يحفظ أحد منا حدود الله. الفضيحة ليست بعدها فضيحة، يوم القيامة إن الله جل وعلا لو قارن بيننا وبين الهدهد لكنا تحت رجله، الله المستعان. يغفر الله لنا من التعدي والتجرؤ على حدود الله جلَّ في علاه. فالهدهد لمّا حفظ حدود الله جلَّ في علاه، لمّا حفظ توحيد الله عافاه الله من العقاب، لأن سليمان جزم وكان عازما أن يقتله، (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأْذْبَحَنَّهُ)، فعافاه الله ونجاه الله لأنه حفظ توحيد الله جلَّ في علاه، أبى أن يرضى بأن يسجدوا للشمس من دون الله، والله هو الذي يخرج الخبأ من السماوات ومن الأراضين.

ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن يحفظ الله فيحفظه الله جلَّ في علاه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.